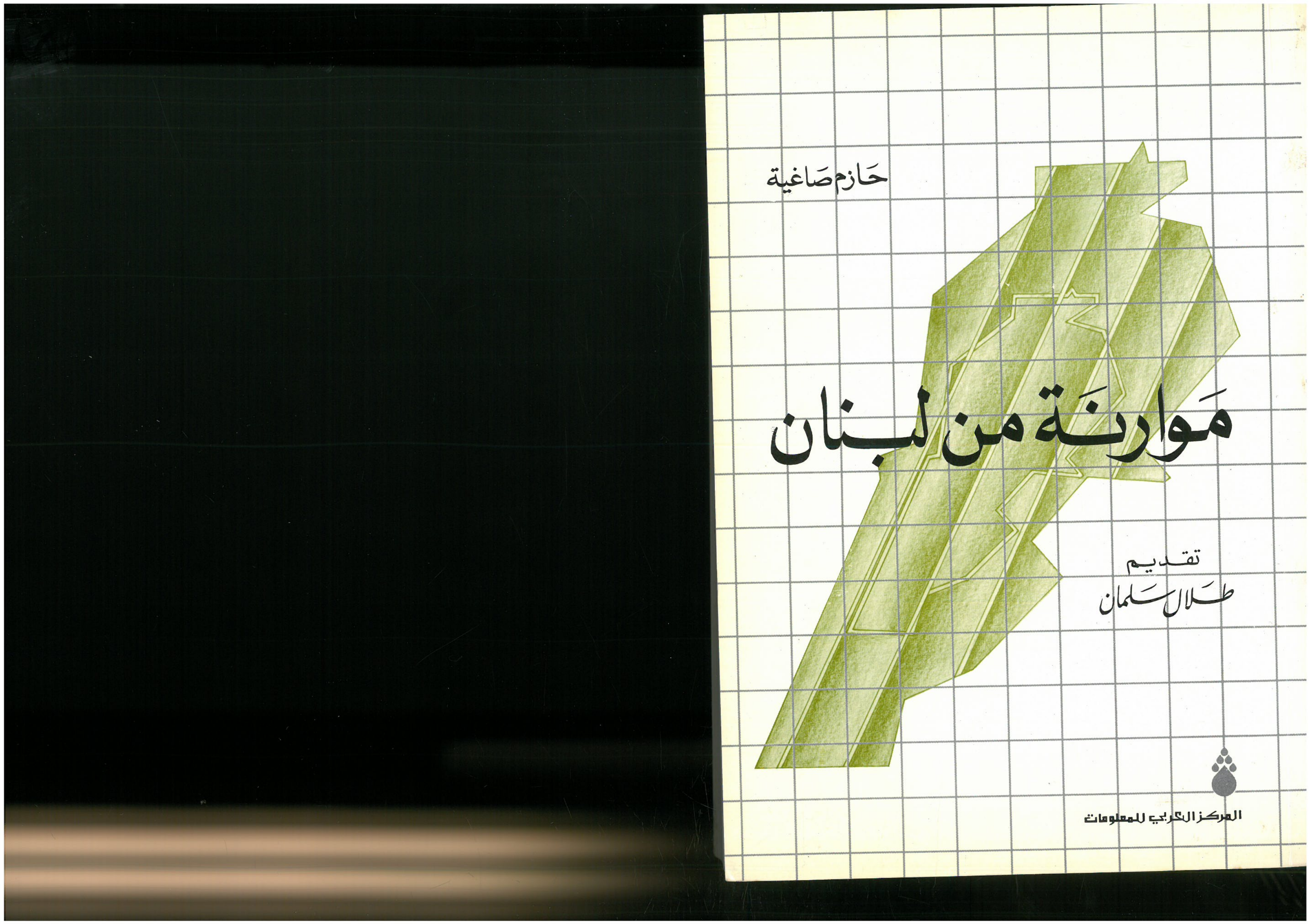

حَازم صَاغية
مَوارِنَة من لبنان
تقديم
طلال سلمان
المركز العربي للمعلومات

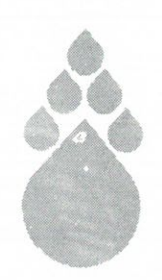
حَازم صَاغية



مَوارنَة من لبنان

تقديم:
طَلال سلمان

المركز العربي للمعلومات



المركز العربي للمعلومات (ش. م. م)
هاتف ٨٠١١٨٣ ـ ٨٦١٨٠٦ ـ ٨٦١٨٠٩ ص. ب تلكس LE 21484
بيروت لبنان

الطبعة الاولى: تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٨

شارك في اعداد هذا الكتاب

مهى نعمة. حسن السبع.

الاخراج الفني

جهاد صفاوي

التصحيح

حسن العبد الله

طبع في ارابيا ش. م. ل
بيروت ـ لبنان ـ هاتف ٣٤٦٩٠٥ ـ ٨٠٢٥٢٠

نشرت هذه الموضوعات في جريدة « السفير » خلال الفترة الممتدة بين حزيران (يونيو) وايلول (سبتمبر) ١٩٨٨ وهي عمليا الفترة التي شهدت حمى الترشيح لمنصب رئاسة الجمهورية اللبنانية وهو المقرر « عرفا » لماروني لبناني.

لم يسبق ان شهد لبنان تصارعا على الرئاسة كما هذه المرة، إذ فاق عدد المرشحين الموارنة لها عدد اعضاء المجلس النيابي البالغ ٩٩ نائبا، وإذ تحدد موعد جلسة الانتخاب في ١٨ آب (اغسطس) ١٩٨٨ في مبنى المجلس النيابي (قصر منصور) الواقع بين شطري بيروت، ظهر الانقسام الحاصل في لبنان ، فقد حضر الى المجلس ٣٨ نائبا وتغيب ٣٨ ولم يتم الانتخاب.

ويوم ٢٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٨ دعي النواب لانتخاب الرئيس العتيد في المبنى الاساسي للمجلس النيابي في ساحة النجمة الواقع في وسط بيروت الى الجهة الغربية. . ولكن الانتخاب لم يتم ايضا.

هدفت هذه الموضوعات الى التعريف باهم الشخصيات المارونية التي اعلنت ترشيحها لمنصب الرئاسة او التي اعلنت رغبتها فيه او التي دفعت اليه او التي هدفت كسب الاهتمام الاعلامي فقط او التي لم تمانع في ان يرشحها الاخرون.

وتكتسب هذه الموضوعات المستخلصة من مقابلات شخصية ومن معلومات منقولة عن رواة معاصرين وكتب مرجعية وكتب مذكرات، تكتسب اهميتها كونها استطاعت تقديم صورة واضحة تماما عن العقل الماروني وحدود اهتماماته.

وغني عن القول، ان هذه الموضوعات (الكتاب) لم تتقصد التفضيل لشخصية على اخرى، كما وانها لم تتقصد تهميش او تغييب شخصيات قد تكون في دائرة النخبة المارونية.

وفي هذا المجال فان التصنيف الذي اعتمد في الكتاب، اي ترتيب الشخصيات، انما ارتكز على الانتماء الجغرافي للشخصية بدءاً من شمال لبنان ونزولا حتى جنوبه بحيث يتيح هذا الترتيب، فهما اوضح للشخصيات من حيث ترابطها وعلاقاتها وامتداداتها المتداخلة عائليا وتاريخياً ومناطقياً.

هذا الترابط سيتيح للقارىء ان يكتشف مدى التداخل العائلي ـ السياسي لاعضاء نادي رؤساء الجمهورية وللمرشحين منهم لهذا المنصب وللسياسيين الذين هم على الطريق ، اي بمعنى اخر سيتمكن القارىء من مراقبة وتفهم كيفية توزع خيوط شبكة امراء السياسة في لبنان داخل الطائفة المارونية.

ومن ناحية ثانية فان للقارىء ان يكتشف من خلال هذا الكتاب ابعاد الشخصيات المحكى عنها، من هم؟ من اين جاؤ وا؟ الى اين ينوون ان يأخذوا لبنان؟ كيف يفهمون الوطن؟ وكيف يتفهمون الظروف الاقليمية؟ ما هي حدود ثقافتهم؟ ما هي قناعاتهم؟ الخ.

ومن دون استباق للنتائج، يكفي الاشارة الى ان الاختلافات الشديدة الوضوح في ما بين هذه الشخصيات من حيث المفاهيم السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية ربما كانت الدافع الاساسي وراء ذلك الدفق الهائل في عدد المرشحين الموارنة لمنصب رئاسة الجمهورية اللبنانية.

ولذلك وجه اخر، ربما يمكن استنتاجه وهو يؤ كد النظرية القائلة بان الموارنة في لبنان طائفة تنتحر او هي في طريقها الى الانتحار على طريقة هدم الهيكل على الجميع استنادا الى المقولة المارونية « ما لنا لنا، وما لكم لنا ولكم » فان كان غير ذلك فلبنان « ليس لكم » حتى وان لم يعد « ليس لنا ».

هو اذن، كتاب عن « العقل الماروني » ونظرته الى لبنان، ويبقى السؤال: إن كان لبنان قد انشىء للموارنة في الشرق (وليس للمسيحيين عموما) فما هو مبرر بقاء الموارنة في حال تفتت لبنان وضياعه؟

الناشر

عن الرئاسة والرؤساء من ١٩٤٣ وحتى ١٩٨٨

بقلم
طلال سلمان

معركة رئاسة الجمهورية تطل في واحد من وجوهها على تاريخنا اللبناني الكامل. تحركه، تستنطقه، تستفزه، فكيف حين تندمج معركة كهذه بسنوات حرب مديدة تحرك وتستنطق وتستفز؟ لهذا يصعب في الكلام عليها، كما في الكلام على اي حدث ـ منعطف، ان لا يأتي القول حاراً، ملتاعاً، ملتهباً. فهو في جانب منه خطاب مع النفس وحساب للنفس في آن معاً. وهو في جانبه الآخر دعوة الى الحوار وحض عليه، والحوار دائما مع آخر مختلف.

وحدة الحدث تجعل الدعوة حادة، والخوف على المصير والمستقبل يجعل الصراحة واجبة فيما اعصابنا كلنا مشدودة متأهبة.

وبهذا المعنى، فما نقوله هنا نريده مدخلا لحوار يؤدي تضافر اطرافه وآرائه الى بلورة مصير اقرب الى ما يشتهيه اللبنانيون جميعا. والحكمة الصينية تقول: ليقل كل منا كل ما في نفسه حتى نجلس، وحين نجلس نبتسم.

حتى من قبل ان تنفجر « الحرب الابدية » في ١٣ نيسان ١٩٧٥، كان لبنان يعيش وباستمرار جو حرب اهلية مضمرة تتخذ شكلها المعلن مع اقتراب الموعد الملعون لانتخابات رئاسة الجمهورية، مع ان هذا الموعد كان يمكن جعله محطة دستورية وديموقراطية عظيمة.

فمرة كل ست سنوات، ومنذ ١٩٤٣ وحتى اليوم، كان لبنان يجد نفسه على حافة حرب اهلية مدمرة يعود بعض اسبابها المباشرة الى الموقع الممتاز والمتميز لرئيس الجمهورية في الحياة السياسية اللبنانية.

قبل الاستقلال، وفي ظل الانتداب الفرنسي، كانت رحى الحرب تدور في ما بين الطوائف المسيحية، وبالتحديد بين الموارنة والارثوذكس، اي بين الطائفة المسيحية الاكثر عددا في لبنان والطائفة المسيحية الاكثر عددا في الشرق... واحتاج الامر الى بعض الوقت قبل ان تحسم لمصلحة الموارنة.

بعد الاستقلال، وفي ظل الصراع المفتوح بين كل القوى الدولية والعربية على الارض

اللبنانية، صارت للحرب طبيعة اخرى: فهي في بعض جوانبها حرب نفوذ ومصالح وتراتب داخل الموارنة، ثم هي في جانبها الاخر بينها وبين سائر الطوائف، الى ان اوصلت الى شكلها الاخير وكأنها حرب بين الموارنة ومعهم سائر المسيحيين وبين المسلمين في لبنان،

بالطبع كان لقيام اسرائيل على ارض فلسطين العربية وعلى حساب شعبها، دور حاسم في دمغ النظام اللبناني بالطائفية، وفي تسعير اوار الحرب على مواقع السلطة والنفوذ وتحوير طبيعتها لتبدو اقرب ما تكون الى صورة الحرب الدينية او الحرب الطائفية،

على ان العلة كانت تكمن في مبررات نشوء الكيانات المشرقية بعد التجزئة، ومنها الكيان اللبناني نفسه، التي غلب فيها ما هو طائفي على ما هو سياسي .

فلقد طمس جوهر صراع المصالح بين القوى الدولية على الارض العربية، ومنها لبنان، واعطي تسميات مزورة وغير امينة، تسيء الى الامة العربية وتاريخها، وبالتالي الى شعب لبنان، وتزكي الاجنبي بوصفه حامي حمى الحريات والمكافح من اجل حقوق الاقليات (العرقية والدينية والطائفية والمذهبية) وانقاذها من براثن الاكثرية الطاغية والمتعصبة والجاحدة لفضل المنتمين الى عقيدة غير عقيدتها.

بطبيعة الحال، وعلى مدى سنوات متعاقبة كانت هناك مقدمات متفاوتة قد شقت طريقها الى تاريخ الشرق. ومن ثقوب هذا التفاوت الذي انتجته عوامل متعددة، اقتصادية وثقافية وتعليمية، تسلل النفوذ الغريب الذي لا يرتاح الى قوة المنطقة وتضامن ابنائها.

وهكذا وقعت الطوائف في شرك اللعبة التي لم يرد اصحابها الخير لاي من هذه الطوائف. وعلى هذا الجذع نمت الحساسيات والعقد.

وببساطة شديدة اعتبر التركي (العثماني) وكأنه تلخيص للتاريخ السابق كله وامتداد له، فصار هو « العرب » جميعا، وصار هو الاسلام بعينه، واسقط ظلمه ـ هو المستعمر ـ على ضحاياه الاخرين، وفي الطليعة منهم العرب، وبينهم بطبيعة الحال اللبنانيون.

وبالبساطة ذاتها. صار الفرنسي او البريطاني او الطلياني او النمساوي او الروسي القيصري، وكأنه « محرر » وداعية لاقرار حقوق الانسان، واسقطت عنه صفة المستعمر والطامع، واعتبر معقد الرجاء... في حين هذا المستعمر الجديد كان اخبث وامكر، واختار لدخوله الى المسرح السياسي في المنطقة مدخلا يؤذي ابناءها باكثر ما يؤذي المستعمر القديم: فهو قد تعاطى مع الشعب الواحد كطوائف ومذاهب، فاسبغ حمايته على المسيحيين تاركا المسلمين لمصيرهم مع المستعمر المسلم!

هكذا ضيعت طبيعة الصراع مع المستعمر والمحتل، فلم تعد وطنية وقومية كما يجب ان تكون، وكما هي في جوهرها فعليا، وحرم الشعب من شرف نضاله لتوكيد هويته الاصلية، وعمقت

اسباب الانقسام بين الناس بتجديد منطق الحروب الصليبية، وزرعت البذور لفتن ستثور مستقبلا في المنطقة لتمنعها من بناء ذاتها ولتبقيها مقرا للاستعمار وممرا الى ما يحيط بها من امم وشعوب شقيقة وصديقة.

ضمن هذا المناخ المشحون باسباب الفتنة، حيث يتقاسم المستعمرون والطامعون فئات الشعب وطوائفه المتعددة، اقيمت المتصرفية العام ١٨٦٤، اثر مسلسل من الفتن كانت بصمات الطامعين واضحة عليها جميعا بقدر وضوح البصمات العثمانية.

وبعد سقوط الامبراطورية العثمانية، وفي ضوء النتائج التي انتهت اليها الحرب العالمية الاولى، اعيد انتاج صيغة المتصرفية في لبنان، بالمبررات الطائفية ذاتها ومن اجل خدمة الاغراض الاستعمارية اياها، مع استيعاب لمقتضيات الصراع على النفوذ بين بريطانيا وفرنسا، ومع ترك هامش مناسب من الفراغ للمشروع الصهيوني باقامة كيانه السياسي على ارض فلسطين.

فليس بالمصادفة وحدها ان وعد بلفور قد اعطي لليهود عشية اعلان الفرنسيين اقامة دولة لبنان الكبير على ارض المتصرفية السابقة مضافا اليها « بعض » سوريا، بينما كانت تفبرك دولة اخرى (امارة شرقي الاردن) على بعض آخر من سوريا التي ادخر لما تبقى منها مشروع تقسيمي نتفها بين اربع دويلات.

* * *

الدولة ـ الطائفة؟

ليس القصد ان تتحول هذه العجالة الى بحث في التاريخ، لكن هذه الاشارات السريعة كانت ضرورية للاضاءة على جذور المسألة الطائفية في لبنان، هذه المسألة التي وجدت بعض تجلياتها السياسية الحادة في الكيان اللبناني، ومن ثم وكنتيجة في نظامه السياسي الفريد.

فلبنان هو، في التكوين السياسي الراهن، كيان، مبرر وجوده في المصالح السياسية وليس في التاريخ او في الجغرافيا او في المصالح الذاتية لشعبه،

هو « وطن للاقليات »، كما يقولون،

وهو « دولة للمسيحيين » في الشرق يرعاها ويحميها الغرب المسيحي من خطر، اجتياح الاكثرية الاسلامية التي تحيط بها (مع اسقاط حقيقة ان اللبنانيين هم عرب مثلهم مثل ابناء هذا المحيط، وهذا يغلب ما هو طائفي، وبالتالي انقسامي، على ما هو وطني او قومي؛ وبالتالي توحيدي)،

ولانه كيان اريد له ان يبقى بمبررات طائفية، فان هذه المبررات قد فرضت وما زالت تفرض منطقها على صياغة النظام السياسي.

ولان « الرئيس » يختزل بشخصه هذه المبررات جميعا فلا بد ان يكون الطائفي فيه هو حبة العقد بين المصالح والاغراض المستفيدة من وجود الكيان ومن ثم النظام.

في ضوء هذا كله يصير مفهوما كيف تتم عملية الدمج القسرية بين الكيان وبين النظام وبين النظام وبين الطائفة الممتازة عبر موقع رئاسة الجمهورية، ثم عبر شخص الرئيس!

فرئيس الجمهورية يحمي الموقع الممتاز لطائفة بالذات، داخل نظام طائفي بالضرورة، في كيان محكوم بالرعاية او بالحماية الاجنبية حتما، كامتداد للمنطق الاستعماري القائل ان الغرب هو مصدر الحماية للاقليات المسيحية في الشرق المسلم!

ومن اسف ان هذا المنطق قد ساد، اكثر ما ساد، حتى صار عرفا هو اقوى من القانون، في ظل اعلان الاستقلال وسقوط الانتداب الفرنسي في خريف ١٩٤٣.

فقبل الاستقلال رأس الفرنسيون مسيحيين من غير الموارنة،

بل هم قد تساهلوا فجعلوا رجلا يعتبر نفسه ملحدا، ان كان مسيحيا بالمولد، رئيسا على « وطن الاقليات » هذا،

في المقابل فما زال ريمون اده وسائر الاديين يتباهون حتى اليوم بانهم رشحوا، مرة، شيخا مسلما لرئاسة الجمهورية اللبنانية، هو الشيخ محمد الجسر، وانه كاد ينجح لو ان الفرنسيين حالوا دون ذلك في اللحظة الاخيرة.

الميثاق الوطني وما بعد..

بعد الاستقلال، تم تحصين الكيان اللبناني بما اتفق على تسميته بالميثاق الوطني، و« الميثاق الوطني »، الذي يعتبره الناس عموما ابتكارا صلحيا، هو « توافق » سياسي غير مكتوب (لانه ما كان يمكن ان يكتب، فمبتدعه يعرف انه يصلح قاعدة لتسوية مؤقتة اكثر مما يصلح اساسا لحل وطني لمعضلة قومية تكمن في جذورها اخطر موروثات الحقبة الاستعمارية).

هذا « الميثاق الوطني » الذي يصير في بعض اللحظات صنماً مقدساً لا يجوز المس به، ويهون من شأنه في حالات اخرى فيعتبر مجرد تحالف تكتيكي مؤقت بين قطبين سياسيين هما الرئيسان الراحلان بشارة الخوري ورياض الصلح، اعطي في ما بعد من المضامين والأبعاد اكثر مما تحتمل اية صيغة توافقية مؤقتة.

فلقد اعتبره البعض اقراراً طوعياً من المسلمين بالكيان اللبناني كوطن نهائي، اي اقراراً بانسلاخ لبنان ـ مرة والى الأبد ـ عن محيطه العربي (والاسلامي!!) مقابل تنازل المسيحيين عن الحماية الغربية (والفرنسية تحديداً).

واعتبره البعض الآخر اقراراً بتراتبية ابدية بين المسيحيين وبين المسلمين، على قاعدة

« السقيفة » الشهيرة في تاريخ فجر الاسلام: منا امير ومنكم وزير!!. وهذا مؤداه ان تكون الرئاسة في لبنان قطاعاً مسيحياً، بل مارونياً على وجه التحديد، لا تجوز المناقشة فيه لا في الحال ولا في الاستقبال. مقابل ان تكون رئاسة الحكومة للمسلمين (السنة) واستطراداً: ان تكون رئاسة المجلس النيابي للمسلمين الشيعة.

وبغض النظر عن هوية المنظرين لعبقرية الابتكار في « الميثاق الوطني »، وعن حماسة المنتفعين به والمصرين على تكريسه نصاً، فان مثل هذه التفسيرات تتضمن اساءة بالغة الى وطنية اللبنانيين والى انتمائهم القومي.

صحيح ان لبنان « كيان سياسي » اكثر منه وطناً بالمعنى المعروف والمألوف للكلمة، لكن الصحيح ايضا ان اللبنانيين ومعهم سائر العرب، بدءاً بسوريا وانتهاء باليمن، قد ارتضوه موطناً وسلموا بقيام دولة ذات سيادة على أرضه المحددة بين الناقورة والنهر الكبير، وسلموا ضمناً بان ينال المسيحيون فيه من الضمانات ما يزيل خوفهم « التاريخي » لتتأكد من ثم هويتهم القومية وليس لكي يحتكروا السلطة ويتحولوا الى مضطهدين لأخوتهم في الوطن والتاريخ والمصير،

فلبنان قرار عربي بقدر ما هو قرار دولي،

ولبنان هو قرار من المسلمين فيه بقدر (وربما بأكثر) ما هو قرار من ابنائه المسيحيين،

ولم يكن خروج الفرنسيين (وقد خرجوا منه مضطرين ومرغمين) رشوة مسيحية للمسلمين،

ولقد يكون مفيداً، هنا، ان نستذكر القول الشهير المحفوظ للكاتب الصحافي جورج نقاش في « ان نفيين او سلبين لا يصنعان امة »، اي ان وحدة لبنان تحتاج الى ما هو اكثر من ان يقول المسيحيون « لا » للارتباط بفرنسا، مقابل ان يقول المسلمون « لا » للارتباط بسوريا وسائر العرب.

لكن الاستذكار يفرض تحفظاً فورياً: فالتسليم بقيام الكيان لا يستتبع بالحكم الاقرار بهذا النظام الفريد، ولا بهذه الصيغة العجيبة في توزيع مقاعد او مواقع السلطة توزيعاً يجعل معظم السلطة في يد فئة واحدة تاركة لسائر الفئات (الطوائف) ان تقتتل في ما بينها على مراتب مواطني الدرجة الثانية والثالثة.

ان مثل هذا النظام يعيد انتاج نظام الطوائف المضطهدة والمحتاجة الى حماية خارجية.

فالطائفة الممتازة تفرض على سائر الطوائف ان تستشعر بالدونية، خصوصاً وهي تطاردها دائماً بلعنة نقص الولاء للبنان.

ومثل هذا النظام يلغي المواطن، فطالما ان هناك اصحاب حق الهي، ثابت ودائم، في الرئاسات عموماً، فان سائر البشر لا يمكن ان يكونوا الا اتباعاً او رعايا.

ومثل هذا النظام يلغي « الشعب » و « الرأي العام » وحقوق التعبير عموماً من المعارضة الى الاعتراض الى توكيد الذات وصولاً الى حلم التغيير، ومطلب التطوير باسم التقدم وروح العصر.

فاذا تقلص النظام فصار رجلا مطعوناً في نزاهته او في قدراته او في حكمته او في التزامه قواعد الحق والانصاف والعدالة، فان « الثورة » تصبح حتمية، لان « الرئيس » يضع البلاد في طريق مسدود ويكون الانفجار هو المخرج الوحيد من المأزق. . . ولو انه لا يحسم المعضلة الكامنة في النظام الذي يرى نفسه الضمانة الشرعية الوحيدة للكيان!

* * *

رئيس الدولة ام الطائفة

لنخرج من التعميم الى التخصيص، ولنسرد جملة من الوقائع التي ما زالت طرية في اذهان الناس، والتي توضح كيف ان الحرب الاهلية ستظل قدراً مفروضاً على اللبنانيين طالما استمر هذا الربط الملتبس (والمقصود) بين الكيان وبين النظام وبين الطائفة الممتازة وبين شخص رئيس « شعب الله المختار » الرقم واحد في لبنان (باعتبار ان كل طائفة باتت تعتبر نفسها، الآن، شعب الله المختار، في نظر نفسها على الأقل) . . .

●● جرت معركة الرئاسة الاولى في العهد الاستقلالي سنة ١٩٤٣، وسط اجواء حرب اهلية « مارونية » الى حد كبير، شكلت مراكز اقطابها « الكتلة الدستورية » بقيادة بشارة الخوري و « الكتلة الوطنية » بقيادة اميل اده.

وليس سرا ان العوامل الخارجية (بريطانيا اساسا) هي التي حسمت هذه المعركة لمصلحة بشارة الخوري، فلم يتورع اميل اده عن اكمال الحرب حتى مع وعيه بكل الضرر الذي يمكن ان يصيب لبنان في دولته وفي استقلاله الوليد، فرضي ان تعيد الحراب الفرنسية تنصيبه رئيسا بينما كان الرئيس المنتخب ومعه معظم حكومته الشرعية معتقلين في قلعة راشيا.

ولولا ان وضع فرنسا انذاك كان يعجزها عن المكابرة لكانت استعرت نيران حرب اهلية فعلية في لبنان من السهل ان تلبس اللبوس الطائفي، مع انها في جوهرها حرب بين الفرنسيين وبين البريطانيين بواجهات تنتمي جميعها الى الطائفة ذاتها.

هذا من غير ان ننسى ان رجلا ثالثا كان متربصا ليقنص نتائج العراك الدستوري - الكتلوي، هو كميل شمعون، الذي نام ليلة الانتخاب رئيسا ثم صحا على تبدل في الموقف

البريطاني اودى بحلمه الشخصي في الرئاسة، وان كان لم يحرمه جوائز الترضية التي انهالت عليه (الوزارة فالسفارة وفي لندن بالذات) التي اهلته لوراثة بشارة الخوري بعد اقل من عشر سنوات.

جرت معركة الرئاسة الثانية في العام ١٩٤٩ وكان بشارة الخوري قد أعدَّ العدة ليضمن عبرها التجديد لنفسه مقدما على سابقة تزوير فاضحة في الانتخابات النيابية قدمت نموذجا فاقعا على قدرة الرئيس « الممتاز » على تشويه صورة « النظام الجمهوري ـ الديموقراطي ـ البرلماني » ومسخه ضاربا عرض الحائط بارادة اللبنانيين، بمن فيهم ابناء الطائفة المارونية.

فالشخص الملخص للنظام وللكيان معا، والمتسنم سدة الرئاسة بوصفه صاحب حق شبه الهي محفوظ للطائفة الممتازة، يمكنه ان يفترض في لحظة من اللحظات انه اهم من النظام واهم من الكيان ذاته باعتباره ضمانته !!

وهكذا تتدرج المسألة فنقع في الاستبداد الرئاسي الذي يجافي الديموقراطية البرلمانية!

على ان الصورة سرعان ما انقلبت رأسا على عقب بعد اقل من ثلاث سنوات على التجديد لبشارة الخوري.. فلقد تمكنت حركة المعارضة (الشعبية) بالاستناد الى مستجدات احدثت تغييرات حاسمة في خريطة القوى الدولية المؤثرة في المنطقة (ابرزها دخول الاميركيين الى المسرح) من اسقاط بشارة الخوري وحمل منافسه القديم كميل شمعون الى سدة السلطة في « العهد الجديد ».

طبعا من السذاجة في ظل وضع طريف وفريد كالوضع اللبناني (حتى لا نستخدم تعبير النظام مرة اخرى) ان يتساءل احد: وكيف يقود دستوري عريق مثل شمعون معركة اسقاط دستوري عريق آخر. بل ورئيس الكتلة الدستورية، والاغلبية النيابية وبالتحالف مع الكتلويين (ال اده) واصدقائهم من التقدميين الاشتراكيين (كمال جنبلاط)؟ ! ثم كيف.

الرئاسة والعمل السياسي

●● هذه الواقعة لن تجد تفسيرها الصحيح الا في المعركة التي لم تتأخر كثيراً عن التفجر في وجه كميل شمعون حين حاول ـ هو الآخر ـ ومن موقع الرئاسة ان يجدد لنفسه، مستبقا بدوره معركة الرئاسة بتعديل عجيب لقانون الانتخاب، مكن للطائفية ان تتحول عبره الى مؤسسة « ديموقراطية » فصارت كل طائفة (تقريبا) تنتخب نوابها، ودائما تحت وصاية الرئيس وباشرافه الشخصي.

لقد تبدت محاولة لتكريس قاعدة طائفية اخرى مضمونها: ان الطائفة هي التي تقرر هل يبقى الرئيس ام يرحل، وليس عموم اللبنانيين، فاذا جاءت المعارضة من داخل الطائفة (كما مع بشارة الخوري) فليس عليه الا ان ينصاع لارادتها ـ اما اذا جاءت من خارجها فعليه ان يقاوم وان

يصمد حتى.. لا يهتز النظام وتتصدع اسس الكيان.

بهذا تكرس تغييب المواطن ومن ثم الشعب او الرأي العام، وتم تعطيل العمل السياسي، الذي سيصبح اكثر فاكثر حكرا على الاصرح طائفية او الأقدر على التعبير عن تطلعات الطائفة وحماية كرامتها!! والكرامة هنا تعني مصالح اصحاب المصالح من اثرياء الطائفة ووجهائها، وهم ـ في ما بينهم ـ ابناء طائفة واحدة حرفتها الاتجار بعواطف الناس وغرائزهم وابعادهم عن ميدان النضال الحقيقي من اجل التطوير والتغيير بفرض الانقسام الطائفي عليهم ودفعهم الى الاقتتال العبثي تحت رايات متعددة الألوان ربما لتعمي عيونهم عن الحقيقة الواحدة التي يفترض ان تجمعهم وتوحد صفهم في مواجهة خصوم مستقبل الوطن وناسه.

●● في اي حال فان المعركة الثالثة لرئاسة جمهورية دولة الاستقلال قد جرت في ظل حرب اهلية فعلية، وان طغى الشعار الخارجي على شعارات الاصلاح الداخلي فيها، واعطى « لصمود كميل شمعون في موقعه حتى اليوم الاخير لولايته معنى آخر ما تبقى من مسافة بين « الرئاسة » كموقع سياسي متقدم وبين العمل السياسي.

صار شخص الرئيس مقدساً، وصارت مدة الرئاسة حقا للطائفة، وصارت المعارضة السياسية « خيانة عظمى » تبرر للرئيس الاستنجاد بالجيوش الاجنبية، خصوصا اذا ما اعجزه قمعه بقوى الشرعية من جيش وقوى امن!

بل ان كميل شمعون قد زرع النواة التي ستطرح في المستقبل ثمراً مسموماً: فهو قد لجأ الى الرديف الطائفي للجيش، فاقام تنظيما عسكرياً اسماه « الانصار » شكله من الكتائب وفقراء المسيحيين ليقاتل حماية لحصانة الطائفة وتساميها على حق « المواطنين » الآخرين في نقدها او في الاعتراض على ممارسات رمزها الذي اعطي ما لا يعطى للبطريرك الماروني ذاته او حتى لقداسة البابا، من صفات العصمة!

... وتتزايد ثقل المقدسات على كاهل اللبناني: فاضافة الى الكيان صار النظام السياسي مقدساً، وبالطبع صارت الطائفة الممتازة مقدسة، وصار « الرئيس » بوصفه ممثلا لها ومعبرا عنها مقدسا هو الآخر.

وفي مثل هذه الحالة لك ان تسأل ماذا يتبقى اذاً من « الجمهورية » ومن « الديموقراطية والبرلمانية » ثم من اساطير المساواة والعدالة والانصاف ورفع الغبن والحرمان عن المغبونين والمحرومين.

هل تراه خطأ ان يؤرخ بالمحطات الرئاسية بوصفها بداية تحول الخائف الى مخيف، سرعان ما يكتسب مواصفات الطاغية، ليصبح شرعيا ـ من بعد ومع وصول النسخة الفجة منه، اي

الكتائبي الى السلطة ـ اتهام الطائفية بالهيمنة (برغم ان نسبة عالية جداً من ابنائها ما تزال في اعداد المحرومين ؟)!!

الطائفة تدمر الدولة . . .

●● مع فؤاد شهاب وفي ظل حكمه جرت المحاولة الاكثر جدية لادخال الطائفة في الدولة، بدل ان تظل الدولة اسيرة الطائفة. فمحاولة بناء « دولة الاستقلال » كان لا يمكن لها ان ترى النور الا اذا سيست الطائفة، مع التسليم بموقع الصدارة لواحد من ابنائها.

وتسييس الطائفة يقتضي بالضرورة فكها بحسب مصالح الذين تصادف انهم ولدوا يسبقهم انتماؤهم اليها بالذات،

فالطائفة، اية طائفة، ليست طابورا موحد العقول والعواطف والمصالح والانتماءات الفكرية، بوسعها ان تتغلب على فكرة الامة فتهزمها، وفكرة الوطن فتلغيها، وحق التعبير المباشر عن الذات، فتدمره تدميرا.

وكل محاولة لتصوير الطائفة وكأنها « وحدة صلبة » لا يمكن ان تتم الا على حساب فكرة الوطن، ومن ثم على حساب مشروع الدولة، وكم هو معبر ان يتصاعد الخطر على الدولة مع الشروع ببنائها، فاذا اول محاولة قمع جدية لتوجهات فؤاد شهاب تجري في الايام الاولى لعهده، واثر تشكيله الحكومة الاولى التي اسقطتها « الثورة المضادة » بقيادة حزب الكتائب وبسياسة قطع الطرقات وقرع اجراس الكنائس واحراق الدواليب!

●● محاولة القمع هذه قدر لها ان تتخذ صورتها الكاملة في النصف الاخير من عهد وريث فؤاد شهاب، الرئيس شارل حلو، وعبر قيام « الحلف الثلاثي » الذي شكل اعلان سقوط مشروع الدولة في لبنان اذا هي تابعت مسيرتها خارج قبضة الطائفة وامرائها.

ولم تكن مصادفة ان يتلاقى الاصدقاء، الالداء في قيادة الحلف الثلاثي : كميل شمعون (الدستوري، سابقا على الاقل) وريمون اده (الكتلوي) وبيار الجميل (الكتائبي الذي قدم نفسه عبر حزبه وكأنه وريث الحزبيتين الجبليتين السابقتين، والذي حاول في فترة اخرى ان يتماهى مع الشهابية فغنم من خيراتها ما لم يغنمه احد، ثم قلب لها ظهر المجن، واعتبر اقامة الدولة بمثابة تهديد جدي لمستقبل الموارنة السياسي بل ووجودهم في لبنان. . . والشرق !).

كذلك لم تكن مصادفة ان يعطي هذا الحلف لنفسه شعار مناصرة الديموقراطية في وجه طغيان العسكر، برغم انه حصر سلفا « الحلف » في اطار الطائفة وحدها. فالديموقراطية من حق الاكثر طائفية داخل الطائفة ذاتها، والملتحقين بهم، وليست مشاعا او حقا متاحا للجميع. . ثم من هم « الجميع »، فاذا كانت الرئاسة (ومن ثم السياسة) شأنا داخلياً من شؤون الطائفة، فما علاقة الآخرين به؟!.

وكان طبيعيا والحالة هذه ان تتكرس القاعدة ، ولو ضمنيا اول الامر، لدى الطوائف الاخرى، فيصبح من حق « السنة » كطائفة اختيار رئيس الوزارة، ومن حق الشيعة كطائفة اختيار رئيس مجلس النواب وهلمجرا، من قبل كانت القاعدة المعلنة عكسية، فلقد كان العرف السائد ان يختار المسلمون رئيس الجمهورية وان يختار المسيحيون رئيس الحكومة كوصفة بلدية لعلاج الطائفية وتغليب مشاعر الوحدة الوطنية، او بتعبير آخر لتغليب منطق الاعتدال في الطوائف جميعا.

وثمة من يتهم رئيس الجمهورية آنذاك، شارل حلو، بانه كان عراب « الحلف الثلاثي » الذي سبق قيامه دخول الكفاح المسلح الفلسطيني الى لبنان بعام واحد (١٩٦٨)، والذي يؤرخ البعض بقيامه للحرب الاهلية في لبنان التي انفجرت مع بدايات ١٩٧٥ تاركة قيادة كل من العسكريين المتواجهين فيها لهؤلاء الذين شقوا طريقهم الى المسرح السياسي في اعقاب هزيمة ١٩٦٧ مباشرة.

وفي الوقائع، وبينها ما رواه الشيخ امين الجميل شخصياً، ان تأسيس الميليشيا الكتائبية كجسم عسكري مقاتل قد بدأ فعليا في العام ذاته، اي ١٩٦٨.

الفلسطيني في دولة منقسمة . .

●● كان وصول الرئيس سليمان فرنجية الى الحكم تكريسا لانقسام البلاد بين اتجاهين اساسيين لكل منهما شعاره السياسي ، لكن المضمون الفعلي المختزن طائفي تماما.

ويروي الرئيس صائب سلام، الآن، وفي اوساط ضيقة، بعض وقائع ما يسميه تجربته المرة في الحكم مع فرنجية.

ومع ان صائب سلام، وهو من رموز الاعتدال، يقول انه حقق انجازا ضخماً عبر « حكومة الشباب » التي رفعت الشعار الشهير « الثورة من فوق »، الا ان هذه المحاولة البائسة يمكن ان يؤرخ بها بوصفها آخر المحاولات اليائسة لانقاذ فكرة الدولة.

على ان النهاية المأساوية للتجربة، والمتمثلة بخروج صائب سلام مهزوماً في معركة المطالبة باقالة قائد الجيش (اسكندر غانم)، اثر العملية الاسرائيلية، في بيروت والتي اودت بحياة ثلاثة من قادة المقاومة الفلسطينية (ابو يوسف النجار، كمال عدوان وكمال ناصر)، فتحت الباب على مصراعيه امام رياح الحرب الاهلية التي كانت تختمر هنا وهناك والتي كانت تنتظر فقط « الشرارة » التي لم تلبث ان جاءت مع حادث « البوسطة » في عين الرمانة بعد سنتين تماما من افتراق رفيقي المعارضة ثم الحكم سليمان فرنجية وصائب سلام.

ويمكن ان يقال الكثير في الدور الذي لعبه العنصر الفلسطيني قبل ١٩٧٥ وبعدها، في

تأجيج الصراع الداخلي اللبناني، اذ اعطى لطرفي الصراع « قضية » تفيدهما في تمويه اغراضهما الحقيقية... وهكذا تسنى للكتائب مثلا ان تستنفر والى الحد الاقصى مشاعر الخوف لدى المسيحيين بحيث تم التوحيد الكامل بين الدولة ومؤسساتها (لا سيما الجيش) وبين الطائفة، في حين تسنى « للحركة الوطنية » ان تحشد المسلمين تحت راية قومية لها موقعها السامي في نفوسهم، بينما رفع شعار الاصلاح السياسي للنظام ومن ثم الغاء الطائفية السياسية.

كذلك تمكن الملاحظة انه ما من مرة رفع شعار الغاء الطائفية السياسية الا وكانت البلاد كلها ممزقة داخل اتون الصراعات السياسية المموهة بشعارات طائفية، كما ان رافعي هذ الشعار كانوا، في الغالب الاعم، رموزا لم تقتحم الصفوف فتتقدمها الا لانها ركبت موجات طائفية صاعدة.

الرئيس الممتاز... عربيا!

عهد الرئيس الراحل الياس سركيس كان محاولة متأخرة لاعادة صياغة التسوية السياسية في البلاد على القاعدة الطائفية الاصلية ذاتها، مع استيعاب لدروس التجارب السابقة، لا سيما الشهابية منها ثم رد الفعل عليها متمثلا في « الحلف الثلاثي » فوصول عدو الشهابية الرقم واحد سليمان فرنجية الى سدة الرئاسة.

كان العنصر العربي عموما قد بات، الان، عنصراً داخليا، ليس فقط من خلال وجود المقاومة الفلسطينية المسلحة في لبنان، ودورها المؤثر والفاعل فيه، بل ايضا من خلال ان وقف الحرب قد تم بقرار عربي اتخذته قمة الرياض السداسية، وكرسته قمة القاهرة الشاملة، ثم وجد تعبيره المباشر بتشكيل قوة ردع عربية من ثلاثين الف جندي وضعت بامرة رئيس الجمهورية في لبنان، لتطمين الخائفين بان العرب لا يريدون تعديل صيغة الحكم في لبنان ومواقع السلطة فيه، وهم لا يحمون موقعه فحسب، بل ويزودونه بالقوة اللازمة لضبط « الاخرين » حيث تقتضي مصلحة النظام الفريد ان يكونوا.

لكن هذا التطمين لم يقدر له ان يعمر طويلا، فبعد سنة واحدة، كانت التطورات العربية، وابرزها اقدام انور السادات على « كسر الحاجز النفسي » بزيارة القدس المحتلة وعقد مفاوضات مباشرة مع العدو الاسرائيلي، تفرض تبدلا في الخطط والسياسات،

عاد العنصر الفلسطيني فاستعاد الكثير من الدور الذي كان له قبل دخول قوات الردع العربية، مسقطا اتفاق شتورة الشهير،

ومن ثم عادت الكتائب الى استنفار معسكرها لمواجهة « الوجود السوري » الذي تحول في نظرها من « منقذ » الى « محتل » في مدى سنة ونصف السنة فقط، وبدأت الصدامات المسلحة التي انتهت بخروج القوات السورية من المناطق الشرقية من بيروت التي استعادت وبسرعة صورة

« الغيتو » المقفل على من فيه بحجة الخوف من « الاجتياح العربي »، سواء اكان سوريا ام فلسطينيا ام مشتركا، وسواء اكان مباشرا ام تسترا بلافتات من الشطر الاخر من لبنان.

وفي مناخ الاستقطاب الطائفي الحاد الذي فرض منطقه على جانبي ساحة البرج، بدأ صعود بشير الجميل رمزا فتيا لتوحد الكيان ـ النظام ـ الطائفة والحكم في رجل واحد، كانت الكيانية قد وجدت فرصة التعبير عن نفسها خارج لبنان ايضا، في ظل الهزائم التي مني بها العرب وعجزهم عن مواجهة عدوهم الصهيوني،

بل ان الكيانية صارت هي السائدة في معظم ارجاء الوطن العربي، وكرد فعل فقد غدا الفلسطينيون عموما، وهم الذين كانوا طليعة في الحركة القومية وقاعدة شعبية عريضة لها، طليعة للكيانيين الذين يريدون انتزاع قرارهم الوطني المستقل من العرب، اولا، تمهيدا لان يقرروا مصيرهم بالكيفية التي يرونها مناسبة مع عدوهم ومحتل ارضهم الاسرائيلي.

وفي ظل الكيانية صارت الطائفية مبررة، بل هي صارت قاعدة التعامل بين اللبنانيين الذين نمت « الكتائبية » داخل طوائفهم جميعا، وان ظلت تفتقد صيغة سياسية للتعبير عن نفسها.

الاجتياح... رئيسا!

●● على ان ذلك كله لم يكن كافيا لوصول الكتائب الى سدة السلطة، وهكذا فقد كان ضروريا ان يجيء الاجتياح الاسرائيلي مع بداية حزيران ١٩٨٢، ليصبح وصول بشير الجميل ممكنا، ومن ثم ليكون بالامكان تصور امين الجميل رئيسا لجمهورية لبنان.

غير ان التشبع بالطائفية كان لا بد ان يؤدي الى نقيضها تماماً، خصوصا وانها التهمت مصالح الطائفة نفسها وهددت فعليا موقعها الممتاز على رأس النظام اللبناني.

واذا كان من غير الضروري استعادة مسلسل الحروب التي فجرتها سياسة العهد « الكتائبي »، باعتبارها ما زالت طرية في الاذهان ولم يمر عليها الزمن، فمن المفيد الاشارة الى ان هذا العهد بالذات، وبسبب منجزاته جميعا، قد فرض حتى على عتاة « المارونية السياسية » بمن فيهم امين بيار الجميل نفسه، ان يقبلوا مبدأ المناقشة في الغاء الطائفية السياسية. من دون ان ننسى ان المسيحيين، وخصوصا في الجبل، كانوا ابرز ضحايا النهج الاحادي المتسرع.

لقد اعترف رؤساء الجمهورية المتعاقبون بضرورة الاصلاح السياسي، اي بضرورة اعادة صياغة التسوية الطائفية التي تشكل مرتكز النظام (الطائفي حكما) والكيان اللبناني،

لكن هؤلاء كانوا يعترفون في لحظتين محددتين لا يمتلكون فيهما القدرة على اتخاذ القرار او على تنفيذه: الاولى عند اعلان الترشيح للمنصب الفخم، والثانية قبيل تركه لخلف يفضلون ان يتركوا له عبء المواجهة الصعبة مع غرائز « شعب الله المختار »!

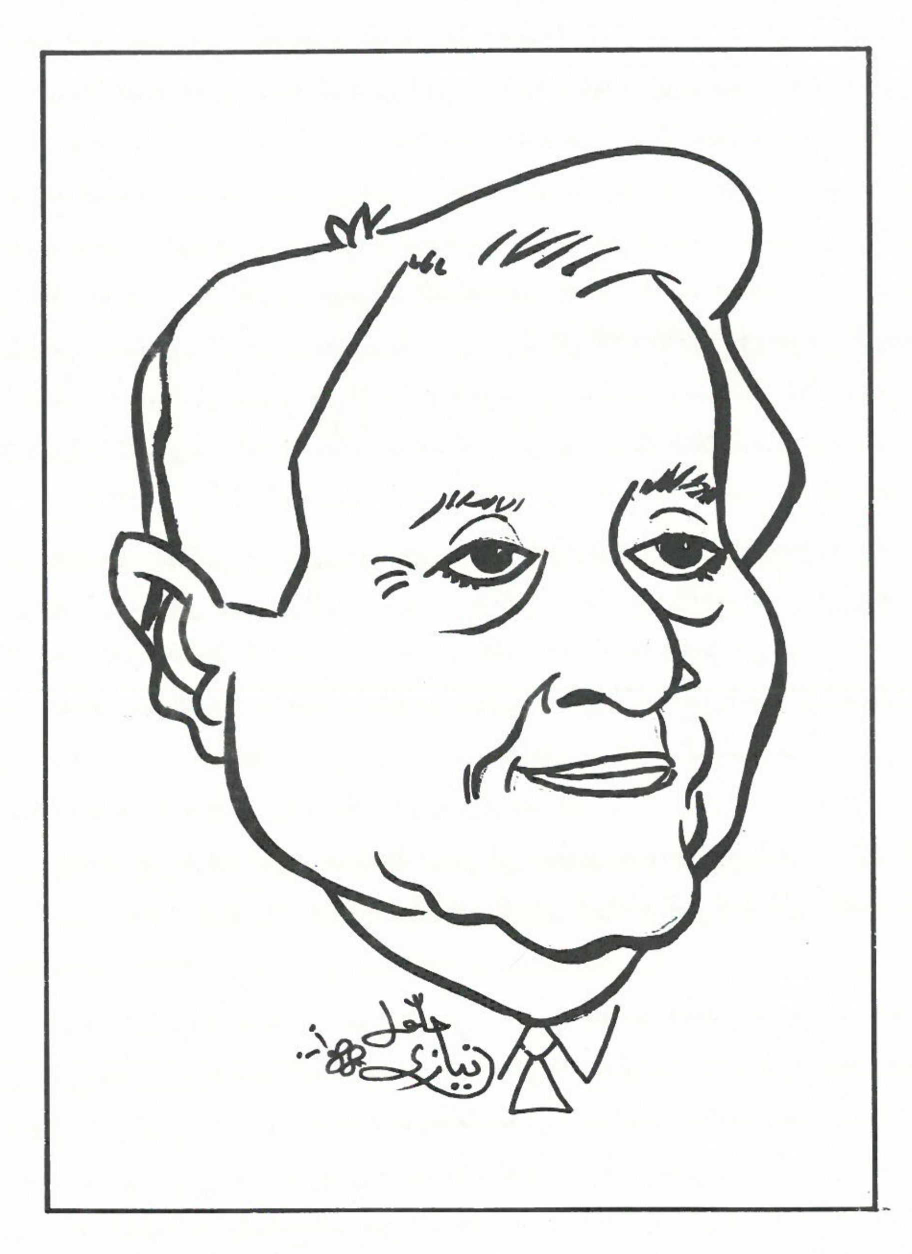
ونحن نفترض ان ابسط المواصفات المطلوبة في الرئيس الجديد والضرورية لنجاحه هي بالضبط تلك التي ثبت انها لا تتوافر في الرئيس الحالي،

فالمطلوب رئيس يؤمن بلبنان واحدا موحدا، عربي الانتماء والمصير،

والمطلوب رئيس يرى اهل لبنان شعبا لا رعايا يتوزعون على طوائف ممتازة وطوائف عادية وطوائف « ترسو ».

والمطلوب رئيس يؤمن بالديموقراطية ويكرس جهده لحمايتها، ففي غياب الديموقراطية تنمو الطوائف وتتحول الى مسوخ ضارية تلتهم اول ما تلتهم الدولة والمواطن، ثم سرعان ما تلتهم مصالح « رعاياها » ذاتهم، وهذه هي تجربة الميليشيات المسلحة تؤكد هذه الحقيقة بالنزف الدموي المتصل وهذه المرة عبر الاقتتال الوحشي داخل كل طائفة على حدة.

وما نرجوه ان نكون، عبر هذا الكتاب، الذي اعده بجهد متميز الزميل حازم صاغية، بالتعاون مع زملاء آخرين، قد اسهمنا في اضاءة شمعة في هذا الليل الحالك، لعلها تزيد في فرصة اختيار الاصلح والانفع للناس.



مخايل الضاهر

في ١٩٥٧ جلس مخايل الضاهر الشاب على منصة « الندوة اللبنانية » والقى محاضرة بعنوان « شاب امام السياسة ». المحاضرة كانت شهادة مضادة تماماً للمعادلات التي تحكم الحياة السياسية في قضاء عكار والدور المركزي الذي يحتله « البيك » فيها. فبعد تمجيد انشائي لـ « العقل » وعمله القويم، تم التوقف مطولا عند احد « عوائق » الانتخابات الحرة: ذلك ان « المرشح الشاب » يجد انه « ليس من سبيل للنجاح ما لم يتفق مع زعماء المنطقة، وليس الاتفاق معهم بالصعب اذ انهم لا يشترطون في المرشح ضمانات اخلاقية او كفاءات علمية او غير ذلك، بل فقط دفع مبلغ من المال ». ويضيف الضاهر ان الحرية « امست ضحية هؤلاء الزعماء الاقطاعيين يستثمرون الشعب ويمتصون دماءه ويسوقونه الى اقلام الاقتراع في جو من الارهاب والتهديد »، وصولاً الى التشكي من ان « اكثرية قوية من الشعب ما زالت تقيم للألقاب وزناً، فلا يمكنها ان تتصور مثلاً انه بالامكان انتخاب نائب من غير العائلة الفلانية »، وبنبرة مساواتية على تخوم الانقلاب يهزأ الضاهر من ان يدخل اللقب « في تركيب كل شخص، في كينونته، في عقله وتبصره ». ويرى المحاضر في نقد ضمني للنائب العكاري « انها لمشاهد مضحكة تلك التي نرى فيها النائب ينتقل من وزارة الى اخرى، ومن دائرة الى دائرة يجر وراءه سرباً من الزلم يتقدمهم بكل فخر واعتزاز فيدخل كالمنتصر ليدك حصون القوانين والانظمة ويجعل من الباطل حقاً ومن الحق باطلاً» .وبعد التذمر من انعدام الرقابة على النائب وتقصير الاشتراع في الحياة النيابية والدعوة الى انصاف المناطق المتخلفة، يحض على الدخول الفاعل الى الحياة السياسية من قبل « رجال الصحافة والمحاماة والطب والاقتصاد والتربية والهندسة ».

ولا يفوت القارىء المدقق ان يلحظ المعاني التي ينطوي عليها الكلام الوارد اعلاه. ففي جبة الانشاء العام الذي تسوده. دعوة حقوقية على كثير من البراءة، تقيم ازمة مخايل الضاهر ابن منطقة عكار المختلطة.

فعكار تنقسم الى نصفين مسلم ومسيحي. وبدوره ينقسم نصفها المسيحي الى نصفين ارثوذكسي وماروني، بما يجعل القضاء منذ ١٩٥٧ يتمثل باربعة نواب، اثنين عن المسلمين السنة وماروني وارثوذكسي. لكن زعامة عكار تعود تقليدياً الى احد افراد العائلة المرعبية السنية ذات الاصل الكردي، والتي وليت عليها في « عهد الالتزام » وبعد ان انقضى زمن المشايخ الحماديين فيها. وهذا التقليد حدا بالطامح السياسي لأن يحاول ادخال تعديل ما على معادلة الزعامة وقوامها ملكية الارض الكبيرة. ولا يستطيع اي كان ان ينافس البكوات المراعبة في هذا الميدان، وهم الذين يجمعون الى الارث الزعامي ملكيات ارض واسعة في سهل عكار وجردها ووسطها. والتعديل يبدأ بطرح البدائل الحديثة طريقاً الى الزعامة، والتوكيد في المقابل على العلم والكفاءة والخدمات.

ومخايل الضاهر ليس، في هذا المعنى، حالة شاذة. فبعد الدراسة الابتدائية والثانوية في معهد الفرير في طرابلس، درس المحاماة، المهنة الاثيرة لشبان الطبقة الوسطى الطامحين. وهو اراد ان يكون محامياً جنائياً مستوفياً شروط المهنة بما يفضي الى استيفاء شروط النجاح. وهكذا حاول ان يمتلك عدة الشغل كلها:

تخرج من الجامعة اليسوعية حاملاً اجازتين في الحقوق الفرنسية واللبنانية. وفي اليسوعية ايضاً نال شهادتي علوم عليا في الحقين الخاص والعام. ونال اجازة في الفلسفة وعلم الاجتماع من معهد المعلمين العالي في الجامعة اللبنانية، وكذلك شهادة الكفاءة في الفلسفة. وهو يقول انه حضر لاحقاً اطروحة دكتوراه، لكنها احترقت في حرب السنتين في مكتبة في شارع رياض الصلح.

تجميع اوراق النجاح

في ١٩٥٥ انتقل مخايل الضاهر الى التدرج في مكتب السياسي الراحل حميد فرنجية، القطب الابرز بين موارنة الشمال يومها. والصلة بحميد فرنجية، ومن ثم بشقيقه سليمان، هي عند موارنة الشمال واحد من الشروط المتممة للتصدر السياسي. وفي ١٩٦٤ اسس مكتباً خاصاً به للمحاماة، من رياض الصلح كما سبقت الاشارة، الى الروشة عند بداية الحرب، فالاشرفية منذ سنوات قليلة.

ومخايل الضاهر، الشاطر فعلاً، لم يبدد اياً من الفرص التي اتيحت له. ففي ١٩٥٧ دافع عن سليمان فرنجية في احداث مزيارة بما اضفى الحرارة على صلة قائمة. ومن دون ان يتعاطف مع السوريين القوميين، تولى الدفاع عن الضابط المتهم فؤاد عوض، الذي تربطه به صلة قرابة من جهة الأم. وكان بارعاً في دفاعه يومذاك. واستمر لاحقاً على منوال السعي وراء الدعاوى التي تحدث الضجيج، الى جانب تأديته الخدمات لجمهوره العكاري. فكان محامي الرئيس كميل شمعون في ١٩٦٨ بعيد تعرضه لمحاولة اغتيال، ومحامي الوزير السابق غسان تويني حين سجن في عهد فرنجية، وكان الضاهر قد انتقل الى معارضة « صاحب المكتب »، والمثل الانكليزي الشهير يقول: ليس في السياسة صداقات دائمة بل مصالح دائمة. ومنذ ١٩٧٢ بدأت تتوطد علاقة مخايل الضاهر بالمليونير العكاري عصام فارس الذي دعم بقوة لائحة سليمان العلي في انتخابات ذاك العام، وكان الضاهر احد اعضائها. وقبل سنوات قليلة، اقترن بكارين جوزيف رزق الله الارثوذكسية البيروتية، حفيدة جرجي بك رزق الله احد وجهاء بيروت وكبار تجارها في زمنه. والصالون البيروتي ارثوذكسي أولاً وأساساً. ومن كارين، خريجة الايكول دي لوفر بباريس في علم الآثار، انجب مخايل الضاهر مخايل (الصغير) والبير.

اهتم سليمان العلي الذي كان احد اشرس المعارضين للشهابية بالمحامي الشاب لا سيما بعد دفاعه عن فؤاد عوض، وكانت الشكوك قد حامت حول تورط العلي بالمحاولة الانقلابية،

خصوصاً وقد ذكر بعض القوميين، لاحقاً، انهم كانوا ينوون تكليفه بتشكيل الحكومة في ما لو نجح الانقلاب.

فالقطب المرعبي الذي فاز في انتخابات ١٩٦٠ على رأس لائحة ضمت ضابطاً متقاعداً من اصدقاء شهاب هو الراحل رشدي فخر، حتى عرفت اللائحة بـ « لائحة فخر »، شرع بعيد انتقاله الى المعارضة يبحث عن ماروني آخر. ومخايل الضاهر ابن السادسة والثلاثين في العام ١٩٦٤ فيه كل المواصفات المطلوبة.

فهو محام شاب جريء وخطيب له خدمات وتجمعه صلة ما بآل فرنجية، ودفاعه عن السوريين القوميين قدمه كمشروع معارض ماهر. وهو ابن عائلة تعاطت السياسة المحلية في قريتي القبيات وعندقت، والاولى اكبر قرى قضاء عكار والثانية احدى قراه الكبيرة. فوالده انطونيوس الضاهر ملاك زراعي متوسط، لكن جده مخايل، الذي حمل الحفيد اسمه، كان يتولى ادارة شؤون عائلته التي هي احدى اكبر عائلات القبيات، وربطته صلة صداقة ببعض بكوات المراعبة. ومخايل افندي الجد هو شقيق الشهيد عبدالله الضاهر الذي اعدمه جمال باشا في ١٩١٦. الاول تفرع عنه مخايل كما رأينا، والثاني كان حفيده الشيخ ميشال الذي ناب عن عكار في برلمان ١٩٥٧، وحين برز مخايل كان ميشال هو من يقف في وجهه في العائلة والقرية والقضاء. ومن علامات التنافس توطيد الصلة بآل فرنجية في مقابل العلاقة التي ربطت ميشال بالرئيس شمعون. وقبل ميشال ومخايل حاول الدكتور حبيب الضاهر ان يخوض الميدان الانتخابي يوم كانت المحافظة دائرة واحدة، الا ان الحظ لم يحالفه.

ووالدة مخايل اديل مسعود الخوري من عندقت، وعائلة الخوري احدى اكبر العائلات في قريتها، وشقيق اديل، هاني مسعود الخوري، احد وجهاء القرية. ومن يستطيع الحصول على نصف اصوات القبيات وعندقت يضمن ثلث اصوات الموارنة العكاريين. وربما افاد مخايل من عنصر عائلي آخر هو ان بيته ليس غريباً عن العالم المهجري. فأخوه واخته مهاجران الى فنزويلا التي سبقهما اليها عمه.

القبيات وعندقت

عندما تقدم مخايل للحلبة السياسية قال مؤيدوه ان الشيخ ميشال لا يمثل اهل القبيات لانه غير متعلم. اما « المحامي » مخايل فهو البطل النموذجي. والراهن ان قريتي القبيات وعندقت ذهبتا خطوة ابعد من سائر البلدات والقرى العكارية في كسر العمل المحلي وادواته، والنسج على المنوال الاقتصادي لجبل لبنان، ولو في حدود اصغر. ففضلا عن استقبال حلالات الشرانق الوافدة من بيروت والجبل، سيطر على الانتاج والتسويق افراد من عائلتي فرعون وشيحا البيروتيتين. وبعد ذلك انتقلت ملكية معملين من معاملها الى عهدة الدكتور الكسندر كاسيني الايطالي

الجنسية الذي ما لبث ان احتكر الانتاج والتسويق وعاش في القبيات حتى العام ١٩٥٨.

ولم تكن هذه التطورات من دون تاريخ سابق عليها، اذ يبدو ان ظهور الفلاح الماهر في خدمة اشجار التوت كان وثيق الصلة بالتقليد الذي ارساه التاجر الفرنسي كومبيان منذ العام ١٧٤٨، حين اشترى بساتين يربى فيها دود القز وتغزل خيوط الحرير.

ويرجح ان يكون مسار التوسع الماروني في عكار قد لعب دوراً في ذلك، وهو ما بدأ في عهد فخر الدين الثاني، كما حصل في سائر الاطراف اللبنانية. وبهذا اندفع الزخم الجبلي بخبرته الزراعية الناشئة نحو مساحات جديدة. ويبدو، كذلك، ان معظم العائلات المارونية العكارية وافد من جبل لبنان. فقد ورد في تقرير احد الرهبان عن سكان قرية عندقت ان معظم عائلاتها ترجع بأصولها الى الجبل وامتداداته الشمالية. ويبدو ان هذه الموجة استمرت في اطوار لاحقة، حيث ان حبيشي القبيات من عائلة حبيش الجبلية التي هرب افرادها بعد هزيمة الامير حيدر الشهابي، وقبل ان يحقق انتصاره الاخير في معركة عين دارا.

على اية حال فان مزاحمة الاجانب لبعض متمولي الجبل وبيروت جعلت تدفع بهم الى عكار حيث انشأوا الكراخين على نمط حديث. وفي عام ١٩١٢ كانت كرخانة فرعون وشيحا في القبيات تضم مئة واربعين خلقينا، والتي في عندقت مئة وأربعاً واربعين، حتى قال الاب لويس شيخو ان صناعة الحرير في عكار « ترقت . . . على ايدي الموارنة من سكانها». وكان من الطبيعي ان يسير التعليم سيراً موازياً، ففي ١٨٤٠ استقبل الرهبان الكرمليون في القبيات لبناء دير ما لبث ان توسعت وظائفه التعليمية. وفي سياق التنافس مع التعليم البروتستانتي انشأ الفرنسيون ثلاث مدارس في عندقت وقريتي منجز وبيت ملات المارونيتين، وبادر الايطاليون الى انشاء مدرسة في القبيات. وبعد ذلك اصبح في عندقت مدرستان واحدة للذكور واخرى للاناث تتولى ادارتها راهبات القلبين الاقدسين وراهبات مريم اليسوعيات وتدرس فيها الفرنسية الى جانب العربية.

وفي تسعينات القرن الماضي جاء الى القبيات الاب الايطالي ستانيسلاوس الذي وسع الدير واضاف اليه مدرسة واستدعى راهبات ايطاليات للتعليم فيه، وما لبث ان انشأ مدرسة للاناث ايضاً.

لابد اذن من تمثيل حديث يعكس هذه المقدمات الحديثة!

في المجال الانتخابي

خوض مخايل الضاهر الانتخابات النيابية في ١٩٦٤ على لائحة الراحل سليمان العلي لا يستجيب تماماً للمواصفات التي عرضها المحاضر الشاب قبل سبع سنوات. فهو لم يكتف بالاقتراب من « بيك » عكار، منطقته، بل اسبقه باقتراب من « بيك » زغرتا ايضاً.

لكن « الواقعية » تستدعي التنازلات والتراجع عن الشروط القصوى. وحين تهب الرياح ينبغي اغتنامها، او كما يقول مخايل: « لكي اخدم بحاجة لأن اصل. والوصول يلزمه الحليف

القوي تبعاً لنظام اللائحة وقوة الحليف تعبير عن ارادة شعبية ».

لكن الفشل حالف لائحة العلي يومها، الشيء الذي رده اعضاؤ ها الى تزوير « المكتب الثاني »، وكانت اشارات فعلية كثيرة تدل على حصول التزوير. وتكررت المحاولة ثانية على لائحة العلي في ١٩٦٨ حيث كان مخايل يزين لائحة فيها بيكان هرمان هما العلي وجود الابراهيم. والنتائج لم تختلف عن نتائج ١٩٦٤ والشكوى هي نفسها. ومع انتخابات ١٩٧٢ دخل مخايل الى البرلمان على لائحة العلي ايضاً، حائزاً على ١٣٤٦٨ صوتاً. اما الموارنة الذين هزموا فكانت لاسمائهم دلالات على ماضي مخايل ومستقبله: احدهم قريبه ميشال على لائحة بشير العثمان، وهو ما يثير احتمال توحيد لائحة الضاهر بزعامة مخايل وبالتالي توحيد القبيات خصوصاً وان النيابة استمرت منذ ١٩٧٢ معه ولا تزال، فيما ميشال بلغ من العمر عتيا. والثاني قريبه فؤاد عوض على لائحة المحامي الراحل خالد صاغية، وهو ما يعني احتمال توحيد قرية الام وراءه خصوصاً وان آل فخر تخلوا ايضاً عن العمل السياسي منذ ضمور الشهابية.

والتغلب على عوض يخلص مخايل من شبهة القومية السورية التي حفت بماضيه تبعاً لمرافعته في ١٩٦١. والثالث، المرشح المنفرد وعضو المكتب السياسي الكتائبي المحامي خليل نادر.

ومخول كما يناديه البعض تحبباً، ظل وفياً لرئيس اللائحة من دون ان يكون مطواعاً له. ففي ١٩٧٦ وحينما تراجع العلي الذي دعي الى دمشق ولبى، عن تأييد ريمون اده في معركة الرئاسة، رفض مخايل الضاهر مسايرته وبقي على الكلمة التي قطعها لـ « العميد ». وفترت العلاقة بين نائبي عكار.

مخايل يتغير

بين ١٩٧٦ واليوم حصلت تغيرات بارزة في حياة مخايل الضاهر السياسية. فحماسه للعميد اده حينذاك دفعه الى معارضة الدخول العسكري السوري بكثير من الحدة، خصوصاً لان « ذاك الدخول بدون غطاء شرعي ». وبعد الدخول كان مخايل الماروني الوحيد الذي يوقع الى جانب العميد اده على عريضة تطالب القوات السورية بالخروج الفوري من لبنان. والوثيقة التي وقعت في منزل اده يومذاك، ولا يزال الاخير يحتفظ بها، حملت اسماء الرئيس الراحل رشيد كرامي والرئيسين حسين الحسيني وصائب سلام والزعيم الراحل كمال جنبلاط وآخرين. وبات مخايل « ينسق » مع « الحركة الوطنية » ويتبادل الابتسامات مع المقاومة الفلسطينية ويأخذ على دمشق « تلهيها بقضايا لبنان وتناسيها العدو الاسرائيلي ».

لكن الحماسة للعميد ليست وحدها ما املى مواقف نائب عكار. فحرب السنتين سجلت عدداً من الهجمات اليسارية ـ الفلسطينية المسلحة على قرى عكارية مسيحية. وكانت القبيات احدى القرى التي هوجمت وحوصرت. اهم من ذلك ربما، صلة مخايل بالجيش، وابناء القبيات

وعندقت اعطوا الجيش ما يفوق عن ثلث عدده وفيهم الضباط، واحد قادة الجيش اللواء ابراهيم طنوس قبياتي.

والقبيات وعندقت اللتان تقعان جنوب الحدود مع سوريا وغرب عشائر وادي خالد واكروم وشمال فنيدق وقرى الجرد، وجدتا في الجيش شعوراً مبكراً بالطمأنينة، ناهيك عن كونه مصدر دخل. ومنذ ١٩٢٦ اقيمت ثكنة عسكرية في بلدة عندقت كانت رمز الولاء للجيش الناشىء والصلة به، خصوصاً وان المنطقة عانت بعض الضيق خلال تعديات زين مرعي جعفر على ابنائها واملاكها. ويقال ان فؤاد شهاب الذي بدأ خدمته العسكرية ضابطاً في عندقت، اكتسب من تجربته تلك بدايات فهمه للمسألتين الحدودية والعشائرية.

اما مخايل النائب فلم يكتم دفاعه عن الجيش في البرلمان اذ رأى في ١٩٧٢، مثلاً، « ان الجيش ما زال كما كان، في الرواتب التي تعطى له، وفي مستواه المادي، فقيراً للغاية »، وكان على الدوام يقرن تردي الوضع الامني بانهيار هيبة الجيش وجنوده. وبلغت حدة الضاهر حيال السوريين اقصاها بعد اشتباكات الفياضية، بما حمله على معارضة انشاء محكمة مختلطة سورية ـ لبنانية لانها تتعارض مع السيادة.

برغم هذا اوحت « القوات اللبنانية » في ١٩٨٠ ان مواقف مخايل المسيحية غير كافية، والمطلوب اكثر، فولاء الضاهر للجيش والبرلمان حدا بالمتطرفين الى اتهامه بـ « شق المسيحيين ». وبمزيج من القناعة والخضوع للابتزاز صوت مخايل الضاهر للشيخ بشير الجميل في ١٩٨٢ كما صوت لاحقاً للشيخ امين، موافقاً على اتفاق السابع عشر من ايار.

تغيرت الامور في ١٩٨٤ وراح مخايل يرى ان الوجود العسكري السوري بات شرعياً لان الرئيس سركيس « طلبه » اما المطالبات اللاحقة بسحبه فلم تستكمل شروطها الدستورية في رأيه. وتوجه الى دمشق لحضور توقيع « الاتفاق الثلاثي » في ٢٨/١٢/١٩٨٥ وبدأ يتحدث عن الخيار المسيحي « كخيار عربي، وخاصة سوري». وفي تبرير موقفه يقول انه في غياب القوى الشرعية اللبنانية يبقى الأمر الواقع افضل من الفوضى. ويستشهد بابن القبيات وخاصة الجندي اثناء انتقاله من قريته الى بيروت والعكس: كيف كانت الحال في عهد سعيد شعبان والتنظيمات المسلحة وكيف هي الآن. ولان مصلحة القبيات فوق كل مصلحة دافع الضاهر في تصريح له عن القبياتي جورج ابراهيم العبدالله بلغة تشبه لغة نايف حواتمة، فرأى ان المخابرات الاميركية والفرنسية والصهيونية هي وراء ما يجري، وحمل المسؤولية في الارهاب الى الحلف الاسرائيلي الاصولي بهدف تشويه صورة العرب في سوريا وليبيا.

ولم تمر هذه التحولات من دون اكلاف. فبعد تصريح ايجابي عن الدور السوري اصبحت سيارة النائب الضاهر حطاماً.

الشخصي، السياسي، الثقافي

مخايل الضاهر دمث، مهذب، لبق حين يتحدث في العموميات، وحين يتنصل. يتحاشى اثارة الحساسيات والتسميات في كلامه، ويسبغ اهمية مبالغاً فيها على كلام انشائي. يستعمل يديه بكثرة في توكيد رأيه. يحرك قبضته حيث تنكمش وتمتد اصابع قصيرة ممتلئة. يستهويه الانجراف نحو الخطابة والمرافعة اثناء الكلام. ويحوجك لأن تفرمله. يحب الخرطشة على الورق حين يتكلم بهدوء. انيق في ملبسه. شعره الابيض المصفف ووجهه النقي وتناسق رأسه تكسبه قدراً من المهابة. صوته مجروح قليلاً وعلى شيء من الحدة في مخارجه. ترتفع هذه الحدة حين يتوتر. تميل لهجته الى العكارية والقطع في الامور، وتزم شفتاه فتنقطع بسمته الدافئة.

له ذقنان، ذقن وعنق مهدلة. قصير. معتدل البنية. فخور بزواجه: «اسألوا عن آل رزق الله. هناك شارع باسم جدها في منطقة كليمنصو». يقولها بايجاز هو ايجاز الواثق من الجواب الذي سنلقاه. اما هو فيعيش من مهنته بحسب قوله: انا لست محامياً لمؤسسات. اتوكل فقط في الدعاوى الجنائية. بيتي بالايجار واعيش من عملي.

افكار مخايل الضاهر بسيطة. فهو لم يعرف اية تجربة حزبية، ويقول انه لم يتعاطف مع اي حزب. لا مارس الصحافة ولا اهتم بنشاط نقابي. السياسة عنده يوجزها بـ «الخدمات وعمل الخير وحب الوطن». انه يتجه نحو القصد والقصد واضح. ولا يريد ان يكون كمرتا التي تفكر في اشياء كثيرة والمطلوب واحد. وهو حين يوغل، والايغال عند السياسيين من عمل الشيطان فاجتنبوه، يؤكد ايمانه بالتعايش في عكار ولبنان. يدافع عن الشرعية ومؤسساتها وخاصة العسكرية. يرفض تغييب المجلس، يعارض الميليشيات، يصر على التغيير من ضمن الشرعية والمؤسسات، يؤكد على النزاهة، يعتقد ان اية صيغة جديدة ستكون بؤرة لثورة مقبلة اذا ما اقترنت بتشاطر احد الفريقين. مع المساواة والعدالة وتعزيز البرلمانية. مع توعية الفرد لكي يشارك. يوجز: توجهي شرعي لبناني عربي. الحياد غير واقعي. يؤيد كل مقاومة لاخراج الاسرائيلي. يتحدث عن المؤامرة الصهيونية لاقامة كيانات طائفية في لبنان تبرر اسرائيل.

ممتاز. حسن نوايا. انشاء. لغة محامين.

سعياً وراء مزيد من التفصيلية:

ـ المشاركة: نريد ان يكون القرار في مجلس الوزراء، ومع حق رئيس الجمهورية طلب اعادة النظر في المراسيم التي تتخذ في غيابه. مع المشاركة في تأليف الحكومة.

ـ الغاء الطائفية السياسية: يظهر ان هناك توافقاً على تعيين هيئة عامة عليا تضع منهجية للالغاء خلال مدة زمنية. اهمية الهيئة انها لا تحدد مهلة. تترك الامر لمجلس النواب. المطلوب الالغاء في النفوس قبل النصوص.

ـ العلاقات مع سوريا: لا بأس بها مميزة. «الاتفاق الثلاثي» اكد على ان «كل ما يتم التفاهم عليه بين الدولتين يمكن ان يترجم باتفاقات ثنائية». العلاقات مع سوريا اكبر من العلاقات مع غيرها. الرئيس الاسد قال في جلسة توقيع الاتفاق الثلاثي: نحن اول نظام سوري لفظ كلمة استقلال لبنان. تسأل مخايل الضاهر رأيه في «اعادة تأهيل الجيش»؟ لا تلقى جوابا واضحاً عند نائب الجيش. شيء من الغمغمة. شيء من الغصة.

يسألك مخايل الضاهر الطموح: «اذا دعاك الواجب لخدمة شعبك ووطنك فهل تمتنع عن لعب دور سياسي حتى لو كان رئاسة الجمهورية»؟. قديمة هذه اللغة يا استاذ مخايل. وشخصك ايضاً ليس من العيب ان تذكره الى جانب شعبك ووطنك. اذكره وارسم بسمة على الشفتين. نفهم. نتواطأ. فالمبالغة في كتمان الطموح الشخصي تنبه اليه ولا تخفيه. مخول لا يخفي البسمة حين تدغدغ طموحه الرئاسي. أتريدني ان اتنصل؟ يقول. والبسمة لولا كبحه لها صارت قهقهة. «قابضها جد».

ومخايل لم يعرف عاصمة عربية عن كثب. زار القاهرة كسائح وحضر مؤتمراً للمحامين. وزار دمشق وعمان وبغداد ابان مؤتمرات. رجاله العرب الرئيسان عبد الناصر والاسد والملك حسين. ببرودة تخرج الاسماء. ابطاله اللبنانيون كثر. يسمي العميد اده لـ «صفاته الوطنية الصافية»، ويتوقف عند كمال جنبلاط كـ «رجل فكر». ومخايل يعرف المناطق اللبنانية كلها لكنها ليست معرفة حميمة. وهو يقول انه يرى «لوموند» و«فيغارو» ويتابع المقالات والتعليقات في «النهار» و«السفير» و«الانوار» وغيرها. وانه «يشاهد» الصفحات الثقافية في الصحف ويقرأ بعض اخبارها من دون ان يتوقف عند المقالات. وقته «لا يسمح» له، وليس عنده وقت «يضيعه».

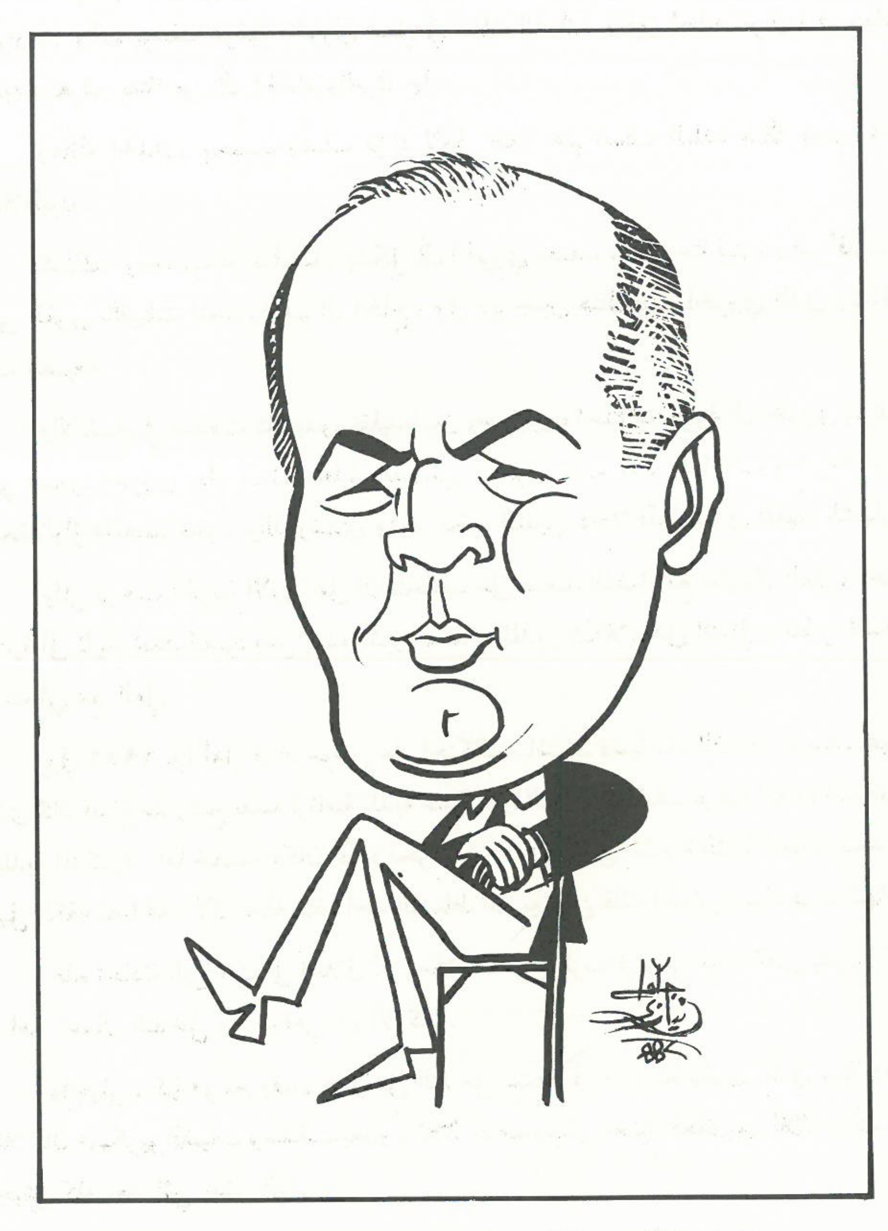
الأدب؟ لغتي في المحاكم ادبية. يجيب.

قراءات قانونية ودستورية؟ هناك وقت لذلك.

سينما ومسرح وفنون تشكيلية؟ لا وقت.

الا يتسع الخيال لأعذار غير عذر الوقت يا مخايل؟

ما يشغل مخايل كيف يصل العسكريون الى قراهم وكيف يعودون.



فؤاد عوض

ينتمي فؤاد عوض الى أحد أجباب عائلة الخوري الكبيرة العدد في قرية عندقت العكارية وجوارها. والده يوسف عوض الخوري عمل في سلك الدرك، وحين احلته الوظيفة في معاصر الشوف تعرف بفتاة من آل الحداد واقترن بها.

وعائلة الحداد، بحسب وصف فؤاد لأهل امه، هم نصف البلدة هناك وهم موارنة جنبلاطيون.

كذلك، وبحسب فؤاد أيضا، يشكل آل الخوري نصف سكان عندقت، ولهم أقارب في الحي الغربي بالقبيات المجاورة هم آل الحاج، وفي دير جنين هناك بيت الخوري الذي يشكلون ثلث الضيعة.

والانقسام في عندقت كان يدور تقليديا بين «حزبيتين» احداهما حزبية آل الخوري يتزعمها هاني مسعود الخوري خال النائب مخايل الضاهر، واخرى تضم سائر العائلات واكبرها البيطار وينعقد لواؤها لعبده فخر، والد رشدي وفخر فخر اللذين دخلا المجلس في العهد الشهابي.

ولئن درجت الحزبية الأولى على ان تتحالف على صعيد القضاء مع سليمان العلي، اتجهت الثانية الى تأييد محمد العبود ومن بعده بشير العثمان اللذين شكلا، على التوالي، قطبي التنافس الانتخابي مع العلي.

وفي ١٩٥٦ بدا أهل فؤاد عوض على احتكاك مباشر بـ «سياسة» القرية. فيوسف عوض الذي كان قد تقاعد رشح نفسه لرئاسة بلدية عندقت وذلك في انتخابات فرعية املاها استحداث البلدية المذكورة. اما خصمه فكان عبده فخر الذي عمل رئيس الشعبة الثانية انطون سعد على تمييل الكفة لصالحه، لأن نجله فخر أحد الضباط المقربين من قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب.

هذه الحادثة التي أدت الى اطلاق نار وخلاف دموي اثرت في وعي فؤاد الذي يقول: كنت أشاهد اعمال التدخل من موقعي في الأركان.

والجيش، كما هو معروف، قادر على التدخل بنشاط في قرية كعندقت، اذ في سنة ١٩٥٨ مثلا كان عسكريو القبيات وعندقت يعدون ثلاثة آلاف وسائر الجنود العكاريين ثلاثة آلاف، فيما الجيش كله يعد اثني عشر الفا.

يروي عوض بعض عناوين السجل العسكري للقريتين المذكورتين:

في ١٩٥٠ كنت أنا وابراهيم الضاهر الوحيدين من القبيات ـ عندقت اللذين تخرجا من مدرسة عسكرية. قبلنا كان هناك خريجو صف كالكولونيل سعيد الخوري والكولونيل ضاهر وفخر عبده فخر وجبيلي والدرزي. بعدي بـ ٤ ـ ٥ سنوات ابراهيم طنوس. فمنذ ١٩٥٠ راح

يتكاثر عدد المتخرجين، وهناك اليوم ٢٠٠ ضابط من القبيات ـ عندقت.

وفي ١٩٥٤ اقترن فؤاد بآنسة تنتمي الى احدى تلك الأسر العسكرية مصاهرا الكولونيل سعيد الخوري، ومن زواجه انجب وليد (٢٩ سنة) الذي درس الطب في بوسطون وتزوج بفتاة اميركية، وامل التي تصغر أخاها بعام واحد، وقد درست السكرتيريا.

في الجيش

ولد فؤاد عوض في عندقت في ١٩٢٩ وخضع لدراسة متقلبة املاها تقلب عمل والده.

يروي فؤاد:

درست في كل مدارس لبنان حتى بلغت السادسة عشرة لأن الوالد كان رقيبا في الدرك خدم بين ١٩٢٥ و١٩٤٦ في طرابلس ومعاصر الشوف والشويفات وصيدا وشبعا ومرجعيون وبعلبك وسبعل ليعود مجددا الى طرابلس. لكن المدرستين اللتين افاد تعليميا منهما كانتا البطريركية في بيروت في ١٩٤٥ ـ ٤٦ ومن طلابها انذاك الزميل الراحل رياض طه الذي كان أعلى من فؤاد بصفين أو ثلاثة، وفرير طرابلس حيث درس ما بين ١٩٤٦ و١٩٤٨ سنة انتسابه الى المدرسة الحربية. أما ما تبقى من مدارس في القرى فكان سيئا ورديئا بحسب الطالب الذي تعاقب عليها.

في تشرين الأول ١٩٥٠ تخرج عوض ملازما ونقل الى فوج الخيالة الخفيف في أبلح بعد ان كتب على الورقة التي حملت علامات تخرجه: له المام خاص بالميكانيك. هذه الملاحظة، يقول فؤاد، كانت توجب ارسالي الى سلاح المدرعات لكنهم أرسلوني الى سلاح الخيالة لأنني أنا ومختار مزبودي كنا بلا واسطة فيما حظي بالواسطة جول بستاني وفيكتور خوري وجورج كرم.

الضابط سيء الحظ الذي قضى ثلاث سنوات في ابلح ذكر اسمه في ١٩٥٢ كبديل محتمل عن الملازم أول حسواني رئيس الشعبة الثانية يومها، الا ان قائد الجيش فؤاد شهاب قال ان فؤاد صغير السن والرتبة. وفي العام التالي استبدلت خيول الجيش التي بلغ عددها ٦٠٠ حصان بالمصفحات نظرا لتضاؤل دورها في الحروب، فانتقل فؤاد من راكب حصان الى راكب مصفحة. وفي ١٩٥٥ نقل الى الشعبة الرابعة في أركان قيادة الجيش. يشرح فؤاد:

أظن ان نقلي كان ناتجاً عن علاماتي في فوج الخيالة. كان قائد الفوج المقدم منير حمدان فكتب لي على ورقة علاماتي: ضابط مترفع عن امور المادة. وهذا ما أرسلني الى الشعبة الرابعة التي تتولى الشؤون اللوجيستية من نقل وتموين وادارة في أوقات السلم والحرب.

هل تعرفت ابان عملك في الأركان بفؤاد شهاب؟

طبعا، بين ١٩٥٥ و١٩٥٨ خدمت هناك وكنت المساعد للواء شهاب في ما يتعلق بالشؤون

اللوجيستية. وقدرني شهاب لأنني كنت أقف سدا منيعا واحول دون الرشاوى وسوء استعمال آليات الجيش للمصالح الخاصة. كنت الاحظ انه يقدرني أكثر من الضباط الآخرين. وفي أحد الأيام طلب الزعيم جميل لحود (والزعيم هو اللقب العسكري الذي استبدل بالعميد لاحقا) ان تتم مصادرة بيت له بما لا يجيزه القانون. كان لحود، وهو قائد لموقع بيروت يومذاك، يقطن منزلاً تملكه زوجته الأرمنية الأصل، وعندما وصلت المعاملة الي كتبت رأيي التالي: غير موافق. فوق توقيعي وقع العقيد شميط في خانته: موافق، وكذلك فعل رئيس الأركان توفيق سالم.

مع هذا ففؤاد الصغير لم يكن يحب فؤاد الكبير. يقول: كان متعاليا يحتقر الناس. هو امير ولواء جاء من عند الضباط الفرنسيين. ينظر من هذا المنظار الى الناس. ما بينحب. لا يؤمن الا بالفرنج. الرأي الوحيد الذي يأخذه في اعتباره هو رأي الضابط الفرنسي ليه الذي جاء به شهاب في ١٩٥٥ وعين قيما في الجيش. وليه ابقاه شهاب الى جانبه حين أصبح رئيساً للجمهورية وحتى ١٩٦٤. رأيه عنده كان قبل كل رأي آخر.

ويمضي فؤاد عوض يتحدث عن تلك السنين بلغة هذه السنين:

بين ١٩٥٧ و١٩٥٨ كنت أرى كل المؤامرة التي يحيكها شهاب للوصول الى الحكم. وكنت أعرف المزيد من النقيب هنري شهاب قائد فوج المدفعية الذي كان على صلة وثيقة بقريبه. كان يحرض المعارضة سراً ضد شمعون.

أنت كنت شمعونياً يومذاك؟

لا لم أكن مع شمعون، بل مع المؤسسة العسكرية، ومع ان لا تتبهدل. بعد مصرع هنري شهاب في ١٣ أيار ١٩٥٨ في الطريق الجديدة، ذهبت اليه وقلت: اذا المسألة مسألة شمعون نحن الضباط نضعه في طائرة ونرسله الى الخارج. فقال: اتركوا لي القصة يا ابني انا بدي عالجها....

ويستخلص عوض احدى الحكم التي تثقل على رأسه:

منذ ذلك الوقت صرت أفهم ان الجيش ليس في خدمة سياسة الدولة...

في ١٩٥٨ ومع اندلاع الحرب الأهلية نقل فؤاد عوض الى صور. كانت بمثابة منفى، يقول: وهناك بقي حتى ١٩٦١ حين نفذ انقلابه العسكري.

هناك اشارات واضحة في كتابك «الطريق الى السلطة» تدل على تعاطفك مع آل الخليل في صور...

نعم لأن الجماعة رغم رذالاتهم كانوا يتصرفون تصرفاً لبنانيا. ومحاولة اسقاطهم هو اسقاط الاعتدال في الطوائف الاسلامية.

مع هذا تابع فؤاد في ١٩٦٠ دورة مدرعات دامت احد عشر شهراً في الولايات المتحدة التي يرسل اليها الضابط بقصد المكافأة، الا ان عوض يقول:

كانت جزئياً عملية ابعاد...
ولا نفهم تماماً ولا يفهمنا.

من هم الضباط؟

لكن قبل الانتقال الى صور والولايات المتحدة هناك تجربة مهمة لا تزال غير معروفة كثيرا عن حركة الضباط المعارضين...

«أما بعد ١٩٥٧ اسسنا هذا التنظيم العسكري في الجيش حين عرفنا ان شهاب يرتب الجيش للوصول الى الرئاسة بأساليبه الخاصة. بدأنا تنظيماً يقوم بعمل مماثل انتخبت فيه أمينا للسر. التنظيم ضم النقيب عوض والنقيب شوقي خير الله والنقيب بديع غازي وهو قومي من الكورة (ارثوذكسي) والنقيب فؤاد الحسامي (سني) والنقيب زين الدين مكي (شيعي) والنقيب يوسف منصور (شيعي) والنقيب الياس الحداد (ارثوذكسي) والنقيب فوزي هنود (ماروني) والملازم أول صادق رعد (شيعي) الذي بعد تعيينه رئيسا للحرس الجمهوري كف عن حضور اجتماعاتنا، والنقيب نبيل قريطم (سني) والملازم أول رفيق حيدر (ارثوذكسي) والنقيب رؤوف عبد الصمد (درزي). المجموعة ضمت ١٥ ضابطاً يجمع بينهم كره شهاب وتصرفاته من دون أن يكرهوا كلهم سياساته. بينهم ٣ قوميين فقط، أنا وخير الله وغازي. عقدنا جلسة قبل ١٠ أيام على المحاولة الانقلابية وطرحنا موضوع استلام السلطة بعمومية وبدون تفاصيل. ما عدانا نحن الثلاثة كان الجميع معترضين، قالوا: بكير، وأوضاعنا ورتبنا ما بتسمح».

ـ أما من جامع آخر بينكم غير كره شهاب؟

ـ كنا متفقين على تقوية الجيش والعداء لاسرائيل. كنا نرى ان البلد قيد انقسام بدأت بوادره بالظهور. ومن أهدافنا امكانية الاستيلاء على السلطة والتفاهم مع عبد الناصر فوراً حتى يستتب الحكم ونضمن وحدة البلد. كانت حصلت فورة ١٩٥٦ بنتيجة تأميم قناة السويس...

هل أطلقتم تسمية «ضباط أحرار» أو أي اسم آخر؟

لا لم يكن هناك اسم.

التفاهم مع عبد الناصر من جهة وقوميتك السورية يومها من جهة أخرى؟

في الحقيقة حصلت في ١٩٥٧ اتصالات بين الحزب القومي وعبد الناصر، وتوجه أحمد شومان من قبل الحزب واجتمع ثلاث ساعات ونصف الى الرئيس المصري، وحمل له كتبا حزبية

وأقنعه بوطنية الحزب واستقبال وفد منه. وعاد شومان مسروراً وبلغ القيادة، لكنه فوجىء بذهاب قادة الحزب في غضون ذلك الى بغداد واتفاقهم مع نوري السعيد مما غذى الخلافات مع عبد الناصر.

نحو الانقلاب

ألم تشاركوا في مناقشات الحزب، اذا كان من مناقشات، للانقلاب؟

جرت مناقشة المشروع في مجالس الحزب العليا من دون مساهمتنا، وأقر المشروع في المجلس الأعلى ومجلس العمد.

ألم يتم اطلاع الرئيس شمعون؟

عبد الله سعادة زاره وصدرت عنه تلميحات فقط.

ألم يظهر معارضون للفكرة، بحسب علمك، في مجالس الحزب العليا؟

بلى، لكن المعارضة اقتصرت على مصطفى عبد الساتر والدكتور اسعد رحال وهو من مرجعيون وكان استاذا في الجامعة الاميركية...

كيف جرى التنسيق بينكم وبين القيادة الحزبية؟

أول اجتماع جدي مع عبد الله سعادة، رئيس الحزب يومها، تم في أوائل تشرين الأول ١٩٦١، ثم تتالت الاجتماعات بحضور شوقي (خير الله): بعد ذلك عدت اجتمع وحدي بسعاده لأن شوقي أوقف قبل شهر على المحاولة بسبب مسألة تافهة مؤداها شتم الشعبة الثانية علناً. وقد جعل مساء يوم الجمعة في ٢٩ كانون الأول ساعة الصفر على ان يبدأ التنفيذ بعد منتصف ليل ٣١ منه. واتفق على ان يرسل سعادة رسولاً الي في صور يؤكد الاتفاق، والرسول كان يوسف الأشقر. وفي الساعة الثامنة مساء وصل الأشقر. في الساعة العاشرة استنفرت وفي الثانية عشرة انتقلت الى بيروت. واستغرقت السيطرة على محيط وزارة الدفاع أربع ساعات...

نعود الى مصدر آخر تتقاطع روايته في بعض جوانبها مع رواية عوض وتختلف في جوانب أخرى. فحول خطة الانقلاب جاء في مذكرات الدكتور عبدالله سعاده «أوراق قومية» ما يلي:

«ذات يوم، فاتح الناموس نبيه نعمة على مسؤوليته الخاصة الرفيق النقيب شوقي خيرالله في موضوع الانقلاب وامكانيته، فأنس لديه تقبلا مبدئيا، طلب إلي نبيه ان التقي الرفيق شوقي لاستكمال البحث في هذا الشأن. وبالفعل التقيت به أكثر من مرة، وتدارسنا امكانية القيام بانقلاب عسكري ناجح، فهمت من الرفيق شوقي ان هناك بحثاً من هذا النوع يدور بين الضباط من رتبة نقيب وما دون من ذوي الاتجاه المسيحي اللبناني، احتجاجاً على السياسة الشهابية

المدغدغة للمسلمين، والمسايرة كثيراً للاتجاه الناصري والسراجي، ولم تصل لقاءاتنا الى قناعة حاسمة حول الموضوع. الى ان عرفني الرفيق النقيب شوقي الى الرفيق النقيب فؤاد عوض قائد كتيبة المصفحات المتمركزة في صور، مؤكداً لي بان زميله ورفيقه النقيب عوض، قد يوافق على مشروع الانقلاب، وانه متحمس، وبالفعل التقينا لأول مرة في سيارتي قبالة فندق طانيوس في صيدا، ولما طرحنا الأمر نحن الثلاثة، أظهر الرفيق عوض تقبلاً واضحاً للموضوع...

أما خطة التنفيذ فكانت تقضي بما يلي:

١ ـ اعتقال رئيس الجمهورية في بيته في صربا.

٢ ـ اعتقال قائد الجيش وكبار ضباط الأركان.

٣ ـ احتلال وزارة الدفاع من قبل كتيبة النقيب فؤاد عوض المصفحة.

٤ ـ احتلال الاذاعة اللبنانية من قبل القوميين الاجتماعيين بمؤازرة مصفحتين من كتيبة النقيب عوض.

٥ ـ احتلال مبنى الهاتف، وقطع الاتصالات الهاتفية في كل لبنان.

٦ ـ قطع الهاتف بين الجنوب وبيروت تسهيلاً لعدم انفضاح مجي كتيبة النقيب عوض.

٧ ـ الافراج عن النقيب شوقي خيرالله من سجنه في الفياضية ليكون الى جانب النقيب عوض ساعة التنفيذ.

٨ ـ استنفار قوميي الشمال في طرابلس لمواجهة أي خلل أو اضطراب.

٩ ـ انتقال كتيبة فؤاد عوض وكتيبة شوقي خيرالله والقوميين الاجتماعيين المستنفرين للتنفيذ الى بكفيا في حال تعثر الانقلاب لتكون قوة أساسية تناضل ثوريا من هذا الموقع.

وكان القرار يقضي ان تكون ساعة الصفر الثانية بعد منتصف ليل ٣١/١٢/١٩٦٠، أي صباح ١/١/١٩٦١ مستفيدين بذلك من وضع الجيش والأمن في عطلة رأس السنة، لكن الانقلاب أحبطته خيانة رياض درويش مرافق عبدالله سعادة وفضل الله أبو منصور وتقديم تقارير للمكتب الثاني تفضح سر التحركات في اخر لحظة، وذلك على اثر الاتفاق على جواد بولس رئيساً للجمهورية والزعيم غطاس لبكي واجهة عسكرية للانقلاب بعد رفض سعادة ان يكون العقيد فؤاد لحود ليتولى الواجهة العسكرية للانقلاب بحجة ان آل لحود أحد الاقطاعات السياسية البارزة ولا يحق لنا أن نخرج على مبدئيتنا، ونعتمد قوى اقطاعية سياسية كواجهة لانقلابنا».

ويروي سعادة انه تم اطلاع الرئيس كميل شمعون والعميد ريمون اده على نية الانقلاب،

وان الرئيس شمعون استفسر عن مصير الرئيس شهاب وقال بصورة عفوية: «يجب أن تقتلوه فوراً»، بينما اكد اده انه لا يستطيع ان يسهم تنفيذيا في أي شيء، بل يعاون سياسياً وشعبياً في حال النجاح، وفي اطار الحرص على الديمقراطية كنهج للحكم، والسيادة اللبنانية في كل الظروف.

وفي عرف سعادة كانت ثغرة الفشل في عدم التمكن من الوصول الى منزل الرئيس شهاب في الوقت المحدد وتحرك دبابات ثكنة صربا ومصفحاتها، وبعد وصول خبر فشل القوة الموكلة باعتقال شهاب الى عوض الذي كان قد احتل المنطقة المحيطة بوزارة الدفاع فكر بالتوجه بكتيبته الى ديك المحدي ولكن الارباك كان قد تسرب الى عناصر الكتيبة فبدأت المصفحات تدور على نفسها دون أن تنفذ الأوامر، فأفلت الأمر من يد عوض خير الله، اللذين قررا ترك الكتيبة والاختباء في بيروت».

ويروي سعاده انه «خلال المفاوضات الأولية دعا انعام رعد لتسليم انفسنا الى السلطات اللبنانية عن طريق الصرح البطريركي في بكركي، وهنا انتفض عبدالله الجبيلي قائلا لسعادة: «أرجو ان لا تأخذ بنصائح انعام رعد فهو جبان معروف» وشدد على اننا باحتفاظنا بكبار الضباط نستطيع ان نفاوض من موقع قوة».

«دروس» الانقلاب

نعود الى فؤاد:

ما هو الدرس التي تعلمته في السجن؟

لاحظت ان الهزيمة يتيمة، ولأنها كذلك تبنيت الهزيمة، وغطيت في التحقيق مئات الأشخاص وتحملت مسؤولية أعمال غيري.

في كتابه يروي عبدالله سعادة أن بشير عبيد وفؤاد عوض كانا قويين خلال المحاكمات فيما كان انعام رعد جبانا.

عبدالله سعاده كان شهما في السجن وكذلك بشير عبيد ومنير خوري، يقول فؤاد...

هل قرأت خلال سنوات السجن؟

ما يقارب الألف مجلد. كلها تدور حول الفكر السياسي ومذكرات الرجال العظام.

انطباعنا ان فؤاد يبالغ.

في تلك السنوات شرع عبد الله فرح (عبدالله سعادة) وقيس الجردي (انعام رعد) وسبع بولس حميدان (أسد الأشقر) ينشرون في «ملحق النهار» كتابات تدعو الى مزاوجة القومية السورية

بالماركسية والعروبة، بينما كان هنري حاماتي خارج السجن يبشر بأفكار أخرى مختلفة...

في السجن كنت أول من طرح فكرة تغيير التحالفات. في ١٩٥٨ كنا رأس الحربة في اليمين وجاءت التسوية على ظهرنا. الحزب في بعض افكاره ربما كان يمينيا لكنه ثوري ويحب تغيير طريقة العمل. هذا الكلام اليساري بدأ في أواخر ١٩٦٣. كان رواده أنا وعبدالله وأسد. انعام كان لا يزال منبوذاً حتى ذلك الحين لموقفه في المحاكمة وتخليه عن الحزب.

ـ أثير الكثير من اللغط حول الظروف التي أحاطت بخروجكم من السجن؟

حصلت مفاوضات بين الحزب في الخارج رعاها عبدالله محسن وبين المكتب الثاني وبعض النواب لوضع قانون عفو عام، وكان الشهابيون محرجين بـ «الحلف الثلاثي» وصعوده، واعتقد ان الصفقة عقدت كما يلي:

القوميون، وهم متواجدون بين المسيحيين، يصوتون الى جانب الشهابيين في ١٩٦٨ ويتم العفو عن المسجونين منهم في أوائل ١٩٦٩ بعد أن يكونوا أثبتوا حسن سلوكهم. العسكريون تم استثناؤهم بصورة غير دستورية لأن العفو يطال الجرائم لا الأشخاص. يومها اعترض ادمون رباط ويوسف السودا على استثنائنا لأن القانون ذو طبيعة عامة وليس موضوعاً للأفراد. المحكمة لم تكن دستورية.

ونمضي مع فؤاد ورحلته في السجن بعد اطلاق سراح رفاقه. فكما هو معروف مكث هو وشوقي خيرالله عامين بعد خروج «الرفقاء» المدنيين.

ألم تنتابكم المرارة عند خروج الرفقاء؟

بالتأكيد. أنا حاولت الفرار في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٩ وأصبت بست رصاصات. شوقي قاطع عبدالله (سعاده) وتوفي عبدالله وهو لا يتحدث اليه لأن رأيه كان الا يخرجوا من دوننا. قلت: لا يعقل ان يبقى ١٠٠ الى ١٥٠ سجينا مسجونين من أجلنا... مرسوم العفو عنا خاف حلو أن يمضيه فمضاه فرنجية.

نقول لفؤاد: ـ ألم يكن من السذاجة البعيدة القيام بانقلاب في لبنان... في هذا البلد ماذا يعني الاستيلاء على رئاسة الأركان ووزارة الدفاع اذا ما رفضت الطوائف القبول بذلك واستقلت بمناطقها.

ـ صحيح والله، يجيب فؤاد. كان في الأمر ولدنة ونقص في فهم...

تدور الشاي والقهوة دورتها ونسأل فؤاد:

لنفترض اننا الآن نعيش تلك الأيام التي عشتها في ١٩٦١، ماذا تفعل؟

- أكرر الانقلاب وأنجح. حتما أنجح هذه المرة مستفيدا من خبرتي. الانقلاب كان لازم ينعمل. لو انتصرنا كنا قاتلنا اسرائيل وصنا وحدتنا الوطنية... الخطأ كان اننا اعتمدنا خطة الانقلاب من دون اراقة دماء، ولم نتمكن من كتمان العملية حتى ساعة التنفيذ. انطون سعد عرف قبل ٣ ساعات بفعل تليفون غامض فترك بيته وجاء الى وزارة الدفاع. كان التليفون من مرافق عبد الله سعادة الذي صفي في حرب السنتين.

ونغرق مع فؤاد في تفاصيل فنية.

أزمة الحزب

بعد خروجه من السجن بقي عوض عامين في البيت بلا نشاط حزبي سوى العلاقة بعبد الله سعادة وكانت شرعت تظهر بوادر الانقسام بين تيار موصوف بالراديكالية والهوى الفلسطيني (سعاده ورعد، يومها)، وآخر موصوف بالأرثوذكسية الحزبية والهوى السوري (الأشقر، الياس جرجي قنيزح). وفي ١٩٧٢ ضم فؤاد الى «الادارة الحزبية» التي رأسها القومي المهاجر مسعد حجل طارحة على نفسها تسوية الانقسام الحزبي ورأبه.

يروي فؤاد تجربته آنذاك:

تعاونت مع مسعد كما سميت أيضا «عميدا للدفاع»، وذلك بهدف التوفيق. ووضعت بنفسي «قانون الطوارىء» الذي ينص على انه في حال تعرض الحزب لأخطار داخلية أو خارجية تعلن حالة الطوارىء وينضم الى «المجلس الأعلى» رؤساء الحزب السابقون وعميد الدفاع. كان الهدف جمع القادة المختلفين في قيادة واحدة.

لكن محاولة فؤاد والتوفيقيين الآخرين لم يكتب لها النجاح. ففي آذار ١٩٧٥ انشق الحزب الى جناحين، واحد يصفه عوض بأنه «التحم بالمقاومة الفلسطينية»، وآخر «أقرب الى دمشق» يرعاه آل الأشقر.

ولم يتوحد الحزب كما سنرى لاحقا، بجهود فؤاد والتوفيقيين، بل بفعل الدخول السوري الى لبنان أواخر ١٩٧٦ والذي أيده الطرفان فأقاما وحدة بينهما أثبت انشقاق العام الماضي انها كانت مفتعلة واصطناعية.

لكن «مسألة» عوض لم تكن في الحزب بل في الانتخابات النيابية في عكار، والتي سبقت تشكيل «الادارة الحزبية». يروي فؤاد بكثير من الاعتداد المبالغ فيه:

طلب مني الحزب ان أترشح وبعد تقييم للأوضاع اتصلت بعبدالله وأسد. قلت لهما انا الوحيد الذي يمكنه أن ينجح. عبدالله عنده توني فرنجية الذي سيحاربه. وأسد ينافسه ابن اخته

منصور عازار.

وخاض فؤاد المعركة على لائحة ضمت خالد صاغية ومحمد محمود البعريني ومعن ملحم، ورسب جميع أعضائها بعد أن سجلوا نسبا معقولة من الأصوات في معركة وصفوها بأنها «لمحاربة الاقطاع».

- الأوضاع المالية للائحتنا كانت صعبة جدا، يقول فؤاد، قياسا بلائحتي سليمان العلي وبشير العثمان.

بيد ان التجربة العكارية لم تترك أي درس أو عبرة للضابط السابق الذي هجر عكار صغيراً. أما في الحزب فهو لم يتعاطف مع طرح أو فكرة، بل تعاطف مع... عبدالله.

يقول: استدعاني عبد الله في حزيران ١٩٧٥ مع اندلاع الحرب وطلب مني أن أكون عميدا للدفاع. قبلت على مضض نظرا لتحفظي على بعض الوجوه الحزبية. وفي أيلول ١٩٧٥ اتضح لي وجه المؤامرة وأدركت أننا لن ننجح ولن نحرر أي شبر من فلسطين. طلبت من القيادة أن نكون معتدلين، فنحن لا نستطيع الخروج من التحالف مع المقاومة الفلسطينية، كي لا نتهم بالخيانة وهي التهمة التي عملنا طويلا لمحوها، لكن كل هذه الأعمال لن تؤدي الى نتيجة واسرائيل ستدخل الى لبنان وتفرض حلا يناسبها. كانت نبوءة...

فؤاد يخفض صوته وتلطف حركاته ويتواضع في الشكل، لكنه في «الجوهر»... يتنبأ! الا انه يمضي ويقول كلاما فيه نظر:

طالبت بتحالف بلا عنف وتسلح. واجهتني مشاكل تسليح القوميين في المناطق المسيحية. كنت من الأساس ضد عزل الكتائب لأنه يقويهم مسيحيا ليس في لبنان فحسب، بل بين مسيحيي العالم العربي. لم يؤخذ بتصوري. دخلت قوى أكبر منا على الخط واستخدمتنا. كان تسليح القوميين في تلك المناطق يشبه دفعهم الى الموت.

ومرة أخرى وفي تموز ١٩٧٧ انتخب فؤاد العبد اللهي عضوا في «المجلس الأعلى» وأصبح سكرتيرا للمجلس. كان عبد الله سعادة الرئيس طبعا. وتمضي الرواية:

- حسنّا علاقة جناحنا مع دمشق وتمكنّا مع عبد الله من اقناع المجلس الأعلى بضرورة توحيد الحزب. كنا نقول لهم باستمرار أن هذه رغبة سورية... وحدة الحزب عادت في تشرين ١٩٧٨.

في ١٩٨٠ رشح عوض نفسه لعضوية المجلس المذكور ولم ينجح. الذين فازوا كانوا جماعة انعام رعد ممن يقول فؤاد ان «حركة فتح» دعمتهم. حتى عبد الله، بحسب تعبيره، حيل دون

وصوله الى الرئاسة.

فؤاد اعتكف في المنزل، وفيما هو معتكف قضى عبدالله سعادة فزال آخر قيد حزبي ملزم. اليوم يتردد فؤاد عوض على المنطقتين الشرقية والغربية. أما في الحزب.... ففؤاد حضر مؤتمري الحزبين القوميين هذا العام:

ـ هناك عتب من كل طرف علي. قلت لهم أنا مع وحدة الحزب. ولا أعادي أي فريق.

... الانطباع الذي يتركه فؤاد من دون أن يقوله طبعا هو انه لا يتمنى وحدة الحزب أبدا. بل لا يتمنى ان تقوم للحزب قائمة كي يبقى هو حرا يتجول بين المنطقتين. وهذا، على الأقل، ما يوحيه بيان ترشيحه لنفسه حيث يتعهد بـ «الحفاظ على الكيان» و«ضبط الحدود كما هي مضبوطة حدود الدول العربية المعنية بالصراع العربي ـ الاسرائيلي»، من دون أن ينسى الكلام عن «تحرير الجنوب» و«معاونة القوات السورية حيث تقتضي الحاجة».

ولئن أيد الحزبان القوميان ترشيح عوض، فاللافت ان الأخير لم يشر من قريب أو بعيد الى الحزبين أو القومية السورية، أو تعاليم «الزعيم» المرحوم. نعود معه الى البدايات الأولى:

القومي اللاقومي

تبدو علاقة فؤاد عوض بالحزب القومي ملتبسة وعلى شيء من الغموض. فالرائج انه كان شمعوني الهوى وبوصفه هذا شارك القوميين انقلابهم، لينتسب الى حزبهم اثناء وجوده معهم في السجن.

يروي فؤاد:

الحقيقة انني انتسبت الى الحزب القومي في ١٩٤٧ في طرابلس ولم أكن بعيدا عن احتمال الانتساب الى الحزب الشيوعي. الوسيط كان أوغست حاماتي زميلي في الدراسة وشقيق القومي المعروف هنري حاماتي. الانتساب كان نتيجة الفراغ الفكري عند باقي الأحزاب ما عدا القوميين والشيوعيين. كذلك هناك الحق على العائلات السياسية بنتيجة ما فعله آل فرنجية قبل انتخابات ١٩٤٧ اذ ساقوا موارنة المنطقة الى الانتخابات بالكرباج. المبادىء الاصلاحية للحزب أخذت الكثير من اهتمامي، كما ان الهوية اللبنانية لم تكن واضحة تماما عندي. شريف وطنوس عوض وهما عمان لأبي ذهبا مع جمال باشا في ١٩١٦ الى قناة السويس وهناك قتلا.

وفي آذار ١٩٤٨ جاء الزعيم انطون سعادة الى طرابلس والتقيته في منزل الدكتور عبد الله سعادة. كنت يومها في منفذية الطلبة. ترك انطباعا مهما عندي من حيث الشخصية الجذابة والقوية وكان يتكلم بثقة...

بدخولي الى المدرسة الحربية انقطعت عن الحزب واستمر انقطاعي حتى ١٩٥٦. عندها تعرفت الى غسان جديد الضابط القومي الهارب من سوريا، ونشأت علاقة بيننا استمرت حتى اغتياله في العام التالي. صرنا أصدقاء مع ان هذه الصداقة ظلت محاطة بشيء من السرية. لم أقدم تسهيلات كبيرة للقوميين، كنت أنقلهم في سيارتي من وقت الى آخر.

والراهن انه في ١٩٧٣ تحديدا كتب فؤاد عوض «تأريخه» لحياته العسكرية والسياسية أي بعد سنوات على اعلان «يسارية» الحزب، فاذا به يقفز فوق كل الغطاءات الأيديولوجية للحزب القومي ويقدم وثيقة ناصعة عن وعي مسيحي خالص.

فكتابة «الطريق الى السلطة» الذي يرقى الى شهادة ضد الرئيس فؤاد شهاب وما يراه فيه من طموح مزمن الى السلطة وتعاون مع العشائر والاستخبارات السورية، على حساب لبنان، يسجل في مقدمته ان الجبل اللبناني أصبح «ملجأ لكل مضطهد ومأوى لكل خائف منذ ظهور المسيحية وشيعها حتى اليوم».

وبعد الاشارة اليه كبلد للأقليات الدينية جريا على ما تواضع السرد الماروني عليه، يسجل من دون أي تحفظ أن «الأنظمة الاشتراكية المرتجلة في مصر وسوريا والعراق وما تبعها من تأميمات غير مدروسة وتضييق على الحريات العامة، تحمل أعدادا غير قليلة من رعايا هذه الدول على اللجوء الى لبنان والاستماتة في سبيل الحصول على الجنسية اللبنانية»، وذلك بعد ان «اعتقدنا ان لجوء الفلسطينيين سيكون الخاتمة».

بهذا يبدو عوض قوميا نموذجيا اذا ما كان المعيار موقف الحزب في الفترة الممتدة بين أواسط الخمسينات وأوائل الستينات، أي في ذاك الجزء من المرحلة التي سادتها الشمعونية، حاكمة ومعارضة، بوصفها التعبير المسيحي الأبرز. فيومذاك اندمج وعي الحزب بالوعي المسيحي المتطرف اندماجا تاما لحمته العداء للعروبية الناصرية (الاسلامية) والميل المحبط ذو الأصل الريفي الى القطع والتطرف... والانقلاب.

وفؤاد الصديق الحميم لانطوان لحد ابان الحياة العسكرية، كان صادقا في رواية ١٩٧٣ عن احداث الخمسينات والستينات. فلا هو قدم تأويلا «يساريا»، ولا هو ابتلع تاريخا «يمينيا». وفي هذا ميزة مزدوجة، اذ فضلا عن الصدق ثمة وهن العلاقة بالحزب وحياته الداخلية، وما يزعم الحزبيون التوصل اليه من افكار.

اهتمامات وملامح

نسأل فؤاد عن وضعه الاقتصادي؟

أقمت دعوى على الدولة وربحتها في ١٩٨٦ من أجل أن أعامل كمتقاعد. عندي أنا

وأخي، وهو مهندس، «شركة الاعمار والتجارة» وهي مؤسسة هندسية تتعاطى المقاولات . . .

هل من صلة بالمهجر؟

أقارب الوالدة في كندا والولايات المتحدة وأقارب الوالد في أوروغواي. جالية كبيرة لنا هناك. جدي لأبي هاجر في ١٩١٠ الى أوروغواي وتوفي فيها.

هل تتابع الصحف والمجلات الأجنبية؟

أقرأ كل الصحف من «تايم» الى «أكسبرس». بالأخص حين كنت في السجن. «أيكونوميست» البريطانية، و«لوموند» اليومية و«لوموند ديبلوماتيك». . كنت في السجن أقرأ كل ما يهرب الي. كل الصحف اللبنانية. أقرأ خاصة كل الأمور التي تتعلق بالقضية الفلسطينية ونزاع الشرق الأوسط وعلاقة سوريا به، وكونت فكرة من مطالعاتي هي وجود خلاف استراتيجي بين الأسد وعرفات . . .

فؤاد طاف العالم كله بحثا عن عروس وتزوج ابنة خالته. نمضي معا:

أدب؟ شعر؟

من كل هالقصص أتذوق الموسيقى الكلاسيكية فقط لا غير. عندي مجموعة كبيرة، وامارس رياضة المشي منذ الخامسة صباحا. كنت مولعا بالتنقيب عن الآثار. اهتم بالفخاريات وغيرها منذ أيام عملي في صور. كانت عندي مجموعة أخذوها بعد الانقلاب. وأنا مولع بتفاصيل التاريخ . . .

سينما؟ مسرح؟

لا . . .

هل من مثالات؟

يقول فؤاد الذي غرز عجلاته في رمال تاريخ امبراطوري بعيد:

على الصعيد العسكري هانيبعل ونابوليون. وعلى الصعيد السياسي الملك فيصل الأول والدكتور عبد الرحمن الشهبندر.

هل أتيح لك أن تعرف العالم العربي؟

بعد ١٩٧٠ زرت دمشق مرارا واجتمعت بمسؤولين. العراق زرته ابان حرب السنتين في مهام حزبية. وكذلك ليبيا واليمن الجنوبي . . . زيارة عمل الى الخليج.

فؤاد الذي يحتفظ بلياقته البدنية معتدل الطول ذو شعر غير كثيف يرده الى الوراء فينقشع

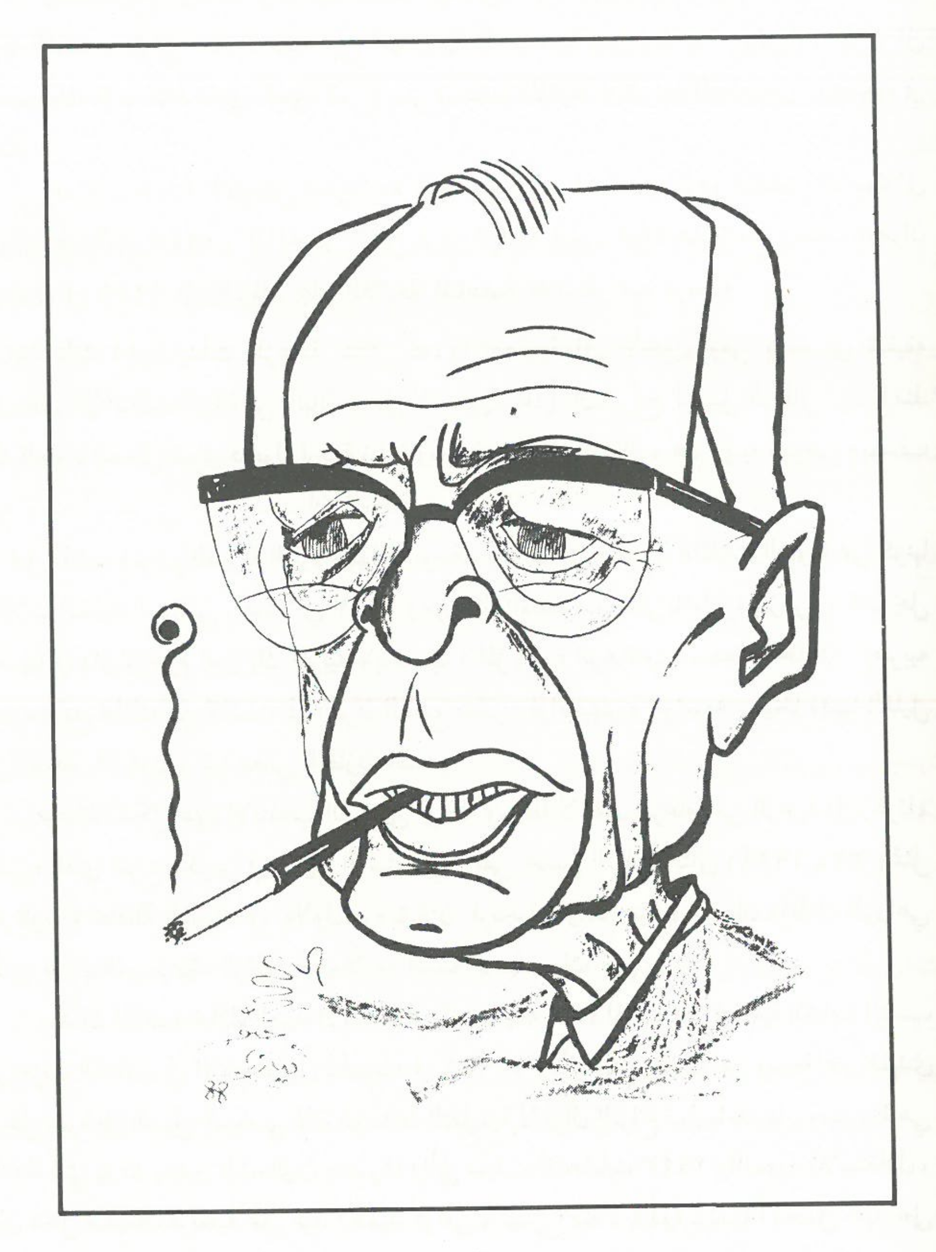
جبين عريض يقبع تحته حاجبان قليلا الشعر وعينان صغيرتان زرقاوان يشكل انعطافهما الى تحت صورة رقم ٨. سالفاه شابا وتغلغل الشيب في شاربيه وظهرت الخطوط في عنقه المتدلية بينما مكث لون أحمر ملحوظ في أعلى الخدين.

وبقبضة صغيرة يرافق السرد تحريكها يروي فؤاد عوض قصة شاب من منطقة طرفية دفعته أوضاعه وأوضاعها الى تمرد شبابي باحث عن وعاء. الوعاء كان الحزب السوري القومي الذي لم يجد له في نفس فؤاد موقعا متمكنا، وبعد الحزب كان الجيش لكن الاحباط بالجيش كان كبيرا. فقائده ارستقراطي لا يحترم الا «الفرنج» ولا يأخذ الا برأيهم، بحسب عوض. وفؤاد «المترفع عن أمور المادة» ساءه ان يمارس هذا الجيش بالتحديد تزويرا انتخابيا ضد. . . . أبيه، بعد أن آلمه وجود «الواسطة» في الجيش.

أما الحزب القومي فاستهوته مبادئه «الاصلاحية» أكثر مما عنته المسألة القومية. ولم ينفصل الحزب في وعيه عن قائد آخر لجيش آخر هو عبدالله سعادة.

وفؤاد دمث لطيف بسيط المقدمات بسيط النتائج طوحت به السنوات الاخيرة. وغرائبها «العقائدية». دخل الى السجن محسوبا على التطرف المسيحي وخرج محسوبا على التطرف الاسلامي. ولبنانيته ورفضه الحالي للعنف يجعلانه اليوم غريبا عن الحزب، لكن السنوات الثماني التي قضاها في السجن كقومي لا يعقل ان تكون استثمارا ضائعا، علما بأنه استثمار غير قابل للتوظيف.

وفؤاد الذي يستيقظ فجرا ويروح يتنقل على المعابر ضجر هذه الأيام. والضجر الذي يقود الى الانقلاب، لماذا لا يقود الى الترشيح للرئاسة. وأكثر مما صار لن يصير!



سليمان فرنجية

ارتبط تاريخ الزعامة الزغرتاوية بعملية تهميش مديد مورس على قرى « الزاوية » المحيطة بمركز القضاء. وترقى هذه العملية التي اتمها زعماء آل فرنجية ومن بعدهم معوض ودويهي، الى يوسف بك كرم الزغرتاوي الذي شرع ينتزع حصة الزاوية وبشري المجاورتين ويضعها في اهدن.

وقد أتت عملية التهميش ثمارها مع المجلس النيابي السادس، وهو المجلس الاستقلالي الأول، في العام ١٩٤٧، إذ اختفى تمثيل قرى الزاوية ليعود عودة عابرة مع وصول انطوان اسطفان في ١٩٥١ الى البرلمان على اللائحة المناهضة للائحة حميد فرنجية.

منذ ذلك الحين بدأت الزعامة تنتقل بصورة حصرية الى الأخير، ومن بعده الى شقيقه سليمان، كما انتقلت النيابة لمن يأتيان به على لائحتهما، علماً بان تاريخ التمثيل البرلماني لزغرتا منذ ذاك العام لم يسجل سوى دخول اربعة زغرتاويين غيرهما الى البرلمان، هم رينيه معوض ويوسف كرم وسمعان دويهي وتوني سليمان فرنجية.

قبل ذلك، وبرغم الضربة التي وجهها لها يوسف بك كرم، حافظت عائلات الزاوية على كونها عائلات التقليد السياسي، فمثلاً في ١٩٠٣ وحين كان المتصرف مظفر باشا يزور زغرتا، كان يحل « ضيفاً في دار المرحوم امين بك طربيه » بحسب « المؤرخ » الزغرتاوي سمعان الخازن. وطربيه احد مشايخ عائلته ممن كانت، في القرن التاسع عشر، اراضيهم « الواسعة سليخاً وفيها القليل من اشجار الزيتون » كما يمضي الخازن نفسه.

وهكذا شكل عهد الانتداب الفرنسي مرحلة وسيطة لانتقال الزعامة من الزاوية الى زغرتا، الشيء الذي شرع يتكرس في العهد الاستقلالي. ففي مجلس النواب الثاني (١٩٢٩ ـ ٣٢) تمثل زغرتاويو « محافظة الشمال »، ولأول مرة بقبلان فرنجية، والد حميد وسليمان والملاك الزراعي الذي بدأ ينافس زعماء الزاوية مكملاً ما اسسه يوسف بك كرم.

بيد ان المنافسة خلال العهد الانتدابي لم تكن بسيطة، بدلالة ان حميد فرنجية الشاب انتسب الى حزب الكتائب في الايام الاولى لتأسيسه في ١٩٣٦، وكأنه بهذا يبحث عن وسيط غير تقليدي يدخل عبره الى العمل السياسي لأن الوسائط التقليدية لا يزال النزاع ضارياً عليها. ومعروفة هي الحادثة التي يؤكد بعض الشماليين حصولها والتي سبقت انتخابات ١٩٤٣ والتمهيد للاستقلال، حين دخل سليمان فرنجية على عبد الحميد كرامي، لينتزع منه ـ بالقوة ـ تعهداً بحمل حميد على لائحته حين كان الشمال دائرة واحدة. واذا نمت الحادثة المذكورة عن ان زعامة الشمال كانت تقليديا في اليد الطرابلسية، فانها تنم أيضا عن وجود متسع من الخيارات التمثيلية في زغرتا ـ الزاوية حتى ١٩٤٣.

والواقع انه حتى ١٩٥١ وكانت الزعامة الزغرتاوية قد بدأت تتكرس على نطاق شمالي، لم

يوفق حميد فرنجية في انجاح اي من اعضاء لائحته (وكانت الدائرة تضم زغرتا والبترون والكورة)، فنجح وحده ونجح خمسة من اعضاء اللائحة المقابلة بينهم ثلاثة مشهودلهم بمخاصمة آل فرنجية : انطوان اسطفان من الزاوية، وقبلان عيسى الخوري من بشري ، ويوسف كرم (الحفيد) من زغرتا نفسها.

لكن اذا كان انهيار العالم العثماني وعلاقاته هو ما شكل الخلفية البعيدة لانهيار موقع الزاوية، فهذا ما لم يحل دون ممارسة العنف الزغرتاوي عليها، بحيث لعب القسر دوراً ملحوظاً، يوازي التحولات الداخلية، في احداث التغير الزعامي. والراهن ان تلك التحولات كانت محدودة جداً وغير مقر بأهميتها واساسيتها، الأمر الذي دفع الزغرتاويين الى استعمال العنف لحمل الآخرين على الاعتراف بها. ففي ١٩٢٥ استحسنت الادارة الانتدابية نقل الدوائر الحكومية، القائمة في زغرتا الى مدينة البترون الساحلية، الا ان النقل رافقته معارضة زغرتاوية حادة ترجمت نفسها بمصادرة الوثائق والاوراق الحكومية والاقدام على اعمال عنف وتكسير. وما لبث ان استقر واقع الحال على تسمية زغرتا مركزاً لقائمقامية قضاء زغرتا ـ الزاوية ومقراً لمحكمة صلحية تابعة لها.

على اية حال فقد رسم العهد الاستقلالي النهاية السياسية للزاوية وعائلات مشايخها اسطفان والضاهر وطربيه، من دون ان تحرز النجاح محاولات عودة انتخابية ارتبطت باسمي الشيخين بطرس الخوري وطانيوس الشمر. وزاد في حدة التهميش السياسي ان سكان الزاوية يشكلون ٦٠٪ من مجموع سكان قضاء زغرتا الذي بات منذ ١٩٦٠ يتمثل بثلاثة نواب كلهم زغرتاويون، كما رأينا.

بيد ان هذا البعد لا يستنفد العلاقة في سائر جوانبها. فابناء الزاوية ممن دفعوا كلفة الانهيار العثماني بادروا سريعاً الى التعايش مع المعطيات الجديدة ومقتضياتها، فكانوا الاسبق الى الانفتاح على بيروت عبر قنوات المصارف والشركات والتجارة والتعليم واموال الهجرة، خصوصاً اموال قرية مزيارة.

وبرغم انكسار نظامهم العائلي الموسع الذي استقر في زغرتا، ظل اهل الزاوية عرضة للاستقواء الزغرتاوي الذي يجد حمايته في زعيم العائلة البطريركي، لا سيما حين يكون مقرباً من النافذين في السلطة او يكون هو نفسه جزءاً منها.

وقد اتخذ هذا الاستبداد عدداً من الاشكال الفجة التي ترقى بداياتها الى الثلث الاخير من القرن الماضي، متفاوتة في قسوتها على عامة الناس والاديرة والملاكين في « سهل الجديدة »، ومن بعدهم على المهاجرين، ومن قرى الزاوية تحديداً صدرت الكتائبية الزغرتاوية في وقت لاحق كمحاولة رد شبه انقلابي على مصادرة التمثيل السياسي الذي مكث طويلاً في عهدة ابناء

« المزارع »، وهي التسمية الزغرتاوية لقرى الزاوية.

لم يكن هذا العامل ضئيل الاثر في التكوين الذي انطوت عليه زعامة آل فرنجية. فقد اتسمت هذه الأخيرة بميل الى المحافظة وضعها في موقع ضدي حيال كل محاولات التوفيق بين الحياة الزغرتاوية والانصبة والنواميس الطبيعية. فهي في موقع ضدي حيال الاحزاب وفكرة الحياة الحزبية، لكنها في موقع ضدي ايضاً تجاه فكرة تقريب التمثيل السياسي من مصادره المفترضة في العلم والثروة، اذ ان مثل هذا التقريب يخل بالمقومات التي نهضت عليها الزعامة اياها.

لكن فيما درس حميد فرنجية المحاماة وعاش في بيروت وكان بمثابة جسر انتقال من الزعامة التقليدية لملاك الاراضي الى الزعامة الحديثة كما هي معمول بها في جبل لبنان، والتي تبوأها محامون واطباء وصيادلة وصحافيون. فان سليمان الذي توقف عند المرحلة الثانوية في مدرسة عينطورة، وعرف بحبه للريف وحياته، كان مثال الزعيم الاهلي الصافي الذي يفضل الابتعاد عن المجتمع المدني ومؤسساته وافكاره.

فهم السياسة

كان ابرز النتائج التي ترتبت على فهم السياسة هذا التكوين للزعامة هي تلك المتصلة بعلاقة زغرتا بالسلطة المركزية، واستطراداً بالعمق الطائفي الماروني في جبل لبنان. فبقدر ما شكلت طائفية الجبل تهديداً للتراتب العشائري الذي استندت اليه زعامة زغرتا، مثل تسلل السلطة المركزية الى تضاعيف العلاقات الزغرتاوية تهديداً بخلق نصاب ومنطق تؤثر الزعامة المذكورة تفاديها.

بهذا المعنى ارتبط صعود نجم حميد فرنجية برعاية رياض الصلح له يوم ان كان دأب الاخير تفريع الرؤوس المارونية وايجاد مقابل لزعامة كميل شمعون الصاعدة، فكيف اذا كان هذا المقابل من خارج جبل لبنان، مهد الزعامة التقليدي؟

وليس من دون دلالة انه في مقابل الاب سمعان دويهي الذي حالف السلطة المركزية في العهد الشمعوني، والمحامي رينيه معوض الذي حالفها في العهد الشهابي، مكث حميد ومن بعده سليمان فرنجية خصمين للسلطة « البيروتية » كائناً من كان المتربع في سدتها، وكأنهما يمثلان « الروح » الزغرتاوية المستعصية على الانضباط في مركز ودورة حياة تتعدى قضاء زغرتا. وفقط حين تبوأ الرئيس فرنجية كرسي الرئاسة في ١٩٧٠ ساس البلد بموجب تلك الروح، معمماً زغرتا على النطاق اللبناني بأسره.

هذه الجفلة تجاه السلطة المركزية هي التي تفسر احد الجوانب الاساسية في المعارضة المتقطعة التي كان يبديها قبلان فرنجية للانتداب الفرنسي، لكنها تفسر ايضاً احد جوانب التعاطف الذي يكنه الزعيم الزغرتاوي لسوريا حين تكون دمشق على علاقة متردية مع السلطة المركزية في

بيروت، الأمر الذي ينطبق على احداث ١٩٥٧ - ١٩٥٨ التي بدأت بمعركة مزياره الشهيرة، انطباقه على سنوات ما بعد ١٩٨٢.

بيد ان لحظات الاقتراب من السلطة المركزية او التماثل معها، تفعم الزعيم الزغرتاوي بحماسة مارونية يتردد في ابدائها الزعيم الجبلي. فبينما يتصرف الأخير باطمئنان الى مارونيته غير المطعون فيها، يتصرف الأول بحدة من يريد اثبات الولاء والنجاح في منافسة الجبليين وتجاوزهم، مضيفا الى موقفه عصبا نضاليا مصدره في الموقف العشيري من العنف والقوة، ناهيك عن نظام قيم تقبع في صدارته الشهامة والاغاثة والفروسية.

بهذا المعنى كان حميد فرنجية، كوزير خارجية اواخر ١٩٤٩، اكثر الرسميين اللبنانيين تشدداً في مسائل العلاقات الاقتصادية والتجارية اللبنانية - السورية، الشيء الذي دفع ثمنه في ١٩٥٢ حين ايدت دمشق ترشيح كميل شمعون لرئاسة الجمهورية متحفظة على ترشيحه.

وبالمعنى نفسه كان سليمان فرنجية، كرئيس جمهورية، الرئيس الوحيد الذي تجرأ في ١٩٧٣ على تكليف الدكتور امين الحافظ بتشكيل حكومة وقف المسلمون جميعاً ضدها، تجرؤه في ١٩٧٥ على الاتيان بحكومة عسكرية على رأسها نور الدين الرفاعي.

وقد تفيد الزعامة الزغرتاوية من صلتها بدمشق فتستعملها لتحسين الموقع الاجمالي للطائفة المارونية بحرج اقل من ذاك الذي يصيب مثيلتها الجبلية ذات العلاقات العربية التي تشوبها الطعون والشكوك.

وفي هذه الوجهة صبت مواقف الرئيس فرنجية الشهيرة في مؤتمر لوزان، بعد ان بز الجميع في مواقفه المؤيدة لدمشق والمناهضة للسياسة الاميركية والاهداف الاسرائيلية، ناهيك عن مصرع نجله على ايدي « القوات اللبنانية » في وقت واحد مع انشاء الضابط سعد حداد لدويلته المحمية الاسرائيلية في الجنوب.

السياسة والرئاسة . .

في اواخر الستينات شكل ظهور المقاومة الفلسطينية وقيام « الحلف الثلاثي » الماروني علامات على ضعف الدولة، وميل السياسة تالياً الى الضمور، وفي ذلك الوقت تحديداً كان وصول فرنجية الى الرئاسة. ففرنجية الذي صدر عن الشمال الماروني الابعد عن التقليد السياسي ليصبح رئيس الجمهورية الاستقلالي الواحد الذي لم يحظ بموقع مهني حديث، هو احد المبادرين مبكراً الى اجابة التحدي العنفي (الفلسطيني يومذاك) بتحد عسكري مضاد،له مقدماته في تكوين الرئيس الزغرتاوي.

فبين النعوت التي درج الزغرتاويون على اسباغها على زعيمهم انه من « يسكر الميدان» و«صاحب الفرد الاحمر»، فضلا عن غلبة « ابو توني » على كل مخاطبة اخرى.

على اية حال وكما هو معروف عمل الرئيس فرنجية قبيل انتخابه على تكوين « جيش التحرير الزغرتاوي » او « المردة » التي عدت لاحقاً قوة ثالثة اساسية من « قوات الجبهة اللبنانية » تملك قوة عسكرية تعد ثالثة ايضاً بعد الكتائب و « الاحرار »، لكنها تضم اكبر عدد من الضباط الموالين لفرنجية معتمدة على مخزون الجيش من اسلحة وذخائر.

لكن ما مثله فرنجية اذاك كان ابعد مدى من ذلك. فالى انتزاع الزغرتاويين زعامة قضائهم من اهل الزاوية، ترك تكوين عائلة فرنجية وحجمها أثرهما على خياراتها السياسية، فالوزن العددي الذي وضع آل فرنجية في المرتبة الثالثة، بعد عائلتي معوض ودويهي دفعها الى عقد احلاف توسع نطاقها الزغرتاوي مع عائلات صغرى اخرى عرفت بـ « لفيف » آل فرنجية كـ «يمين»و « سعادة » وغيرهما.

تعززت هذه « الهوية » الزغرتاوية في واقع ان العائلات الكبيرة الاخرى وجدت لها مرجعيات لبنانية وان كانت ذات منابت محلية. فبينما وجد آل دويهي مرجعيتهم في البطريرك اسطفان دويهي الذي مثل واحدة من اهم صفحات التراث الكنسي والثقافي الماروني، ووجد آل كرم المرجعية نفسها في يوسف بك كرم، واتصل آل معوض بالمركز البيروتي عبر الوسائط الحديثة تجارية كانت ام تعليمية ومهنية، احتل آل فرنجية موقعاً احدث زمنياً من العائلتين الاولين من دون ان ينطوي على المضمون الأكثر جدية لحداثة العائلة الاخيرة.

هذه المواصفات التي دللت على درجة التماثل بين الفرنجية والزغرتاوية، جعلت المشروع السياسي للعائلة يتجه نحو « المركز » بقصد « غزوه » انطلاقاً من موقعه في قضائه . وفي الآن نفسه جعل المركز منذ عهد الانتداب حتى الدولة الاستقلالية في معظم عهودها على شيء من الحذر حيال المشروع المذكور والزعامة التي تحمله.

كن هنا بالتحديد تكمن معضلة المشروع اياه. فموقعه في قضائه لا ينفصل عن « توازن رعب » عائلي يفضي الى العنف وسيلة للسيطرة، او الى « التحالف » المشوب بالتحفظات المتبادلة بوصفه مجرد حقن للدماء.

وهكذا فاللائحة الزغرتاوية التي درج التقليد على فوزها بكامل اعضائها، لا تكاد تجتمع على هدف او معنى: كل واحد منهم يبني صلاته السياسية في العاصمة بمعزل عن الآخر، في حين ان تسوية النزاعات العائلية في داخل زغرتا لا تجد لها اي انعكاس على نطاق السياسات الوطنية العليا.

فمنذ ١٩٦٠ حتى ١٩٧٢ بقي رينيه معوض مرشحا ثابتاً على لائحة سليمان فرنجية ، بعد ان مكث سبع سنوات في ظل حميد، لكنه حافظ خلال الفترة المذكورة على شهابيته، وتوجها في انتخابات ١٩٧٠ الرئاسية بالتصويت ضد سليمان فرنجية . اما سمعان دويهي الذي

يخوض معاركه منذ ١٩٦٤ على اللائحة نفسها فواظب هو ايضاً على ولائه الشمعوني القاطع.
ولا تكتمل صورة الهشاشة السياسية والانقطاع بين العمل على نطاق وطني ومصادره في القضاء، الا بالاشارة الى التحولات التي طرأت على العلاقة بين آل فرنجية وبين « اللفيف » التقليدي.

ففي السنوات الاخيرة وتحت وطأة التعليم والرسملة والاتصال ببيروت، شرعت ترتفع بعض اصوات الشبان الطامحين مؤكدة على « عراقة » عائلاتهم هي الاخرى، حتى اذا ما اعلن المهندس ميلاد يمين ترشيحه للمعركة الانتخابية منع بالقوة من الوصول الى زغرتا، فيما كان قبلان حميد فرنجية يواجه لائحة ابنة عمه وينال ٤٤٠٩ اصوات.

والراهن انه بعد احداث ١٩٧٨ وما افضت اليه من قطيعة بين زغرتا والمنطقة المسيحية في بيروت وجبل لبنان، زادت حدة هذه النبرة تحت وطأة العجز عن تلبية المصالح التي لا تحصى. وفي الحالات كافة ظل من الصعب تضمين السياسة عقلنة مماثلة لما انتجه التقدم المستقر وشبه المتكافىء الذي عرفه موارنة الجبل.

من الرئاسة الى العهد

وصل سليمان فرنجية الى سدة الرئاسة في ١٩٧٠ بعد ان سلك طريقاً لم تخل من مصاعب وتعقيدات. فحين حل اللواء فؤاد شهاب في رئاسة الجمهورية في ١٩٥٨ كان من الطبيعي ان يؤيده سليمان الذي لم يكن نائباً ، تبعاً لخصومته مع العهد الشمعوني بما الجاه الى الانتقال الى سوريا، ناهيك عن الاجماع الذي حمل بنتيجته فؤاد شهاب، وهو من ربطته علاقة صداقة بحميد الذي اقعده المرض في ١٩٥٧.

وخاض سليمان فرنجية معركته الانتخابية الاولى في ١٩٦٠ على رأس لائحة ضمت رينيه معوض ويوسف كرم، وفازت اللائحة كلها فيما حصد الهزيمة مرشح آل دويهي ذو الهوى الشمعوني، الاب سمعان.

وجيء بفرنجية وزيراً للمرة الاولى ايضاً، فتسلم وزارة البريد والبرق والهاتف في الحكومة الموسعة الاولى التي شكلها الرئيس صائب سلام في العهد الشهابي، الشيء الذي تكرر في الحكومة السلامية الثانية في العهد نفسه. لكن وزارة البريد والبرق ما لبثت ان منحت لنائب زغرتا الشهابي رينيه معوض في الحكومة التي شكلها الرئيس رشيد كرامي في ٣١ تشرين الاول ١٩٦١ واستمرت حتى شباط ١٩٦٤. وكان هذا الاستبدال، فضلا عن الخدمات التي اتاحها العهد لمعوض، كفيلة بافهام سيد زغرتا ان شهاب لا يستسيغ كثيراً سادة المناطق.

ولم يتأخر فرنجية في الرد، فتصالح مع الرئيس شمعون وحليفه المحلي الاب سمعان دويهي

الذي اصطحبه على لائحته في انتخابات ١٩٦٤ وأحله محل يوسف كرم، مكررا التركيبة نفسها في ١٩٦٨. وفي هذه السنة الاخيرة وكانت قد ارتفعت نبرة المعارضة للشهابية واجهزتها، فيما راح حلفاؤ ها ينفضون عنها الواحد تلو الاخر، جهر سليمان بمعارضته لمشروعها الصارم في بناء دولة تمد شبكتها الى سائر المناطق والاطراف، ويذهب دعمها المحلي للمحامي رينيه معوض الذي محضها الولاء.

ومن ضمن هذا السياق شارك سليمان فرنجية كوزير داخلية في حكومة انتخابات ١٩٦٨ النيابية في الانقلاب على السنوات الماضية ورموزها. حتى اذا دخل البرلمان الجديد ساهم في بناء « كتلة الوسط» التي ضمت اليه الرئيس كامل الاسعد المتحفظ بدوره على الشهابية، والرئيس صائب سلام احد اشرس نقادها.

لم يكن خافيا ان برلمان ١٩٦٨ سيكون برلمان الاعداد للانتخابات الرئاسية المقرر اجراؤ ها في ١٩٧٠. لكن المرشحين كثر وصرخة حربهم واحدة: استكمال اسقاط الشهابية. الا ان خط فرنجية بالوصول الى الكرسي الاولى نجم عن عوامل متعددة ومتنافرة:

فأقطاب « الحلف الثلاثي» ممن احرزوا نجاحات انتخابية باهرة في ١٩٦٨ كانوا كلهم مرشحين احتياطيين للرئاسة، وكل واحد منهم (شمعون، الجميل، اده) يفضل ان لا تكون الكرسي من نصيب حليفه اذا استحال ان تكون من نصيبه.

لقد عمل تنافس الثلاثة في ما بينهم، والذي عززه تاريخ الاحقاد الجبلية، على استبعاد الثلاثة وحملهم الواحد بعد الاخر على مبايعة فرنجية. فهو شمالي بعيد عنهم وعن حساباتهم الابرشية المباشرة، وهو من ناحية اخرى ماروني لا يقبل الطعن في حماسته للدفاع عن الطائفة.

ففي ١٩٦٩ كان فرنجية قد اسس « لواء المردة» في مناخ التسابق على انشاء تنظيمات مسلحة تقف في وجه السلاح الفلسطيني. وقبيل معركة الرئاسة نشر مقالا في صحيفة « النهار» واعتبر يومها بمثابة « البرنامج». والمقال الذي حمل عنوان « وطني دائما على حق» كان في مجمله توكيدا على السيادة بما لا يكتم التحديد المداور للأطراف المهتمة بانتقاصها.

في المقابل فان الاقتراع لفرنجية لن يكون محرجا للزعامات المسلمة المعارضة للشهابية بالقدر الذي يشكله احراج الاقتراع لواحد من رجالات « الحلف الثلاثي» بعد كل موجة التحريك الطائفي التي شهدتها انتخابات ١٩٦٨ . ففرنجية عضو في كتلة تضم اليه قطبين مسلمين، وهو سبق له ان شارك في « ثورة ١٩٥٨» المناهضة لحكم شمعون الموصوف بالتطرف الماروني، ناهيك بصلاته الوطيدة مع المسؤ ولين السوريين.

وأجريت الانتخابات وفاز سليمان فرنجية على خصمه الشهابي الياس سركيس بفارق صوت واحد، فيما بدا واضحا ان هذا الفارق الضئيل يعكس حدة الاستقطاب السياسي القائم

من دون ان يخفي احتمالات انفجاره في المجتمع.

بيد ان الظرف السياسي الذي احاط بولاية فرنجية لم يكن مما يحسد عليه الرجل. فالمقاومة الفلسطينية المسلحة كانت قد مكنت وجودها في لبنان وراح الانقسام الاهلي من حولها ينتشر نارا تحت رماد سلم بارد. وجاءت احداث ايار ١٩٧٣ لتفجر الصراع بين الجيش اللبناني ومن ورائه المسيحيون والمقاومة الفلسطينية ومن ورائها المسلمون، بعد ان قامت فرقة كوماندوس اسرائيلية باغتيال ثلاثة من القادة الفلسطينيين (ابو يوسف النجار، كمال عدوان وكمال ناصر) في فردان ببيروت. وربما كان من المقيض لهذه المعارك (التي انتهت باغلاق الحدود السورية) ان تعاود الظهور لولا قيام حرب تشرين العربية ـ الاسرائيلية التي ادرجت وضع المنطقة في سياق اخر.

لكن حرب تشرين، حيث وقف فرنجية بصلابة الى جانب سوريا، لم تكن غير فاصلة او هدنة. فمع سياسة « الخطوة خطوة» الكسينجرية وما افضت اليه من ترتيبات لفك الاشتباك، انحصر جزء كبير من الصراع العربي ـ الاسرائيلي في لبنان الذي تصرفت حياله بلدان عربية كثيرة وكانه اسفنجة تمتص تناقضاتها.

وهكذا اندلعت الحرب الاهلية في ١٩٧٥، اي السنة ما قبل الاخيرة من ولاية سليمان فرنجية. ووجد الرجل نفسه يخوض المعركة، مباشرة او مداورة، بضراوة وعناد، وهو الذي كان قبل عام واحد قد توجه الى الامم المتحدة للدفاع عن الحق الفلسطيني فيها.

مع هذا فالظرف العربي العام لا يعفي فرنجية من مسؤ وليته في ادارة الدولة، والتعامل تاليا مع القوى السياسية والطائفية ومطالبها، الشيء الذي أعدم على مدى خمس سنوات، كل امكانية لتوليد درجة من الوحدة اللبنانية تجاه التطورات الاقليمية والوجود الفلسطيني المسلح.

بين زغرتا والمؤسسات

خلال سنوات عهده اخذ الكثيرون من نقاد الرئيس فرنجية عليه ما اعتبروه ميلا زغرتاويا حادا، حتى ان ريمون اده الموالي يومذاك لم يقتصد في الكلام العلني عن سيطرة الزغرتاويين على الادارة العامة، ليرد بعد يومين فقط على وزير الداخلية بهيج تقي الدين متسائلا عن الزغرتاوي الذي اطلق النار على تظاهرة طلابية.

وفي اليوم نفسه من كانون الثاني ١٩٧٤ اعترض كميل شمعون على ما سبق ان نقل عن لسان رئيس الجمهورية في معرض الدفاع عن سياسته، من ان زغرتا تشكل ١٠٪ من الموازنة، تاركا لكمال جنبلاط، الموالي هو ايضا حتى ذلك الحين، ان ينبه الى ان « وضع طرابلس حساس جدا لان زغرتا على مشارفها».

لم تقتصر الاشارات الى زغرتا على توظيف الزغرتاويين في الادارة العامة واستقوائهم على الاخرين بوصول فرنجية الى الرئاسة. فكثيرا ما ترددت انتقادات طالت اثر هذه « الزغرتاوية»

على الحياة السياسية وصولا الى ذروتها في المؤسسة الرئاسية.

فبرغم مماشاته يومذاك للعهد، تساءل جنبلاط «لماذا لا تعلن زغرتا استقلالا ذاتيا؟» فيما كان يعلق على فرض عقوبات تأديبية ضد اربعة ضباط و ٥٥ دركيا لاتهامهم باطلاق النار على زغرتاوي تبعه اطلاق نار على سيارة قائد الدرك، بما حمل توني فرنجية على اتهام سلك الدرك بالعصابات.

ومن المعروف ان انتخابات ١٩٧٢ سجلت دخول توني فرنجية الى البرلمان نائبا عن زغرتا، ودخول عبدالله الراسي صهر الرئيس فرنجية الذي عمل طويلا كطبيب في السعودية نائبا عن عكار. وعندما كلف نائب طرابلس امين الحافظ تشكيل حكومته في ٢٥ نيسان ١٩٧٣ عين توني فرنجية وزيرا للبريد والبرق والهاتف، كما كلف بمهام الوزارة نفسها في حكومتي تقي الدين ورشيد الصلح اللتين شكلتا في تموز ١٩٧٣ وتشرين الاول ١٩٧٤.

وبينما عين الراسي طبيبا خاصا في القصر عين الصهر الثاني فرانسوا مونارشا مهندسا في الجيش والصهر الثالث رودريك دحداح رئيسا لمجلس ادارة شركة انترا للاستثمار، وتولى الزغرتاوي وجيه سعادة ادارة الكازينو فيما انيطت شؤون الاعلام بمحام زغرتاوي هو رامز الخازن.

وواجهت المؤسسة الرئاسية تهما متعددة المصادر بما حمل رئيس الجمهورية شخصيا، وفي لقائه الشهري مع الصحافة، على تسليم نقيب الصحافة وثيقة بتواقيع افراد اسرته تقضي بتحويل الاموال التي تكون آلت اليهم بطريقة غير شرعية الى النقابة.

بيد ان الشبهة بلغت سائر المؤسسات الفاعلة في دولة بات يسهل تحديها من دون التزام بأي اجماع سياسي او دستوري. فالبرلمان تردى اداؤه تحت وطأة ما اسمي «البرلمان المصغر» الذي كانته الحكومة. فحكومة صائب سلام الثانية ضمت ١٨ وزيرا وكذلك حكومة رشيد الصلح، فيما ارتفع عدد الوزراء في حكومة تقي الدين الصلح الى ٢٢، فيهم الجنبلاطي (تقي الدين وتوفيق عساف) والشمعوني (نصري المعلوف، كاظم الخليل، ميشال ساسين) والكتائبي (ادمون رزق، جوزيف شادر) والكتلوي (اميل روحانا صقر) والاسعدي (فهمي شاهين) والسلامي (نزيه البزري) والطاشناقي (سورين خان اميريان)، ناهيك عن المحسوبين على العهد، وبعض «الاقطاب» الاخرين كصبري حمادة وجوزيف السكاف ومجيد ارسلان.

ومثل هذا البرلمان المشلول بفعل سعة التمثيل الوزاري اضحى عرضة لتهكم الكتّاب والمعلقين، فاسماه احدهم «تعاونية ساحة النجمة» واخر «مكانا للكلام غير المجدي» وهكذا دواليك.

لكن توسيع الحكومات لم يعن بدوره اضعافا للبرلمان وحده. فالضعف انتاب ايضا مؤسسة رئاسة الحكومة التي حاول الرئيس فرنجية ضم قوتها الى قوته.

فمن اصل ستة رؤساء تعاقبوا على رئاسة الحكومة رفض المسلمون اثنين احدهما عسكري، وحكمت النظرة الاسلامية على الثاني بانه «كان يدخل على رئيس الجمهورية ويستلم منه اوامر ضد الفلسطينيين، وعندما كان يحاول ان يبرر هذه الاوامر على شاشة التلفزيون، كان جماعة الرئيس يحاصرونه ويشدونه على مرأى من الناس ويأمرونه بالتوقف عن الكلام والدخول لمقابلة الرئيس. جرى هذا امام قصر بعبدا واحس المسلمون ان الاهانة كلها لهم» بحسب قول الرئيس صائب سلام.

وهكذا عاشت حكومة أمين الحافظ من ٢٥ نيسان حتى ٨ تموز ١٩٧٣، فيما عاشت الحكومة العسكرية برئاسة نور الدين الرفاعي من ٢٣ ايار حتى اول تموز ١٩٧٥، ومن بين رؤساء الحكومة الستة شكل اثنان (تقي الدين ورشيد الصلح) حكومتيهما للمرة الاولى، اي ان العهد ادخل الى «نادي» رؤساء الحكومة اربعة اسماء جديدة.

أما حكومة الحافظ تحديدا، فعين فيها عن السنة وزيران هما بهيج طبارة وزكريا النصولي كانا من خارج البرلمان ونظر الى تمثيلها الطائفي كما نظر الى تمثيل رئيس حكومتها.

لقد كانت هذه الحكومة الضعيفة، في واحد من وجوهها، ردا على انفصام التحالف مع الرمز السني الابرز في مجيء العهد ودعمه، صائب سلام، وهوردٌ افضى الى انشاء تكتل اسلامي عريض وشبه شامل في وجه الحكم لا ينقصه الا التحول الى حرب اهلية. والامر نفسه تكرر مع تشكيل الحكومة العسكرية حيث بدأت تنعقد في مواجهتهاوبقصد اسقاطها اجتماعات اسلامية في دار الفتوى.

وهكذا تضافرت التحديات الفلسطينية المسلحة وارتباك الحكم وضعف الحكومة لاستبدال مثول حكومة الحافظ امام المجلس النيابي طلبا للثقة، كما يقضي الدستور، بفرض حالة طوارىء عامة وتسلم الجيش مسؤولية الامن في البلاد.

واذا كان العهد قد دشن اعماله باطاحة رموز الاجهزة الشهابية، مدخلا تقاليد السجن والنفي الى العلاقة مع المؤسسة العسكرية، فان تلك الاجراءات شكلت تعبيرا صارخا عن الانقلابية المضادة التي املاها جزئيا سلوك الشهابية الحاكمة، وجزئيا استقبال العهد الجديد للتطورات وفهمه للامور المطروحة. لكن كائنا ما كان مصدر المسؤولية يبقى ان الانقلابية المذكورة تعدت الطعن بمبدأ استمرارية المؤسسات في النظم الديموقراطية، الى المساس بالمؤسسة العسكرية نفسها.

والراهن انه ما ان اصدر المجلس العدلي حكمه في قضية صفقات الاسلحة، حتى تكشف للعيان اي سوس ينخر مؤسسة بالغت الشهابية في تنزيهها عن المعاصي. ترافق ذلك مع اضعاف مباشر للمؤسسة تحدث عن بعضه لاحقا رئيس الشعبة الثانية في عهد فرنجية، جول بستاني

الذي قال في كتابه « اقدار وتوقعات» ان الجهاز بات يتابع « المهمة بامكانات بشرية ومادية ضعيفة. مثلا خفضت المصارفات السرية ايام معالي الوزير سابا الى ستماية الف ليرة لبنانية، وفي نهاية قيادتي ارتفعت المخصصات السرية الى مليونين واربعماية الف ليرة لبنانية لم يصرف الا حوالي خمسها بينما احتجز الباقي منها لاسباب امنية وسياسية». ولم يفت بستاني ان يقارن هذه الارقام ببلوغ « رصيد النفقات السرية السنوية لاحد اجهزة المخابرات العسكرية العربية نحو سبعة عشر مليونا من الليرات اللبنانية».

وما بين الموت الغامض الذي لقيه، في بداية العهد، قائد الجيش جان نجيم، والمآل الذي استقر عليه الجيش اواسط السبعينات كما يصف بستاني بعضه، راحت المؤسسة العسكرية تهزل وتضمر، فيما تتزايد تحديات المنطقة ولبنان.

بهذا المعنى تم تحويل المجتمع بكامله الى ساحة من التوازن العضلي الذي لا تستقل عنه الدولة ولا تشرف عليه، فاستقرت الحال على الصورة الاجتماعية التي رسمها المسؤول العسكري الذي سبق الاستشهاد به:

(تعادل قوة المقاومة قوة الجيش وتستطيع شله وتعطيل عمله، ويقدر تجمع اليسار والتقدميين والمحرومين والطائفيين السنيين على مجابهة قوى اليمين». وفي هذا المناخ من التداخل بين المجتمع ذي الاستقطاب الحاد والدولة في لحظة تفسخها، يفقد الجيش مناعته حيال ما هو خارجه، فيتم الكشف عن وجود « ٨٦ عسكرياً حزبيا و ٣٥ عسكريا يتعاملون مع جهات غريبة وبعض سرقات الاسلحة ومحاولة عصيان وتمرد. ويصير لبنان تاليا « حديقة من دون سياج» كما وصفه قيادي فلسطيني (شفيق الحوت) لم يرق له انتهاز الثورة الفلسطينية لمثل هذا الواقع اللبناني البائس.

في هذا المناخ اندفعت كل واحدة من الجماعات الاهلية الى الاعتماد على « جيشها»، فيما اندفع مطلب الحماية الذاتية، لاسيما عند الفلسطينيين والموارنة، الى حد هو بالضرورة هجومي من زاوية نظر الطرف المقابل.

حيال ذلك، تحول التدهور الامني الى هاجس لبناني متصدر، ففي ليلة رأس السنة ١٩٧٣ ـ ٧٤ مثلا، وصف عدد من السياسيين الحال التي عاشها البلد بأنها «حالة حرب . . . آمنة» بينما قدر احد خبراء السلاح قيمة الرصاص الذي اطلق بخمسة ملايين ليرة، وصارت عبارة العهد «ناموا وابوابكم مفتوحة» مدعاة للنكت الشعبية.

قبل ان تصل الامور الى هذا الحد كانت تجربة «حكومة الشباب» (١٩٧٠ ـ ٧٢) قد دللت على طغيان شكل وحيد من أشكال بت الامور الخلافية، بين الحكم والحكومة. فالاستقالة هي الجدار الذي اصطدم به كل من الوزراء غسان تويني وحسن مشرفية واميل بيطار والياس سابا، بما

أفسح المجال في ٢٧ أيار ١٩٧٢ لتشكيل الحكومة السلامية الثانية في عهد فرنجية والتي ضمت دفعة واحدة كلا من صبري حمادة ومجيد ارسلان وبشير الاعور وسليمان العلي وكاظم الخليل وجوزيف السكاف، والتي أقيل منها وزير التربية المغرد خارج سربه هنري اده. والراهن ان هذا الاحباط المبكر للتجربة الاصلاحية كان له دور تسريع الارتداد الى سياسات وسلوكيات تم التطرق الى بعضها.

أخطر من ذلك كله ان تردي عمل المؤسسات ترافق مع ضيق هامش الاجماع بين اللبنانيين، وهو ما يفترض بالمؤسسات ان تصوغه وتستخلصه. فبينما كانت المقاومة الفلسطينية تبني مواقعها السياسية والعسكرية والايديولوجية، راح الاستقطاب الاسلامي يتجسد في ثلاث دعوات تتحالف كل منها مع المقاومة بطريقتها الخاصة التي تنم عن خصوصيتها.

واذا ما اعتمدنا تقسيم هذه الدعوات تبعا لتدرجها من الاعتدال الى الراديكالية، وجدناها في : المطلب السني في «المشاركة»، والمطلب الشيعي في «ازالة الحرمان»، والمطلب الدرزي ـ اليساري في «الاصلاح السياسي». ولأن الدعوات المذكورة كانت على مرمى حجر من مصادر التسليح، كان طبيعيا ان يؤدي العزوف عن محاورتها الى جعل الصدام المفتوح افقا وحيدا للعلاقة.

فالدعوات الثلاث ما كان لها ان تتضخم لولا الفهم السائد يومذاك لـ «الدولة» بوصفها مصدر قوة أكثر مما هي خدمات وافكار وقيم وقدرة على اعادة انتاج التسوية السياسية وابداعها بموجب ظروف جديدة.

فالموقف الاجتماعي والايديولوجي المحافظ الكامن على الاقل في اثنتين من الدعوات الثلاث المذكورة، لم يجد آذانا صاغية وغلبت مشاعر المكابرة الاهلية «ورد الدين» لحلفاء كالرئيس كامل الاسعد. أي ان السلطة يومها لم تبد اية قدرة على تجديد الاجماع الذي بدا المجتمع متزايد الافتقار اليه، كما لو انها تدفع بالمعارضة الى خيار عنفي، لا يعدم اغراءاته الكثيرة وغابات سلاحه المنتشرة والمتدفقة.

النمو والتنظيم

نظر الكثيرون الى عهد الرئيس فرنجية من زاوية كونه انتصارا للعلاقات والقيم الاهلية الخام، متسائلين عن قابلية هذا الانتصار للتكيف مع مستجدات اقتصادية ـ اجتماعية مضطردة.

فالذهنية التي سادت تلكأت عن نمو تدريجي كان التوسع اللبناني يملي سوسه وقيادته ويقترحهما.

ويكفي ان نراجع بعض الارقام للتأكد من درجة التوسع في سائر المرافق بما يوجب مواكبتها على الصعد الفكرية والمؤسسية والتنظيمية.

لقد ارتفعت الاعتمادات المرصدة للموازنة ما بين ١٩٧٠ و١٩٧٥ من ٧٣٦.٦٢٥,٠٠٠

ليرة الى ١,٦٠٧,٧٧٥,٠٠٠ أي بما يتجاوز الضعف، وبسبب هذا التعاظم في «ورشة العمل» اللبنانية استقدم خبراء من صندوق النقد الدولي للاطلاع بالتفصيل على الموازنة والعمل على تحديثها.

في النطاق التربوي شهدت موازنة الجامعة اللبنانية نموا متسارعا يحاول ان يضاهي ارتفاع عدد طلابها، ومحاولتها اللحاق بتشعب الحقول وتقسيم العمل في مجالات المعرفة. فمن ١٢,٦ مليون ل. ل. في ١٩٧٠ رصد مشروع الموازنة ٤٦,٧ مليونا للعام ١٩٧٤ ـ ٧٥. كذلك ارتفع عدد المدارس الرسمية بارتفاع اعداد طلابها ومعلميها، فالثانويات، مثلا، التي بلغت في ١٩٧١ ٤٧ مدرسة اضحت تعد ٧٠ مدرسة في ١٩٧٥، ومدرسو المرحلتين الابتدائية والمتوسطة ارتفع عددهم في المرحلة نفسها من ١٣٤٢٢ مدرسا الى ١٨ ألفا.

ولم تكن الوسائط المالية والخدماتية أقل عرضة للتوسع، وان ظل التوسع أضيق من الحاجات المطروحة. فقد تطور حجم المبادلات المالية بوتيرة آلت الى اعادة تنشيط بورصة بيروت بعد ان اضعفتها احداث اواخر الستينات. أما المطار فبين ١٩٧٠ و١٩٧٤ ارتفعت حركة طائراته من ٣٨,٧٦٣ طائرة الى ٤٤,٥٣٩، وحركة ركابه من ١,٥٥٨,٥١٦ راكبا، الى ٢,٧٤٨,٢٩٩، والبضائع المنقولة عبره من ٥٨٣٦٠ طنا الى ١١٨٤٣١. وبالنسبة للاسطول البحري، فالسفن اللبنانية زاد عددها بين ١٩٧٠ و١٩٧٥ من ٣٦ باخرة مجموع حمولتها ٥٩ الف طن الى ١٣٤ محمولها ١٧٥,٣٢٤ طنا.

ولقد نما جهاز الموظفين في مجال الخدمات البريدية والبرقية من ١٥٩٨ موظفا في ١٩٧٠ الى ٢٥٩٨ موظفا في ١٩٧٥، وبين ١٩٥٠ و ١٩٧٥ كان قد ارتفع عدد مكاتب البريد والبرق من ٧٠ مكتبا الى ٢٠٥، وزادت العلب البريدية من ٢٠٠٠ علبة الى ٢٥,٥٢٥. وبدوره ارتفع عدد المشتركين في الهاتف من ١٢ ألف مشترك في ١٩٥٠ الى ٥٢ ألفاً في ١٩٦٠ فالى ٢٠١ الف مشترك في ١٩٧٤، وبينما لم يكن عدد المشتركين في التلكس في ١٩٦٢ غير ٢٤ مشتركا ارتفع العدد في ١٩٧٤ الى ١٧٠٠، وزادت الخطوط الدولية من ١٤ خطاً في ١٩٦٥ الى ١٥٠ خطاً في ١٩٧٤.

وفي ١٩٧٣بدا واضحا ان الاقتصاد اللبناني خطا خطوة متقدمة نحو اندماجه في الاقتصاد الدولي المتجه نحو الترابط والتكامل والكونية. ففي ١٢ شباط من ذلك العام خفضت الولايات المتحدة سعردولارها فيما كان ارتفاع اسعار الانتاج والتضخم البادي في الدول الصناعية يعكس تأثيراته الحادة على لبنان. وبنتيجة هذه التحولات ظهر الحاح متعدد الوجوه على الدمج بين الاقتصاد الحر وبين وضع «مخطط متكامل» يحول دون بقاء الافادة اللبنانية من العوامل المحيطة افادة عفوية او ظرفية.

فمثل هذا المخطط هو ما يناط به رسم حدود القطاع العام وادواره في تأمين القاعدة التشريعية والمؤسسية الملائمة لتحريك كافة فعاليات الاقتصاد اللبناني، في خدمة اهداف التنمية.

فاذا صح القول باستحالة لبنان وديمقراطيته بمعزل عن الاقتصاد الحر، فمن الصحيح ايضا ان هذا التوسع الهائل ما عاد قادرا على التعايش مع الرأسمالية المطلقة للقرن التاسع عشر، كما بشر بها ميشال شيحا والخبير البلجيكي فانزيلا الذي جيء به الى لبنان اواخر الاربعينات. فبسبب من هذا التفاوت الضخم بين القطاع الخاص ذي التقاليد والجذور، والقطاع العام الذي يفتقر الى أبسط المقومات ويعوزه ادنى حدود الضبط والتنظيم وصلنا الى وقت لم تعد خدمات القطاع العام (طرق، مرفأ، بريد، الخ) قادرة على اللحاق بالقطاع الخاص وحركة استيراده النشطة، فراحت تظهر الاختناقات في المرفأ والمطار وسائر اوجه الخدمات.

وفضلا عن المشاكل الناتجة عن الالية الاقتصادية نفسها وعن الحاجة الى السيطرة عليها وتنظيمها، كانت ثمة ابعاد اخرى تفاقمها العناصر السياسية والاقليمية المحيطة.

فمن العملية العسكرية الاسرائيلية في ١٠ نيسان ١٩٧٣الى صدام ايار مع المقاومة الفلسطينية وما استتبعه من اغلاق للحدود السورية مع لبنان، وصولا الى حرب تشرين الاول من السنة نفسها، كان الدفع يتزايد في وجهة الاضطرار الى التنظيم. واذا كانت الصناعة اللبنانية في تلك السنوات أكثر ما يستحق التباهي بانجازات القطاع الخاص، اذ برغم احداث العام ١٩٧٣ وصعوباتها ارتفعت الزيادة الاجمالية في قيمة الصادرات الصناعية سنة ١٩٧٣ بالاسعار الجارية ١٠٠ مليون ليرة لبنانية، بنسبة ٢٩,٢٪ الى عام ١٩٧٢، فان ذلك لم يعف المعنيين بالنمو الصناعي من ابداء تخوفهم وقرع نواقيس الخطر.

فاعادة فتح قناة السويس وبعض الاجراءات الاقتصادية التي اتخذت في الجوار العربي جعلت من الملح وضع خطة للتنمية الصناعية بالتعاون بين القطاعين الخاص والعام.

فاذا ما أضفنا الى ذلك كله تدهور الاداء البرلماني بما ينطوي عليه من تشريعات، وتدهور الاوضاع الامنية التي تحرس الازدهار الاقتصادي وتحضنه، امكننا تقدير درجة اللهاث الرسمي وراء حركة التوسع التي تطلقها مبادرة المجتمع، ويحدثها نموه.

بعد الرئاسة

مع نشوب الحرب الاهلية ـ الاقليمية في ١٩٧٥ عد الرئيس فرنجية طرفا فيها وقصف قصره بعد ان قاطعه رئيس الحكومة رشيد كرامي فاستعاض عنه وعن حكومته بنصف حكومة حل في رئاستها كميل شمعون.

وعلى أثر قصف قصره انتقل فرنجية الى الكفور في فتوح كسروان، حيث ترأس جبهة

المقاتلين المسيحيين التي عرفت باسم المكان اياه، وكانت جنين ما سمي لاحقا بـ«الجبهة اللبنانية».

بعيد تلك المرحلة المضطربة حيث انشطر الجيش من دون ان تتضح المعالم الكاملة للسياسة السورية حيال النزاع اللبناني، أمكن التوصل الى «وثيقة دستورية» رعتها دمشق ووافق عليها الزعماء السنة «التقليديون» لأنها استجابت، بشكل او بآخر لمطلبهم المتمثل في «المشاركة».

وبهذا المعنى اصاب فرنجية عصافير عدة بحجر واحد: لم يتزحزح عن الموقف الماروني المتصلب من دون ان يفقد صداقة دمشق، ولم يصطدم بالتكوين المتعدد الطوائف للواقع اللبناني.

وجاء الدخول السوري في ١٩٧٦ بطلب منه، والذي فسر البعض غايته بأنها دعم الموقف المسيحي، ليتوج ما اعتبر، في عرف فرنجية، حالة نموذجية لالتقاء المصالح والرغبات.

بيد ان شهر العسل السوري ـ المسيحي لم يعمر طويلا. فمن الاحتكاكات اليومية بين الجنود السوريين في المناطق الشرقية، ورجال بشير الجميل، الى زيارة الرئيس المصري انور السادات الى القدس، توافرت ظروف جديدة لاعادة النظر بالمنطق الذي ساد العام ١٩٧٦وشهد انتخاب الياس سركيس رئيسا للجمهورية كعلامة توافق سوري- مسيحي (بموازاةقمتي الرياض والقاهرة كعلامتي توافق عربي ـ عربي).

وتركت هذه التحولات آثارها على الرئيس فرنجية الذي لم يقبل استبدال الخيار السوري بميل مستجد داخل الطائفة الى الانفتاح على اسرائيل، فيما أذكى التباين بين الطرفين نموحزب الكتائب في الشمال، بما فيه زغرتا، في ظل العباءة الفضفاضة للتحالف بين فرنجية والحزب المذكور.

ومع مقتل المسؤول الكتائبي الزغرتاوي جود البايع بلغ الصراع ذروته ليبلغ ذروة اعلى في الرد الكتائبي ممثلا بمذبحة اهدن التي ذهب ضحيتها النائب طوني فرنجية وافراد اسرته وعدد من محازبيه.

وبدوره لم يقتصد فرنجية في الانتقام من كتائب الشمال او الذين اخذوا بجريرتهم، من دون ان يستطيع التوافق على العهد السركيسي لجم دورة العنف، خصوصا وقد احاله النزاع السوري ـ المسيحي الى توافق هش وبالغ الشكلية.

وفيما هيأت عائلة فرنجية نجل سليمان الثاني، روبير، ليحل محل شقيقه الراحل توني في التعامل مع ما هو سياسي، أنيط بسليمان الصغير، نجل توني، ان يتولى المهام العسكرية، هذا التقسيم للوظائف قد تترتب عليه آثار تطال ذيولها مستقبل الزعامة الزغرتاوية.

على اية حال استمر فرنجية يضغط على العهد السركيسي، الى جانب آخرين بهدف دفعه الى حسم مستحيل يجعله اما مارونيا كاملا او سوريا كاملا. وهذه القطيعة التي اتسمت بها تلك الفترة كانت بمثابة التعبيرعن الجو السياسي ـ النفسي الناجم عن اغتيال توني على ايدي مسلحين

كتائبيين.

الا ان الاجتياح الاسرائيلي وما اعقبه من وصول بشير الجميل الى رئاسة الجمهورية، أضفيا لونا من المرارة الراديكالية على مواقف فرنجية، الذي أثر بالتحالف مع الرئيس رشيد كرامي ابقاء محافظة الشمال خارج الترتيبات السياسية الجديدة في بيروت.

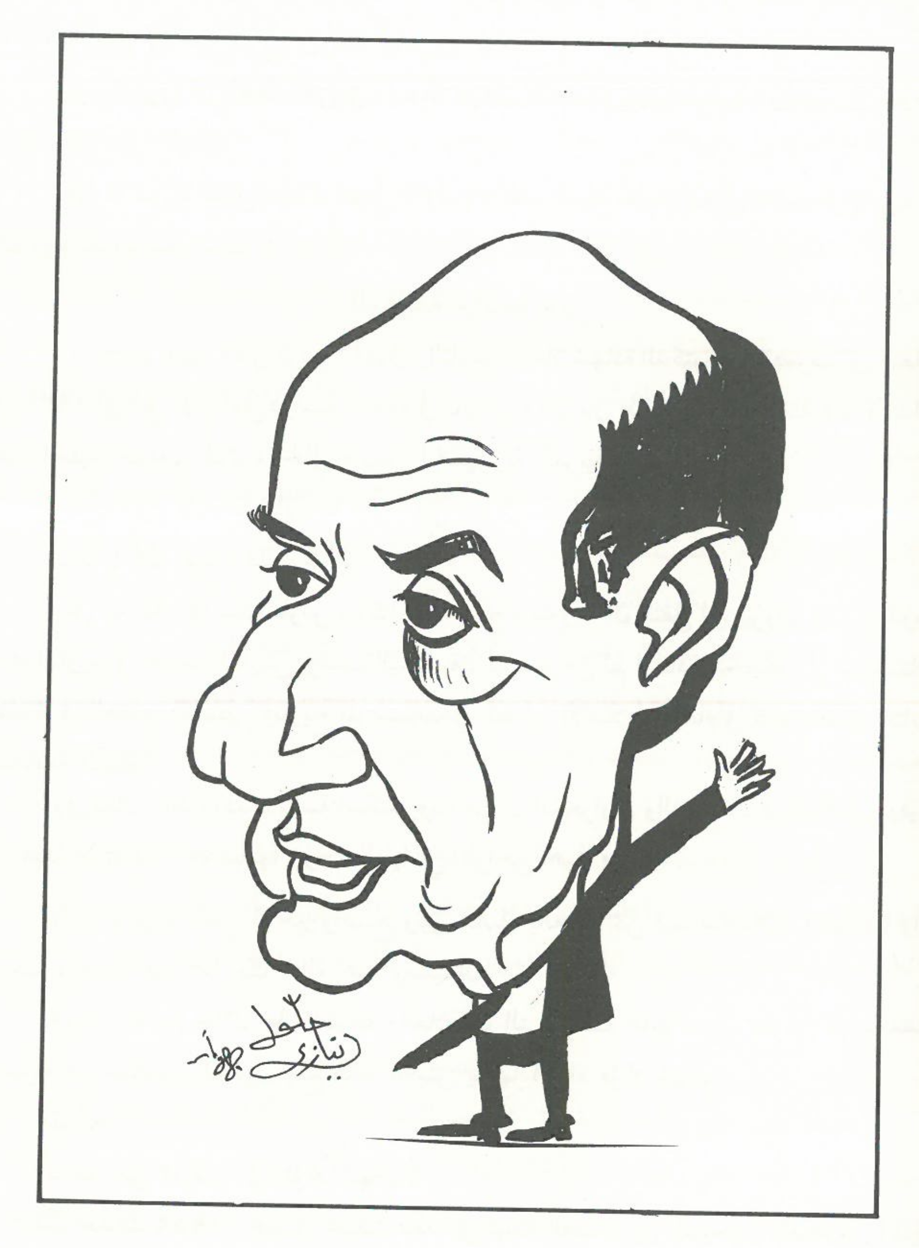
ولكن افاد فرنجية وكرامي من استمرار وجود القوات السورية، في الشمال، فانّ التحولات الاقتصادية التي أفضت الى عودة الكثير من الرساميل الزغرتاوية الى مهدها الاصلي شكلت القاعدة الاقتصادية للمشروع المذكور. وقد يكون من المفارق ان انكفاء معظم هذه الرساميل تصاحب مع قيام سلطة التوحيد الاسلامي في طرابلس بامارة الشيخ سعيد شعبان.

مع وصول الشيخ أمين الجميل اختلفت المواقف السياسية قليلا، لا سيما وقد عرف عن الاخير موقفه النقدي من عملية اهدن، ونزاعه مع شقيقه بشير، وكونه اقرب الى تفهم الحساسيتين المسلمة والسورية. لكن تردي العلاقات بين الجميل ودمشق، خصوصا بعد توقيع اتفاق السابع عشر من ايار، عكس نفسه على موقف فرنجية من الجميل، فكان ذريعة ملائمة لكي يمضي الزعيم الزغرتاوي في توطيد زعامته الشمالية انطلاقا من زغرتا.

ومرت العلاقة بين الرجلين بلحظات تدهور كان فيها رئيس الجمهورية الحالي «رأساً مريضا» في عرف رئيس الجمهورية السابق، مرورها بلحظات انتعاش بات معها الرئيس السابق مستعدا لأن يكون وسيط خير بين الرئيسين اللبناني والسوري. وقد ارتبطت اللحظات الأخيرة، التي أملت لقاءي سمار جبيل، ببحث الطائفة المارونية ككل عن حلول شاملة تتراجع معها أهمية النزاعات ما بين أطرافها.

لكن الرئيس فرنجية الذي واظب على القول ان الحل المؤقت، في انتظار الحل الشامل، هو انتشار الجيش السوري على كامل الاراضي اللبنانية، استطاع ان يعود الى مركز الضوء وصدارة الاهتمام. فهو اليوم المرشح المحتمل الذي ينتظر المرشحون قراره لكي يصدروا قرارهم او لا يصدروه.

انها ذروة المفارقة اللبنانية تتجسد في رجل بلغ من العمر ٧٨عاما.



بطرس ديب

ولد بطرس ديب في اللاذقية في ١٩٢٢، وهو ينتمي من جهة الام الى عائلة الياس التي برز منها سياسيون وكتاب كنوفل ويونان الياس.

ويقول ديب ان العائلة تعود في اصولها الى آل الاشقر في بيت شباب، ويمضي في معرض توكيد الاواصر اللبنانية:

موارنة سوريا الذين يعدون حوالي ٣٠ ـ ٤٠ الف نسمة مطرانيتهم في مدينة طرابلس، كما ان روم سوريا مطرانيتهم في عكار.

الوظيفة والتفويض

بطرس ديب الذي درس الحقوق والتاريخ حاملا شهادة الدكتوراه، انصرف الى التعليم في ١٩٣٩ اي قبل ان يكمل دراسته، فعلم في بانياس وكان بين طلابه في احد الصفوف الابتدائية عبد الحليم خدام، النائب الحالي لرئيس الجمهورية العربية السورية.

يقول ديب المتحفظ المهذب جوابا عن سؤال عن عبد الحليم التلميذ:

ـ دائما كان عبد الحليم شاطراً.

على اية حال فما لبث بطرس، وكان قد اصبح دكتورا، ان انتقل الى بيروت وشرع يدرس مادة التاريخ في جامعة القديس يوسف اليسوعية، ليصبح من ثم استاذا متخصصا في المؤسسات المقارنة في العصور الوسطى وتاريخ المؤسسات في القانون الاسلامي العام في كلية الحقوق التابعة للجامعة اللبنانية.

وفي لبنان، اقترن ديب بآنسة اسكندرونية من آل الشعراوي والدها كان موظفاً اداريا رفيعا في عهد الانتداب، وشقيقتها زوجة السياسي الراحل حميد فرنجية.

وواكب ديب خطى الأخير وأصبح وثيق الصلة بالعائلة بمن فيها سليمان، خصوصا وأن زوجته وزوجة حميد هما ابنتا خالة حميد وسليمان.

ويبدو انه من خلال هذه القرابة والعلاقات التي ترتبت عليها، بنى بطرس ديب بعض جسوره مع سياسيين لبنانيين ومع قائد الجيش يومها اللواء فؤاد شهاب.

نسأله:

ـ منذ متى تعرفت الى فؤاد شهاب؟.

ـ منذ احداث ١٩٥٨. يجيب. عملت معه على تهدئة العسكريين المسيحيين العكاريين الذين ارادوا الانتقام في بيروت لما حصل لاهلهم في عكار. ارسلني شهاب الى قرى عديدة في عكار كنت احمل اليها معاشات ابنائها العسكريين واتولى توزيعها.

آنذاك ومع مرض حميد فرنجية ابان نزاعات ضارية بين عائلات زغرتا، شارك بطرس ديب، كما يروي، بالحد من التوتر، عاملا على اقناع مؤيدي حميد بعدم اللجوء الى العنف في

مواجهة خصومهم.

وكانت هذه التجربة بمثابة مدخل متواضع الى العلاقات العائلية والاهلية تطؤها قدما شاب سوري الاصل يدرس في الجامعة. وطبعا كان الدور، كما الحال غالبا مع بطرس ديب، بالانابة والتفويض والوكالة.

ويروي احد العارفين بالشؤون الزغرتاوية ان زوجة حميد فرنجية اقترحت بعد المرض الذي ألم بزوجها اواخر الخمسينات، تولية امر الزعامة الزغرتاوية الى بطرس. الامر الذي لم يكن قليل الاغاظة لسليمان، الوريث «الشرعي»، حيال هذا الوافد الغريب المعتزّ بعلمه في زغرتا.

نعود الى شهاب:

يروي ديب: طلبني فؤاد شهاب، وكنت منكبا على التعليم ومهتما به وحده، وقال انه يريد تسليم الانباء لشخص مقبول من سائر الطوائف.

وهكذا كان، ففي ١٩٥٩ ومع مطلع العهد الشهابي تسلم ديب المديرية العامة لوزارة الانباء (اي الاعلام بحسب تسمية اليوم)، وهو العمل الذي استمر يقوم باعبائه حتى ١٩٦٥.

وبرغم نفي ديب ان يكون انتسب الى نادي ٢٢ تشرين الشهابي او اي تجمع آخر ذي لون سياسي، الا انه عد يومذاك واحدا من مثقفي التجربة التي يقودها الرئيس الراحل.

يتذكر ديب: في ١٩٦٠ كانت الاذاعة اللبنانية الاذاعة العربية الوحيدة التي تبث مهرجان عيد الغدير (الشيعي)... لقد ربطتني صداقة وطيدة جدا بالسيد موسى الصدر... الله، الصدر، الله...

ويقال ان شخصية بطرس الدمثة، والتوفيقية وقدرته على انشاء العلاقات مع الجميع بمن فيهم خصوم الشهابيين، ساعدتاه في موقعه المذكور. وبعد كل حساب فبطرس ديب هو صاحب العبارة التي اشتهرت لتكراره اياها باستمرار، وبطريقة يلتبس معها الغرض من استخدامها: ابوس روحك.

بين القصر والجامعة

انتقل ديب من وزارة الانباء الى الجامعة اللبنانية حيث مكث عميدا لكلية الحقوق فيها حتى ١٩٦٦عندما سمي رئيسا للممثلية الدائمة للبنان لدى الاونيسكو بدرجة سفير. وفي ١٩٦٩، اي في اواخر عهد الرئيس شارل حلو، عيّن ديب مديرا عاما لرئاسة الجمهورية قضى معظمها الى جانب الرئيس سليمان فرنجية.

واغلب الظن ان هذا الجوار انطوى على ارواء واشباع للاخير، فبات «المتعلم» الذي اقترح قبل اعوام وريثا سياسيا لحميد، مجرد موظف عنده.

ويروي احد الذين عاشوا تلك الفترة عن كثب ان ديب عانى الامرين اذاك في محاولته ضبط

فرنجية ضمن القنوات الرئاسية الرسمية، حتى ان الاخير كان يتذمر من سلوكه ونصائحه ويسميه «استاذ المدرسة». ومع هذا نجح ديب، الى جانب قلة نادرة، في ان يحافظ على حرارة العلاقة مع فرنجية.

في ١٩٧٥ ومع اندلاع الحرب في لبنان تسلم ديب السفارة في الفاتيكان، وبعد عامين عاد الى بيروت ليعين رئيسا للجامعة اللبنانية. وخلال رئاسته تعرض لانتقادات مصدرها المنطقة الغربية ومؤداها اتهام بمحاباة المنطقة الشرقية.

وفي ١٩٧٨/٦/١٥ كان هذا الحوار بينه وبين مجلة «الصياد»:

● دكتور، لكن هناك اتهامات بأن فرقاء مختلفين يضعون امامك الكثير من العراقيل، وذكرت بعض الروايات ان بعضا هددك بحياتك و . . .

■ ويستوقفني رئيس الجامعة اللبنانية ليقول: كثيرة، ولكن من صلب مهمتنا ازالة هذه العراقيل وتجاوزها.

والعراقيل لم تأت من فريق واحد، او من جهة معينة، بل من جميع الفرقاء ومن كل الجهات. فريق قال ان الفروع هي التقسيم بعينه. وفريق آخر يقول ان الفروع يجب ان تستقل كليا، وفريق آخر قال ان الفروع هي قصة امن ومناطق.

والكل داروا في دوامة لا قرار لها.

التقسيم كان موجودا قبل استلامي مهمة الرئاسة، وكان لكل فرع موازنة، وجئت اقول لماذا الدوران في المتاهة هناك واقعيا «فرع اول»، و«فرع ثان» فلنعتمد ذلك حلا نهائيا واخيرا.

وقضية الفروع ليست قصة امن او مناطق وحسب، ذلك ان الكليات لم تعد تستوعب الاعداد الكبيرة من الطلاب. ووجب علينا التوزيع.

قالوا اننا نقسم الجامعة، وجاءت الايام لتثبت اننا وحدنا الجامعة، فقد جئنا بعميد لكل الفروع، وهذا امر لم يكن يحلم به احد.

قالوا ان فروع المحافظات وهم، فثبت مع الايام بطلان نظرياتهم، وها هي فروع المحافظات تعمل بجد، حادثة فروع طرابلس كانت زوبعة في فنجان.

قالوا ان فروع المحافظات تضر ببيروت لانها تسحب من الجامعة المركزية اساتذتها، وحصل العكس تماما.

والغريب يا عزيزي، ان الذين يخشون انقسام الجامعة، هم انفسهم الذين يحاولون التقسيم.

الحقيقة الواقعة هي انه لم يبق ثمة شك امام احد ان الجامعة اللبنانية جامعة واحدة، لا اقول انها توحدت لكنني أؤكد بانها ظلت جامعة واحدة.

وليس ادل على ذلك اننا قلنا فرع في الشمال، فرع البقاع، فرع في الجنوب، لا فرعان في كل محافظة، وها ان الطلاب يتلاقون في تلك الفروع اخوة احباب كما كانوا قبل حرب السنتين.

صحيح هناك فروق في النظر الى الامور، وهذا امر طبيعي، خاصة في الجامعة لانها تقوم اصلا على تبادل الاراء، كما ان لبنان في الاساس هو بلد الحرية، ويجب ألا ننسى ذلك، والجامعة هي معقل الحرية، لا الفكر الحر وحسب، بل الفكر الناقد ايضا.

في ١٩٨٠ عهد الى بطرس ديب بسفارة لبنان في فرنسا، وفي هذه الاخيرة رأس السفير اللبناني، السوري الاصل مجلس السفراء العرب الذين اتفقوا على ترئيسه لاسباب عدة بينها تكوينه وشخصيته الميالة الى المصالحة، فضلا عن ندرة من يجيدون الفرنسية في اوساط السفراء العرب غير المغاربة.

وتعبيرا عن مودة زملائه العرب له واقرارا منهم بدوره التوفيقي في ما بينهم، اهدوه لوحة من جلد الغزال كتبوا عليها ما يفيد المودة والاقرار هذين. واللوحة التي يصفها من شاهدوها بـ«الروعة» تستحق من ديب بسمة حيية لا تكتم الرضى الكبير عن النفس.

مع بداية عهد الرئيس امين الجميل تقدم ديب باستقالته من السفارة في باريس، مفترضا، بحسب ما نقل قريب منه، ان الجميل لن يقبلها، وانه اذا قبلها سيسميه في منصب آخر لا يقل اهمية. بيد ان المستقيل فوجيء بقبول استقالته من دون تعويضه عملا آخر، بل من دون اتصال به كما درجت العادة، فعض على جرحه ولاذ بحبل الصمت.

آراء وملامح

بعد استقالته من السلك الدبلوماسي كتب بطرس ديب سلسلة حلقات في مجلة «المستقبل» التي تصدر في باريس متناولا بعض الشخصيات التاريخية، لكنه ما لبث ان خطا خطوة اخرى على طريق الصحافة، عاملا على اصدار مجلة «الصفر» التي مولها رجل الأعمال الثري ميشال مرهج واحتشد فيها، بداية، عدد من الصحافيين ابرزهم الياس الديري ممن افصحوا عن رغبتهم في اصدار اول مجلة «علمية» في العالم العربي.

وكعينة ربما كانت نموذجية على الكيفية التي يفكر بموجبها الدكتور ويتحدث، لا بأس في ايراد هذه الفقرة من حديث اجرته معه مجلة «الحوادث» في ١٩٧٧/٦/١٧.

يومها كان ديب يتهيأ لتسلم رئاسة الجامعة اللبنانية، والقضية المطروحة هي «التفريع» الذي تؤيده المناطق الشرقية وتعارضه الغربية:

■ لقد جئت رئاسة الجامعة وهي في قمة المتاعب. فهل كان لديك تصور مسبق لحل مشكلة التفريع،

وهل انت ضد او مع التفريع؟

وكأنه كان ينتظر هذا السؤال فأجاب على الفور:

ـ الجامعة اللبنانية لم تصبح جامعتين، والبرهان ان هناك رئيسا واحدا. اما بخصوص قضية التفريع، فأنا لم اقل انني مع او ضد، لأن الجواب عن ذلك له معنى سياسي. فأنا اطرح هذه القضية من وجه اخر.

■ كيف؟

ـ اذا نظرنا الى الابنية الجامعية الحالية، هل عندنا الأبنية الكافية لاستيعاب كل الطلاب. طبعا لا، وهل يجوز بالتالي ان نرمي بهم في الشارع، وضيق الأبنية الجامعية حال في الماضي دون حضور اكثر الطلاب بشكل فعلي للمحاضرات. وهذه القضية تذكرني بالعميد جورج فويل (قدم استشارة قانونية للبنان غير مرة) عندما قال لي وقضية الجامعة الفرنسية تعاني مثلما نعاني الآن: كيف لي ان افرض الحضور وليس لي من الأمكنة لاستيعاب الطلاب.. ومن حسن الحظ ان الطلاب في اكثريتهم لا يطالبوننا بالحضور.

واضاف الدكتور ديب:

ـ في حالة طبيعية دون اي اعتبار سياسي او امني، يجب ان نستأجر ابنية اخرى بالاضافة الى الأبنية الموجودة.

■ اذن انت مع التفريع؟

ـ انا لم اقل هذا، فهناك برنامج جامعي شامل للبلد بكامله. نحن مصممون على ان نعمم الكليات على كل المناطق اللبنانية في الجنوب كما في الشمال كما في البقاع والجبل. وانشاء هذه الفروع تقضي به اعتبارات عديدة اقتصادية واجتماعية وتربوية.

■ ما هي الاعتبارات يا دكتور؟

ـ في مطلع الخمسينات، اي مع بدء عهد الجامعة اللبنانية، كان يأتينا الطلاب من طرابلس، فيركبون «الباص» حيث كان مجمل مصروف الطالب الشهري حوالي ٦٠ ل.ل. اما اليوم فقد اصبح مصروف الطالب الشهري حوالي ٦٠٠ ل.ل. واذا أراد ان يستأجر غرفة في بيروت فهل يجد؟ واذا وجد فالايجار اسعاره خيالية. فلماذا لا تقرب الكليات من هؤلاء الطلاب في جميع المناطق لنخفف عنهم هذه الأعباء الاقتصادية».

بطرس ديب الذي حمل وسام الأرز الوطني من رتبة ضابط، والميدالية الذهبية المغربية، ووسام الرئاسة التونسي، ناظم شعر عمودي للمناسبات، واشهر ما نظمه ابيات القاها في حضرة الملك السعودي الراحل فيصل بن عبد العزيز اثناء مرافقته الرئيس سليمان فرنجية الى الرياض في ١٩٧٣، وقصيدة «ارض الكنانة» التي القاها في مصر.

تسأله عن ذلك فيحاول التنصل والايحاء بأن هذه القصائد، وكلها نشرت، فرضتها عليه

مناسبات لم تكن له يد فيها وكان يفضل اجتنابها لو ترك الأمر له.

مع هذا فالكثير من الكلمات العربية تخرج من فم ديب بقفلة فرنسية يصحبها البتر والمبالغة في التسكين.

وديب لا يخفي اعتزازه بمحاضراته، لا فارق اكانت المحاضرة في دمشق عن معركة اليرموك (ولبطرس ديب وجهة نظر فيها تغاير السائد)، ام في الولايات المتحدة حيث القضيتان اللبنانية والفلسطينية هما الموضوع.

وفي هذا الأخير لا يخالف بطرس ديب وجهة نظر يتلقفها بعض الأوساط المسيحية، مؤداها ان الحل الوطني العادل لمشكلة الفلسطينيين هو ما يريح لبنان ذا الكثافة السكانية المرتفعة، والذي لا يستطيع استيعاب الشعب اللاجىء.

والراهن ان ما يصدر عن ديب من آراء سياسية لا يجافي ما يتواضع عليه الاعتدال مما يصلح ان يشكل مادة اجماع واسع عريض.

تسأل بطرس ديب ما اذا كان في شبابه او في اي طور من اطواره قد انتسب الى حزب او استهوته فكرة، فينفي بترفع عن كل انقسام او انحياز لسبب يخاله وجيها:

انا استاذ تاريخ. ولكي احافظ على موضوعيتي في التعليم يجب الا انحاز.

وفي بطرس ديب شيء من القدم الذي تبينه بذلة اوسع من جسده يتدلى كتفا سترتها عن كتفيه، وحذاء ذو رأس طويل ومروس.

وسعادة «المدير العام» معتدل الطول مع ميل اليه، ضعيف من دون ان يخلو ضعفه من كرش صغير. ملامح وجهه رومانية، لا سيما الأنف الكبير ذو العقفة في اعلاه، اما رأسه الممطوط فصلعته فيها الكثير من النمش.

التوفيق دائما

بطرس ديب «الرئاسي» يخاف ان يعلن ما يسميه «برنامجه»، قائلا ان اصدقاء له نصحوه بذلك. بل هو يخاف ان يتكلم، حتى ان ما استطعنا انتزاعه منه جاء نتيجة جلستي دردشة في «السفير»، حيث اوكلت مهمة تسجيل الكلام الى الذاكرة.

وعارفو بطرس يقولون ان سوريته القديمة وصلاته الشخصية والعائلية بسوريا هي بعض عناصر قوته كاسم رئاسي، خصوصا وان هذه العناصر تجعله على بينة «مما يريده المسلمون والعرب».

ولا يعدم القائلون، بين عارفي بطرس ديب، ان دماثة الرجل وظيفية جدا، اذ هو قادر، بحسب هؤلاء، ان يترك الآخرين يفهمون منه الشيء وعكسه بما تيسر من مرونة لم تتوفر في شقيقه مخايل ديب، المحامي ذي العلاقات الوطيدة بـ «القوات اللبنانية».

فأكثر الآراء التي صدرت عن لسان ديب «حدة»، وأتيح لنا سماعها، استشهاده بعودة الأمراء الفرنسيين الى الصدارة بعد نابليون، وقول تاليران عنهم «لم يتعلموا شيئا، لم ينسوا شيئاً»، وذلك في مقارنة ضمنية خجولة مع ما يشهده لبنان اليوم.

اما اذا بحثنا عن افكار اكثر صدما للسائد المتفق عليه فلن نعود من بحثنا الا بخفي حنين. ففي محاضرة القاها في المؤتمر الماروني العالمي الثالث في مدينة مونتريال الكندية في تموز ١٩٨٥، حاول ديب ان يصالح كل شيء مع كل شيء اخر، حتى انه قال:

«فالعروبيون يناهضون المتوسطية والفينيقية وفي الوقت نفسه يرفعون شعار «من الخليج الى المحيط» والتاريخ يقول ان مؤسسات فينيقيا التجارية ومدنها كانت منتشرة من الخليج الى المحيط. اما القائلون بالفينيقية والمتغنون بأمجاد قرطاجة مثلا، فيرفضون «من الخليج الى المحيط» حيث انتشرت فينيقيا! وفي كلا الطرفين مؤرخون محترمون! انما هو الخوف ومن اسوأ الآراء ما صدر عنه.

النقطة العملية هي سؤال: هل من الكثير ان يطلب الى الطرفين معا ان يتصرفا بشكل يهدىء الروع ويخلق جوا مؤاتيا لحوار لا مفر منه في آخر المطاف، وهل لنا ان ننسى دور العرب في حضارة المتوسط، وما نقلوه من الاغريق فنقلوه بدورهم الى الغرب؟ وكيف يصر البعض على تصوير المتوسط وكأنه ابن اوروبا بينما اوروبا هي بنت المتوسط»

ويمضي ديب في محاضرته «المارونية في بحر العرب» يقرن التوفيق بين المناطق بالتوفيق بين الأزمنة.

«في هذه الساعة المصيرية، حيث اهتمامنا منصب على انقاذ لبنان، هل نستمر في الحديث عن بناء «لبنان جديد» كأننا نتنكر لماضينا العريق، ام ان علينا بناء لبنان يماشي تاريخا وينسجم مع محيط اقليمي ودولي لم يخرج لبنان عنهما يوما، وهل يمكن طمس تأسلية كرستها قرون تستند الى الاف السنين؟ في مؤلف ظهر مؤخرا للدكتور جان برنار، لم يتردد العلامة الكبير في ان يعنون كتابه «الدم والتاريخ» وبأسلوب اخر قال الفيلسوف فونتينيل «الفكر المثقف هو مجموعة افكار القرون السالفة».

وتوفقية بطرس ديب بالغة الأثر على سلوكه وحركاته. بسمة ودودة تطل من اسنان متنافرة، وايحاء بالانصات الكامل لكل ما يقال والموافقة عليه، وتهذيب بلا حدود في الكلام والتصرف والدخول والخروج والتحية والتسليم والجلوس، ناهيك عن ادب عثماني تكرره تعابير الله يخليك، الله يديمك وما على شاكلتها.

لكن توفيقية الرجل الذي يتغنى بأن بيته على المتحف، وانه لا ينحاز حرصا على التاريخ، مشوبة بحركة متوترة وقلقة لا تهدأ. فيده لا تتوقف عن جس ربطة العنق واطراف السترة والتأكد

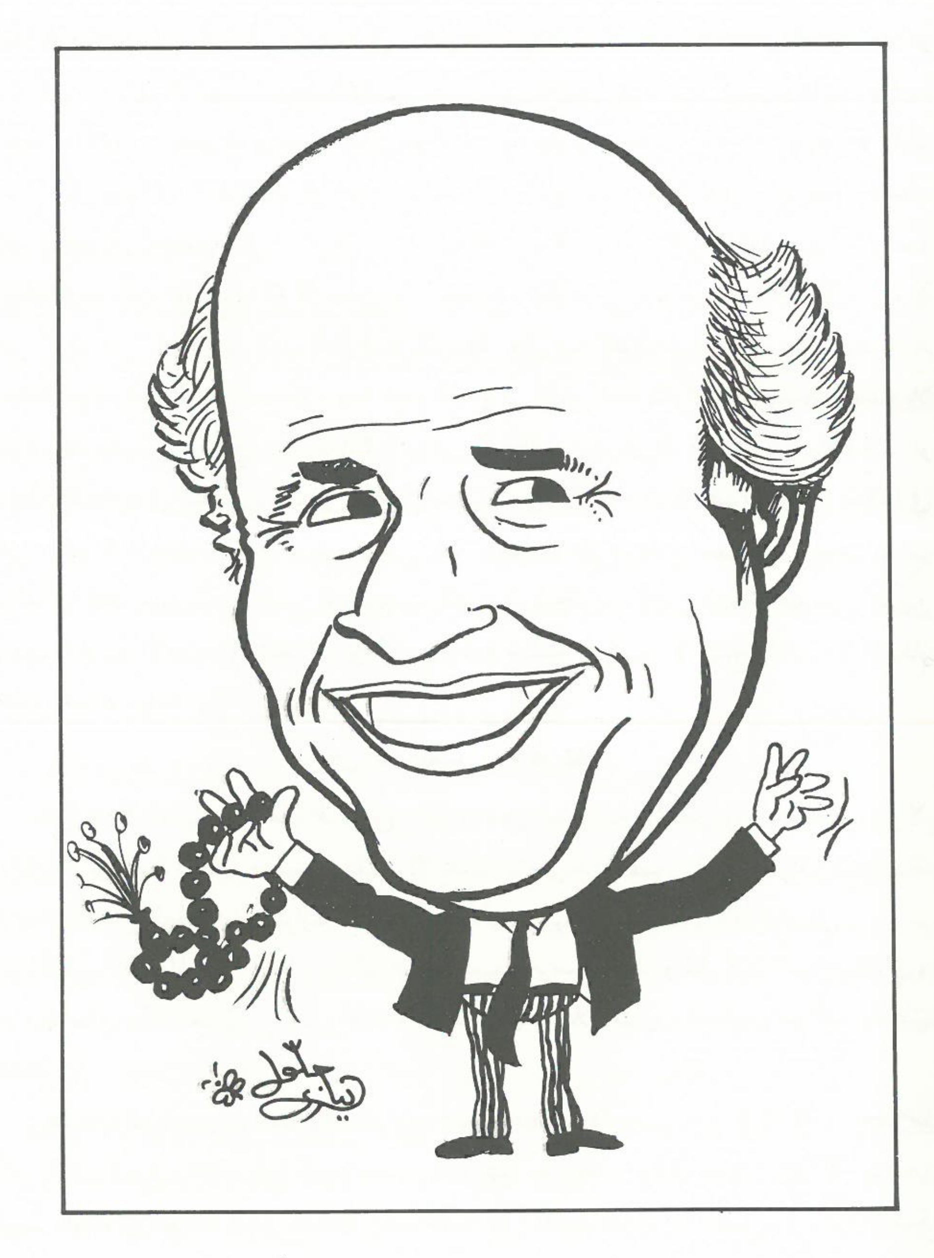
من انها على ما يرام، وعينه تكثر النظر الى الساعة كثرة الكلام الذي يقوله عن الأوقات والمواعيد. وهو خجول شديد الحساسية يتلاعب بأصابعه واحيانا يؤثر الجلوس على حافة الكرسي، بينما يختلط كلامه بصوته كانه يفضل ابقاء كلامه على شيء من الغمغمة فلا يؤخذ عليه مأخذ، وبين الفينة والأخرى تخال انه توقف عن الكلام فيفاجئك بانه اكمل لكنه ككل خجول اعوزته الطريقة الملائمة لاختتام العبارة. يشبر بقبضتين صغيرتين من دون ان يبعد يديه عن جسده كثيرا، وله ضحكة قصيرة يكرجها كرجا ويخنقها بسرعة فلا تفهم لماذا ضحكها ولماذا اوقفها.

ويروي البعض ان وفاة والدة بطرس ديب احرجته لأن الدفن طرح مشكلات اعتبرها معقدة.. فاذا ما جرى الدفن في لبنان اكتشفت على نطاق واسع سورية العائلة، واذا ما حصل في سوريا عرفت على النطاق نفسه لبنانيتها. وهو يريد في آن معا وعلى نطاق متعادل ان يظهر لبنانيا كاملا وسوريا كاملا.

وحين يمعن قارئه في نص له، أو ينصت سمعه اليه، يتراءى بوضوح وجود ثوابت أولها تغييب كل خلاف وطمسه فاذا كان المطلوب مناقشة رأيين متعارضين، عرض ديب لرأي ثالث لا وجود له بهدف تحويل الأنظار عن تعارض الرأيين. واذا كانت المشكلة العالقة محتدمة، صورها مشكلة في الكل بما يخفف من احتدامها ويحيلها الى سوء فهم عابر لا يلزم لحله غير تدخل اجرائي بسيط أو توضيح لشيء غامض قليل الأهمية.

وتخال ان تهذيب الرجل هو نوع من الامتناع عن كل تورط، أو ربما عن كل تماس مع ما يحيط به من بشر هم دائما احتياطي للتوريط، ومسائل هي أيضا احتياطي لانحياز يستحسن تجنبه.

وبطرس بعد انهاء الكلام يبلع ريقه ويطوي جسمه عليه: يا أرض انشقي وابلعيني. بسيطة خيي بطرس هيي جملة. والمدير العام مقدرة عليه كلمة أو كلمتان يشرح بهما توقيعه.



جان عبيد

قرية علما التي تقع بين مدينة طرابلس وبلدة زغرتا، وهي من قضائها، علمت ابنها جان عبيد ان يمزج ويوازن ويتصل ولا ينفصل. خير هذا بشر ذا. او ربما، وفي بعض الحالات، شر هذا بشر ذا، على عكس ما توقع النواسي حسن ابن هانىء. وكائنة ما كانت الحال، فالجيرة والصلة والمعرفة والصداقة وحسن التدبير والوفاء والكرم والبسمة والهدية والاستضافة وقول الكلام الذي يطابق واقع الحال هي بعض المواد الخام التي يصنع منها الدور وتصنع السياسة. واللسان طيب والعصامية التي تدفع الى التهديف نحو المستقبل ليست قليلة الثوابت والمسلمات، فيما التجارب تثبت لصاحبها انه لا يصح الا الصحيح، والصحيح هو الوسط «خير الامور»، لا بمعنى الهرب من التطرف بل بمعنى التطرف في الوسط. وفي هذا اللون من التطرف يملك جان عبيد شجاعة ادبية يشهد له بها اصدقاؤه وعارفوه والحياديون تجاهه ولعبة التوازن والتوسيط ليست بلا معاناة. قد يكون من نتائج هذه المعاناة التعرض للخطف عند محاولة الوصل بين منطقتين. او تسليط الشبهة لدى التصدي للتوفيق بين سياستين. وربما كانت المعاناة تضرب جذرا معقدا في ماضي المنطقة والطائفة، رغم ما يسكنها من رغبة الاطلال على مستقبل سهل بلا تعقيد. الا ان المؤكد ان جان عبيد الذي يجمع الى توفيقيته الصارمة درجة بعيدة من الدماثة هو مثل كثيرين تدفعهم الحرب الاهلية الى المعاناة. والحرب قاطعة خشنة المركب، لا تفتح الباب الا لافكار واحدة احادية مطلقة ولا شريك لها.

بين طرابلس وزغرتا

قبل ٣٠٠ سنة نزل الى علما افراد من عائلة منصور البشراوية، مخلفين وراءهم بعض من لا زالوا في بشري يحملون اسم منصور. بيد ان الانتقال اللاحق من منصور الى عبيد ترافق مع حادثة تركت في نفوس العلماويين الموارنة مشاعر حادة تجاه جيرانهم المسلمين الطرابلسيين.

ولئن جمعت المشاعر هذه بين الكراهية والحب وتغرب الذات والميل الى التيمن بالقوي، فانها انشأت في مكان عميق من نفس الجماعة حسا بتعقيد العلاقات بين اللبنانيين طوائف ومناطق وفئات.

فالبيك الطرابلسي راشد المقدم تزوج عنوة واغتصاباً مارونيتين من قرية علما، احداهما تدعى الماس اجبع والثانية هي زمرد منصور ابنة عم جد جان. وكان لهذه الزيجة الاخيرة ان اوقعت خلافا في العائلة انشق بنتيجته الجد محتجا على اذعان اقاربه لما حصل، ومؤثرا التكنية باسم جده عبيد على البقاء في ظل اسم واحد جامع.

والخلاف مع راشد المقدم المدعوم من السلطة العثمانية لم يكن قليل التبعات على اسرة عبيد الحديثة التكون والصغيرة العدد. فقد اضطر ميلان، جد جان، الى تهريب انجاله الى كوبا في انتظار ان تهدأ الزوبعة، فاضيفت حادثة اخرى الى سجل معقد من العلاقات الطرابلسية

الزغرتاوية. فالعلاقات المذكورة لم تعمل السنوات والعقود التالية الا على شحنها بحادثات مشابهة لا عد لها تبادل فيها الطرفان ادوار الضحية والجلاد. وكما لو كان التاريخ يكرر نفسه فعلا بوجوه واسماء وادوار مختلفة، اقدم ايلي بدوي عبيد، شقيق جان، على اختطاف حفيدة راشد المقدم والاقتران بها في ١٩٦٧. ويومها خطف جان في طرابلس ، وكادت الحادثة تتسبب في نزاع طرابلسي زغرتاوي اخر لولا ان ضغوط سليمان فرنجية ادت الى اطلاق سراحه.

ابن ميلان ووالد جان هو بدوي عبيد الذي اعطي اسمه تيمنا بمار نطانوس البدواني. وقد اقترن بدوي الذي امتلك اراضي زيتون وسليخ بآنسة من آل زعني من قنيور في حدث الجبة. والدها الخوري يوسف زعني الذي ربطته بآل كيروز صلة قرابة عززها لاحقا اقتران اسعد كيروز، شقيق النائب حبيب، بابنة خالة جان عبيد.

علما هي احدى القرى التي تعرضت لنزيف بشري متواصل بسبب الهجرة، حتى اذا ازفت انتخابات ١٩٧٢ العامة كان مقترعوها يعدون اقل من الف صوت انتخابي. لكن هؤلاء المقترعين ممن وحدتهم اللائحة الائتلافية في الانتخابات، حافظوا على الانقسام المحلي التقليدي الذي يشقهم. والانقسام المذكور يقوم على قطبين احدهما عائلة منصور، اصل عبيد، التي تحازب آل فرنجية منذ ايام قبلان ، والد حميد وسليمان، والثاني عائلة عازار المؤيدة لعائلتي دويهي وكرم.

الطالب والصحافي

ولد جان عبيد في ايار ١٩٣٩ في علما ودرس في فرير طرابلس وفي الآباء الكرمليين والثانوية الرسمية في المدينة نفسها، وفي ١٩٥٩ انتقل الى الجامعة اليسوعية لدراسة المحاماة. خلال تلك المرحلة لم ينتسب عبيد الى اي من الاحزاب رغم انه كان معروفا منذ الفرير بهوى عربي بحسب ما يروي. وقد واكب هذا الهوى حقبة الثورة الجزائرية بعيد انطلاقها والصعود العربي لعبد الناصر مع تأميم قناة السويس، فيما كانت مدينة طرابلس اكثر المدن العربية حضناً لتلك التطورات وتعبيرا حماسيا عنها.

اهم من ذلك ان الاتجاه العربي الذي وصف به كثيرون من رفاقه الزغرتاويين الموارنة ممن كانوا يدرسون في طرابلس، كان تعبيرا عن توزع الخريطة السياسية المحلية في زغرتا. فهؤلاء التلامذة، وعبيد منهم، صدروا عن بيوت محسوبة على آل فرنجية خصوم الرئيس شمعون يومها. ولم يندر بينهم من يحفظ عن الاباء قصصا عن العلاقة المهتزة التي ربطت قبلان فرنجية بسلطة الانتداب الفرنسي.

بهذا المعنى كان الميل العربي في طرابلس يؤدي وظيفة موعاة او غير موعاة، لكنها ليست قليلة التطلب عند الكثيرين من الموارنة الزغرتاويين. فلئن اتاحت سياسة آل فرنجية اعادة اللقاء بالطرابلسيين على ارض غير ارض النزعات التجمعية المتوارثة، فان هذا اللقاء اراح اصحابه من

تبعات الماضي واقنعهم ان الحاضر اكثر اكتمالا واشد قابلية لولوج مستقبل « عصري» خال من المواريث، وفي الان نفسه آمن ومحاط بكنف غير معاد.

على اية حال فقد تسبب هذا الخليط الفرنجي العروبي بطرد عبيد مرتين من المدرسة التي يسيطر عليها عقل متزمت مذهبيا وتعليميا. الاولى من الفرير في ١٩٥٤ بعد تأسيس مجلة « الطالب» المدرسية التي تولى تحريرها وكتابة مقال ضد الفريرات. والثانية من الاباء الكرمليين بسبب المساهمة في الاضرابات والحض عليها، وكان عبيد رئيسا للجنة الطلابية في المدرسة المذكورة.

في طرابلس، ومن بعدها في بيروت، واجهت جان عبيد دعوات وعروض للانتساب الى احزاب السوري القومي والبعث والحركة لكنه لم يستجب لاي منها. برغم ان العلاقة المتفاوتة مع رموزها اكسبته نظرة تتعدى النطاق الضيق الذي عرف به كثيرون من السياسيين الموارنة وغير الموارنة. اما السبب الذي يورده في تعليل عزوفه فاعتقاده المبكر ان الحزبية تتطلب تفرغا فيه رسولية لا يسعه تطبيقها على نفسه. ومن دون ان يكون مخطئا او مصيبا بالضرورة، فالراجح ان عبيد امتلك منذ صغره بوصلة تقود الى النجاح. وكزغرتاوي على قدر من الالمام بالتكوين السياسي الماروني، واللبناني عموما، لم يكن من الصعب اكتشاف ان الحزبيات العقائدية اخر ما يروي طموح طامح.

في موازاة دراسة المحاماة التي اوقفها في السنة الثالثة، راح عبيد يعمل في الصحافة، فانتسب في ١٩٥٩ الى اسرتي مجلتي « الماغازين» و«الاسبوع العربي» وانتقل في ١٩٦٠ الى « لسان الحال» حيث بقي ثلاث سنوات الى ان انضم الى صحيفة « الاحرار» البعثية التي تسلم رئاسة تحريرها في ١٩٦٥ بعد ان عمل مديرا مسؤ ولا فيها في ظل رئاسة تحرير الياس الفرزلي. ويقول عبيد انه كان صديقا للبعثيين كما كان صديقا لغيرهم من التيارات العروبية الا ان اختياره لرئاسة التحرير نجم اساسا عن الاعتبار المهني. فهو كان في بيروت وثيق الصلة باجواء البعث والحركة والناصريين والبدايات الفلسطينية المسلحة من دون ان ينحاز الى اي من فرقاء النزاعات ، خصوصا في النزاع الناصري ـ البعثي اواسط الستينات. بيد ان جان عبيد ما لبث ان استقال من « الاحرار» ، والسبب ، كما يروي، عدم قدرته على الاستجابة لتوجيهات اجهزة الامن السورية ومطاليبها. فيومها جاء الضابط جلال مرهج الى لبنان للقيام باعمال تخريبية لم تكن القيادة القومية في دمشق موافقة عليها، ولم يبد عبيد استعدادا لتوجيه الصحيفة بحسب ما يمليه الدفاع عن قضية مرهج وطلب اليه بالحاح ان يبقى في « الاحرار» لكن عودته عن الاستقالة لم تدم سوى اشهر اذ جددها للسبب نفسه وكانت الثانية ثابتة في اواخر ١٩٦٥ . بعد سنة تولى جان عبيد رئاسة تحرير «الصياد» حيث بقي حتى ١٩٧٢ مسجلا اسمه كواحد من كتاب الموقف تعليقا وتحقيقا.

الا انه في هذه السنة الاخيرة طلق الكتابة والصحافة لاسباب بينها صعوبة التوفيق يومذاك بين قناعاته الداخلية التي تجافي بعض سلوكيات العهد وولائه الشخصي العميق للرئيس فرنجية. اذ حين يصبح التوفيق مستحيلا عند فارسه جان عبيد يكون الطبيعي والمنطقي ترك الحلبة جملة وتفصيلا، خصوصا وان الصحافة انجزت بعض مهمتها في تأسيس شبكة متينة من العلاقات مع السياسيين وذوي التأثير.

بيد ان الحديث عن «الصياد» مع جان عبيد حديث طويل، فالخط السياسي الطاغي على المجلة كان شهابيا ـ ناصريا، واستطاع عبيد الذي يصنف نفسه « مسيحيا عربيا» ان يضفي بعض التوازن على صورة المجلة وكيفية تقديمها لخطها المذكور. فعواطفه الداخلية اقرب الى سليمان فرنجية منها الى الشعبة الثانية والنهج وسائر المتحمسين للتجديد. وكان لسعيد فريحة، « رحمة الله عليه»، كما يقول عبيد بحسرة لا تخفي صدقها، دور في ترك هذه التوازنات تشق طريقها الى الحضور. ففريحة تبعا « لرحابة صدره واستثنائيته بين الصحافيين وعصاميته»، فسح لعبيد فرصة التعبير بقدر من الحرية تاركا له كتابة « الافتتاحية» وزاويتي « شخصية الاسبوع» و«حديث الخميس» الذي كان يحمل توقيعه.

الوسيط الناجح

خلال عمله الصحافي اجاد جان عبيد تحويل علاقاته المهنية الى علاقات شخصية ومن ثم سياسية. وكان المزيج المسيحي ـ العربي الذي ينطوي عليه بالغ الافادة في ترشيحه لادوار وسيطة افادة الدماثة والمرونة اللتين في شخصه. فهو بهذا المعنى لبناني بامتياز يعمل باقتراحات ميشال شيحا من دون ان يتردد في انيرش فوق صحنه بهارات من ميشيل عفلق او جمال عبد الناصر. وطبعا فاول تلك اللبنانية ادراك ان المصالح البعيدة المدى للبنانيين، وخاصة المسيحيين،تكمن في العالم العربي ومعه. ففي ١٩٦٨ طلبه رئيس الجمهورية يومذاك شارل حلو وسأله عن امكانية العمل لاقناع الرئيس العراقي احمد حسن البكر بالتراجع عن قرار يقضي بمنع السياح والمصطافين العراقيين من زيارة لبنان. وتوجه جان عبيد الى بغداد ونجح في مسعاه.

وما ينطبق على البعثيين العراقيين ينطبق بدرجة اكبر على البعثيين السوريين وعلى الفلسطينيين. فجان عبيد عبر عمله الصحافي وعيشه في المنطقة الغربية واكب الخطوات الاولى لـ « حركة فتح» في لبنان، وبنى صلة مع ياسر عرفات هي التي اتاحت له لاحقا، كما سنرى، ان يكون وسيطا بينه وبين الرئيس امين الجميل.

وبين عمله في « لسان الحال» وعمله في « الاحرار» تعرف الى حافظ الاسد العضو يومها في اللجنة العسكرية، وعبد الحليم خدام محافظ مدينة حماه منذ ١٩٦٣ ، وحكمت الشهابي الذي التقاه كصحافي في القاهرة. وفي القاهرة وبالمناسبة نفسها حاول جان عبيد وكصحافي برأس

تحرير «الاحرار» ان يطلع على اعمال مؤتمر رؤساء الحكومات العرب. وكان الدكتور نور الدين الأتاسي رئيس الوفد السوري حينها قد اتاح له ان يحضر المؤتمر بوصفه مستشارا في الوفد السوري يحمل جواز سفر بالصفة هذه. ولم تمر المناسبة من دون انزعاج مصري نقله محمد حسنين هيكل، اذ كيف يجوز لصحافي ان يحضر اجتماعات سرية على مستوى رؤساء حكومات؟

خلال عمله في «الصياد»، وفي ١٩٧٠ تحديدا، اقترن الشاب «المسيحي العربي» المتحفظ على الشهابية بلبنى البستاني كريمة الجنرال وقائد الجيش، اميل البستاني. وكان الأخير قد ترك لتوه قيادة الجيش التي حل فيها الجنرال نجيم قبيل الاستعداد للانتقال من عهد الى آخر. ولم تكد تمضي سنتان حتى ظهرت مشكلة سياسية وعائلية في آن معا. فقد اثير ما عرف بفضيحة الكروتال والرادار حيث وجهت أصابع الاتهام الى كثيرين في مقدمتهم الجنرال المتقاعد، عم جان عبيد. الى ذلك كان الشعور الطاغي عند الشهابيين أن المحاكمات لضباط الشعبة الثانية ذات طابع ثأري وتشهيري بادارة وتوجيه الرئيس صائب سلام والعميد ريمون اده وغسان تويني المعروفين بعدائهم للنهج الرئيس السابق ورموز عهده والقيادات العسكرية.

يومذاك اوقف عبيد ١٣ يوما لسبب لم يعد سرا اذ تناقلته الالسنة والصحف، كما ترتبت على التوقيف ذيول وسمت بميسمها وضع التحالف الحاكم الذي ما لبث ان تصدع في أيار ١٩٧٣.

فجان عبيد الذي نقل عتبه الى الرئيس فرنجية على تعرض ضباط الجيش وخصوصا عمه لهذه المعاملة فيما الدنكوره يسرح حراً طليقاً، وجد في الرئيس صائب سلام صاحب الموقف الاكثر تشددا حيال الضباط، رغم ان عبيد لا يني حاليا يكيل الثناء على الرئيس سلام. وقد قيل يومها ان الصحافي الذي لا تعوزه الثقة بالنفس هدده بما عرف بـ «الوثائق السعودية» المتصلة بزيارة كان الملك السعودي فيصل ينوي القيام بها الى لبنان. ولم يتلكأ رئيس الحكومة عن تحريك القضاء بذريعة ان عبيد يهدده.

ومع اعتقال الاخير زاره النائب الراحل توني فرنجية في سجنه الانفرادي وجعل يضغط على الحكومة السلامية لاطلاق سراحه، وهو ما فعله ايضا الزعيم الراحل كمال جنبلاط الذي كان يجمع الى تأييده لرئيس الجمهورية معارضة لا هوادة فيها لرئيس الحكومة. ومن استعراض اسماء بعض الذين تبرعوا بالدفاع عن عبيد يتضح الطابع السياسي الذي اتخذته المشكلة اتضاح مدى الشبكة الاجتماعية التي بناها الرجل لذاته وبذاته: فؤاد طحيني، ادمون رزق، اديب الفرزلي، فايز قزي، اميل نجم، ادمون عواد، وغيرهم اما الفصل الاخر من القصة نفسها فهو ان هرب ضباط الشعبة الثانية الى دمشق اتاح لجان عبيد ان يوثق صلاته بالمسؤولين السوريين من طريق زياراته المتكررة لعمه وسائر الضباط في العاصمة السورية.

«المسيحي العربي»

يقول جان عبيد بشيء من المباهاة الهادئة التي اثبتت الايام اللاحقة انها لم تكن عديمة الجدوى، انه دائما كان له مأخذان على العروبيين والمسيحيين الخائفين من العروبة او المناهضين لها. فالعروبيون ظلوا قليلي الاكتراث بلبنان وتركيبه الاجتماعي والطائفي والسياسي وخصوصية طوائفه، وبالاخص منها الطوائف المسيحية. والمسيحيون الخائفون او المناهضون ارتكبوا الخطأ نفسه حيال العرب الذين لم يتعرفوا اليهم برغم ان مصالحهم ودورهم ووجودهم وصورتهم في الشرق ترتبط بالعرب اولا باول.

وطالما ان عبيد يعيش ويعمل اساسا في الدائرة المسيحية فانه يبني على مأخذه الاول «طريقة» في العمل السياسي مآلها التوازن والاعتدال، وبنودها عدد من الوصايا، اذ يورد معظمها على النحو التالي: كنت دائما اقول لاخوتي.. بما يعزز صورته كراعي اخوية لم تضعف لحمتها الدموية كما مهاجرو ايطاليا الى «العالم الجديد».

اما الوصايا المذكورة والتي ثمة تمثيل عملي على كل واحدة منها، فيمكن ايجازها بالتالي، مع التنويه بالبطل السلبي او الايجابي، الذي تدور حوله الوصية علنا او ضمنا:

١ ـ تحويل الواقع المسيحي من داخله لتقريبه من العرب والعروبة. اي ان جلب المسيحيين الى العروبة لا يتم باجتياحهم من الخارج، كما انه لا يجوز اكراه المسلمين وحملهم على قبول حلول مسيحية قصوى.

والعروبة اليوم لم تعد تعني انضمام قطر لقطر اخر، بل مواجهة قطرين معاً لمشاكل المصير بقدر متساو من الواجبات والالتزامات والتبعات. والعروبة هي في آن معا لبننة المسلمين وتعريب المسيحيين وليست مجرد ذهاب لاي من الفريقين في اتجاه الاخر.

وهنا تلوح تأثيرات الصلحية السياسية على عقل جان عبيد وان كان لا يستشهد بها في هذا المعرض.

٢ ـ لكي يتاح للخط المذكور ان يتواجد في دائرة العمل السياسي المسيحي يلزمه «غطاء» تقليدي متمايز الى هذه النسبة او تلك عن المارونية العريضة. وسليمان فرنجية بهذا المعنى هو «الغطاء» والمظلة، فضلاً عن كونه أقل الحلول سوءا بالمعايير الزغرتاوية الشمالية، كما يرى عبيد. ومن هنا فبرغم ولائه لسليمان فرنجية فهو لم يكن مقتنعا بفترة انضوائه في «الجبهة اللبنانية» لان هذا الانضواء يعطل التمايز المسيحي ـ المسيحي الذي هو شرط اللعبة السياسية.

٣ ـ حتى ضمن المارونية العريضة، التي هي مارونية الجبل، ينبغي العمل على توسيع هوامش التمايز. وفي البحث عن التوازنات داخل كل واحدة من الطوائف وما توفره هذه التوازنات من «غطاء»، نشأ السعي وراء النقاط المشتركة مع حزب الكتائب، وامين الجميل هنا

تحرير «الاحرار» ان يطلع على اعمال مؤتمر رؤساء الحكومات العرب. وكان الدكتور نور الدين الأتاسي رئيس الوفد السوري حينها قد اتاح له ان يحضر المؤتمر بوصفه مستشارا في الوفد السوري يحمل جواز سفر بالصفة هذه. ولم تمر المناسبة من دون انزعاج مصري نقله محمد حسنين هيكل، اذ كيف يجوز لصحافي ان يحضر اجتماعات سرية على مستوى رؤساء حكومات؟

خلال عمله في «الصياد»، وفي ١٩٧٠ تحديدا، اقترن الشاب «المسيحي العربي» المتحفظ على الشهابية بلبنى البستاني كريمة الجنرال وقائد الجيش، اميل البستاني. وكان الأخير قد ترك لتوه قيادة الجيش التي حل فيها الجنرال نجيم قبيل الاستعداد للانتقال من عهد الى آخر. ولم تكد تمضي سنتان حتى ظهرت مشكلة سياسية وعائلية في آن معا. فقد اثير ما عرف بفضيحة الكروتال والرادار حيث وجهت أصابع الاتهام الى كثيرين في مقدمتهم الجنرال المتقاعد، عم جان عبيد. الى ذلك كان الشعور الطاغي عند الشهابيين أن المحاكمات لضباط الشعبة الثانية ذات طابع ثأري وتشهيري بادارة وتوجيه الرئيس صائب سلام والعميد ريمون اده وغسان تويني المعروفين بعدائهم لنهج الرئيس السابق ورموز عهده والقيادات العسكرية.

يومذاك اوقف عبيد ١٣ يوما لسبب لم يعد سرا اذ تناقلته الالسنة والصحف، كما ترتبت على التوقيف ذيول وسمت بميسمها وضع التحالف الحاكم الذي ما لبث ان تصدع في أيار ١٩٧٣.

فجان عبيد الذي نقل عتبه الى الرئيس فرنجية على تعرض ضباط الجيش وخصوصا عمه لهذه المعاملة فيما الدنكوره يسرح حراً طليقاً، وجد في الرئيس صائب سلام صاحب الموقف الاكثر تشددا حيال الضباط، رغم ان عبيد لا يني حاليا يكيل الثناء على الرئيس سلام. وقد قيل يومها ان الصحافي الذي لا تعوزه الثقة بالنفس هدده بما عرف بـ «الوثائق السعودية» المتصلة بزيارة كان الملك السعودي فيصل ينوي القيام بها الى لبنان. ولم يتلكأ رئيس الحكومة عن تحريك القضاء بذريعة ان عبيد يهدده.

ومع اعتقال الاخير زاره النائب الراحل توني فرنجية في سجنه الانفرادي وجعل يضغط على الحكومة السلامية لاطلاق سراحه، وهو ما فعله ايضا الزعيم الراحل كمال جنبلاط الذي كان يجمع الى تأييده لرئيس الجمهورية معارضة لا هوادة فيها لرئيس الحكومة. ومن استعراض اسماء بعض الذين تبرعوا بالدفاع عن عبيد يتضح الطابع السياسي الذي اتخذته المشكلة اتضاح مدى الشبكة الاجتماعية التي بناها الرجل لذاته وبذاته: فؤاد طحيني، ادمون رزق، اديب الفرزلي، فايز قزي، اميل نجم، ادمون عواد، وغيرهم اما الفصل الاخر من القصة نفسها فهو ان هرب ضباط الشعبة الثانية الى دمشق اتاح لجان عبيد ان يوثق صلاته بالمسؤولين السوريين من طريق زياراته المتكررة لعمه وسائر الضباط في العاصمة السورية.

«المسيحي العربي»

يقول جان عبيد بشيء من المباهاة الهادئة التي اثبتت الايام اللاحقة انها لم تكن عديمة الجدوى، انه دائما كان له مأخذان على العروبيين والمسيحيين الخائفين من العروبة او المناهضين لها. فالعروبيون ظلوا قليلي الاكتراث بلبنان وتركيبه الاجتماعي والطائفي والسياسي وخصوصية طوائفه، وبالاخص منها الطوائف المسيحية. والمسيحيون الخائفون او المناهضون ارتكبوا الخطأ نفسه حيال العرب الذين لم يتعرفوا اليهم برغم ان مصالحهم ودورهم ووجودهم وصورتهم في الشرق ترتبط بالعرب اولا باول.

وطالما ان عبيد يعيش ويعمل اساسا في الدائرة المسيحية فانه يبني على مأخذه الاول «طريقة» في العمل السياسي مآلها التوازن والاعتدال، وبنودها عدد من الوصايا، اذ يورد معظمها على النحو التالي: كنت دائما اقول لاخوتي.. بما يعزز صورته كراعي اخوية لم تضعف لحمتها الدموية كما مهاجرو ايطاليا الى «العالم الجديد».

اما الوصايا المذكورة والتي ثمة تمثيل عملي على كل واحدة منها، فيمكن ايجازها بالتالي، مع التنويه بالبطل السلبي او الايجابي، الذي تدور حوله الوصية علنا او ضمنا:

١ - تحويل الواقع المسيحي من داخله لتقريبه من العرب والعروبة. اي ان جلب المسيحيين الى العروبة لا يتم باجتياحهم من الخارج، كما انه لا يجوز اكراه المسلمين وحملهم على قبول حلول مسيحية قصوى.

والعروبة اليوم لم تعد تعني انضمام قطر لقطر اخر، بل مواجهة قطرين معاً لمشاكل المصير بقدر متساو من الواجبات والالتزامات والتبعات. والعروبة هي في آن معا لبننة المسلمين وتعريب المسيحيين وليست مجرد ذهاب لاي من الفريقين في اتجاه الاخر.

وهنا تلوح تأثيرات الصلحية السياسية على عقل جان عبيد وان كان لا يستشهد بها في هذا المعرض.

٢ - لكي يتاح للخط المذكور ان يتواجد في دائرة العمل السياسي المسيحي يلزمه «غطاء» تقليدي متمايز الى هذه النسبة او تلك عن المارونية العريضة. وسليمان فرنجية بهذا المعنى هو «الغطاء» والمظلة، فضلاً عن كونه أقل الحلول سوءا بالمعايير الزغرتاوية الشمالية، كما يرى عبيد. ومن هنا فبرغم ولائه لسليمان فرنجية فهو لم يكن مقتنعا بفترة انضوائه في «الجبهة اللبنانية» لان هذا الانضواء يعطل التمايز المسيحي - المسيحي الذي هو شرط اللعبة السياسية.

٣ - حتى ضمن المارونية العريضة، التي هي مارونية الجبل، ينبغي العمل على توسيع هوامش التمايز. وفي البحث عن التوازنات داخل كل واحدة من الطوائف وما توفره هذه التوازنات من «غطاء»، نشأ السعي وراء النقاط المشتركة مع حزب الكتائب، وامين الجميل هنا

هو البطل. فمنذ ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ بدأت علاقة جان عبيد بالنجل الاكبر للشيخ بيار. في البداية عرفه توني فرنجية عليه ثم دعا الاثنين، بين من دعاهم، يوم استقباله خالد عبد الناصر عند زيارته لبنان. وعبر جان عبيد تمت الاجتماعات الاهم لامين الجميل النائب مع رشيد كرامي ووليد جنبلاط والقادة الفلسطينيين، فكان عبيد ابرز مهندسي علاقة الجميل الابن مع القوى المخاصمة تقليديا للكتائب، ومن ثم ابرز مهندسي الجانب العربي، لاسيما السوري والفلسطيني، من انتخابه رئيسا في ١٩٨٢ . يضيف عبيد شارحا: جربت تقريب الشيخ امين من مفاهيمي والى هذا الحد او ذاك نجحت. مع ١٧ ايار ابتعد فمشيت. وظلت علاقتي به صداقة مستمرة وتعاونا سياسيا متقطعا.

٤ ـ الحرص على التوازن وعلى اللعبة السياسية بين المسيحيين بما يمنع احتكار طرف واحد لتمثيلهم جعل جان عبيد احد مكروهي الشيخ بشير الجميل. ففي ١٩٨٠ قال له الرئيس سركيس الذي كان عبيد احد المقربين اليه: كنت سآتي بك وزيرا لولا بشير.

وبشير بحسب احدى الروايات هدد بان توزير جان عبيد سيحمله على نقله في صندوق سيارة او رميه في جل. لكن عبيد اجاب الرئيس الراحل: انا في بلونه بين انياب بشير ولست خائفا. وانت في بعبدا لا يجوز لك ان تكون خائفا الى هذا الحد. فالرئيس ينبغي ان يكون اقل خوفا ممن هم حوله.

وثمة من يقول ان عبيد كان اسمه على لائحة الاغتيالات البشيرية، فحين تسأله عن معرفته ببشير يجيب: عرفت عنه ولم اعرفه. بعد انتخابه رئيسا التقيته على باب الرئيس كامل الاسعد فقال لي: بدي شوفك، واجبته: نشالله خير. ويضيف جان عبيد: ربما لم يكن الخلاف مع بشير على المبادىء بقدر ما كان على الوسائل. انا ديموقراطي وحواري وسياسي ارفض القوة والرهان الاسرائيلي برغم اقراري بقماشة بشير القيادية واللبنانية حتى هنا ، جان عبيد لا يقطع الجسور.

٥ ـ الاهتمام بالعمل من ضمن التناقضات المسيحية ـ المسيحية وضع عبيد في حالات من سوءالفهم في اصدقائه العرب والسوريين. فمرة قال لعبد الحليم خدام: انتم تحبون المسيحي اذا كان شهيدا او منفيا. والضمني في هذا الكلام ان النظرة العروبية التقليدية لا تعبأ كثيرا بالمسيحي الذي يبقى في منطقته ويتعامل مع معطياتها ويحاول ان يكون فاعلا ومؤثرا فيها. وقصة جان عبيد في الانفتاح على ايلي حبيقة، وهي ما سنعود اليه لاحقا، تمثيل على هذا الموقف وما ينجم عنه من مترتبات.

٦ ـ نظرة عبيد للاصلاح السياسي تبقى محكومة بهذه المعادلة الاساسية وعمادها تغليب الانشقاق السياسي للطوائف على توحيدها الطائفي. فهو داع الى الانتخابات على مستوى

المحافظة حيث تتسع رقعة اهتمام المرشح بما يتعدى جماعته وبما يدفعه الى التوازن في التعبير عن اراء ومصالح من يمثلهم. لكنه يرى ايضا ان انتخاب رئيس الحكومة ينبغي ان يكون مطلبا مسيحيا لانه يجعل المسيحيين الطرف الاقدر على اختيار رئيس الحكومة بما يوازن قدرة المسلمين الحاسمة في اختيار رئيس الجمهورية. وهذا مدخل الى رد الكتل النيابية الكبرى الى كتل سياسية وبرنامجية كبرى على صعيد البلد ككل.

وخلاصة القول ان جان عبيد، بخليط من الواقعية والمبالغة في تقدير الجهد الذاتي، يعامل اللعبة السياسية المسيحية بوصفها كيمياء محكومة بقوانين صارمة، ومطلة على احتمالات تركيب للعناصر يصير معها غير الممكن ممكنا، ويفسح المجال للنائي والبعيد ان يتصدر في صحن الدار.

١٧ أيار

جان عبيد حامل هذه الأفكار والمعادلات، والصداقات، أصبح مستشارا غير رسمي لرئيس الجمهورية الشيخ أمين الجميل، أي انه مستشار من دون صدور رسوم بتعيينه ومن دون أن تكون المستشارية وظيفة يقابلها مرتب ورتبة. ولهذا ظلت استشاريته غامضة بما حدا باحدى الزميلات، مؤخرا، الى تسميته المستشار «الغامض». و١٧ أيار كانت الحدث الذي انتقل معه عبيد الى عالم علني على شيء من السطوع. وهو يروي بعضا من صفحات قصته مع الاتفاق المذكور، ومن أفواه آخرين نستجمع صفحات أخرى:

فبعد وصوله الى الرئاسة كلف الشيخ أمين الجميل صديقه جان عبيد بمتابعة الجانب العربي، والجانب العربي في الموضوع اللبناني يختصر بمسألتين: العلاقة مع سوريا وانسحاب «منظمة التحرير الفلسطينية» أو الغاء الكفاح الفلسطيني في لبنان بعد خروج الفلسطينيين في ١٩٨٢ . وكانت هاتان المسألتان جزءاً عضويا من الاستراتيجية التي شرع يتبعها العهد الجديد ممثلة في الانسحاب الشامل الاسرائيلي ـ السوري ـ الفلسطيني.

يومذاك كانت وجهة النظر السورية تعارض المفاوضات اللبنانية مع اسرائيل كوسيلة، توصل الى الانسحابات والحلول. وقد نقل الرسميون السوريون عبر جان عبيد الى رئيس الجمهورية رأيا مؤداه التالي:

تقولون ان الأميركان سوف يعيدون لكم الأرض عبر التفاوض، لكننا نشك في ذلك. على أية حال اذا شئتم جربوا الا اننا واثقون من أنكم لن تنجحوا ومن أنه لابد من العودة الى صيغة الهدنة. وكان الرأي اللبناني الذي نقله عبيد الى دمشق ولونه بصياغته انه لا بأس بلحاق الكذاب الى باب الدار. فلم لا نمتحن النوايا الاميركية في تأمين انسحاب غير مشروط. وردا على هذا الرأي وافق السوريون على ان يعطى لبنان فرصة كاملة من دون أي ترحيب بذلك. ولم لا أيضا طالما ان المسألة، كما قال جان عبيد، لن تطول أكثر من أسابيع، فيما لا يوجد أي عرض بديل.

أما مع الفلسطينيين فتولى جان عبيد نقل الرسائل بين الرئيس الجميل وأبو عمار الذي كانت له جلستان طويلتان معه في تونس. وكان رأي القائد الفلسطيني انه لا توجد مشكلة في ما يخصه، اذ حين ينشأ موقف اسرائيلي وعربي عملي من الانسحاب يصير انسحابه تحصيل حاصل، وقد تعهد أبو عمار بأن يضع نفسه في تصرف الشرعية اللبنانية راجيا ان لا يباع رخيصا، أي أن لا يضغط عليه بالانسحاب وحده.

كان جان عبيد يعمل انطلاقا من الصورة التي رسمها العهد الجديد للاتفاق الذي ينوي التوصل اليه. فالاتفاق الموعود مشروط بثلاثة: ان لا يخل بالسيادة، وأن لا يخل بوحدة الكلمة اللبنانية، وأن لا يخل بالتزامات لبنان العربية.

لكنه شيئا فشيئا ومع تقدم المفاوضات راح يشعر بأنه يتعرض لقدر من الاستبعاد والتهميش. كانوا يقولون له في بيروت بحسب روايته انهم لم يتوصلوا الى أي شيء بعد، لكنه وهو في دمشق سمع من المسؤولين السوريين عن توصل المفاوضات الى بعض النقاط التي نقلها لهم الاميركان.

كان الاتفاق عاما على ان موافقة السوريين على ما يقوم به اللبنانيون هي من شروط المفاوضة الناجحة، ولأن اشراك السوريين بصورة أو أخرى في المفاوضات كان مطلوبا، تقرر أن يذهب وزير الخارجية ايلي سالم الى دمشق ومعه جان عبيد والعقيد عباس حمدان الذي تولى الجوانب العسكرية والتقنية من المفاوضات. قيل لجان ان ثمة نقاطا يجري الكلام بصددها مع الاسرائيليين ويجب أن نسمع رأي الأخوان السوريين فيها. ويفاجأ عبيد وهم في الطائرة بورقة تحمل النقاط المذكورة وكأنها مشروع متكامل. وبحسب رواية عبيد فان رحلة الطائرة لم تتح استكمال القراءة. فصورة الاتفاق لم تكتمل عنده الا في اللقاء مع الرئيس الأسد الذي تم اطلاعه على النقاط فكان تعليقه: هذا اتفاق أسوأ ألف مرة من كامب ديفيد.

جان عبيد لم يكتم مفاجأته بالاتفاق قائلا في حضرة الرئيس السوري: لا علم لي بذلك كله. ويبدو انه في المداولات التالية ضم صوته الى صوت النقاد السوريين للاتفاق.

تلك الزيارة حصلت في نيسان، ومنذ ذلك الحين لم يلتق بالرئيس الجميل حتى مجيء شولتس، وزير خارجية الولايات المتحدة، قبيل توقيع الاتفاق. حينها توجه الى قصر بعبدا ليسأل الرئيس عما يقوله وزير الخارجية الزائر فكان الجواب: رأي شولتس ان وقعوا ولا تفكروا بسوريا. فنحن، قاصدا الأميركان، لا تعوزنا امكانات الضغط والتأثير على دمشق.

في غضون ذلك كانت العلاقات الأميركية واللبنانية بالمسؤولين السوريين تتردى. فبعد ان أبدى الرئيس الأسد استعداده للقاء الاميركان ولو على شيء من المضض، بات الاميركان يتهربون من لقائه بحجة انه لم يتم حتى الآن التوصل الى شيء جدي يستدعي اللقاء. أما الرئيس

الجميل فكان ظنه ان المبالغة في التعويل على رأي السوريين تعني انتقاصا من السيادة، لأن بيروت، لا دمشق، هي عاصمة التفاوض والقرار.

بدوره كان لجان عبيد رأي أثبتت الأيام والتجارب اللاحقة رجاحته. فقد ساءه الميل الى تجاهل الرئيس السوري وتساءل: ألا تريدون لقاء الأسد الا وأنتم تحملون له مذكرة جلب؟ واستطرد المستشار العروبي سابقا: الأسد أقوى من شولتس فلا تخدعوا بكلام الوزير الاميركي. الأسد هنا وهذه قضيته، أما شولتس فغدا يذهب الى واشنطن وينسى ويتفرغ لمشكلات أخرى قد تكون أهم. ولهذا فكلام الرئيس السوري هو ما ينبغي أخذه في الاعتبار. والخوف أن نجد أنفسنا وقد خسرنا سوريا من دون أن نكسب اميركا. فاذا ما تفاقمت الأمور اقليميا ودوليا ورجح احتمال الصدام الاميركي مع السوفيات بسبب لبنان فلبنان أصغر من أن يعطي هذا المردود. لا بل حتى لو التزمت أميركا واسرائيل الى النهاية مع لبنان ضد سوريا وقامتا بتأديب الأخيرة، فمثل هذا الانتصار الموهوم سيكون وبالا تاريخيا كبيرا على مسيحيي لبنان وربما الشرق بأكمله.

في شهر آب انفجر النزاع الأهلي في الجبل وكان الرئيس الجميل يفكر في العودة عن الاتفاق فجدد اتصاله بجان عبيد. النقاش دار حول كيفية التراجع عن ١٧ أيار والغطاء اللازم لذلك. وجان عبيد كان له رأيه في الاخراج: الذي أطلع الحمار الى المئذنة فليقم بانزاله، أي، ليتول الرئيس الجميل بنفسه الغاء الاتفاق. وبين الأسباب الضمنية وراء هذا الرأي أن القطب المسيحي الذي رعى الاتفاق هو المطالب بالتخلص منه، على الأقل في أعين المسيحيين، كي لا يقال في الغد ان طرفا آخر فرض عليهم هذا التراجع.

وكان ما كان وألغي الاتفاق وتولى جان عبيد مصالحة الرئيسين اللبناني والسوري على أساس هذا الالغاء، الا انه حرص على ابقاء المسافة قائمة فلم ينضم الى الوفد اللبناني الرسمي الى لوزان بذريعة أن عمه أصيب بكسر في رجله.

ومضى عبيد يمارس لعبه الكيميائي في الوسط المسيحي: حل وتركيب ومجانسة واشتغال على التناقضات. أما فارسه هذه المرة فايلي حبيقة قائد «القوات اللبنانية» حينها. ففي ١٩٨٤ وخصوصا في ١٩٨٥ جعل عبيد «يحاور» حبيقة عاملا على اقناع السوريين بضرورة أن يفتحوا الباب الخلفي لقائد القوات. ولم تكن المهمة سهلة حينذاك، فيما التوتر يقيم في قلب الحياة السياسية المصطبغة بالمواجهات العسكرية، وقبل أن ينسى الكثيرون دور حبيقة في مخيمي صبرا وشاتيلا.

وبرغم تعرض قناته للغمز أكمل عبيد، بالتعاون مع ميشال المر وميشال سماحة، مناقشته لحبيقة حول دور المسيحيين ودور الكتائب وضرر الرهان الاسرائيلي ولا جدوى العنف والقوة. وبعد حركة ١٢ آذار، باتت المهمة أصعب اذ أن الرئيس أمين الجميل شدد هجومه السياسي

والكلامي على قائد «القوات»، وكان ميل السوريين الى التفاهم مع رئيس الجمهورية يجعل كل انفتاح من جانبهم على أيلي حبيقة مشوبا بخطر تجدد الخلاف مع الجميل. لكن هذا الحذر ما لبث أن سحب من التداول وفتح الباب للمفاوضات التي سبقت توقيع «الاتفاق الثلاثي» وأدت اليه.

ولم يشارك جان عبيد في المفاوضات المذكورة لأن همه اقتصر على ما يصفه هو بتقريب حبيقة من الخط العربي وابعاد لغة العنف والقوة ومحاصرة الخيار الاسرائيلي. وحين وقع الاتفاق لم يبدِ عبيد حماسا له. لأنه، وهو المعني أساسا بالتأثيرات التي يخلفها على الساحة المسيحية، رأى ان المطلوب هو توسيع النطاق السياسي للاتفاق، في شقه المسيحي على الأقل.

واليوم، يقول بعض العارفين بتضاعيف الخريطة السياسية. المسيحية ان جان عبيد يعمل منذ مدة على اطلاق كيميائه نحو القيادة الحالية لـ«القوات». اذ من قال ان جميع من في هذه القيادة واحد؟

سيماء وكيمياء

جان عبيد المائل الى الطول يشبه الكيميائي كما يرسمه بعض الأقلام أو يظهره بعض الشاشات محفوفا بشيء من الغرابة. ويلوح كيميائينا العلماوي وكأنه استحم لتوه فحف جلده حتى أبيض وزالت عنه طباشير المختبر وأحماضه.

الرأس في وسطه يخلو تماما من الشعر بما يسفر عن صلعة بالغة الملاسة ضاقت بنفسها فدفعت الشعرات الى أقصى الطرفين واستقلت بحدود كاملة لها. وفي ذينك الطرفين كتلتا شعر أبيض متدليتان الى الأسفل ومهملتان بكثير من العناية. وكل واحدة من الشعرات تشبه سلكا كهربائيا رفيعا وقصيرا لم يتم تذليل انحناءاته وتسوية تعرجاته لادخاله في الشريط.

ومن الوراء يبدو طرف الرأس وقد هوى وانهار كله دفعة واحدة ليستقر على عنق دسمة تستقر بدورها على جسد معتدل لا تعوزه الرشاقة. ووراءالنظارتين الانيقتين تقيم عينان صغيرتان تحتهما أنف وفم صغيران أيضا بما يجعل نمنمة تقاطيع الوجه شكلا مألوفا ومريحا في عين امرأة. وباستثناء حذاء من جلد التمساح، وهو ما اشتهر به مليونيرية الزنوج الاميركان، فان مظهر جان عبيد وملبسه يشيعان الدفء والالفة ويحضان على المكاشفة بالأسرار بعيداً عن مظاهر القسوة والجلافة كلها. وأغلب الظن أن هذه النمنمة تفيد صاحبها وتكمل عناصر قوته في هذا المجال وأبرز تلك العناصر الدماثة والكرم. فجان عبيد قادر، بحسب عارفيه، على أن يدخل البيوت من قناعات أهلها، لكنه قادر أيضا على أن يدخلها من صالوناتها، ولا بأس في الدخول من مطابخها، فاذا فرغت البيوت البيروتية من الزيت أو نضبت من العرق، فهو عنده كروم زيتون وعنب،وكل كرم على درب.

وهذه الصفات مجتمعة تمنح عبيد وجها آخر هو ذاك الذي يتيح له أن يشاطر العائلات

الصديقة والمرشحة للصداقة دقائق عيشها وهمومها. فهو من الصنف الذي يكون في آن معا وبقدر متكافىء صديق الزوج يناقشه في الأمور العامة وصديق الزوجة التي تعامله كواحد من أهل البيت وتصارحه بشؤونها الصغيرة.

وهو في ترجمته العلاقات السياسية والاجتماعية الى صلات شخصية يستعمل مهارته كمحدث شهرياري من طراز رفيع. يشير بيدين بيضاوين أميل الى الصغر وينحو منحى الاستطراد المحبب عند بعض الرجال والكثيرات من النساء اللائي يشدهن استمرار الصوت والنبرة والتقطيع أكثر مما يعنيهن اندفاع الكلام خارج الموضوع.

وما بين نكتة هنا وحكمة هناك يتوالى السرد، والسرد عزيز على الآذان خصوصا متى رصع باسماء الأشخاص الراحلين والأماكن البعيدة التي تقتل النعاس وتبعد ملل اليومي والعادي. والكلام على طريقة من كل واد عصا فيه الكثير من الأخبار والتشويق والسلوى، والقهقهات طبعا، من دون أن تنقطع صلته بالتقليد الذي ترعرع ثقافيا في «هورس شو» الستينات.

يومذاك كانت ثقافة القوميين العرب الباحثة عن مادة سجالية مع التحدي الماركسي تفتح ذراعيها للوجودية، وتضم الى جنباتها البعض السياسي من الماركسية، وخصوصا من لينين وماوتسي تونغ وغيرهما ممن أثبتواللقوميين انالطبقية تحتاج الى جرعة من المسألة القومية. وقد دمج هذا النمط الثقافي ذاك الوافد الجديد في مركب يشمل الحكم المتوارثة عن الأهل والتجارب، كما يشمل عموميات تراثية اسلامية وأخرى عربية تتعايش فيها الجاهلية والعصر العباسي تعايش الأسد والعصفور في الصورة الدينية عن الجنة.

تلك التجربة التكوينية لا تزال آثارها واضحة على استعارات جان عبيد وأمثلته وكناياته حيث يروي عن «أعرابي» سئل فأجاب... وعن الديانات بما هي اتفاق على خدمة الله ومصلحة الناس، مستشهدا بالخطوة اللينينية الشهيرة الى الوراء تمهيدا للخطوتين الى الأمام، من دون أن يهمل مثلا أو حكمة أو قولا مأثورا في مطال اليد واللسان والذاكرة. وفي الخلاصة الأخيرة نجدنا أمام لون من الثقافة الذي يرسل الصياغة في معادلات وشعارات، فيصيب الحقيقة في عمومها ويجافيها في تفاصيلها ناحيا نحو قدر من التبسيط. الا ان هذا اللون يستجيب على أفضل وجه للنزوع التوفيقي المتوازن اذ تنشطر المعادلة، في الغالب، الى جزئين متوازنين على ما رأى جان بول سارتر في قوله المعروف: ما نطق بورجوازي صغير الا قال: من جهة... ومن جهة أخرى.

أما القيمة الاجتماعية (كنعت للعلاقات لا كنسبة الى الاجتماع) لمثل هذا اللون فهي بعض ما لا يرقى اليه الشك. فلئن تاق السياسي تقليديا الى مثقفه، فان صالون السياسيين يبحث عن ثقافة تكون امتدادا لما هو دائر في الصالون ولا تكون انقطاعا معه. وبهذا المعنى فان اللون المذكور يريح السياسي من مغبة الصوغ والتعبير وتعقيد الأشياء، بقدر ما يطمئن الصالون الذي

يتفكه بالثقافة والمعرفة الى أن هاتين الأخيرتين يمكن شربهما في ملعقة حلوة الطعم والمذاق لا تجرعهما اختصاصاً وجدا ومعاناة واجهادا للعقل.

وحين تسأل جان عبيد، المثقف بين السياسيين والسياسي بين المثقفين، ما اذا كان يقرأ، يجيب: معلوم، ويمضي مميزا بين ما يسميه الينابيع وما يسميه السواقي. فالينابيع هي القرآن والانجيل ونهج البلاغة وديوان المتنبي، وهي كلها قرب سريره، بحسب قوله. وأغلب الظن ان كتاب الحكمة لو كان متاحا تداوله لعده بين الينابيع ووضعه في المكان نفسه! اما السواقي فهي عنده المتفرعات والكتب الأخرى من دون أن تعني الكلمة كتب «السلوى» كما يؤكد. وهو يضيف ان كتب البارابسيكولوجيا والماورائيات تستهويه في جمعها بين الفلكي والروحي ويسمي كاتبين أو ثلاثة ربما كان الاهتمام بهم وبحقولهم من قبيل انشاء التوازن مع العالم الواقعي. الا ان الصدارة عند جان عبيد تبقى للتراث العربي قرآنا، ونهج بلاغة وشعرا عموديا أسلس قياده للمتنبي، وكلاسيكيات فنية تتكرر في معرضها اسماء أم كلثوم وعبد الوهاب والسنباطي والقصبجي.

تسأله: والفنون التشكيلية؟

ما كتير.

يبقى ان جان عبيد المتوازن جدا يطبق توازنه على الشبكة البالغة الاتساع لأصدقائه. فنجله الأكبر الذي ولد في ١٩٧٢ أسماه سليمان وترك لابنه الثاني اسم والده بدوي، وبين الاثنين كانت هلال وأمل وجنى. ومع هذا فالعلاقة بالرئيس فرنجية وأهل بيته، وخصوصا صهره الوزير عبد الله الراسي، لم تحل دون تمتين العلاقات ذات اليمين وذات اليسار، وهو ما أظهرته اللهفة الواسعة عليه في ١٢ شباط ١٩٨٧. مع ان الخطف لم يدم أكثر من أربعة أيام. يومذاك أعلنت «منظمة الجهاد الاسلامي» مسؤ وليتها عن العملية التي تمت فيما كان عبيد في طريقه من منزل رئيس المجلس السيد حسين الحسيني الى القصر الحكومي في الصنائع لمقابلة رئيس الحكومة رشيد كرامي. وقد اشترطت المنظمة لاطلاقه اطلاق جميع الأسرى المخطوفين في المنطقة الشرقية من بيروت. وحينما أطلق سراحه أصدر عبيد بيانا ينم عن التوازن في نظره للأمور والناس والقوى. وقد قيل ان اختطافه تحول مناسبة لكسب صداقات جديدة بحيث توجه ثلاث مرات الى الضاحية الجنوبية بهدف اطلاق سراح أحد المخطوفين و«محاورة» السيد محمد حسين فضل الله في شؤ ون الدين والسياسة، من دون أن تعيقه حداثة تعرضه هو نفسه للخطف.

واذا اقتصرنا على اسماء الأعلام والمشاهير فحسب قلنا ان شبكة جان عبيد المسيحية تشمل الرؤ ساء الجميل وحلو وفرنجية، ومعهم العميد ريمون اده وعبد الله الراسي وجوني عبده وفاروق أبي اللمع وداني شمعون وايلي حبيقة والأباتي بولس نعمان وعصام فارس وميشال المر ورينيه معوض وجورج سعاده وادمون رزق ونصري المعلوف وجوزيف الهاشم وكريم بقرادوني ونادر سكر.

تقابلها شبكة اسلامية ودرزية تجمع الى الرئيسين كامل الأسعد وصائب سلام كلا من نبيه بري ووليد جنبلاط ورفيق الحريري ومروان حمادة ومنح الصلح والأميرة خولة ارسلان وعاصم قانصوه وعثمان الدنا، وطبعا آل كرامي الذين يطلون على علما ولو بقدر أقل من اطلالة آل فرنجية عليها. ودائما هناك بركة البطريرك الماروني نصر الله صفير ومن تيسر من رجال الدين.

وعبر «سياسة» المواظبة على التعازي والتهاني واللياقات يضمن جان عبيد ان الأصدقاء يزيدون يوما بعد يوم ولا ينقصون، الأمر الذي يجعله خير وسيط بين خصمين كلاهما على صداقة معه، وخير مستشار لصديق يفتقر الى الصلة بهذه الأجواء والأهواء كلها.

وبراعة جان عيد تبلغ ذروتها حين يعرض أوضاعه المالية التي تشكل في نظر الكثيرين أكثر أسرار جان عبيد سرية. فكلامه يمر وسط حقول من الأمثلة والحكم لا سبيل الى نزع الغامها، من نوع: مبدئي أن أعيش غنيا وأموت فقيرا. وانني أملك كثيرا وأمون على الكثير عبر صداقاتي وعلاقاتي من دون أن أملك.

يبدأ جان عبيد بالقول انه حتى اللحظة لا يملك بيتا خاصا به، بل يعيش هو وعائلته في بيت عمه اميل البستاني في بلونة. نسأله عن القصر الذي يبنيه في قرية بوسيط في جبل تربل فتلوح في عينيه محاولات اقناع تكاد تنجح في اشعارك بالتردد في المضي بالشكوك. يقول ويروي برغم التفاوت في قوة الحجج:

ما يسمونه قصرا ويشيع البعض انه يحتوي على ٧٠ غرفة نوم لا يضم سوى ١١ غرفة. يكرر انه لا يملك بيتا، وان عائلته تضم سبعة أشخاص فضلا عن والدته وشقيقه اللذين يعيشان معه. فهل يستكثر علينا غرفتان للضيوف؟

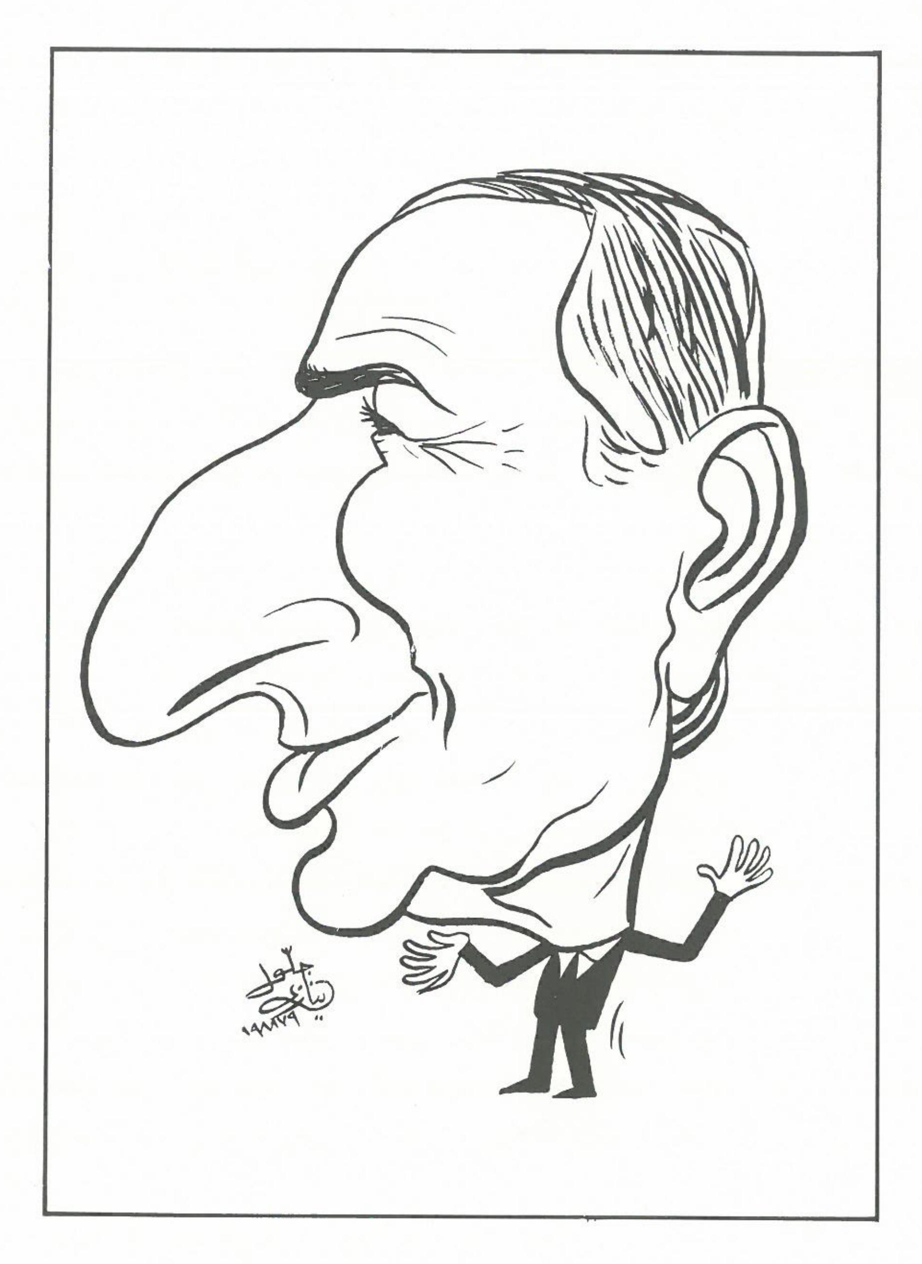
لكن دعنا نحامي عن الشيطان قليلا، في أسوأ الأحوال. فجان عبيد يقول انه يملك قرابة نصف مليون متر مربع في الشمال ومثلها لزوجته في البقاع، ومجموعة من ١٢٠٠ سبحة. ثم ان ما يبنيه، سمه قصرا أم بيتا، هو باهظ الكلفة. فكيف يصنف جان عبيد نفسه اقتصاديا؟ هل هو رجل أعمال؟

يضحك عبيد بشيء من المرارة الملتبسة. أنا لست رجل أعمال وان كنت تعاطيت بعض الأعمال مع صهري بدوي أزعور الذي يعمل في الخليج. لقد عملنا معا. وابان المحنة التي مرت بالعائلة على أثر قصة الكروتال والرادار بعت هدايا وتحفا وأراضي بالملايين للتغلب على مصاعب الفترة المذكورة.

وحتى الآن لا زلت أبيع. في ١٩٨٣ بعت ٧٥٠ سبحة كوربا ومرجان بقيمة ١,٨ مليون

دولار. أموال مبيعاتي، وما تملكه زوجتي، وعملي مع صهري، وأموال صهري الآخر جان المير الذي يعد هو واخوته من أغنى اغنياء أوستراليا، هي كلها ما أتاح لي الظهور بالمظهر الذي يحمل الآخرين على اعتباري ثريا.

الجلستان الشيقتان مع جان عبيد في «السفير» وفي مكتبه المتواضع في سن الفيل سيل من الكلام لا ينقطع واشتغال بالكيمياء لا ينقطع أيضا. بالكيمياء اضرب يا جان، انما حذار حجر الكيمياء.



رينيه معوض

مثل رينيه معوض في زغرتا نهج التهدئة وامتصاص النزاعات العائلية بقدر ما مثل لونا من تحديث الزعامة الزغرتاوية وتطعيمها بالمهن الحديثة. وبمعزل عن تقلبات وانعطافات ذات اليمين وذات اليسار بين الفينة والاخرى، فان ما يرسخ من سياسة معوض على نطاق لبناني اعتدالها والتقاء مصلحتها مع مصلحة انتشار رقعة السلطة التنفيذية وعملها، ناهيك عما افضى اليه هذا الاعتدال من محاصرة لبؤر التوتر التقليدية في علاقات زغرتا مع جواراها الطرابلسي المسلم.

لكن هنا بالضبط تكمن متاعب ومصاعب رينيه معوض الطيب الودود الذي لا تفارق شفتيه البسمة.

ينتمي رينيه الى الجب المعروف بجب اغناطيوس معوض، وهو الفرع المتصدر في العائلة الزغرتاوية الأولى عددا والأوسع علما وثراء في بلدتها. جده ميشال كان ملاكا نفاه الاتراك الى ازمير يوم نفوا نمر شمعون وغيره من الوجهاء المسيحيين المعارضين لحكمهم في جبل لبنان. وقد اهتم ميشال بالشأن العام جريا على ما كان يفعله والده اغناطيوس مؤسس الفرع الذي انيطت به تسوية نزاعات محلية وعائلية.

ويبدو ان ما بات يعرف بسياسة آل معوض، وفي متنها الصلة الوثيقة بالسلطة التنفيذية في بيروت، يضرب جذوره في علاقة ميشال باميل اده من طريق صلته بكسروان الخازن. قبل ذلك، وفي ١٩٢٠ اي مع قيام الانتداب الفرنسي، عين الجد محافظا، فمهد الطريق لادوار ومناصب سوف يحتلها ابنه انيس، والد رينيه، وابن شقيقته رشيد.

ولئن تولى رشيد رئاسة البلدية، فقد عين انيس قائمقاما واستطاع ذات مرة، وكان رينيه اصبح شابا مؤثرا في عائلته، ان يتبوأ رئاسة البلدية وسط جو وفاقي وائتلافي بين العائلات حرص الاب والابن على انشائه وتوطيده.

يتحدث رينيه عن والده انيس الذي درس الهندسة الزراعية في مونبلييه بفرنسا:

اشتهر بالشدة وتطبيق القانون وادخل الشرطة الى اهدن لتنظيم موسم الاصطياد فيها نظرا لكثرة العدد الذي يؤمها صيفا. وحين كان عمري ١٧ سنة اوقفت السيارة في مكان ممنوع على السائقين فطلب والدي الى الشرطي ان يكتب ضبط مخالفة بي، وعندما رفض الشرطي، طرده الوالد من عمله. كان يحب القانون والعمران ولم يكن على خصومة مع العائلات الاخرى.

اما والدة رينيه التي ولدت في البرازيل وانتسبت الى اسرة مهجرية صغيرة فمن عائلة شلهوب الزغرتاوية: عائلة صغيرة ومحترمة، يشرح رينيه.

لكن هذا التصدر في العائلة الكبيرة لم يحل دون ظهور محاولات منافسة لم يكتب لاصحابها النجاح. فأحد الطامحين كان المحامي حميد معوض الذي اقترن بابنة رشيد معوض، ابن اخت جد رينيه، فحين لم يسعفه الحظ اكتفى بنقابة المحامين في طرابلس والشمال.

محطات على الطريق

ولد رينيه معوض، الوحيد لابويه، في ١٩٢٥ في زغرتا، وما لبث ان اودع مدرسة زغرتا لمديرها المونسنيور معوض، وهي مدرسة تابعة لكنيسة يعود تاريخها الى حوالي العام ١٦٠٠، تقوم اليوم في مكانها احدى مدارس زغرتا الرسمية.

يرويُ معوض عن تلك الفترة: كان المونسنيور معوض رجلا قاسياً وصاحب هيبة يفرض الاحترام، ما من زعيم لاحق في زغرتا الا اكل منه قضيبا او اكثر. تخيلوا صعوبة فرض نظام في زغرتا حينذاك. كان قويا جدا. كان قاسيا.

في ١٩٣٤ نقل رينيه الى فرير طرابلس وبعد اربع سنوات الى فرير بيروت، لكن اصابة الاخيرة ببعض رصاصات القصف الذي تعرضت له العاصمة في بداية الحرب الثانية، حملت آل معوض على نقل ابنها الوحيد الى عينطورة وكان الاب سروط، وهو فلسطيني، يدير معهدها.

يتذكر رينيه: كان سروط صارما وقاسيا جدا.

بعد عينطورة باشر معوض دراسة الحقوق في الجامعة اليسوعية حيث تخرج في ١٩٤٨، وكان بين رفاقه المتخرجين الياس سركيس وميشال اده وغسان تويني، فانتقل هو واده الى التدرج في مكتب الرئيس عبد الله اليافي.

لماذا عبد الله اليافي؟.

كانت تصير مشاكل في زغرتا، يجيب رينيه، ونكلفه ببعض الدعاوى، مما شكل سببا للصلة به.

في ١٩٥١ فتح معوض مكتبا للمحاماة خاصا به في طرابلس الا انه تسجل في نقابة بيروت التي انتقل اليها بعد سبع سنوات مستأجرا مكتبا له في بناية الصحناوي.

نسأل رينيه عن عائلة معوض بوصفها اكبر عائلات زغرتا.

يجيب: لنقل احدى العائلات الكبيرة. يروح يؤكد على القرابات بين العائلات الزغرتاوية: ست سليمان فرنجية لجهة الاب من آل معوض، وستي لجهة الاب من آل كرم، وهناك قرابات ومصاهرات مع سائر العائلات.

نسأله عن ظروف انتخابه للياس سركيس في ١٩٧٠ وعدم تصويته لسليمان فرنجية.

يحور ويدور ويطلب اعفاءه من السؤال بكثير من التهذيب: نحرص دائما على وحدة عائلات زغرتا، والرئيس فرنجية في طليعتنا. اذا بتعفوني من تفتيح جروحات..

نقول له: سليمان فرنجية. يقول من دون ان يخطىء: الرئيس فرنجية او سليمان بك، فيما يصاب صوته بشيء من الانخفاض والتهدج وتذهب عيناه الى مكان بعيد كما لو كان سليمان يستمع الينا من غرفة مجاورة في بيت رينيه في اليرزة.

سليمان بعيد في زغرتا، فارفع رأسك يا اخي.

عبر الحياة والسياسة

في ١٩٥١ خاض المحامي الشاب اول معاركه الانتخابية الى جانب حميد فرنجية وكانت زغرتا والبترون وبشري دائرة انتخابية واحدة، لكن الحظ جافاه مجافاته لجميع زملائه في اللائحة ما خلا حميد نفسه. بيد ان طريق رينيه الى المعركة الانتخابية الأولى كانت طريق وفاق وتقارب مع العائلات الزغرتاوية لا سيما منها آل فرنجية. فمعوض في ١٩٤٩ لعب دورا بارزا في تأسيس لجنة بلدية تضم زعماء زغرتا ووجهاءها وتكون ملتقاهم ومكان عملهم المشترك على تلافي الحساسيات او الحد منها. ومنذ اقامة ذلك الائتلاف توطدت صلته بحميد وسليمان فرنجية فخاض المعركة الانتخابية، كما سبقت الاشارة، على لائحة الاول.

وفي ١٩٦٥ اقترن رينيه بالانسة نيلا عيسى الخوري، كريمة نجيب شقيق ندره عيسى الخوري احد زعماء بشري. ونيلا التي يصفها عارفوها بالحضور وقوة الشخصية، عملت صحافية في «الاوريان» وكانت لها مبادرات اجتماعية متعددة في زغرتا وبيروت. ومن نيلا انجب رينيه في العام التالي لزواجه، ريما التي انهت دراسة الحقوق في فرنسا، وميشال المولود في ١٩٧٢.

يحدثنا رينيه عن زوجته: اطلقت في زغرتا فكرة عمل المرأة الذي كان يعتبر عيبا. قامت بمشاريع اجتماعية وانشأت محترفا (ارتيزانا) لا زال قائما بهدف مكافحة البطالة وتعزيز مكانة المرأة. كذلك انشأت مستوصفا وعملت على تأمين كتب مدرسية للمحتاجين ومنح للطلاب. وفي ١٩٧٤ ذهبت الى النبعة للمشاركة في نشاطات اجتماعية. كانت هناك لجنة تهتم بآلام الناس ضمت خولة ارسلان وناديا تويني ونيلا وغيرهن.

يحاول رينيه البحث عن اوراق او وثائق حول بعض نشاطاتها، كما يحاول الاتصال بها تليفونيا في داخل البيت ليسألها عن تلك النشاطات، بكثير من الهمة والحماسة.

لقد تعاقب على رينيه معوض الوحيد لابويه، والد قاس اراد تخشينه كما يفعل بعض الاباء فجلب له البوليس، وبعده معلمان قاسيان وزوجة ذات حضور وزعيم منطقة بالغ الصرامة الابوية من عيار سليمان فرنجية، ناهيك عن الولاء الروحي العميق للجنرال الصامت فؤاد شهاب. وتوسطت هذه العلاقة الاخيرة صلة متينة على نطاق الشمال برشيد كرامي، اذ الزعيم الزغرتاوي الثاني يعوزه زعيم محافظة ينافس زعيم زغرتا الاول، فيما الزعيم الطرابلسي لا يكتم تطلبه للامتداد خارج دائرته، خصوصا في زغرتا حيث سليمان فرنجية. ومن هنا فان معظم الحقائب الوزارية التي تسلمها رينيه معوض انما تسلمها في حكومات شكلها رشيد كرامي.

يروي رينيه: «علاقتي ببيت كرامي منذ ايام عبد الحميد. كنت تلميذا في الحقوق وكنا معه

في معارضة بشارة الخوري». ويتحدث عن علاقته بطرابلس وعن الناخبين السنة في قضاء زغرتا ممن يتأثرون بقرار الزعامة الطرابلسية، والموزعين على قرى مرياطة والقادرية وحيلان والفوار وايعال، مقر سلطة مصطفى آغار بربر في القرن الماضي. ولا يخفي كلامه ودا واحتراما كبيرين للرئيس الراحل رشيد كرامي: قالوا عنه اغنى اغنياء العالم، لكن الجميع اصبحوا اليوم يعرفون ماذا كان يملك.

على اية حال ربما كان لطف رينيه ودماثته البالغان بعض نتائج ذاك التعاقب حيث رقت صفحته وسلست روحه فآثر الاذعان لأقدار لا رد لها، او انحاز لذاك العالم الطفلي الناعم قبل التعرض الى القسوات المتتالية، غارفا من حنان امومي يعرفه كل ابن وحيد.

لكن هذا كله لم يحل دون مواقف انشقاق ومعارضة جعلت رينيه وهو شاب صغير يتعرض للاعتقال في عاليه بسبب معارضته عهد الشيخ بشارة الخوري، وكان العهد في شهوره الاخيرة. كذلك قادته معارضته عهد شمعون الداعم للاب سمعان دويهي في زغرتا الى الانتقال الى اللاذقية مع سليمان فرنجية وكان العهد المذكور بدوره يدخل طور النزع الاخير. فقد صدرت مذكرة توقيف بحق رينيه بعيد حادثة مزيارة الدموية، وفيما هو في اللاذقية رشح على لائحة حميد فرنجية (مقعدان يومها) ضد يوسف كرم والاب سمعان، وكتب الفوز له ولحليفه.

بيد ان سجل علاقة رينيه بسليمان فرنجية هو اكثر ما يشي باستعداد الاول للمعارضة شريطة توافر الدعم له من السلطة المركزية. فكما رأينا دخل رينيه للمرة الاولى الى البرلمان في ١٩٥٧ ليعاد انتخابه في ١٩٦٠ على لائحة سليمان فرنجية التي ضمت اليها يوسف كرم، بعد ان قضى توسيع البرلمان بمنح قضاء زغرتا ثلاثة مقاعد.

ولئن فاز رينيه على لائحة سليمان في ١٩٦٤ ومن بعدها ١٩٦٨، فقد فاز للمرة الرابعة في ١٩٧٢ على لائحة توني فرنجية وكان قد انقضى عامان على تولي فرنجية الأب رئاسة الجمهورية.

وعلى امتداد تلك السنوات حل انفصام تام بين التحالف الانتخابي العابر في زغرتا والذي عززته طبيعة رينيه معوض التوافقية وميله الى امتصاص النزاعات، وبين المواقف العامة على مستوى السياسة الوطنية والتي شابتها منافسة صامتة مع فرنجية اذكاها دعم العهد الشهابي للمحامي الزغرتاوي.

فذاك العهد الكاره لزعامات المناطق الذين يستعصون على السلطة المركزية، اتاح لمعوض انشاء مكتب يؤمن الوظائف لمحازبيه ومريديه، فيما انفتحت ابواب الكازينو لتوظيف من تبقى منهم. وبعد ان تولى فرنجية وزارة البرق والبريد والهاتف في الحكومتين السلاميتين الاولين خلال العهد المذكور (١٩٦٠ - ٦١) عهد بالوزارة نفسها الى معوض في الحكومة الكرامية الاطول عمرا في تاريخ لبنان الحديث (١٩٦١ - ٦٤) بعد حكومة «الوحدة الوطنية» الحالية، ليكلف ثانية في حكومة رشيد كرامي التي شكلت في كانون الثاني ١٩٦٩ بحقيبة العمل والشؤون الاجتماعية.

في غضون ذلك لوحظ ان احتجاب معوض في معظم سنوات عهد شارل حلو قياسا بعودة فرنجية الى دائرة الضوء الحكومي، ترافق مع الضربات التدريجية التي راحت تكال للشهابية عاملة على قضم مواقعها الواحد بعد الاخر. واذا كان رشيد كرامي قد نجح في توزير صديقه مطالع ١٩٦٩، فانه ما لبث في تشرين الثاني من العام نفسه ان شكل حكومة ضمت سليمان فرنجية وزيرا للاقتصاد الوطني.

خلال عهد فرنجية الاسود في عيني معوض، لم يتح لرينيه ان يحلم بوزارة شغلها توني فرنجية في حكومات امين الحافظ، وتقي الدين ورشيد الصلح، حتى اذا ما حل في القصر الرئاسي صديق رينيه الشهابي الياس سركيس، كلف في ١٩٨٠ بمهام وزارة التربية الوطنية في الحكومة الوزانية التي عاشت حتى الاجتياح الاسرائيلي وانتهاء الولاية.

كذلك فمعوض الذي آثر التعايش المهذب مع فرنجية في زغرتا، لم ينفك يتخذ مواقف مستقلة عنه انما في المركز البيروتي البعيد. واذا كانت موالاة الشهابية بحماس اول مبادرات الاستقلال المستندة الى دعم السلطة المركزية، فان التصويت لالياس سركيس ضد فرنجية في انتخابات ١٩٧٠ الرئاسية كان «صولد» الحياة... الدنيا والاخرة.

ومرة اخرى وبالاستناد الى بيروت انتخب رينيه معوض بشير الجميل في ١٩٨٢ وهو الخصم اللدود لآل فرنجية، علما بان النائب الزغرتاوي لم يتردد في مواساة رئيس لائحته حين الم به مصابه بنجله وعائلته. لكن مقاطعته للمنطقة الشرقية لم تطل عهدا. فرينيه الذي يمثل العائلة الزغرتاوية الاشد صلة بالمركز وما فيه من مصالح تبدأ في المعاملتين لا يستطيع المكوث طويلا خارج بيروت.
وبعد اقتراعه لامين الجميل رئيسا وافق رينيه على اتفاق السابع عشر من ايار موسعا الهوة الفاصلة عن زعيم زغرتا الاول. نسأله عن ذلك، فيجيب:

انتخبت بشير الجميل بدون ما اعرفو. كنا امام خيار: اما انتخاب او فراغ. و١٧ ايار، مش وحدي ايدته. اعتبرت انو اذا يؤدي للانسحاب الاسرائيلي... وحين عرفت الجو الحقيقي وقفت. الآن انا مع تطبيق القرار ٤٢٥....

والعلاقات اليوم بين معوض والرئيس الجميل تحمل بعض المراقبين على تسميته احد ابرز مرشحي الرئيس الحالي. فنزعته التوافقية تحول دون فتحه ملفات الماضي، فيما تقع وطأة رئاسته على زعامة آل فرنجية من دون تأثيرات على الخريطة السياسية المارونية في الجبل. وبينما تكثر التكهنات بالغة بعض الحدود البعيدة يبقى رينيه معوض محتارا. فالمرات التي اتبع خلالها سياسة مناهضة لسليمان فرنجية كانت تتسم بقوة السلطة المركزية. واليوم، هو مطالب بان يكون مرشحا، اي ان يناهض سيد زغرتا الاول، من دون ان تكون هناك سلطة يعتمد عليها.

مال وثقافة وملامح

رينيه معوض الاقرب الى القصر، المربوع الجسم، ذو وجه طيب عليه مسحة حزن لا تبددها البسمة الوديعة بقدر ما تؤكدها. وعلى عنق مترهلة وفيها سلسال، اقام رأس شعره ضئيل في المؤخرة، والمتوافر منه ناعم ورمادي يخترقه فرق على اليسار. وتحت جبهة عالية وعريضة تمكث عينان مخسوفتان وغائرتان قليلا وفم وسيع شفته السفلى أسمن من العليا، وعلى قدر من الاندلاق الى امام والى تحت. وبين العين والفم انف كأنف ابن حرب صاحب ابن الرومي.

يتحدث بهدوء يقبع التوتر والاحتجاج في مكان منه خفي، محركا قبضتين متلاحمتين كثيفتين عليهما نمش واصابعهما قصيرة وصغيرة. وكلامه تتخلله عبارات زغرتاوية لم يستطع كبحها من نوع «ماني قودر» و «ما بضو» ورينيه رصين بقلة كلامه وتصاريحه، لكنه لا يلبث ان يضيف شارحا السبب: بخاف تتغير الأوضاع. وهو برغم ذلك، يستطرد احيانا فينتهي به المطاف على تخوم البديهيات الرتيبة من نوع «المساواة اساس كل شيء».

نسأله ما اذا كانت تربطه صلات قرابة بأثرياء.

يفكر قليلا :

عديلي فيليب طراد رجل اعمال..

نقول له اننا سمعنا انه يملك بناية ضخمة في اليرزة.

املك حصة فيها. املك شقة. يروح يفتش في الأوراق ليؤكد لنا ذلك.

نسأله كيف يحدد نفسه اقتصاديا؟

المحاماة. حاليا امارس الاستشارات. وهناك املاك على شكل اراض وبيوت.

يستطرد:

اكتسبت خبرة من رئاستي للجنة المالية منذ ١٩٦٠ والتي لم تنقطع الا قليلا. اطلعت على موازنة الدولة والعجز والانتاج والمصاريف المنتجة وغير المنتجة. انها خبرة مهمة لكي تعرف ما هي الدولة.

نسأله عما اذا كانت تربطه صلات بالمهجر.

عندنا مهاجرون كثيرون في اميركا وفنزويلا والبرازيل. من كل عائلات زغرتا.

هل تشاهد الصحف الأجنبية؟

طبعا. من يتعاطى السياسة عليه ان يعرف المعطيات الدولية والاقليمية. اللوموند يوميا. وحين اكون في فرنسا، الفيغارو. ارى الأسبوعيات، لوبوان، اكسبرس.. كذلك نيوزويك وهيرالد تريبيون .

والصحف اللبنانية؟

والعربية ايضا تصلنا.

في الصحف اللبنانية هل من متابعة خاصة لما يتعدى السياسة

اتابع القضايا الاقتصادية. وكذلك الأدبية انبسط فيها، الندوات. خصوصا عندكم في «السفير» مقالات مهمة.. الثقافة اساس كل شيء.

كتب..؟

حتما. قرأت لأمين معلوف «ليون الافريقي» وابدأ حاليا بـ «سمرقند». عندي قراءات تاريخية. عندي مكتبة مهمة بالفرنسية والعربية.. رأيت امين معلوف مؤخرا في فرنسا..

ادب وشعر وموسيقى؟

ما كثير.. بنبسط بالشعر، المتنبي يستهويني خصوصا محطوط على ديسكات. جابوها لي من برا. مخايل نعيمة يعجبني. فلسفته. انا هاوي موسيقى كلاسيكية اكثر شي. موزارت وشوبان وتشايكوفسكي احب ام كلثوم. تعرفت عليها في الشام وشفتها اكثر من مرة. عرفنا عليها سعيد فريحة ومرة في نادي الشرق تغدينا سوا. كان موجود ايضا كمال جنبلاط. كانت ذكية وسريعة الخاطر ومفيدة ثقافيا. محدثة. انوثة في صوتها.

كل شيء الا الأنوثة في صوتها يا استاذ رينيه.

لأ. فيه انوثة، ما فيك تنكر..

يمضي رينيه:

عندنا تراث ثقافي وادبي مهم في لبنان.. الانسان بدو دايماً يثقف نفسو اذا بدو يتطور والتطور سنة الحياة. احب الرسم.

وبكثير من اللطف والتهذيب يصطحبنا في جولة قصيرة على اللوحات الكثيرة المعلقة على جدران احد الصالونات، وينم عن حساسية صادقة حيال الفنون التشكيلية:

عندي انسي. مرحلة حوران. يشير الى لوحات حولنا. واحدة لفروخ. ووادي قنوبين لصليبا دويهي، واخرى لدويهي، وواحدة لبصبوص..

هل من سياسيين شكلوا مثالات لديك؟

نحكي على الميتين لا الأحياء. تعرفت على الرئيس عبد الناصر كانت تربطني به صلات. ما في شك شخصية وزعيم كبير. عنده لغة مع الشعب وتعاطف.. رجل دولة من طراز.. تعرفت عليه في سوريا في ١٩٥٨ ثم كلفني الرئيس شهاب بأكثر من مهمة عنده، كما كلفني الرئيس سركيس بمهام عند الرئيس الأسد.

والرئيس فؤاد شهاب؟

فعلا رجل عظيم.. فعلا رجل.. من الغرابة ان تجد عسكريا بهذه الروح. اول رجل

شاف المشكلة الاجتماعية في لبنان وفكر بانشاء الدولة على اسس علمية وانشأ مؤسسات.

هل تعرف مناطق لبنان كلها؟

اعرف الكل. حين كنت وزير تربية.. في البقاع.. في الجنوب.. الشمال اكيد منطقتي. بيروت الغربية بحياتي ما انقطعت عنها. جسم واحد لبنان. وحدة لبنان..

والعالم العربي؟

قمت بمهمات في ايام الرئيسين شهاب وسركيس. شاركت سركيس في جولة عربية انتهت بقمة تونس. كان هناك خلاف مع الفلسطينيين. كان شعاري ان نحتكم الى العائلة العربية.. في المهام التي قمت بها وجدت في الرئيس الأسد كل تفهم.

وفي السعودية، ماذا وجدت فيها؟

كل تفهم ايضا.

هل عشت في بلدان عربية؟

عيش لا. كنت روح عمصر اكثر شي. وطبعا سوريا الشقيق الأكبر. المغرب مهمة رسمية من الرئيس سركيس. ما في بلد عربي ما بعرفوا. في مصر تربطني صداقات بمعظم الصحافيين. شو اسمو؟ محمد حسنين هيكل.. العراق رحنالو من دمشق بعد ايام على ١٤ تموز استقبلنا قاسم وعارف..

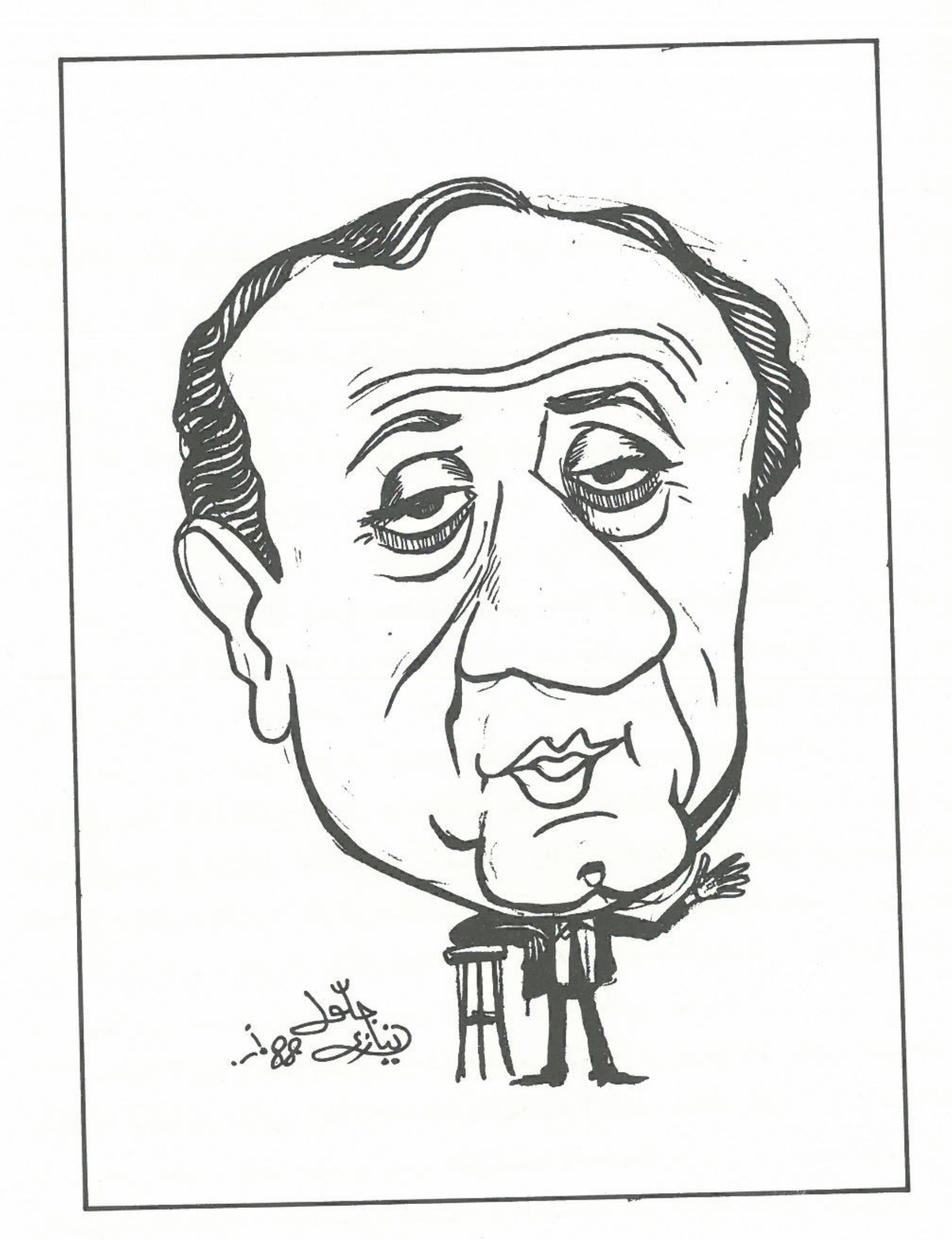
كيف ترى الصيغة الفضلى للعلاقات اللبنانية ـ السورية؟

ما في شك وثيقة. لأن هناك واقعا جغرافياً وتاريخيا يفرض التعاون لما فيه امن البلدين واستقرارهما..

وسردينيا؟

مغالطات ودس على الصحافة. اولا. ميشال الخوري لم يكن موجودا. كنت معزوم عند الحريري، وليست اول مرة. نحنا اصحاب. مش ضروري صفقة سياسية.. جوني عبده كان هناك لأن عنده بيتا في سردينياوكان هناك..

رينيه معوض اللطيف الدمث الذي اوصلنا الى الباب الخارجي لبيته واوصى سائقه ان يوصلنا الى حيث نشاء، لا تستطيع الا ان تستلطفه وتحبه وتتمنى له كل خير، ولو كره الأقوياء، قساة القلوب.



منويل يونس

. . . وفي اليوم السابع استراح الله الذي قضى ستة أيام يكد ويصنع الأرض والسماء والكواكب. ونسجا على منوال العامل الأكبر استراح سائر العاملين بمن فيهم المقاولون الذين يكدون ويصنعون ما على الأرض.

في هذا اليوم عاد النور العلوي الى الاستواء على عرشه الذي كان غادره أياما ستة وهويتفقد ورشه، فيما لبس المقاول ثوبا أبيض من اعلاه الى أدناه كان قد شاهده في بلدان المهاجر حيث الطقس حار والعادة الكولونيالية، في لبس الأبيض راسخة مقيمة. وبعد أن طلى نفسه كلها بالأبيض راح يزهو على الناس ويتبختر.

والراهن ان بين صفات الربوبية والدكتور منويل يونس الذي عمل في المقاولة والمهاجرة صلة نسب لا تخطئها عين أعشى. فالثاني في عرف ذاته كامل تام الأوصاف لا ينقصه الا العرش، وهو منه على قاب قوسين أو أدنى. ويونس الذي كد وجد طوال عمره يتهيأ اليوم، في موسم الرئاسة والرؤساء، ان يرتاح ويزهو ويرفل بالأبيض.

الرأس وما فيه

منويل يونس المائل الى الطول معتدل البنية مع رشاقة لا يعيقها كرش متكور. شعره قليل خصوصا في مقدمة الرأس معدوم في مؤخرته، لكن هذا القليل ممشط ما وسعه الامتداد يتخلله فرق الى يسار الرأس، وهو محمر كله ربما بسبب من صبغة حمراء استحسنها صاحبها.

الجبين والوجه فيهما الكثير من النمش المتناثر المبعثر الذي ينكمش لصالح ثالولة سوداء كبيرة على يسار الأنف الكبير. والفم ذو شفاه مطواعة في انحنائها وتعرجها كما لو كانت دائما على أهبة استهجان أو استنكار أو استفهام أو مبالغة. والعينان صغيرتان يسكنهما شيء من المكر الفلاحي فيما الوجه الذي لا يخلو من علامات حدة وترويس تحيط به أذنان طويلتان، وينتهي عند عنق استسلم لحمها فرضي أن يشكل طبقة تلتحم بالذقن وتسندها من أسفل، بينما الذقن محاطة من يمينها ومن يسارها بكرتين متورمتين تكادان تكونان ذقنين صغيرتين.

ومنويل لابس الأبيض يتكلم على طريقة قدامى البعثيين ممن عرفوا «الاستاذ» ميشيل عفلق وحضروا مجالسه في المقاهي. فالكلام الهادىء الفصيح في أغلبه يختلط بكثرة المترادفات وشدة الاستعراض لمعارف يخالها صاحبها باهرة فتأتي متحذلقة مفتعلة تواظب على لفظ القاف قافا، وتحملها كلمات مكوية مرققة مسحوبة ومنشاة، فيما يصحبها تشبير هادىء بأصابع طويلة وقبضتين نفرت عروقهما. ولا تغيب عن الكلام «أنا» ماثلة مثول الهواء الذي نتنفس مرفقا برعد قوي، الا انها «أنا» لا يبارح نزعتها التوكيدية ذاك الميل الى المقارنة الوجدانية الجريحة التي يتسم بها أنويون مشرئبون الى العظمة: أنا أقل من غيري، أنا أقل الناس، الجميع أفضل مني الخ..

ومع هذا فحين يجد الجد يصير كلامه عن الرئاسة واضحا شفافا بلا وساطة ولا مداراة أو

مداورة، فهو واثق من وصوله الى الكرسي الأولى ثقته بوجوده، ولا يتردد في أن يقول لك عبارات من نوع: حين أصل . . . وبعد أن أصل . . . وبما أنني سأصل . . . وأحيانا وحين يلح التواضع: اذا وصلت . . .

والعدة التي يبيعها الدكتور محاولا التميز بها عن أقرانه هي «المستوى الفكري الرفيع»، الذي، بحسب رأيه، يفترض توافره في رئيس الجمهورية. فهذا الأخير، في عرفه، ينبغي ان يفكر بهموم البلد ومسائل الوطن وملفات السياسة، وما ذاك المالك للمستوى الرفيع وسط هذه الجهالة المستشرية الا منويل نفسه.

الأونيسكو. التخطيط. التفكير. الانماء. المؤلفات، الندوات، كلمات لا تنفك تهطل من فم الدكتور الذي سره ان نقول له بكثير من المداعبة انه بين المرشحين «مرشح المثقفين». وأهدانا الدكتور بعض كتبه فلاحظنا انها غير صادرة عن دور نشر تجارية وانه هو الذي طبعها باسم «مركز الدراسات اللبنانية المتخصصة». ونسأله عن هذا الاسم فيقول انه هو رئيس المركز ومؤسسه وانه يعمل بالتعاون مع شبان جامعيين في الأميركية واليسوعية، وقد درج على عقد ندوات فكرية في مكتبه وهو اليوم يعقدها في بيته.

وفي الجلسة الثانية في «البريستول»، بعد الجلسة الأولى في «السفير»، سلمنا الدكتور نسخ كتبه العزيزة وراح يطن في شرح ما انطوت عليه حتى كاد الوقت ينقضي، فيما نحن نقول له اننا عازمون على قراءتها فليترك لنا أن نستخرج تلك الجواهر المطمورة.

ومنويل الذي يقول انه يكتب بالاسبانية والفرنسية، وضع كتبا هي أقرب الى الكراريس منها «فلسفة في الثقافة» (١٩٥٦) يقول انها صدرت بالاسبانية أيضا وانها مرجع يتم تدريسه في جامعات أميركا اللاتينية وبعض جامعات اسبانيا، وله «آراء في الاصلاح» الذي صدر في ١٩٥٨، و«طريق الانقاذ» في ١٩٨٢، و«قواعد النظام السياسي الأنسب للبنان» في ١٩٨٥، وغيرها.

والراهن ان كتابات يونس التي تؤكد الاعتدال السياسي للرجل وفهمه الواقعي المطعم بنكهة شهابية حادة للوضع اللبناني، لا تعدو كونها تكرارا لحزمة من الأفكار غير الاستثنائية وضع معظمها وقدم في قالب شديد الاستثنائية والتلوين بالفلسفات والكلام الكبير.

ولا تغيب عن الكتابات المذكورة تلك الصفة العرضية التعليمية التي يتسم بها «الكور» التبسيطي كما يحضره الاستاذ الجامعي لطلاب كسالى، كما في جامعاتنا أو جامعات أميركا اللاتينية.

وبين هذا الركام ينبغي التنويه بـ «مقدمة مشروع وفاق وطني جديد» الذي اقترح على «لجنة الحوار الوطني» في ١٩٧٥ (منشور في كراسه «قواعد النظام السياسي الأنسب للبنان») كنص

صغير يضم الى اعتداله السياسي تخففا نسبيا من الأثقال التعليمية والشرحية التي تطغى على معظم الكتابات الأخرى.

المصدر والمهجر والسياسة

والد منويل، جرجس يونس، الذي هاجر مبكراً الى فنزويلا تفرع عن الجب المعروف بجب سركيس في عائلته، وهو الفرع الأقرب الى جب مسعود بك يونس والاوفر وجاهة بعده. ويبدو ان مسعود بك الذي تولى النيابة في برلماني ١٩٢٧ و ١٩٢٩ بعدما عمل طبيباً للجيش الفرنسي، لم يترك خلفاً يستطيع اكمال الشوط، فبقي لمانويل الدكتور والثري ان يقطف الثمرة، خصوصاً وان والده جرجس ومسعود بك ابنا عم من الدرجة الثانية.

بيد ان قوة منويل الانتخابية لا تصدر عن عائلته التي ربما كانت العائلة التنورية الاولى في المال والتعليم، لكنها بالقطع تتخلف كثيراً عن آل حرب في العدد ومن ثم الصدارة التقليدية للقرية.

بهذا المعنى فقوة منويل تستمد اساساً من عائلة امه، آل طربيه، وهي الثانية عدداً بعد آل حرب الذين يشكلون اقل قليلاً من نصف سكان بلدة تنورين. وهكذا ففيها نال بطرس حرب في انتخابات ١٩٧٢ـ ١٣٠٥ أصوات في تنورين الفوقا والتحتا، نال منويل ٧٠٢ صوتاً. وكان نذير الخطر ان آل طربيه لم يعدموا من يحاول اخذ الامر بيده مباشرة، فترشح للمرة الاولى خليل طربيه منفرداً ونال ٣٥٧ صوتاً في تنورين، وفي القضاء كله حصل على ١٠٣٣ صوتاً.

الى ذلك يأخذ التنوريون على منويل انه متعال « ومثقف » بالمعنى الذي تسبغه الارياف على متعلمين لا ينخرطون في العلاقات التقليدية ولا يعدمون الغرابة في الكلام والالفاظ والحركات، فيما لا يكف منويل، كما فعل في الجلسة الاولى، عن توكيد برمه بكل كلام محلي يطال التكوينات العائلية والقرابية بحجة انه ضد هذه التكوينات ومعاد للعائليات والطائفيات وغيرها مما ينخفض عن سماء التحليق الفكري الصافي.

ولد منويل يونس في ١٩٢١ في تنورين، وحمله ابواه وهو طفل الى فنزويلا حيث انجز المراحل الدراسية الأولى ليعود في ١٩٣٦ الى لبنان فيدرس في فرير جونيه وينتقل منها الى الجامعة الاميركية لنيل شهادة الفرشمان. لكن منويل قطع دراسته في الجامعة الاميركية حوالي ثمانية اشهر من العام ١٩٤٠ قضاها في دمشق بقصد تقوية لغته العربية. وكانت احداث استقلالية عاصفة يومذاك، كما يضيف.

ويبدو ان تلك الاشهر الدمشقية معطوفة على اجواء مهجرية مشبعة بحس العداء للانتداب وميل الى التباهي القومي، شكلت محطة على طريق الصداقة التي ما لبث منويل ان انشأها مع صلاح الدين البيطار وقادته الى اجواء حزب البعث. ومما بقي من منويل عن تلك الايام اعتداله

السياسي ووعيه للون لبنان العربي، ومن ثم استحالة العزلة والانحصار بعيداً عن مسائل الجوار العربي ومشكلاته.

على اية حال فبعد عودته الى بيروت ونيله الفرشمان درس مادة الاقتصاد في مدرسة بجبيه للتجارة ليعود في ١٩٤٥ الى فنزويلا. يروي منويل:

ـ درست في جامعة فنزويلا المركزية وانهيت دراستي ونلت دكتوراه دولة في مادة الفلسفة في ١٩٥٣. وفي السنة ذاتها علمت في الجامعة نفسها فصرت استاذاً للدراسات الشرقية، واهم ما درسته فلسفة اللغة العربية والمدخل العربي الى فلسفة القرون الوسطى والتراث العربي في اسبانيا.

وبحسب روايته، استمر منويل في تدريسه الى ان كان العام ١٩٥٦ فعاد الى لبنان. يصمت قليلاً وكأنه يدلنا على فعل اقدار لا رد لها:

ـ ... وبدأت العمل في السياسة. ويبتسم منويل اذ الستارة رفعت عن نجم ولد لتوه.

ويقفز منويل في سرده الى تأسيسه « حركة التقدم الاجتماعي » في ١٩٥٩. لكن مهلاً يا دكتور فهناك انتخابات ١٩٥٧ التي اردت خوضها ثم انسحبت لمصلحة ابن قريتك جان حرب. فلماذا؟

كلام عام: انسحبت قبل ان اعلن ترشيحي... بدأت في ١٩٥٧ مشروع البولفار ذي المستويين في الرملة البيضاء.....

اذن ترافق العام ١٩٥٧ مع ترك الانتخابات للانصراف للاعمال

يمكنك ان تقول هذا.

لكن يمكننا ايضاً ان نقول شيئاً آخر جمعناه من افواه آخرين:

ففي ١٩٥٧ وكان قضاء والبترون يحظى بمقعد نيابي واحد ترشح جان حرب ابن تنورين الذي يحظى بدعم رئيس الجمهورية يومها كميل شمعون، وترشح في مقابلة يوسف ضو ابن مدينة البترون الذي يؤيده حميد وسليمان فرنجية. ولأن انشطار اصوات التنورين بين حرب ويونس كفيل بانجاح مرشح البترون، بدا المطلوب حمل الثاني على الانسحاب للأول، وهكذا كان فاقترع التنوريون كلهم لصالح حرب الذي فاز على خصمه.

الا ان انسحاب منويل يومذاك جاء في مقابل تسهيلات قدمها له العهد في منطقة الرملة البيضاء التي يملكها وفي مناطق الرمول المجاورة. اذ بينا كان الحفاظ على طابع المدينة يستدعي ابقاء المنطقة المذكورة عذراء لا تتخللها المباني والطرق، سمح ليونس لقاء انسحابه ان يبني ويشق الاوتوسترادات ويفيد من الرمول. وهكذا اضيفت ثروة السياسة الى ثروة فنزويلا.

الشهابية والانتخابات

نعود الى رواية منويل:

ـ في ١٩٥٩ اسست « حركة التقدم الوطني » التي وضعت اسس الاصلاح الاجتماعي كما

نادى به فؤاد شهاب: انماء المناطق، الحس الاجتماعي كان مفقوداً في لبنان، المسألة الاجتماعية... كان معي في الحركة باسم الجسر وحسن صعب ومحمد الجارودي وجوزيف مغيزل وسليمان الزين وفؤاد بطرس بين المؤسسين، ومعهم عدد كبير من المثقفين. رجال السياسة التقليديون راحوا يسخرون منا ويقولون: انتم نخبة النخبة. كنا نصدر يومذاك وعلى امتداد ١٩٦٠ - ٦١ صحيفة اسبوعية هي «الصدى» التي طرحت المشكلة الاجتماعية والنقابية وكنت كاتب افتتاحياتها. مذاك توثقت صلاتي بالاجواء النقابية.

كيف نمت الصلة بفؤاد شهاب؟

- منذ احداث ١٩٥٨ كنا، اشخاصاً عدة نلتقيه في وزارة الدفاع او في بيته في جونيه. تقي الدين الصلح، علي بزي، المونسنيور يوحنا مارون وانا. كنت انا ومارون نعمل على الموضوع الاجتماعي. كان يسمع لنا ويخصص لنا وقتاً. كنت احدثه عن ضرورة حل مشكلة التفاوت الاجتماعي اذا ما اصبح رئيسا. كنت ارى ان الاصلاح ملح بما لا ينتظر تكوين رأي عام وبرلمان وان علينا ان نستفيد من حكم وحاكم يتبنيان هذا البرنامج الاصلاحي. بيننا كثيرون صاروا وزراء كفؤاد بطرس وسليمان الزين. نحن اول جيل وعى ضرورة التغيير في لبنان... حركة التقدم توقفت في ١٩٦٣ وبعض من كانوا فيها تحولوا الى تأسيس الحزب الديمقراطي.

وفي الانتخابات الاولى للعهد الشهابي رشح منويل يونس نفسه للانتخابات متحالفاً مع المرشح الكتائبي جاك شديد، وكانت حصة البترون في البرلمان رفعت الى مقعدين. لكن الحظ والى خصميهما جان حرب وكميل عقل. وفي ١٩٦٤ تحالف يونس وعقل في مواجهة حرب ويونس ضو، ففاز يونس الشهابي من اللائحة الأولى وحرب من الثانية، واقتصر تمثيل البترون في ذاك البرلمان على تنورين.

وفي عودة سريعة الى مشاريع القوانين التي قدمها يونس النائب (١٩٦٤ - ٦٨) يتبين ان مشاريعه بلغ عددها عشرة، منها اثنان في التشريع التربوي وخمسة في التشريع الاقتصادي والمالي واثنان في التشريع الزراعي وواحد في التشريع الاجتماعي - النقابي.

اما في ١٩٦٨، ويعكف منويل على نفسه حزينا، فلم اترشح. ويفسر:

- اصبت بخيبة امل. بت مقتنعا باننا لا نستطيع تنظيم الدولة بهكذا عقلية. كثيرون من الكتاب كتبوا وعلقوا على هذا الموقف الذي ابديته ومعانيه العميقة. وبعد ان يسمي منويل بعض الذين علقوا وكتبوا، يعود الى شرح يأسه من النظام بما يرد السامع مباشرة الى موقف مماثل لوقفة فؤاد شهاب بعد عامين حين اعتذر عن ترشيح نفسه للرئاسة تبعا لصعوبة الاصلاح من ضمن افق المؤسسات القائمة.

بيد ان الممتنع في ١٩٦٨ عاد الى الحلبة في ١٩٧٢ من دون أن نفهم ما الذي جعله يتغلب

على يأسه. عامذاك خاض يونس الانتخابات الى جانب سايد عقل في مواجهة بطرس حرب وجورج سعادة، وكان الفوز من نصيب الأخيرين.

والراهن أن موقع منويل في التراتب العائلي التقليدي كما أشير الى بعض عناوينه، هو ما يفسر هذه الشهابية المتحرقة الى اصلاح شبه انقلابي يراهن على الحاكم والحكم بعيدا عن المجتمع برأيه العام وبرلمانه، مستعيدا بعض العروبية الدمشقية التي استهوته في شبابه حين كانت العاصمة السورية تضج بالانقلابات كذلك فهو يفسر «خيبة الأمل» الممزوجة بالعودة السريعة عنها في مشاعر صاحبها ذي المنبت الريفي البرجوازي الصغير، الطامح الى اقحام شهادة الدكتوراه والعدة الثقافية والمال المهجري في معركة يائسة مع المعطيات العائلية التقليدية في بلدة تنورين، التي حافظت على درجة من تماسك عائلاتها الموسعة.

وربما اندرج في اطار السعي الى اكتساب عناصر قوة يونسية زواج منويل باحدى شيخات الارستقراطية الخارجية كما لو كان يقول لخصومه ال حرب: اذا كنتم مشايخ فانني اتيتكم بواحدة من زبدة المشايخ ومصادرها.

ففي ١٩٤٤ اقترن منويل يونس بالانسة ليلى الخازن من غوسطا، ابنة عمة الشيخ فيليب، ومنها انجب اربعة ابناء اكبرهم نبيل (٤٢ عاما) الذي درس المحاماة في اليسوعية واقترن بكريمة فؤاد بطرس، ونمير الذي درس المحاماة ايضا في جورج تاون بالولايات المتحدة ويعمل حاليا في لندن، وليلى (ليليتا) التي تخرجت من الجامعة الاميركية واقترنت ببسام دياب الذي يعمل ملتزما في الخليج بعد ان كان ناشطا في الحركة الطالبية في بيروت، وسناء التي اقترنت بحميد نجم، الصناعي من بلدة قنات في بشري.

المال والافكار

نسأل منويل عن حجم الهجرة في وسطه العائلي:

- كثير. عندي خمس شقيقات مغتربات ومتزوجات من رجال اعمال ناجحين من مناطق البترون وجبيل وجوارهما.

نسأله كيف يحدد موقعه الاقتصادي؟

الوالد كان رجل أعمال، انشأ في فنزويلا صناعة ورق. أما أنا فاهتممت في لبنان بقضايا الانماء العقاري. عندي املاك عقارية في جرود جبيل والبترون كتنورين واللقلوق. البولفار ذو المستويين في الرملة البيضاء انشأته بمالي الخاص بدءاً بـ ١٩٥٧. على اثر ذلك اهتممت بعدة مشاريع عقارية وصناعية، واهم مشروع هز لبنان وكان ذا بعد عالمي كان مشروع انشاء مصفاة نفطية ثالثة في أوائل الستينات. لا تنس ان فنزويلا بلد نفطي وكنت قد كونت هناك فكرة عن الموضوع. اقترحت ان يكون لبنان أكثر من مصب للنفط العربي. يجب أن يكون بلدا نفطيا

ومركزا للتصنيع. ويجب انشاء مصفاة ثالثة بحيث تصير عندنا منتوجات بتروكيماوية. حاربتني الشركات النفطية الأجنبية كلها. لم نستطع الحصول على الرخصة رغم انني ادخلت رساميل عربية على المشروع وجلبت تعهدا رسميا سعوديا من شركة «بترومين» بالتمويل، وكذلك حصلت على استعدادات بالتمويل من أكثر من جهة عربية. تكبدت الكثير من المال على الدراسة الفنية وحصلنا على الأرض اللازمة في البترون. المشروع لو اقيم لما تعرضنا مؤخرا للأزمة النفطية، وكان في وسعه مع متفرعاته ان يؤمن عملا لحوالي ٣٠٠٠ شخص في البترون وجوارها. كمال جنبلاط كان يتحدث كثيرا عن المشروع ويدافع عنه.

حديث منويل يونس عن المصفاة الثالثة ترك عندنا انطباعا لا سبيل الى برهنته بان رئاسة للجمهورية، اذا ما كتبت له، ستكون طريقا معبدة الى ذاك المشروع.. النافع.

نسأل منويل عن قراءاته. يستريح ويسترخي، فهو الان في بيته كما يجب ان يوحي:

معظمها فلسفية. الفلسفة السياسية بعطيها كثير من وقتي. علم النفس.. اهتم بظاهرتي العنف والتسامح. منحى الفلسفة الجديد الاهتمام بالانسان. اهتم الان بالمشاكل الفكرية التي تطال الفرد وليس فقط الجماعات والاكثريات.. الانسان.. الانسان.. اواخر الستينات، وكنت لا ازال نائبا، اقترحت مع موريس الجميل وبالاتفاق مع «الاونيكسو» اقامة «مركز علوم الانسان» في جبيل..

أدب، شعر، سينما؟

كثير. لارتباطها بالانسانيات. الشعر والفلسفة، هذه التيارات عايشتها ورافقتها. الشعر الاندلسي في العربي. اعجاب بالتراث العربي ودوره في النهضة الاوروبية..

سينما، مسرح، فن تشكيلي؟

أعطيها قليلا من وقتي. دراساتي.. وقتي منظم. انهض الساعة ٤ صباحا..

لكن اهتماماتك الثقافية شديدة التوجيه وبالتالي الاجهاد على ما يبدو.

بالواقع انا ما اخذت فرصة بعد. كان همي ان اكتشف محرابا في غرناطة، وما فكيت حتى اكتشفته في اليوسفية.

هل عرفت العالم العربي؟

اعرف قادة عربا كثرا.. سهولة بناء العلاقات مع المفكرين والعلماء في العالم العربي.. اذا اصبحت رئيس جمهورية سانتقل مباشرة الى افق المنطقة وانقل لبنان اليه. ينبغي ان تكون لنا مشاركتنا في حل كل مشكلات المنطقة. لا يجوز العزلة.. الحرب علمتنا خطأ الاعتقاد بان ما يجري حولنا لا يعنينا.

المشكلات السياسية المطروحة من الطائفية السياسية والاصلاح الى العلاقات اللبنانية

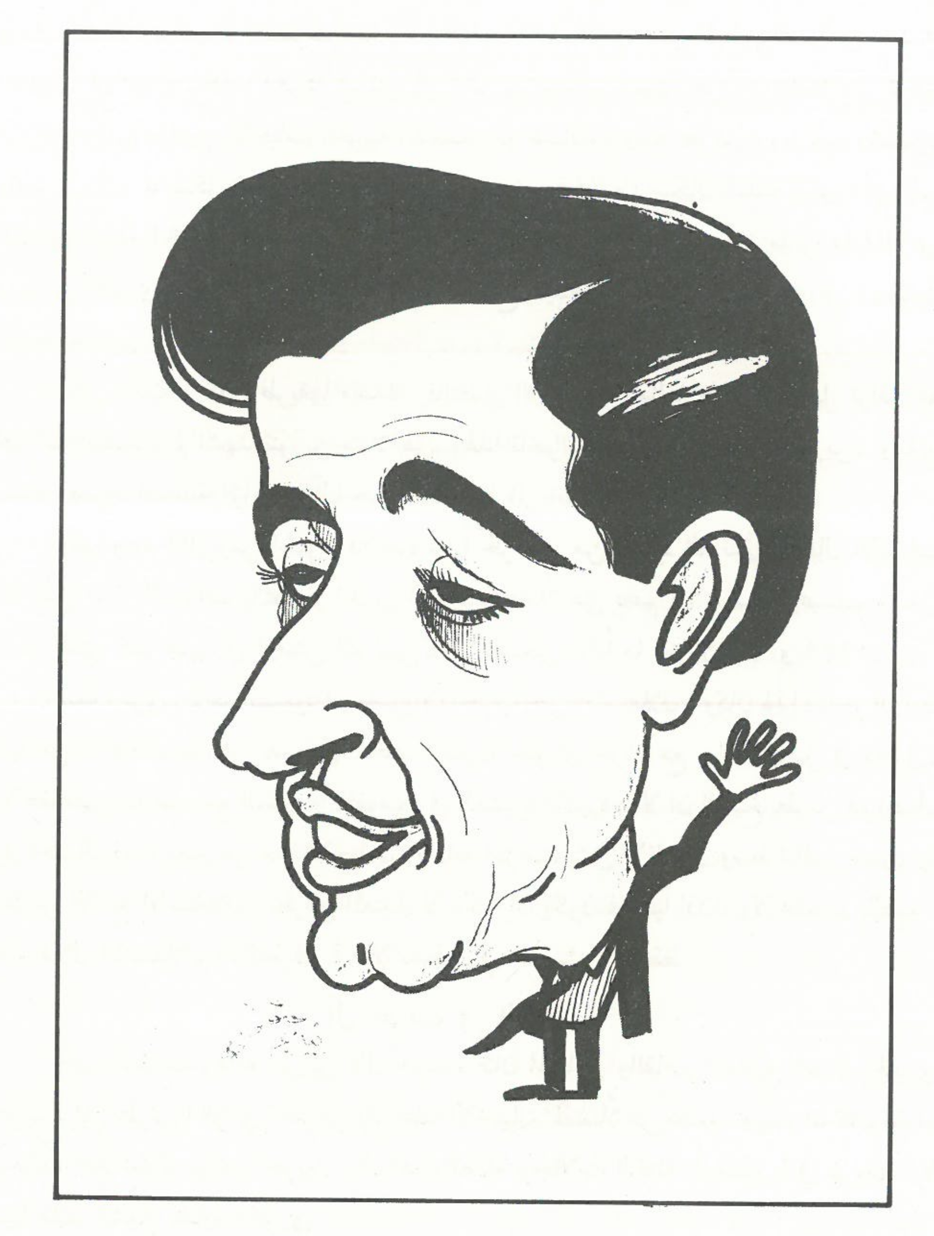
السورية، هل من تصور عندك بصددها؟

نحن يجب ان نسعى الى تسوية تؤمن سلاما سياسيا. بما يتيح للدولة لاحقا ان تنصرف الى الاصلاح.. ليس المطلوب الغاء الطائفية السياسية بل تخطيها، والتخطي عملية ديالكتيكية تتطلب وضع بذور النظام البديل.. بالنسبة للعلاقات مع سوريا، المتغيرات اسرع بكثير من التصورات.. هناك علامات انفراج في العالم: قبرص.. افغانستان..

لكن اما من تصور اولي عام؟

طبعا، اولا هناك المعرفة التامة بالملف السوري - اللبناني.. كذلك المعرفة بالملف الاسرائيلي - اللبناني من دون ان يعني ذلك انني اساوي بين البلدين. بالنسبة لسوريا عندك الوضع الجغرافي والعلاقات العربية والجوار وهي مميزة في اتجاهين، بحيث يقول السوري ان علاقاته مميزة مع لبنان ويقول اللبناني انها مميزة مع سوريا.

نودع منويل لابس الابيض الذي يشيعنا بلطف وتهذيب شديدين ويعود الى طاولة اخرى في صالون فندق «بريستول» يجلس عليها اصدقاء له من المقاولين ينتظرونه.



بطرس حرب

خضعت تنورين حتى الانتداب الفرنسي لمقاطعجيي مشايخ آل طربيه المتحالفين مع يوسف بك كرم، الى ان انتصرت فيها رياح التغيير الجبلي الذي سبق للبطريرك بولس سعد ان اطلقها. في البداية تلقف الحركة في تنورين الخوري يوسف حبيب حرب، عاملاً على توحيد مزارعي ومربي مواشي الاجباب الحربية الخمسة: بو عساف (ومنه بطرس) ومرعب وشلهوب ونصر ورزق، بما شكل «هوية» العائلة التي تعد ٤٠ ـ ٤٥٪ من سكان البلدة الكبيرة في الجرد البتروني. وبعد الخوري يوسف مضى نجلاه انطون الخوري حرب الذي عين مديراً عاماً للناحية وبطرس الخوري حرب الذي تسلم مشيخة الصلح، يناهضان زعامة آل طربيه الى ان كتبت الغلبة لعائلتها.

لكن الغلبة لم تكن طريقها معبدة. فانتصار الاكليروس والفلاحين في الجبل ترافق مع تحولات اقتصادية لم تشهد تنورين مثيلاً لها. ولهذا تأخر تكريس الانتصار في تنورين، والذي يستند بصورة اساسية الى عدد آل حرب اكثر مما الى انجازات اخرى.

وفيما وجد اكليروس الجبل وفلاحوه دعماً لحركتهم من النفوذ الفرنسي، حال الانتداب الفرنسي دون الاعتراف بالتصدر الحربي الجديد، عاملاً على دعم آل يونس وزعيمهم مسعود بك، الذي كان طبيباً في الجيش الفرنسي، ثم اضحى نائباً ما بين ١٩٢٦ و ١٩٣٩.

بلغة اخرى، تأخر الصعود السياسي لآل حرب حتى الاستقلال، وكان لهذا التأخر ان ترك شيئاً من الاحتقان عبر عن نفسه في تعاطف انطون الخوري حرب مع سلطة فيصل في دمشق، ولاحقاً ظهور تعاطف مع السوريين القوميين في العشيرة الكبيرة. الا ان الشيخ بطرس هو ايضاً، وفي احد الوجوه، تعبير عن هذا الاحتقان: زعامة انتزعت بشق الانفس، وسط تنافس ضار، ولم تتكرس الا مع الاستقلال. بطرس المعتدل لا يمكنه ان يكون فرنسياً اذن، ولا عثمانياً بالطبع. الاستقلال الاستقلال. والتطرف في الاعتدال وفي التريث والتحفظ.

آل حرب في السياسة

حين انعقدت زعامة تنورين لآل حرب، كان المحامي والقاضي الشيخ شارل الخوري حرب، ابن بطرس الخوري، هو من وقع عليه الاختيار. ففضلاً عن علمه، ويبدو انه كان قانونياً مرموقاً، جمع شارل ميزتين اخريين: النزاهة والصلة برجالات الكتلة الدستورية في بيروت. لا سيما منهم الشيخ بشارة الخوري.

الا ان تصدي شارل لقيادة العائلة واجهه تحد أقلي عبر الشيخ اميل الخوري حرب ابن عم انطون، الذي عرف في شبابه باهتمامات ثقافية وتعاطف مع الدعوة العربية قبل ان يحترف التبشير بالتراث اللبناني.

وفيما عجز اميل «المثالي» عن كسب تأييد في عائلته، فشل شارل في دخول البرلمان حين

كانت محافظة الشمال دائرة انتخابية واحدة، فكان ينال اكثرية ساحقة من اصوات البترونيين لكن زملاءه في اللائحة يقصرون عن تزويده بالاصوات المطلوبة في مناطق الشمال الاخرى.

ومع وفاة شارل في ١٩٤٧ طرحت مجدداً على آل حرب مسألة تمثيلهم السياسي وبمن. فاميل وجد الفرصة سانحة له، خصوصاً وان ابناء عمه الآخرين لم يحظوا بقسط وافر من التعليم. لكن العائلة التفت حول الشيخ انطون الخوري حرب الذي كان الشماليون يقولون: يا ويلنا من اربعة: سليمان شقيق حميد فرنجية، ومالك شقيق سليمان العلي، وانطون شقيق شارل حرب، وقبلان عيسى الخوري الذي وحده جمع في نفسه بين رجلي السيف والقلم.

وانطون حرب كان شيخ شباب العشيرة ورمز احساسها بقوتها كما رعى شؤون معيشة ابنائها: عبر الوظيفة لا بأس، والا فعبر وسائل اخرى قد لا تراعي الفارق بين الشرعي وغير الشرعي. لكن انطون آثر ان يتنازل عن الصدارة السياسية لشقيقه الاكبر سناً الشيخ جان على ان يبقى كبير قبضاياته ومموّل معاركه الانتخابية. وبدوره مضى اميل في محاولته منافسة جان من دون ان يسعفه الحظ ايضاً.

ودخل جان حرب البرلمان في ١٩٥٣ كدستوري معارض للعهد الشمعوني، لكنه ما لبث ان اصبح شمعونياً وانضم الى «حزب الوطنيين الاحرار» من دون ان يشجع اقرباءه على الانتساب الى الحزب. وراح جان يسجل فوزاً انتخابياً بعد آخر حتى راح يعرف بـ «مارد الجرد» فدخل البرلمان في ١٩٥٧ و ١٩٦٠ و ١٩٦٤. لكن زعامة جان لم تعدم من يحاول التصدي لها في داخل العائلة. فزكية حرب ارملة الشيخ انطون ساءها ميل جان المتزايد الى تهميش دورها بعد ان كان بيتها هو «بيت السياسة» في زمن زوجها الراحل. وقررت الست زكية، وهي اخت الرجال، ان تخوض معركة الانتخابات البلدية في ١٩٦٣ منفردة ضد لائحة ائتلافية يدعمها سلفها وسائر العائلات. وكانت الاجهزة الشهابية يومها تحاول تحجيم جان حرب المعارض والمتحالف مع الرئيس شمعون، والذي عطف على السوريين القوميين بعد انقلابهم.

وفي ١٩٦٨ هزم جان حرب لاول مرة في انتخابات نيابية عامة في مواجهة مدير دائرة التعليم الخاص، الشاب الكتائبي جورج سعاده. وفي ردة شعبوية ضد التقليد السياسي، لم يفت سعاده ان يسجل في اول خطاب له بعد فوزه انه هزم «مارد الجرد». وكان جان حرب اصر قبيل الانتخابات على استثناء دائرة البترون (مقعدان انتخابيان) من الاتفاق الانتخابي لأحزاب «الحلف الثلاثي» لكي تكون له حرية التحرك والتصرف والاختيار، خصوصاً وان لكل من الاحزاب الثلاثة مرشحها. وبرغم تودد جورج سعاده لجان حرب رفض اصطحابه معه لان الكتائب، كما كان يقول، مثل الرفاص ينبغي ابقاء القدم عليه كي لا يقفز ويشرئب. وخاض حرب تلك الانتخابات مع سايد عقل ابن مدينة البترون الذي يجمع الى زعامته التقليدية انتماءه

الى كتلة ريمون اده الوطنية.

في موازاة هذا التحول كانت عائلة حرب تتعرض لمستجدات اخرى. فالشيخ جان الذي ما لبث ان توفي من دون ان يتزوج، عاش سنواته الاخيرة في حال من التجاذب العاطفي بين ابني شقيقيه اللذين كانا الشابين الصاعدين في العائلة يومذاك: المحامي بطرس وابن عمه المحامي وسيم.

وكان مصدر قوة بطرس انه عاش في سنوات عمه الاخيرة لصيقاً به كما لو كان كاتم اسراره. وهو الى ذلك محام شاب يتدرج في مكتب المحامي النائب جوزيف مغبغب صديق عمه ورفيقه في حزب «الاحرار». اما مصدر ضعفه فناجم عن ان والده جوزيف عاش بعيداً عن تنورين والمشكلات السياسية للعائلة تبعاً لعمله كموظف في الريجي (تقاعد في ١٩٧٢). وليس من الصعب توقع المعنى الذي تنطوي عليه صورة الوظيفة من زاوية نظر العشيرة.

اما وسيم المحامي هو ايضاً والذي يصغر بطرس بسنة واحدة، فكان مصدر قوته انه ابن الشيخ انطون، ولانطون على جان دين كبير لم يسدد، خصوصاً وانه عاش بين اهل عشيرته وقريته وكان لسيفهم وضيفهم وغدرات زمانهم.

لكن وسيم الذي لم يكن بعيداً عن عمه، عانى مصدري ضعف اولهما انه ابن الست زكية التي تجرأت على تحدي الشيخ جان فلم تلزم حدها كما هو مقرر للنساء في مجتمع ذكوري تقليدي. والثاني انه لم يكن نائياً عن اجواء الاحزاب العقائدية من قومية ويسارية على ضبابية هذه الصلات، الامر الذي امكن استخدامه ضده في وسط ماروني محافظ سياسياً.

وهكذا خاض كل من ابني العم معركة ١٩٧٢ وجهاً لوجه، وصوت اغلب الحربيين للاثنين معاً. لكن بطرس هو الذي فاز، وبفارق كبير، على ابن عمه. اما الاسباب فكانت متعددة بينها تحالفه مع الكتائبي جورج سعاده النجم الذي كان لا يزال صاعداً. والدعم الذي محضة اياه آل فرنجية وكانت رئاسة الجمهورية في يدهم. ووضعه المالي الافضل بمعنى نسبي، نظراً للديون الكبيرة التي خلفها عمه انطون وكانت زكية مضطرة لايفائها.

يضاف الى ذلك نجاح بطرس، الذي خلا رأسه من اي وهم عقائدي، في مخاطبة ابناء عشيرته بلغة واقعية يألفونها، هي تحديث للغة العم جان. فيما بدت افكار وسيم ملبدة بالطبقات والمعارك المصيرية الغامضة.

ولم تنته الانتخابات حتى بدأت المياه تعود الى مجاريها. وما لبث وسيم بعيد حرب السنتين ان طلق السياسة وانصرف الى عمله كأستاذ جامعي، فيما انعقد لواء الزعامة العائلية لبطرس من دون ان يتردد ابن عمه في مبايعته.

بطرس في السياسة

قصة الزعامة الحربية وايلولتها الى بطرس تجعل الاخير، اذن، يقظاً وعلى سلاحه. بيد ان الاسطر التي سبقت لا تختصر القصة. فجب مرعب في العشيرة وهو الذي اتجه نسبياً الى العلم والثروة في مقابل تركز السلطة في يد بوعساف، شرع مؤخراً يطلب الدور السياسي لأبرز ابنائه المحامي، جان مرعب حرب، الذي اصبح لاحقاً نقيباً لمحامي الشمال. وكلما زاد المحامون في العشيرة الحربية زادت الطموحات التمثيلية ومشاريع التصدر وسط تصاعد لنبرة متعددة المصادر مؤداها افول زمن «الاقطاع العائلي». ناهيك عن منافسة ماثلة في القرية مع الدكتور منويل يونس الذي تدعمه عائلته الثرية وافندية آل مراد، ومشايخ طربيه

والراهن ان الشيخ بطرس حرب لم يكن قليل الانتباه الى ما يجري حوله، برغم انه لم ينتسب سابقاً الى اي من الاحزاب بما فيها «حزب الوطنيين الاحرار». ففي تموز ١٩٧٥ هاجمت قوى مسلحة فلسطينية وحليفة قرى قضاء البترون، وحصلت مذابح في شكا وحامات، ووجد ثمة من يقول ان هناك احتياجاً للقضاء في ظل غياب الدولة. ويقول بطرس حرب «عندما ظهرت النخوة والمروءة بهدف توحيد الطاقات للحماية، وكان «لواء تنورين» الذي حل بمجرد وصول الياس سركيس للرئاسة. كان ذلك اضطراراً وليس قناعة». وهذا صحيح لكنه نصف الحقيقة، اذ ان شبح حزب الكتائب لم يكن بعيداً يومها، وهو ما لبث ان جعل يقض مضاجع السياسيين التقليديين. واذا كان لا بد من ان يتسلح شبان العائلة بفعل «النخوة والمروءة»، فالأفضل ان يكون سلاحهم من العائلة وضمن العائلة، لا ان يكون من الحزب ويذهب للحزب. وهكذا تصرف بطرس حرب بحكمة الامر الواقع. واستمر على هذا النحو مشاركاً في ١٩٧٨ في تأسيس «تجمع النواب الموارنة المستقلين» الداعم للشرعية، مشاركاً في حكومة الرئيس سليم الحص في تموز ١٩٧٩ وبصفته المستقلة وزيراً للتربية والاشغال، ملوحاً بالاستقالة منها في شباط ١٩٨٠ اعتراضاً على قصف تنورين اثناء اشتباكات قوات الردع والكتائب. وحين اتجه الوضع الماروني العام الى التطرف تطرف فأيد وصول بشير الى الرئاسة، لكنه ما لبث ان أدان مقتل خليل كنعان. وفيما لم يأخذ عليه نقاده تأييده لانتخاب الشيخ أمين رئيسا وتأييد ١٧ ايار نظراً للاجماعين اللذين حفا يومها بهاتين الخطوتين، فقد اخذوا عليه مباركته لقصف نيوجيرسي الجبل.

وحياة بطرس حرب في عائلته عملت بدورها على تعزيز هذه اليقظة وذاك الحذر. فقد ولد في ١٩٤٤ في تنورين ولم يجد ملعقة مذهبة في فمه، بما اضطره الى الدراسة في مدارس الفئات الوسطى والاعتماد كثيراً على نفسه. صحيح ان والده الموظف جوزيف ورث قرابة ٧٠ دونماً في تنورين عن ابيه، لكن الاراضي هناك ظلت حتى سنوات قليلة خلت ضئيلة المقابل التجاري،

نظراً لبعد تنورين عن المسرح المركزي لعمل الرأسمالية اللبنانية وسبل توسعها. يضاف الى ذلك ان هذا الميراث الوالدي سيتوزع على بطرس واخوته الستة بما يحول دون الاستغناء عن العمل والاتكال على الميراث.

هكذا درس بطرس في فرير جبيل والآباء الكرمليين في طرابلس لينتقل في ١٩٦٠ الى ثانوية فرن الشباك الرسمية، ومنها الى اليسوعية حيث تخرج في ١٩٦٥ وبدأ تدرجه. لكنه مارس التعليم للقيام بأوده، فكان يدرس عدة مواد يذكر منها اليوم «التربية المدنية».

وخلال هذه الفترة هبت على بطرس رياح من جهة الام ربما اقنعته ايضاً بان الزمن غلاب وعلى المرء ان يعد لكل امر عدته. فوالدة بطرس حرب هي نجيبه روحانا صقر، ابنة الدكتور يوسف روحانا وجيه قرطبا وجرود جبيل وشقيقة النائب اميل روحانا صقر. وبين اوائل الستينات واواسطها كانت الزعامة الصقرية تعاني صعود احد ابناء العامة الدكتور **انطون سعيد**، ابن قرطبا الذي دعمته الاجهزة الشهابية فتحدى الصقريين، وتعداهم الى ريمون اده الذي بقي في ١٩٦٤ خارج برلمان دخله سعيد.

بطرس الشخصي اللاشخصي

ربما لهذا كله يلوح بطرس حرب متوتراً، مشدوداً كالسهم الى الطريدة، وصلباً كالصخرة، لا تحركه هذي المدام ولا هذي الاغاريد. وبطرس هو الصخرة التي عليها بنيت كنيسة الناصري.

ويكاد المرء يقول ان بطرس حرب، الشيخ الشاب، والاحرى الشاب الشيخ، يخاف مما هو شخصي فيضع حداً بينه وبينه، ويقيم مسافة يدافع بها عن هشاشة ما في مكان ما، وراء هذا الصخري.

وبطرس ذو الشعر القصير معتدل الطول مع ميل الى القصر، انيق الا ان اناقته اقرب الى الترتيب والتنظيم اللذين لا تخالطهما نزوة. عيناه بنيتان يكثر من استعمالها، وهما لاطمئنان تحت الحاجبين على شيء من التجويف، وفي آن معاً جاحظتان قليلاً من داخل تجويفها. يركزهما في وجهة معينة احيانا، واحيانا يتركها تشيان بما يضمر، وهو يضمر حتى حدود الكبت. كذلك يكثر بطرس من استعمال شفتيه تعبيرياً، وشفته السفلى متقدمة قليلاً الى الامام. وفي خديه خسفتان صغيرتان. ذو بسمة وديعة ومدروسة يرفقها احيانا بعضّ الشفة دلالة على تواطوء لا يلبث ان يتراجع عنه ويقلبه محاولة شطارة. تحسه قابلاً لان يكون قريباً وودوداً شريطة ان ينزع الحجاب، والشيخ التنوري لا ينزع الحجاب. فاللطف مثلا عند بطرس هو المبادرة المسرعة الى استعمال القداحة المذهبة، وهو لطيف جداً بهذا المعنى. لكن اللطف ايضا سخاء في تقديم الذات براحة وعلى سجيتها. كأن يسترخي المرء مع من يجالسهم فتكون للجسد مفاصله ومنحنياته ولا يلوح

شقفة واحدة بلا زوايا. لكن من اين يؤ تى بالراحة، وبطرس، استاذ التربية المدنية السابق، خير ممثل لثقافة تحيل جزءاً من الواقع الى شكل وطريقة تقديم ونمط. يتلاعب بطرس حرب بقلم وهو يتحدث ناقلاً بعض **توتره** الى جسده: يهز كرسيه المتحركة عند سؤ ال يظنه محرجاً، ووراء الطاولة يضع رجلاً فوق رجل لكنه سريعاً ما يخفضها يهز قدميه من تحت الكرسي. يشبر بما ينقل قدراً من الانفعال. يقطع السم يا بطرس.

وعين بطرس دائماً على الورقة التي عليها نكتب. دائماً يتلمس ساعة يده. حذر لا يهاجم ولا يسمي لانه، كما يقول، ليست لديه نزوة «خالف تعرف». حين يرتاح ونادراً ما يفعل يأخذ سيجارة فانتاج ويدخنها بنز.

بطرس الذي يصفه عارفوه بالنزاهة ونظافة الكف، عازب حتى اشعار آخر، وعمه الراحل جان كان كذلك. تسأله: اليس السياسي في مجتمع تقليدي ريفي مطالباً **من جمهوره** بالزواج؟ يجيب: نعم. انها مطالبة عاطفية من الذين يحبونه. دائما اللغة هي اياها. فاستاذ التربية المدنية السابق الذي يتحدث بسرعة نسبية هو الذي قرر انشاء «يوم العلم» عندما كان وزيراً للتربية الوطنية في ١٩٧٩. تسأله: لماذا «يوم العلم» يا شيخ بطرس؟ يجيب: «تعطشي كلبناني لان يدرك اللبناني انه حجر اساس في وطنه، وان الوطن لا يقوم الا به وبرموزه ومنها العلم. ورفضي للسياسة التربوية المتبعة والتي اهملت التربية الوطنية والادراك الوطني. في ١٩٧٩ كنا بحاجة الى دفع اللبنانيين للتعلق ببلدهم». **كأن** الراديو يتحدث.

بطرس المعتدل والمتزن سياسياً كثير الاتزان. كلامه مكوي او منشى. يحب كثرة المترادفات. يحرص على ان يتحدث بعربية فصحى سليمة. يراجع اجاباته ويحرص على دقتها. يستلطف ان يجيب بالفرنسية. لا يكاد يذكر اسم شخص توفي الا ويحرص على تسميته بـ «المرحوم».

اسئلة وآراء

- هل انت مرشح للرئاسة؟
● لا وجود لمعايير. يعود هذا الى التجمع والى الجو النيابي.
- هل انتم على اتفاق في التجمع؟
● **اتفاق** على موقفنا المبدئي الايديولوجي.
- ماذا عن فكرة الضمانات؟
● ضمانة المسيحي هي المسلم والعكس.
- الصيغة؟

● الاحداث تجاوزت الصيغة القائمة، واهتزازها سهل الاحداث. لم تسقط الصيغة بل تحتاج الى تعديل بما يلبي التطور الاجتماعي والسياسي الحاصل، ويؤمن سد الثغرات التي كشفتها الممارسة السابقة.

- حدود التعديل؟

● باتجاه العدالة والمساواة. من دون ان يكونا على حساب المعطيات التي قام عليها لبنان.

- الغاء الطائفية السياسية؟

● الانصهار الوطني الشامل لا يتم بالنتيجة الا من خلال العلمنة الشاملة. والصيغة البديلة مرحلة وسيطة نحوها. الطائفية السياسية لا تلغى بنصوص بل بتطور طبيعي وفرض الالغاء خاطىء. لكن مبدأ الغاء الطائفية في كل جوانب الحياة لا في السياسة فقط هو ما يؤدي الى الانصهار.

- ومتى العلمنة المطلقة؟

● نتيجة تطور فهم الشعب اللبناني للممارسة السياسية. ليست وليدة نصوص بل ممارسة. يصعب توقع موعد لذلك. المهم حالياً تخفيف الانتماء الطائفي وتعزيز الوطني من دون ان يكون على حساب الايمان.

- المشاركة؟

● انا صاحب دعوة لوضع صيغة تؤمن مشاركة حقيقية لا تؤدي الى شلل في السلطة او خلق توازن يقود الى اعدام وحدة القرار.

- العلاقات اللبنانية - السورية؟

● من مصلحة البلدين ان تكون ممتازة...

- مميزة؟

● الحقيقة لا اعرف معادل هذه الكلمة بالفرنسية. العلاقات الممتازة مطلوبة بحكم الواقع الجغرافي والتاريخي والاقتصادي... نبدأ بجعل العلاقات جيدة على مراحل. حدود ذلك سيادة واستقلال كل من البلدين.

- ماذا يجمعكم وماذا يفرقكم عن «الجبهة اللبنانية» و«القوات اللبنانية» كتجمع؟

● نؤمن كتجمع بالمبادىء العامة التي تقول بها «الجبهة» و«القوات» من حيث وحدة لبنان وسيادته وتحريره بحسب بياناتها واعلامها والمواقف التي يطلقانها. اختلف معها على قسم من الممارسات الحاصلة والتي يختلف بعض مظاهرها عن هذه المنطلقات المعلنة.

- خلافات واختلافات في التجمع...

● تنوع التجمع مفيد. خصائص لكل واحد، وفي النهاية موقف موحد.

- تخوفت على النظام في السابق من امكان السقوط...

● في الماضي امتاز لبنان على جميع الشعوب في صيغته الحضارية. انا لست متخوفاً من الفراغ، لانني أؤمن بالعلم الطبيعي وبعدم وجود فراغ. لكن اذا لم تحصل انتخابات رئاسية فان دويلات الامر الواقع هي التي ستحاول ملء الفراغ وتكريس نفسها.

- وهل ستحصل الانتخابات في رأيك؟

● هناك فئات لا تخدم الانتخابات مصالحها ولا تريد استمرار هذا النظام. وهي داخلية وخارجية. لكن اعتقد ان حصول الاستحقاق الرئاسي شبه مؤكد.

- كنت كثير الشكوى من تشرذم السلطة التنفيذية وغيابها...

● نعم. لقد استمر التواصل بين وزراء الفريقين من دون الرئيس، ناهيك عن غياب اهم الرموز الوزاريين للفريق الذي يمثله رئيس الجمهورية مما جعله يبدو كممثل لفريقه. وهذا ما اثر على دوره كحكم. تضاف الى ذلك العناصر الاقليمية الصادرة عن سوريا بالذات مما جعل من رئيس البلد فريقاً.

- الحوار السوري - اللبناني وفشل القمم...

● الفشل المتكرر ناجم عن ان السوري لا يعرف تركيبة لبنان، او يتصور انه يعرف. الرئيس حافظ الاسد ورطه معاونوه...

- انت كاحتمال مرشح شمالي، والرئيس فرنجية.

● الرئيس فرنجية لا عقدة لديه على مرشح من الشمال.

- علاقاتك السياسية والبرلمانية... الوزير جنبلاط مثلا....

● علاقاتي جيدة مع كل الفرقاء بمن فيهم جنبلاط وهذا نتيجة مسلكية سياسية. المواقف العامة لا المواقف الطارئة هي التي تقرر علاقاتي السياسية. البرلمان له دور اساسي في الانتخابات لكنه ليس الناخب الوحيد.

- ثمة من يتهمك بالتقليدية..

● ليس من الضروري ان يخرج المرء من القوالب التقليدية. المطلوب الجمع بين العقل والضمير وعدم الاثارة. اتمنى ان اكون بين الذين يميزون الخطأ من الصواب. بعدي بعقلي ولم انجرف في تيارات التطرف.

قراءات

نمضي في محاورة بطرس حرب في مكتبه بيدارو حيث تكثر الكتب الحقوقية والقانونية على جدران المكتب وفي مكتباته، وبينها مجموعة دلوز ومجلة «التشريع اللبناني». طاولة الغرفة

الصغيرة الملحقة بالمكتب تثقل عليها الاوراق والملفات والكتب المتروكة بكثير من الفوضى والازدحام، ووراء بطرس اربع لوحات لوجيه نحله جاءته هدية:

- الآن، كيف تعرف نفسك اقتصادياً؟ وكالات، تمثيل الخ...؟

● محام. لا شيء خاص. انا وكيل شركات ايضاً ومؤخراً تسلمت وكالة عن بنك. اعيش بعرق جبيني وعلمي في نطاق كرامتي. بلا حاجة لاحد ولا ثروة. اخيراً عرضت علي عضوية مجلس ادارة احد البنوك، رفضتها لعدم استطاعتي تحمل مسؤوليتها.

- هل مارست من قبل عملاً مهنياً او صحافيا؟

● كطالب نعم. ترشحت في انتخابات اليسوعية في ١٩٦٣ - ١٩٦٤ كمستقل ضد المرشحين «الاحرار» والكتائب.

- الم تعرف اي تعاطف حزبي في السابق على الاطلاق؟

● بشكل عابر جداً في ١٩٥٨ مع التيار الشمعوني وكنا يومها في بيروت. عمي لم يكن يشجع... اما في الصحافة فلم احب الخلط بين السياسة والصحافة. اكتب من وقت الى آخر بلا انتظام. محاضرات احياناً.

- هل تطالع صحفاً اجنبية؟

● طبعاً. حين كانت رخيصة كنت اطالعها اكثر. نوفيل اوبزرفاتور. اكسبرس. لوبوان. والماغازين اللبنانية. واحيانا تايم.

- ماذا تتابع؟

● مشاكل الشرق الاوسط وقضية لبنان وعلاقات الجبارين. ما عدنا نشوف الا سياسة.

- متابعة كتاب؟

● مؤخراً لا، بل متابعة كتب.

- مثلا؟

● كل ما يكتب عن مشاكل لبنان والشرق الاوسط وتعايش المجموعات المختلفة والمتنوعة، والكتب التاريخية والاجتماعية.

- هل من كتب تركت اثراً عليك؟

● كتاب مهم جدا. منذ سنتين، عن النزاع بين تشرشل وديغول. لا اذكر اسمه. الكتاب الاخير لنيكسون «القادة» وجدت فيه اشياء جميلة جداً.

- ما هذا الجميل يا بطرس؟

● نظرته لمفهوم القيادة. من خلال تجربته.

- الصحف اللبنانية؟

● اجمالاً. السفير والنهار والانوار. مطالعة يومية ثابتة. الاخرى من وقت لآخر. المقالات السياسية عموماً. قراءة صحف ساعتين يومياً فضلا عن قراءات اخرى.

- الصفحات الثقافية في الصحف؟

● من وقت الى وقت. عشت المسألة الثقافية كوزير تربية ولم يكن لدي وقت لتثقيف نفسي من خلالها.

- فنون تشكيلية؟

● عندي فكرة. وليس بالتفصيل. احب الفن. تنظر اليه فترى جاذباً. خليفة وطنب... و..

- شعر وأدب؟

● احب ان اسمع اكثر مما ان اقرأ. نزار قباني. عمر ابو ريشة. سعيد عقل.

- سينما ومسرح؟

● انا معتاد على السينما لأنها اسهل. الظروف التي نجتازها تجعلنا نكتفي بالفيديو.

... امور تثقيفية.

- مخرجون معينون..

● اعرف فيهم. تخف معرفتي مع السنوات. اسم المخرج او الممثل اذا كان مهماً يشجعني. كنت في الماضي نصيراً متحمساً.

- مناطق لبنانية، عواصم عربية؟

● طرابلس وجبيل عشت فيهما. اتمنى لو عشت في مناطق اكثر. زرت دولاً عربية بوفود وبصفة خاصة: الكويت، الرياض، بغداد، دمشق، قطر.

- سياسيون؟

● تعجبني نظرة ديغول لفرنسا. عدم تنازله عن عظمتها حتى عند الهزيمة. وتأكيد تشرشل بعناد على دور انكلترا الحضاري والديمقراطي. عربياً عبد الناصر ظاهرة بقطع النظر عن كفاءاته. بقطع النظر خلق تياراً...

- لبنانيا...

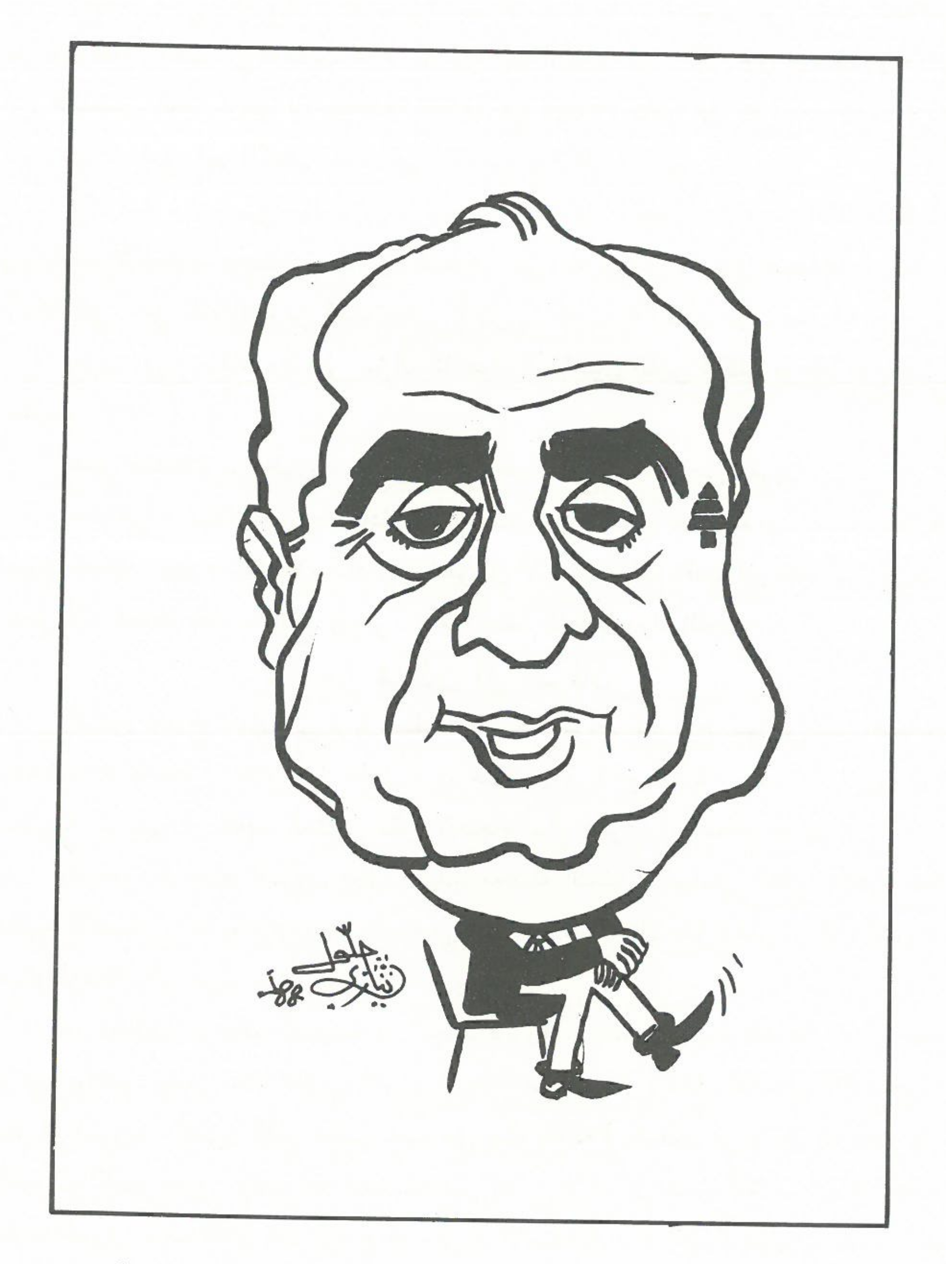
يضحك يعض على شفته:

● ما بتخلى الدني.

يروح يعدد مدوزناً... ادبني ربي فاحسن تأديبي:

● ثقافة كمال جنبلاط. ديمقراطية ريمون اده. حنكة كميل شمعون. ديمومة وثبات بيار الجميل. المعية موسى الصدر. جدية فؤاد شهاب.

فاتك اسم سني يا بطرس، من اجل مرة اخرى.



جورج سعـاده

بات من نافل الكلام ان « حزب الكتائب اللبنانية» ساعد الكثيرين من الشبان الطامحين على ان يبلغوا المراتب التي ما كانت عائلاتهم المتواضعة لتتيحها لهم ، لكن جورج سعادة ربما كان ابرز الكتائبيين الذين ارادوا ان يساعدوا انفسهم من دون ان يناموا على حرير مساعدة الحزب لهم . وبهذا المعنى فهو الكتائبي العصامي الانصع والاكثر نموذجية .

بالدراسة والتحصيل والوظيفة والخدمات والمحاماة والصلة بالادب والالمام بالفلسفة والسياسة والانتخابات ومصاهرة الخازنيين يصار الى شق الطريق التي لايلتوي صعودها . وكذلك بالنكتة التي ترمي للاقتراب من قلب ينبغي الاقتراب منه او للالتفاف على وضع فيه حرج .

يقول جورج سعادة ردا على سؤال لنا حول السياسيين الذين شكلوا مرجعاً له ومصدر استلهام :

حياتي مستمدة من حياتي ، اكتفي باخذ الحسنات من اشخاص معينين .

هذه هي « مسألة» جورج سعادة وفئة العصاميين : الشعور بان حياة المرء كاملة بذاتها لا تعوزها اضافة ، وهو ما يخلق الاعتداد ، والشعور في الآن نفسه بانها ناقصة الى الحد الذي يوجب العمل لاستكمالها بكل ما اتيح وتيسر . وهذا منشأ اللهاث وراء النجاح .

من شبطين الى البرلمان

الدكتور جورج سعادة ابن قرية شبطين في وسط البترون التي نزح اليها من باتوا اهلها في ١٧٧٧ من قرية بجة في قضاء جبيل الحالي ، وبرغم كونها قرية غير كبيرة ، سميت شبطين مركزاً للمديرية الوسطى في العهد العثماني نظراً لاحجام سائر القرى في المنطقة نفسها .

والراهن ان وسط البترون يعاني تقليدياً معضلة التمثيل السياسي الذي احتكره قطبا القضاء الاقصيان : مدينة البترون على الساحل وعائلتاها السياسيتان عقل وضو ، والجرد التنوري حيث الزعامة لآل حرب وعلى هامشهم آل يونس.

اما عائلات الوجاهة التقليدية في الوسط فأبرزها عائلتا ارسانيوس والبيطار ، ومن هذه الاخيرة يواكيم البيطار ونجله الطبيب والوزير المرحوم اميل البيطار ، فكان تعاطفهما المتوارث مع آل عقل في البترون ، الشيء الذي عكس نفسه على بيت سعادة في شبطين ممن درجوا بدورهم على التصويت لكميل عقل ، وفقط بعد انتساب شقيق جورج الاكبر الى حزب الكتائب ايدت العائلة شارل الخوري حرب الذي كان المرشح الدستوري الاستقلالي ، « التزاماً بقرارات الحزب» كما يشرح جورج ، الا ان الثابت في الحالين ، اي عند تأييد عقل وعند تأييد حرب ، أن بيت سعادة كانوا يقترعون لصالح من يناهض يوسف ضو ، مرشح آل فرنجية وحليفهم في البترون .

اما في شبطين نفسها فلئن كانت عائلة سعادة هي الاولى من حيث العدد ، الا ان العائلة الثانية عددا ، وهي عائلة نجم ، كتب لها المكان الاول من حيث العلم وسعة العيش ، ومن هذه

الاخيرة عرف القائمقام الياس نجم والشاعر العمودي بطرس ، وعدد من المحامين والاطباء منهم المحامي اميل ، وفي ١٩٧٢ تواجه اميل على لائحة ثالثة ثانوية مع جورج سعادة على اللائحة الاولى ، فكان لسعادة ١٧٧ صوتاً من شبطين ، ولنجم ١٥٩ .

على اية حال فبرغم إنكار جورج اي تفكير في السياسة ، الا ان استعراض المحطات الاساسية في حياته يوحي بان الدور البتروني لم يفارق اهتمامه .

فقد رأس « جمعية ابناء البترون المقيمين في بيروت وضواحيها» ، التي تأسست اوائل الستينات بهدف تقديم الخدمات لابناء المنطقة المهاجرين الى العاصمة وتوطيد الصلات بينهم .

كما اسس ورأس « مركز الانماء البتروني» الذي تفرعت عنه مجالس ومراكز ثقافية واجتماعية واقتصادية.

وفضلا عن اختلاط الحزبي بالسياسي في تجربة سعادة ، فان هذا العمل القاعدي الذي سبق وصوله الى البرلمان وسم نشاطه بسلوك يغاير السلوك السياسي التقليدي ، فالسياسة ، في هذه الحال ، لا تلوح مقطوعة الجذور عن مقدماتها في المجتمع ، مكتفية بصدورها عن موقع عائلي متوارث .

بيد ان اهم ما قام به سعادة من حيث مردوده السياسي ارتبط بدوره في مجال التربية والتعليم ، ففي ١٩٥٢ ومع نزوله الى بيروت عمل مدرسا ابتدائيا في الاشرفية ، حتى اذا عاد من اسبانيا في ١٩٥٨ وهو يحمل شهادة الدكتوراه ، سماه الشيخ بيار الجميل ، احد وزراء الحكومة الرباعية يومها ، مستشاره للشؤون التربوية ، وصار في وسع جورج سعادة ان يقدم ما وسعه من خدمات لابناء منطقته .

ولا يتردد مدير مصلحة التعليم الخاص سابقا والرئيس الحالي لحزب الكتائب في القول : الحزبيون وطلابي هم الذين نظموا حملتي الانتخابية في ١٩٦٨ والتي اوصلتني الى البرلمان للمرة الاولى .

يومذاك استحال على احزاب « الحلف الثلاثي» ان تتفق على لائحة موحدة في البترون ، فالقضاء له نائبان ولكل حزب مرشحه ، جان حرب عن « الوطنيين الاحرار» ، وسايد عقل عن « الكتلة الوطنية» ، وسعادة عن الكتائب ، ولان حرب اثر اصطحاب عقل على لائحته لم يبق امام سعادة الا التفاهم مع يوسف ضو ، المؤيد من آل فرنجية .

انها « مفارقة» كما يقول جورج سعادة بناء على مقدمات العلاقة السابقة ، لكن هذه المفارقة عملت لصالح الكتائبي الشاب الذي فاز وحده في لائحته فيما فاز سايد عقل في اللائحة الاخرى تاركا لجان حرب هزيمة مرة لم يعهدها.

ولم يدع سعادة الفرصة تمر ، فالقى خطابا شهيرا في مهنئيه مؤكدا نجاحه في الحاق الهزيمة

بـ «مارد» كان تقليدياًلا يقهر .

وجورج يقول ان وصوله الى العمل الانتخابي نجم عن عوامل غير متوقعة ، ففي ١٩٦٤ توفي جاك شديد الذي سبق ان رشحته الكتائب في ١٩٤٧ و١٩٦٠ وقد خاض الدورة الاخيرة على لائحة منوال يونس ، وفي ١٩٦٤ رشح الحزب اميل حكيم منفردا لكنه ما لبث ان مرض وبات عاجزا عن اكمال الشوط فوقعت القرعة في ١٩٦٨ على جورج سعادة .

وكائنا ما كان قسط الدقة في هذه الرواية يبتى ان نسجل ملاحظتين نعتقدهما مهمتين :

الأولى، ان الكتائبية البترونية، وسعادة اوضح تجلياتها، هي تعبير عن محاولة الوسط البتروني، وبالأخص قراه الصغرى، تبوء الصدارة التي احتكرتها تنورين ومدينة البترون. فالدكتور اميل حكيم الذي عرف بخدماته الطبية من قرية الفتيحات، وهي مزرعة في وسط البترون. وجاك شديد، المحامي، من قرية اده الصغيرة في المنطقة نفسها، عمه المطران الياس شديد وابوه نسيب افندي شديد. وقد وجد جاك في الكتائب استعاضة عن التراجع المتنامي لدور عائلته الشيء الذي ربما ساهم في اقترانه بفتاة من آل الجلخ التجارية وتحوله الى وجيه صالوني في بيروت.

والثانية، ان جورج سعادة السياسي هو وريث محاولة كتائبية مديدة ومعقدة وملتوية في الوصول الى اوج التمثيل السياسي، الأمر الذي ينطبق، الى هذا الحد او ذاك، على عمليات التمدد السياسي الكتائبي الى الأطراف، اي الى ما يتعدى المهد الأصلي للكتائب في جبل لبنان وبيروت الشرقية.

فبالافادة من سياسة العزل التي تعرض لها التيار الشمعوني بدءا من ١٩٦٠، تراءت الامكانية متاحة لمواجهة جان حرب المقرب من شمعون. وهكذا، وكما سبقت الاشارة، خيضت المعركة بجاك شديد على لائحة منوال يونس الشهابية. وفي المقابل انسحب يونس ضو لمرشح الكتائب الذي وفق في العثور على حليف قوي يناهض خصمه التقليدي، كميل عقل، شريطة ان تقف الكتائب في الانتخابات النيابية التالية الى جانبه. وعندما ازف العام ١٩٦٤ ابتلع الكتائبيون تعهدهم مرشحين الدكتور حكيم الذي نال يومها ٢٩٠٠ صوت.

على اية حال كان للكتائبيين ما ارادوا في ١٩٦٨ بعد حملة انتخابية شهيرة اعتبرت مخالفة للتقليد السائد. فجورج سعادة الذي استقال من وظيفته الرسمية قبل ستة اشهر على الانتخابات حول الفترة الفاصلة الى حملة زيارات طالت منطقة البترون بيتا بيتا بالمعنى الحرفي للكلمة، وطبعا زار المجموعات والقرى الهامشية فضلا عن حضور المآتم والأعراس، مذكرا ذوي الأصل الجبيلي في البترون بأن اجداده قدموا من قرية بجه في جبيل.

الى ذلك كله فعلت الماكينة الكتائبية الشهيرة فعلها، وكان لوجود سليمان فرنجية في وزارة

الداخلية دوره الملحوظ تبعا لخوض سعادة ويوسف ضو معركتهما على لائحة واحدة.

وكما أفاد سعادة من فرنجية وزيرا للداخلية أفاد منه رئيسا للجمهورية في ١٩٧٢. فقد ساعد الرئيس الزغرتاوي في ترتيب التحالف الانتخابي يومها بينه وبين بطرس حرب بما ضمن للاثنين نجاحا سهلا نسبيا. وفي عهده اختير سعادة وزيرا للتصميم العام في حكومة الرئيس صائب سلام في ١٩٧٢ ووزيرا للأشغال العامة والنقل في حكومة الرئيس رشيد الصلح في ١٩٧٤.

الدارسة والتدريس

ولد جورج سعادة في مدينة البترون في ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٠، اي في نفس النهار الذي شهد تأسيس حزب الكتائب بعد ست سنوات، وقبل يوم واحد على الاستقلال بعد ثلاثة عشر عاما. وهذه المشابهات لا بد انها وجدت في السنوات الأولى من حياة جورج سعادة من يتوقف عندها في قرية شبطين، مستخلصا منها معاني درج الريفيون على استخلاصها من المقارنات الطبيعية.

والده حنا صعب سعادة الذي خدم في «الجندرمة» او «الدرك» ، ووالدته مريم سعادة، ارسلاه الى مدرسة الضيعة ، ثم الى مدرسة بعبدا الرعائية، مع شقيقه الأكبر الذي كان استاذا فيها. ومن هناك انتقل الفتى العصامي الى معهد الرسل في جونية حيث أنجز دراسته الثانوية مساهما في اصدار مجلة طلابية، ومن جونية الى الاكاديمية اللبنانية حيث نال اجازة في الأدب والفلسفة.

ونظرا لما عرف عن الاهتمام الاسباني بالثقافة والأدب العربيين سافر جورج الى مدريد في ١٩٥٥، وبعد ثلاث سنوات حصل من جامعة مدريد المركزية على دكتوراه دولة في الفلسفة والآداب ارفقها باجازة في فقه اللغة السامية.

تسأله ، وفي الخلفية ما يمكن ان يحرك اعجاب شاب كتائبي من «ابناء الشعب» بفرانكو يومها:

ـ كان عز مجد فرانكو.

● نعم، كان الاسبان يعتبرونه منقذا مرتين، مرة في الحرب الأهلية ١٩٣٦ ـ ٣٩، ومرة في الحرب الثانية اذ برغم صداقته مع هتلر نجح في ابقاء بلاده خارج الحرب. كذلك خرج بتوفيق مقنع للتيار الملكي الذي كان يصر على اعادةالملكية، فحلها فرانكو بتسمية خوان كارلوس ملكا تستأنف معه الملكية بعد رحيله.

يتراءى لك لوهلة ان جورج سعادة الأسمر اللون، الجالس واثقا وراء طاولة مكتبه، واحد من كبار البيروقراطيين الفرانكويين ـ بيروقراطيي ما بعد الوصول الى السلطة الذين يطالبون

جماهيرهم المتحمسة بالتخفيف من غلوائها.

على ان اسبانيا لم تكن نهاية المطاف في سعي جورج سعادة وراء العلم. فبعد نيف وعقد من الزمن قرر النائب الشاب ان يعود الى الجامعة لدراسة الحقوق، وهكذا كان، فتخرج محاميا من الجامعة اللبنانية وتدرج في مكتب القطب الكتائبي جوزيف شادر، وهو المكتب الذي اشتهر بدوره في تأمين الخدمات لجمهور واسع متعدد المناطق والطوائف.

لم ينفصل التعلم في حياة البتروني العصامي عن التعليم والوظيفة، فإذا كان في مطلع شبابه عمل مدرساً في الأشرفية، فبعد عودته من اسبانيا في ١٤ تموز ١٩٥٨ بالذات، وقبل ساعتين على وصول الأسطول السادس الى ميناء بيروت، انصرف للتدريس في عدد من المعاهد الخاصة وفي دور المعلمين ثم الجامعة اللبنانية. ولئن استمر رغم فوزه في انتخابات ١٩٦٨ طالبا، فقد استمر معلما ايضا، اذ راح يدرس الحقوق في الجامعة المذكورة ومعها الأدب والفلسفة.

وفي باب آخر من العمل تسلم سعادة مديرية التعليم الخاص في وزارة التربية ما بين ١٩٦٤ و١٩٦٨، فكان المؤسس العملي لمصلحة التعليم الخاص لأنها كانت دائرة ثم سميت مصلحة وظلت مركزا شاغرا..

يشرح جورج: عبر التنظيم جعلتها مهمة جدا في مراقبتها عمل المدارس المجانية وتنظيم المساعدات التي تعطى لها.

جورج المولع بالتنظيم والانجاز، وذو العينين الشاخصتين الى الترقي الاجتماعي، اقترن في ١٩٧٥ بليلى الخازن، كريمة الشيخ الراحل كسروان، صاحب احد ابرز البيوتات الخازنية والقطب الكتلوي المقرب من اميل اده. ومن ليلى الحائزة على اجازة في الحقوق انجب سعادة ثلاثة ابناء اكبرهم سامر (١٢ سنة) واصغرهم رامي، وبينهما ميرا.

ما من شك في ان تجربة الشاب البتروني في اسبانيا اثرت به الى ابعد الحدود. ألم تكن الفرانكوية، في احد اوجهها الاساسية، مصالحة بين «الشعب» والارستقراطية البائدة، قفزا من فوق الرأسمالية برأسمالييها وعمالها؟.

في البيت المركزي

مكتب جورج سعادة في البيت المركزي للكتائب في الصيفي ليس فخما. فوقه صورة بيار الجميل، وحول كرسيه علمان: اللبناني من على يمينه والكتائبي من على يساره. اما الصور الاخرى الموزعة قبالة رئيس الحزب فلزوجته وابنائه، وله وهو مع البابا يوحنا بولس الثاني. وهناك على طاولة صغيرة بين كرسيين باقة زهر اصطناعية.

جورج الدمث اللطيف الطيب، يوحي بأنه «حربوق» كما يقول العاميون. سريع الحركة والهمة والرد على سؤال، وعلى شيء من سعة الابوة التي تقنعك بأنها تعمل دائما لصالحك،

وتصارحك بما فيه خير الجميع ومصلحتهم.

بدا جورج بالغ الجدية والمهابة كما لو ان زوجته الارستقراطية اشارت عليه ان يغير في سلوكه. قبل عام اتيح لكاتب هذه الاسطر ان يلتقيه في مناسبة اجتماعية. يومها كان أقرب الى الخفة منه الى الرئاسة. فأبو جريج فيه كان لا يزال اقوى من جورج. ولم يتردد احد الزملاء في ان يربّت بقوة الى كتفه ويخاطبه بخليط من المودة والاستخفاف: آه يا ابو جريج يا حبيب الشعب، حطا هون. وحطها ابو جريج فعلا.

حينها لاح جورج شبيها بالفلاحين الاغنياء، او اولئك الكولاك الروس الذين يبهجهم ان يزيد عدد احصنتهم حصانا، ويفوتهم ان الحصادات بدأت تغزو الريف وتحل محل الاحصنة. واذا شئنا مثلاً لبنانيا قلنا أنه أميل الى كسب عشرات الليرات فيما قيمة الليرة تتدهور بسرعة قياسية.

هل تغير جورج الذي رأيناه في مكتبه رزينا، مقنعا، من دون ان يفقد الحرارة والدفء الشخصيين؟ وماذا عدا مما بدا؟.

جورج سعادة اصلع مع شعر قليل في المقدمة التي يخترقها بعض الشيب، المنثور ايضا على الطرفين. جبهته عريضة واسعة، وفي الخطين الخلفيين من اذنيه شعر كثيف اسود يتجمع كتلتين لا تجد العين لهما مبرراً ما خلا البحث عن مهابة، حتى لو كانت وسيلتها شعرا اسود في الاذنين.

وجورج قصير، معتدل الضخامة مع ميل الى الضعف، لكنك لا تتخيله الا سمينا لضخامة تقاطيعه الاخرى: الرأس كبير والانف كبير والشامة السوداء فوق فمه تميل لأن تصرفها وزنا اضافيا. وجورج حين يستل نظارات القراءة البالغة الضآلة ويضعها على عينيه، تقول بينك وبين نفسك: الاحرى بهذه النظارات ان تكون لعبة لابنك الصغير رامي.

على صدره زرّ الكتائب، وفي معصم يده اليمنى سوار معدني اغلب الظن انه لمكافحة الروماتيزم، وحين يتحدث جورج بالفصحى تخال انه دور لسانه واطلعه الى حلقه كلما لفظ حرف الدال الذي يخرج ما بين الدال والضاد. اما حين يحدثك بالعامية فقل ان مقلعا للحجارة اقام في فمه.

لكن المفارقة الابرز في جلستنا في مكتب الدكتور سعادة اننا كنا جميعا لوحة سوريالية رسمتها انامل مبدعة. على بعد امتار من التنظيم والانجاز والكلام المنمق والملابس المهذبة ينبت الحشيش الذي استحال خط تماس آخر مع البيبلوس والريفولي، وتتكاثر بقايا السيارات والآليات التي ترسم الحدود الدموية للبيروتين.

سألنا رئيس حزب الكتائب: كيف تعرّف وضعك الاقتصادي؟.

● اعطنا خبزنا... اعيش من مكتبي كمحام ومن تعويضاتي كنائب.

- هل تطالع الصحف المحلية والدولية؟.

● المحلية اكثر. اذا لم استطع، اقرأ المقتطفات التي يزودونني بها. الافتتاحيات والتعليقات اقرأها كلها.

- السياسة الدولية؟.

● أتابعها طبعا.

يكمل بعمومية لا تغني ولا تسمن:

اتابع ارتباط سياسة لبنان بالسياسة الاقليمية والدولية. مثلا قمة موسكو نترقب نتائجها...

- كرئيس حزب... اوضاع وتطورات الاحزاب في الخارج، لا سيما تجمع «الاحزاب الديموقراطية المسيحية» والكتائب عضو فيه..؟

● عندنا امانة في الحزب هي امانة شؤون المنظمات والاحزاب الدولية، مسؤول عنها رفيقنا انطوان جزار الذي يحضر اجتماعات...

- الصفحات الثقافية في الصحف، هل تعنيك؟.

● للاسف. الوقت ما بيسمح. اقرأ العناوين.

- شعر وادب... انت استاذ ادب؟.

● حاليا اقرأ القصائد الوطنية وكتب المذكرات. اقرأ بصورة ثابتة في الصباح. استيقظ ٥ - ٦.

- السينما، المسرح، الفنون؟.

● لأ. لأ.

يقولها باستبعاد من يستبعد الطاعون.

جورج كتائبيا

انتسب جورج سعادة الى حزب الكتائب اواخر ١٩٤٥ وكان من ضمن الموجة الشابة التي جذبها المناخ الاستقلالي والاعتداد الشبابي الماروني بالدور اللبناني لابرز احزاب الموارنة. والراهن ان هذا الجيل الذي بدأ يتصدى لقيادة الكتائب منذ اوائل الستينات اكثر اعتدالا من الجيلين الكتائبيين: التأسيسي الذي سبقه من دون ان تنقطع صلته الروحية بالزمن الانتدابي، والجديد الذي انخرط في الحزب بعيد حرب ١٩٥٨ الاهلية وتسنم بعض المواقع القيادية مع فجر الحرب الاهلية - الاقليمية المستمرة».

الانتساب حصل في معهد الرسل في جونيه، وبين اسبابه المباشرة ان الشقيق الأكبر الذي صحبه جورج الى بعبدا وهو صغير، كان كتائبيا. والفارق الكبير في السن بين الشقيقين يجعل الأخ

الأكبر نصف اب للأصغر. ثم ان جورج حين كان يعود في الصيف الى وسط البترون كان يجد المنطقة تمور بنشاط لا سابق لها به: حركة استقطاب وتنسيب أبرز القيمين عليها كتائبيو كور الأسرع في انشاء بيت للحزب. وكور غير البعيدة عن شبطين، قريبة جدا من كفيفان، القرية التي تفوقها حجما وتسلم زمامها لوجهاء آل البيطار.

وفي بيروت اصبح سعادة احد المسؤولين عن الطلاب، وما لبث بعد رجوعه من اسبانيا ان تسلم رئاسة اقليم البترون الكتائبي عاملا في الستينات مع جوزيف ابو خليل وانطوان نجم وجوزيف الهاشم في الامانة العامة ومشرفا على دورات تدريبية لرؤساء الاقسام، الامر الذي اتيح له بفعل نجاحه في ادارة «اسبوع الفكر الملتزم» الذي دعت اليه الكتائب في ١٩٦٠ بقصد محاورة الاحزاب والتيارات الاخرى.

وبعد ترؤسه المدرسة الحزبية الاعدادية، وهي التي اسسها الحزب بهدف تخريج كوادر جديدة، اصبح في ١٩٦٨، على اثر انتخابه نائبا، عضوا تلقائيا في المكتب السياسي، اعلى سلطة حزبية بعد الرئيس.

وبفعل احداث ١٩٦٩ بين الجيش اللبناني والمقاومة الفلسطينية سمي سعادة عضوا في لجنة حوار مع الفلسطينيين ترأسها عن الجانب الكتائبي جوزيف شادر، وضمت الى سعادة كلا من كريم بقرادوني وامين الجميل. وقد توصلت هذه اللجنة الى «مشاريع اتفاقات لو طبقت لتغير الكثير مما حصل» كما يقول جورج سعادة متحسرا.

ومن النطاق الفلسطيني الى النطاق العربي: ففي اوائل السبعينات شغل نائب البترون الكتائبي منصب امين الشؤون العربية في الحزب، وهو منصب استحدث بقصد الانفتاح على الاقطار العربية. وبصفته هذه مثل الحزب او شارك في تمثيله في الكثير من المفاوضات مع اطراف عربية كان بعضها بحضور الشيخ بيار. وهكذا زار سوريا ومصر والاردن والسعودية والمغرب وتونس، وكانت الخطة تقضي، كما يضيف، بزيارة البلدان العربية كلها لكن الحرب منعت ذلك.

ويتحدث جورج سعادة، احد برلمانيي الحزب و«عروبييه» عن الصداقات العربية التي بناها على امتداد تلك المرحلة، متوقفا عند صداقاته في سوريا.

انا زرت سوريا حتى الآن حوالي ٥٠ مرة.

يتحدث عن صداقته مع نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام:

آخر مرة رأيت ابو جمال قبل توقيع «الاتفاق الثلاثي» بـ ٤ - ٥ ايام في مؤتمر البرلمانيين الاميركان المتحدرين من اصل عربي. حاولت ان انصحه بمضار «الاتفاق الثلاثي». كذلك اجتمعت بايلي حبيقة عدة مرات لاقنعه بذلك. كان كل اجتماع يدوم ٤ ساعات.

لكنك متهم بانك انتقلت من الاعتدال والانفتاح على العرب الى تأييد الدكتور جعجع؟

ابدا. ابدا. العلاقة مع سوريا توقفت قبل ان اصير رئيس حزب. انا لم اتغير. انا من المخضرمين في الحزب. عاصرت جيلي القدامى والشباب. كنت دائما مع الانفتاح ولا ازال. انا دائما مع التجديد والتطوير لكن بالتدريج.

هذا جزء من جواب طويل للدكتور سعادة ردا على السؤال المذكور.

نمضي مع رحلة جورج سعادة في الحزب والاعتدال:

● في ربيع ١٩٨٠ قام بزيارات متلاحقة الى سوريا، ومعه كريم بقرادوني، لاعادة الحوار بينها وبين الحزب.

● ابان فورة بشير لم يقف معه. ايد ابقاء القرار الحزبي في يد الحزب واستلهام تراثه. وحين سأله بشير عن ترشيحه للرئاسة قال له: اؤ يدك اذا ايدك المكتب السياسي. وحين ايده المكتب السياسي انتقل الى صفه. عندها اختاره بشير لمرافقته في جولاته على النواب قبيل انتخاباته. وكذلك فعل الشيخ امين بعد ترشيحه.

● اشترك في مؤتمري جنيف ولوزان في ١٩٨٣ و١٩٨٤ كأحد مستشاري الشيخ بيار. ولعب في جنيف دورا ملحوظا في ترميم العلاقة مع الرئيس فرنجية... الذي ساعده في ١٩٦٨ و١٩٧٢ كما رأينا.

● ١٣ ايلول ١٩٨٤ انتخب بوصفه معتدلا نائبا لرئيس الكتائب بعدما خلا المنصب بانتخاب نائب الرئيس الدكتور ايلي كرامه، رئيسا.

مذّاك بدأت تحوم الشبهات حول اعتدال جورج سعاده.

نحو سمير جعجع؟؟؟

لدى التفكير بما يسمى انتقال جورج سعادة من الاعتدال الى التطرف لا يملك المرء الا ان يستعيد امورا متشابكة.

فالطبيعة العصامية الفائقة لسعادة، بما فيها من انفة يتداخل الشكلي والفعلي فيها، تحمل على استبعاد علاقة التبعية بينه وبين الشيخ امين الجميل. فحياة الرجل مستمدة من حياته، كما يقول. لكن هل يعقل للناجي من دب امين ان يقع في جب سمير؟

جورج سعادة من شبطين الشمالية البترونية وسمير جعجع من بشري الشمالية هي ايضا. والبيت المركزي للكتائب في الصيفي، الذي يتربع جورج في سدته، ليس بعيدا عن «المجلس الحربي» للقوات. والاخيرة التي تضخمت ونمت على حساب الحزب في السنوات الماضية باتت «تحمي» الحزب بعسكرها وتموله من صندوقها. والى هذه الاسباب كلها ثمة من يضيف سببا آخر. فاغتيال الكتائبي الجبيلي المعتدل غيث خوري في ١٩٨٤ ارعب الكثيرين من معتدلي

الحزب، وربما كان جورج سعادة احد الذين آثروا السلامة.

لكن جورج الذي يستفزه القول بأنه كان مرشح سمير جعجع لرئاسة الحزب يقدم تفسيرا مختلفا لما حدث ويحدث.

يقول: سأصارحكم، اذن، بقصة ترشيحي الى رئاسة الحزب. قبل المعركة كنت في المكسيك. اتيت قبل شهر وكنت نائبا لرئيس الحزب. عرفت انه اثناء غيابي حصل اتفاق بين امين الجميل وسمير جعجع وكريم بقرادوني حول الانتخابات. الاتفاق يقضي بأن يتسلم ايلي كرامة الرئاسة ثانية فيما تذهب الامانة العامة الى كريم، على ان تصبح نيابة الرئاسة نيابتين احداهما سياسية اتولاها انا والاخرى ادارية. وانا لا اقبل بطبيعة الحال ان اكون نصف نائب رئيس، مع احترامي لايلي كرامة كنت لا اقبل، اذا كان لا بد، بأقل من الرئاسة. فايلي ليس سياسيا.

الا ان رئيس الجمهورية غيّر رأيه واراد ان يجعل كريم نصف رئيس بدل الاتفاق على تسليمه الامانة العامة. حصل خلاف وظهرت ملامح معركة، وفكّر سمير في ان يرشح نفسه للرئاسة علما بان المطلوب في المرشح ان يكون حزبيا منذ ١٥ سنة ولا اعرف اذا كان سمير اتم هذه المدة في الحزب. وقرر فريق من قدامى الحزبيين كالياس ربابي وطانيوس سابا وغيرهما، العمل على تلافي الصدام. وهكذا عقد اجتماع في بيت سابا ضم ما بين ٣٠ الى ٣٥ من كبار مسؤولي الحزب قرروا بنتيجته منع الحزب من الضياع في متاهات الانتخابات. وهكذا ألّفت لجنة وتم طرح اسمي كاسم توفيقي. اللجنة زارت امين وسمير وعرضت عليهما الاقتراح. وحين اتصلوا بي قلت لهم انني لا اقبل الا اذا كنت مرشح اجماع.

قبل ذلك كنت على خلاف مستحكم ومديد مع سمير. فكتائب البترون رفضت ان تنضوي مع اقاليم الشمال برئاسة الشيخ يوسف الضاهر حليف سمير. وكذلك، جبهة كتائب البترون ظلت في نشاطها العسكري منفصلة عن جماعة سمير. وعندما رشح جعجع نفسه للمكتب السياسي كنت ضده.

مع هذا فحين طرح اسمي عليه، قال: برغم كل خلافاتنا، فانا امشي اذا كانت مصلحة الحزب تقضي بذلك. اما امين فأصر على ايلي كرامة.

وعقد اجتماع اخر. وفكرت ان معركة بيني وبين ايلي كرامة تبقى اضمن للحزب من معركة بين كرامة وواحد من انصار سمير، او ربما سمير نفسه. وهكذا كان. كنت انا انظم معركتي في مكتبي المجاور لهذه الغرفة بوصفي نائبا للرئيس، وايلي ينظم المعركة في هذه الغرفة. وجرت الامور بكل ود وصداقة.

... وفي ١٦ حزيران ١٩٨٦ اصبح جورج سعادة رئيسا للحزب باكثرية ٥٣ صوتا مقابل ٤١ لايلي كرامة.

ويمضي سعادة : لكن شتان بين طروحاتي وطروحات القوات حول «وحدة لبنان» واللامركزية . . .

ـ وماذا عن تأييدك لنزول الجيش وتسلم المناطق الشرقية ؟

● لا ازال على موقفي . لكنني اريد ان ابقى وسيطا خوفا من ان يحصل شيء على الارض . اذا كان الصدام سيحصل فانزال الجيش بعده سيخسر الكثير من معناه . حين قال سمير ان طريق بعبدا تمر في عين الرمانة ، سارعت الى القول انها لا تمر الا بمجلس النواب . اعتدال جورج سعادة لا يزال اعتدال جورج سعادة . انا على اتصال بالكل . اتصل تليفونيا بفرنجية ، بالمفتي ، بالمفتي قبلان ، بالجميع . انا علنا انتخبت حسين الحسيني لرئاسة المجلس رغم موقف سمير . انا لم اسلم رقبتي للقوات لكنني لا اريد الدم .

في ايام ايلي كرامة كانت العلاقة تصادمية . الان هناك اجتماعات ومعالجة للامور . لقد اتهمت بانني اسلم الحزب للقوات بحجة اجراءات ادارية بحتة . لكن الذين اتهموني ما لبثوا ان عادوا الى صفوفهم في الحزب حين تيقنوا من خطأ اتهامهم . شعاري كان : الانتقال من حزب المؤسس الى حزب المؤسسة . هذا ما نحاوله : احداث «المشورة» كمرحلة متقدمة نحو الانتخابات الشاملة .

ـ لكن يلاحظ ان الحزب فقد الكثير من قوته ودوره بسبب حدة الاستقطاب بين رئاسة الجمهورية وقيادة القوات ؟

● بطبيعة الحال . لكن هذه الازمة بدأت مع بيار الجميل . واذا كان في وسع بيار الجميل ان يمتصها جزئيا لكونه بيار الجميل ، فالامور بعده كان لا بد من ان تتفاقم .

ـ في معرض الكلام عن علاقتك بالشيخ أمين ، قيل انك انزعجت من توزير جوزيف الهاشم وترئيس ايلي كرامة بعد رحيل الشيخ بيار ، لانك تعتبر نفسك احق منهما . .

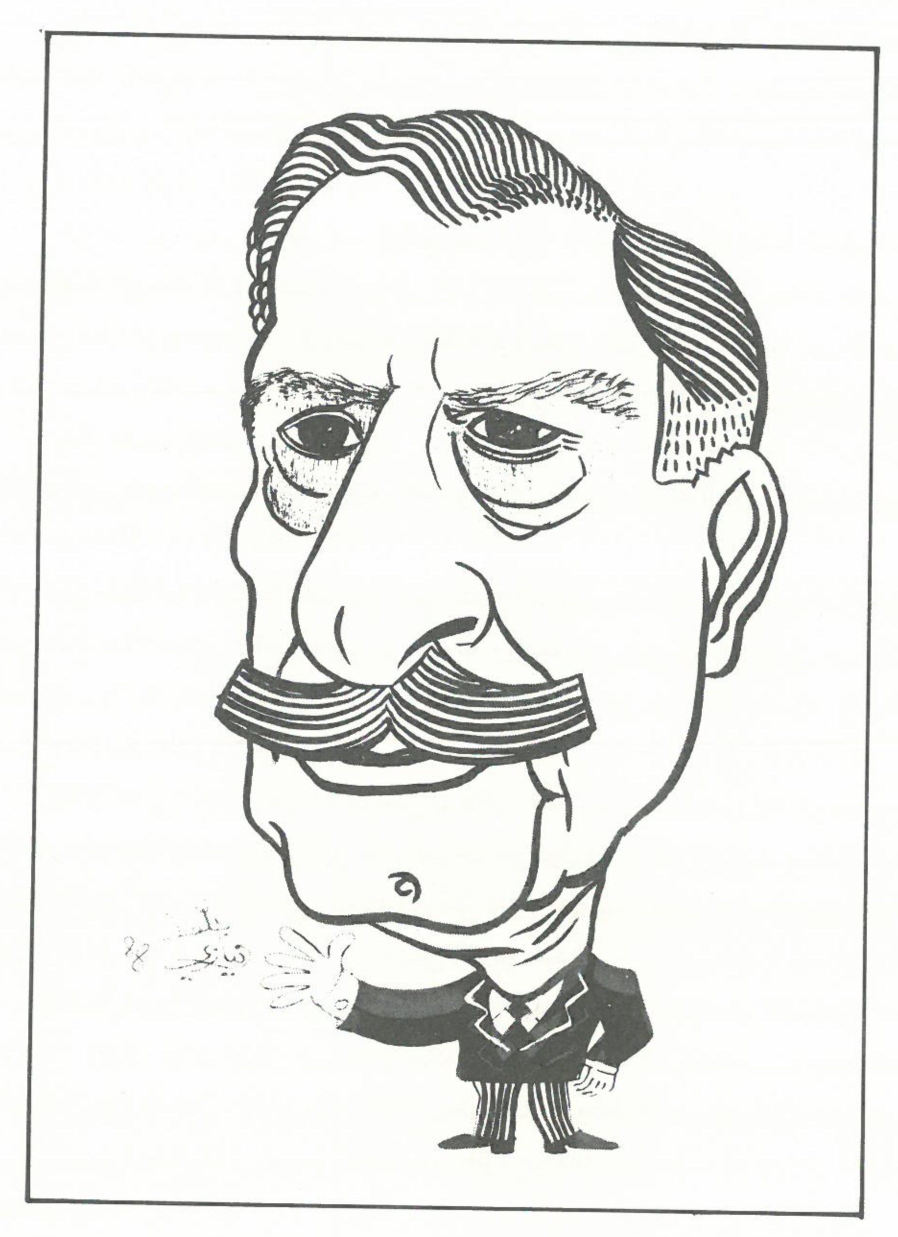
● مع احترامي ومحبتي لجوزيف الهاشم كان رأيي ورأي ايلي كرامة الذي كان رئيس الحزب يومها ان الوزارة يجب ان تذهب الى احد نواب الحزب . هذا تقليد درج عليه الشيخ بيار بحيث يتاح لنواب الحزب ان يتولوا الوزارات بالتعاقب . هكذا وزرت انا ووزّر ادمون رزق ولويس ابو شرف . بعد انتخاب بشير رئيسا طرح الشيخ بيار اسمي راشد الخوري وامين الجميل عن الكتائب في اول حكومة سياسية لانهما النائبان اللذان لم يكن التوزير قد شملهما . الاتيان بجوزيف اخلال بهذا العرف خصوصا وانه لم يكن يوما عضوا في المكتب السياسي . اما بالنسبة لايلي ، فانزعجت لترشيحه ثانية . في المرة الاولى سئل الشيخ بيار وهو مريض ما اذا كان قلقا على وضع الحزب ، فأجاب : لا خوف فايلي يدبر الامور . هذه العبارة فسرها البعض بانها وصية بيار الجميل . في المرة الثانية الامر يختلف . .

ـ اذن نستطيع القول ان جورج سعادة المعتدل لا يزال معتدلا . .

● يا اخي الخلافات الحقيقية لست حول عروبة لبنان ولا حول العلاقات المميزة من الذي لا يقول بعروبة لبنان . العلاقات المميزة انا معها لولا السياق الذي وردت فيه وارتبطت به في «الاتفاق الثلاثي» . الخلافات هي حول الغاء الطائفية السياسية ، وصلاحيات الرئيس . في هذه المسألة ينبغي ان يكون الرئيس قويا . انا اذكر ان الرئيس الاسد قال لي مرة في اول عهد الرئيس سركيس : دولة براسين ما بتمشي .

صحيح ما قاله الرئيس الاسد . ومن باب اولى ان حزبا بثلاثة رؤوس . . . ما بيمشي .

أليس كذلك يا ابو جريج ؟



قبلان عيسى الخوري

مجلس الشيخ قبلان عيسى الخوري، او قبلان بك، مسرح قائم بذاته. الرجل بدشداشته الحريرية البيضاء وثلاثة مخاتير وشبان يتحلقون حوله مندهشين مشدوهين. يحدثهم الشيخ قبلان عن بلاد بعلبك وبلاد الفاتيكان، وكل رقعة عند الشيخ بلاد، وكل بلاد قصية نائية فيها عتق الزمن ورائحة المسافات.

يحبونه، يسحرهم، يرفع يده كما لم تعد ترفع الايدي منذ ان «ذلت الرجولة... واستسلمت الى الخذلان» بحسب عمر ابو ريشة. يرفعها ويمدها على اوسع نطاق كما لو كان يستسقي مطرا او يؤدي دوراً فروسيا على خشبة قروسطية. تميل برأسك بعيدا عن كفه وانت جالس لصقه، مخافة صفعة مرفقة بريح كثير، فيما هو ذاهل عما حوله وعمن حوله.

ومثل تشبيره المغاير لتشبيرنا نحن، كذلك كلماته الحادة مغايرة لبذاءات الاخرين. انها كلمات فارس حيث الشتيمة دائما مقرونة بالغلبة والغلاب الذي به تؤخذ الدنيا. والمغلوب هو من تدور عليه دوائر اللسان ومطاحنه.

وفي جلسة قبلان بك لا تكف عن تخيل الشيخ الفارس وهو يقتسم الغلة مع اقرباء خلص التفوا حوله عند الفجر، فراح يحدثهم عن بطولته وبراعته وهو يجني في عتم الليل ما خبأه من المحصول. ولا يفارقك الشعور بأن ما يجنيه قبلان ويقتسمه، يجنى في الليل حصرا، كأنما الليل مصنوع للفرسان الذين يتجرأون.

قبلان عيسى الخوري هو كلارك غيبل لو عاش عشر سنوات بعد ان رأيناه في «ذهب مع الريح». وهو ايضا سلفادور دالي قبل عشر سنوات من دون ان يستطيل شارباه استطالة شاربي الرسام الكبير. لكن الفئران التي اقامت في رأس دالي افسحت المجال لغرابة اخرى في رأس قبلان. غرابة فيها الكثير من العالم الرومنسي لروبن هود .

فنائب بشري السابق وزعيمها الأول له لبنانه وللاخرين لبنانهم، كما قال اديب بلدته المعروف. ولبنان قبلان يعيش ويموت في تلك البقعة الشمالية الشرقية حيث استقر التطور الاجتماعي على العشائر، ولم يسعفه الاقلاع نحو الطائفية والطوائف. مثل قبلان وامثلته من بشري والهرمل وعشائرهما. رموزه، ابطاله، اصدقاؤه من ذاك العالم حيث الدم وحمل الدم قوام وعماد.

ويستغرب قبلان حين لا تفهم عليه. تسأله، مثلا، عن رأيه في الخروج من الازمة اللبنانية. يضرب يده على الطاولة ويقول:

الحل بولاد يوسف الزين.

كيف يا شيخ؟

يستغرب استفهامنا وتستفزه غلاظة فهمنا، فيرفع صوته موضحا ومستاء:

يوسف الزين تزوج اربع نساء انجب منهن عددا كبيرا من الأبناء كان الابناء يختلفون على امور كثيرة، لكن حين كان يوسف الزين يضرب يده على الطاولة (وخبط قبلان يده) كانوا كلهم يصطفون صفا واحدا. هكذا يجب ان تكون العلاقة بين طوائف لبنان ورئيس الجمهورية.

الشيخ قبلان ممتلىء قناعة بأن المستقبل للعشائر. يعارض الطائفية استنادا الى ما قبلها: طوائف. طائفية.. اخت الطائفية. كلنا عشائر.

الجلسة البديعة مع قبلان عيسى الخوري لم يكن ينقصها الا سيف ومسدسان وما تيسر من شوارب وصهيل خيل.

البدايات الأولى

قبلان عيسى الخوري زعيم العائلة الثانية عددا في بشري بعد آل طوق، وهي عائلة رحمه الموسعة التي انيط بها تقليديا تمثيل الحساسية البشراوية ضد زغرتا، وآل فرنجية بالاخص. وهذا الموقع هو ما أملى على قبلان، كما سنرى لاحقا، الحفاظ على علاقة جيدة بالسلطة المركزية مهما تقلبت رموز الممسكين بناصيتها. اذ مثل هذه العلاقة هي ما يمكن ان يكبح الميل الزغرتاوي لـ «التوسع» في الشمال الماروني بما ينطوي عليه من تشكيل محور «مستقل» عن عمل المركز.

الا ان الموقع المذكور لا ينفصل عن انقسام مديد بين عائلتي التقليد السياسي البشراوي: مشايخ عيسى الخوري اي زعماء آل رحمه المقيمين في الحارة التحتا، ومشايخ حنا ضاهر اي زعماء آل كيروز الذين يقطنون الحارة الفوقا. ومع انكماش عدد أفراد الجب الضاهري آلت زعامة الاخيرين الى المونسنيور كيروز ومن بعده نجله النائب الحالي حبيب الذي عرف بتحالفه الوطيد مع آل فرنجية الزغرتاويين.

على اية حال فبعد ان نجح عيسى الخوري في تأسيس زعامة ذات نطاق شمالي وبقاعي، الشيء الذي سيتم التطرق اليه في ما بعد، استطاع ملحم، جد قبلان، ان يتقاسم قائمقامية بشري مع راجي ونجيب ضاهر الكيروزيين بما اتاح لنجله شبل، والد قبلان، ان يصل لاحقا الى البرلمان.

والدة قبلان المرحومة ماري عريضة من بشري ايضا، وهي تنتمي الى احدى عائلاتها الصغيرة التي انجبت البطريرك عريضة، فقيل ان عائلتين صغيرتين اعطتا بشري اديبها (والمقصود عائلة جبران) وبطريركها.

وفي اواخر ١٩٤٩ اقترن قبلان بالانسة تيريز كيروز ابنة المونسنيور وشقيقة حبيب، لكن هذا الزواج لم ينجب تحالفا سياسيا ثابتا بين العائلتين المؤثرتين وان انجب تعاونا متقطعا بين الفينة والاخرى.

ولئن صرع شبل عيسى الخوري، نجل قبلان الاكبر، في مواجهات الكورة في ١٩٧٦، فان كريمته ماري نويل تزوجت نبيل فضول ابن شقيق الدكتور يوسف فضول النائب السابق وذي الزعامة المحلية في حصرون والحدث اللتين تشكلان الركيزة الانتخابية الثانية بعد بلدة بشري في القضاء نفسه.

ولد قبلان في ١٩٢٠ في بشري، ودرس المرحلة الابتدائية في الاباء الكرمليين في البلدة نفسها لينتقل الى بيروت ومدارسها اليسوعية. وبرغم انجازه سنوات الحقوق الثلاث في الجامعة اليسوعية. فهو لم يمارس المهنة بسبب وفاة والده شبل عيسى الخوري في ١٩٣٦، والذي كان قد انتخب نائبا عن الشمال قبل عامين فقط.

ويبدو ان مشايخ عيسى الخوري او الفرع الزعامي في آل رحمة، قد انقسموا بعيد وفاة شبل الى فريقين، احدهما يؤيد قبلان مستمدا دعمه البيروتي من اميل اده و«الكتلة الوطنية»، والاخر يؤيد ابن عم والده الشيخ ندره الذي يحظى بتأييد الشيخ بشارة الخوري و«الكتلة الدستورية».

الا ان هذا الانقسام لم يكن ينسحب بالضرورة على المسائل التي تتعدى الحساسيات العائلية والبشراوية بدلالة تفاخر الشيخ قبلان بان الفرنسيين طوال انتدابهم لم يدخلوا بيته وبيت ابيه.

في ١٩٤٣ قر الرأي على ان يخوض قبلان المعركة الانتخابية، الى جانب عبد الحميد كرامي وحميد فرنجية، وكان الشمال لا يزال دائرة انتخابية واحدة. لكن رئيس الجمهورية ايوب ثابت الذي كان صديقا حميا لآل عيسى الخوري طلب الى قبلان ان يخوضها على لائحة راشد المقدم. وفيما كان الشيخ الشاب في بيت الزعيم الطرابلسي دخل الجنود البريطانيون واعتقلوا المجتمعين الذين باتوا ليلتين نياما على الحطب.

ويظهر ان قبلان فهم ان البريطانيين لن يدعوا مؤيدي اميل اده يحرزون انتصارات انتخابية في الاطراف، نظرا للاهمية القصوى التي ترتديها معركة ١٩٤٣ والاحتمالات الاستقلالية المتاحة.

اما في انتخابات ١٩٤٧ التي عرفت بتزويرها الشهير فدخل البرلمان الشيخ ندره المقرب من رئيس الجمهورية بشارة الخوري، فيما اندفع قبلان المعارض، بعد عامين، الى الانتساب لـ «كتلة التحرر الوطني» المناهضة للعهد برئاسة عبد الحميد كرامي وعضوية سامي الصلح وكمال جنبلاط والفريد نقاش وعمر بيهم وكميل شمعون وجواد بولس وسليمان العلي وغيرهم.

ويروي قبلان عن تلك الفترة قصة لا تخلو من دلالات. فقد تقرر في احد الاجتماعات التي عقدت في بيت الفريد نقاش اعلان الثورة المسلحة. و«السلاح والمسلحون لم يكونوا موجودين الا عندنا في بشري وبعلبك. وراح عبد الحميد يؤجل الثورة الى ان قصدته وقلت له: لقد هيأنا الشباب فمتى يبدأ العمل، فاجابني: من عقلك يا قبلان انا اقدم على مثل هذا العمل؟ لو اعلنا

الثورة لجلس ذاك القهوجي مكاننا وجلسنا نحن مكانه. الثورة خراب على لبنان والعرب....».

نحو البقاع

على اية حال ففي ١٩٥١ قرر قبلان ان يرشح نفسه عن محافظة البقاع بالتعاون مع صديقه الحميم صبري حماده. وقصة العلاقة بالبقاع متعددة الفصول مليئة بالتضاعيف والزوايا.

يروي قبلان: «العلاقة من زمان ببلاد بعلبك. انا منهم وهم مني. حتى اليوم حين اتوجه الى بلاد بعلبك البس العقال والكوفية والعباءة وامتطي الحصان. وحتى آخر انتخابات ظل صبري حين يشكل لوائحه يشكلها بالتفاهم معي. الهجرة من بشري نحو البقاع جعلت البشراويين يقطنون ١٤ قرية بعلبكية وحدهم او الى جانب عائلات بقاعية. عيناتا تقيم فيها عائلة رحمه، وبشوات عائلة كيروز، ونيحا، كيروز مع امهز البقاعية، وشليفا، كيروز مع معلوف البقاعية، والقدام، جعجع مع حدشيتي، وبتدعي، فخري، وصفرا، خضرا، والزرازير والقرنة، حبشي، ودير الاحمر، تقيم فيها عائلات بشري كلها الى جانب الديرانية كعائلة شواح وغيرها».

والراهن انه منذ ١٨٤٧ حظي الشيخ عيسى الخوري، جد العائلة، بوكالة عن عائلتي حماده وحرفوش الشيعيتين البقاعيتين فضلا عن وكالته عن المشايخ المسيحيين في الشمال. وتبعا للوكالة المذكورة اصر على اعتبار الهرمل وشمسطارجزءا من المتصرفية فكان له ذلك، وان ابقيت عيناتا وهي من املاكه خارج المتصرفية «اقتصاصا منه».

ونعود الى رواية قبلان: في ١٩٤٨ او ١٩٤٩ وفي عز خلافي مع الشيخ بشارة، جاء رجال التحري الى بيتي في مار نقولا ببيروت. كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. قالوا ان الشيخ بشارة ارسلهم. ماذا يريد؟ لا احد يعلم. وضعت فردين على خصري وتوجهت معهم الى القنطاري. وجدت بشارة بالعباءة ومعه رياض. قالوا ان بعلبك فيها مشاكل وضحايا بين عائلتي بويونس المسيحية وشريف الشيعية في اليمونة. انت وحدك الذي تستطيع ان تحلها لما لك من تأثير على الطرفين وكي لا تأخذ المسألة منحى طائفياً، وقد أعطينا علما للمحافظ بان يكون تحت تصرفكم.

وتوجه قبلان فوراً وحل المشكلة. لكن القصة لا تنتهي عند هذا الحد. فخلال وليمة المصالحة ظهر من يضع «علاماً» لصبري ويطالبه بان يصيبه، واستل صبري مسدسه واصاب الحجر فالتهب الجو بالف رصاصة فيما اتجهت الانظار الى قبلان.

قبلان قال في نفسه ان الورطة كبيرة. فاذا كرر ما فعله صبري لن يكون فعل شيئاً، واذا طلب «علاما» اصعب كانت الخطورة اكبر. وفي النهاية حزم امره وسألهم ان يضعوا سيجارة قائلاً في نفسه: يا «عضرا» ساعديني. وساعدته «العضرا»، وقصفت السيجارة نصفين، فاذا

ولئن صرع شبل عيسى الخوري، نجل قبلان الاكبر، في مواجهات الكورة في ١٩٧٦، فان كريمته ماري نويل تزوجت نبيل فضول ابن شقيق الدكتور يوسف فضول النائب السابق وذي الزعامة المحلية في حصرون والحدث اللتين تشكلان الركيزة الانتخابية الثانية بعد بلدة بشري في القضاء نفسه.

ولد قبلان في ١٩٢٠ في بشري، ودرس المرحلة الابتدائية في الاباء الكرمليين في البلدة نفسها لينتقل الى بيروت ومدارسها اليسوعية. وبرغم انجازه سنوات الحقوق الثلاث في الجامعة اليسوعية. فهو لم يمارس المهنة بسبب وفاة والده شبل عيسى الخوري في ١٩٣٦، والذي كان قد انتخب نائبا عن الشمال قبل عامين فقط.

ويبدو ان مشايخ عيسى الخوري او الفرع الزعامي في آل رحمة، قد انقسموا بعيد وفاة شبل الى فريقين، احدهما يؤيد قبلان مستمدا دعمه البيروتي من اميل اده و«الكتلة الوطنية»، والاخر يؤيد ابن عم والده الشيخ ندره الذي يحظى بتأييد الشيخ بشارة الخوري و«الكتلة الدستورية». الا ان هذا الانقسام لم يكن ينسحب بالضرورة على المسائل التي تتعدى الحساسيات العائلية والبشراوية بدلالة تفاخر الشيخ قبلان بان الفرنسيين طوال انتدابهم لم يدخلوا بيته وبيت ابيه.

في ١٩٤٣ قر الرأي على ان يخوض قبلان المعركة الانتخابية، الى جانب عبد الحميد كرامي وحميد فرنجية، وكان الشمال لا يزال دائرة انتخابية واحدة. لكن رئيس الجمهورية ايوب ثابت الذي كان صديقا حميما لآل عيسى الخوري طلب الى قبلان ان يخوضها على لائحة راشد المقدم. وفيما كان الشيخ الشاب في بيت الزعيم الطرابلسي دخل الجنود البريطانيون واعتقلوا المجتمعين الذين باتوا ليلتين نياما على الحطب.

ويظهر ان قبلان فهم ان البريطانيين لن يدعوا مؤيدي اميل اده يحرزون انتصارات انتخابية في الاطراف، نظرا للاهمية القصوى التي ترتديها معركة ١٩٤٣ والاحتمالات الاستقلالية المتاحة.

اما في انتخابات ١٩٤٧ التي عرفت بتزويرها الشهير فدخل البرلمان الشيخ ندره المقرب من رئيس الجمهورية بشارة الخوري، فيما اندفع قبلان المعارض، بعد عامين، الى الانتساب لـ«كتلة التحرر الوطني» المناهضة للعهد برئاسة عبد الحميد كرامي وعضوية سامي الصلح وكمال جنبلاط والفريد نقاش وعمر بيهم وكميل شمعون وجواد بولس وسليمان العلي وغيرهم.

ويروي قبلان عن تلك الفترة قصة لا تخلو من دلالات. فقد تقرر في احد الاجتماعات التي عقدت في بيت الفريد نقاش اعلان الثورة المسلحة. و«السلاح والمسلحون لم يكونوا موجودين الا عندنا في بشري وبعلبك. وراح عبد الحميد يؤجل الثورة الى ان قصدته وقلت له: لقد هيأنا الشباب فمتى يبدأ العمل، فاجابني: من عقلك يا قبلان انا اقدم على مثل هذا العمل؟ لو اعلنا

الثورة لجلس ذاك القهوجي مكاننا وجلسنا نحن مكانه. الثورة خراب على لبنان والعرب...».

نحو البقاع

على اية حال ففي ١٩٥١ قرر قبلان ان يرشح نفسه عن محافظة البقاع بالتعاون مع صديقه الحميم صبري حماده. وقصة العلاقة بالبقاع متعددة الفصول مليئة بالتضاعيف والزوايا. يروي قبلان: «العلاقة من زمان ببلاد بعلبك. انا منهم وهم مني. حتى اليوم حين اتوجه الى بلاد بعلبك البس العقال والكوفية والعباءة وامتطي الحصان. وحتى آخر انتخابات ظل صبري حين يشكل لوائحه يشكلها بالتفاهم معي. الهجرة من بشري نحو البقاع جعلت البشراويين يقطنون ١٤ قرية بعلبكية وحدهم او الى جانب عائلات بقاعية. عيناتا تقيم فيها عائلة رحمه، وبشوات عائلة كيروز، ونيحا، كيروز مع امهز البقاعية، وشليفا، كيروز مع معلوف البقاعية، والقدام، جعجع مع حدشيتي، وبتدعي، فخري، وصفرا، خضرا، والزرازير والقرنة، حبشي، ودير الاحمر، تقيم فيها عائلات بشري كلها الى جانب الديرانية كعائلة شواح وغيرها». والراهن انه منذ ١٨٤٧ حظي الشيخ عيسى الخوري، جد العائلة، بوكالة عن عائلتي حماده وحرفوش الشيعيتين البقاعيتين فضلا عن وكالته عن المشايخ المسيحيين في الشمال. وتبعا للوكالة المذكورة اصر على اعتبار الهرمل وشمسطار جزءا من المتصرفية فكان له ذلك، وان ابقيت عيناتا وهي من املاكه خارج المتصرفية «اقتصاصا منه».

ونعود الى رواية قبلان: في ١٩٤٨ او ١٩٤٩ وفي عز خلافي مع الشيخ بشارة، جاء رجال التحري الى بيتي في مار نقولا ببيروت. كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. قالوا ان الشيخ بشارة ارسلهم. ماذا يريد؟ لا احد يعلم. وضعت فردين على خصري وتوجهت معهم الى القنطاري. وجدت بشارة بالعباءة ومعه رياض. قالوا ان بعلبك فيها مشاكل وضحايا بين عائلتي بويونس المسيحية وشريف الشيعية في اليمونة. انت وحدك الذي تستطيع ان تحلها لما لك من تأثير على الطرفين وكي لا تأخذ المسألة منحى طائفياً، وقد أعطينا علما للمحافظ بان يكون تحت تصرفكم.

وتوجه قبلان فوراً وحل المشكلة. لكن القصة لا تنتهي عند هذا الحد. فخلال وليمة المصالحة ظهر من يضع «علاماً» لصبري ويطالبه بان يصيبه، واستل صبري مسدسه واصاب الحجر فالتهب الجو بالف رصاصة فيما اتجهت الانظار الى قبلان. قبلان قال في نفسه ان الورطة كبيرة. فاذا كرر ما فعله صبري لن يكون فعل شيئاً، واذا طلب «علاما» اصعب كانت الخطورة اكبر. وفي النهاية حزم امره وسأل ان يضعوا سيجارة قائلاً في نفسه: يا «عضرا» ساعديني. وساعدته «العضرا»، وقصفت السيجارة نصفين، فاذا

قبلان زعيم مكرس لا ينازع في البقاع .

ومرت السنوات وقبلان رائح غاد الى « بلاد بعلبك » ، الى ان اعلن السيد موسى الصدر في ١٩٧٤ عزمه على القيام بعمل مسلح ، فقصده زعيم بشري وقص على مسامعه ما سمعه من عبد الحميد كرامي قبل ربع قرن ، وطاف الاثنان معاً على الجوامع والكنائس في شليفا وبعلبك عاملين على تهدئة النفوس وابعاد اسباب التوتر .وعلى اية حال فقبلان لم يخض معركته في ١٩٥١ في البقاع ، الامر الذي حمل المفاجأة الى صديقه صبري : يا مجنون هنا لا يوجد من ينافسك بين الموارنة ، اما في الشمال فالمنافسون كثيرون !

قبلان نائبا شماليا

الانتقال الى الشمال املته حادثة يعرفها قدامى الشماليين. فقد نقل عن زعيم زغرتا حميد فرنجية قوله ان في وسعه ايصال اية خمسة اعواد يختارها الى البرلمان. وقبل قبلان التحدي خائضا المعركة على لائحة ضمت اليه انطوان اسطفان ويوسف كرم وكميل عقل وفؤاد دويهي وفيليب بولس. وشكل حميد لائحة ضمت بطرس طربيه ويوسف ضو ونقولا غضن ورينيه معوض وندره عيسى الخوري. وما ان انجلى الغبار حتى كان الفوز حليف جميع افراد اللائحة الاولى باستثناء فؤاد دويهي الذي حل محله حميد فرنجية.

في ١٩٥٣ ومع تغيير قانون الانتخابات وجعل البرلمان ٤٤ مقعدا لبشري واحد منها، تنافس قبلان مع سعيد طوق وانطوان اسطفان فكتب النصر لطوق، لكن بعد اربع سنوات نجح قبلان في ان يهزم كلا من طوق وحبيب كيروز نائلا ما يزيد عن مجموع ما ناله الاثنان.

وحين اندلعت حرب ١٩٥٨ وقف شيخ بشري في جانب الرئيس شمعون «الى الآخر»، من دون ان يترك الموقف آثارا سلبية على وضع الشمال بدلالة ان ٩٠٠ عائلة طرابلسية توجهت الى بشري صيف ذاك العام. وفي السنة التي تلت الحرب كان قبلان بين مؤسسي «حزب الوطنيين الاحرار» اذ صدرت «مأذونية» الحزب باسمه واسماء رضا وحيد وجورج عقل وكلوفيس الخازن.

وفكر قبلان بانشاء فروع للحزب في بشري والشمال، لكنه سريعا ما تراجع وصارح الرئيس شمعون بانه لا يحب الاحزاب ويفضل تحويل «الاحرار» الى «تكتل وطني».

بعد ذلك جاءت الحادثة التي تسببت بالفرقة مع الحزب من دون ان تؤدي الى فرقة مع شمعون.

يروي قبلان الذي تعصمه اخلاقه العشائرية عن المكيافيللية السياسية بشتى تأويلاتها لا سيما تأويلها الحزبي الرائج:

«في برلمان ١٩٦٤ كنت على خلاف مع كمال جنبلاط، لكن نجيب صالحة القى خطبة تهجم فيها بحدة على جنبلاط فيما كان غائباً. فتدخلت قائلا انه لا يجوز لزميل ان يتحدث بهذه

اللغة عن زميل غائب، وطلبت من رئاسة المجلس ايقافه عند حده وشطب كلامه من المحضر. وحين علم جنبلاط بالأمر زارني في الأرز».

لكن ما حصل في ١٩٦٤ لم يعدم مقدماته، ففي الانتخابات الأولى للعهد الشهابي (١٩٦٠) رسب قبلان الذي تحالف مع حسيب جعجع في مواجهة سعيد طوق وحبيب كيروز، لكنه نجح في ١٩٦٤ ومن بعدها في ١٩٦٨ متحالفا مع كيروز الذي نجح بدوره في المرتين. وفي تلك السنوات بدأ قبلان يتحول الى شهابي من نوع مختلف ، ساعيا هو والامير مجيد ارسلان الى التقريب والمصالحة بين الرئيسين شهاب وشمعون.

الا ان قبلان في ١٩٦٨ لم يتردد، فوقف مع الشهابيين ضد «الحلف الثلاثي» الذي اعتبره حلف تعصب ماروني كامل يقابل المحاولة الشهابية في«بناءمؤسسات». وكان في وسع شهابيته ان تدر عليه ما هو اكثر من المقعد النيابي،لولا مطالبته في ١٩٦٩ بمحاكمةالرئيس شارل حلووالجنرال اميل البستاني بتهمة الخيانة العظمى بسبب اتفاق القاهرة، فحين اقترح الياس سركيس على حلو توزير قبلان اجابه رئيس الجمهورية بالرفض القاطع.

وفي ١٩٧٢ فاز جبران طوق عن اللائحة التي يترأسها قبلان فيما فاز بالمقعد الثاني حبيب كيروز من اللائحة المقابلة ، الشيء الذي رأى فيه الشيخ البشراوي تدخلا رسميا ضده. يومها كان فرنجية الزغرتاوي سيد العهد.

بين زغرتا وطرابلس

مع اندلاع حرب السنتين حاول قبلان ان يكون همزة الوصل بين الزغرتاويين والقوميين السوريين في الكورة. فماضيه السياسي كقطب شمالي مناوىء للزغرتاويين جعله على علاقة وطيدة بكل خصوم آل فرنجية في الشمال بمن فيهم الدكتور عبد الله سعادة. والى ذلك عملت حرب السنتين على احداث درجة من التقارب مع الزغرتاويين تبعا للمخاوف الطائفية المشتركة.

ومع احتدام النزاع بادر نجله شبل الى قيادة «لواء » من المقاتلين البشراويين عرف بـ «لواء قاديشا»الذي انشىء على غرار ألوية تنورين وعكار وغيرها لأداء دورين في وقت واحد: من ناحية الدفاع عن الجماعة الطائفية والمنطقية، ومن ناحية اخرى الحؤول دون استثمار حزب الكتائب لأجواء التسلح والتسييس على حساب العائلات. وبعد مذبحة شكا التي تلت محاصرة الميليشيات المسيحية لمخيم تل الزعتر صرع شبل في احدى مواجهات الكورة كما سبقت الاشارة، وهي الحادثة التي ترتبت عليها نتائج شمالية بعيدة الأثر.

فقد اسست «اللجنة الوطنية في الشمال» التي ضمت نواب وزعماء المحافظة بهدف ابعادها عن مصادر التوتر الطائفي، وعهد برئاستها الى الشيخ قبلان، ويروي الأخير ان هذه التجربة اتاحت له ان يوطد معرفته بنائب زغرتا توني فرنجية بما تعدى التنسيق والتعاون الى المحبة

الصافية. صار توني مثل ابني، كما يقول قبلان الذي احس عند مصرعه ان «ابنه الثاني راح» ومع ان قيادة الدكتور سمير جعجع للهجوم على اهدن خلقت جو تحريض واسعا ضد البشراويين، الا ان مشاركة قبلان وسائر زعماء بشري في جنازة توني اسهمت في تحويل الغضب الزغرتاوي نحو الكتائب لا نحو بشري، بحسب تقدير قبلان.

ومنذ ذلك الحين راحت تتوثق العلاقة بين قبلان والرئيس فرنجية، حتى ان زعيم بشري يرى اليوم ان سليمان سيكون مرشحه الرئاسي الأوحد في ما لو اراد ان يرشح نفسه. انا وسليمان حال واحد، يقول.

لكن التقارب بين رجلين لا يعدمان الشبه في الكثير من طباعهما وجوانبهما الشخصية، فقد كلاهما نجله الأكبر، ترك اثاره على وضع قبلان في بشري نفسها. فبدورها توثقت علاقة الأخير بأقاربه الكيروزيين ذوي الهوى الفرنجي، من دون ان تسوء علاقته بآل طوق الذين انتقلت الى يدهم راية مناوأة الزغرتاويين. فحين اندلع الخلاف الدموي في ١٩٨٦ بين الطوقيين والكيروزيين التقت اراء الجميع على ان يكلف قبلان بترؤس لجنة المصالحة.

في غضون ذلك لم يفت قبلان تسجيل هذا الموقف او ذاك حيال مسائل سياسية طارئة، فقد تقدم بمذكرة الى الرئيس حافظ الأسد يعين فيها «مساوىء الاتفاق الثلاثي»، وتنقل عنه الزميلة «الديار» انه برغم حرصه على ايجابية العلاقة مع سوريا كما كانت في عهدي الرئيسين شهاب وعبد الناصر، فقد عبر عن رفضه امام احد المسؤولين السوريين بقوله «الاتفاق الثلاثي لن يمر الا بعد ان يموت آخر ماروني في وادي قنوبين».

وقبلان يكثر التحدث عن «التعايش الاسلامي - المسيحي الذي حكى عنه فرانسوا مورياك قبل ٤٠ سنة»، وعن تقدم الوفاق الوطني على السياسي، وعن المذكرة التي قدمها مؤخرا الى وزارة خارجية الفاتيكان يحث فيها على المبادرة لانقاذ لبنان.

ويروي احد البشراويين ان بشري اليوم هي في واقع الأمر «حزبان»، حزب المؤيدين لـ «القوات» وحزب المتعاطفين مع قبلان والملتفين حوله فهؤلاء الأخيرون وبينهم فعاليات ومؤثرون يرون في قبلان «ضمانة للاعتدال، خصوصا بسبب علاقاته مع الهرمل وطرابلس وزغرتا، ودمشق وتمسكه بالشرعية اللبنانية».

وهذا الانقسام الى «حزبين» هو ما عززته مشاركة قبلان في المهرجان الذي اقيم بمناسبة اربعين الرئيس رشيد كرامي، وهنا نعود الى رواية الشيخ البشراوي:

يقول قبلان: جاءني عشير الداية وقال: انتم الأقرب الى بيت عبد الحميد، وهي يمكنني ان اتردد في مناسبة كهذه.

ويستطرد: في ١٩٣٦ او ١٩٣٧ قتل عبد الحميد كرامي شخصا من آل المقدم حاول

التطاول عليه في احد شوارع طرابلس، وحين قر الرأي على اجراء مصالحة وافق عبد الحميد وآل المقدم ومعهم رياض الصلح وعمر بيهم على ان تتم المصالحة في بيت شبل عيسى الخوري في بشري، وبسبب بقاء عيناتا تابعة لدمشق بنيت علاقات وطيدة بين بيتنا والبيوتات السنية السورية. عطا الأيوبي كان يقول بيت خيي عيسى الخوري. وعندما نفي رضا الصلح كلف جدي ملحم بك ان يكون الوصي على نجله رياض كيف يمكننا ان نكون طائفيين؟

نعود الى مهرجان الرئيس كرامي. فمشاركة قبلان في مهرجان ابن عبد الحميد جلبت عليه المتاعب جاءه من يقول ان القوات قد تزعجه اذا ما عاد الى المنطقة الشرقية. قرر ان لا يعود وهو حتى الآن لا يعود برغم اعتذارات كثيرة تلقاها لكنه اصر على اعتذار مباشر من سمير جعجع. ومع هذا فقبلان لم ينقل النزاع الى بشري مؤثرا العمل على حصر الفتنة والبقاء ابا مترفعا.

اراء وملامح

قبلان عيسى الخوري ملاك اراض في عيناتا ودير الأحمر وبتدعي، لكنه زمنه المختار هو ذاك السابق على تحول الأرض الى نقود يتم تداولها في السوق.

فبهذا المعنى الأخيرة يعتبر قبلان فقيرا. واي معنى للمال الذي لا يصعب على قبلان تحصيله كيفما اتفق كما لا يصعب تبديده كيفما اتفق.

يقول: اقاربي يضعون كل ما يملكون تحت تصرفي، في انتخابات ١٩٥٣ لم اكن املك غير خمس ليرات وجاءني قريب يحمل لي شيكا بعشرة الاف ليرة قال انها ثمن تواتبي. اما اليوم، كما يضيف قبلان، فثمة عشرون شابا يحرسون بيته ليليا في الأرز غير عابئين بالبرد او الشتاء. سلاحهم وبنزينهم وكل شيء على نفقتهم ... استطيع الحصول على شيكات على بياض من بشري

وقبلان الذي يقول انه يطالع «النهار» و«السفير» و«الأوريان»، تزعجه السينما لأنه يعيش مع الفيلم بحسب تعبيره. الحاسم انه يحب الكتابة كثيرا. اطلعنا على عشرات الصفحات التي كتبها في اوقات سابقة، وهي اراء في السياسة والاحداث، وتلا علينا وعلى رواد مجلسه بعض الصفحات التي زدنا بها بعد انتهاء الجلسة الطويلة، ومما جاء في تلك الصفحات المكتوبة بخط كبير تتخلله اثار الرعشة وعدم السيطرة على القلم.

«أؤمن بوطني لبنان وطنا متحررا من العقد، متفهما العروبة حركة تحرر وتحرير للانسان العربي والعقل العربي. واطمح ان يصير «دولة علمانية» تحترم فيه حرية المعتقد ويتم التمييز بين الروحيات والزمنيات، فلا تختلط لدى المواطنين الأرض بالسماء. اؤمن به واحة للكل لا اكثرية فيه ولا اقلية، لأن الحق والخير الكمال والبطولة هي دائما اكثرية».

وهو يعتبر ان الاستحقاق الدستوري «الذي اصبح على الأبواب هو من اجل بلورة المواقف

الصافية. صار توني مثل ابني، كما يقول قبلان الذي احس عند مصرعه ان «ابنه الثاني راح» ومع ان قيادة الدكتور سمير جعجع للهجوم على اهدن خلقت جو تحريض واسعا ضد البشراويين، الا ان مشاركة قبلان وسائر زعماء بشري في جنازة توني اسهمت في تحويل الغضب الزغرتاوي نحو الكتائب لا نحو بشري، بحسب تقدير قبلان.

ومنذ ذلك الحين راحت تتوثق العلاقة بين قبلان والرئيس فرنجية، حتى ان زعيم بشري يرى اليوم ان سليمان سيكون مرشحه الرئاسي الأوحد في ما لو اراد ان يرشح نفسه. انا وسليمان حال واحد، يقول.

لكن التقارب بين رجلين لا يعدمان الشبه في الكثير من طباعهما وجوانبهما الشخصية، فقد كلاهما نجله الأكبر، ترك اثاره على وضع قبلان في بشري نفسها. فبدورها توثقت علاقة الأخير بأقاربه الكيروزيين ذوي الهوى الفرنجي، من دون ان تسوء علاقته بآل طوق الذين انتقلت الى يدهم راية مناوأة الزغرتاويين. فحين اندلع الخلاف الدموي في ١٩٨٦ بين الطوقيين والكيروزيين التقت اراء الجميع على ان يكلف قبلان بترؤس لجنة المصالحة.

في غضون ذلك لم يفت قبلان تسجيل هذا الموقف او ذاك حيال مسائل سياسية طارئة، فقد تقدم بمذكرة الى الرئيس حافظ الأسد يعين فيها «مساوىء الاتفاق الثلاثي»، وتنقل عنه الزميلة «الديار» انه برغم حرصه على ايجابية العلاقة مع سوريا كما كانت في عهدي الرئيسين شهاب وعبد الناصر، فقد عبر عن رفضه امام احد المسؤولين السوريين بقوله «الاتفاق الثلاثي لن يمر الا بعد ان يموت آخر ماروني في وادي قنوبين».

وقبلان يكثر التحدث عن «التعايش الاسلامي - المسيحي الذي حكى عنه فرانسوا مورياك قبل ٤٠ سنة»، وعن تقدم الوفاق الوطني على السياسي، وعن المذكرة التي قدمها مؤخرا الى وزارة خارجية الفاتيكان يحث فيها على المبادرة لانقاذ لبنان.

ويروي احد البشراويين ان بشري اليوم هي في واقع الأمر «حزبان»، حزب المؤيدين لـ «القوات» وحزب المتعاطفين مع قبلان والملتفين حوله فهؤلاء الأخيرون وبينهم فعاليات ومؤثرون يرون في قبلان «ضمانة للاعتدال، خصوصا بسبب علاقاته مع الهرمل وطرابلس وزغرتا، ودمشق وتمسكه بالشرعية اللبنانية».

وهذا الانقسام الى «حزبين» هو ما عززته مشاركة قبلان في المهرجان الذي اقيم بمناسبة اربعين الرئيس رشيد كرامي، وهنا نعود الى رواية الشيخ البشراوي:

يقول قبلان: جاءني عشير الداية وقال: انتم الأقرب الى بيت عبد الحميد، وهي يمكنني ان اتردد في مناسبة كهذه.

ويستطرد: في ١٩٣٦ او ١٩٣٧ قتل عبد الحميد كرامي شخصا من آل المقدم حاول

التطاول عليه في احد شوارع طرابلس، وحين قر الرأي على اجراء مصالحة وافق عبد الحميد وآل المقدم ومعهم رياض الصلح وعمر بيهم على ان تتم المصالحة في بيت شبل عيسى الخوري في بشري، وبسبب بقاء عيناتا تابعة لدمشق بنيت علاقات وطيدة بين بيتنا والبيوتات السنية السورية. عطا الأيوبي كان يقول بيت خيي عيسى الخوري. وعندما نفي رضا الصلح كلف جدي ملحم بك ان يكون الوصي على نجله رياض كيف يمكننا ان نكون طائفيين؟

نعود الى مهرجان الرئيس كرامي. فمشاركة قبلان في مهرجان ابن عبد الحميد جلبت عليه المتاعب جاءه من يقول ان القوات قد تزعجه اذا ما عاد الى المنطقة الشرقية. قرر ان لا يعود وهو حتى الآن لا يعود برغم اعتذارات كثيرة تلقاها لكنه اصر على اعتذار مباشر من سمير جعجع. ومع هذا فقبلان لم ينقل النزاع الى بشري مؤثرا العمل على حصر الفتنة والبقاء ابا مترفعا.

اراء وملامح

قبلان عيسى الخوري ملاك اراض في عيناتا ودير الأحمر وبتدعي، لكنه زمنه المختار هو ذاك السابق على تحول الأرض الى نقود يتم تداولها في السوق.

فبهذا المعنى الأخيرة يعتبر قبلان فقيرا. واي معنى للمال الذي لا يصعب على قبلان تحصيله كيفما اتفق كما لا يصعب تبديده كيفما اتفق.

يقول: اقاربي يضعون كل ما يملكون تحت تصرفي، في انتخابات ١٩٥٣ لم اكن املك غير خمس ليرات وجاءني قريب يحمل لي شيكا بعشرة الاف ليرة قال انها ثمن تواتبي. اما اليوم، كما يضيف قبلان، فثمة عشرون شابا يحرسون بيته ليليا في الأرز غير عابئين بالبرد او الشتاء. سلاحهم وبنزينهم وكل شيء على نفقتهم ... استطيع الحصول على شيكات على بياض من بشري

وقبلان الذي يقول انه يطالع «النهار» و«السفير» و«الأوريان»، تزعجه السينما لأنه يعيش مع الفيلم بحسب تعبيره. الحاسم انه يحب الكتابة كثيرا. اطلعنا على عشرات الصفحات التي كتبها في اوقات سابقة، وهي اراء في السياسة والاحداث، وتلا علينا وعلى رواد مجلسه بعض الصفحات التي زدنا بها بعد انتهاء الجلسة الطويلة، ومما جاء في تلك الصفحات المكتوبة بخط كبير تتخلله اثار الرعشة وعدم السيطرة على القلم.

«أؤمن بوطني لبنان وطنا متحررا من العقد، متفهما العروبة حركة تحرر وتحرير للانسان العربي والعقل العربي. واطمح ان يصير «دولة علمانية» تحترم فيه حرية المعتقد ويتم التمييز بين الروحيات والزمنيات، فلا تختلط لدى المواطنين الأرض بالسماء. اؤمن به واحة للكل لا اكثرية فيه ولا اقلية، لأن الحق والخير الكمال والبطولة هي دائما اكثرية».

وهو يعتبر ان الاستحقاق الدستوري «الذي اصبح على الأبواب هو من اجل بلورة المواقف

لانقاذ لبنان» واصفا التركيبة اللبنانية بانها تشبه المثل الصيني القائل ان اليد مؤلفة من اصابع مختلفة لكنها لا تتكامل بغير ذلك. مشددا على التعايش المشترك واحترام الحريات، متوقفا عند عدم حل القضايا الأساسية التي عاناها لبنان في عهوده السابقة، وتبعثر الولاء للوطن.

الجلسة مع قبلان عيسى الخوري كانت في الشقة الأنيقة لصديقه الطرابلسي واصف الغندور في بناية السيف قرب السفارة السوفياتية، زواره حضروا معنا النصف الأول من الجلسة التي صارت مجلسا وديوانا، وهنا قرأ قبلان كما اطلع الحضور على صوره مع البابا. اما النصف الثاني فكان في غبفة النجو التي اشيع الدخول اليها كما حال سائر الزعامات الشعبية في الريف.

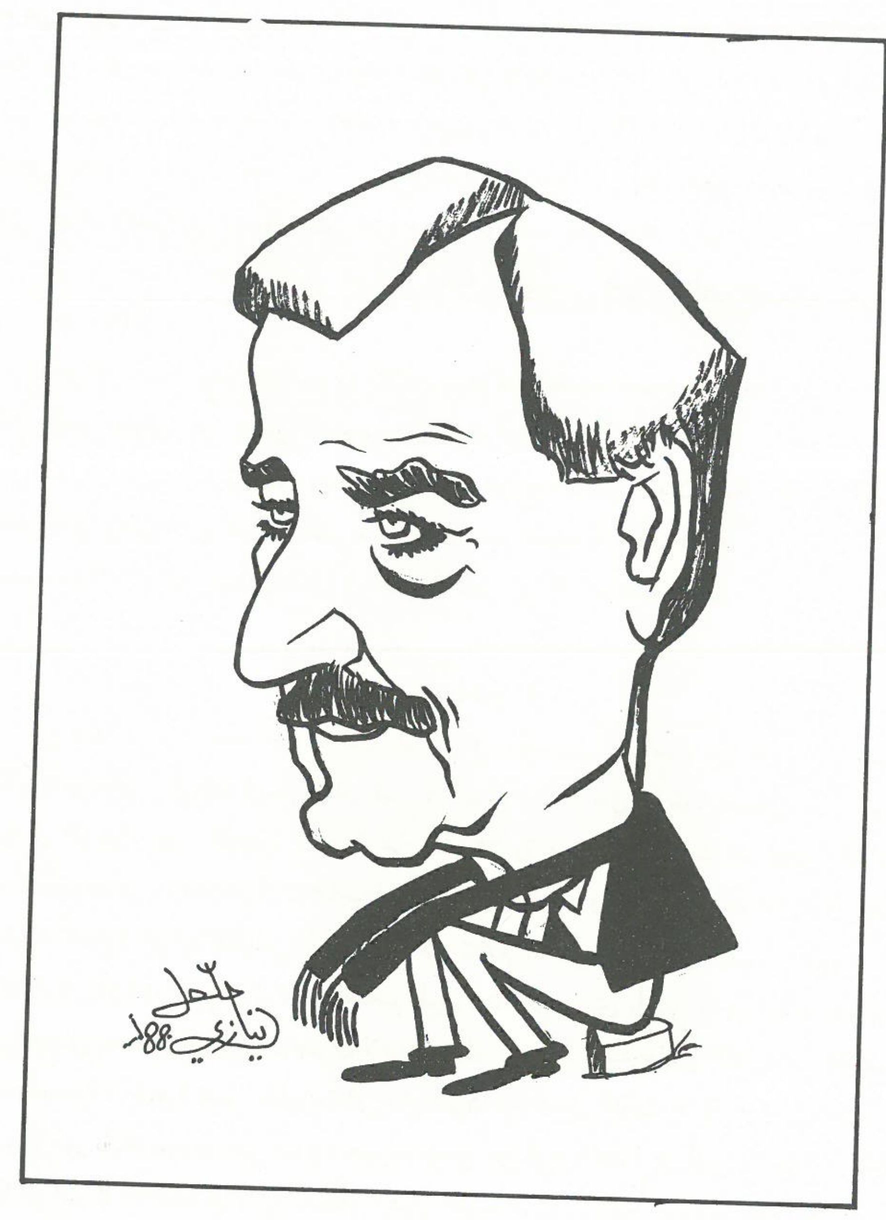
تحدث قبلان كثيرا، وغالبا ما توقف وتأمل وتحسر: انكم تذكرونني بماض بعيد. وبلهجة هي خليط من البشراوي والزحلاوي كان يخاطبنا عند استهلال العبارة بـ «يا بيك» وهي طريقة تلازمه في مخاطبة الآخرين، واحيانا يستعين بفرنسية فخمة تخال انها الفرنسية كما درجت في الارساليات الأولى على تدريسها. اما الفصيح فلم يوفق البيك دائما فيه، فتسمعه ينقل النقاط من حرف الى اخرفي الكلمة نفسها كأن يقول «المرخاص» وهو يريد «المرحاض»، ان ان يقول «بالثاني»، وقصده الواضح «بالتالي».

وقبلان طويل لا يزال جسمه يحتفظ بالرشاقة، اما الفارس فيه فيشي به الشاربان اللذان ارخاهما قبل سنتين فحسب، وهما معقوفان قليلا الى الأعلى كأنه بهما يجري مصالحة مع السائر والدارج.

الشعر خفيف من الوراء، ابيض ورمادي على الطرفين وفي الوسط بما يكسب صاحبه قدرا واضحا من المهابة، والجبهة التي عرفت بتقطيبها عند الغضب تظلل حاجبين مقوسين، يظللان بدورهما عينين صغيرتين بنيتين وحادتين تكثران من الرفة وكأن حساسية ما بهما.

«ديك المجلس» كما لقب قبلان تدليلا على كونه شيخ شباب، طلب مرة وهو في برلمان ١٩٥٧ ان يؤتى له بـ «فرودتي» ، لأن النائب الراحل معروف سعد هدد بإعادة احداث ١٨٦٠ . . باطل! وطلب قبلان ان يعتذر معروف ويشطب كلامه من المحضر. ولأن معروف، كما يصفه قبلان، رجل كبير وسمح، بادر الى الاعتذار وقبل قبلان .

هكذا تحل المشاكل بين الرجال، اذ الناس في آخر المطاف لا ينقسمون الى رجال وجبناء، كبار وصغار، هذه عقيدة قبلان.



جبران طوق

في جبران طوق ، النائب ، اجتمعت تناقضات يكاد الرجل ان يكون حصيلتها الامينة .
فهو من بشري التي تتواجد فيها قوات الردع السورية، ومنها الدكتور سمير جعجع قائد «القوات اللبنانية». وهو من مشايخ بشري لكنه دكتور في الاقتصاد ايضا. اي انه الدكتور الشيخ او الشيخ الدكتور . وهو شيخ لكنه انكليزي الهوى درس على الانكليز وحاول التشبه بهم في الشكل والمظهر والتفكير. وهذه عادة الشيوخ الدروز لا الموارنة . وهو اعطي اسمه تيمنا بجبران خليل جبران البشراوي ايضا، لكن همزة وصله بالادب ومتفرعاته واهية جدا.

هل من اسم واحد يا شيخ جبران؟ تسأله. يجيب : جبران خليل جبران.

بعدنا محلنا.

وجبران دمث لطيف متواضع في كلامه، وحركته وتقديمه نفسه، ومع هذا هو بشراوي.
والمثل المحلي يقول، مع بعض التحوير، ان البشراوي آخر من يرقص.

لكن التناقض الابرز الذي يعيش في جنبات الشيخ الدكتور، وان لم يكن بالطبع اللبناني الوحيد الذي ينطوي على هذا التناقض، هو الجمع بين العشيرة والمال المهجري. والمال الاخير يتجسد مصرفا ونشاطا وسيطا وافكارا في حقل لا تطؤه في العادة قدما العشيرة، اي الاقتصاد الحديث.

اجيال في الهجرة

من غانا نبدأ . فجد جبران كان من اوائل المغتربين اللبنانيين الى غانا، المستعمرة الانكليزية يومذاك، الواقعة في غربي افريقيا، في جوار غينيا والمالي. وغانا احدى بلدان الثروة الماسية في افريقيا. ومن التجارة المتفرعة عن هذه الثروة غرف جبران بعد ان غرف والداه.

ملحم طوق ، والد جبران ، هاجر ايضا كما فعل والده، وربطته صلة معرفة وثيقة ببعض الفاعليات الغانية المؤثرة ككوامي نيكروما الذي تزعم العمل الوطني في بلده، وبقيادته نيل الاستقلال في ١٩٥٧ . وفي غانا تعرف ملحم طوق بفتاة هي ماري باسيل هاجر ذووها بدورهم من موطنهم في حدث الجبة. وجد جبران لامه، دانيال باسيل، وجيه عائلته الكبيرة في الحدث.

واستمرت الهجرة تفعل فعلها وتنشىء اواصرها مع الجيل الثالث الذي هو جيل جبران.
فاقترن الاخير بفتاة مارونية هي ماري جوزيه يونس من قرنة الحمرا في المتن الشمالي، هاجر والدها الى اميركا اللاتينية كما يدل اسمها، وهناك اصبح من كبار التجار وعلية القوم. ولئن كان اخوال الزوجة من مشايخ آل طعمة في انطلياس قد عرفوا بدور سياسي محلي مشوب بالوجاهة، فان المصرف والتجارة طغيا ايضا على العائلة المذكورة التي جمعت الرأسمالية الحديثة وتقنياتها الى مشيخة ضاربة جذرها في القرية.

ومن زواجه انجب جبران طوق ثلاثة ابناء هم ميريام (٢٠ سنة) وهند (١٨) وملحم

(١٥)، ولان فرخ البط عوام كما يقولون، لم تتردد كريمته الكبرى في ان تدرس «بيزنس». فوالدها الذي انتقل من الفرير والمدرسة الاميركية للصبيان في طرابلس الى الجامعة الاميركية في بيروت، رسا مركبه في «مدرسة لندن للاقتصاد» حيث تناولت اطروحته «التطورات المالية والمصرفية في لبنان منذ العهد العثماني». وفي ١٩٦٠ اصبح جبران دكتورا وهو في والعشرين من عمره.

وفي موازاة الاسفار ما بين لبنان وغانا وبريطانيا، بادر الشيخ الدكتور الى تأسيس «بنك الاشغال التجاري» في ١٩٦٠ ، وظل رئيس مجلس ادارته ومديره طوال اثني عشر عاما، الى ان باع بعض اسهمه في ١٩٧٥ لـ «هندلوفي بنك» الالماني الغربي. واهتم جبران بالاعمال التجارية المثلثة مؤسسا شركة مساهمة لتعاطي النشاطات التجارية بين اليابان وافريقيا، ومساهما في تأسيس معمل عرق أبي سعدى.

وعناصر الوعي المهجري في كلام جبران لا يخطئها السمع ، خصوصا وان التبشير هو روح كلامه في هذا الباب . فهو يردد بثقة فعل ايمانه بـ «الانسان اللبناني»، رغم وضعنا التعيس الحالي . اللبناني لبناني. من يقيم اليوم في الخارج يكتسب ويتطور. وسوف يعود مع استتباب الامور. هذا تراث اللبناني . اللبناني بماذا يتميز ؟». ويتدخل الدكتور في كلام الشيخ فيبث شيئا من الارقام والتحليل : «لقد جنى اللبنانيون نتيجة هجرة الحرب ما يتراوح بين ٣٠ و ٦٠ مليار دولار. المغتربون ينتظرون العودة. لا نريد ان تعود الاموال الى لبنان دفعة واحدة. كثرة الدفق المالي تأتي بالتضخم والتخمة . نريد ان يلجأ المهاجرون الى تشغيل ثرواتهم انطلاقا من لبنان . هذا يحرك العجلة الاقتصادية والمهاجرون على احر من الجمر».

آل طوق

عشيرة جبران ، آل طوق ، اكبر العائلات السبع الموسعة في بشري، وهي على التوالي : طوق، رحمة (عيسى الخوري)،سكر، جعجع، كيروز، فخري، وشدياق، والانقسام العصبي بين العائلات المذكورة يتجسد في استقلال سكني قوامه الانقسام الى حارتين وانقسام الحارتين بدورهما الى احياء. والحارتان ترتبط تقليديا الواحدة منهما بالاخرى بالمسافة التي تفصل بين عائلات كل منهما. وما ينطبق على الحارة ينطبق على الحي .

ففي الحارة التحتا اقامت عائلتا رحمة وجعجع، من دون ان تخفى الحساسية بينهما. وفي الحارة الفوقا سكنت عائلات طوق وكيروز وسكر وفخري. فكانت الاولى عائلة العدد الاكبر والافقر نظرا لوفرة مربي الماشية وصغار المزارعين فيها. وكانت الثانية عائلة الجاه والتقليد السياسي في حارتها مقابل رحمة في الحارة التحتا. وكان من اللافت وذي الدلالة الاجتماعية البارزة ان البشراويين يوم نزحوا الى بيروت شأنهم شأن سائر الريفيين، نقلوا هذا الانقسام السكني معهم.

فأقام ابناء طوق وسكر في الدكوانةوسكن افراد رحمة وجعجع في الدورة وعين الرمانة : فوقا وتحتا في بيروت ايضا.

وقدر لبشري ان تعاني وطأة التحول السياسي ـ العائلي بهذا المعنى. اذ فضلا عن تعارض رحمة وكيروز، اضاف الطوقيون مستجدات يصعب التغافل عنها. فقد افضى اندفاع العائلة نحو الصدارة السياسية مرفقا بكثافة سكانية هي الارفع في البلدة الكبيرة، الى احتدام النزاع الاهلي بينها وبين الكيروزيين اصحاب الاحتكار السابق في الحارة الفوقا. ولئن فشل اقتران شقيقة جبران بأحد الكيروزيين في تسكين النزاع، فان التحالفات «الخارجية» كان لها فعل الاذكاء والمفاقمة. اذ في مقابل الحلف التقليدي بين آل كيروز وآل فرنجية في زغرتا، بحثا عن ظهير وعضد، التفت آل رحمة ومن بعدهم آل طوق الى آل دويهي ممن شرعوا منذ اواسط الخمسينات يناهضون الزعامة الفرنجية مدعومين من العهد الشمعوني وعدو العدو صديق.

وبدوره عمل تجديد الطوقيين لزعامتهم على تأجيج النزاع المتداخل على نحو وثيق مع توزيع المقاعد الانتخابية بحسب الاقضية. فبشري ، تبعا لهذا التوزيع ظلت حتى ١٩٦٠ تحظى بمقعد واحد في البرلمان. ومنذ ذلك الحين باتت تحظى بمقعدين. فيما العائلات الطامحة سبع !

وقبل ان يطل جبران كان زمام العائلة في يد الشيخ سعيد طوق، ابن عم ملحم والد جبران، وقد فاز سعيد في انتخابات ١٩٥٣ و ١٩٦٠ بذاك المقعد النيابي. بيد ان الشيخ سعيد الموصوف بالبساطة وقلة الحيلة وضآلة العلم، غير الشيخ الشاب جبران الحامل في يمناه الثروة، وفي يسراه شهادة الدكتوراه، والمتحمس لانشاء الاندية الشبابية في بشري وجوارها.

وهكذا جاء ترشيحه للانتخابات العامة في ١٩٧٢ بمثابة انقلاب في العائلة والبلدة على السواء. وعمل آل فرنجية ، بحسب ما اتهموا، على محاربة النجم الصاعد، فلم يكتفوا بدعم حليفهم التقليدي حبيب كيروز، بل اوعزوا ليوسف الطري طوق، شقيق سعيد، ان يخوض المعركة الانتخابية هو ايضا، بما يؤدي الى تجزئة اصوات الطوقيين. وهكذا كان. لكن صرخة التعبئة ضد النفوذ والتدخل الزغرتاويين فعلت فعلها، ونجح جبران ونال اعلى نسبة من الاصوات. وبدا هو وحده منافس آل كيروز اذ ان خصمهم الاخر قبلان عيسى الخوري لم يسعفه الحظ. وكان لبشري نائبان لدودان : جبران طوق وحبيب كيروز.

ورفض جبران، بعد اربع سنوات، ان يرد الصاع صاعين للرئيس فرنجية. اذ غلب الموقف السياسي للطائفة على النزاعات المحلية، مؤثرا عدم التوقيع في آذار ١٩٧٦ على العريضة النيابية التي طالبت فرنجية بالاستقالة من الرئاسة. وحسنا فعل اذ امتص سببا آخر للتوتر بين زغرتا وبشري.

على اية حال، فبعد فترة قصيرة على انتخابات ١٩٧٢ تعرض جبران لمحاولة اغتيال جرح

بنتيجتها كادت شرارتها تمتد الى زغرتا وتصير لهيبا. علما بان بداياتها تفرعت عن خلاف مع شبان من آل كيروز، في ٢ آب من العام نفسه.

بشري وزغرتا والسياسة

الراهن ان نزاع آل طوق، ومن قبلهم آل رحمه، مع آل فرنجية، كان ترجمة لنزاع مديد بين بشري وزغرتا. ولا يعدم من يرد المصادر التاريخية البعيدة لهذا النزاع الى زمن انتساب اهل بشري للمذهب اليعقوبي الذي عارضه الزغرتاويون ووقفوا في وجهه.

الا انه وتبعا للتراتب الاجتماعي والسياسي العثماني كانت بشري ارفع مقاما من زغرتا ومصيفها اهدن، بدلالة ان مقدمها هو الاعلى مرتبة الذي يجلس على يمين بطريرك الموارنة. وكانت لعائلات بشري كلمتهم التقريرية في اختيار البطريرك، خصوصا وان مقره الصيفي، الديمان، هو في عهدتها . الى ذلك مكثت بشري في القرن الماضي، وقبل ان تبدأ هجرة عائلاتها الى دير الاحمر في البقاع، اكبر عددا وحجما من زغرتا. وظلت هناك على الدوام مشكلة عالقة بين البلدتين محورها الارض الفاصلة التي لم تشملها اعمال المسح.

ومر التوتر الزغرتاوي ـ البشراوي في محطتين اساسيتين: اولاهما في ١٩١٢ حين احرق البشراويون كنيسة اهدن، وقد شهدت تلك الفترة انفجار احتقانهم بسبب انتقال الرجحان الاقتصادي والسياسي الى زغرتا. وكان هذا الرجحان بدأ يشق طريقه اواخر القرن الماضي مع يوسف بك كرم، وتعهده من ثم قبلان وحميد فرنجية. اما المحطة الثانية فكانت الصدام الدموي في ١٩٤٤ عندما صرع النائب البشراوي وهيب جعجع وفاز بدلا عنه في محافظة الشمال الزغرتاوي يوسف كرم، حفيد يوسف بك. وكان من نتائج الصدام المذكور مصرع موريس معوض، احد وجهاء زغرتا.

وهكذا فحين وصل سليمان فرنجية الى رئاسة الجمهورية في ١٩٧٠ كان المعنى المحلي لوصوله تكريس زعامة الشمال المارونية في اليد الزغرتاوية. وبدت العيارات النارية التي تطلق ابتهاجا وبغزارة في اهدن كأنما تطلق على بشري التي آثر اهلها اغلاق ابواب بيوتهم والنوم باكرا. وبرغم التحالف الذي شاب السنوات الاولى من الحرب الاهلية، فحين اقدم البشراويون على قتل زغرتاوي، رد الزغرتاويون بقتل ما يزيد عن عشرة بشراويين، الحدث الذي اتاح للشاب الكتائبي يومها سمير جعجع ان يعبىء اهل بشري ضد زغرتا. وقد انفجرت التعبئة في مذبحة ١٩٧٨ الشهيرة عند الهجوم الدموي على مقر آل فرنجية.

ونسأل جبران طوق: لنفترض انك اقدمت على ترشيح نفسك للانتخابات الرئاسية. فاي موقف تتوقع ان يأخذه الرئيس فرنجية؟

يصمت. يبتسم. ثم يقول: يؤيدني بوصفنا شماليين.

جبران طوق لم ينتم سابقا لحزب ولا تعاطف مع حزب. وحين تسأله عن صلته بالكتائب كما راج في بدايات الحرب الاهلية، ينفي، ويضيف ان الخصومة مع آل فرنجية اضطرته للتقارب مع الكتائب. خصوصا وان اقاربه من آل طوق المقيمين في الكورة ما لبثوا ان وجدوا انفسهم وجها لوجه مع الزغرتاويين.

ويبدو ان ما عزز تحالف جبران طوق والكتائب قيامه في حرب السنتين بتمويل كميات من الاسلحة التي وفدت الى بشري وتوزعها شبان عائلاتها. لكن جبران اليوم بعيد عن التطرف نادم عليه كما يوحي.

تراجع معه بعض مواقفه السياسية المعروفة، وبعض ما يقع على ضفافها:

انتخبت بشير الجميل. لماذا؟

اعتبرنا المعاناة انتهت. واعتقدنا ان الوضع الاقليمي والدولي ملائم للحلول. مع مرور الزمن يتعلم المرء ويتغير. تعلمت انه مهما كان المرء قويا وصالحا لا يحصل على شيء ما لم تكن الظروف مواتية. والعكس صحيح. تعلمنا ان لا خلاص بوجود قوة عظمى واحدة. لا خلاص الا بمؤتمر دولي اميركي - سوفياتي حول الشرق الاوسط ككل. يرافقه توافق لبناني - لبناني.

تجربة الرئيس الحزبي هل نجحت في تقديرك؟

لا. لان المعادلة اللبنانية لم تتقبلها. لا وجود عندنا لاحزاب بمعناها الغربي تضم كل الطوائف والمناطق. حظ امين الجميل وظرفه لم يكونا ملائمين.

والاتفاق الثلاثي الذي شهد قصر جبران طوق في النقاش «مؤتمر» المعارضين له؟

الاتفاق الثلاثي عارضته لانه لم يكن متوازنا.

جبران يعرف ولا يعرف

جبران طوق الذي التقيناه في مكتب المجلس النيابي بقصر منصور مرتب الشكل، جميل الوجه، صغير الرأس متناسقه، ذو عينين زرقاوين مشوبتين بالخضرة، معتدل الطول مع ميل الى القصر، ضعيف من دون نحول. شعر قصير قصته انكليزية وشاربان يكادان يكونان مرسومين بالشعر لا اكثر. اناقة انكليزية هادئة ومطمئنة: سترة وبنطلون بدل الطقم. يستمع جيدا وبحرص. يعبر بيديه وبقبضتيه المتلاحمتين والمشدودتين لكنه يعبر من دون توتر. وهو رصين الطلة، بسيط، ودود ومهذب، يتحدث ببطء ونعومة تنسى معهما انه بشراوي، برغم انه يقهقه احيانا على الطريقة البشراوية. وهو لا يتذاكى ولا يتشاطر مطلقا. وبين بداية اللقاء ونهايته يمنحك شعورا دافئا انك اكتسبت صديقا، لكنك لا تستطيع طرد شعور خفي بان خبيثا يقيم في صدر هذا الصديق المحتمل الذي يقول بعض عارفيه انه اضاف تهذيب الانكليز الى تقيَّة المشايخ الطوقيين.

وجبران يقرأ المجلات الاجنبية. يسمي «تايم» و«نيوزويك» و«ايكونوميست». ويتوقف عند «ريدرز دايجست» المعروفة بالتبسيط والانتقائية وتسليح قارئها بـ «ثقافة» ما قبل النوم في كل المسائل والميادين. وهو يتابع الزوايا الاقتصادية في المجلات. كذلك يطالع الصحف المحلية حدثا وتعليقا، وتغطية اقتصادية بالطبع

الصفحات الثقافية؟ قليل.

الكتب؟ قليل. الا الاشياء التاريخية. مؤخرا مثلا قرأت عن تاريخ لبنان. اقرأ عندما يكون هناك مجال.

ادب وشعر؟ لا وقت عندي.

ادباء وشعراء؟ جبران. جبران. كله، الاجنحة المتكسرة. أنا عضو في لجنة جبران. متحمس لتنشيطها، لكن..

المسرح والسينما؟ احب الافلام والمسرحيات الحلوة. احضر حوالي ١٠ افلام في السنة.

الفنون التشكيلية؟ اهتم بالفن الذي يعني لي كثيرا. ليس لدي عمق في فهمه.

معرفة بالعالم العربي؟ زيارات عابرة لبلدان عربية.

بريطانيا؟ كثير الاسفار اليها. عندي اشغال خاصة هناك. عندي شقة.

السياسة البريطانية؟ معجب بسياستهم اتابعها.

تفاصيل يا جبران. بالله عليك تفاصيل. عبث.

نجوم؟ متأثر بمارغريت تاتشر. أؤيد سياستها النقدية ونجاحها في ضبط النقابات. كذلك تشرشل وديغول. والان ريمون بار المرشح الرئاسي الفرنسي. عربيا، حافظ الاسد ذكي وديبلوماسي ولعب ادوارا في المنطقة ويجيد استخدام وتوظيف السياسة الدولية. شخصية حسين تعجبني.

ولبنانيا، فؤاد شهاب حاول ان يضع اسسا.

نسأله عن بشارة الخوري ورياض الصلح، يجيب: ارتبط دورهم بتلك الفترة. فعلوا احسن الممكن في ظروفهم. لم تكن مرحلة جيدة كما يتبين الآن. ربما كانوا يعتقدون ان المعادلة سوف تتغير لاحقا، عموما عملهما لم يخلق مواطنية صحيحة، برغم حسن نواياهما.

هل لجبران طوق اصدقاء بين السياسيين المسلمين؟

كثيرون. يسمي بعضهم، يضيف: نحن في بشري عائلات تربطنا صلات كثيرة بالمسلمين. السيد حسين الحسيني يسألني عن افراد يعرفهم من آل طوق.

وجبران طوق الذي يكثر من استعمال تعبيري «فلسفة» و«فلاسفة»، يرى الى الغاء الطائفية السياسية بالتدريج. يقول ان التعدد قد يكون علامة غنى. يدعو الى التعايش المشترك

والى البقاء في العالم العربي، يؤكد ان اسرائيل اخلال بالمعادلات وقد تتعارض مع لبنان، لكنه يحذر بحساسية رجل المصرف من اللاسامية ،من النظر الى كل ما هو يهودي بوصفه عدوا، يقر بعدم وجود ولاء للبنان في السابق «ولألف سبب وسبب».

ويطالب بقوة بالذراع الأمنية التي لم يستطع لبنان استعمالها منذ ١٩٤٣ ويتوقف عند المشكلة اللبنانية من زاوية انه: لو نزل الجيش. .

وعند جبران طوق لا بد من لا مركزية موسعة، او صيغة فيدرالية ما. المهم في لبنان التوافق والتعايش.

والمشاركة؟ لا يستطيع رئيس الجمهورية ان يكون صاحب القرار الوحيد.

العلاقة اللبنانية ـ السورية؟ لا راحة نهائية الا بتنظيمها، على المحاولة ان تستمر لأنه ليس لدينا خيار آخر . صعبة لكن لا بد منها. طبعا هناك خطوط حمر، الا ان المطلوب يبقى بناء جو من الثقة. لسوء الحظ فقدت الثقة بين الرئيس الجميل ودمشق بعد «الاتفاق الثلاثي» وبسببه. المهم البحث عن مخارج وهذا هو دور الديبلوماسية. والوقت عامل مهم في علاقات الدول.

يبدو جبران مرتبكا حيال هذه المسألة. يستطرد:

شو بدنا نعمل؟ الرئيس الياس سركيس لم يكن عنده لا جيش ولا صواريخ.

يعود طوق الى الولاء للبنان: كيف يجوز كما حصل في ١٩٧٥ ان يصير الفلسطينيون جيش المسلمين اللبنانيين؟ المهم عنده ان يتفق اللبنانيون على كتاب واحد وثقافة وطنية واحدة، وتربية واحدة. هذا في عرفه ما خلق المواطنية الأميركية برغم كثرة المهاجرين وتعدد مصادرهم وحداثة وفادتهم.

وجبران اكثر تشديدا من باقي رفاقه في «تجمع نواب الموارنة المستقلين» الذي هو عضو فيه منذ ١٩٧٨، على فيدرالية الطوائف. انا واقعي، يقول، ويكرر: لا بد من المركزية الموسعة الادارية والانمائية والأمنية.

والسياسية؟ ما معناها؟ انا مع توحيد لبنان. اذا ما حصل التقسيم قد لا اعيش هنا.

في الاقتصاد يمد جبران رجليه ويتحدث براحة، وهو رئيس لجنة الاقتصاد النيابية منذ ١٩٧٢. لقد اقترح منذ ١٩٧٦ صيغة العقود الداخلية، وها هو يشرح: التضخم هو الآفة وهو يتأتى عن عجز في الموازنة قوامه تزايد حجم الانفاق على حجم الدخل. هذا ما بدأ يظهر منذ حرب السنتين بسبب السطو من قبل المسلحين . وراح العجز يتراكم والكتلة النقدية تضغط على الأسعار. لهذا فالحل الأقل سوءا ان تحصل الدولة على قروض يؤدي صرفها الى التخفيف من الكتلة النقدية وتاليا من التضخم.

لكن هذه السياسة لم تنجح؟

لأن العلة مستمرة وهي السيطرة الكاملة على الموارد. طبعا ليس هناك من حل في هذه

الظروف . لكن في الوسع التخفيف من حيث المبدأ بدل ان نصرف المليارات. . . انا اول من نادى برفع الدعم وبالحاح منذ ١٩٧٦ . الكثير من المواد المدعومة يتعرض للتهريب .بالنسبة للذهب لم يؤيدني احد في البرلمان. كان رأيي ان يصار الى تسييل الذهب تدريجيا وتحويله الى سلة عملات عندنا ثروة ذهبية تقدر بـ ٥ مليارات دولار. نأخذ عليها فوائد في حدود ٤٠٠ ـ ٥٠٠ مليون دولار. وبهذا نسدد فواتير البنزين والقمح.

من ينفذ هذه العملية في ظل الخلاف السياسي؟

ليؤت بمؤسسة دولية يثق بها الجميع. الكل متفقون على وفاق اقتصادي ـ مالي حتى لو ترك الوفاق السياسي جانبا. لأن الكل يدفعون الثمن.

الدولار؟ تقدير جبران انه سينخفض الى ٢٥٠ ليرة نظرا لكثرته في الأيدي والاضطرار الى عرضه. لكن جبران مع هذا متشائم: اذا استمر العجز في خزينة الدولة، كارثة. خصوصا مع وجود قطاعات لا بد من المضي في دعمها: المستشفيات، المدارس، الانعاش الاجتماعي، الطرق الخ. . الدين العام ٢٣٥ مليار ليرة. الحبل على الجرار. المخيف فوايد الدين العام. سوف تصبح قريبا ٥٠ ـ ٦٠ ملياراً. علينا العمل لانهاء الدين العام. زيادات الأجور ترفع الأسعار.

والانتخابات الرئاسية يا جبران؟ ما بعرف اذا بتصير انتخابات.

مرشحك؟ لم افكر بمرشح.

والوضع الاقليمي والدولي الآن؟ يقال ان هناك تقاربا اقليميا ودولياً، لكن حتى الآن لم نلمس نتائجه بوضوح.

هل انت مرشح؟ لم افكر قبلا. انا انتمي الى «تجمع نواب الموارنة المستقلين» وسوف نطرح المسألة على انفسنا. لم يصدر هذا القرار بعد.

كيف تنظر لابن بلدتك سمير جعجع وما تردد عن مصاهرة بينه وبين اسرتكم؟ حديث المصاهرة غير صحيح . سمير ليس على صواب بالمطلق ولا على خطأ بالمطلق. انه يعبر عن حالة. عن مقاومة. عن افرازات حرب.

بشيء من عدم الانتباه ومن اختلاط الألقاب المتشابهة نخاطبه: دكتور جعجع؟

يبتسم. يرفع حاجبيه استغرابا كأنه يقول: الى هذا الحد! اولهون وبس.

يوم معركة رئاسة المجلس خضعتم انتم النواب لضغوط من «القوات» وكان الاجتماع في منزلكم. يجيب جبران المتهم بانه المدافع عن «القوات» في «التجمع»:

ليس صحيحا اننا تعرضنا لضغوط. كان لقاء حوار وتبادل آراء .

يستطرد: لا يجوز فرض الحظر على «القوات». تنبغي محاورتهم والعمل على اقناعهم بما يخدم الاعتدال. انهم لبنانيون. نختلف معهم لكن لا بد من الحوار. «القوات» تستطيع اذا

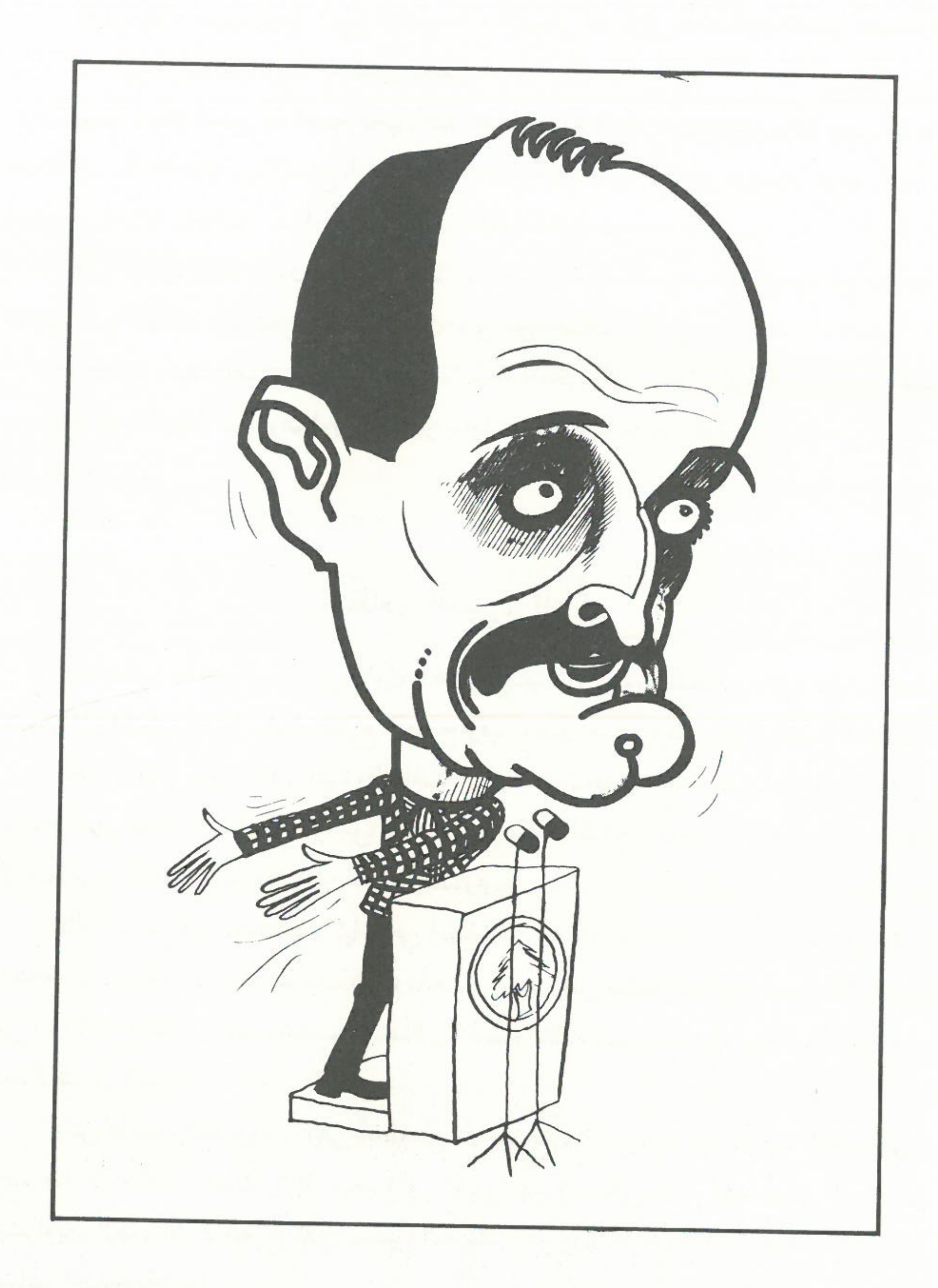
شاءت تعطيل كل شيء. ربما انا الوحيد الذي استطاع بين النواب ان يتفهم سمير جعجع ويقيم معه علاقة جيدة.

لنعد الى الرئيس. ماذا في وسعه ان يفعل؟ اغلب الظن انه لن يكون رئيس ادارة ازمة ولا رئيس حل. انه رئيس حلحلة. يصير في الامكان معه تشكيل حكومة ووقف التدهور الاقتصادي وفتح المعابر.

ريمون اده؟

يمثل نهجا وتيارا.. لكن جبران يتجنب الرأي القاطع، ويستبعده، رغم القول ان مجيئه في ما لو جاء يعني رئاسة حل. الشيء نفسه ينطبق على قائد الجيش ميشال عون.

المهم عند جبران ان تعود الى البلد عافية سياسية واقتصادية. والعين اولا على بشري. ودكتور واحد لا دكتوران، برغم الليقات والكلام اللطيف وبعض التنازلات. فالواقع العائلي عند جبران هو الذي يجلب لنا الخلاص لا الأحزاب. ويهم جبران ان يقول: الخلاص من الأحزاب، لكنه لا يفعل. ولكل مقام مقال.



سمير جعجع

بعيد انتهاء حرب الجبل أتيح لكاتب هذه الأسطر أن يلتقي «الدكتور» سمير جعجع في منزل المحامي كريم بقرادوني، بحضور بعض الزملاء.

يومها لم يكن سمير قد أصبح نجما. كان مجرد مهزوم في حرب الجبل، ضائعاً ومتردداً. مع هذا فحين سأله أحدنا عن أوضاع الناس الذين هجروا والآخرين الذين حوصروا في دير القمر، استجمع قدراته وأجاب: هذا ليس بالمهم. القضية هي المهمة.

هذه العبارة تكاد تكون تلخيصا أمينا لما تنطوي عليه نفس سمير جعجع و«أفكاره». القضية هي المهمة، ولو بمعزل عن الناس. ولو على حساب الناس.

وجعجع، بهذا المعنى، عقائدي بامتياز، ينحاز للفكرة التي تستولي على رأسه فتطفىء عينيه عن رؤية كل ما يحيط بها. وهو ثوري بامتياز يحاول فرض هذه الفكرة على الواقع والحس السليم وطبيعة الأشياء.

الكلفة لا تهم، طالما أن الفكرة صائبة في عرف سمير.

النظام، الدين، الترقّي

ولد سمير جعجع في تشرين الأول ١٩٥٢ في بيت لا يعوزه النظام. والده فريد جعجع أنتسب الى الجيش جنديا عاديا وتدرج فأصبح رقيبا وصار ضارب نفير يقوم بجمع العسكر.

لكن النظام ولوازمه في القوة والتعاضد والحماية، ترافقت مع عنصر آخر لم يكن قليل الالحاح على سمير أن يحرق المراحل ويتفوق. وهكذا اندمج البحث المحموم عن الترقي الاجتماعي بالانحياز الموروث الى النظام الصارم.

فالوالد ليس فقيرا فحسب، كما توحي المهنة، بل انه متفرع عن جب غير أساسي في عشيرة جعجع البشراوية، هو ذاك المعروف بفرع ملحم. وتعبيرا عن موقعه المتواضع أسبغ البشراويون على ابناء الفرع المذكور لقب «جلحم» (بتسكين الجيم واللام وضم الحاء)، وهو تقليد ليس عديم الدلالات في القرى.

ولئن كانت والدة سمير، وهي أيضا من آل جعجع، أرفع قليلا في التراتب الاجتماعي، خصوصا ان والدها امتلك بناية صغيرة في الدورة ببيروت التي كان أحد أوائل المهاجرين البشراويين اليها، الا ان الفرع الذي تنتسب اليه يلقب هو أيضا بفرع «ماظا» بما يفصله عن مرتبة المشايخ الجعاجعة.

والى النظام وطلب الترقي، ورث سمير عن والدته ميلا عميقا الى التدين. فهي، بحسب عارفيها، تقية مؤمنة واظبت على الصلاة في المدينة، حيث أقامت مع عائلتها، كما كانت تصلي في بشري. فلم يطرأ أي تغيير على اضاءتها الزيت امام صور القديسين، ولا على تربيتها ابناءها

الصغار على أمثال الكتاب المقدس.

وبشري، أصل المارونية، مهد خصب لنزعات وميول تدور في مناخ الثقافة الدينية وطقوسها. فهي تقع بين وادي النساك القديسين والأرز الذي لم يعدم ذكره في الميتولوجيا التوراتية. كذلك فهي غير بعيدة عن مجاورة شربل القديس الحبيس الذي يحتل في نفس سمير مكانة لا يرقى الشك الى قدسيتها. وبسبب هذا التكوين النائي نسبياً، وما ينطوي عليه من عزلة ومبالغة في التعويل على الله، عرف البشراويون بحدة في عدائهم للغريب (Xenophobia)، فنسب اليهم انهم يطلقون تسمية «روم الكورة» لوصف كل من يشك باستقامة ايمانه. أما المنتمون منهم الى أحزاب غير مارونية فيسميهم بعض الراسخين في البشراوية «قوميين شيوعيين بروتستانت» دفعة واحدة. وكثيرا ما تداول هؤلاء الراسخون في أمر جواز الدفن في البلدة لأبنائها الحزبيين حين يعودون اليها جثثا هامدة.

وفي بشري كان موقع بيت فريد جعجع تلخيصا لتواضع المنبت الاجتماعي والتسليم بعظمة الخالق. فهو في حي مار سابا من الحارة التحتا، وفي انحدار شديد لطريق ضيقة مكتظة بالبيوت تنتهي مشرفة على هاويات وادي قاديشا. سبحان الله الحي كل صبح ومساء!

سمير لم يكن يقيم في بشري الا ابان العطل الصيفية. أما شتاؤه البيروتي فلم تكن آثاره تختلف عن آثار صيغة البشراوي:

الطفولة والشباب في عين الرمانة، الضاحية المسيحية التي اتسعت مع النمو الرأسمالي الذي عرفه البلد في الستينات. فتدفق اليها مهاجرون من الأرياف لم ينخرط معظمهم في عملية التمدين (Urbanisation) المتسارعة التي تشق طريقها على مقربة منهم. القيم السائدة قيم أرياف احتكت على نحو مثلوم بالمدينة فانكفأت الى ما يمكن تسميته بقيم الضواحي: شيء من هذه وشيء من تلك، من دون أن يفضي الاندماج الى هوية واضحة متماسكة العناصر.

سمير تلميذ فرير ثم مدرسة رسمية. سعيه المحموم وراء الترقي يؤمن له نجاحا مدرسيا ملحوظا وتوقاً مبكرا الى دور قيادي. النجاح المدرسي يشاطره إياه شقيقه الذي تفوق لاحقا في الرياضيات ونال شهادة دكتوراه في الولايات المتحدة حيث يعيش اليوم، من دون أن يخفي غربته التامة عن كل ما يتعدى الرياضيات قيد أنملة.

وتقول احدى سيدات بشري التي أتيح لها أن تعرف سمير عن كثب انذاك، انه بدا ابان تلك الصيفيات شابا نقيا ومسيحيا ممارسا عن قناعة وايمان. كان يلبس البنطلونات الضيقة والقمصان الكلاسيكية البيضاء في حين كانت الموضة توسع أرجل البنطلون على شكل «قدم الفيل»، وتكثر من الرسومات وبكل الألوان الفاقعة على قمصان الشبان والمراهقين. كان شعر سمير قصيرا بسالفين قصيرين كسالفي الرهبان، وهو الشبه الذي لا يزال يلازمه حتى اللحظة.

وكان جديا حتى أن أحدا لم يكن يصادفه في سهرة أو في «بارتي»، وقد درج على خدمة القداس كشماس وعلى الترتيل بكثير من الورع في كنيسة مار سابا في بشري، كما في كنيسة سيدة لورد في عين الرمانة شتاء. وقيل يومذاك ان هذا الشاب الموغل في عزلته سيصير راهبا والا فواحدا من الأطباء الذين يسعون وراء المرضى الفقراء غير عابئين بالمقابل المادي.

لكن بشري كانت بدأت تتعرض للتماس مع القيم والعادات السائدة في بيروت وجبل لبنان. فالأرز سياحي أيضا. ورأسمالية الجبل، وهي غير بعيدة كثيرا عن بشري، شرعت أواخر الستينات تصل الى آخر مناطق لبنان ولو في صور متفاوتة. والتدين والعزلة بدآ يتعرضان لتحدي الوفادات الجديدة. وسمير في اصراره على ما تربى عليه كان يسجل اسمه في خانة القديم. وكما الحال دائما تستجمع الثورة المضادة للرأسمالية والتحديث عناصرها وتضع لها عناوين شتى، دينية أو أخلاقية أو وطنية أو طبقية. الثابت الوحيد حنين راسخ الى ماض يموت بصعوبة.

سمير كتائبياً

سمير جعجع الطويل النحيل الأصلع يشبه تلامذة الرهبان فعلا. وجهه يخلو تماما من الملامح والتعبير، وعيناه فارغتان غائرتان كأنهما أحالتا كل المعاني الى ما وراء ما، وأحلتا في مكانهما نظرة مدهوشة بالعالم المحيط.

يبالغ سمير في استعمال جسده تعبيريا وبصورة غير متوازنة كما لو أنه على حدود الهستيريا. والواقع ان كل شخصيته التعبيرية، مبالغ فيها كأنما السيطرة عليها مفقودة الى أبعد الحدود. خجله الذي يجعله يبدو أحيانا كأنه على وشك البكاء، سريعا ما يتحول الى هجومية في وسعها ان تبكي الآخرين بكاء مرا. وكفاه المفتوحتان اللتان يشبر بهما وكأنه يجس أحجارا من الجبل، تلوح حركتها منقطعة عن سكون الوجه الهامد الذي لا حياة فيه.

والجبهة العريضة التي تخال أن أشياء كثيرة تختبىء خلفها، لا تلبث ان تتمخض عن صور باللغة العادية تصوغها جمل ـ مفاتيح فيها جلافة «القبضاي» الذي مر على الجامعة مر الكرام: كيف لكان؟ شو لكان، حيس أنو. . .

الزمن أوائل السبعينات، وسمير يبحث عن عدالية تجعل المشيئة التي في السماء «كذلك على الأرض»، وتكون شبيهة بتعففه عن كل اجتماع، وكل اجتماع فيه تعقيد ومساومة وتنازل و«تلوث» بالأرض. والعدالية التي يبحث عنها سمير طريقا الى «الخلاص» على الأرض سريعة منفعلة سرعة وانفعال الاحباط والهامشية الاجتماعيين اللذين تنطوي عليهما.

في ١٩٧٢ يختار الطب كما توقع له بعض البشراويين، وينتسب الى الجامعة الاميركية في بيروت. القسط مرتفع، لكن سمير متفوق، يتيح له تفوقه الحصول على منحة والمضي في الدراسة.

الا ان الراهب في سمير وجد اشباعه الجزئي في حزب الكتائب. هنا يخدم الله، ويخدم معه الوطن والعائلة ويعثر على المدى الذي لم توفره العائلة ولا وفرته المنطقة.

والكتائبية يومذاك تستجيب لذاك الترميز البسيط الذي يماثل طبيعة بشري والأرز. فالوطن صخرة، والوطن شجرة جذورها في الأرض، والوطن صلابة ورجولة بدأ التحديث يهددهما. في الآن نفسه تستجيب الكتائبية للحياة الانتقالية المرتجة في عين الرمانة، ولذلك البون الشاسع الذي يفصل الأخيرة عن الجامعة الأميركية برغم قصر المسافة.

بكلمة، تقفز الكتائبية في توكيدها على الوطن والطائفة من عذاب الانقسام وجحيمه الى الجنان الفسيحة للوحدة. فالجزء يهرب من جزئيته المهيضة الجناح ويصير كلا منه ينبثق الرأي وتنبثق القيادة. والمستقبل المضيء للوحدة ثمين بالتغلب على الألوان الداكنة للماضي المنقسم كلها.

عين الرمانة التي تعج بفقراء الموارنة الوافدين من الأرياف أرض خصبة لكتائبية وعدت بالخروج عن التقليد، وخاطبت المسيحيين المعذبين ممن اتسع وعاء الدعوة الوطنية لاحباطهم الاجتماعي والثقافي. لكن بشري أيضا لا تقل تحريضاً على غذ الخطى في السبيل نفسه.

الزعامات التقليدية للعائلات بائسة وعجوزة: قبلان عيسى الخوري، حبيب كيروز، سعيد طوق. أما آل جعجع الذين أتيح لهم أن يتمثلوا في برلمان ١٩٤٣ بوهيب جعجع فقد صرع ممثلهم هذا في ظروف لا تزال غامضة، واختير يوسف كرم الزغرتاوي بدلا عنه اذ كانت الانتخابات تجري على نطاق المحافظات. حسيب شقيق وهيب لم يحالفه النجاح في محاولاته الانتخابية اللاحقة وآخرها محاولته في ١٩٧٢ متحالفا مع المرشح الكتائبي انطوان معربس. أما ايلي، ابن وهيب، فموزع الاهتمام بين شركة التأمين التي يملكها ومتع الحياة الدنيا.

وآل جعجع الذين لم يغفروا للزغرتاويين ما فعلوه بوهيب، نائبهم وشيخهم، يشاركون سائر العائلات البشراوية تذمرها من تخلف المنطقة ووعورة طرقها، ناهيك بمشاعر الدونية العضلية حيال موارنة زغرتا، والدونية الاجتماعية تجاه موارنة الجبل.

وبينما كانت الفضائح المتواصلة للجنة جبران خليل جبران، ابن بشري، تذكيرا ملحا بفساد الأعيان، كانت العصبيات ونزاعات العائلات تحول دون تضافر الجهد الذي يحد من الفساد المذكور. الطلاب والخريجون الجدد حاولوا القيام بهذا الدور فأسسوا «النادي الثقافي الرياضي»، لكن انقسام الأهل ما لبث ان أصاب الأبناء.

لم يبق اذن الا حزب الكتائب الذي يعد بانقاذ الوطن كله، وفي المعمعة تضيع بشري وتعثر على انقاذها المطلوب. فالذي يستطيع انقاذ الوطن كله يستطيع انقاذها بطبيعة الحال.

بيد ان كتائبية سمير واجهتها صعوبتان. الأولى ان الشاب المؤمن اللاعنفي فتح عينيه على

وكان جديا حتى أن أحدا لم يكن يصادفه في سهرة أو في «بارتي»، وقد درج على خدمة القداس كشماس وعلى الترتيل بكثير من الورع في كنيسة مار سابا في بشري، كما في كنيسة سيدة لورد في عين الرمانة شتاء. وقيل يومذاك ان هذا الشاب الموغل في عزلته سيصير راهبا والا فواحدا من الأطباء الذين يسعون وراء المرضى الفقراء غير عابئين بالمقابل المادي.

لكن بشري كانت بدأت تتعرض للتماس مع القيم والعادات السائدة في بيروت وجبل لبنان. فالأرز سياحي أيضا. ورأسمالية الجبل، وهي غير بعيدة كثيرا عن بشري، شرعت أواخر الستينات تصل الى آخر مناطق لبنان ولو في صور متفاوتة. والتدين والعزلة بدآ يتعرضان لتحدي الوفادات الجديدة. وسمير في اصراره على ما تربى عليه كان يسجل اسمه في خانة القديم. وكما الحال دائما تستجمع الثورة المضادة للرأسمالية والتحديث عناصرها وتضع لها عناوين شتى، دينية أو أخلاقية أو وطنية أو طبقية. الثابت الوحيد حنين راسخ الى ماض يموت بصعوبة.

سمير كتائبياً

سمير جعجع الطويل النحيل الأصلع يشبه تلامذة الرهبان فعلا. وجهه يخلو تماما من الملامح والتعبير، وعيناه فارغتان غائرتان كأنهما أحالتا كل المعاني الى ما وراء ما، وأحلتا في مكانهما نظرة مدهوشة بالعالم المحيط.

يبالغ سمير في استعمال جسده تعبيريا وبصورة غير متوازنة كما لو أنه على حدود الهستيريا. والواقع ان كل شخصيته التعبيريَة، مبالغ فيها كأنما السيطرة عليها مفقودة الى أبعد الحدود. خجله الذي يجعله يبدو أحيانا كأنه على وشك البكاء، سريعا ما يتحول الى هجومية في وسعها ان تبكي الآخرين بكاء مرا. وكفاه المفتوحتان اللتان يشبر بهما وكأنه يجس أحجارا من الجبل، تلوح حركتها منقطعة عن سكون الوجه الهامد الذي لا حياة فيه.

والجبهة العريضة التي تخال أن أشياء كثيرة تختبىء خلفها، لا تلبث ان تتمخض عن صور باللغة العادية تصوغها جمل ـ مفاتيح فيها جلافة «القبضاي» الذي مر على الجامعة مر الكرام: كيف لكان؟ شو لكان، حيس أنو...

الزمن أوائل السبعينات، وسمير يبحث عن عدالية تجعل المشيئة التي في السماء «كذلك على الأرض»، وتكون شبيهة بتعففه عن كل اجتماع، وكل اجتماع فيه تعقيد ومساومة وتنازل و«تلوث» بالأرض. والعدالية التي يبحث عنها سمير طريقا الى «الخلاص» على الأرض سريعة منفعلة سرعة وانفعال الاحباط والهامشية الاجتماعيين اللذين تنطوي عليهما.

في ١٩٧٢ يختار الطب كما توقع له بعض البشراويين، وينتسب الى الجامعة الاميركية في بيروت. القسط مرتفع، لكن سمير متفوق، يتيح له تفوقه الحصول على منحة والمضي في الدراسة.

الا ان الراهب في سمير وجد اشباعه الجزئي في حزب الكتائب. هنا يخدم الله، ويخدم معه الوطن والعائلة ويعثر على المدى الذي لم توفره العائلة ولا وفرته المنطقة.

والكتائبية يومذاك تستجيب لذاك الترميز البسيط الذي يماثل طبيعة بشري والأرز. فالوطن صخرة، والوطن شجرة جذورها في الأرض، والوطن صلابة ورجولة بدأ التحديث يهددهما. في الآن نفسه تستجيب الكتائبية للحياة الانتقالية المرتجة في عين الرمانة، ولذلك البون الشاسع الذي يفصل الأخيرة عن الجامعة الأميركية برغم قصر المسافة.

بكلمة، تقفز الكتائبية في توكيدها على الوطن والطائفة من عذاب الانقسام وجحيمه الى الجنان الفسيحة للوحدة. فالجزء يهرب من جزئيته المهيضة الجناح ويصير كلا منه ينبثق الرأي وتنبثق القيادة. والمستقبل المضيء للوحدة ثمين بالتغلب على الألوان الداكنة للماضي المنقسم كلها.

عين الرمانة التي تعج بفقراء الموارنة الوافدين من الأرياف أرض خصبة لكتائبية وعدت بالخروج عن التقليد، وخاطبت المسيحيين المعذبين ممن اتسع وعاء الدعوة الوطنية لاحباطهم الاجتماعي والثقافي. لكن بشري أيضا لا تقل تحريضاً على غذ الخطى في السبيل نفسه.

الزعامات التقليدية للعائلات بائسة وعجوزة: قبلان عيسى الخوري، حبيب كيروز، سعيد طوق. أما آل جعجع الذين أتيح لهم أن يتمثلوا في برلمان ١٩٤٣ بوهيب جعجع فقد صرع ممثلهم هذا في ظروف لا تزال غامضة، واختير يوسف كرم الزغرتاوي بدلا عنه اذ كانت الانتخابات تجري على نطاق المحافظات. حسيب شقيق وهيب لم يحالفه النجاح في محاولاته الانتخابية اللاحقة وآخرها محاولته في ١٩٧٢ متحالفا مع المرشح الكتائبي انطوان معربس. أما ايلي، ابن وهيب، فموزع الاهتمام بين شركة التأمين التي يملكها ومتع الحياة الدنيا.

وآل جعجع الذين لم يغفروا للزغرتاويين ما فعلوه بوهيب، نائبهم وشيخهم، يشاركون سائر العائلات البشراوية تذمرها من تخلف المنطقة ووعورة طرقها، ناهيك بمشاعر الدونية العضلية حيال موارنة زغرتا، والدونية الاجتماعية تجاه موارنة الجبل.

وبينما كانت الفضائح المتواصلة للجنة جبران خليل جبران، ابن بشري، تذكيرا ملحا بفساد الأعيان، كانت العصبيات ونزاعات العائلات تحول دون تضافر الجهد الذي يحد من الفساد المذكور. الطلاب والخريجون الجدد حاولوا القيام بهذا الدور فأسسوا «النادي الثقافي الرياضي»، لكن انقسام الأهل ما لبث ان أصاب الأبناء.

لم يبق اذن الا حزب الكتائب الذي يعد بانقاذ الوطن كله، وفي المعمعة تضيع بشري وتعثر على انقاذها المطلوب. فالذي يستطيع انقاذ الوطن كله يستطيع انقاذها بطبيعة الحال.

بيد ان كتائبية سمير واجهتها صعوبتان. الأولى ان الشاب المؤمن اللاعنفي فتح عينيه على

بلد يميل الى العسكرة والعنف. هذه الصعوبة حلها سمير ببساطة منجزا في ١٩٧٤ دورة تدريب عسكري. فقضية الخلاص لها الأولوية. بالسلم أفضل، وبالحرب لا بأس. وتكشفت بسمة الواعظ الديني عن تكشيرة وأنياب حادة. يومها كان لبنان كله مكشرا اذ ترك العرب النزاع العربي ـ الاسرائيلي ينحصر فيه، وكانت المقاومة الفلسطينية تؤجج الخصومات الأهلية دافعة بالجميع الى التطرف.

الصعوبة الأخرى هي الأكثر جدية والأبعد تأثيرا: حزب الكتائب لم يقدم لسمير الا التعويض الجزئي لأنه ليس على قطيعة تامة مع التركيبة السائدة. وعلى رأس الكتائب عائلة الجميل التي لم يستسغ الشاب البشراوي موقعها من الكتائب والدور الأبوي الصارم لعميدها مؤسس الحزب.

وراح سمير يهمس في آذان أصدقائه من الرفاق: حزب الكتائب حزب متخلف بسبب عائليته. انه اداة التغيير لكنه أداة بحاجة الى تغيير، وما لم يحصل التغيير فيه فانه لن يحصل مسيحيا ولبنانيا.

وكان لسمير جعجع تعبيراه البيروتي والبشراوي عن هذا التطلع الانقلابي. ففي الجامعة الأميركية أصبح سمير نصيرا نشطا لكريم بقرادوني ومذاك بدأت صداقة الاثنين التي شابتها نوازع وأغراض متعددة في وقت لاحق.

فكريم بدأ منذ ١٩٦٩ قيادة «مصلحة الطلاب» الكتائبية، في مواجهة غير متكافئة مع القيادة التقليدية للحزب. وهكذا عقد المكتب السياسي اجتماعات عدة لمحاكمته بتهمة عدم الانضباط، وساد اتجاه يدعو الى فصله من الحزب بعد تعليق نشاطه ثلاثة أشهر. وما كاد ينجلي غبار هذه المعركة لصالح كريم الذي حقق مشاركة رئيس المصلحة ونائبه، في أعمال المكتب السياسي، حتى تقدم خطوة أخرى في استفزاز الرئاسية المطلقة للشيخ بيار. فقد أصر الشاب الأرمني الكتائبي على اعتماد مبدأ الانتخاب بدل التعيين في اختيار رئيس المصلحة، واقترحت تسوية مؤداها أن يتم تعيين المرشح الذي يختاره الطلبة على ان لا يحضر اجتماعات المكتب السياسي. واستمر كريم بقرادوني ومن معه يضغطون الى ان تم لهم اشراك الطلاب في صنع القرار السياسي للحزب. وكان سمير جعجع أحد مناضلي القاعدة المتحمسين لما يفعله كريم في مواجهة «آل الجميل» و«احتكارهم الحزبي». أما في بشري فقد عين سمير في ١٩٧٤ مسؤولا عن كتائبها، وكان هذا التعيين مدخلا لأول سلطة تناط بالشاب التائق الى السلطة... والى تغيير العالم. وفي تعامله مع سلطته الأولى لم يقتصر سمير في ابداء انقلابيته داخل الحزب والعائلة على السواء، كما لو كان، في وجه من وجوه عمله، يحطم آل الجميل ممثلين في امتدادهم البشراوي.

فالمسؤول الكتائبي قبل سمير كان جوزيف جعجع الذي يشارك سائر الجعاجعة معاناة

فقدان التمثيل السياسي للعائلة، لكنه يختلف عن سمير في كونه ملاكا وكتائبيا تقليديا شديد الولاء للشيخ بيارالجميل.

جوزيف هذا، الذي ينتمي الى فرع «أبو قبلان» وهو فرع في الوسط بين المشايخ والعامة، تعرض للخطف مع بدايات بروز سمير في بشري، فلما أفرج عنه وعاد الى بلدته وجد ان قريبه الشاب لن يدعه يعيش بسكينة، فحزم امتعته وانتقل الى بيروت الشرقية التي لا يزال يعيش فيها.

أفكار من سقط الماضي

سمير جعجع لا يكف عن القول انه مولع بالأفكار، وأنه صاحب أفكار أيضا. يتحدث دائما عن أخذه بأفكار دي شاردان، وعن تأثره بدرجة أقل بجبران خليل جبران، ولا ينسى التنويه بدراسته الفلسفة علي يدي الدكتور الراحل شارل مالك والأب حايك.

لكن ما يعرفه سمير أقرب الى الحذلقة التي لا تقتصد في ايراد المفاهيم والأسماء الكبيرة، من دون أن تضيف حرفا واحدا على «ثقافة» طلاب البكالوريا حين يناقشون في الكافيتريا أفكارا أخذوا بها للتو.

وقد تكون المقابلة التي نشرتها «المسيرة» معه في ٤ نيسان الماضي على ١٦ صفحة أوفى ما هو معروف عن ثقافة جعجع وأفكاره. فلنقرأ بعض ما جاء فيها تحت هذا العنوان النيتشوي الذي تصدر غلاف المجلة: «هكذا تكلم سمير جعجع».

من المقدمة التي كتبتها الزميلة فيفيان صليبا داغر مسبغة على «الحكيم» بعض اسماء الله الحسنى:

«ابن الحرب يتلهف لأن تنتهي الحرب، فينصرف الى البناء والفكر السياسي وربما تأسيس حزب ذي عقيدة واضحة... الثورة؟ في عينيه الحمراوين، في يديه، في لغته، في دمه (...) الايمان عنده نقطة انطلاق لكل شيء (...) عندما وقفنا لشكره ووداعه، طلب في حرارة وشغف لو نكرر هذه اللقاءات واياه مرة في الشهر على الأقل: «حاولوا تلاقو وقت... هالجلسات من هالنوع وهالمستوى مهمي كتير ع طريق بناء الوطن». اليكم ثماني ساعات مع القائد الحكيم...».

ومما جاء في كلام القائد الحكيم «من هالنوع وهالمستوى»:

«من يترشح الى الانتخابات النيابية مثلا يجب أن يكون درس حكما في مدرسة حربية، لأن من لا يملك فكرا عسكريا لا يكون فكره كاملا وكافيا للتخطيط على المستوى الاستراتيجي في البلاد»، ويمضي سمير الذي لم يوفق في أي من مواجهاته العسكرية كما سنرى لاحقا: «نحن لم نبدأ الثورة بعد. كل ما نعمله الان عمل سياسي. وحين تكتمل معنا كل الأدوات السياسية اللازمة يجب أن نفكر بعمل الثورة». واللبنانيون على أتم الاستعداد، طبعا، لبدء الثورة حالما

تنتهي الحرب!!

وهذه الثورة «لا تكون بالعنف فقط. انما تسريع للتطور الطبيعي في حركة الشعوب ومساعدة لهذا التطور». وهي تنقلنا الى «مجتمع منظم الى أبعد الحدود تتحقق فيه بالتحديد وبالضبط العدالة الاجتماعية والمساواة. وبمجرد ان يولد طفل في هذا المجتمع يكون التعليم والطبابة والمسكن قبل أي شيء آخر مؤمنة له من دون بحث».

من هو الثائر في عرف الحكيم؟

«شخص مرتاح ماديا لا يمكن أن يكون ثائرا، الا اذا كان مرتاحا ومضغوطا من عيلته».

والمطلوب عنده «ان نقرب وضع الأرض قدر الامكان من الوضع الذي في السماء. وربما في الآخر لنتوصل الى ان تصير الأرض مثل السماء (...) أتصور ان القيامة الفعلية وقت نشتغل في الأرض ونحولها سماء. ساعتها تلتصق الأرض بالسماء في شكل مجازي. أعطي مثلا: القديس شربل التصق بالسماء في حياته. لم تتحول محبسته قصرا رخاميا ولا رفرفت المادة حوله. التصق بالسماء أي بالعالم الماورائي الذي لا نعرفه».

جوابا على سؤال: «حياتك مهددة اليوم...» يرد التالي: «أهتم بألّا يقتلوني كي لا يغلبونا».

جوابا على سؤال: «ايمانيا أين صرت في نظرتك المسيحية...»

« يا للأسف، لا أملك الوقت كما في السابق لأقوم بأبحاث ايمانية وفلسفية».

في مكان آخر «هناك الكثير من ذاتي لم أعرفه بعد. هناك الكثير من ذاتي لم أحققه بعد».

عن صيغة ١٩٤٣: «هذه الصيغة أسهمت في افساد المسيحيين والمسلمين على السواء في لبنان لأنها غير مبنية على فلسفة ايمان ولا على فلسفة أخلاق بل على المصلحة الاقتصادية للأفرقاء المعنيين وليس أكثر».

عن العلمنة: «انها واحدة من أخطر المبادىء الفلسفية. العلمنة هي الماركسية من دون نظام اقتصادي ماركسي. العلمنة تعني ان كل فكرنا السياسي والاجتماعي يجب أن ينطلق من فكر وجودي لا علاقة له بأي عالم ما ورائي». مضيفا في مكان آخر «اذا أراد أحد التعمق (في العلمنة) ومعرفتها كما هي، فليتعمق في مؤلفات الفلاسفة العلمانيين وأهمهم جان بول سارتر».

في ما يفترض انه فلسفة: «أنا درست ماركس، لكن الأهم منه هيغل. بعد هيغل برز أشخاص أخذوا عنه التدرج الجدلي وأدخلوه نظرياتهم. أحد هؤلاء ماركس. لكن أين أخطأ؟ التدرج الجدلي الهيغلي بحكم طبيعته وتعريفه لا ينتهي: أمران يعطيانك ثالثا ومع غيره رابعا الى آخره. جاء ماركس واستعمل من هذه النظرية ما يريد وأوقف التدرج عند مرحلة معينة هي الوصول الى مجتمع شيوعي مثالي. لماذا أوقفه هناك؟ هذا اجتزاء من جدلية هيغل (...) انها نظرة

على المستوى الأكاديمي».

وجوابا على سؤال حول «تحقيق البعدين المادي والميتافيزيقي في الحياة المسيحية...» يرد: «هذا مبدأ صعب جدا على البشر. أي مبدأ نطلقه يجب أن نرى أولا مدى قابليته للتطبيق على البشر...».

في تفسير مذبحة ١٩٧٨ في زغرتا «تقاطعت الحرب الطائفية مع الصراع ضد الاقطاع».

مع تأييده الاقتصاد الحر يأخذ عليه « الفوضى وعدم المراقبة وانتفاء الخدمات الاجتماعية». يضيف في مكان اخر « سنعمل لبناء اقتصاد ذاتي لا يتأثر بالظروف السياسية في الدول المحيطة بنا. يعني انتاج حاجات بلادنا على كل المستويات. وذلك يستوجب تشجيع قطاعي الصناعة والزراعة على حساب قطاع الخدمات». عن تسييس النقابات: « النقابات العمالية مبنية على الاسس نفسها التي تقوم عليها الدولة. انها متمسكة بصيغة ١٩٤٣..» وجوابا على سؤال يتناول التفكير « بنقابات بديلة» يجيب:

« شوي شوي، في انتظار ان يحل جيل جديد محل الجيل الحاضر».

يسأل عن معنى القول بان « الثورة بدأت بإله جديد» وانه هو المقصود. يكتفي في معرض الرد المتواضع بالقول: « بالعكس ليس هكذا. ولكن بعض الناس اذا عرف ما يمكن ان اعمله وما افكر به يقوم ضدي..».

يتحدث عن « التدرج التنظيمي في الفكر»، وهو عنده « دين. فلسفة. فلسفة سياسية. ايديولوجيا. ممارسة».

يسأل « ماذا تفعل قيادة القوات ليصير عندنا فكر على مستوى كل المجتمع. القوميون السوريون من الصغير الى الكبير مثلا، يحملون فكرا معينا..»

يجيب: « ادخال فكر معين عقول الناس عملية يلزمها وقت (..) هذه عملية صعبة و«الأدلجة» عندنا مستمرة على قدم وساق من العسكر الى الطلاب الى القواعد الشعبية، انما في الوقت نفسه هذه العملية لا يمكن ان تتخطى سرعة معينة».

عن توزع مواقف الناس « هناك مواقع للقوى التقليدية موزعة هنا وهناك لكن الجماهير الفعلية معنا وهي التي تحرك الجماهير الصامتة».

عن خلايا « القوات» بين الطلاب: « في كل المجتمعات الراقية يطبق النظام العسكري في الحرب..»

ما من شك في اننا اطلنا الاستشهادات التي لم يكن بد من انتقائها واحيانا اجتزائها، بقصد تقديم لوحة معبرة عن المنحى الفكري لسمير جعجع. وليس من الصعب على اي قارىء نبيه ان

يلاحظ البارانويا وهي تتوهج عند جعجع حاملة ما لا حد له من الهذيان الادعائي .

الا ان ترهات الرجل ينبغي ان لا تقلل من جدية التعامل معها، خصوصا وقد رأينا بعض الاثار الدموية التي ترتبت على تلك الترهات .وبمعزل عن الفوارق الضخمة بين الادوار والمواقع ، فلا موسوليني كان اكثر حصانة من جعجع ولا ستالين كان اشد نباهة، وكل واحد منهما حمل من الترهات ما اودى بالملايين .

سمير جعجع عاشق للعنف الذي « يطهر» العالم الموصوف بالدنس . محب للتعبئة الدائمة، للتوتر الدائم ، على غرار الانظمة الاستبدادية التي تنتقل من تعبئة الى حض الى مهرجان الى ذكرى الى حشد ودائما هناك عدو ثابت راسخ . ينبغي ان لا نعيش بلا عدو، بلا قضية ينبغي ان لا نعيش في استقرار. هذه هي العادية القاتلة . سمير يعدنا بان الثورة قادمة بعد الحرب. لا فض فوه.

لماذا؟ لان المطلوب « تسريع التطور الطبيعي» . التطور التدريجي السلمي مرفوض. ينبغي ان تتدخل النخبة او الطليعة لقسر التاريخ والاجتماع ، لـ «تنظيمها» كما يقول الشيوعيون والفاشيون وسمير جعجع . و « الخلاص» الذي يفضي اليه القسر عند سمير ليس « ديكتاتورية البروليتاريا» أو« مجدالامة» .بل الخلاص الديني على الارض. ووصولا الى هذا «الخلاص» الذي سحق الملايين في سبيل بلوغه في ارجاء المعمورة كلها، تنبغي عسكرة المجتمع بنقاباته ومدارسه، وعسكرة السياسة التي هي في عرف سمير مرآة للدين وتطبيق له، وعسكرة السياسيين بالتالي .

أعداء هذا المشروع اكثر من ان يعدوا . اولهم الرأسمالية والتحديث . فالاضطهاد والقسوة والشظف هي شروط المعنى والاهمية، وهما في عرفه « الثورة»، الاستقرار عادي ومدان . الربح حقير.

العدو الاخر اوروبا. يضع شربل والقرية والضيق والخرافة الصوفية والماورائيات في مواجهة قيمها وثقافتها. كلامه على العلمنة اوضح ما يكون. انه وريث الوجه الاشد تخلفا في الكتائب، ومنقطع عن وجهها الاخر المديني البرلماني.

عدوه الثالث، مثله مثل كل الثوريين، صيغة ١٩٤٣ . هو ضد السياسة. ضد فكرة التسوية . ضد الربح. ضد انطواء الصيغ على صمامات امان ديمقراطية تحد من طغيان جماعة على جماعة او فكرة على افكار .

توتاليتاري بامتياز هو سمير جعجع، مثل اي فاشي او شيوعي او سوري قومي او ضابط انقلابي صغير محشو رأسه بالخرافات والصوفيات. كل شيء عرضة للتسييس، وكل سياسة عرضة للتديين . مجتمعه المرجو كل عضوي مترابط ينشىء له فكرا واحدا موازيا. لغته ايضا لا تكتم هذا الشبه: تقاطع الطائفي والصراع ضد الاقطاع، الجماهير، الاقتصاد الانتاجي، وكذلك عقله التآمري الذي يحتقر السياسة والرأي العام: « جماهير فعلية تحرك الجماهير الصامتة».

لكن معضلة سمير الابرز ان « المجتمع» الذي يزعم التصدي لقيادته يعيش ويفكر في مكان اخر. فمسيحيو المناطق الشرقية هم تقليديا قاعدة الليبرالية في لبنان اقتصادا وسياسة وثقافة، وهم احدى النوى الليبرالية الضئيلة في العالم العربي . وسمير يسبح ضد تيارات اهل بيته في الدرجة الاولى. والخلاصة الطبيعية لهذه المجافاة مزيد من اللجوء الى القمع والقسر.

حروب وتصفيات

سمير جعجع وصل من الاحباطات التي سبقت الاشارة اليها، الى حزب الكتائب ومنه الى « القوات اللبنانية» . لكن الاخيرة لم تكن سوى محطة عبور نحو مزيد من الاحباطات . نحو احباطات اين منها ما صدر عنه الراهب البشراوي الشاب؟

وفي موازاة مسار كهذا، يتحول رد الفعل على الحدث الى مجرد موقف شعوري مبالغ فيه لا تخالطه مراجعة عقلانية ولا يشوبه احتكام الى منطق. الانفعال، العزلة، اليأس، الانكباب على النفس واحيانا على القراءة هي الادوية التي يعالج سمير بها احباطاته، او يتراءى له ذلك .

في حرب السنتين يدخل الى الكورة، يفرض على مقاتليه ضوابط ملزمة تحد من الانتهاكات والسرقات. يؤسس اولى ثكنات الكتائب في الشمال في قرية دده الكورانية .

سنة ١٩٧٨ تسجل حدثين بارزين في حياة سمير، يترك الجامعة اليسوعية التي انتقل الى كلية الطب فيها بعد حرب السنتين واستحالةوصوله الى الاميركية . كانت تلزمه سنة واحدة لكي يتخرج . الحدث الثاني اهم: مقتل الكتائبي جود البايع فجر نزاع حزب الكتائب مع آل فرنجية . سمير جعجع كلف بالاقتصاص من العائلة السياسية الزغرتاوية . الحصيلة مجزرة ذهب ضحيتها ثلاثون شخصا بينهم النائب توني سليمان فرنجية وزوجته وابنته الطفلة .

اداء هذا الدور القذر لم يكن بلا مضاعفات شعورية حادة: صحيح ان سمير لا يعوزه الكره لاهل زغرتا وآل فرنجية بالاخص. لكن قتل هذا العدد من المسيحيين مسألة فيها نظر كثير عنده، اوهكذاكان الامر في البدايات .

يفاقم تلك المضاعفات ان المهمة امتزجت بدور « زلة» آل الجميل. فبشير كان صاحب القرار في اخر الامر. عودة على بدء اذن، خصوصا وان بشير كان لا يستسيغ صعود نجم سمير بين كتائب الشمال المسلمين. البعض قالوا ان الجميل الاصغر اراد بقراره ان يصيب عصفورين : آل فرنجية وصاحب الرأس الكبير سمير جعجع .

على أية حال فالامور سارت بما يعزز هذه الشكوك، وبما يعزز المضاعفات الشعورية عند سمير. ففي مواجهة اهدن التي باغتت الزغرتاويين جرح جعجع، وعاد بيد مقطوبة يصرخ في المستشفى رافضا استقبال بشير الجميل. « اذاعة صوت لبنان» الكتائبية كانت توضح علنا في نشرات وفلاشات متلاحقة انها بحاجة الى فئة دم O neg للدكتورجعجع الموجودفي المستشفى

كان احساس سمير حادا بالخيانة، لانه كان موعودا بتصفية الرئيس فرنجية في بيروت بينما يعمد هو الى تصفية توني.

ينقل سمير الى فرنسا للتطبيب. يعود وقد ازداد عداؤه لآل الجميل وازداد شعوره بالعزلة وشعوره بالاضطهاد. تتفاقم معه « الاشتراكية المسيحية». مساواتية التمرد. غيفارا . اكثر فاكثر تيار دي شاردان. « الثائر المسيحي». « المجتمع المسيحي» على غرار ما تقترحه سير الاباء الزهاد والصالحين. تشيع اخبار حنوه وعطفه على مقاتليه ومشاركتهم حياتهم مشاركة تامة . « رياضة روحية» مع الرهبان في دير القطارة: انه يحاول ان يقتل آل الجميل في كل سلوك يتراءى له انه سلوكهم.

الى هذا يزداد احساس سمير بانه طريد دمه مهدور. حتى حزبه ربما اراد هدر دمه. ثم ما الذي يضمن ان لا يقدم آل الجميل، وهم في عرفه التقليديون الاشرار، على ابرام صفقة ، مع سليمان فرنجية يكون هو كبش محرقتها؟

هذه المشاعر تدفعه الى راديكالية وتطرف يفوقان ما كان عليهما قبلا. انه اخر من يقبل. اخر من يصافح. اخر من يسالم. وكل امعان في التوتر ضمانة له، سياسية وشخصية. امه يومذاك كانت تبكيه، وابوه اعتبر انه مات ولن يعود الا جثة.

سمير يخوض مواجهات اخرى في عيون السيمان وقنات. مزيد من التفكير بصدد شخصية « القائد البديل» عن بشير، وما هو الا سمير نفسه، طبعا. عزلة اخرى وتفكير في قلب الحزب. لكن صعود بشير بدا خياليا. سمير وحده، من بين اركانه، كان يواجهه ويتجرأ عليه. الانتخابات الرئاسية في ١٩٨٢ كان لسمير مآخذ على تقليديتها: فلوس ووعود وتنازلات لبعض النواب.

رحيل بشير ازال كابوسا لكنه اوجد كابوسا اخر: امين في الرئاسة. واذا كان بشير تقليديا في عرف سمير، فكيف سيبدو امين في نظره؟ تزداد حدة التذمر، محاولة الرئيس الجميل الامساك بـ « القوات» والسيطرة عليها. المحاولة تنجح بغطاء الشيخ بيار وضعف القائد الجديد فادي فرام . امين يستكمل سيطرته مع وصول فؤاد ابو ناضر، ابن شقيقته، الى موقع القيادة. اما في الحزب فوفاة الشيخ بيار نقلت الرئاسة الى الدكتور ايلي كرامة الذي « اوصى به» الشيخ المؤسس. وفي الحكومة مثل الحزب بجوزيف الهاشم اكثر الكتائبيين « تقليدية» وعداء للقوات.

قبل ذلك كانت مجزرة حرب الجبل. سمير هناك يشق الطرق ويعمل « عقله الاستراتيجي» في اساليب الحرب الحديثة وخططها. النموذج اسرائيل: تنظيم وتقنية في خدمة اسطورة دينية، والنهج لا يعدو كونه امتدادا لتقليد عريق في ثقافة المنطقة: نأخذ تقنية الغرب من دون عاداته وثقافاته. نأخذ تقنية الغرب ونحتفظ باصالتنا وموروثنا.

سمير يراهن على انتصار اكيد يحرزه التنظيم الحديث والتعاون مع اسرائيل. بسهولة يمكنه

التغلب على اولئك « الدروز البدائيين» المتحلقين حول « بيكهم الاقطاعي». لكن الريح تجري في مناح اخرى. اسرائيل تلعب بالجميع وتتخلى عن الجميع. امين لا يرسل الجيش. حصار مذل في دير القمر احساس كامل بخيبة الامل واللاجدوى. تكبر صورة الزعيم الصوفي البديل. بول عنداري احد رجالات سمير يعبر عن هذا التحول باصداره كتاب « الجبل حقيقة لا ترحم» وكان ابو ناضر لا يزال قائدا لـ « القوات». غلاف الكتاب عليه كنيسة صليبها مكسور تكتنفها صورة جانبية لوجه سمير جعجع الذي تلفه الاشجار والعواصف وتطلع من مؤخرة رأسه خلوة يعلو فوقها صليب.

امين الذي ساءه اغتيال غيث خوري قطب الكتائب في جبيل، في شباط ١٩٨٤، لم يغض النظر عن اهانة قاسية اخرى، آمراً بمصادرة الكتاب الذي يطعن في وُطنيته وحرصه على مسيحيي الجبل. سمير يفصل من الحزب فيما الحوار بين دمشق وبعبدا يفضي الى الاتفاق على ازالة حاجز البربارة . انصار سمير يلتفون مطلقين على انفسهم اسم « منظمة الشباب المسيحي». الرفض الكامل لالغاء الحاجز هو ما تسبب بفصل سمير، وكيف يقبل الاخير، وهو الطريد الكافر، ان يزيل حمايته ممثلة في الحاجز ؟

هاجس الحاجز يترجم نفسه في شعار « امن المجتمع المسيحي فوق كل اعتبار». الشعار هو شعار « الانتفاضة» الاولى التي قادها جعجع ضد قيادة القوات والحزب في ١٢ آذار ١٩٨٥ . جماعة جعجع، بحسب تحقيق صحافي نشرته جريدة اجنبية يومذاك هم « الابناء الذين يتمردون على آبائهم، السذج، الايديولوجيون الذين يفخرون بشتم الاقطاع، ، وفيهم كثيرون من اليساريين والقوميين السوريين السابقين».

دم الانتفاضة يكسب مزيدا من الارض: الى شرق صيدا التي توالي المتنفضين وتحذو حذوهم: تهجير اخر في اذار ١٩٨٥ . انتفاضة على الانتفاضة يقودها ايلي حبيقة في ٩ ايار من العام نفسه: تقليص حجم سمير الى مجرد رئيس أركان. رسالة حبيقة له: ابن العسكر يا سمير واترك السياسة لي. جعجع ينعزل مجددا. انه لا يفهم « الاعيب السياسة» منصرفا الى ما هو اهم: الى العسكر الذين تزخر به الجرود بعيدا عن المدينة والتلوث بها.

حبيقة يذهب بعيدا ويوقع « الاتفاق الثلاثي» برعاية سوريا. طفح كيل سمير الذي تحالف للمرة الأولى على هذا النحو الساطع مع الرئيس الجميل. رئيس الاركان يعلن في ١٥ كانون الثاني ١٩٨٦ الانتفاضة الثالثة. يهبط من جرده ويطيح حبيقة بكلفة دموية باهظة جدا.

جعجع يقول « الامر لي»، وعدد الصلبان يتزايد على الملالات. قاعدته مدينة جبيل التي وفد اليها المهجرون الشماليون بكثافة فاثاروا اهلها. ومؤيدوه كل الباحثين عن حل رؤيوي سحري: ابناء في المدن اصولهم ريفية، ابناء مهجرون، وبعض المهاجرين الاثرياء من المناطق

الحدودية ممن عادوا الى لبنان فوجدوا الصعوبات تعترض عودتهم الى مناطقهم، وانهم لا حل لهم سوى البقاء في غربة جبل لبنان. الاشرفية، اكثر اجزاء المناطق الشرقية احساسا بذاتها وتمدينها وارثوذكسيتها المحاصرة بالهجرة المارونية الكثيفة، كانت الارفع صوتا في معارضتها لـ « ماعز» سمير جعجع: من ناحية رفض الجلافة الريفية الحاكمة، ومن ناحية اخرى رفض محاولات الصهر والتذويب لبناء مجتمع عسكري تمجه المدينة بطبيعتها.

تعابير المعارضة اختلفت: بعض لاذ بالرئيس الجميل وحزب الكتائب. بعض اخر ظل يتعاطف مع ايلي حبيقة لاسباب متعددة ليس مجال تفصيلها هنا. وبعض ثالث احتمى بتركيبة الاحياء والزواريب التي نظرت بكثير من الريبة الى خطة جعجع في « اعادة تأهيل » المقاتلين. الطرف الاخير مثلته حركة مارون مشعلاني التي سحقت في ١٠ اب ١٩٨٦.

٢٧ أيلول ١٩٨٦ نجح الجيش في صد اختراق ايلي حبيقة للمناطق الشرقية. العقل الاستراتيجي لجعجع برهن عن بؤسه وتخلفه. الرد كان سريعا: قتل العقيد خليل كنعان وحملة تصفيات وجثث لكل من يشتبه بتعاطفه مع حبيقة في الشرقية.

دم كثير وجثث كثيرة. الاصابع اتجهت الى « الحكيم» عند اغتيال رئيس الحكومة رشيد كرامي ابان تفاقم النزاع حول قبول استقالة الحكومة. الاصابع نفسها اتجهت الى الراهب المسلح حين قتل الراهب الاعزل البير خريش الذي كلفه الفاتيكان في التحقيق مع الاباتي بولس نعمان بشأن بعض مواقفه السياسية. خريش عرف ايضا بانه من اشد المعارضين لبناء الخلايا الحزبية في المدارس.

القوات، بحسب سمير جعجع، عشرون الفا. وقد استطاعوا في ظل قيادته ان يتحولوا الى دولة ظل فعلية؛ تخريج ضباط فيما الكلية الحربية مغلقة. بناء تلفزيون متطور والتلفزيون الرسمي على ما هو عليه. برامج ومؤسسات انماء وتضامن. هذا كله كان ليكون خيرا وحرية وتعددا لولم يكن تتويجا لحرب ومواكبة لقتل لا ينتهي. وكان ليكون مقبولا، بل مطلوبا، لولم ينجم عن سياق يناهض الدولة والجيش ومعهما سائر المجتمع: الكنيسة، النقابات، البورجوازية، المثقفون، المدرسة والجامعة. وكان ليكون واعدا لولم يكن جزءا من سياسة انتحار عدمي تجافي كل المعطيات التاريخية والاستراتيجية والجيوبوليتيكية مما يزعم جعجع السيطرة عليه. وسمير، فوق هذا، لا ينتبه الى حقيقتين بسيطتين، اولاهما ان تجربة بشير لن تتكرر لان اسرائيل لن تكرر اجتياحها في ١٩٨٢. والثانية، وهي لا بد مؤلمة لسمير انه غير بشير. ومعركة مطار حالات تصغير معبر عن التضاد مع طبيعة الاشياء.

عارفو سمير جعجع يقولون عنه اليوم انه خائف من الموت. يفرط في الشراب في المرابع الليلية. الحالة الشعورية بدأت تفلت من عقالها. والشيطان لم يكن في بادىء امره غير ملاك رحيم.



الياس الهراوي

الياس الهراوي صريح ، مباشر ، كريم ،لطيف المعشر ، بذيء اللسان ، فج التشابيه والصور ، محدود الثقافة ، عديم الاوهام ، كثير التعبير ، عالي الصوت ، وقياسا بالصورة المتعارف عليها لمدينة زحلة « مربى الاسود» ، الياس الهراوي هو خير ممثل للزحليين .

احيانا تحمله الصراحة وانعدام الوهم ، وصولا الى انعدام الخيال في اغلب الظن ، الى تقديم نفسه كما خلقتني يا رب . وهو بين الفينة والاخرى يمسك باحد طرفي السترة التي يرتدي ويبعدها عن جسده الملاصق تعبيرا عن انه لا يخفي شيئا . تكاد تقول في نفسك : شلحها الياس ، وشلح امهاوالبنطلون ربما . فهي كلها اضافات لا لزوم لها ايضا . وتنظر حولك في ارجاء مكتبه في الاشرفية فلا تقع العين على لوحة او زهرة ، مكتب قاحل من كل ما« لا لزوم له» ، تتأكد ان الياس لا يتردد .

والياس الهراوي على ظرف روحه قبيح الوجه ، يجاذب الوتر او يبلع الحجر ، بحسب الوصف الشهير لابن الرومي ، وربماكان رأي نائب زحلة ان الجمال لزوم ما لا يلزم ،واما الزبد فوحده الذي يمكث في الارض ، لكن ما هو الزبد يا الياس ؟

زحله،سيقول من دون شك ، لو سئل .

والزحليون يكادون ان يتساووا في صفة لا تجدها عند غيرهم من اللبنانيين ، او لا تجدها بالقدر نفسه على الاقل ،فكل زحلي ، ارتفعت ثقافته او انخفضت عارف بتاريخ زحلة ، ضليع بعائلاتها ،ملم بنزاعاتها ، وراو لصراعاتهاوانقساماتها . وقبل ان يدرج تأريخ المناطق والطوائف في لبنان ، كان عيسى اسكندر المعلوف قد بادر الى تأريخ مدينة زحلة ، مدينته ، فجاء تأريخه اقرب الى التأريخ الحربي ، كما لو ان زحلة لم تعرف في سجل سنواتها الحافلة غير الغزوات وصد الغزوات والضربات والضربات المضادة .

والراهن ان هذا الواقع المشوب بالملحمية وفكرة الحصار هو اصل اهتمام الزحليين بزحلة ، او اصل الشعور الفائض لديهم بهوية زحلية قوامها المبالغة في الاعتداد بالنفس وتقديم الذات وتوكيد القوة والدور ،ومن ثم ، اسباغ اهمية قصوى على كل تفصيل من تفاصيل الماضي والحاضر الزحليين .

يقول الياس الهراوي وعلى وجهه حرقة بادية :

بيتنا في زحلة احرق ثلاث مرات في القرن الماضي :في ١٨٢٠ - و١٨٤٠ و١٨٦٠ .

وفد الهراويون ،او آل الهراوي ، من بسكنتا في المتن الى زحلة في ١٨٠٦ ، وكانوا واحداً من ثلاثة فروع استقر ثانيها في نيحا قرب زحلة ، ومن هذا الفرع النائب الراحل يوسف الهراوي ، وهو يرتبط بقرابات مع الفرع الزحلي عززتها المصاهرات ، اما الثالث فاستقر في بعلبك ، ويبدو انه اندرج في سياق مختلف كرسه الفصل الاداري والانتخابي بين القضاءين .

والد الياس ، خليل الهراوي ، ملاك زراعي انجب ثلاثة صبيان وتعاطى الشأن السياسي في حدوده المحلية كما اصبح عضوا في المجلس البلدي لمدينته ، وزوجته هيلانه حرب من بسكنتا وهي عائلة مارونية تمتهن تجارة الحرير .

بيت الهراوي في زحلة ، الذي لا يتعدى عدد افراده عدد اصابع اليدين ،مثله مثل بيوت الهراويين ، في نيحا ،وجد نفسه في مواجهة سياسية مبكرة مع موسى نمور المقرب من « الكتلة الوطنية» والرئيس اميل اده . وهذا ما أنشأ تعاطفا بين آل الهراوي و« الكتلة الدستورية» عبر عن نفسه في انتخابات ١٩٤٣ حيث خاض يوسف الهراوي المعركة ضد نمور وانتصر بنتيجتها ، ليصبح وزيراً ،ويسجل في انتخابات ١٩٤٧ انتصارا آخر ؟

في انتخابات ١٩٥٣ انتقلت راية العائلة الى الفرع المقيم في زحلة ، وبين ١٩٥٣ و١٩٦٤ شغل المقعد النيابي جورج الهراوي ، شقيق الياس الذي تولى الوزارة مرتين ورأس الوفد اللبناني الى مؤتمر« منظمة الزراعة والاغذية الدولية» وكان ادوار صوما في عدادالوفد ، ومالبث جورج الهراوي ان اصبح رئيسا للمنظمة المذكورة ، لكنه توفي قبيل انتخابات ١٩٦٤ عن خمسين عاما .

وهكذا اعاد الهراويون الكرة على لائحة جوزيف سكاف ، وكان مرشحهم يوسف الهراوي مجددا . الا ان هذا الاخير الذي فاز واصبح رئيساً للسن في المجلس ، توفي بعد احد عشر شهرا على انتخابه وكان في الثامنة والسبعين من عمره .

وجرت انتخابات فرعية شهيرة في ١٩٦٥ كان يفترض ان يتواجه فيها مرشح لآل الهراوي يدعمه جوزيف سكاف والتيار المتعاطف مع المعارضة الشمعونية - الادية ، والشاعر سعيد عقل المدعوم من الأجهزة الشهابية وحزب الكتائب وارمن عنجر واغلبية المقترعين الشيعة في الارياف المحيطة بزحلة . وقرر الياس الهراوي ان يكون بطل المواجهة المضمونة ، وهومثل والده عضو المجلس البلدي في زحلة منذ ١٩٦٢ ولا يزال ، لكن الخيار قر على شقيقه الطبيب جوزيف الهراوي لان الياس « ثوري ولسانه فالت» بحسب تعبيره .واستمر جوزيف نائبا حتى ١٩٦٨ حين تخلى نهائيا لتفضيله الطب على السياسة ، تاركا الكأس الحلوة لشفاه الياس .

وفي انتخابات ١٩٦٨ قال الياس« انا لها» ، وعلى لائحة جوزيف سكاف ايضا لكن الحظ لم يحالفه وكان تزوير الاجهزة شهيرا في زحلة يومذاك ، والهدف من التزوير الحد من قوة المعارضة البرلمانية ، خصوصا وان« الحلف الثلاثي» اكل الجبل المسيحي كله .

وفاز ثلاثة من اللائحة المعارضة لسكاف على راسهم رئيس اللائحة جوزيف ابو خاطر السفير السابق في مصر ، فيما فاز اثنان عن لائحة سكاف ليس سكاف في عدادهما ولا الهراوي ، فعلى اللائحة الاولى نجح الكاثوليكي والماروني والارثوذكسي ، وعن الثانية نجح السني والشيعي،وتسلى الزحليون كثيراً بخطأ الحسابات ، الذي ارتكبته الاجهزة حين اعلنت عن فوز

جورج حداد ، الارثوذكسي على لائحة سكاف ثم تراجعت واسقطته وغيرت الارقام .

اما الفائز يومذاك عن المقعد الماروني فكان الكتائبي جورج عقل ، وبين الكتائب في زحلة وجوزيف سكاف ، حليف آل الهراوي ، خصومة مزمنة ترقى الى الخمسينات يوم وقف في وجهه الكتائبي ، ابن عائلته ، جان سكاف .

ولم ييأس الياس، فخاض المعركة على لائحة جوزيف سكاف في ١٩٧٢، وفاز ودخل البرلمان وفازت اللائحة. وارتبط اسم الياس الهراوي البرلماني حتى ١٩٨١ بموقفين: توقيعه على العريضة النيابية التي طالبت باستقالة الرئيس سليمان فرنجية في ١٣ اذار ١٩٧٦، وانضمامه في ١٩٧٨ الى «تجمع النواب الموارنة المستقلين».

وفي حكومة الرئيس شفيق الوزان التي شكلت في ٢٥ تشرين الأول ١٩٨٠، عهد الى الهراوي بمهام وزارة الأشغال العامة والنقل «فزرت كل المناطق اللبنانية كنائب ووزير. كنت الوحيد الذي وصل الى الجنوب يوم تهديم الجسور في ١٩٨١. لم اعش وزارتي في المكتب. افتتحت اوتستراد شكا والدامور».

تجارة وزراعة وسياسة

ولد الياس الهراوي في ١٩٢٦ في حوش الأمراء في زحلة، ودرس سنتين فيها لينتقل في ١٩٣٨ الى مدرسة الحكمة في بيروت حيث نال شهادة الفلسفة في ١٩٤٦ . بعد ذلك دخل الياس معهد الحقوق في اليسوعية، لكنه ما ان نال بكالوريوس التجارة في العام التالي؟ حتى توقف. . .

وتزوج من منى جمال الفتاة الأرثوذكسية من بعلبك التي تنتمي الى عائلة صغيرة لم تعرف بالسياسة او التجارة. غرام خالص لابن الواحد العشرين، وشقاوة مبكرة لا تنفك تطل من عيني الياس الذي يقول بعض عارفيه انه «حربوق»، ومن شاء ان يتأكد عليه مراجعة نجاحه التجاري .

لقد عمل الياس الهراوي في التجارة مبكراً ولا يزال: في مواد الانتاج الزراعي والصناعة الزراعية. صحيح انه لا يملك الا عشرين هكتارا من الأرض كما يقول، لكنه يستأجر اراضي تصل مساحتها الى ١٥٠٠ هكتار. ولديه شركاء يشاركونه استيراد البذار وتوضيب السلع وشحنها الى «البلاد العربية» ، سوقهم جميعا.

وقد وجد الياس ان من الحيوي استكمال الانتاج الزراعي بالتصنيع الزراعي، فلجأ الى تجفيف الخضار، وخاصة البصل، وهي الصناعة التي تعلمها من المصريين، واقام لذلك مصنعا في البقاع في ١٩٦٢ رأسماله يومذاك ٣,٦ مليون دولار، ومساحة عمله ٩٥٠٠م^2، يشغّل فيه احدث الآلات الألمانية ٢٧٠ عاملا ليلا ونهارا. تلك السلع المصنعة التي يعرف جميع اللبنانيين نتاجها في علب تحمل اسماء «كنور» و«ماجي» راحت تشق طريقها الى اوروبا واميركا وسائر انحاء العالم، حتى اتت نار الحرب على المصنع كما اتت على غيره من مصانع البقاع، مؤدية الى حرمان

مئات العمال اعمالهم . ويسودّ وجه الياس الهراوي ويبدو عليه تأثر صادق وجدي يتعدى مصالحه الشخصية الى ما يشبه الشعور الأبوي حيال زراعة زحلة وتجارتها.

على اية حال فقد انعكس موقع الياس الهراوي على صعيد تمثيلي مهني، فأضحى منذ ١٩٦٣ نائب رئيس غرفة الصناعة والتجارة والزراعة في البقاع، وهي الغرفة التي رأسها الفريد سكاف، بما يلقي مزيدا من الضوء على التحالف السكافي ـ الهراوي الذي لم تفت السنون من عضده. كذلك رأس الهراوي مجلس ادارة تعاونيات مزارعي الشمندر السكري واتحاد التعاونيات الزراعية في البقاع منذ ١٩٥٩، واتحاد التعاونيات الزراعية في لبنان منذ ١٩٧٤، فضلا عما يعزى اليه من نشاط في حقل تجارة النفط ومشتقاته.

ومن ناحية اخرى رأس الهراوي بوصفه نائبا في ١٩٧٤ الوفد اللبناني الى مؤتمر «منظمة الزراعة والأغذية الدولية»، وحينما ذهب مصطفى درنيقة في ١٩٨٠ كوزير للزراعة الى المؤتمر نفسه «رحت معه. خاف يروح لوحده» ، يقولها الياس باعتزاز زحلي متداخل باعتزاز زراعي .

واتبع معظم ابناء الياس الخمسة طريق الوالد، فجورج كبير انجاله درس التجارة. وروي ادارة الأعمال في الجامعة الأميركية، وصغيرهم رولان (٢٣ سنة) نال الماسترز في الصناعة في ستانفورد بالولايات المتحدة الأميركية. اما رينا التي اقترنت بالدكتور سليم حجال، وهو سني المذهب، فتفردت بدراسة البيولوجيا في الجامعة الأميركية، وزيجتها المختلطة تكررت مع نجله جورج الذي اقترن هو الآخر بفتاة سنية من آل مرعي، فيما تزوجت كريمته الثانية زلفاء من فارس بويز ، ابن النائب الكسرواني السابق نهاد بويز.

والياس الهراوي يعتز بمصاهرتيه مع عائلتين سنيتين، فهما دلالة على انه ليس طائفيا. وهذا صحيح. حيث ان طيبة الياس وعفويته شيء وما ينسب للمشاعر الطائفية من خبث وانعزال شيء آخر. الا ان الطائفية مسألة اعقد من هذا يا الياس، وهل ثمة من يجرؤ ان يخوض معك في المسائل التي هي اعقد؟

أي « طائفية » ؟

الياس الهراوي يذهب مذهب التعايش الى الحد الأقصى ، فهو بقاعي مؤيدوه في البقاع، وهناك منبع مصالحه، وبعض مصبها في العالم العربي، هذا فضلا عن الصداقات والأصدقاء وما انطوت عليه السنوات التي انقضت . لكن الياس يتخوف الى الحد الأقصى ايضا. فهو يؤكد ان الموارنة اكثر الطوائف انتشارا في لبنان من القبيات شمالا الى الشريط الحدودي جنوبا، والماروني في وسعه العيش مع الدرزي والشيعي والسني. اما المسلمان من مذهبين مختلفين فيستحيل التعايش بينهما بسهولة: واحدهما يتذكر ايام الفاطميين والآخر يتذكر ايام الأمويين، وهكذا دواليك.

والياس الهراوي الذي لم ينتسب الى حزب ولا اقتنع بأحزاب واشخاص، ولا عمل في صحافة ، ولا كتب، اكثر من يحدثك في مسائل التعايش وهمومه. يلح بصورة متواصلة على العلمنة، وفي اول خطاب ألقاه في البرلمان بعد وصوله اليه في ١٩٧٢ طالب بالعلمنة الاختيارية فكان جواب الرئيس رشيد كرامي يومها : لا تكفر يا الياس. والياس اللاطائفي لا يعرف قصة ذاك الطالب الذي سجل اسمه في الجامعة الأميركية في اواخر القرن الماضي فلما سئل عن طائفته قال علماني، فكتب المسجل مسيحي.

الياس يقول بالعلمنة والزواج المدني والقانون الموحد للأحوال الشخصية، ويروي ان ثلاثة نواب مسيحيين قصدوا بابا الفاتيكان في ١٩٧٨ كي يقنعوه بالايعاز الى الكنائس الغربية في لبنان بتبني العلمنة كي لا يقال ان المسيحيين هم رافضوها. كذلك توجه وفد آخر موسع الى روما في ١٩٨٣ ووافق البابا، واضطر البطريرك خريش يومها لاصدار بيان يؤيد «العلمنة الشاملة».

وهذا الاصرار الحديدي على بت المسألة الدينية مصدره زحلي وفي تاريخ زحلة كما سبق القول، وفي موقعها الجغرافي الذي حكم تاريخها الى حد بعيد. فهي المدينة المسيحية التي تعيش في بعد نسبي عن الجبل المسيحي وقريبا من تجمعات سكنية كبيرة للشيعة والدروز والسنة. وكان تاريخ التعايش بين مجمل هذه الجماعات تاريخا احمر.

وفي جنوب شرق زحلة تقع الصخرة التي تفصلها عن المعلقة التي شكلت حدود متصرفية جبل لبنان، ومنها زحلة، مع سائر اراضي السلطان. والمسيحيون الزحليون المنشدون الى الجبل، وبينه وبينهم فاريا وعيون السيمان والكثيرون منهم وافدون من ذلك الجبل، هؤلاء المسيحيون مصابون بخوف التحولات الحدودية وامكانات تعديل الخرائط. وكل تغيير يصيب الأوضاع السياسية المحيطة يصيبهم بالذعر حيال الآتي، اكان امنيا على شكل حصار وتوتر في العلاقات مع الجوار، ام سياسيا على شكل استبدال في الهوية والانتماء.

بيد ان ما يميز المارونية الزحلية التي صدر عنها ومثلها الياس الهراوي، عن الكاثوليكية الزحلية، يزيدها مضاء وحفزا. فالموارنة في نظر الكاثوليك الزحليين، وفدوا الى مدينتهم من الجبل وفي مراحل متأخرة نسبيا. لهذا فان زحليتهم لم تتوطد وتتأصل كما زحلية الكاثوليك «الاصلاء» ومنهم العائلات السبع الشهيرة، خصوصا وان متوسط الوضع الاجتماعي للموارنة مختلف عن مثيله عند الكاثوليك: الأولون عملوا في الزراعة واتجهوا الى وظائف النصف الادنى من الهرم الاداري، والأخيرون ملاكون زراعيون، متوسطون او كبار، وموظفون في القطاعين الخاص والعام متوسطون او كبار ايضا، مع غلبة اصحاب المهن الحرة.

كذلك انعكس التمايز الكاثوليكي - الماروني على مناطق السكن، اذ في استثناء حي مار مطانوس الصغير في جنوب المدينة يقطن الموارنة بمن فيهم وجهاؤهم من آل الهراوي، اطراف

زحلة الشرقية. وهذه الاطراف تمتد من حوش الامراء في الجنوب الشرقي حيث تقيم اقلية شيعية ضخمت الهجرات المتتابعة عددها، الى المعلقة المجاورة للكرك المسلمة في الشمال الشرقي، مرورا بالمدينة الصناعية. اي ان الموارنة، شأنهم شأن الشيعة لاحقا، اقاموا لدى وفادتهم الى زحلة في الانحاء الطرفية، وبالتالي تلك الاقل تعرضا للتحولات العمرانية والرأسمالية الحديثة.

والشق الجنوبي من هذه الاطراف، القريب من حوش الامراء حيث مدرسة الراهبات المارونية، هو جزء من نصف زحلة العتيق الذي اقيمت فيه السرايا القديمة. ولهذا كتب عيسى اسكندر المعلوف في مطالع القرن ان «البردوني يقسم المدينة الى قسمين، القسم الجنوبي اكثر عمرانا من الشمالي ولكن هذا احدث ابنية من ذاك»، مضيفا ان «الامير بشير الشهابي الكبير لما جاء زحلة سنة ١٨١٤ ورأى معظم ابنيتها في الجانب الجنوبي وليس في الشمالي (..) تأسف لذلك وقال ان البناء سيتكاثر في هذه الجهة الشمالية وترتفع اثمان الارض، فحققت الايام صدق قوله هذا».

هكذا نشأت طائفية مارونية زحلية قوية الشكيمة تبالغ من جهة في اثبات زحليتها حيال التفوق الكاثوليكي، وتعمل، انطلاقا من سكنها الطرفي المتداخل مع السكن المسلم، كحرس حدود لزحلة المهجوسة بتخلي المارونية الجبلية والشمالية عنها في ١٨٦٠، يوم تلكأ يوسف بك كرم فلم يصل لنجدتها في الوقت الملائم. وهذه الشكيمة العصبية بادية في تركيب المجلس البلدي للمدينة. ففيما قضى العرف الاهلي ان يتوزع التمثيل الطائفي للمجلس على الشكل التالي: ٧ مقاعد للكاثوليك، ٣ للموارنة، ٢ للروم الارثوذكس، ١ للسنة، ١ للسريان. صبت الاصوات المارونية على نحو يناقض العرف المذكور، والمجالس البلدية غير محكومة بنص ملزم يقرر الحصص الطائفية، فجاءت النتيجة على الشكل التالي: ٧ للكاثوليك، ٥ للموارنة، ٢ للروم الارثوذكس، وطار التمثيل الاقلي للسنة والسريان. والنائب الماروني، كما يشرح الياس الهراوي، «غير شكل» عن النائب الارثوذكسي في زحلة حيال الزعيم الكاثوليكي. وهذا صحيح نظرا لتداخل الاصول والعائلات والسكن والاوضاع الاجتماعية بين الكاثوليك والارثوذكس الزحليين بما اخمد جذوة الحساسية والندارة، الشيء الذي لا ينطبق على الموارنة والكاثوليك كما سبق الالماح.

وعلى اية حال فمع تنامي حزب الكتائب في اوساط الموارنة الزحليين، وخوضه المعارك النيابية ممثلا بجورج عقل عن المقعد الماروني، بات الياس الهراوي، المعتدل البورجوازي، وذو التعاطف الدستوري والسوق العربية، مدعوا لان يتطرف بدوره

الياس الشخصي، الثقافي، السياسي

لابد من استدراك. فبشاعة هذا القبضاي الياس الهراوي تهم ان تكون مقبولة لانها غير منفرة على الاطلاق. فبرغم المواصفات الجمالية التي لا يحسد عليها، والشتائم التي تخرج من فمه

والقرف الذي يخالط تعابير وجهه واللهجة الزحلية القاسية التي لم تقو المدينة على تطويعها، يبقى شكل الياس الهراوي قرويا.

ظريف، حباب، حكوجي والاصح ديونجي او ربما انغلجي. محادثته سريعا ما تزول رسميتها وتدخل في الكلام الاهلي او قل البيتي. بعد انتهاء الجلسة عرض علينا اعارتنا سيارته لجولة في المناطق الشرقية. اشارة لطيفة وكريمة. وقباحته هي من داخل هذا الاطار العام.

الياس الهراوي معتدل الطول. شعره القصير مخطوط بالشيب. عيونه خضراء، وفي خديه بقع وخطوط قصيرة حمراء هي في اغلب الظن من فعل الاوردة. فمه متسع الانفتاح والانكشاف حين يتحدث وشفاهه على ميل الى الغلظة والمطاطية معاً. انفه حاد ولحم عنقه بالغ التدلي والتهدل. سمين ذو بطن منتفخة انتفاخا يبدو مضافا اليه، ومن ثم مضحكا قليلا. ثيابه انيقة على تقشف وعادية.

يشبر ويعد على اصابعه وهو يتحدث، ومن وقت الى آخر يأخذ سيجارة مارلبورو كأنه يستلها. وهو نرفوز عصبي المزاج، كان يرفع سماعة الهاتف كلما رن الجرس، والجرس كان يرن كثيرا. يكتفي بالقول وبحدة «غلطانة بالنمرة» ويطبق السماعة بحدة مماثلة. ويعود الى الكلام. تكرر هذا المشهد اربع مرات وهو لا يعلق ولا يقول شيئا، الى ان قال، عرضا، في المرة الاخيرة انه يعاني تداخل خطه التليفوني مع خطوط مستشفى اوتيل ديو.

يتحدث عن الطائفية في النفوس لا في النصوص حامل على بعض الشيعة هذه الايام بسبب التطرف الديني والايرانية. حتى العروبة ما عاد يرضى بها هؤلاء، كما يقول. يأخذ على الجامعة العربية عدم ايجاد حل للمشكلة اللبنانية، ويتخوف من تجديد الرغبة الفلسطينية في اقامة مكتب لمنظمة التحرير في بيروت. اما كفانا يا اخي؟ هو ينتقد المليشيات كلها ويطالب بالشرعية. ويرتبك حيال وجود ايلي حبيقة في زحلة: لا اتمنى الا ان لا يحصل صدام بينه وبين «حزب الله» في البقاع. الله يستر.

الياس الهراوي الذي تعاطف مع الشيخ بشير الجميل منذ احداث زحلة في ١٩٨١ وحتى انتخابه في ١٩٨٢، وايد «اتفاق ١٧ ايار» ومن بعده «الاتفاق الثلاثي» الذي حضر حفل توقيعه في دمشق، هو رجل المواقف المتناقضة او على الاقل المتعارضة. ما الذي غذى هذا التعارض؟ موقع زحلة ام عوامل اخرى لم تكن بعيدة عن مواقف نواب موارنة آخرين، معظمهم من الاطراف.

نسأل الياس الهراوي عن هذه الجوانب، ويتحدث:

« الحماس لبشير؟ اتمنى رئيساً للجمهورية يكون مبدأه ١٠٤٥٢ كلم^2 أنا وحدوي، وتعجبني طريقة معالجة بشير للأمور. اجريت حركة تشكيل في المطار وابعدت مسيحيين غير صالحين للمهام التي يقومان بها. اتصل بشير معترضا فالتقينا وشرحت له الأمر واقتنع. لم يزعجني،

مرة، بأي تجاوز وأنا لم اتعرض لتهويل وابتزاز منه.

١٧ أيار؟ الهدف منه كان تخليص الجنوب من الاحتلال، ٧ ـ ٨ قرى لبنانية كانت محتلة في ١٩٤٨ كانت ستتركها اسرائيل لو طبق ١٧ أيار، العالم العربي كان نافضاً يديه منا. الفلسطينيون وتعاملهم مع أهل الجنوب اوصلونا الى ما وصلنا اليه.

الاتفاق الثلاثي؟ كنت اؤكد على « حسب الأحوال » في مجلس النواب. كل شيء يعود الى مجلس النواب. ثم سكتت؟ ماذا ينفع الكلام؟ الذين طلبوا السوريين في ١٩٧٦ لماذا لم يتمسكوا بموقفهم هذا. أصبح المسيحيون يتبعون سياستين في وقت واحد.

إلغاء الطائفية السياسية؟ الكلام عن الالغاء من رأس الشفاف. طالعين من ١٣ سنة طائفية. كيف الالغاء؟

المشاركة؟ حالياً وبحسب دستورنا، المشاركة حاصلة. رئيس الجمهورية لا يستطيع أن يصدر مرسوماً من غير توقيع رئيس الحكومة والوزير المختص، وهو ما ينطبق على تعليق وسام أو نقل سفير. ماذا يعني الفريق الآخر بالمشاركة؟ لا جواب حتى الآن. أنا لا أرضى ان تكون الوظيفة مقرونة بطائفة.

العلاقات اللبنانية ـ السورية؟ الاخوان السوريون لا يريدون الآن بحثها. ينبغي بحثها في العمق. شو بدكم منعطيكم على أن لا تمس السيادة. ما الذي يزعجهم في لبنان؟ الصحافة الحرة. الأمن، نضع حدا لذلك.

الصحافة ايضا؟ يا أخي انت كصحافي الا تمارس رقابة ذاتية. في عهد فرنجية وضع حد. نحن مضطرون ان نضع حدا طالما ان العالم العربي لم يقتنع بعد بضرورة وجود صحافة حرة في لبنان. هل نستطيع ان نتحمل كل هذا. شو بدنا نعمل؟.

والتأهيل ووجود مراكز عسكرية سورية؟ أنا مع الوجود العسكري السوري في بعض مناطق لبنان بانتظار ان يتم اكتمال بناء الجيش اللبناني. خذ زحلة مثلا، من يمكن ان يرد الهجوم عليها لو انسحب السوريون. كم ضابطا مسيحيا قتل في البقاع وهم في ثكناتهم. ربما نتوصل الى توقيع معاهدة لمدة سنة او سنتين مع دمشق. هل نطالب بقوات الامم المتحدة؟ هذا غير واقعي. في الجنوب عندنا امم متحدة، ماذا فعلت. يا أخي مشكلة.

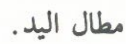
هل يقرأ الياس، هل يتابع؟

القراءة، الياس ليس ابن وجدتها.

صحف اجنبية؟ لا، إلا اذا كنت مسافرا. باري ماتش، فيغارو.

صحف محلية؟ بأكثريتها. مع أنها الاخبار نفسها أقرأ المقالات والتحليلات

« السفير » محرومون منها. نشتريها في البقاع. وكذلك المجلات الاسبوعية التي هي تحت



مطال اليد.

الصفحات الثقافية ؟ بعضها، الوقت، اهتم بما يتحدث عن لبنان أيام العز.

المتابعة السياسية عموماً ؟ أسمع الاخبار كثيراً على الراديو، نفس الأخبار.

سينما ؟ في صباي كثيراً، بوجود تلفزيون لا حاجة.

مسرح، رسم ؟ لا لذة، أحب أم كلثوم، كنت منذ صباي أذهب الى مصر لحضور حفلاتها، وكل حفلاتها في لبنان حضرتها، أحب الغناء البلدي. القرادي والمعنى والشروقي.

أدباء، شعراء ؟ لا، كاري تجارة، مصلحتي منذ سنوات.

بالله عليك اسم واحد يا الياس، اسم واحد، أيا كان الاسم؟عبث.

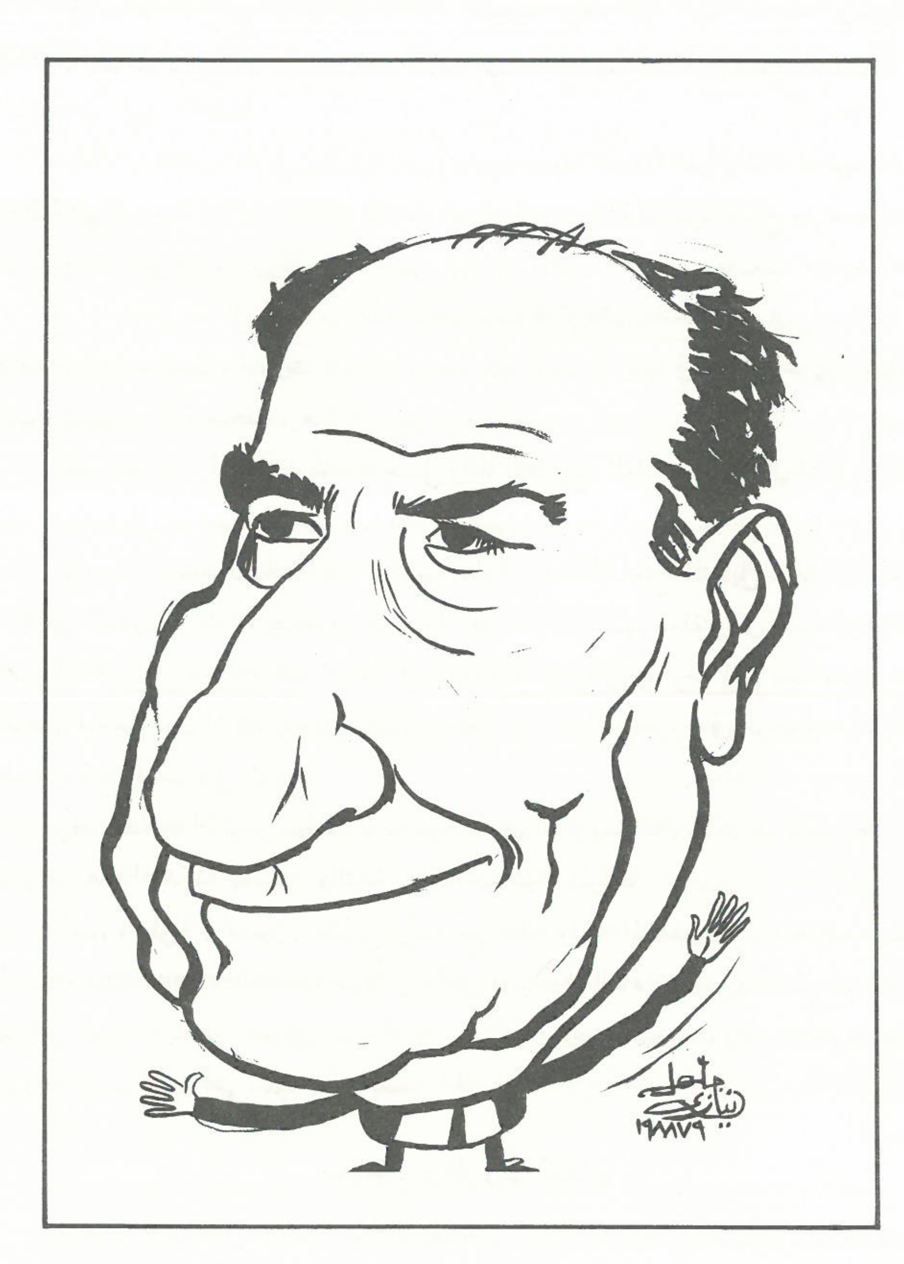
معرفة العالم العربي ؟ زرت البلدان العربية كلها. كتاجر او كعضو بلدية في مؤتمرات المدن العربية وفي مؤتمرات الغرف الزراعية.

معرفة حميمة ؟ لا، زرت مرة الصين الشيوعية، تساءلت في نفسي لماذا أتيت. لكنني وجدت عالماً مستقلاً بذاته. هناك يصح القول ناموا وبيوتكم مفتوحة.

شخصيات سياسية لبنانية ؟ اعجاب وغرام برياض الصلح، وهو صاحب الفضل الاكبر في استقلال لبنان وقبوله عضوا في جامعة الدول العربية.

شخصيات عربية ؟ لا بد من انصاف الأموات، عبد الناصر كرهه المسيحيون منذ ١٩٥٨، لكن دفاعه عن لبنان في ما بعد يستحق الاحترام، وعندي تقدير خاص حاليا للرئيس الاسد. الأمر ليس سياسياً فقط. في ١٩٨١ خلصت زحلة بالاتفاق معه وبتكليف من الرئيس سركيس في ١٩٧٦ كانت زحلة محاصرة... عظمة الاسد اليوم من ينكرها. قد لا أكون ممنوناً من كل سياسته. هذا شيء آخر. بعد غياب الدور المصري لا بد من ترتيب علاقتك مع جيرانك.

ودعنا الياس الهراوي الى باب المصعد. سألنا وأوصانا. وقهقهنا على باب المصعد كثيراً، فيما كان يسرح دعايات تلفزيونية لسلع زراعية تؤديها امرأة جميلة ومثيرة.



فريد سرحال

فريد سرحال يحب السياسة القديمة بحسب قوله، كما يحب المتاحف والموسيقى الكلاسيكية، ويمارس الجراحة بحسب الطرق التي تعلمها في الجامعة من دون ان يعبأ بمتابعة المستجدات التي تلاحقت.

وتخال ان النائب الجزيني ينشدُّ الى الماضي بخيوط عديدة متفاوتة القوة والمتانة بما فيها الملابس الداكنة التي يرتديها. وما من شك في ان سوء فهم ما يحيق بعلاقة الطبيب الجراح مع هذه الدنيا. فهو ليس هنا. اين فريد؟ موزع، والله اعلم، في ما بين حقول واهتمامات يصعب حصرها، لكن الواضح انه يتعامل مع كل واحد من هذه الاهتمامات كعالم قائم بذاته، وتظن ان رأسه كناية عن غرف متعددة تساكنت وتجاورت الا ان الواحدة منها اوصدت بابها في وجه الاخرى: سياسة، طب، تعليم، اقامة متحف، مزارع، مواش وطبيعة.

تظن ايضا ان رأس فريد ما عاد يحتمل وطأة التضارب القائم فيه، فأحال الامر الى غيب ما، والغيب يأتي بما يصعب حسبانه، فلعل وعسى.

تراه يسير بجثته الضخمة طولا وعرضا فتقول ان هذا الهودج المتمايل قليلا الى اليمين، قليلا الى اليسار، لا بد ان يصطدم بجدار ما. فعينا فريد تحسهما معلقتين في فضاء او في غيوم قصية لا حصر لها. ويتراءى لك ان الرجل اذا ما وجد نفسه وجها لوجه امام باب مغلق حاول الدخول منه من دون ان يمد يده الى المقبض، وفقط بعد اصابته بجروح في الوجه والجسم اقتنع بضرورة فتح الباب قبل الولوج.

ولهذا يصعب ان توجز سياسيّة فريد سرحال بعنوان او بصياغة، اذ هو هنا وليس هنا، وقد صار هنا هكذا وهكذا يستمر، والتبعثر والتشتت سيدا الموقف.

أسمر، طويل، سمين، يشكل رأسه مع عنقه وذقنه المتصلين شبه منحرف متساوي الأضلاع (Isosceles trapezoid) ضيقاً في الأعلى فسيحاً في القاعدة. وفريد أصلع مع شعرات قليلة في الوسط تزيد على الطرفين بنسبة لا يعتد بها كثيرا. عيناه صغيرتان وانفه متقدم بما يتجمع في وجه أرنب طيب أنهى لتوه قضم بعض الجزر.

سليمان ومارون كنعان

فريد سرحال نجل سليمان سرحال المحامي، وادال كنعان ابنة سليمان وشقيقة مارون اللذين تعاقبا على زعامة جزين سنوات طويلة.

وآل سرحال، مثلهم مثل اقاربهم آل كنعان، هم بالأصل فرع من عائلة قطار التي تعد احدى اكبر العائلات الجزينية.

ولئن سمي جد فريد لابيه السرحالي شيخ الضيعة، فدخول القطاريين الى السياسة تم من

بوابتهم الكنعانية. فسليمان كنعان، جد فريد لامّه، كان قد درس المحاماة في وقت مبكر واضحى وكيلا عن جنبلاطيي البرامية لا سيما منهم نسيب وعلي باشا جنبلاط اغنى الملاكين في جزين المجاورة.

ولما كانت احداث ١٨٦٠ قد تسببت بحوالي ١٥٠٠ قتيل في جزين وجوارها من دون ان يصار بعدها الى حل مشكلة الارض، عمد سليمان كنعان بعد ان هدأت النفوس الى اقناع كبار الملاكين الجنبلاطيين بأن يبيعوا اراضيهم في جزين تفادياً للمشاكل من فلاحيها، ويشتروا في مقابلها اراضي في بيروت اكثر ادرارا للربح والعائد.

وبدورها فان الحياة الباذخة للبكوات الدروز حملتهم على الانصات بجد الى نصائح محاميهم الذي ساعدهم على وضعها موضع التنفيذ، فراح يستدين من مؤسسات مالية في بيروت ويشتري الارض التي يبيع اجزاء منها الى الفلاحين بالتقسيط.

وبأدائه هذا الدور الوسيط تحول سليمان كنعان، في آن معاً، الى ملاك كبير وزعيم متنت صلته بالفلاحين الجزينيين واقعة تملكهم الارض عبره، لأول مرة في حياتهم، بعد حياة آبائهم واجدادهم.

وسليمان الذي ما لبث ان نفاه العثمانيون لمشاطرته النخبة المسيحية في الجبل رغبة الاستقلال عنهم، سريعا ما تعرض لنفي آخر على ايدي الفرنسيين. وقصة النفي الى كورسيكا باتت معروفة عند لبنانيين كثيرين.

فسليمان الذي كان عضواً في مجلس ادارة جبل لبنان السابق وأحد الاعضاء الذين توجهوا الى مؤتمر الصلح في باريس، شارك زملاءه تأييد مقررات «المؤتمر السوري» للعام ١٩١٩ لجهة تمتع لبنان باستقلال نسبي من داخل الاتحاد السوري. وقرر اصحاب هذا الرأي ان يتوجهوا الى دمشق ويبايعوا فيصل بن الحسين، تمهيدا للانتقال الى حيفا ومنها الى اوروبا لاعلان موقفهم هناك. وفي مكان ما قرب ضهر البيدر استطاع جنود الانتداب ان يعتقلوا سعد الله الحويك وخليل عقل ومحمد محسن وسليمان كنعان وفؤاد عبد الملك والياس الشويري وينفوهم الى تلك الجزيرة الصغيرة.

بعودة كنعان من منفاه والاستقبال الضخم الذي لقيه في جزين وسائر الجنوب، تحققت له قاعدة شعبية لم ينظر الفرنسيون اليها بعين الارتياح.

ومنذ اقامة «اللجنة الادارية» في ايلول ١٩٢٠ بدأت جزين تتمثل اما باعيان من خارجها كنصري عازوري من قرية عازور الصغيرة، او برموز العائلات الجزينية الصغيرة والمتوسطة حجما التي سبقت القطاريين في العلم والثراء ولم تستسغ الصعود الشعبي لسليمان كنعان، الزعيم الجديد للفلاحين والعامة.

وابرز هذه العائلات وانشطها في مناهضة كنعان هي ناصيف والمعوشي وعازار وعزيز التي تكثر المصاهرات في ما بينها ، كما ان «الهيئة السياسية» لجزين القرن التاسع عشر انبثقت من بين صفوفها. فمنصور يوسف المعوشي وفرحات ناصيف شغلا عضوية مجلس ادارة جبل لبنان قبل سليمان كنعان بسنوات، فيما كان سليم ضاهر المعوشي قائمقام جزين في عهد المتصرفية، ويوسف ناصيف قائد الفرسان في العهد نفسه، وسليمان المعوشي واحدا من ضباطه.

على اية حال فقد جيء في «اللجنة الادارية» التي سبقت الاشارة اليها بنصري عازوري، وهو الذي تكرر تصدره في المجلس التمثيلي الأول (١٩٢٢ - ٢٥) ليحل محله في المجلس الثاني (١٩٢٥ - ٢٦) حبيب ناصيف الذي اعاد الكرة في مجلس النواب الأول (١٩٢٧ - ٢٩). ولم يتحقق لسليمان كنعان ما اراده الا في مجلس النواب الثاني (١٩٢٩ - ٣٢) حيث تمكن من ايصال نجله سامي الى الندوة.

ويبدو ان هذا التطور الاخير ترافق مع تحول في توجه الكنعانيين القطاريين ممن وقفوا في الثلاثينات في صف «الكتلة الوطنية». ففي عهد الرئيس اميل اده، وفي ١٩٣٧ تحديدا، وصل مارون كنعان النجل الثاني لسليمان الى برلمان يسيطر عليه اديون اقحاح، وهو ما تكرر في مجلس ١٩٤٣ الذي سبق انتخاب الشيخ بشارة الخوري رئيسا للجمهورية.

لكن برلمان ١٩٤٧ الذي صنعته الى حد بعيد مداخلات العهد الدستوري غاب عنه مارون كنعان ليحل محله ابراهيم عازار المقرب من بشارة الخوري والمعبر الجديد عن حلف العائلات المناهضة للقطاريين.

قبيل سقوط الخوري وفي برلمان ١٩٥١ الذي رفع عدد المقاعد النيابية من ٥٥ الى ٧٧، ورفع التمثيل الماروني لجزين من نائب واحد الى اثنين، تمكن كل من مارون كنعان ورشاد عازار، شقيق ابراهيم، من دخول المجلس، بما عكس الاستقطاب الحاصل في المدينة نفسها. لكن فيما تحولت دستورية العائلات التي يمثلها عازار الى معارضة للرئيس شمعون يغذيها ابن احدى هذه العائلات البطريرك بولس المعوشي، انتقلت معارضة كنعان للدستورية الى موالاة للعهد الشمعوني الصاعد جعلت منه احد ابرز الشماعنة في البرلمان.

بيد ان البرلمان الشمعوني الأول (١٩٥٣ - ٥٧) الذي اعاد تقليص عدد النواب الى ٤٤ منح قضاء جزين مقعدين، واحدا للموارنة واخر للكاثوليك ممن يقيمون في الساحل والوسط. وكان مارون كنعان هو النائب الماروني.

جان عزيز والكتائب

في ١٩٥٧ رفع العدد مجددا الى ٦٦ لجزين ثلاثة مقاعد منها، اثنان للموارنة وواحد للكاثوليك. الا ان الحظ لم يصاحب الشمعوني مارون كنعان في الوصول الى اكثر البرلمانات

(الشمعونية)اتهاماً بالتزوير والسبب في ذلك ان كنعان الذي افترض انه استوى على عرش النجاح الذي لا يتزحزح عنه اصطحب معه ابن شقيقته فؤاد سرحال، شقيق فريد الذي اقترن بشقيقة شارل حلو رئيس الجمهورية اللاحق.

يومذاك رسب الخال وابن اخته، وفاز فريد قوزما الذي ينتسب الى احدى قرى قضاء جزين، وقد اضحى قوزما وزير الانباء في اخر حكومتين شكلهما الرئيس سامي الصلح في ١٩٥٨ اما المقعد الماروني الثاني فذهب للمرشح الشاب جان عزيز، ابن شقيقة البطريرك المعارض بولس المعوشي والمحامي الذي تدرج في مكتب المحامي ابراهيم عازار، ليعمل في القضاء تاليا.

منذ ذلك الحين اصبح المحامي الحديث الوفادة الى الصدارة السياسية زعيما اوحد للعائلات المقابلة للقطاريين ومارون كنعان، خصوصا وان عزيز ما لبث ان اضحى احد الاقطاب الشهابيين البارزين.

لكن قبل ذلك شهدت الحياة السياسية في جزين تحولا ليس قليل الاهمية: ففي ١٩٥٩ اي في السنة الثانية للعهد الشهابي وكان البرلمان لا يزال ذاك الموروث عن انتخابات ١٩٥٧ في العهد السابق، توفي النائب فريد قوزما وجرت انتخابات فرعية مهمة تواجه فيها مارون كنعان والمرشح الكتائبي الدكتور بازيل عبود، وكانت الكتائب قد شرعت تحصد نتائج الفورة الشعبية المارونية التي تحققت لها بنتيجة مشاركتها في حرب ١٩٥٨ الاهلية.

عبود العضو الكتائبي الملتزم منذ ما ينوف عن عشرين عاما، والذي ينتمي الى احدى قرى قضاء جزين لا الى البلدة الكبيرة نفسها، حظي بدعم متعدد الاطراف. فقد ايده وجيه الصالحية وشرق صيدا هنري خوري الذي سحب ترشيحه لصالحه قبل ٤٨ ساعة على التصويت، كما ايده جان عزيز واحمد الاسعد الزعيم الشيعي الجنوبي الأول، ومعروف سعد الوجه السني البارز في المنطقة. اما كنعان فحصل على دعم يوسف ونقولا سالم، والاخير كان قد فاز بصورة كاسحة عن المقعد الكاثوليكي في تلك الدائرة من جنوب لبنان في ١٩٥٧ وطبعا دعمه الرئيس السابق شمعون.

ويعلق جان. ب. أنتليس صاحب الكتاب الذي لا يزال الاكثر مرجعية عن حزب الكتائب، على المعركة المذكورة بقوله:

«لقد اثارت الحملة اهتماما واسعا اذ بلغت نسبة المقترعين ٦٦ في المائة (وهي نسبيا نسبة مئوية مرتفعة قياسا بالانتخابات اللبنانية)، ونجح عبود في ان يلحق الهزيمة بخصمه الموالي لشمعون بفارق يقارب الـ ٣٠٠٠ صوت، الامر الذي اسماه رئيس الكتائب «انتصارا للبنان».

مذاك اضحت الكتائب جزءا من الحياة السياسية الرسمية لجزين، يتحالف مرشحها مرة مع جان عزيز ضد مارون كنعان ومرة مع كنعان ضد عزيز، ففي الانتخابات العامة الأولى للعهد

الشهابي (١٩٦٠) نجح تحالف عزيز وبازيل عبود في ابقاء كنعان خارج البرلمان أربع سنوات اخرى، الشيء الذي شكل امتدادا محليا للتحالف الكتائبي مع الشهابية، لكن انتخابات ١٩٦٤ اوصلت عزيز وكنعان المتحالفين معا، ليحل محل الثاني في ١٩٦٨ كتائبي اخر هو ادمون رزق.

في ١٩٧٢ نترك الرواية لفريد سرحال نائب جزين الحالي وابن شقيقة مارون:

«كان جان عزيز قد كبر نفوذه كثيرا خصوصا وانه اتبع الخط النهجي الذي صار من اقطابه. عائلتنا رأت ان مارون كنعان اصبح كبيرا في السن وسياسته تقليدية جدا. حصلت انتفاضة حبيّة عند جماعتنا ووقعت القرعة عليّ. مددت يدي الى جان عزيز لانني لا احبّ الانقسام والعنف، كي نؤلف لائحة مشتركة، لكنه رفض لاسباب لا اعرفها وشكل لائحته فشكلت انا لائحتي».

لائحة جان عزيز ضمت يومها الماروني كلود عازوري والكاثوليكي جورج ابو عضل فيما ضمت لائحة فريد سرحال الماروني الكتائبي يومهاادمون رزق والكاثوليكي نديم سالم، وكتب الفوز لكامل افراد اللائحة الثانية بفوارق ضئيلة جدا في الاصوات.

بيد ان انتقال الزعامة في اسرة قطار من جب كنعان الى جب سرحال لم يكن من دون دلالات، مع ان حصول هذا الانتقال عبر فريد سرحال ذي الام الكنعانية قلل من حدته.

فالسرحاليون اكبر عدديا من الكنعانيين واغنى منهم بفعل احتفاظهم بالاراضي التي تملكوها وافادتهم من عائداتها لتوثيق صلتهم بالعلم والتجارة والمهن الحديثة. وربما كانت اسرة سليمان سرحال، والد فريد، عيّنة نموذجية، فالمحامي الراحل ترك وراءه خمسة انجال هم ثلاثة اطباء ومحاميان هم جميعهم ملاكون.

بدوره فان مارون كنعان الذي كان «شيخ شباب» بدد الكثير من ارضه وماله بالهدر والانفاق غير المنتج، على غرار معظم زملائه ومجايليه من افراد تلك الطبقة الاجتماعية - السياسية.

أنـا تران

ولد فريد سرحال في ١٩٢٣ في جزين، ودرس في «الاخوة المريميين» في صيدا لينتقل الى اليسوعية في بيروت، حتى اذا ما اتم المرحلة الثانوية نال شهادة الطب من كلية الطب الفرنسية، مغادرا بعدها الى باريس حيث انهى في ١٩٤٨ تخصصه في الجراحة والتشريح.

تلك كانت فترة سياسية غنية في فرنسا، هل كنت تتابع السياسة الفرنسية يومذاك يا دكتور؟.

لا يا سيدي. يجيب سرحال بكثير من المهابة والثقة بالنفس. لا متابعة لاي سياسة. تفرغ كامل للطب. اطروحتي كانت عن تشريح الدماغ والوظائف الدماغية.

وتمضي سيرة نائب جزين: ففيها كان لا يزال في باريس عين استاذا اصيلا في كلية الطب

الفرنسية في بيروت. الطبيب الشاب وجد جميع احصنته مسرجة حال تخرجه، ولم تنقض فترة قصيرة عمل خلالها رئيسا لقسم الجراحة في «اوتيل ديو»، حتى انشأ، في ١٩٥٢، مستشفى صغيرا للجراحة على طريق الشام التي اضحت في السنوات الاخيرة خط تماس حربياً.

في موازاة ذلك عمل سرحال في مستشفيات صيدا التي كان يؤمها ابناء جزين، وظل هذا حاله حتى سنوات خلت حين ادت به القطيعة المفروضة على المدينتين لان يعمل في مستشفى انطوان عساف في جزين. وخلال عمله في صيدا، ثم في جزين، كانت له خدماته التي عززت من دون شك انتقاله اللاحق الى الحياة السياسية؛ مجددة موقعه التقليدي في هرم العلاقات العائلية المتوارثة.

نسأل سرحال عن ذلك، فيجيب: مارست الخدمات الطبية غير التجارية على اوسع نطاق.

هل كانت تقتصر على الجزينيين؟.

ليس فقط جزين. كانت تتعداها الى الجميع.

يضيف بعد برهة صمت: ربما كنا نساير جماعتنا في جزين اكثر قليلا. يقهقه.

وفريد سرحال يصعب ان ينسى انه طبيب حتى حين يكون خارج المستشفى والعيادة. فالى اشقائه الاطباء، انجب هو اربعة اطباء من اصل خمسة ابناء. اولهم بيار (٣٣ سنة) جراح، والثاني بول يصفه ابوه بأنه «اختصاصي عالمي في العقم» في لندن، والثالث كميل يمارس جراحة القلب في فرنسا. اما كريمتاه فاحداهما، غريس، طبيبة عامة تزوجت اخصائيا بالكلي هو الدكتور جوزيف شاهين، ولم ينج من هذا القدر الطبي في بيت سرحال الا كريمته الثانية التي آثرت دراسة التاريخ والادب الانكليزي.

وكما البيت كذلك البرلمان حيث يشغل فريد عضوية اللجنة الصحية النيابية، من دون ان يتردد في المناقشات العامة في تعداد بعض المرضى والامراض دفاعا عن حجة او تعزيزا لنقاش.

والجامعة بدورها مكان آخر لطبابة فريد حيث لا يني منذ ١٩٥٤ يمارس تدريس الطب في كلية الطب الفرنسية.

لكن فريد ليس مجرد سياسي وطبيب واستاذ طب، فهو ايضا رجل ذو موقع في ميدان الارض والمال، اذ فضلا عن الاراضي التي ورثها عن والديه، اقترن في ١٩٥١ بالانسة اولالي خوري من صيدا والمتفرعة بدورها عن بيت لكبار ملاكي الاراضي في الزهراني. وهكذا يعد فريد سرحال على اصابع يديه: اراضي في الزهراني، وفي صيدا، واراضي لا حصر لها في جزين، انا عندي مزارع ضخمة من جميع انواع الاشجار الساحلية والجبلية واهتم بالزراعة العصرية. اتابع واقرأ واجلب باستمرار نصوبا جديدة من الخارج، وعندي مزارع مواش من بقر وغنم وماعز.

هذه هواياتي الحقيقية. الطبيعة. آه الطبيعة، ويوسع فريد صدره ويتنشق هواء المكتب الذي نجلس فيه معا في البرلمان، فيما اعمال التصليحات في «قصر منصور» تنشر الغبار في الهواء كله. شيء من عالم ميل بروكس .

وفريد اكثر من هذا كله. فهو ايضا، صدق او لا تصدق، صاحب متحف. يروي: في ١٩٦٥ عملت مزرعة وعملت بعد عامين متحفا للتراث الشرقي في جزين تطغى عليه الصفة الاسلامية ولم ينته العمل به بعد. يحدثنا عن محتوياته التي هي اعادات انتاج يتولى صنعها المزارعون والعاملون عنده، ويستطرد: انا كنت اريد ان اعمل مهندسا، وفي ١٩٤٠ اهلي لم يسمحوا لي بالسفر بسبب الحرب، من اجل المتحف زرت الشرق الاسلامي كله واشتريت الكثير من الانتيكا والاثاث. اتردد على البسطة وغيرها لشراء اراكيل و... هذا احبه كثيرا، واحب الطبيعة كثيرا. انا من اصدقاء الطبيعة.

لكن يا حكيم كيف تستطيع التوفيق بين السياسة والنيابة والطب والتعليم والاملاك والمزارع والطبيعة والمتحف...

انا طبيب مواظب ونائب مواظب وصاحب متحف مواظب... انا تران يا استاذ، كما ترى.

وقد اتيح لموقعي هذه الاسطر ان يشاهدا متحف سرحال، وهو فعلا عمل ضخم يطلق عليه الجزينيون تسمية «القصر». الجهد والدأب واضحان وضوح مهارة النحات والصناع الجزينيين والاموال الطائلة التي انفقت ولا تزال تنفق. لكن الدكتور سرحال تجشم هذا الهول كله من دون استعانة بمهندس او خريطة. انها بنات افكار الطبيب في شؤون.... الهندسة المعمارية. وعسى ان تكتب الحياة لـ «هواية» الدكتور فلا يسفر كل هذا الجهد وهذا الدأب وهذا المال عن كارثة لا يستطيع ان يتلافاها الا المهندسون وخرائطهم.

آراء واهتمامات

فريد سرحال الذي لم يمارس عملا حزبيا او نقابيا او صحافيا في حياته يقول انه يرى باستمرار الصحف الفرنسية، اما المحلية فهو دائما يقرأها واكثر شيء، بحسب قوله، «النهار» و«السفير».

صفحات ثقافية؟ قليل. اذا كان عن الفن. التراثيات. الفن القديم. اقصّ صوراً واضعها في الدوسييه .

شعر وادب؟ مش صحبي. بحب اسمع الزجل. الزجالون كلهم مناح. زغلول الدامور، شعيب... انا هاوي موسيقى. اللون الكلاسيكي. اكان الاجنبي او العربي. عبد الوهاب. ام

كلثوم موزار لانه يعطيك موسيقى حلم.

تسمع من فريد سرحال نعوتاً تكاد تظن ان استعمالها انقرض، مثل: كتاب «نفيس»، فيما هو يتحدث عن مجموعة رسومات بيار صادق المنشورة، والذي وصفه بـ «العبقري».

هل زرت وعرفت العالم العربي؟.

زرته كله لكن ليس لاسباب سياسية، بل سياحية وفنية. لم اعش ولم اعمل فيه.

ولبنان؟.

اعرف لبنان جيدا.

هل من سياسيين اثاروا عندك اعجابا او رغبة في الاقتداء؟.

طبعا. عالميين. تعجبني السياسة التقليدية القديمة. الجديدة كالاميركية لا احبها. احب الاوروبية. البريطانية كثير. فيه قاعدة. فيه مبادىء. الاميركان ما بتعرف شو بدهن. حدن بيعرف؟ انت بتعرف؟.

كيف تنظر الى المسائل السياسية والاصلاحية المثارة اليوم؟.

كل المسائل الاصلاحية الان يجب ان تتجمد الى ما بعد الاستحقاق الرئاسي، ويجب بحثها بعد الانتخابات. القضايا معقدة كثيرا ما بعرف كيف بدنا نطلع منها (مع هزة رأس توحي باليأس المطبق لصاحبها).

يستطرد فريد: بعد الانتخابات كل القضايا يجب بحثها بنكران ذات ومن دون تشنج. وعلى رئيس الجمهورية الذي سينتخب ان يكون حكما بين اللبنانيين ولبنانيا ١٠٠٪.

يكرر: القضايا معقدة كثيرا.

وما يقال حول الغاء الطائفية السياسية؟.

لبنان يجب ان لا يكون اسلاميا ولا مسيحيا ولا حتى علمانيا. لذلك الطائفية السياسية ستبقى لها جذورها. ليس لانني انا اريد. لكن ما بتقدر...

وسوريا؟.

ما بتقدر تتجاهل سوريا. يجب ان تكون العلاقات ودية مع سوريا. كيف نقنعهم ويقنعوننا مسألة اخرى. معقدة كثيرا. اوف.

الاتفاق الثلاثي و١٧ ايار؟.

الاتفاق الثلاثي لم اتدخل. لم أدرسه. ١٧ ايار لم اكن معه. انا لا احب النفوذ. ١٧ ايار اسرائيلي. الثلاثي سوري. في حالات الضغوط لا اتدخل.

وماذا عن وضع جزين؟.

حاليا انتهت مشكلة جزين، خصوصا وقد بدأ الجنوب يرتب نفسه بعيدا عن العشوائية

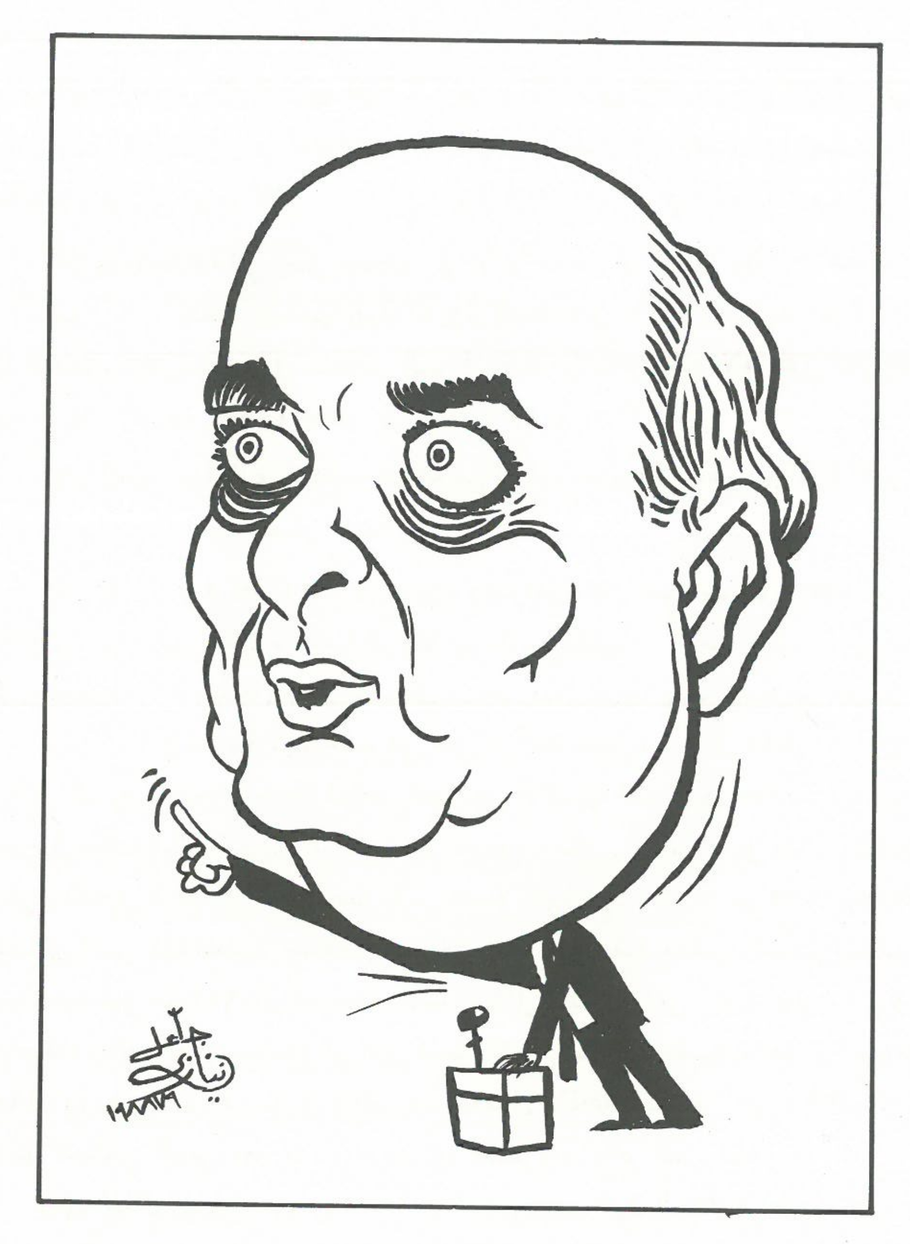
السابقة. حاليا لا احد له مصلحة بالدخول الى جزين. اذا دخل الشيعي دخل الدرزي والعكس.

يقال ان لحد تضايق من انفتاحك على صيدا، وهناك من ينسب لك الانزعاج من لحد وانك كنت تراه ابان وجود الاصوليين شراً لا بد منه، اما الان فقد انتهى كل مبرر لذلك.

هل تذهب حاليا الى جزين.

منذ ١٩٧٥ اذهب اسبوعيا الى جزين جوا او برا او بحرا.

فريد سرحال هو من نوع الاشخاص الذين يمكن ان تضيف الى اشخاصهم ذات الهويات الضائعة المبعثرة تعبير: جواً او براً او بحراً. ومن هذا القبيل اعلن مؤخرا من صيدا انه يفكر جدياً في ترشيح نفسه... للرئاسة.



ادمون رزق

يصر ادمون رزق على أن لا يتحدث عن الماضي. تسأله عن أيام كان فيها كتائبيا، يجيب: عفا الله عما مضى. اذا كنت اخطأت ارجو أن يعذرني الذين أخطأت بحقهم، أما الذين اخطأوا بحقي فاني أعذرهم. كلام أخلاقي بامتياز لا يخلو من المآخذ التي تؤخذ على كل كلام أخلاقي.

وتسأل ادمون رزق عن جزين، عن عائلاتها والسياسات والنزاعات التي اتصلت بتلك العائلات، فيأتيك جواب مماثل، لان ادمون يؤثر ان لا يتحدث في الماضي.

والنزعة الاخلاقية التي تحمل صاحبها على ان لا يتحدث في الماضي ولا في الاشخاص، نزعة متعبة في آخر المطاف. صاحبها يقول انه يؤثر التحدث في الافكار والمبادىء. تقول له ان تلك الافكار والمبادىء تتجسد في اشخاص وليس في اطياف واشباح. لكن ولاءه المثالي الذي يجلو نفسه في حلة اخلاقية وخطابية يحافظ على ممانعته، فلا يقول الا القليل.

ولان القليل جدا الذي استطعنا انتزاعه من النائب الجزيني لا يكفي، لجأنا الى اخرين كثيرين جمعنا من افواههم مصادر القصة.

ولد ادمون رزق في اذار ١٩٣٤ في جزين، والده امين رزق الذي اسس في ١٩٣٦ جريدة «الحديث» اليومية التي انيطت به رئاسة تحريرها فيما عادت ملكيتها الى الياس حرفوش. وفي هذه اليومية الجزينية (١٢ صفحة) عمل الصحافي الراحل سعيد فريحة بعيد عودته من حلب.

درس رزق في مدرسة سيدة مشموشي حتى البريفيه لينتقل بعدها الى الحكمة في بيروت ومنها الى اليسوعية ويتخرج حاملا شهادة الحقوق من الاكاديمية اللبنانية في ١٩٥٧. وبعد فترة التدرج في مكتب النائب البيروتي الراحل شفيق ناصيف، انتقل رزق الى العمل المستقل كمحام جزائي. لكنه في طريقه الى تلك المحطة مارس اعمالا كثيرة حيث علم ما بين ١٩٤٩ و١٩٥٨ منتسبا الى مجلس نقابة المعلمين وشاغلا رئاسة لجنة الدفاع عن حقوق معلمي المدارس المجانية. والى التعليم عمل منذ ١٩٥١ في الصحافة منتسبا ايضا الى نقابة المحررين. فتنقل ما بين «البيرق» و«الجريدة» و«العمل» و«السياسة» التي تولى المسؤولية عن صفحتين للسياسة الخارجية فيها في ١٩٥٦. وفي ١٩٥٨ ـ ٥٩ عمل في «الانوار»، ومعها في الاذاعة حيث بقي حتى ١٩٦٨ وكتب التعليق السياسي اليومي وهو ما كتبه، كذلك، للتلفزيون اواخر الفترة المذكورة.

وعلى النطاق الجزيني شارك في ١٩٥٦ في تأسيس «نادي فتيان الشلال في جزين» و«رابطة شباب منطقة جزين مغدوشة». فهنا البداية التي قادت الى كل شيء آخر، وهنا النهاية حتما.

في جزين

قبل دخول ادمون رزق حلبة العمل السياسي بمعناه البرلماني في ١٩٦٨، كان الجزينيون ينقسمون الى فريقين: آل قطار بزعامة سليمان كنعان وحلف العائلات غير الكبيرة عدديا

(المعوشي، ناصيف، عازار، عزيز) التي رأت ان اسبقيتها في العراقة تعطيها احقية التمثيل وأرجحية الصدارة قياسا بالقطاريين.

اما محاولة تغيير هذه المعادلة فكانت دائما تصدر عن خارج جزين: في البداية عبر آل عازوري من قرية عازور التي برز منها نصري ومن بعده كلود، ممن اقتصر طموحهم السياسي على ضرورة اخذهم في عين الاعتبار الى جانب القطب الجزيني.

بعد ذلك صدرت محاولة تغيير هذه المعادلة عن حزب الكتائب المتواجد في قرى الوسط والساحل، والذي ظهر منه تقليديا رشاد سلامة ابن الشاعر بولس سلامة، من قرية بتدين اللقش الصغيرة، والدكتور بازيل عبود من قرية القناية (صيدا)، فنجح الاخير في ان يلحق الهزيمة بمارون كنعان في الانتخابات الفرعية التي اجريت في ١٩٥٩.

ولم يتردد عبود تعقيبا على انتصاره، الذي كرره في ١٩٦٠ عبر تحالفه مع جان عزيز الخصم التقليدي لكنعان، في ان يعتبر فوزه الانتخابي تدليلا على حداثة سياسية انزلت الهزيمة «بالاقطاع القديم».

و«الاقطاع» كان في واقع الامر تسمية سهلة للدور السياسي الذي لعبته تقليديا عائلات بلدة جزين. فالاخيرة تشكل في اخر المطاف اقل من ثلث القضاء المسمى حاليا باسمها، في حين انها تستأثر بحصة الاسد في التمثيل السياسي، فارضة، وبشروطها، من تقبله ومن ترفضه شريكا ثانويا الى جانب الزعيم الجزيني الذي نمت الكتائب خارج دائرة تأثيره.

مع ادمون رزق الكتائبي منذ حداثة اظافره، طرأ جديدان على الحياة السياسية لجزين: من ناحية بدأت العائلات الكبرى (عون، الاسمر، حلو، رزق، كرم) التي كانت موزعة الولاء ما بين القطاريين والحلف المناهض لهم، وكانت عائلة رزق في عداد مؤيدي هذا الحلف، تشق طريقها التمثيلية المستقلة والخاصة بها. وقد اقترن هذا الطموح الجديد بتحولات ديموغرافية واخرى اجتماعية.

فديموغرافيا، وبعد ان طال انحصار جزين في «الضيعة» الواقعة شرقا، راح التزايد السكاني يوجد مناطق سكن جديدة ومتوسعة، اكان في الجنوب المطل على قرية كفرحونة، ام في «الشخاريب» و«مار يوسف» غربا.

واجتماعيا شرعت المشكلات الناجمة عن تحول جزين الى مدينة تستعصي على الزعامات التقليدية وقدرتها على ابتكار الحلول واستشرافها. ولم يكن بلا دلالة ان القفزة الكبيرة التي حققها ادمون رزق في اتجاه الاقرار به كزعامة جديدة، جاءت مع تفاقم مشكلة المياه في اطراف البلدة والتي اصابت بعض عائلاتها الهامشية ممن لم تجد اذنا صاغية عند زعماء التقليد السياسي، فقادها ادمون رزق في مطلبية يقول الجزينيون انها لعبت نصف الدور في ايصاله الى البرلمان بعد عام.

من ناحية اخرى، تحقق للكتائب عبر ادمون رزق ما لم يتحقق لها في الكثير من مناطق نموها الاخرى خارج المهد البيروتي ـ الجبلي. فقد عثرت الكتائب في جزين على ممثل ينتسب الى البلدة الكبيرة لا الى القرى الهامشية ،واستطرادا، الى واحدة من العائلات الاساسية في البلدة المذكورة.

بهذا المعنى، وعلى عكس الزعامات الكتائبية الريفية الاخرى، حمل رزق معه الى الحزب مصدر قوة خاصا به: العائلة والبلدة، وكان لهذا المصدر ان منحه قوة تفاوضية ملحوظة حيال حزبه الذي لم يصنعه من الصفر كما فعل مع زعامات كتائبية ريفية كثيرة.

الكتائبي اللاكتائبي

لقد كانت نكهة الاختلاط الجنوبي حادة في لبنانية ادمون رزق، ومن ثم في فهمه لحزب الكتائب كأداة لقوة المسيحيين بما يفضي الى حوارهم الايجابي مع مسلمين اقوياء بدورهم.

وقبل الجغرافيا التي تضع البلدة الجنوبية وسط تقاطع من الطوائف الاسلامية والدرزية والمسيحية، لا بأس بعودة عابرة الى التاريخ:

فقد ورد ذكر جزين في العصور الحديثة في سورة «الشهيد الأول» عند الطائفة الشيعية الشيخ محمد بن الشيخ جمال الدين مكي الجزيني الملقب بشمس الملة والدين، والذي تنحدر منه عائلة شمس الدين المعروفة التي نزح قسم منها الى بلدة جون في قضاء الشوف. والشيخ المذكور الذي صرع في ايام سلطنة برقوق احد المماليك الذين حكموا مصر وبلاد الشام في القرن الرابع عشر الميلادي، كان مرجعا كبيرا لدى طائفته توسعت على يديه وظائف التعليم الديني والفقهي التي اضطلعت بها جزين.

فقبله وجدت مدرسة دينية دلت عليها وفاة العلامة اسماعيل بن الحسين بن العودي الاسدي الحلّي الذي رثاه الشاعر العاملي ابراهيم بن حسام بقصيدة فيها البيت الذي يساوي بين جزين والنجف في المرتبة:

عرّج بجزّين يا مستبعد النجف
ففضل من حلّها، يا صاح، غير خفي

ولئن حث الأمير فخر الدين الثاني النصارى على ان يسكنوا جزين جريا على السياسة العامة التي عمل بموجبها، فان معارك النصف الثاني من القرن الثامن عشر جعلت هذا الوجود مطلوبا ومرغوبا من سائر الطوائف المقيمة هناك. فبعد ان تغلب الدروز على الشيعة في معركة بسري، انزل الشيعة بالدروز هزيمة في معركة كفر رمان التي لاح معها ان الاقتتال بين الطائفتين سيبقى على قدم وساق. وهكذا قر رأي الطائفتين المتنازعتين على ان تكون جزين المارونية بمثابة منطقة عازلة بين دائرتي السكن الدرزي والشيعي تضمنها الطائفتان اياهما.

لم تختلف الظروف التي احاطت بجزين في هذا القرن عن تلك التي عرفتها القرون الماضية، فقبل هزيمة فلسطين في ايار ١٩٤٨، كانت البلدة المارونية الجنوبية مصيفا للمصطافين الفلسطينيين واولئك المصريين الذين يصلون اليها برا عبر فلسطين، ومن هنا تضررت جزين من جراء قيام اسرائيل على نحو واضح لم يعوضه جزئيا الا اقبال المصطافين من مدينة صيدا السنية المجاورة، وحركة التبادل معها ومع الجوارين الشيعي في الجنوب والدرزي في الشمال.

وحين يتحدث ادمون رزق عن جزين بوصفها لبنان مصغرا، واخر الحاضنات لفكرة التعايش الطائفي، تفهم كيف ان نائب جزين جرى على التمايز عن الكتائب في لحظات جموح الأخيرة نحو التطرف والاتجاهات الراديكالية.

بهذا المعنى بقيت علاقة ادمون رزق بحزبه السابق عرضة للاضطرابات تكمن مصادرها في ثلاثة: تكوينه الاستقلالي الذي يستند الى صدوره عن عائلة متماسكة وبلدة كبيرة، لحظات التعارض بين مصلحة جزين وتعايش محيطها وبين سياسات متطرفة كان يتبعها الحزب بين الفينة والأخرى، ولحظات التعارض بين صورته عن ديموقراطية سياسية صافية هي في رأيه «معنى لبنان» وتوجهات حزبية تمليها ضرورات لا تقنع النائب الجزيني.

لقد انتسب رزق وهو في الحادية عشرة من عمره الى حزب الكتائب متأثرا بأجواء الشبيبة وما يصل الى جزين من اخبار بيروت الاستقلالية ومساهمة الحزب في الحدث الأربعيني، لكنه بعد اربع سنوات جمد نشاطه الحزبي بسبب الجفلة التي احدثها اعدام زعيم الحزب السوري القومي انطون سعادة في ١٩٤٩، ليعاود النشاط على اثر جفلة مضادة اخرى اثارها اغتيال الصحافي الكتائبي ابو الحن اواخر ١٩٥٨ فشرع ادمون يكتب في «العمل» افتتاحية «حصاد الأيام» الشيء الذي واظب عليه حتى ١٩٦٨.

خلال مرحلة السنوات الشهابية تلك امتزج وعي رزق الكتائبي بما يمكن ان نسميه الأيديولوجيا الرسمية للدولة وهو احد صانعيها من خلال عمله في الاذاعة والتلفزيون، ناهيك عن مساهمات في صحف متعددة الألوان من دون ان تكون عديمة النسب بالاتجاهات العروبية والاسلامية المتصالحة مع الشهابية.

وتحت وطأة هذا المزيج، طغت على كتائبية رزق دعوات التعايش والاعتدال، مع توكيد خاص على العلمنة التي يعتقد انه كان رائد القائلين بها في حزب الكتائب.

وما لبث ادمون رزق ان اصبح «خطيب الحزب» الى جانب الياس ربابي ولويس ابو شرف، لكنه كان ايضا احد خطباء المناسبات الدينية الاسلامية، في بيروت والجنوب، لا سيما منها مناسبات عاشوراء، التي شكلت لديه فرصا لترداد قناعاته في التعايش بين الطوائف والأديان. وفي اوائل الستينات دخل المكتب السياسي لحزبه، وذلك قبل سنوات على وصوله الى النيابة، حيث

جرى العرف الكتائبي على ان يكون النائب الحزبي، وبصورة تلقائية ، عضوا في المكتب المذكور.

لكن ادمون لم يستسغ، في ١٩٦٤، ممالأة الحزب لأعمال التزوير الانتخابي التي اعتبرها تشويها للممارسة الديموقراطية، وبعد ان فكر في تقديم استقالته، آثر الرهان على ما اعتبره اصلاحا للحزب من الداخل.

على اية حال ففي ١٩٦٨ نجح المحامي الجزيني في ان يخترق اللائحة التي انشأها ائتلاف القطبين مارون كنعان وجان عزيز من دون ان تكون دائرة جزين مشمولة باتفاق «الحلف الثلاثي» وهكذا دخل ادمون البرلمان الذي بقي كنعان خارجه، بما اضاف العنصر البرلماني الى العناصر الأخرى لاعتداله داخل حزبه. وبعد ان كرر التجربة بنجاح في ١٩٧٢ متحالفا مع فريد سرحال ونديم سالم، جيء به في العام التالي وزيرا للتربية في حكومة الرئيس تقي الدين الصلح، فكان شعاره في الوزارة «مقعد لكل تلميذ». بيد ان تصدره الوزاري لم يحل دون تعريضه للمجلس التأديبي الحزبي في الفترة نفسها ليعاود الظهور لاحقا، وفي تشرين الثاني ١٩٧٥ ، كعضو في هيئة الحوار الوطني.

ولئن رفض رزق في اذار ١٩٧٦ التوقيع على العريضة المطالبة باستقالة الرئيس فرنجية، فان اعتداله على امتداد سني الحرب ادى الى تفجير سيارته مطالع ١٩٨٠، وفي المقابل ففي شباط من العام نفسه خطف الى زغرتا بوصفه كتائبيا وكان النزاع الزغرتاوي ـ الكتائبي في اشده، لكن نائب جزين حرص بعيد اطلاق سراحه على توكيد الطابع «العابر» لحدث قال انه لن يؤثر على حسن علاقته بفرنجية.

وبعد ان مكث قريبا من الرئيس سركيس مساهما في بلورة مسلماته الشهيرة شارك رزق في انتخاب الشيخ بشير الجميل الذي اكتشف ان الرئاسة حولته الى شخص اكثر اعتدالا واشد استعدادا لطلب مشورة الحزبيين المجربين ونصحهم.

ومع وصول الشيخ امين الجميل الى الرئاسة، عد ادمون رزق احد المقربين بسبب اعتدال الاثنين وعملهما الطويل المشترك في النطاق البرلماني. لكن نائب جزين الذي لعب دورا اساسيا في وضع البيان الوزاري لحكومة الرئيس شفيق الوزان، تحفظ على الفقرة المتعلقة بطلب الصلاحيات الاستثنائية نظرا لما تنطوي عليه من انتقاص للدور البرلماني، وتتالت الظروف التي فاقمت الهوة الفاصلة بين رزق وحزبه.

فمع حرب الجبل التي عارضها، عقد اواخر ١٩٨٣ «المؤتمر الشعبي» الأول في منزله بهدف العمل مع سائر فعاليات المنطقة على عزل تأثيرات الحرب المذكورة عن التعايش في جزين. وعندما عجز عن اطلاق سراح مخطوف شيعي قرر السفر الى فرنسا اعتكافا، موجها رسالة مفتوحة الى الرئيس الجميل نشرتها الزميلة «المستقبل» في ٢١ كانون الثاني ١٩٨٤ . وفي ٣٠ اذار من العام نفسه

نشر مقالا في الزميلة «الحوادث» يعارض فيه مؤتمر لوزان من زاوية ضيقه التمثيلي.

ولم يتردد رزق المتحمس لعودة الشرعية الى الجنوب في ابداء معارضته لوجود «القوات» هناك والتعامل معها بوصفها امرا واقعا، حتى اذا اندلعت احداث شرق صيدا دعا الى «المؤتمر الشعبي الثاني» للهدف نفسه الذي عقد من اجله المؤتمر الأول. لكن نائب جزين الحريص على التعايش مع الجوار الدرزي والشيعي باتت كتائبيته ، اواسط الثمانينات، بمثابة العبء الخالص، وهكذا جاءت مناسبة الفراق في تشرين الأول ١٩٨٤ وان اتخذت شكلا يبدو في ظاهره مغايرا للقصد الأصلي. فيومذاك فصل رزق ولويس ابو شرف من حزبهما بعد اقتراعهما للرئيس كامل الأسعد في معركة رئاسة المجلس، بينما قضى قرار الحزب بتأييد النائب حسين الحسيني. وفي تموز ١٩٨٦ وبعد انتخاب الدكتور جورج سعادة رئيسا للكتائب اصدر المكتب السياسي قرارا يلغي قرار الفصل، الا ان رزق وابو شرف عقدا مؤتمرا صحافيا اعلنا فيه ان القرار الأخير لا يعنيهما.

مذاك شرع رزق يعمل بصورة تامة الاستقلال على النطاق البرلماني لاعبا الدور الأنشط في تأسيس «الكتلة البرلمانية المستقلة» التي اعلنت وثيقتها في كانون الثاني ١٩٨٧ ككتلة جامعة لنواب موارنة وسنة يعيشون في المناطق الشرقية، وداعمة للسلطة الشرعية. وفي تموز من العام نفسه توجه رزق الى طرابلس للمشاركة في اربعين الرئيس رشيد كرامي، فألقى كلمة اكد فيها على لبنانية الرئيس الراحل حتى اعتبرت كلمته «لبننة للمناسبة». مع هذا ادت مساهمته الى اثارة غيظ «القوات اللبنانية» بما دفع رزق الى الانتقال الى جزين. وهو لم يعد الى بيته في فيطرون الا بعد تصفية ذيول الحادث.

العائلة، الثقافة، الأفكار

اقترن ادمون رزق بالانسة رينيه كريستودولو من اب يوناني وأم ارثوذكسية بيروتية من سكان الاشرفية. وبرغم الاصل اليوناني من جهة الاب، فان رينيه نجحت في ان تستكمل انتسابها الجديد، فأقامت نشاطا حرفيا عرف بـ «القفطان الجزيني» الذي رسمت عليه السكاكين التي اشتهرت بها المدينة الجنوبية تقليدياً، وكان احد اهدافه محاولة التغلب على البطالة في هذه الاخيرة.

ومن رينيه أنجب رزق ستة ابناء اكبرهم امين الذي ولد في ١٩٦٠ وانهى تخصصه في العلوم الاقتصادية والحقوق، واصغرهم جمانة، وبينهما بهجت الاستاذ الجامعي، ونديم المحامي وناجي المهندس وفادي طالب الاقتصاد.

ادمون رزق ضخم الجثة، بدين، اميل الى الطول واصلع الرأس ، اما ما تبقى من شعره فشيبه يضمر اللون الكحلي. وادمون يشبه في وجهه الجانبي (البروفيل) منصور الرحباني ، فيما انفه الناتىء يطغى على وجه كبير التقاطيع شديد التعبير لا سيما عند اقتراب القول من الخطابة

يحملها صوت ادمون المرتفع الذي لا ينخفض الا لماما واستثناء .

لكنه ، وفي الملمح الاجمالي، يوحي انه مصارع تقدمت شفته السفلى على العليا بنتيجة ما احدثه الضرب واللكم من تعديلات في الوجه . الا ان هذا الملمح لا يمت، في اخر المطاف، لصاحبه الذي يميل الى الادب والشعر كما عهدهما في ايام ابيه الراحل.

ولا يختلف ادمون رزق المثقف عن نمط ثقافي لبناني سائد تجده في مخايل الضاهر وبطرس حرب كما تجده في جوزيف الهاشم وجورج سعادة، ناهيك عن طغيانه على معظم ما تنشره المنابر الاعلامية والثقافية.

وقوام ذاك النمط تغليب الانشاء والوقع اللفظي واستبعاد الصياغات التي يحاول تعقيدها ان يعكس تعقيد ما تتناوله وتعبر عنه من عناصر وظاهرات محيطة.

ولئن كان النمط المذكور قد شرب من نبع البساطة الاقتصادية والاجتماعية التي شابت لبنان التقليدي، فلم يجد مثقفوه انفسهم امام تقسيم عمل موسع يملي عليهم الخروج عن التراث الجبراني وافراطه البديهي، فان اضطلاعه بالتصدي للمسائل السياسية والوطنية زاد في الحاحه على المباشرةوتمسكه بالقيم القديمة (كرامة، شرف، بطولة الخ.) التي وجدت في المنبرية شكلها الامثل.

من هذا القبيل اصدر رزق في ١٩٧١ «اراء ودماء» وبعد ثلاث سنوات «هنيهة رؤ يا»، وهي مقطوعات «نثرية» بحسب التقسيم المعمول به، ينطبق عليها الوصف السابق. لكن، وكما سبقت الاشارة، فان صلة رزق بالكتابة ترقى الى البدايات البيتية حيث كان والده امين شاعرا وكانت له «مساجلة شعرية» مع خليل مطران في ١٩٢٦ في جزين، كما نشر مبكرا في الصحف المصرية بعض القصائد، فضلا عن المقالات، وكانت احداها عن الاحتلال الايطالي لليبيا في ١٩١١ .

وتبعا لحصيلة هذه التأثيرات كان ادمون رزق في ١٩٥٦ احد المساهمين في انشاء «حلقة الثريا» الادبية التي شاركه تأسيسها شوقي ابو شقرا وجورج غانم وميشال نعمة، وانضم اليهم لاحقا نور سلمان وانور سلمان وريمون عازار وجورج شامي.

وعن منشورات هذه الحلقة اصدر رزق مبكرا (١٩٥٨) «رنين الفرح» الذي يعرفه بانه «مقطوعات ادبية».

وحين تسأل ادمون، حاليا، عن القراءة ، يجيبك :

مدمن . اقرأ شعرا وادبا وتاريخا. . . وقارىء صحف.

الصحف الاجنبية ؟

اراها .

وادمون الذي يقول انه يحب السينما والفنون التشكيلية، يضيف انه لا ينقطع عن الصفحات الثقافية : كيف لكن ؟

وفي بيت ادمون رزق «المفتوح» بحسب ما يقال، تلمس ان لكل زائر جزيني سهما في البيت ، فيما تشعرك العلاقة بينه وبين جمهوره بوجود لون من الزعامة القاعدية التي بنيت صلاتها العفوية وغير المتكلفة لتستمر بمعزل عن الحرب ومفاعيلها الجديدة. فالنائب المحامي لا يقتصد في تقديم الخدمات التي لا يقتصد جمهوره بطلبها بكثير من الدالة.

تسأل ادمون الذي يكثر الاستشهاد باقواله وارائه، فيجيبك على اسئلة كثيرة بعبارة واحدة هي، في عرفه، كفيلة بايضاح كل شيء وتبديد ما اشكل : انا علماني. مع هذا نحاول جذب الرجل الذي يحب التعميم الى حيز التفاصيل :

الغاء الطائفية السياسية ؟

انا رجل علماني.

صلاحيات رئيس الجمهورية ؟

في نظري كعلماني الرئاسة مركز وطني لا طائفي . وبقدر ما يحتاج الوطن الى صلاحيات في الرئاسة يجب ان يعطى الرئيس.

العلاقات اللبنانية ـ السورية ؟

مع تنظيمها على اساس موضوعي . سوريا دولة جارة تجمعنا بها مصالح وانساب وارحام وتاريخ وجغرافيا. مع تنظيمها بموضوعية والحفاظ على شخصية كل من البلدين. . يؤلمني ان يكون الحوار بحاجة الى وسيط خارجي ايا كان. . . العالم اليوم يسير باتجاه التقارب من ضمن مفهوم السيادة طبعا.

الاتفاق الثلاثي و١٧ أيار الذي سبق ان ايدته ؟

الاتفاق الثلاثي لم يعرض علينا تفصيليا كي نبدي به رأينا. لكن اعتقد ان اي اتفاق بين الدولتين يجب ان يتم على اساس الحكومتين. واسف لان الظروف فسحت المجال لثغرات فاستعيض عن الحوار مع المرجع الدستوري بحوار مع المرجع غير الدستوري. اما ١٧ أيار فأمر عرضه لم يكن دقيقا. عرض ، خطأ، وكأنه السبيل الجازم لتحقيق الجلاء الاسرائيلي وبوصفه متفقا عليه من جميع الاطراف المحلية والعربية والدولية. بنظري اي اتفاق مماثل يجب ان يكون فيه اللبنانيون والسوريون معا. انا منذ خمس سنوات مع طرح المؤتمر الدولي.

وجزين ؟

كنت دائما ضد تدخل اي طرف غير محلي في شؤ ون المنطقة واتخذت اكثر من موقف بهذا المعنى.

وفي النهاية ترسخ جزين في هموم ادمون رزق. يطلب لها البوليس الدولي. يفكر ويتحزب او لا يتحزب تبعا لمصلحتها بوصفها لبنان مصغرا ونموذج تعايش ينبغي الحفاظ عليه. وفيما نحن نغادر جزين في سيارته يمد يده الينا ويكاد يقول شيئا حميما ثم يسكت.



روجيه تمرز

في آذار ١٩٤٠ وفي مدينة القاهرة ولد روجيه تمرز، او R. T. كما يطيب للبعض ان يسميه تيمناً بالنجم التلفزيوني الاميركي G. R. وفي ٢٧ اذار ١٩٨١ كتبت « دايلي نيوز تونايت » النيويوركية في تحقيق عن رجل الاعمال اللبناني انه عاش في جزيرة الزمالك على النيل، وكان بيت اهله على النهر محاذياً لنادي الجزيرة الرياضي حيث درج الضباط الانكليز ابان احتلالهم مصر على لعب الكريكت والبولو والتنس. ولا تلبث الصحيفة ان تنقل عن تمرز « كانت بيئته اقرب الى الجو الكوزموبوليتي المحاط بالكثيرين من الاوروبيين والاميركان بسبب نوع عمل الوالد »، ويتذكر روجيه: « كان يستورد الآلات الثقيلة من اميركا »، تاركاً للصحيفة نفسها ان تضيف: « والداه تفرعا عن قبيلة شركسية من الهضاب القوقازية في جنوب روسيا، حكمت الشرق الاوسط في القرون الوسطى »، ويقول تمرز مبتسماً « اننا ننظر الى انفسنا كأحفاد للصليبيين ».

أما « فورتشن » الاميركية فتنقل في عددها لتشرين الثاني ١٩٧٣، ما يلي عن خلفية تمرز: « لقد تعلم الأمور المصرفية من خلال معاينة والديه اللذين تخصصا في العقارات وتمويل الصادرات في مصر ».

على اية حال فروجيه الصغير درس في المدرسة الانكليزية في هيليوبوليس حتى ١٩٥٧ حين انتقل الى الجامعة الاميركية في القاهرة. وفي ١٩٦٠ سافر الى بريطانيا بقصد الدراسة في كلية فيتزوليم بجامعة كامبريدج، فدرس الاقتصاد واهتم باقتصادات البلدان النامية، ومن كامبريدج الى فونتبلو حيث الجامعة الاوروبية التي تشرف عليها السوق المشتركة، واخيراً استقر في هارفارد بالولايات المتحدة حيث نال الـ MBA في ١٩٦٦.

وعائلة تمرز، بحسب رواية روجيه، صيداوية الاصل برغم قلة عدد افرادها في صيدا وخارجها. جده رائف تمرز كان، كما يؤكد الحفيد، مديراً مالياً في صيدا في العهد العثماني، وابوه توجه الى مصر في ١٩٣٩ وهناك اقترن بفتاة مسيحية حلبية من اسرة « ديبو » التي تعمل في التجارة ايضاً، اما والدتها اي جدة روجيه من جهة الأم، فمن عائلة رزق الله الصيداوية الكثيرة المصاهرات مع اسر اخرى بحسب الرواية اياها.

بيد أننا لا نقع على اثر لآل تمرز ورائف تمرز في كتاب الدكتور طلال ماجد المجذوب « تاريخ صيدا الاجتماعي ١٨٤٠ - ١٩١٤ » علماً بانه يورد اسماء ١٣٤ عائلة مسيحية صيداوية. وفي حين يأتي الكتاب على ذكر عائلة رزق الله فان التعريف بها يوحي ان فرعها الاساسي ارثوذكسي، فهي « من العائلات التي تولت ادارة قنصلية روسيا واليونان فترة طويلة. انتمى افرادها الى المارونية والارثوذكسية ».

في مصر عاش والد روجيه ووالدته وعائلتها، فكانوا يترددون براً على لبنان لقضاء فصل الصيف، وبعد قيام اسرائيل وانقطاع الطريق البري ظلوا يترددون على المصايف الجبلية. لكن

صيدا لا يتذكر روجيه اية صلة مميزة بها. فالمجيء من لا مكان يلح على روجيه وفيه.

الا ان العائلة عادت الى لبنان في ١٩٦١ بسبب التأميمات الناصرية، وكان قد سبق للوالد ان ضمن ما ينوف عن مرقد العنزة، اذ اشترى الكثير من اراضي الرملة البيضاء وما بات يعرف بتلة تمرز في ضهور الشوير.

وبدوره اقترن روجيه بالآنسة جنان نخله وهي ايضاً لبنانية تعيش في مصر، والدها سليم نخله وعمها الأب نخله اليسوعي الذي عرف بقواميسه. هذا كل ما يعرفه روجيه عن خلفيتها العائلية إذ هو « مستقبلي » لا يعبأ بالأصول والخلفيات. نسأله:

من اي نخله هم؟ من اية منطقة؟

يهز رأسه ويقلب شفتيه: الحقيقة لا اعرف.

والأولاد؟

لندع الأولاد جانبا.

لماذا؟ نريد فقط معرفة عددهم واعمارهم واسمائهم.

لندعهم جانباً for security reasons (اي، لأسباب امنية). يضيف: ما بدي احكي عن الأولاد...

...

عددهم أربعة.

نعرف من « دايلي نيوز » ان ابنته كانت ابان اندلاع الحرب تبلغ الثامنة، ونعرف من تحقيق عنه في « نيوزويك » في ١٠ شباط ١٩٧٥ انها كانت اذاك وحيدته، مما يعني ان الثلاثة الآخرين ولدوا بعد التاريخ المذكور.

ماذا يملك؟ ماذا يعمل؟

في الكلام معه يعود روجيه تكراراً الى مجال اختصاصه: المؤسسات والدول المصابة بالافلاس.

اول عمل مارسه بعيد تخرجه في ١٩٦٦ كان اعداد بحث مع الجامعة عن مسائل التمويل الدولي. قالوا في هارفارد حيث المحافظة والعجرفة: هيدا العربي اعطوه ملفات التفليس في وول ستريت، يتذكر رجل الاعمال البالغ الاعجاب بنجاحه.

وانضم تمرز الى « كيدر بي بودي » Kidderpea Body احد المعارف في وول ستريت، والذي، معه، تدخل لتعويم بنك انترا في العام نفسه. كيدربي اصبح المستشار المالي « لانترا » وروجيه اصبح ممثله ومنتدبه.

يروي روجيه معتزاً بنجاحه وهو صغير السن:

جئت الى بيروت وكان عمري ٢٦ سنة لكي اعوم « انترا ». دخلت الى مكتب الحاكم الياس سركيس وكان يكتب فلم يعرني اهتماماً. قلت له اريد تعويم « انترا ». نظر الي وقال: هل تحمل شيكاً بـ ٢٠٠ مليون دولار. قلت له: لو كنت احمل هذا الشيك لجعلتك تركع امامي. انتبه الي سركيس وبدأت العمل مع لجنة ضمت محمد عطاالله والمرحوم خليل سالم وشوكت المنلا واميل ابو خير وغيرهم. الحل كان بسيطاً رغم انه بدا جديداً يومذاك: تحويل الودائع الى اسهم. اعطاء الكويتيين والقطريين وغيرهم اسهماً.

ومع اقامته في لبنان طلب تمرز لتعويم او انشاء بنوك ومؤسسات في الكويت والسعودية وفرنسا وايران حيث اهتم بشؤون الغاز الطبيعي بالعمل مع اميريكان ترانسكونتيننتال.

وفي ١٩٧٣ ترك لبنان من دون ان ينقطع عنه مقيماً في ديترويت بالولايات المتحدة، وعاملاً في مجال الاستثمارات الخاصة مع اهتمام مميز بادارة « بنك اوف ذي كومنولث » الذي يملك ٦٠٪ من اسهمه، فضلا عن متابعة اشغال اخرى في لبنان والعالم العربي.

والواقع ان وضع روجيه تمرز يصعب حصره وتحديده. يوجزه هو بالقول:

انا اخصائي في الصيرفة والنفط والعقارات. املك بنوكاً في اميركا واملك عقارات ونفطاً. عملي اساساً في اميركا واوروبا وقليل في افريقيا. وهناك اراض في لبنان وشركات...

ذلك لا يغني عن بعض التفصيل. فروجيه، كما يتباهى في اجزاء اخرى من مقابلتنا معه، كان اول عربي يشتري في ١٩٧٣ المصرف الذي سبقت الاشارة اليه في اميركا، شاركه فيه متمولون سعوديون ككمال ادهم وغيث فرعون وغسان شاكر وسالم بن لادن والامير مساعد، كذلك كان اول عربي يشتري فندقاً في فرنسا هو « برنس دي غال » الثاني عراقة بعد « جورج الخامس »، فحين اضرب مستخدموه اقفله روجيه بحجة اجراء تصليحات ونجح في وضعهم امام الأمر الواقع.

هذا كله لا يفي بالغرض. نقتطف التالي من صحف اميركية ولبنانية:

● «دايلي نيوز » التي سبق الاستشهاد بها كتبت تقول: « بعد سنوات عدة في وول ستريت بدأ تمرز تشكيل الـ « فيرست ارابيان كوربوريشن » وهي شركة مصرفية قابضة يرأسها ويملك ٥١٪ منها. الشركاء الآخرون هم الأمير عبدالله بن مساعد من العائلة المالكة السعودية، والشيخ سالم بن لادن اكبر متعهد في العربية السعودية ». كذلك تحدثت الصحيفة نفسها عن « صفقته الأخيرة التي اعلنت هذا الاسبوع (اذار ١٩٨١) وهي الشراء المفاجىء لـ ١٧٪ من شركة كايسر للصلب بحوالي ٥٨ مليون دولار ». وبعد الاشارة الى المتاعب التي عانتها كايسر وحاجتها للتحديث مضت قائلة: « كذلك يضع تمرز عينه على احتياطي الفحم الذي تملكه كايسر والذي يقدره بـ ٨٠٠ طن قائلاً « اذا ما حلت الولايات المتحدة مشاكلها المتعلقة بالفحم امكنها ان تملك

من الطاقة ما يزيد عن حاجتها في ٣٠٠ سنة ». وتشير « دايلي نيوز تونايت » الى ان تمرز « اقدم على خطوات شجاعة - لكنها لم تنجح - لكي يمتلك نورثرن ستايتس بنك كوربوريشن، وحصة من شركة كومنولث اويل ريفايننغ المفلسة، وجزءاً من صناعات لوكهيد الحربية. وتشمل الممتلكات الشخصية لتمرز اراضي زراعية وحصص نفط وفضة. وهو يملك ٤٠٠,٠٠٠ حصة من سنشاين ماياننغ ستوك بما يجعله ثاني اكبر مالك لحصص الشركة ».

● « نيوزويك » التي سبق الاستشهاد بها كتبت:

« بعد النجاح في بنك انترا، عمل تمرز وكيدر على مساعدة مصر لكي تمول شراءها لست طائرات بوينغ ٧٠٧ قيمتها ٦٠ مليون دولار، عن طريق الاستدانة من مصادر عربية بدل البحث عن التمويل في وول ستريت او اسواق المال الاوروبي. وقد لاح نصره الاكبر في ١٩٧٣ حين نجح في ان يضمن لمؤسسة اميركية هي بكتيل كوربوريشن عقداً بانشاء خط نفطي لمصر يصل خليج السويس بالبحر المتوسط (سوميد) ويبعد المشروع عن الكونسورتيوم الاوروبي. لكن بمجرد توقيع العقد شنت مصر حرب اوكتوبر على اسرائيل وتوقفت الصفقة ». وبعد الاشارة الى الدعم السعودي الذي يحظى به تمرز مضت المجلة الواسعة الاطلاع: « بمثل هذا الدعم اقترح تمرز تحويل ١٠٠ مليون من البترو دولار الى (شركة) لوكهيد الشائخة، لكن الحكومة الاميركية، سارعت الى وضع فيتو على هذه الصفقة على اساس ان ثاني شركة في البلاد للعقود الدفاعية لا يجوز ان تمتلكها ايد عربية ».

● « فورتشون » التي سبقت الاشارة اليها كتبت في وصف مشروع « سوميد » ان طول الخط ٢٠٧ اميال بما يجعله « اكبر الاشغال العامة (المصرية) منذ سد اسوان العالي بدعم سوفياتي. والاكثر ادهاشاً في اعلان ذلك ان حكومة السادات لم تعط العمل هذا لكونسورتيوم الدول الاحدى عشرة التي ظلت تفاوضها طيلة ثلاث سنوات، بل اعطته لكيدر وبي بودي وشركاهم في وول ستريت ».

● وكتبت صحيفة « نيويورك تايمز » في ٤ ايار ١٩٧٨ ان « المجموعة العربية التي عرضت شراء محطة تكرير للنفط في كندا » تحاول شراء محطة اسميت « كوم باي تشانس »، اي « جاءت بمحض الصدفة » قائمة في ارض اكتشفت حديثاً وطاقتها ١٠٠,٠٠٠ برميل يومياً ». وتنقل الصحيفة نفي تمرز ان يكون قد عمل بصورة مشتركة مع الخاشقجي من دون ان يستبعد ذلك مستقبلاً، لتتوقف عند الـ « فيرست اراب كوربوريشن »:

« فهو يملك، بين اشياء اخرى، ٧٦,٧٪ من بنك كومنولث اوف ديترويت. وهو يضم مستثمرين اثرياء من السعودية والكويت بمن فيهم الامير عبدالله بن مساعد (...) وغيث فرعون ». وتعطي « نيويورك تايمز » بعض التفاصيل عن عملية « لوكهيد » حيث حاول تمرز ذلك

« بالنيابة عن مستثمرين عرب ».

● وفي ٢٦ - ٩ - ١٩٨٦ كتب نقولا صيقلي في « الصياد » ان « رجل الاعمال اللبناني على وشك وضع اللمسات الاخيرة على مشروع مالي دولي ضخم للشبكات السياحية والخدمات المصرفية الاخرى حول العالم، يشاركه في ذلك رجل الاعمال الاميركي وارين ايفيس، مؤسس الشركة باسمه لتأجير السيارات ». ويضيف صيقلي ان الشركة الجديدة سوف تبدأ اعمالها « خلال الربع الاخير من العام الحالي حيث تدخل الاسواق الاميركية والاوروبية، على ان توسع نشاطها الى الشرق الاوسط وآسيا وافريقيا في خطوات لاحقة ».

● وفي المقابلة التي اجرتها مؤخراً معه « النهار العربي والدولي » (٨/٨/١٩٨٨)، تحدث تمرز عن انه اشترى وعوم « شركة تام اويل » الايطالية التي كانت مفلسة (. . .) ومن ثم اشتراها الليبيون واصبحوا اليوم يبيعون من خلالها بملياري دولار نفطاً، مشيراً في المقابلة نفسها الى ان العاملين لديه في لبنان يبلغ عددهم خمسة آلاف مستخدم.

وتمرز، كما هو معروف، وكما قال لنا غير مرة، هو الذي بنى مطار حالات لكي « اسافر ويسافر غيري من المسيحيين عبره حين كان الامن مفقوداً في مطار خلدة ».

بين لبنان والعالم

ترك روجيه تمرز لبنان نهائيا في حزيران ١٩٧٥ لأنه «كانت عندي رؤ ية ان الحرب ستطول» ولم يعد اليه حتى ١٩٨٣ بعيد تسلم الشيخ أمين الجميل رئاسة الجمهورية. عائلته نقلها الى باريس فيما راح هو ينتقل بين العاصمة الفرنسية ومدينة ديترويت ومدن أخرى في أوروبا وافريقيا والخليج.

الصداقة بأمين، يروي روجيه، تعود الى ١٩٦٦. الى تلة تمرز حيث كان جوزيف شادر مستأجرا هناك وكان أمين يزوره. بعد ذلك صار يتردد على ديترويت وكنا نلتقي معا هناك.

لكن أمين كان أحد مستشاريك القانونيين في الستينات.

نعم . . . نعم . . . وحين أصبح رئيسا وصل بروحية جان كينيدي. شباب. تحديث. قبل ذلك وحين برز أخوه بشير وصار الجميع معه، أنا لم أكن أعرف بشير. لم التقه. كنت من القلة التي حافظت على علاقة وطيدة بأمين.

هكذا وفي ١١ آب ١٩٨٣ انتخب مجلس ادارة «انترا» من ١٢ عضوا تستمر ولايتهم ثلاث سنوات، هم: روجيه تمرز، كمال بحصلي، خلدون سوبره، فؤاد بحصلي، روبير سرسق، جميل مروه، أحمد الحاج، جميل اسكندر، غابي جلخ عن الجانب اللبناني، وخالد أبو السعود ومحمد الخرافي عن الجانب الكويتي وعبد القادر القاضي عن قطر.

وأصبح تمرز يتربع على رأس هرم اقتصادي يملك معظم أسهم الشركات التالية: شركة طيران الشرق الأوسط (ميدل ايست)، شركة كازينو لبنان، الشركة العقارية والمالية لمرفأ بيروت،

بنك المشرق، بنك كابيتال ترست، بنك فيرست فينيشيان، شركة لبنان العقارية، الشركة العقارية اللبنانية ـ الفرنسية، شركة استديو بعلبك، شركة هول مونتاين، الشركة العامة للشرق، شركة انترا للتأمين، بنك الكويت والعالم العربي، شركة سان لويس العقارية.

لكن عمل تمرز مع العهد الجديد هو ما جوبه بمعارضة واسعة كانت تتزايد اتساعا مع ايغال العهد في صعوبات اضافية واكتسابه أعداء لا ينقطع دابرهم، الشيء الذي رده تمرز لاحقا الى «الحسد» ومعارضة العهد. فقد قيل، لأسباب مختلفة، ان الرجل «وين ما وصل بيحط ايدو» وكانت يده سريعة الوضع على مصارف ومؤسسات تتعرض للافلاس أو تكون على وشك الافلاس، وسط ظهور المخاوف المحلية من هذا التدويل المتسارع والمكثف للرأسمالية اللبنانية، فيما الخط الفاصل بين ما هو لتمرز وما هو لانترا خط واه جدا. لنقرأ، مثلا، هذه الفقرة من حديث أجرته مع روجيه تمرز مجلة «المسيرة» في ١١/٧/١٩٨٨:

«مصرف لبنان هو المساهم الأكبر في مجموعة «أنترا» ونحن المساهم الأكبر في الاعتماد اللبناني، وكمجموعتين قادرتين على التعاون بعضها مع بعض من طريق «المشرق بنك» الذي يملك ٤٢ في المئة من أسهمه مصرف لبنان من طريق انترا، ونحن ٤٢ في المئة من طريق «ميلشر». هذه الشركة التي نشترك فيها تستطيع ان تؤدي دورا هاما لأنها مكونة من مجموعتين خاصة وعامة . . .».

كان أول الغيث مع العرب الذين قاطعوه، فقيل ان تمرز هو الذي أدخل العرب الى «انترا» وهو الذي أخرجهم منه. ولم يعدم الذين اتهموا سياسته بأنها جزء مما أسمي يومذاك «خطة الهيمنة الكتائبية» وانها البند الاقتصادي والمالي في هذه الخطة.

فبعد أشهر على انتخاب المجلس الجديد انقطع أبو السعود والخرافي ومن بعدهما القاضي، احتجاجا على سياسة تمرز. وفي أيار ١٩٨٤ استقال فؤاد بحصلي وروبير سرسق وخلدون سوبره، مما جعل الجمعية العمومية تخفض عدد أعضاء مجلس الادارة الى عشرة لكي يكتمل النصاب القانوني بستة أعضاء.

يدافع روجيه: العرب احتلوا انترا منذ ١٧ سنة، وعندهم فيتو على أي شيء. أنا غير مستعد لأن أدير اقتصاد لبنان تبعا لاقتصاد الخليج . . . الكويت تملك حوالي ٢٥٪ وقطر في حدود ٤,٥٪ فقط . . .

وكان تمرز قد ذكر لـ «المسيرة» ان الكويت وقطر لم تنسحبا من انترا «انما لديهما أوضاع سياسية وأمنية خاصة. فهما لا تريدان المجيء الى لبنان نظرا الى الأوضاع الأمنية الراهنة».

نعود الى جلستنا معه في مكتبه في «انترا»:

والأعضاء اللبنانيون الذين استقالوا؟

ما كانوا يحضرون. فؤاد بحصلي استقال ما بعرف ليش؟ يمكن كان ضد سياسة الاستثمار المعمول بها. أنا مع الاستثمار في لبنان. البعض يتبع سياسة محافظة تقول: الوقت حرب ولا داعي للمخاطرة.

النقاش في المسائل الاقتصادية يرفع حرارة روجيه قليلا مع انه أبردمما يجب، وهو يتفرع الى مشاكله في السابق مع المصارف ومصرف لبنان المركزي درج على اتهام تمرز بمخالفات عديدة منها التلكؤ في دعوة الجمعية العامة الى الانعقاد خلال سنتين ماليتين متتاليتين، وكان تمرز يرد متذرعا بالأوضاع الأمنية.

والمعروف ان حاكم مصرف لبنان الدكتور ادمون نعيم اضطر الى اقامة دعوى على مجلس ادارة شركة «انترا» بشخص رئيسه روجيه تمرز بسبب خلافات على حسابات الأعوام ١٩٨٤ و١٩٨٥ و١٩٨٦، فقد طالب مصرف لبنان غير مرة بعقد جمعية عمومية والتحقق من وضعية التوظيفات والتسليفات في شركة انترا والمجموعة المصرفية.

الى ذلك عاد مصرف لبنان وشكك في نتائج الجمعية العمومية التي انتخبت مجلس ادارة جديدا من ٦ أعضاء بعد قبول استقالة الأعضاء المتقدمين باستقالاتهم.

وطالب نعيم بالغاء نتائج الجمعية العمومية لجهة تصديق الحسابات معتبرا اياها غير قانونية، فيما بقي الاعتراض قائما حتى بعد استقالة تمرز من رئاسة انترا وتعيين جميل اسكندر رئيسا لمجلس ادارة الشركة. وبينما يؤكد تمرز ان الخلاف مع مصرف لبنان قد انتهى بتعيين مجيد جنبلاط ممثلا للمصرف في مجلس ادارة شركة انترا تفيد التقارير التي ناقشتهاالهيئة المصرفية العليا ان هناك توظيفات لبنك المشرق من العملات غير المقيمة تبلغ ٦٠ مليون دولار مودعة في«المشرق‌بهاما»تدعو الى القلق على اعتبار ان المصرف المذكور مملوك من قبل شركة قابضة في بناما.

هذا وتقول التقارير ان الهيئة المصرفية العليا طلبت في قرارها الصادر في تموز ١٩٨٧ من المصرف اعادة قسم من هذه الأموال وفقا لبرنامج زمني ليصار الى توظيفها باشراف لجنة الرقابة على المصارف، الا ان هذا القرار لم ينفذ.

يضاف الى ذلك وجود توظيفات بقيمة ٥٠ مليون دولار لبنك المشرق موظفة من دون كفالات. وحول الخلاف على التوظيفات ووضعية سيولة بنك المشرق يقول تمرز ان هناك بعض الخلافات في تقدير قيمة الموجودات وهذا يعود لأمور تتعلق بتقدير كل طرف، فنحن نقول ان هذا العقار يساوي كذا وغيرنا يرى انه يساوي أقل من ذلك، وهذه كلها مواضيع انتهت. ولا نفهم تماما كيف حل الوئام مع الدكتور نعيم الذي أصبحت سياسته المالية تستحق ثناء روجيه بعد طول رجم وتشكيك. الا ان المؤكد ان السياسة المالية التمرزية لم تكن قليلة الاثارة للمشكلات والجدل.

فالى جانب «انترا» ومشاكلها كانت شركة «جت هولدنغ» التي أسسها تمرز قائلا ان ملكيتها تعود لموظفين عنده، وهذه الشركة هي التي اشترت شركة الخطوط الجوية عبر المتوسط «تي - أم - أي». وعن ديون الأخيرة يرى اننا استلفنا لها ٤٠ مليون دولار، وهي شركة تفوق قيمتها حاليا الـ ٧٠ مليون دولار مشيرا الى أن عرضا لبيعها بهذا المبلغ رفضه هو مؤخرا.

وحول انشاء مطار حالات والنفقات التي تحملها عن طريق التسليفات المعطاة من بنك المشرق يضيف: «لقد خصصنا ٣ ملايين دولار لمطار حالات وهذا ستستعمله «الميدل ايست» في يوم من الأيام على اعتبار ان هذا المطار سيستعمل لنقل نصف ركاب الشركة المذكورة الذين لا يستطيعون الحضور الى مطار بيروت لأسباب أمنية.

ونقول لتمرز انك حولت القوى المتصارعة اللبنانية الى شركة مساهمة عن طريق توزيع الأسهم في شركة «تي - ام - أي» فيؤكد انه يملك الشركة ومن حقه توزيع الأسهم لمن يريد. مؤكدا مساهمة أحد كبار السياسيين بـ ١٠ في المئة من «تي - أم - أي».

أما عن محاولاته وضع اليد على قطاع الطيران وازاحة سليم سلام عن رئاسة «الميدل ايست» بعد سيطرته على «تي - أم - أي» فجوابه «انني حاولت تغيير سليم سلام لأن طريقته لم تكن تعجبني في العمل وأنا اختلف في هذا المجال عن العاملين في «الميدل ايست».

لكن تمرز الذي يرد انحدار الليرة الى اللبنانيين ومخاوفهم نافيا عن سياسته المالية وصراعه السابق مع المصرف المركزي أي دور، لا يعدم حججا يطرحها في معرض توكيد نجاحات حققها. فهو يقول لـ «المسيرة» في ١٩٨٨/٧/١١:

«اذا أخذنا وضع انترا قبل أن أتسلمها نرى ان شركة «ميدل ايست» كانت في طريقها الى الافلاس والكازينو تتضاعف خسارته مع مرور الوقت. و«بنك أوف كويت» مصرف صغير، و«المشرق» لم يكن موجودا. اليوم «بنك أوف كويت» تحسنت أوضاعه و«المشرق» من أكبر المصارف و«الميدل ايست» قوية، والكازينو يضاعف أرباحه. انها حقائق تستند الى أرقام ووقائع».

وحين نسأله في جلستنا الأولى معه في «السفير»، ما اذا كان ترشيحه للرئاسة تعبيرا عن اختصاصه في شؤون المؤسسات المفلسة، يروح يتحدث عن أننا لم نفلس تماما لكننا مرشحون لأن نصير مثل بنغلادش، مبشرا بأنه رجل «مشروع مارشال» يحتاجه لبنان بالحاح، وأنه مهيأ في حال انتخابه ان يجلب الى البلد ٣ مليارات دولار، من دون أن ينسى الاشارة الى الوفاق الدولي الجديد الذي سيبعد شبح الحروب ويضع المال والتنمية في الصدارة.

روجيه سياسيا ومثقفا

في السياسة رفض الرئيس الجميل منذ البداية ان يكون لصديقه روجيه اي دور. قال له

ما كانوا يحضرون. فؤاد بحصلي استقال ما بعرف ليش؟ يمكن كان ضد سياسة الاستثمار المعمول بها. أنا مع الاستثمار في لبنان. البعض يتبع سياسة محافظة تقول: الوقت حرب ولا داعي للمخاطرة.

النقاش في المسائل الاقتصادية يرفع حرارة روجيه قليلا مع انه أبردمما يجب، وهو يتفرع الى مشاكله في السابق مع المصارف ومصرف لبنان المركزي درج على اتهام تمرز بمخالفات عديدة منها التلكؤ في دعوة الجمعية العامة الى الانعقاد خلال سنتين ماليتين متتاليتين، وكان تمرز يرد متذرعا بالأوضاع الأمنية.

والمعروف ان حاكم مصرف لبنان الدكتور ادمون نعيم اضطر الى اقامة دعوى على مجلس ادارة شركة «انترا» بشخص رئيسه روجيه تمرز بسبب خلافات على حسابات الأعوام ١٩٨٤ و١٩٨٥ و١٩٨٦، فقد طالب مصرف لبنان غير مرة بعقد جمعية عمومية والتحقق من وضعية التوظيفات والتسليفات في شركة انترا والمجموعة المصرفية.

الى ذلك عاد مصرف لبنان وشكك في نتائج الجمعية العمومية التي انتخبت مجلس ادارة جديدا من ٦ أعضاء بعد قبول استقالة الأعضاء المتقدمين باستقالاتهم.

وطالب نعيم بالغاء نتائج الجمعية العمومية لجهة تصديق الحسابات معتبرا اياها غير قانونية، فيما بقي الاعتراض قائما حتى بعد استقالة تمرز من رئاسة انترا وتعيين جميل اسكندر رئيسا لمجلس ادارة الشركة. وبينما يؤكد تمرز ان الخلاف مع مصرف لبنان قد انتهى بتعيين مجيد جنبلاط ممثلا للمصرف في مجلس ادارة شركة انترا تفيد التقارير التي ناقشتهاالهيئة المصرفية العليا ان هناك توظيفات لبنك المشرق من العملات غير المقيمة تبلغ ٦٠ مليون دولار مودعة في«المشرق بهاما» تدعو الى القلق على اعتبار ان المصرف المذكور مملوك من قبل شركة قابضة في بناما.

هذا وتقول التقارير ان الهيئة المصرفية العليا طلبت في قرارها الصادر في تموز ١٩٨٧ من المصرف اعادة قسم من هذه الأموال وفقا لبرنامج زمني ليصار الى توظيفها باشراف لجنة الرقابة على المصارف، الا ان هذا القرار لم ينفذ.

يضاف الى ذلك وجود توظيفات بقيمة ٥٠ مليون دولار لبنك المشرق موظفة من دون كفالات. وحول الخلاف على التوظيفات ووضعية سيولة بنك المشرق يقول تمرز ان هناك بعض الخلافات في تقدير قيمة الموجودات وهذا يعود لأمور تتعلق بتقدير كل طرف، فنحن نقول ان هذا العقار يساوي كذا وغيرنا يرى انه يساوي أقل من ذلك، وهذه كلها مواضيع انتهت. ولا نفهم تماما كيف حل الوئام مع الدكتور نعيم الذي أصبحت سياسته المالية تستحق ثناء روجيه بعد طول رجم وتشكيك. الا ان المؤكد ان السياسة المالية التمرزية لم تكن قليلة الاثارة للمشكلات والجدل.

فالى جانب «انترا» ومشاكلها كانت شركة «جت هولدنغ» التي أسسها تمرز قائلا ان ملكيتها تعود لموظفين عنده، وهذه الشركة هي التي اشترت شركة الخطوط الجوية عبر المتوسط «تي - أم - أي». وعن ديون الأخيرة يرى اننا استلفنا لها ٤٠ مليون دولار، وهي شركة تفوق قيمتها حاليا الـ ٧٠ مليون دولار مشيرا الى أن عرضا لبيعها بهذا المبلغ رفضه هو مؤخرا.

وحول انشاء مطار حالات والنفقات التي تحملها عن طريق التسليفات المعطاة من بنك المشرق يضيف: «لقد خصصنا ٣ ملايين دولار لمطار حالات وهذا ستستعمله «الميدل ايست» في يوم من الأيام على اعتبار ان هذا المطار سيستعمل لنقل نصف ركاب الشركة المذكورة الذين لا يستطيعون الحضور الى مطار بيروت لأسباب أمنية.

ونقول لتمرز انك حولت القوى المتصارعة اللبنانية الى شركة مساهمة عن طريق توزيع الأسهم في شركة «تي - ام - أي» فيؤكد انه يملك الشركة ومن حقه توزيع الأسهم لمن يريد. مؤكدا مساهمة أحد كبار السياسيين بـ ١٠ في المئة من «تي - أم - أي».

أما عن محاولاته وضع اليد على قطاع الطيران وازاحة سليم سلام عن رئاسة «الميدل ايست» بعد سيطرته على «تي - أم - أي» فجوابه «انني حاولت تغيير سليم سلام لأن طريقته لم تكن تعجبني في العمل وأنا اختلف في هذا المجال عن العاملين في «الميدل ايست».

لكن تمرز الذي يرد انحدار الليرة الى اللبنانيين ومخاوفهم نافيا عن سياسته المالية وصراعه السابق مع المصرف المركزي أي دور، لا يعدم حججا يطرحها في معرض توكيد نجاحات حققها. فهو يقول لـ «المسيرة» في ١٩٨٨/٧/١١:

«اذا أخذنا وضع انترا قبل أن أتسلمها نرى ان شركة «ميدل ايست» كانت في طريقها الى الافلاس والكازينو تتضاعف خسارته مع مرور الوقت. و«بنك أوف كويت» مصرف صغير، و«المشرق» لم يكن موجودا. اليوم «بنك أوف كويت» تحسنت أوضاعه و«المشرق» من أكبر المصارف و«الميدل ايست» قوية، والكازينو يضاعف أرباحه. انها حقائق تستند الى أرقام ووقائع».

وحين نسأله في جلستنا الأولى معه في «السفير»، ما اذا كان ترشيحه للرئاسة تعبيرا عن اختصاصه في شؤون المؤسسات المفلسة، يروح يتحدث عن أننا لم نفلس تماما لكننا مرشحون لأن نصير مثل بنغلادش، مبشرا بأنه رجل «مشروع مارشال» يحتاجه لبنان بالحاح، وأنه مهيأ في حال انتخابه ان يجلب الى البلد ٣ مليارات دولار، من دون أن ينسى الاشارة الى الوفاق الدولي الجديد الذي سيبعد شبح الحروب ويضع المال والتنمية في الصدارة.

روجيه سياسيا ومثقفا

في السياسة رفض الرئيس الجميل منذ البداية ان يكون لصديقه روجيه اي دور. قال له

انت لا تفهم في سياسة البلد، في امور الطوائف والعائلات. وبشيء من العتب يضيف تمرز: حتى الاميركان الذين افهم عليهم اقتصر التعامل السياسي معهم على ايلي سالم ووديع حداد. .

الدور السياسي الاول كان الاعداد لما بات يعرف بـ « الاتفاق الثلاثي »، او ان هذه هي الرواية التمرزية على الاقل.

كان القصف شديدا والحياة ما عادت تطاق، يقول روجيه. اتصلت بايلي حبيقة وحدثته عن ضرورة القيام بمبادرة سياسية. اتصلت كذلك بالمسؤولين السوريين. ساعات مع ابو جمال. . ايلي حبيقة بدأ يتراجع. قال لي: في احسن الحالات سيكون ٥٠٪ لي و ٥٠٪ لامين الجميل. قلت له لا بل ٢٥٪ لك و ٢٥٪ لامين و ٢٥٪ لشمعون ومثلها لفرنجية . لم يتعاون ايلي وربما تحول انذاك الى ميشال المر وميشال سماحة وغيرهما.

يومها ظهرت البوادر الاولى لغضب الجميل على صديقه الذي يتدخل في ما لا يعنيه. لكن برغم تردي علاقات تمرز مؤخرا مع رئيس الجمهورية، فالرجل يحافظ على علاقات وطيدة بمعظم السياسيين اللبنانيين. فهو مستعد، برغم اميركيته، ان يهدي احدهم عنزة، وان يهدي اخر حصة في تي ـ أم ـ أي ويقول لك دفاعا:

الشركة لي. افعل ما اشاء واهدي من اشاء.

ويبدو ان الرجل يتبع « استراتيجية سياسية» وسيلتها التقرب بالرشوة: كل صحافي له سعر، وكل سياسي له سعر، وكل طائفة لها سعر. وهو « يعمق» استراتيجيته هذه لتطال العلاقات اللبنانية ـ السورية: يساعدوننا في الامن ونساعدهم في الاقتصاد، كما يقول لنا. التكامل الاقتصادي. . رائحة « الاتفاق الثلاثي» غير بعيدة عن هذا الكلام يا مستر تمرز.

مستر تمرز لا يهمه الشبه بين كلام وكلام، ولا يهمه الكلام اصلا، ناهيك عن النعوت والتسميات. يتحدث عن تنسيق مع سوريا متعدد الوجوه خصوصا اذا ما كفت ايران عن تزويد سوريا بالنفط بما يزيد في حاجة دمشق الى رجالات مثله. أما بالنسبة لاسرائيل فهو ايضا لا يرغب في حل يتم بعيدا عن سوريا مع حماسته لاحلال الامن في الجنوب.

والمستقبلي لا يتردد، مرة اخرى، في اللجوء الى الماضي. فحين تسأله « المسيرة» ما اذا كانت له استثمارات في سوريا، يجيب:

« علاقتي مع السوريين ليست جديدة، انما قائمة من ايام اجدادي الذين كانت لهم اتصالات واعمال في حلب ومصر. والمعروف ان التجار السوريين هم من اشطر التجار في العالم العربي. يجب ان نعمل لكسب سوريا والشعب السوري من الناحية الاقتصادية».

نسأل روجيه ما اذا كان يقرأ:

اقرأ كثيرا وخارج نطاق عملي. اقرأ التاريخ كثيرا. المسائل الجيوبوليتيكية. اقرأ كتبا وصحفا

ومجلات. باستمرار وول ستريت جورنال، نيويورك تايمز، لوموند، اكسبرس، ايكونوميست، لوبوان، بين الكتب التي اهتم بقراءتها كتب السياسيين الذين كانوا في السلطة وتركوا وكتبوا مذكراتهم وتجاربهم. مثلا، كسينجر.

هل تتابع الصحف اللبنانية؟

نعم. « السفير»، «النهار». « الشرق».

في الجلسة السابقة، في «السفير»، كنا سألنا تمرز ما اذا كان يتابع السياسة المصرية فقال انه يفعل لكن من زاوية الموقع الجيوبوليتيكي المصري وما يتصل بذلك.

هل تتعاطف مع « حزب الوفد»؟

لا اعني بالسياسات المصرية الداخلية.

نعود الى اهتمامه الثقافي:

السينما ؟ الفنون

احبها كثيرا. افلام التاريخ. افلام الحروب. احب الرسم والفن والنحت القديمين.

روجيه القصير النحيف يشبه الالمان اكثر مما يشبه اللبنانيين والمتوسطين. عيناه الزرقاوان تمكثان وراء نظارتين خشبيتين بنيتين وتحت حاجبين كشعيرات الذرة الصفراء والكثة. شعره الاشقر مردود الى الوراء بقليل من التجعيد وقليل من الشيب، ووجهه احمر مستنفر كله لسؤال او جواب.

عربيته مشوبة بلهجة مصرية حادة، وانكليزيته التي يكثر اللجوء اليها تنطوي على لكنة فرنسية مخففة، وهو لا ينكر عدم ارتياحه الى التحدث باللسان العربي.

يقول: نحن بحاجة الى ثروة من فوق

تقصد ثورة من فوق

اوه. انها Freudian Slip (أي زلة لسان فرويدية). يبتسم روجيه ويضيف بتهذيب: شكرا على هذا التصحيح المفيد.

بيد ان اعلان روجيه عن عزمه على ترشيح نفسه للرئاسة ، عبر « النهار العربي والدولي» جاء مفاجئا . فمتابعو اخباره قرأوه قبل شهر على الترشيح يقول لمجلة اخرى سألته عن هذا الاحتمال:

« تعتقد وسائل الاعلام ان كل ماروني يملك شخصية القائد مرشح الى رئاسة الجمهورية. انا في موقعي الاقتصادي يمكنني مساعدة لبنان اكثر من وجودي في رئاسة الجمهورية».

نسأله ما اذا كان ترشيحه بالتنسيق مع الرئيس الجميل فينفي بشدة:

انا لم آخذ رأيي احد.

يعود الى التركيز على الانماء والاعمار تركيزه على نقطة اخرى يعتقدها مهمة في رصيده.

أنا كنت في المعسكر المسيحي، وبقيت طويلا جزءا منه.

ومع هذا فهو لا يلبث ان يتحفظ مشككا بقبول المسيحيين له كاستمرار للوضع السابق:

قد لا يقبلون بي.

نسأله عن مبررات ترشيحه ما خلا المال

يقول بالانكليزية ان جميع المرشحين دون الصفر. كلنا سيئون لكنهم جميعا اسوأ مني. دلوني على واحد احسن مني؟ ليس بيننا نابوليون..

روجيه تمرز الآتي من لا مكان، المطعم بحسب قوله بشيء من الشركسية واخر من الصليبية، ينتقد ما يسميه الـ feudal approach أي المقاربة الاقطاعية، للسياسة اللبنانية. يكرر في سرد تجربته عبارات من نوع: كنت نازل شيل سليم سلام. نقول له انه لو كان على دراية بالتركيبة اللبنانية لما قال هذا الكلام. يهز رأسه بسخرية ويبتسم.

انا سياستي ثورية مختلفة عن السياسة التي تفكرون بموجبها.

هو مأخوذ بالادوار التي لعبها كيسنجر وبريجنسكي لان الاول الماني والثاني بولندي، يود ان ينقل اميركا ومعاييرها الى لبنان. انها لون من الماركسية المضادة او المقلوبة لجهة نقلها تجارب لا تتصل بواقع مجتمع معين وتركيبه وتاريخه، او قل انها نوع من ابتذال الليبرالية والتجربة الاميركية باخراجهما من اطارهما التاريخي واستحضارهما حرفيا في كل مكان، وفي اي مكان.

رموز روجيه وقيمه اميركية صارخة: النجاح، العصامية، رأسمالية المخاطرة العالية، اوروبا لا تعجبه لانها في عرفه اقرب الى القرن التاسع عشر، وهو يبغي ان يفرش لطوائف لبنان فرشة القرن الواحد والعشرين.

لنقرأ بعض صور وتعابير تمرز كما تورده مقابلة «النهار العربي والدولي»:

«شو السياسة؟ لنأخذ النائب مثلا، فالنائب يمثل الشعب. وماذا يريد الشعب غير الانجازات الاقتصادية المعيشية والانمائية؟ اما على الصعيد الدولي فكل سياسات العالم مرتبطة بالمصالح الاقتصادية والحيوية (...) ولبنان مثلا اشبهه انا بالخزينة ذات المفتاحين، مفتاح مع رئيس الجمهورية ومفتاح مع رئيس الحكومة. فاذا لم يتفق الرئيسان بعضهما مع بعض على فتح الخزينة في الوقت ذاته بالمفتاحين، يصبح فتح الخزينة مستحيلا (...) اناكما رأيت «ما بحكي كتير ويمكن ما بحكي مليح» لاني لست «اديبا». انا رجل ارقام واقتصاد. لست بحاجة الى كلام منمق. انا بحاجة الى كلمتين: نعم او لا. على هذا الاساس ادير اعمالي وأتعامل مع الناس».

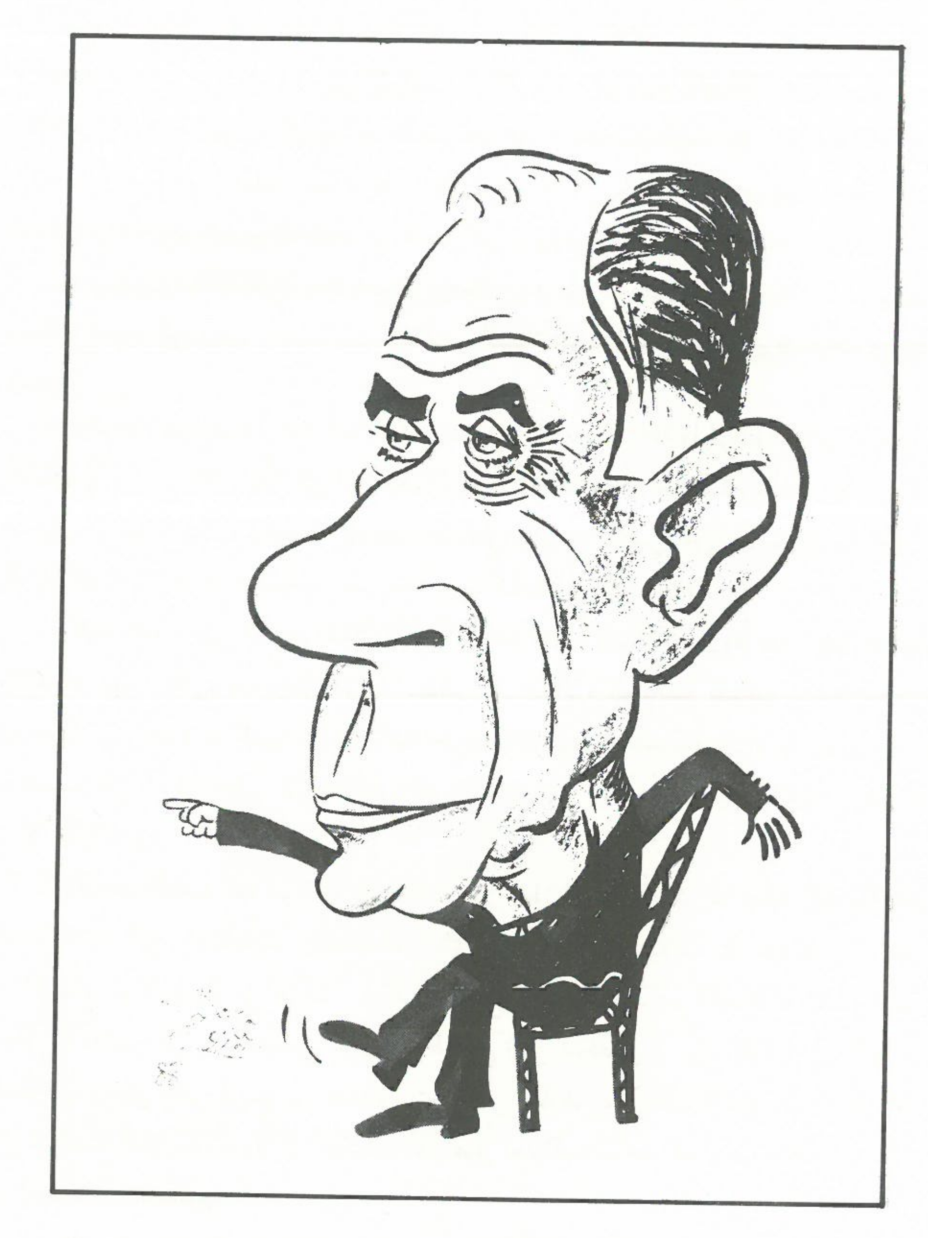
لقد استمدت «كونية» روجيه تمرز زخما من «عروبته» التي اشتد ساعدها بارتفاع اسعار النفط في ١٩٧٣ فحملت محفظة السمسونيت قبل ان تمسح السمن العالق في رموش عينيها.

وعروبة تمرز تتوسد زند كمال ادهم احد مستشاري الاسرة السعودية الحاكمة، او زند غيث فرعون ابن رشاد، مستشارها الاخر. وبطل روجيه العربي هو الرئيس الراحل انور السادات لانه «حل المشكلات»، وعصر الانفتاح ورحلة القدس لا يغني طابعهما المسرحي عن كونهما.. حلا.

هذا هو الحل بالمعنى «الاميركي» المنسوخ.. والممسوخ.

ولان الحرب اطاحت السياسة في لبنان وكشفت معضلة النخبة السياسية، جاء الدم الجديد من المستشارين الماليين الذين بلا وطن ولا جنسية. ولم لا، اليس من حق المسيحية المشرقية ان تقول قولها خاصة حين تحمل في يدها كيس نقود؟ الا يدور واحد من فصول تاريخ الشرق حول المستشارين الماليين ممن كانوا يرعون التفليسات؟ الم يكن متصرف جبل لبنان عثمانيا مسيحيا؟

صحيح اننا اردناه وطنا فيه الكثير من المصارف والفنادق، لكننا لم نرده مصارف وفنادق بلا وطن.



ريمون اده

كان عميد « الكتلة الوطنية » ريمون اده، وما يزال، السياسي اللبناني الاشد اثارة للضجيج، والاكثر استدعاء للسجال وصدور الآراء الحادة تأييداً ورفضاً. فالعميد هو « الضمير » كما درج الكثيرون على القول، وهو النزيه، وهو فارس البرلمان وهو الظريف سريع الخاطر. لكنه هو ايضاً، وكما يعترف العديدون من المتحمسين له، رجل تغليب الاعتبارات الشخصية جرياً على الحكمة الشمشونية: «عليّ وعلى أعدائي يا رب». وحين يؤكد محازبو العميد اده على نزاهته وجرأته، يؤكد نقاده على غنجه الارستقراطي المتطلب. فالأشياء أما أن تترتب على ما يشاء ويهوى واما أن تكون عبثا محضا. وحيال هذا الفرز للعالم، وهو فرز لا يخلو من تبسيط وخفة، تنعدم الوسائط، والتحولات وتتقلص القدرة على رؤية الأشياء في مسارات وسياقات ومعان.

والراهن ان العميد ريمون اده هو هذا كله في آن معاً. النزاهة والجرأة والبرلمانية والحسابات الشخصية والغنج والتبسيط. اي انه، وهو البالغ اليوم ٧٥ عاماً، خير تذكير بلبنان القديم، لبنان ما قبل الحرب باخفاقاته ومحاولاته ووعده المستقبلي وكوابح الماضي على صدره. وهذا احد ابرز أسرار عميد « الكتلة الوطنية »: سر قوته وسر ضعفه في وقت واحد.

فقوة العميد هي انه خير تمثيل لما قبل الحرب رفضاً للسلاح وعزوفاً عن القتال وتفضيلاً للكلمة، وبهذا المعنى فانه يحتل موقعاً متصدراً في الذاكرة السياسية للبنانيين، وهي ذاكرة لم تضعفها كثيراً محاولات المحو التي مارستها الحرب والحربيون. خصوصاً وان « الانجازات » كلها تكشفت عن عبث محض فيما اضحى عزوف اده عن الانجاز فضيلة بالقياس على تلك « الانجازات ».

وضعف العميد اده هو انه، بالضبط، خير تمثيل لما قبل الحرب بما يعنيه ذلك من اغفال للمشكلات التي استجدت والتعقيدات التي تفاقمت والتحولات الديموغرافية والطائفية والاقتصادية والاقليمية التي طرأت. وغالباً ما يلوح تعامل العميد مع التحولات المذكورة شبيهاً بفعل الانكاص الى زمن سياسي سابق يتقاطع مع زمن شخصي لم يبرح طفليته. فالامور دائماً قابلة لأن ترد الى ماض لم ينج من عقده ولم يتحرر من اسارها. وفي هذا الاطار يندرج ميل العميد الى شخصنة السياسة وصولاً الى تفكيكها المتواصل تعليقات ساخرة تمتزج فيها المرارة والتعالي بـ « القفشات » الصالونية.

والمدهش ان انتقال ريمون اده الى باريس اعتراضاً على حدث بحجم الحرب اللبنانية لم ينقله الى تعامل آخر مع السياسة يتعدى المزيج المذكور، علماً بوجود تسعين الف لبناني في فرنسا يتلهف الكثيرون منهم لندوة او حوار او نشرة. وهذا في اغلب الظن ما فات الكثيرين من محازبي العميد حين حملهم حسن النوايا على التسرع في اطلاق التشابيه والمقارنات مع زعماء آخرين في المنافي،

كديغول وكرافليس وسيهانوك.

إميل اده

لعب ثلاثة اشخاص ادواراً بارزة في تشكيل ريمون اده وصوغه سياسة وتوجهات وافكاراً، ومن ثم حياة. وفي هذه الحدود لا نبالغ في القول ان الكلام على اثر هؤلاء الثلاثة عليه هو الحديث عنه او عن الخلاصة الشخصية ـ السياسية التي استقر عليها.

الاول اميل اده والده ورئيس الجمهورية الاسبق، والثاني فؤاد شهاب قائد الجيش واحد رؤساء الجمهورية الراحلين، والثالث بيار الجميل مؤسس حزب الكتائب اللبنانية والقطب الماروني، واللبناني تالياً. والعميد هو في آخر الأمر حصيلة حساسيات ثلاث حيال الرجال الثلاثة المذكورين.

ما من شك في ان الرئيس اميل اده كان ولا يزال محط اعجاب وحب نجله الاكبر ريمون. والذين عرفوا الرجلين يقولون انهما متشابهان الى حد بعيد. فاده الأب كان نزيهاً وكان شجاعاً وحاداً في آرائه، لا يتردد في ان يصدم مشاعر المحيطين به وهو يجهر بما يخاله موقفاً صائباً.

واميل اده الذي لم يكن متحمساً لاستقلال لبنان عن فرنسا مثل الرأي الذي اخذت به فعلياً اغلبية الطائفة المارونية لا سيما في جبل لبنان والمناطق المحاذية لها في الشمال، بدلالة النتائج التي اسفرت عنها انتخابات ١٩٤٣ في الجبل، ومن ثم الانتخابات الفرعية في ١٩٤٦ في محافظة الشمال، حين فاز الزغرتاوي يوسف كرم فحاول هو والوفد الذي صحبه الى بيروت، انزال العلم اللبناني عن البرلمان ورفع الفرنسي محله... ولم يكن الجلاء قد تحقق بعد.

لكن ما مثله اميل اده لقي رفضاً طال اغلبية الشعب اللبناني بدلالة النتائج العامة لانتخابات ١٩٤٣ حيث استطاع الدستوريون والاستقلاليون في الاطراف ان يحرزوا النتائج التي وازنوا بها هزائمهم في الجبل. وتبدت ذروة المعضلة الادية في ان الرئيس الراحل لم يتردد في التعاون مع سلطات الانتداب ابان اعتقال القادة الاستقلاليين في قلعة راشيا، فكان في آن معاً مضاداً لأكثرية الناس ولطبيعة الأمور المحكومة بميل متعاظم الى الاستقلال، وهو ميل كان يتعدى لبنان الى أغلب العالم الكولونيالي.

والرأي الذي دافع عنه اميل اده لم يكن يعدم أساسا نخبويا. فلبنان في عرفه ليس مهياً للاستقلال، ولا للسياسة تاليا، الأمر الذي يوجب ادامة الانتداب الفرنسي الى ان يتعلم اللبنانيون على أيدي رجالاته كيف يستقلون ويحكمون نفسهم بنفسهم.

الى ذلك فهذه النخبوية لم تكن تفتقد الى طبيعة مماثلة كامنة في الاشخاص الذين عبروا عنها. ففيما ضمت الكتلة الدستورية ابرز زعماء المناطق والطوائف الموصوفين بالتقليدية كصبري حماده ومجيد ارسلان وسليمان العلي ممن ضاع بينهم ميشال شيحا فاقتصر نشاطه على المساهمة

الفكرية والدستورية من دون السياسية المباشرة، ضمت الكتلة الوطنية القيادات الاسلامية الاكثر نفوراً من التقليد ككمال جنبلاط، والأقل امتثالاً لما تمليه وحدة المواقف الاسلامية كعبد الله الحاج، والأشد تعلماً بين قيادات الاطراف كمحمد العبود. اما في الشق المسيحي فكان الوجه الثقافي التجديدي كما مثله جورج نقاش وادوار حنين وصلاح لبكي وغيرهم ابرز منه في الشق المماثل عند الدستوريين.

بلغة اخرى، فان الدعوة التي حملها اميل اده كانت دعوة اقلية ان في درجة مطابقتها لحصيلة الشعب اللبناني، او في حجمها التمثيلي قياساً بسائر هذا الشعب، او بافكارها غير الشعبية بالنسبة للعاطفة الاستقلالية الجارفة. فاذا ما اضفنا المصير الذي لقيه اميل اده من جراء هذه الدعوة وهذا السلوك، وهو مصير يتراوح بين فرض العزلة والتلويح بالتخوين، فهنا احد مفاتيح الشخصية السياسية لابنه العميد.

فالأخير يمكن له أن يستخلص من تجربة والده بعض ما استخلصه من قبله شيوعيون تحمسوا لتروتسكي أو مسلمون شايعوا علياً، وخلاصة هذا الاستخلاص الذي لا يعدم مأساويته ان التزام الحقيقة (كما يراها كل طرف من زاويته طبعاً) والتزام العمل بموجبها، امران نخبويان ضيقا التداول. اما النجاح السياسي والشعبي فهو، في المقابل، مرهون بتقديم التنازلات ودغدغة عواطف الجمهرة والنسج على منوال التطلب الخاطىء الطاغي. وهذه كانت، كما قد يقول العميد في نفسه، حال بشارة الخوري وأخيه سليم وبطانته ممن خاصموا والده خصومة مرة وآثروا ركوب موجة الاستقلال والوجه العربي للبنان.

وبهذا المعنى فان تجربة اميل اده، بالخواتيم المأساوية التي افضت اليها، معطوفة على اعجاب نجله به وميله الى التماثل معه، دفعت بالاخير في وجهتين متفاوتتين ومتكاملتين:

الأولى، اصراره على ان يكون « ضميراً » تسبغ عليه صفات النزاهة والجرأة وقول الكلمة الحق بمعزل عن كل مردود سياسي قد يترتب على مثل هذه الضميرية.

والثانية، التردد امام النجاح السياسي وذروته بلوغ سدة رئاسة الجمهورية. فنجاح ريمون اده في ان يصير رئيساً يبث قدراً من الارباك في الحكمة الموروثة عن تجربة الوالد الراحل، لأن النجاح يعني ان الحقيقة قد تنتصر وقد تكون شعبية، فيما الحكمة المذكورة برهنت ان الحقيقة في مكان والنجاح في مكان اخر.

يترتب على هذه النظرة الى الامور من عين مأساوية ان « الثأر » لاميل اده لا يتم بالوصول الى رئاسة الجمهورية، بقدر ما يتم بالاثبات المتكرر ان النزاهة والجدارة والصراحة لا توصل صاحبها الا الى الفشل.

والراهن ان التجربة البرلمانية لريمون اده، النائب، ما ونت تقول ان انحياز الرجل للفكرة

على الواقع، كان دائماً انحيازاً صارخاً الى الحد الذي جعل سعيه وراء « المثال » يصطنع بالكاريكاتيرية واللاجدوى بين الفينة والاخرى. وكثيرون من رأوا في برقياته وتصاريحه من منفاه الباريسي في السنوات الاخيرة شهادات ناصعة على ذلك، وعلى استمراره وطيداً لا تفت السنون من عضده.

لكن البرهان الابرز يكمن في تركيبة الجمهور الانتخابي المؤيد تقليدياً لريمون اده في قضاء جبيل. فذاك الجمهور لا يضم بين جنباته اولئك الباحثين عن شق طريق وفتح مدرسة ومستوصف، بل اولئك الذين تحركهم عواطف وافكار سياسية عامة على نطاق وطني فتكون لهم آراؤهم في الاقتصاد الحر وتدخل الجيش في السياسة والعلاقات اللبنانية ـ العربية وغير ذلك. اي ان الجمهور الادي في القاعدة الانتخابية للعميد هو ذاك الذي يحظى افراده بسوية تعليمية وسعة عيش تعفيانهم من مناشدة الدولة شق طريق او فتح مدرسة ومستوصف.

من هنا نهض عماد الشعبية الأدية في قضاء جبيل على ابناء مدينة جبيل ممن ينظرون بقدر من الاستعلاء الى ابناء الجرد بموارنته وشيعته. كذلك حظي العميد بدعم ملحوظ في القرى السبع التي تعرف بـ«قرنة الروم» اي تلك المأهولة بأقلية ارثوذكسية كبيرة نسبياً تفوق المتوسط الجبيلي ثراء وتعلماً.

في المقابل ضم الحلف المناهض تقليدياً للعميد في القضاء المذكور، كلاً من بلدة عمشيت الساحلية التي تراجع وزنها الاقتصادي والسياسي في السنوات الاخيرة لصالح النمو الرأسمالي والديموغرافي في مدينة جبيل المجاورة، وشيعة الجرد بزعامة سياد آل الحسيني الدستوريين ممن يمتد نفوذهم باتجاه شمسطار في قضاء بعلبك الهرمل، والبيئة المارونية الجردية المهمشة سياسياً والتي مثلها في الستينات المرحوم الدكتور انطون سعيد ومن بعده ارملته نهاد.

وغني عن القول ان هذه الخريطة التي رسمنا ابرز خطوطها وتضاعيفها تضع العميد اده داخل قضائه في وضع « شعبي » لا يليق بكبار « الاقطاب » وهو منهم، بحسب ما درج عليه التقليد السياسي اللبناني. فهو حين يفوز في الانتخابات يفوز بفارق ضئيل ويبقى عرضة للسقوط حتى ظهور النتائج الاخيرة من دون ان يضمن مسبقاً امكان نجاح لائحته بكامل افرادها (٣ مقاعد). او انه يرسب فعلاً كما حصل في انتخابات ١٩٦٤ وان يكن التدخل الشهابي يومذاك قد ساهم في اسقاطه.

الا ان هذه الخريطة نفسها تقول ان ريمون اده يلتزم بالفكرة الاصلية عن البرلمانية ودورها، بمعزل عن مردودها الانتخابي وعن الفهم الشعبي السائد والخاطىء للوظيفة البرلمانية. فالنائب، في آخر المطاف، ليس من يشق طريقاً او يفتح مدرسة، اذ هذه وظيفة الدولة تبعاً لخطة مركزية موضوعة ومتفق عليها، كما يفترض. اما النائب فهو من يقوم بالتشريع الدستوري قيامه بمراقبة

السلطة التنفيذية وعملها، النشاطان اللذان لا تصل اصداؤهما الى ابناء القرى النائية في الاقضية، ولو وصلت فلن تتغير امور كثيرة في عرف هؤلاء الابناء واعتقادهم.

وفي هذا السعي وراء البرلمانية كما يفترض ان تكون بمعزل عن كل تطلب شعبي، تحول ريمون اده الى الفارس البرلماني الاول من دون منازع خلال العقدين اللذين سبقا اندلاع الحرب الاهلية، بل انه اناط بالبرلمان والمساجلات البرلمانية طاقة سحرية يجدر الشك بصحتها في اي من مجتمعات «العالم الثالث».

هنا كرر ريمون اده «اقلية» والده الراحل في صورة مختلفة. فاذا صح التصنيف القائل ان المسلمين الذين كان «رفع الحرمان» شعارهم التاريخي، هم دعاة تدخل الدولة تقليدياً، فبرلمانية اده الناصعة كفيلة برسم خط فاصل ناتىء بينه وبين الجمهرة الاسلامية، يضاف الى الخطوط الاخرى المتصلة بمعاني اللبننة والعروبة وتقييم التجارب السابقة.

لكن اده وضع ايضاً خطاً آخر بينه وبين الشعبوية المارونية التي لا تعترض بدورها على تدخل الدولة، ولا تتردد في الجهر برغبتها في كسر دائرة التقليد السياسي الماروني وتطعيمها ببيئات بعيدة نسبياً او وافدة الى السياسة بكثير من الضجيج.

فاذا ما اضفنا انتساب اده من جهة الام الى الصالون الارثوذكسي البيروتي الارستقراطي (والدته المرحومة لودي سرسق)، ودفاعه المستميت عن الليبرالية الاقتصادية الكاملة، ودعواته التجديدية الشبابية العامة التي تفتقر الى معادلها في نظام الدائرة الانتخابية، اذا ما اضفنا ذلك كله بدا لنا العميد اميل الى التعبير عن نبرة اعتراض ارثوذكسية نخبوية تجعله اقرب الى غسان تويني والبير مخيبر منه الى الزعماء الشعبيين الموارنة.

وجرياً على هذه الاعتراضية النخبوية المنحازة الى «فكرة»، لا نبالغ حين نقول ان الواقع الوحيد في عرف ريمون اده هو ذاك الذي ينبثق عن التشريع البرلماني، لان الواقع الآخر، الواقعي، غير جدير بان يؤخذ في عين الاعتبار، فاذا اخذ اخذ ضدياً وصدامياً.

ومن هنا فحين يتعطل البرلمان او يتعرض اداؤه للتراجع، كما راح يحصل بالتدريج منذ ١٩٧٥، يفقد ريمون اده آخر صلة بالواقع ويصير سمكة من دون مائها البرلماني اي الاكسير الوحيد لحياتها. فالبرلمان مصدر التشريع، ومن ثم مصدر الفكرة، اي انه في حساب العميد، المصدر الوحيد للواقع الاوحد الذي يبني عليه ويشتق منه.

فؤاد شهاب

صورة ريمون اده عن السياسة اللبنانية تستند الى صورته عن التاريخ. والأخيرة بما تنطوي عليه من نكوص تنشق الى شطرين: الكتلة الوطنية وعلى رأسها اميل اده، والكتلة الدستورية وعلى رأسها بشارة الخوري. لكن اذا كان العميد امتداد ابيه فمن هم امتداد خصم ابيه، ومن ثم

خصمه هو؟

خليل بشارة الخوري لا يستحق هذه الخصومة كلها، اما شقيقه ميشال فلم يكن قطباً برلمانيا فضلاًعن أن دخوله الى الحياة السياسية جاء متأخراً نسبياً وابقى صاحبه في وضع يتراوح بين رجالات الصفين الاول والثاني.

فوق هذا فان نجلي بشارة الخوري لم يمتلكا السلطة التي تسمح بالتعامل معهما كامتداد لأبيهما الذي اتهمه خصومه بالافراط في السلطوية.

من اذن؟ سليمان فرنجية؟ كميل شمعون؟ شارل حلو؟ والثلاثة رؤساء جمهورية سابقون؟

سليمان فرنجية خارج الدائرة. فهو ليس جبلياً ولا كان دستورياً، بل حتى لم يكن زعيماً يوم كانت الزعامة معقودة لشقيقه الاكبر حميد. ثم ان مواصفات سليمان فرنجية الشخصية والتعليمية لا ترشحه لان يكون خصم الحياة في نظر ريمون اده.

شارل حلو كان واحداً من تلامذة الخوري، فضلا عن ان دخوله الى الحياة السياسية لم يكن من الباب البرلماني، ولا كانت شخصيته التسووية عنصراً مغرياً للعداء الحاد الذي تستأنف به الدراما المتصلة. بهذا المعنى طغى عند ريمون اده قدر من الاستخفاف بشارل حلو ابان موالاته له كرئيس جمهورية وابان معارضته اياه على السواء. وقد تزايد الاستخفاف بسبب ما شاع من ضعف الرئيس حلو الذي حمله طويلاً على الاذعان للأجهزة الشهابية، فيما الخصم في هذه الحال لا يكون خصماً الا اذا كان قوياً مرهوب الجانب.

كميل شمعون كان ليشكل مثل هذا الخصم لريمون اده لاسباب عديدة لا تتوفر الا في الرئيس المذكور. فهو جبلي وقطب ماروني وقوي وشجاع وبرلماني، وهو الى ذلك كله احد الرجالات الدستوريين ابان النزاع الضاري بين اميل اده وبشارة الخوري. ليس هذا فحسب، فشمعون هو الدستوري الوحيد الذي انتزع في انتخابات ١٩٤٣ في الجبل اصواتاً تفوق تلك التي حصل عليها المرشحون الكتلويون.

لكن الرجل المرشح لان يمثل امتداد بشارة الخوري وخصومته في عين ريمون اده، هو الرجل المبدئي ايضاً. فالمبدئية والدفاع عن خط يتغير شرط لاكساب الصراع صفة الديمومة؛ التي لا تفنى. وكميل شمعون بهذا المعنى ليس مبدئياً، اذ هو تخلى عن الدستورية وشيخها، ووجد من يطعن في عروبته حتى يوم كان فتاها الاغر، وبحق او بغير حق، وجد من يشكك في نزاهته ومدى حصانته الشخصية حيال الاغراءات.

من هنا كان اده حين يتحالف مع شمعون يتحالف من دون حماس كما كان حاله في النصف الثاني من الخمسينات، وحين يعاديه، يعاديه يعاديه من دون حماس ايضاً كما بات حاله منذ

السلطة التنفيذية وعملها، النشاطان اللذان لا تصل اصداؤهما الى ابناء القرى النائية في الاقضية، ولو وصلت فلن تتغير امور كثيرة في عرف هؤلاء الابناء واعتقادهم.

وفي هذا السعي وراء البرلمانية كما يفترض ان تكون بمعزل عن كل تطلب شعبي، تحول ريمون اده الى الفارس البرلماني الاول من دون منازع خلال العقدين اللذين سبقا اندلاع الحرب الاهلية، بل انه اناط بالبرلمان والمساجلات البرلمانية طاقة سحرية يجدر الشك بصحتها في اي من مجتمعات «العالم الثالث».

هنا كرر ريمون اده «اقلية» والده الراحل في صورة مختلفة. فاذا صح التصنيف القائل ان المسلمين الذين كان «رفع الحرمان» شعارهم التاريخي، هم دعاة تدخل الدولة تقليدياً، فبرلمانية اده الناصعة كفيلة برسم خط فاصل ناتىء بينه وبين الجمهرة الاسلامية، يضاف الى الخطوط الاخرى المتصلة بمعاني اللبننة والعروبة وتقييم التجارب السابقة.

لكن اده وضع ايضاً خطاً آخر بينه وبين الشعبوية المارونية التي لا تعترض بدورها على تدخل الدولة، ولا تتردد في الجهر برغبتها في كسر دائرة التقليد السياسي الماروني وتطعيمها ببيئات بعيدة نسبياً او وافدة الى السياسة بكثير من الضجيج.

فاذا ما اضفنا انتساب اده من جهة الام الى الصالون الارثوذكسي البيروتي الارستقراطي (والدته المرحومة لودي سرسق)، ودفاعه المستميت عن الليبرالية الاقتصادية الكاملة، ودعواته التجديدية الشبابية العامة التي تفتقر الى معادلها في نظام الدائرة الانتخابية، اذا ما اضفنا ذلك كله بدا لنا العميد اميل الى التعبير عن نبرة اعتراض ارثوذكسية نخبوية تجعله اقرب الى غسان تويني والبير مخيبر منه الى الزعماء الشعبيين الموارنة.

وجرياً على هذه الاعتراضية النخبوية المنحازة الى «فكرة»، لا نبالغ حين نقول ان الواقع الوحيد في عرف ريمون اده هو ذاك الذي ينبثق عن التشريع البرلماني، لان الواقع الآخر، الواقعي، غير جدير بان يؤخذ في عين الاعتبار، فاذا اخذ اخذ ضدياً وصدامياً.

ومن هنا فحين يتعطل البرلمان او يتعرض اداؤه للتراجع، كما راح يحصل بالتدريج منذ ١٩٧٥، يفقد ريمون اده آخر صلة بالواقع ويصير سمكة من دون مائها البرلماني اي الاكسير الوحيد لحياتها. فالبرلمان مصدر التشريع، ومن ثم مصدر الفكرة، اي انه في حساب العميد، المصدر الوحيد للواقع الاوحد الذي يبني عليه ويشتق منه.

فؤاد شهاب

صورة ريمون اده عن السياسة اللبنانية تستند الى صورته عن التاريخ. والأخيرة بما تنطوي عليه من نكوص تنشق الى شطرين: الكتلة الوطنية وعلى رأسها اميل اده، والكتلة الدستورية وعلى رأسها بشارة الخوري. لكن اذا كان العميد امتداد ابيه فمن هم امتداد خصم ابيه، ومن ثم

خصمه هو؟

خليل بشارة الخوري لا يستحق هذه الخصومة كلها، اما شقيقه ميشال فلم يكن قطباً برلمانيا فضلاًعن أن دخوله الى الحياة السياسية جاء متأخراً نسبياً وابقى صاحبه في وضع يتراوح بين رجالات الصفين الاول والثاني.

فوق هذا فان نجلي بشارة الخوري لم يمتلكا السلطة التي تسمح بالتعامل معهما كامتداد لأبيهما الذي اتهمه خصومه بالافراط في السلطوية.

من اذن؟ سليمان فرنجية؟ كميل شمعون؟ شارل حلو؟ والثلاثة رؤساء جمهورية سابقون؟

سليمان فرنجية خارج الدائرة. فهو ليس جبلياً ولا كان دستورياً، بل حتى لم يكن زعيماً يوم كانت الزعامة معقودة لشقيقه الاكبر حميد. ثم ان مواصفات سليمان فرنجية الشخصية والتعليمية لا ترشحه لان يكون خصم الحياة في نظر ريمون اده.

شارل حلو كان واحداً من تلامذة الخوري، فضلا عن ان دخوله الى الحياة السياسية لم يكن من الباب البرلماني، ولا كانت شخصيته التسووية عنصراً مغرياً للعداء الحاد الذي تستأنف به الدراما المتصلة. بهذا المعنى طغى عند ريمون اده قدر من الاستخفاف بشارل حلو ابان موالاته له كرئيس جمهورية وابان معارضته اياه على السواء. وقد تزايد الاستخفاف بسبب ما شاع من ضعف الرئيس حلو الذي حمله طويلاً على الاذعان للأجهزة الشهابية، فيما الخصم في هذه الحال لا يكون خصماً الا اذا كان قوياً مرهوب الجانب.

كميل شمعون كان ليشكل مثل هذا الخصم لريمون اده لاسباب عديدة لا تتوفر الا في الرئيس المذكور. فهو جبلي وقطب ماروني وقوي وشجاع وبرلماني، وهو الى ذلك كله احد الرجالات الدستوريين ابان النزاع الضاري بين اميل اده وبشارة الخوري. ليس هذا فحسب، فشمعون هو الدستوري الوحيد الذي انتزع في انتخابات ١٩٤٣ في الجبل اصواتاً تفوق تلك التي حصل عليها المرشحون الكتلويون.

لكن الرجل المرشح لان يمثل امتداد بشارة الخوري وخصومته في عين ريمون اده، هو الرجل المبدئي ايضاً. فالمبدئية والدفاع عن خط يتغير شرط لاكساب الصراع صفة الديمومة؛ التي لا تفنى. وكميل شمعون بهذا المعنى ليس مبدئياً، اذ هو تخلى عن الدستورية وشيخها، ووجد من يطعن في عروبته حتى يوم كان فتاها الاغر، وبحق او بغير حق، وجد من يشكك في نزاهته ومدى حصانته الشخصية حيال الاغراءات.

من هنا كان اده حين يتحالف مع شمعون يتحالف من دون حماس كما كان حاله في النصف الثاني من الخمسينات، وحين يعاديه، يعاديه يعاديه من دون حماس ايضاً كما بات حاله منذ

النصف الثاني من السبعينات. ودائماً كان يبقي عينه مفتوحة على احتمال طعنة مباغتة مصدرها الرئيس الراحل.

واذا كان اميل اده هو البطل الاول في رواية ريمون اده، ففؤاد شهاب هوالبطل الثاني. صحيح انه لم يكن برلمانياً، لكنه كان احد ابرز المساهمين في صناعة برلمانات وانظمة دستورية عديدة، اذ بعد ترؤسه لحكومة ١٩٥٢ اعيدت الحياة الدستورية وانتخب رئيس جديد. وبعد رئاسته في ١٩٥٨ اصبحت الحياة البرلمانية برمتها موضوعاً لصناعته وتكييفه.

وقائد الجيش الذي حكم لبنان بشخصه ما بين ١٩٥٨ و ١٩٦٤ ثم بصورة مداورة حتى اواخر الستينات، يجمع في نفسه الكثير من المواصفات التي تؤهله لأن يكون الخصم المطلوب. فالى مارونيته وعائلته وجبليته ونزاهته التي حملت اتباعه على وصفه بالقداسة، كان شهاب امتداداً للتقليد الدستوري المعادي. لا بل كان الحائل دون تعرض بشارة الخوري لنهاية سياسية في بؤس النهاية التي تعرض لها اميل اده. فالحكومة المؤقتة التي شكلها شهاب في ١٩٥٢ كانت، كما سبقت الاشارة، جسر الانتقال الى حياة دستورية تتضمن الاستمرارية، بعيداً عن التشهير والعزل والمحاكمة كما طالب بعض قادة « الثورة البيضاء ».

اهم من ذلك كله ان شهاب مثل اعلى درجات « الواقعية » في مواجهة الفكرة ومصدرها البرلماني، وهذه الدرجة هي بالتعريف استعمال القوة.

فلئن كان ريمون اده يرى ان الحقائق الصائبة التي تنبثق عن التشريع والسجال هي ما ينبغي ان يكون مصدراً وحيداً للواقع، فالشهابية بدت، وبكل المعاني، دعوة ملحة لضبط تلك « الحقائق الصائبة » بالموجبات الواقعية الناجمة عن تركيب لبنان وموقعه. فاذا ما استحال احداث هذا الضبط بالحسنى فلا بأس باللجوء الى شيء من القوة والقسر، اي الى اكثر ما يأنفه التشريع والعدالية... و « الضمير ». فكيف اذا ما انيط بهذين القوة والقسر تشكيل جزء من « الفكرة » نفسها ومن مصدرها البرلماني؟

في هذا الاطار اندرج تزوير الانتخابات على ايدي الاجهزة الشهابية اندراج الكبت النسبي للحريات بما فيها الحريات الصحافية. اما السياسة الخارجية للحكم الشهابي، والمحكومة اساساً بالتحالف مع مصر الناصرية، فجاءت توفر التصالح مع الواقع القائم في المحيط اكثر منها خلاصة اذعان لحقائق يتم التوصل اليها في معرض بحث عن صواب مجرد.

بهذه المعاني كلها تستوقف المتابع للعلاقة بين الشهابية وريمون اده، وهو من لم يتعاط القوة لا في ١٩٥٨ ولا في ١٩٧٥، امور لا تحصى، لكن اثنتين منها تحظيان باهمية رمزية لا تقلل رمزيتها من غنى دلالاتها.

الاولى، انه عندمارسا الواقع المحلي والاقليمي والدولي على اختيار اللواء فؤاد شهاب رئيساً

للجمهورية في ١٩٥٨، شاء ريمون اده ان يواجهه في معركة انتخابية رمزية كان هو نفسه يعلم انها محكومة بالفشل مسبقاً، بل هو ربما لم يرد لها النجاح. اما الذريعة التي قدمها لمعركته هذه فمؤداها اثبات استمرار الديمقراطية وعملها، اي بلغة اخرى الانتصار للفكرة ولو مقرونة بهزيمة شخصية مختارة. والأصح ان يقال ان الرجل اختار نفسه كبش محرقة على مذبح الفكرة التي ينبغي ان لا تسلس كل قيادها لرجل او لاتفاق او ... لواقع.

والثانية، طلاقه مع الشهابية بعد مشاركته في حكومتها الرباعية التي اعقبت « الثورة المضادة » الكتائبية، وكانت برئاسة الرئيس رشيد كرامي وعضوية الحاج حسن العويني والشيخ بيار الجميل فضلا عن اده. اما السبب المباشر والحدثي للطلاق فتعرض الاجهزة الشهابية بالضرب المبرح لمواطن بسيط اسمه فيليب خير قيل انه شتم الرئيس شهاب. فالعميد لم يتردد في بناء موقف سياسي كامل قدر له ان يترك اثاره على مستقبل حياته السياسية، استناداً الى الحادثة المذكورة. واذا كان هذا السلوك تعبيراً اخر عن ميل العميد الى اشتقاق الواقع وسياسته من قانون لا ينبغي التجاوز عليه، فهو ايضاً تعبير عن ضيق الفرصة التي يمنحها العميد لسياسة القوة.

والراهن ان هذا الضيق ينم عما يلح في ريمون اده على الاسراع في تجديد المطابقة مع والد قضى معزولاً. اي ان الشهابية التي ظهرت كلحظة اجماع (حتى ١٩٦٠ على الاقل) اضاعت حدود الادية السياسية بما هي موقف متفرد ومبدئي يشاطر العزلة فرادتها. وما ان لاحت ادنى اشارة على استعمال الشهابية للعنف في غير موضعه حتى توفر المناخ النموذجي للانفصال عن الاجماع، والعودة الى موقع الاب الراحل الذي الغاه فؤاد شهاب المتفق عليه رئيساً.

بيد ان مشكلة ريمون اده مع الشهابية تعدت هذه الحدود، وبهذا المعنى الذي سيتم التطرق اليه، بدت معارضتها مدخلاً وتمهيداً الى التمتع بتعذيب النفس. ففي احد وجوهها كانت الشهابية بمثابة تحالف بين الامراء الارستقراطيين العائدين بزخم الى صدارة الحياة السياسية (فؤاد وعبد العزيز شهاب، فضلا عن عادل قائد الجيش) وبين شعبوية الموظفين (الياس سركيس) وسياسيي الصفين الثاني والثالث (رينيه معوض، فؤاد بطرس، انطون سعيد). وهذه الاطراف يجمع بينها، في آخر المطاف، موقف مشترك من الرأسمالية والبرلمانية وان اختلفت مصادره وتعددت تعبيراته.

فالأمراء الذين دفعهم النمو الرأسمالي الى التهميش ارادوا السيطرة على الرأسمالية «وفسادها»، وفي الآن نفسه الامساك بالبرلمان وانتزاع التشريع من بين يديه لان القرار ينبغي ابقاؤه في يد جهاز الدولة الفوقي. والشعبويون ورجالات الصفين الثاني والثالث ممن بقوا على قارعة العمليتين الرأسمالية والبرلمانية، اغرتهم تلك العدالية الفوقية للشهابية بما هي رغبة تدخلية لاعادة « الحق » الى « اصحابه » والحد من نفوذ اقطاب اللوائح البرلمانية.

وحيال هذا المركب الشهابي الارستقراطي ـ الشعبوي واجهت الادية، التي عرفت بتشريع «السرية المصرفية» والدفاع عنها، تحديا يعادل احتمال الاجتثاث. فريمون اده لا يعدم الصلة بالارستقراطية كما رأينا، لجهة والدته السرسقية البيروتية، الا انها ارستقراطية نجحت في تجاوز نفسها بورجوازيا وبرلمانيا من دون أية انقلابية تهفو الشهابية الى احداثها.

وبقدر ما كانت الشهابية هجوما على الادية من موقع الماضي الذي عجز عن التطور فاستقوى بجهاز الدولة، كانت في ملمحها الشعبوي هجوما عليها من موقع الزعم المستقبلي الذي يؤتى عن طريق الانقلاب على الأسر السياسية وتقليدها... وبرلمانها الأثير: أي ان الهجوم كان محكما ومطبقا وشاملا.

أكثر من هذا، فاستعمال الشهابية للقوة والقسر، وهو ما بلغ بحسب اتهام ريمون اده لها محاولة اغتياله ابان انتخابات ١٩٦٤ في جبيل، جعل محاولته ان يكون «الضمير» المعبر عن المبدئية والصواب محاولة ترقى الى معاناة نضالية وشخصية تكاد تكون صوفية.

ومن هنا تفاقمت كربلائية استحضار اميل اده استحضارا يعيد دفع ابنه الى الامتلاء به كما يبقي الثأر له محبطا ومحتقنا من حيث الانجاز العملي.

تلك المقدمات والعناصر تتيح لنا العودة الى المرحلة الغنية بدلالاتها والممتدة ما بين ١٩٦٨ و١٩٧٠ من حياة ريمون اده السياسية. فالرجل الذي اندفع في تصريح شهير الى حد الكلام عن ثلاثة أخطار تهدد لبنان هي الصهيونية والشيوعية والشهابية، شارك في تأسيس «الحلف الثلاثي» الذي ضم اليه الرئيس شمعون والشيخ بيار الجميل وكان قاطرة النجاحات الباهرة لانتخابات ١٩٦٨ في جبل لبنان.

تعود الى الذاكرة فورا نجاحات باهرة مماثلة كان حققها اميل اده في انتخابات ١٩٤٣ في الجبل، وسط مناخ لبناني عام معارض ما لبث ان ادى الى ايصال خصمه بشارة الخوري الى رئاسة الجمهورية.

ريمون اده في ١٩٦٨ فعل الشيء نفسه: نجاحات في الجبل بشعارات مارونية متطرفة مقابل اصطدام بتيار عام عريض في سائر الطوائف والمناطق. وغني عن القول ان خصومة في حدة الخصومة التي ربطت بين اده والشهابية كانت وحدها الكفيلة بتعبيد مثل هذه الطريق الاستثنائية امامه لاستعادة اميل اده على مثل هذا الوجه الناصع.

استعادة؟ ليس تماما. فاميل اده كان القائد الذي لا منازع له على رأس تيار التطرف الماروني الموصوف بالانعزالية، وهو الى ذلك كان رمز المحاولة الأولى التي في ضوئها روكمت نتائج التجربة التي غرف منها العميد لاحقا.

من ناحية ثانية فالأخير كان واحدا من ثلاثة ليس الأول بينهم، اذ الأول هو رئيس جمهورية

سابق (كميل شمعون) فيما النزاع على الموقع الثاني ناشب مع الشريك (بيار الجميل) الذي ربطت اده به علاقة تخلو من كل ود وصداقة.

بمعنى آخر فان المعاناة لم تنفصل عن تجربة الاستحضار بأي ثمن كان، كما قام بها اده. وهي معاناة يمكن اذا ما قيست بنتائجها المشابهة للنتائج التي حصدها الوالد في ١٩٤٣ ان تصنف في خانة الميل المازوشي الصرف: في ١٩٦٨ تحالف بشروط غير ملائمة وغير مقنعة أملتها درجة الخصومة مع الشهابية. في ١٩٦٩ تباعد علني كامل عن أحد الشركاء الثلاثة، أي الجميل، حيال عدد من الأمور أبرزها اتفاقية القاهرة وطرح الخلاف مع الشهابية وأجهزتها. وفي ١٩٧٠ يقطف سليمان فرنجية لا ريمون اده ثمرة نجاحات ١٩٦٨ بوصوله الى رئاسة الجمهورية.

واندفع اده وراء رغبته في الانتقام من الشهابية فاستمر يوالي عهد فرنجية لينتقل الى موقف غامض لا هو في الموالاة ولا في المعارضة. وبالتدريج راحت الفجوة تكبر بين المقدمات والنتائج خصوصا وان الوضع اللبناني برمته كان يدخل منعطفات جديدة نوعيا.

وفيما ريمون اده يستكمل انتخابات ١٩٦٨ ويمضي في معركة انقضى زمنها ضد الشهابيين، كانت مياه «الشعب» الماروني تتجمع في دلو الكتائب، والشعبية الأدية تضمر وتنكمش، وصولا الى الحرب وتعطل الحياة السياسية، مصدر «قوة» العميد، وبالتالي تعرضه لمحاولات الاغتيال وللنفي الطوعي في فرنسا.

بيار الجميل

في ١٩٤٣ شهدت الحياة السياسية اللبنانية تطورا مزدوجا في ما يخص ريمون اده: والده اميل اده يعاني السقوط والنبذ والتشهير، كما سبق القول، وهو أبرز وجوه الحياة السياسية اللبنانية منذ نشأة «لبنان الكبير» في ١٩٢٠. والوافد الجديد، ذو المنبت الذي لا يبلغ في عراقته شأو الأدين والسراسقة، يزهو بنيشان علقه على صدره رئيس الحكومة رياض الصلح احتراما لدوره في معركة الاستقلال.

لا يقف الأمر عند هذا الحد. فالصيدلي الشاب الشيخ بيار الجميل الذي لم يكن انقضى حينذاك غير ست سنوات على تأسيسه حزب، ينتمي الى عائلة معروفة بميولها الأدية في بكفيا ومن قبلها في مصر. فالدكتور أمين الجميل، والد بيار، وخصوصا شقيقه يوسف، كانا وهما في مهجرهما محسوبين على اميل اده المعبر الأكفأ عن وعي كولونيالي تشربا في كنف الادارة البريطانية في المنصورة.

وغني عن التذكير ان بشارة الخوري نفسه أنهى سنوات تدرجه في الحقوق في مكتب استاذه اميل اده، الحقيقة التي تزكي عند ريمون كل الريبة بالمحاسيب الطاحنين أو التلامذة الذين ينبغي اتقاء شرهم.

وأيضا وأيضا لا يقف الأمر عند هذا الحد. فخصوم اميل اده حين أرادوا لأسباب مختلفة تخوينه والاقتصاص منه، وجدوا في بيار الجميل الشاب الذي يقف بحدة في وجههم ويقاومهم برغم استقلاله عن الادية وخلافه معها. فشيخ الكتائب الذي أرسل محازبيه لحراسة منزل «الرئيس» اميل اده ومنع «الغوغاء» من اقتحامه، رأى ان الأمر لا يتعدى كونه خلافا في الرأي والاجتهاد من دون أن يكون خيانة وعمالة كما يقال.

لنحاول، اذن، اعادة بناء الأحداث التي سبق ايرادها، كما كان يمكن لريمون اده الشاب ان يقرأها:

ان لحظة الانحسار السياسي للوالد اميل اده هي بالضبط لحظة ولادة النجم الجديد بيار الجميل الذي لم يكن غير واحد من الشبان الأدبين المتحمسين. حزبه قفز قفزة ملحوظة مع الاستقلال واسمه بات معروفا على نطاق وطني فيما كان بيت الصنائع يطبق جدرانه على اميل اده. الا ان هذا الشاب الذي صدر عن عصبية سياسية ـ طائفية زعامتها في يدنا، أصبح الحامي لنا والحائل دون التشهير بنا. انه يريد ان يكون «بطلنا» العامل على رحمة عزيز قوم ذل.

وتمضي السنوات عبر محطات تؤول الى تركيز صورة بيار الجمل في عين عميد الكتلة الوطنية لا بوصفها الأنا البديلة بل أيضا الأنا التناحرية النقيض.

● خلال عهدي الرئيس بشارة الخوري يسدل ستار النسيان والحجب على الشقيقين ريمون وبيار اده اللذين يتولى كمال جنبلاط وسياسيون آخرون العمل لرفع الستار عنهما، فيما يحظى بيار الجميل، صاحب نظرية المطابقة بين العهد والنظام، برعاية لم تنقطع الا ابان انتخابات ١٩٤٧ وبعيدها.

● في ١٩٥١ تجري «معركة المتن» الشهيرة، والمتنافسان هما بيار اده وبيار الجميل.

صحيح ان الأول هو الذي فاز في آخر المطاف، لكن ذلك تم بشق الأنفس وبعد عقد تحالفات غير مبدئية طالت، في من طالت، «الحزب السوري القومي الاجتماعي» المطعون بلبنانيته، ناهيك عن كمال جنبلاط الذي كان لتوه قد أسس حزبه «الاشتراكي».

● في ١٩٥٨ قوة جديدة ونوعية يضيفها حزب الكتائب الى رصيده الماروني من حيث العدد والحجم والوزن. وفي الحكومة الرباعية يمثل الموارنة، ومن ثم المسيحيون، باثنين هما ريمون اده وبيار الجميل.

أهم من ذلك ان توسع السوق اللبنانية وما صحبه من هجرة داخلية وميل الى توسيع قاعدة التمثيل السياسي ليشمل فئات جديدة، كل ذلك وجد في الكتائب الشعبوية لا في ريمون اده التقليدي، من يعبر عنه ويعكسه. الكتائب اذن هي مستقبل الموارنة تبعا لهذه القراءة. اده هو ماضيهم.

● في ١٩٦٠ وفي انتخابات دائرة بيروت الأولى يتنافس بيار الجميل وبيار اده مجددا على رأسي لائحتين. وعلى عكس «معركة المتن» يكتب الفوز للأول المدعوم من الشهابية والمسلح برصيده في ١٩٥٨. بيار الجميل اذن هو الذي حصد الثمار لأنه كان «المدافع عن المسيحيين». بيار الجميل اذن هو وريث اميل اده لا ريمون اده الذي حال تعصبه للفكرة دون استعمال السلاح في نصرتها. لكن الأمن تغير: انه زمن الاتحاد السوفياتي دوليا وعبد الناصر عربيا. ريمون اده لا زال يفكر في مقارعة الحجة بالحجة. ريمون اده يقول لاحقا ان الجميل انتزع من آل اده، عبر التزوير، موقعا هو من حقهم!

● خلال العهد الشهابي الذي عارضه اده بضراوة كما رأينا، وفر بيار الجميل للعهد غطاءه الماروني المطلوب، وحظي مقابل موقفه هذا بعدد من وزارات الخدمات (أشغال عامة، تربية الخ). تعاقب عليها كتائبيون خلال الستينات، وكانت معبرا الى امتداد الحزب نحو الأطراف.

● برغم شهر العسل في ١٩٦٨ عاد الخلاف الى جذوته في ١٩٦٩.

استطاع بيار الجميل في تلك المساجلة الحارة ان يمثل موقعين متضاربين في آن معا: من ناحية هو «اللبناني» الذي يتجاوز الضيق والتطرف المارونيين بتأييده «اتفاقية القاهرة». ومن ناحية أخرى هو «الماروني» المسؤول الذي يتصدى بسبب وبلا سبب لتهجمات اده على مؤسسة الجيش بسبب وبلا سبب أيضا، فيما الخطر الفلسطيني المسلح يتنامى.

بلغة أخرى، بيار الجميل هو الناضج صاحب الموقف المركب الذي يجمع بين لبنانية لا تخل بالمارونية ومارونية لا تخل بالدولة. أما «ابن اده» كما كان يسميه فؤاد شهاب، فهو... الولد.

باختصار، أضاف بيار الجميل الى سجل صعوده المتعاظم، والمقابل لتضاؤل الدور الأدي، أضاف سمة لا تنفصل عن تكوين حزب الكتائب نفسه، كحزب يستطيع ان يكون لبنانيا ومارونيا، برلمانيا وميليشياويا، مسؤولا ومتهورا في آن معا.

فوق هذا كان ثمة احساس بالظلم عند ريمون اده لا يصعب البحث عن مصادره. فهو ظريف، سريع الخاطر والبديهة، مساجل من الطراز الأول، ذو معجبين كثر ومعجبات أكثر. وبيار الجميل حالة من الغموض الذي يصعب تظهيرها وربطها باشكال التواصل الانساني. انه لا يجيد الكلام. يتلعثم. يعجز عن التعبير. تخونه اللغة. يحبونه لا لشيء فيه بل لشيء مستغلق عليهم.

وأنا، قد يقول العميد في نفسه، ابن اميل اده. وهو حامي الموارنة!

والراهن ان الوجه الأكثر ازعاجا لريمون اده في بيار الجميل انه غالبا ما مثل دور الحائل لاستحضار الابن اباه، وبالتالي فاقم المعاناة التي ينطوي عليها الاستحضار المذكور. ولئن لبس شيخ الكتائب في حالات كثيرة لبوس التطرف الماروني الذي يمت بأصوله الى اميل اده، فان هذا

الاستيلاء على التركة والدور «الطبيعي» هو ما تعاظم مع الشيخ بشير الجميل. فالأخير اضاف الى التطرف في شكله الهجومي المسلح نبرة شبابية وتحديثية كان العميد قد احترف التعبير عنها طويلا في مواجهة قدامى السياسيين. لكن الشبابية الادية التي لم تتعد اسوار النخبة بمعناها العريض نسبيا، قصرت عن مخاطبة الجمهور «الشعبي» الذي استطاعت الشبابية البشيرية ان تخاطبه وتحضه.

وأهم من ذلك ان بشير الجميل حرر صورة والده بيار من الارتباك والتشوش اللذين شاباها، فاذا بالمدائح تكال على صراحته وطريقته في الكلام والمخاطبة، أي ان الكتائبي الشاب بدأ لأول مرة يسرق المفتاح السري الأخير في جعبة ريمون اده. وبقليل من التخيل نتكهن ان يكون العميد اشتهى لو ان بشير ابنه لا ابن بيار. بهذا يكون حفيد اميل اده أيضا.

بلغة اخرى فان «الفكرة» الناطقة واللامعة كما مثلها العميد كانت دائما تصطدم بقوة صامتة منكفئة لا تخاطب ناسها (فؤاد شهاب)، أو أخرى متلعثمة مفككة تتواصل مع جمهورها بالصمت والايحاء الصوفي (بيار الجميل).

مع بشير، دخل العنصر الذي كان العميد يستعمله سلاحاضد خصومه الصامتين والمتلعثمين: بشير ناطق أيضا، وجذاب في نطقه، وبنطقه متواصل مع الآخرين. والنطق علامة ذهنية ليست بالضرورة مجرد «فكرة» منفصلة عن السلوك العنفي، أو حتى عن مسؤولية المتابعة والانجاز. وبعد كل شيء فبشير، وما هو الا امتداد لبيار، نجح في الوصول الى رئاسة الجمهورية وهو في سن لا تزيد عن نصف عمر ريمون اده!

مع هذا كان يصعب على العميد أن يكتفي برذل بيار الجميل (وبشير والكتائب استطرادا) بالقول انه متطرف وأهوج. ففي استعراض جامع لسجله السياسي كثيرا ما ارتبط اسم مؤسس الكتائب، كما رأينا، بأدوار مسؤولة وأبوية كان اده حيالها يبدو هو المتهور والأهوج. تنطبق هذه المقارنة على مواقف الجميل ابان الاستقلال، وتنطبق خصوصا أثناء العهد الشهابي والنظرة الى الجيش، ناهيك عن مواظبته على بناء حزب حمل أحد الزملاء على تسميته «عميد العقائديين العرب».

بمعنى آخر، كانت الطبيعة الملتبسة لحزب الكتائب وقدرته على اداء دورين متنافرين في آن معا، تسدان على ريمون اده امكانية اداء أدوار يجد ثمة ما يدعوه الى لعبها. فلئن كانت المحصلة العامة للادية السياسية كناية عن موقف ضميري اقلي، فان الجميلية نجحت في حالات كثيرة في ان تنضوي في موقف أكثري لبناني (في العهد الشهابي مثلا)، من دون أن تعوزها ضميرية من نوع آخر اسبغتها عليها الشخصية الغامضة شبه الصوفية للشيخ بيار.

فاذا صح القول ان الشهابية جعلت استحضار ريمون اده لوالده مهمة نضالية ومعاناة محفوفة

بالمصاعب، فان الجميلية أحالت هذا الاستحضار الى مهمة بلا جدوى ولا مقابل، الأمر الذي يزيد في اصرار ريمون اده على احداث الاستحضار بقدر ما يزيد في حرقته وألمه وتلذذه بهذين الحرقة والألم.

هنا يكمن مرد كراهية ريمون اده لبيار الجميل الذي عادل أخاه في متن ١٩٥١ وهزمه في بيروت ١٩٦٠ واقتحم بعسكره مدينة جبيل في ١٩٧٥، وكأنه يجمع الى العمل الاغتصابي دك آخر المعاقل، وآخر المعاني الادية.

وفي هذه الكراهية التي حدت ببيار الجميل لأن يقول «ريمون اده يلعن الله لأنه خلقني»، يكمن جذر الكثير من السلوكيات السياسية الملتبسة لعميد «الكتلة الوطنية» والتي جاءت تشبه الخبط العشوائي.

فتصدي الكتائب للقيام بهذه الوظيفة أو تلك، لم يحرم اده فقط من أن يتولى بنفسه اداء هذه المهام المذكورة، لكنه حرمه أيضا من التراجع الى خط آخر كالذي كانت تتيحه معارضة الشهابية: فحين وقف في وجه فؤاد شهاب كان في وسعه أن يقول انه رجل «الفكرة» التي تصله باميل اده فيما شهاب رجل «القوة» والتطويع القسري للفكرة.

أما الكتائب، ومنذ ١٩٧٥ على الأقل، فأدخلت قدرا كبيرا من التشوش والالتباس على الصورة المثال عند ريمون اده، أي صورة الوالد الراحل، عبر امساكها بناصية الفكرة المتطرفة وقرنها بالقوة. وهذا ما يرقى في آخر المطاف الى اعتداء على مصادر التوازن الداخلي للرجل ورموزه والمنطق «الطبيعي» لاستمرارية هو نتاجها المفترض.

بهذا المعنى طغى التبديد على المواقف المارونية لريمون اده طغيان استحالة افضاء المقدمات الى نتائج مناسبة. فكما ان انضواءه في «الحلف الثلاثي» في ١٩٦٨ أفاد سليمان فرنجية وحزب الكتائب بالدرجة الأولى، فان موقفه التقليدي باستجلاب بوليس دولي الى الجنوب تحول حجة لاحقة ضد طروحاته الأقل تشددا حيال المقاومة الفلسطينية. أما نبرته المضادة لاسرائيل والتي محورها أرض الجنوب ومياهه فعجزت عن أن توفر المقابل الاسلامي الذي يعوض الخسارة المسيحية. وهومقابل لا يستطيع في الأحوال كافة أن يؤدي هذا التعويض، تبعا للمعادلات الطائفية التي تخضع لها تركيبة النظام.

والراهن ان التأييد الاسلامي المستجد لريمون اده يقع بين حدين أولهما مشوب بتحفظات حول الكثير من مواقف اده وحول تاريخ الادية السياسية بدءا بمؤسسها اميل. أما الثاني فهو اعادة انتاج لريمون اده تعمل على تفريغه وتقدمه سياسيا مفصولا عن افكاره ومواقفه وتاريخه... وأبيه، أي عن ذاته.

فحين يتصدى اده للانتهاكات الاسرائيلية في الجنوب، مثلا، فانه لا يصدر عن المقدمات التي يصدر عنها التصدي الاسلامي والعروبي للانتهاكات نفسها. ومع هذا فالانعدام المأساوي

لأي أرض أدية مستقلة تقود الى دمج موقف نجل اميل اده في خليط لا صلة للرجل به من بعيد أو قريب.

ودخول الكتائب الى غرف المراجع الأكثر سرية في رأس ريمون اده، وما ترتب على هذاالدخول من تطورات موازية، هو ما أفقد الرجل توازنه منذ ١٩٧٥ . فالعميد بات لا يعرف بالتمام هو مع من وضد من، ومن معه ومن ضده، وأين تنتهي حدود ريمون اده الذريعة والفزاعة وأين تبدأ حدود ريمون اده الموقف والخيار.

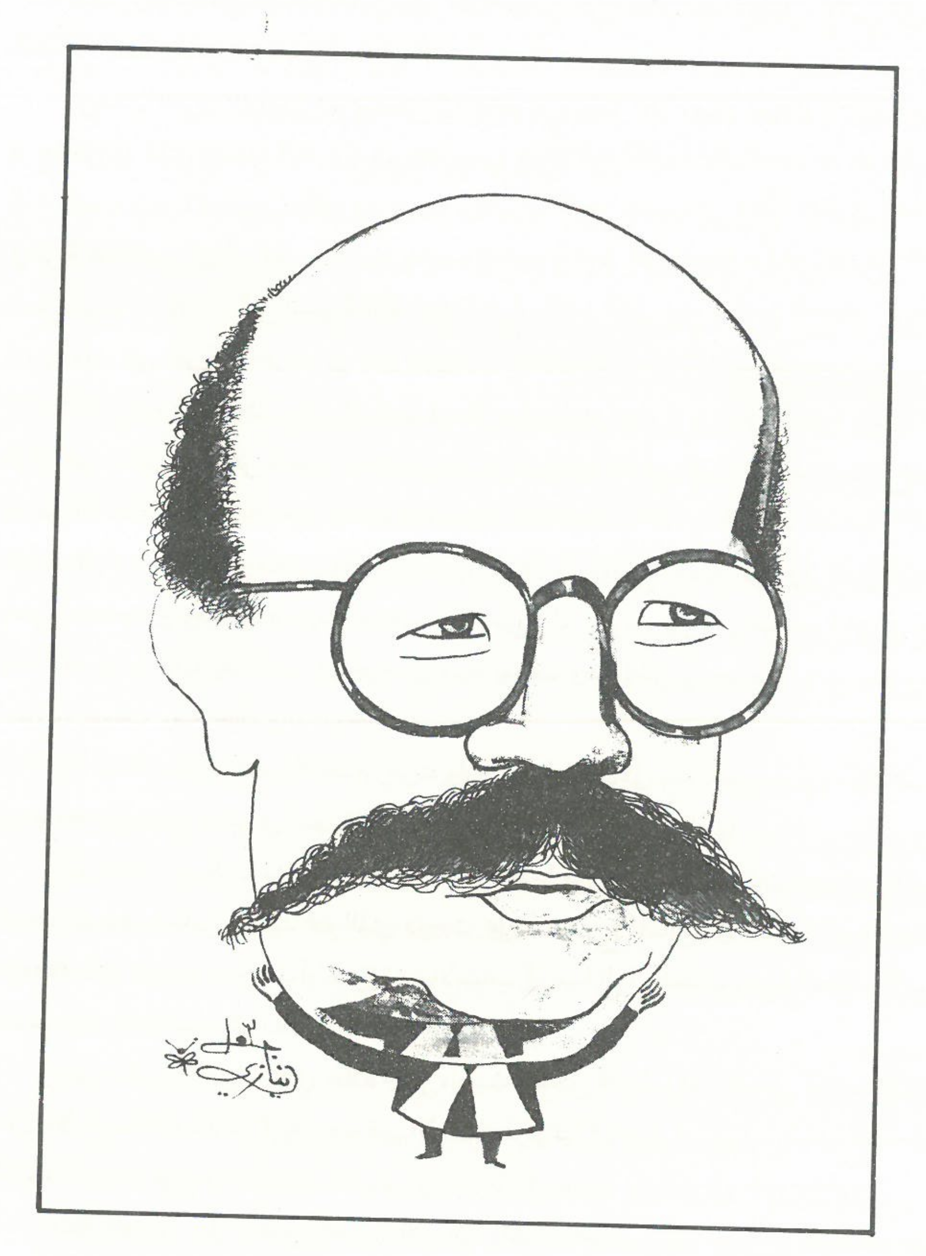
واذا ما استثنينا الكتائب وامتدادها في «القوات اللبنانية» ومعهما اسرائيل التي هي في عرف العميد شريان المدد الكتائبي، صعب الكلام على موقف واضح لريمون اده من أي طرف آخر، الأمر الذي ينطبق على السوريين والفلسطينيين والأميركان ووليد جنبلاط ونبيه بري وابراهيم قليلات وسليمان فرنجية الخ . . وبالمعنى نفسه صعب الكلام على موقف واضح للأطراف المذكورين من ريمون اده. وغني عن الاشارة الى ان هذه الحال أقرب الى الاندراج في خانة المواقف الشعورية والنفسية منها الى المواقف السياسية التي تفترض درجة من الثبات والاستقرار، ناهيك عن الوضوح.

يبقى ان الاضطراب في النظر الى القوى المحلية والاقليمية والدولية، والذي يفاقمه غياب البرلمان «والفكرة»، ويغذيه الاستعداد النكوصي الى طفلية حادة الحضور يتحول الى وعاء للغنج الارستقراطي الذي حمل صاحبه على ربط رئاسته بشروط تعجيزية (الجولة الشهيرة على البلدان الأعضاء في مجلس الأمن التي اذا نجحت في سحب اسرائيل جعلته يفكر في قبول الرئاسة التي يكون قد اختير لتبوئها وهو في فرنسا!).

ان طغيان الحال الشعورية والنفسية يتلاءم تعريفا مع ما سبق وصفه من عدم افضاء المقدمات الى نتائج تبنى عليها منطقيا. ففي هذه الحال تطغى العشوائية ويؤدي لهاث الابن للحاق بموقف أبيه الى قطيعة مع موقف أبيه. وفي المرتين لم تكن الارادة الهادئة العاقلة مصدر الرغبتين أو النتيجتين. لكن ريمون اده يجد نفسه أمام مفارقة مؤداها ان «المسيحيين» هم الذين يضعون الفيتو على رئاسته، و«المسلمين» حين يؤيدونه تحدوهم الى ذلك مواجهة الفيتو بالفيتو أكثر مما تحدوهم أية عاطفة خاصة حياله.

ولولا ذلك كله، وهو ليس بالقليل، لكان ريمون اده الاسم الأول القاطع بأن الحرب قد انتهت فعلا، وان من سيحكم سعيدا سيكون رئيس الحل بلا زيادة ولا نقصان.

هل يريد ريمون اده ذلك، أم أن مازوشيته تنطوي على سادية تقول للبنانيين: مشاكلكم لا حل لها، لأنكم ذات مرة شئتم ان تصيروا بلدا وتستقلوا، على عكس ارادة الوالد. تعذبوا اذن وتمرغوا بالوحل واسعوا في نفق العتم المديد!



روجيـــه اده

ولد روجيه اده في آب ١٩٤١ في بلدة اده الصغيرة من أعمال قضاء جبيل، والتي يقال ان جميع من يحملون اسم اده يتفرعون في الأصل عنها.

وسكان القرية المذكورة هم بنسبة ٩٠٪ منهم من عائلة اده المتوزعة فروعا واحبابا ابرزها فرع الخوري الذي ينتسب اليه روجيه، وقد سمي هكذا تبعا لكثرة رجال الدين فيه كما سنرى.

لهذا فالعميد ريمون اده لدى خلافه مع روجيه، قال ان الاخير ينتسب الى عائلة الخوري الصغيرة في قرية اده وليس الى آل اده. وبازدراء يقارب العنصرية اخذ على روجيه توقيعه المفترض الذي يحمل حرف R قبل اسم العائلة، وهو الحرف نفسه الذي يبدأ به اسم العميد، من دون ان يتعفف عن تحريف الحرف في نحو بذيء.

أما روجيه فرغم ايثاره عدم السقوط في مثل هذه المهاترات، لم يتردد في اللجوء الى رد من طراز آخر. فقد بحث عن شجرة العائلة ووجد من يسجلها، وهي تقول ان العائلة تتفرع عن بطرس اده ومنه الخوري ابراهيم والخوري موسى. وقد أنجب الخوري ابراهيم تادروس الذي أنجب بطرس آغا والشيخ منصور ورزق والخوري حنا. وفيما تفرع العميد عن رزق الذي أنجب يعقوب ومنه بدوي ومنه يوسف ومنه ابراهيم ومنه اميل والد ريمون، تفرع روجيه عن الخوري حنا ومنه الخوري يوسف ومنه الخوري جرجس ومنه يوسف ومنه الخوري جرجس ومنه سام ومنه الخوري يوسف ومنه جان والد روجيه.

أما الرد الآخر الذي لا يعدم رمزيته وارجاعه السجال الى بدء تكويني أول، فكان شراء روجيه ما تبقى من قناطر في اده يقال ان أحد جدود ريمون كان يمتلكها.

وقرية اده، وسكانها مزارعون وفقراء أنجبوا عددا من الموظفين والملاكين الصغار، كانت تقليديا شديدة الحماس للعميد اده الذي درجت على أن تقترع لصالحه في الانتخابات فلا يشذ عن ذلك أكثر من صوت واحد أو صوتين. والأسباب في هذا الولاء تعدت وحدة العائلة والاسم الجامع وان كانت هذه الوحدة تعززها وتغذيها.

فعلى عكس ما هو سائد في «بلاد جبيل» حيث تتشكل قاعدة ريمون اده من الفئات الأكثر تعلما والأرفع دخلا، وفرت قرية اده بعض الاستثناء لوقوعها في جوار عمشيت: البلدة الساحلية الكبيرة حيث ترعرع ونما التقليد الدستوري العريق في بيوت بكوات آل لحود والخوري.

بلغة أخرى، على عكس الصورة الاجمالية لقضاء جبيل، مثل احتجاج فقراء اده على البكوات الدستوريين العمشيتيين طريقهم الى تأييد «القطب» الذي يقال ان أصله عندهم. وكان روجيه اده الشاب أحد الحزبيين الكتلويين ممن ساهموا في رسم هذه الطريق وتعبيدها.

والد روجيه هو جان اده الذي عمل موظفا في ادارة شركة المرفأ (البور) منذ عهد الانتداب، أما والدته فمن آل الخوري من بيت الدين، وقد قر رأي الوالدين على ايفاد نجلهما الصغير الى

مدرسة عينطوره، ومنها الى الحكمة حتى ١٩٥٦. وخلال دراسته الجامعية في كلية الحقوق في اليسوعية (القديس يوسف) زاول روجيه التعليم في مدارس جبيل لكي يفي بالتزامات الدراسة التي أنهاها في ١٩٦٤ وانتقل الى التدرج في مكتب المحامي فايز حداد.

بين العميد وواشنطن

في «الكتلة الوطنية» كان روجيه، منذ انتسابه في ١٩٥٨، مناضلا حزبيا ساهم في التظاهرات الطلابية واعتقل غير مرة لا سيما في ١٩٦٤ حين كان يهتف على رأس متظاهرين ضد التجديد للرئيس فؤاد شهاب:

لا تجديد ولا تمديد   ما بدنا الا العميد

وأصبح روجيه عضوا في اللجنة الطلابية التابعة لمجلس الحزب، ومن ثم رئيسا لها، فحاول في السبعينات، ومن موقعه هذا، أن يوجد للحزب سياسة طلابية متحركة تتعدى العمل في نطاق النشاط السياسي البرلماني المرتبط حصرا بتحركات ريمون اده الموسمية. لكن التصاق روجيه بالعميد لم يدفعه، مثلا، الى الوقوف في صف ادوار حنين الذي كان يردد في مجالسه الضيقة ان الحزب ليس لبيت اده. وروجيه من بيت اده في آخر المطاف، بما يفترض من حيث المبدأ، ان العميد الذي لم ينجب خلفا له أقدر من الحزب كحزب على منحه غطاء الشرعية العائلية والحزبية في آن معا.

على أية حال فالمحامي الشاب الذي لم يكتم طموحه المبكر نجح في ان يحصل على تعيين الحزب له في ١٩٨٠ أمينا عاما مساعدا، ليخوض في ١٩٨٢ من فرنسا والولايات المتحدة معركة العميد الرئاسية التي لم تحصل.

أواسط ١٩٨٤ فصل روجيه من عضوية الحزب، وكان الفصل قد سبقته مساجلات اعلامية مع ريمون الذي ضاق ذرعا بالنجاح المالي والاعلامي لمحام أراده مجرد تابع له فاصطدم بطموحه الى التصدر وميله الاستقلالي. يومها قال العميد لحلقة من زواره في باريس بطريقته التي تخالطها خفة معروفة: أرسلناه الى أميركا ليعمل لي، فبدأ يعمل لنفسه.

والراهن ان العميد ليس، طبعا، من أرسل روجيه الى اميركا. فالأخير قاده طموحه منذ سنوات دراسته في الجامعة اليسوعية لأن يتقرب من مصادر النفوذ والمال، عاملا على بناء علاقات كانت لا تزال بسيطة ومحدودة مع شركات ميدانها سوريا والخليج. وفي ١٩٧٣ وكان قطاع الخدمات بلغ ذروة مجده في بيروت الكوزموبوليتية الى حد بعيد، وجه روجيه مكتبه في الحمراء نحو الشركات التي تعمل على نطاق اقليمي، رصيده علاقات متفاوتة ودعوى كبيرة كسبها لصالح صغار المساهمين في شركة استثمار كازينو لبنان.

وتوكل روجيه عن شركات أميركية كانت تعج بها بيروت فساهم في توفير مشاريع لها في

ولد روجيه اده في آب ١٩٤١ في بلدة اده الصغيرة من أعمال قضاء جبيل، والتي يقال ان جميع من يحملون اسم اده يتفرعون في الأصل عنها.

وسكان القرية المذكورة هم بنسبة ٩٠٪ منهم من عائلة اده المتوزعة فروعا واحبابا ابرزها فرع الخوري الذي ينتسب اليه روجيه، وقد سمي هكذا تبعا لكثرة رجال الدين فيه كما سنرى. لهذا فالعميد ريمون اده لدى خلافه مع روجيه، قال ان الاخير ينتسب الى عائلة الخوري الصغيرة في قرية اده وليس الى آل اده. وبازدراء يقارب العنصرية اخذ على روجيه توقيعه المفترض الذي يحمل حرف R قبل اسم العائلة، وهو الحرف نفسه الذي يبدأ به اسم العميد، من دون ان يتعفف عن تحريف الحرف في نحو بذيء.

أما روجيه فرغم ايثاره عدم السقوط في مثل هذه المهاترات، لم يتردد في اللجوء الى رد من طراز آخر. فقد بحث عن شجرة العائلة ووجد من يسجلها، وهي تقول ان العائلة تتفرع عن بطرس اده ومنه الخوري ابراهيم والخوري موسى. وقد أنجب الخوري ابراهيم تادروس الذي أنجب بطرس آغا والشيخ منصور ورزق والخوري حنا. وفيما تفرع العميد عن رزق الذي أنجب يعقوب ومنه بدوي ومنه يوسف ومنه ابراهيم ومنه اميل والد ريمون، تفرع روجيه عن الخوري حنا ومنه الخوري يوسف ومنه الخوري جرجس ومنه يوسف ومنه الخوري جرجس ومنه سام ومنه الخوري يوسف ومنه جان والد روجيه.

أما الرد الآخر الذي لا يعدم رمزيته وارجاعه السجال الى بدء تكويني أول، فكان شراء روجيه ما تبقى من قناطر في اده يقال ان أحد جدود ريمون كان يمتلكها.

وقرية اده، وسكانها مزارعون وفقراء أنجبوا عددا من الموظفين والملاكين الصغار، كانت تقليديا شديدة الحماس للعميد اده الذي درجت على أن تقترع لصالحه في الانتخابات فلا يشذ عن ذلك أكثر من صوت واحد أو صوتين. والأسباب في هذا الولاء تعدت وحدة العائلة والاسم الجامع وان كانت هذه الوحدة تعززها وتغذيها.

فعلى عكس ما هو سائد في «بلاد جبيل» حيث تتشكل قاعدة ريمون اده من الفئات الأكثر تعلما والأرفع دخلا، وفرت قرية اده بعض الاستثناء لوقوعها في جوار عمشيت: البلدة الساحلية الكبيرة حيث ترعرع ونما التقليد الدستوري العريق في بيوت بكوات آل لحود والخوري.

بلغة أخرى، على عكس الصورة الاجمالية لقضاء جبيل، مثل احتجاج فقراء اده على البكوات الدستوريين العمشيتيين طريقهم الى تأييد «القطب» الذي يقال ان أصله عندهم. وكان روجيه اده الشاب أحد الحزبيين الكتلويين ممن ساهموا في رسم هذه الطريق وتعبيدها.

والد روجيه هو جان اده الذي عمل موظفا في ادارة شركة المرفأ (البور) منذ عهد الانتداب، أما والدته فمن آل الخوري من بيت الدين، وقد قر رأي الوالدين على ايفاد نجلهما الصغير الى

مدرسة عينطوره، ومنها الى الحكمة حتى ١٩٥٦. وخلال دراسته الجامعية في كلية الحقوق في اليسوعية (القديس يوسف) زاول روجيه التعليم في مدارس جبيل لكي يفي بالتزامات الدراسة التي أنهاها في ١٩٦٤ وانتقل الى التدرج في مكتب المحامي فايز حداد.

بين العميد وواشنطن

في «الكتلة الوطنية» كان روجيه، منذ انتسابه في ١٩٥٨، مناضلا حزبيا ساهم في التظاهرات الطلابية واعتقل غير مرة لا سيما في ١٩٦٤ حين كان يهتف على رأس متظاهرين ضد التجديد للرئيس فؤاد شهاب:

لا تجديد ولا تمديد   ما بدنا الا العميد

وأصبح روجيه عضوا في اللجنة الطلابية التابعة لمجلس الحزب، ومن ثم رئيسا لها، فحاول في السبعينات، ومن موقعه هذا، أن يوجد للحزب سياسة طلابية متحركة تتعدى العمل في نطاق النشاط السياسي البرلماني المرتبط حصرا بتحركات ريمون اده الموسمية. لكن التصاق روجيه بالعميد لم يدفعه، مثلا، الى الوقوف في صف ادوار حنين الذي كان يردد في مجالسه الضيقة ان الحزب ليس لبيت اده. وروجيه من بيت اده في آخر المطاف، بما يفترض من حيث المبدأ، ان العميد الذي لم ينجب خلفا له أقدر من الحزب كحزب على منحه غطاء الشرعية العائلية والحزبية في آن معا.

على أية حال فالمحامي الشاب الذي لم يكتم طموحه المبكر نجح في ان يحصل على تعين الحزب له في ١٩٨٠ أمينا عاما مساعدا، ليخوض في ١٩٨٢ من فرنسا والولايات المتحدة معركة العميد الرئاسية التي لم تحصل.

أواسط ١٩٨٤ فصل روجيه من عضوية الحزب، وكان الفصل قد سبقته مساجلات اعلامية مع ريمون الذي ضاق ذرعا بالنجاح المالي والاعلامي لمحام أراده مجرد تابع له فاصطدم بطموحه الى التصدر وميله الاستقلالي. يومها قال العميد لحلقة من زواره في باريس بطريقته التي تخالطها خفة معروفة: أرسلناه الى أميركا ليعمل لي، فبدأ يعمل لنفسه.

والراهن ان العميد ليس، طبعا، من أرسل روجيه الى اميركا. فالأخير قاده طموحه منذ سنوات دراسته في الجامعة اليسوعية لأن يتقرب من مصادر النفوذ والمال، عاملا على بناء علاقات كانت لا تزال بسيطة ومحدودة مع شركات ميدانها سوريا والخليج. وفي ١٩٧٣ وكان قطاع الخدمات بلغ ذروة مجده في بيروت الكوزموبوليتية الى حد بعيد، وجه روجيه مكتبه في الحمراء نحو الشركات التي تعمل على نطاق اقليمي، رصيده علاقات متفاوتة ودعوى كبيرة كسبها لصالح صغار المساهمين في شركة استثمار كازينو لبنان.

وتوكل روجيه عن شركات أميركية كانت تعج بها بيروت فساهم في توفير مشاريع لها في

السعودية بوصفه الى جانب كونه محاميا، رجل علاقات عامة لا تنقصه مواصفات النجاح. وأتيح لروجيه، في المقابل، أن يصير مساهما في بعض هذه المشاريع، وكان أهمها بناء جامعة الرياض وتصميمها وتنفيذها.

ومنذ ١٩٧٥ شرع روجيه اده يتردد على المملكة السعودية ويوسع شبكة علاقاته مع سعوديين نافذين، موظفا ما يملك في الأسواق والبورصات الدولية مع استمراره محاميا للشركات التي توكل عنها. وفي غضون ذلك أسهم في محطة T.F.I الفرنسية التي اشترى صاحب شركة بويغ الاميركية للانشاءات أغلب أسهمها.

وانتقل رجل الأعمال، الذي يسير في محاذاة رأس المال الاميركي واندفاعه، الى الولايات المتحدة وراح بدأب يتعلم الانكليزية حتى أجادها بحدود معقولة. وهنا يروي روجيه انه كان قليل التردد على واشنطن العاصمة ومدينة الحياة السياسية، مؤثرا عليها متابعة أشغاله التجارية والمالية في المدن الأوثق اتصالا بهذه الأشغال، الى ان كان العام ١٩٨٠.

حينذاك وفي لقاء رتبه بين العميد اده وأحد كبار الرسميين الاميركان، سأل الأول:

ما هي قيمة لبنان في المعادلات الدولية؟

فأجابه الثاني Lebanon is irrelevant، أي أن لبنان لا قيمة أو لا معنى له.

وهكذا توفرت لروجيه ذريعة الانتقال العلني الى السياسة من أجل... انقاذ لبنان! استأجر بيتا ومكاتب في واشنطن، وراح بالتدريج ينتقل من الأعمال الى السياسة.

ومنذ أوائل الثمانينات تفرغ روجيه للسياسة مكتفيا من الأعمال بادارة أمواله وتشغيلها، متنقلا بين بيوته الثلاثة في واشنطن وباريس والانتيب بجنوب فرنسا، وبين مدن وعواصم يجتمع فيها أو يحاضر أو يشارك في ندوات ومؤتمرات. وروجيه مولع بالنقاش السياسي وبناء الصلات مع الصحافيين، وقد أقام علاقات وصداقات في البلدان العربية حيث عمل، وعلاقات مع مراكز بحوث أميركية وأوروبية ومع شخصيات ربما كان أبرزها بريجنسكي وفيليب حبيب وريمون بار.

وفي لبنان وطد علاقته بالرئيس تقي الدين الصلح، وأحيا صداقته القديمة مع الرئيس حسين الحسيني الذي نظم له جولة أميركية بعيد وصوله للمرة الأولى الى رئاسة المجلس، قادته الى حضور ندوة كان بين نجومها الرؤساء نيكسون وفورد وكارتر.

في غضون ذلك، وفي ١٩٧٥، التقى روجيه في بيروت بأليس كنغزبري برادلي الاميركية ذات الأصل الايرلندي والتي عاشت في المانيا أغلب سنواتها. فوالد أليس خدم ضابطا في الجيش الأميركي في المانيا وعندما تقاعد جعل يصدر نشرة اعلامية موجهة للأميركان المقيمين هناك.

وباقترانه بأليس التي درست الترجمة وأجادت سبع لغات، امتلك روجيه واحدة أخرى من عدة الشغل. فزوجته ذات التربية الكاثوليكية خير من يساعده في التفرغ لدوره العام بحضورها

الخفي واجاداتها الباهرة للياقات العامة، ناهيك عن ترفعها الارستقراطي الملحوظ.

مجلس التعاون

في ٨ تموز ١٩٨٢ وابان حصار بيروت من قبل الاسرائيليين أسس روجيه اده «حركة لبنان المحايد» التي أوجزت بأحرفها الأولى «حلم»، فلم يكن هذا الايجاز قليل الدلالة على لا واقعيتها يومذاك.

الحركة التي ضمت عددا قليلا من اللبنانيين الذين يعيشون في الولايات المتحدة وفرنسا، ظهرت مع بوادر الخلافات الأولى بين روجيه وعميده في «الكتلة الوطنية».

وفي مقابلة أجرتها معه مجلة «مونداي مورننغ» في ١٣/ ١٢/ ١٩٨٢ اعتبر روجيه اده ان «لبنان المحايد» يشكل ردا على شروط اسرائيل بضرورة عقد معاهدة مع لبنان لقاء الانسحاب من اراضيه. وبكثير من المبالغة أعلن اده ان التحضير لهيكلية الحركة يطال جميع الأحزاب والطوائف اللبنانية، مؤكدا على ضرورة تبني الحكومة اللبنانية لهذه الفكرة من أجل دفع الأكثرية الى الموافقة على موضوع الحياد.

ولم يتردد اده الذي حذر من ميل اسرائيل الى عدم الانسحاب من لبنان، في الحض على الطريقة النمساوية للحياد، حيث استطاعت النمسا، على عكس سويسرا، البقاء في الأمم المتحدة من دون أن تلتزم بالقرارات التي تخالف حيادها. كذلك بقيت النمسا عضوا فاعلا في المجموعة الأوروبية وخصوصا سوقها المشتركة، بما يعني ان في وسع لبنان البقاء في الجامعة العربية والأمم المتحدة.

ولم يقيض لحركة الحياد ان تعيش فغاب روجيه ليركز نشاطه السياسي والاعلامي في الولايات المتحدة والعواصم الأوروبية، الى ان أعلن مؤخرا ترشيحه الرئاسي الذي «لا تراجع عنه» كما يقول.

نشرة «لسان الحال» التي يملكها عنونت أخبار مؤتمره الصحافي (حيث أعلن ترشيحه) بعبارات فيها تخمة أتيح لمشاهدي روجيه على شاشة «أل. بي. سي» أن يلمسوها:

«القرار يعلنه رجل التغيير». هذا هو المانشيت الذي يتفرع الى: «أنا هنا لتحدي مستحيلات الانقاذ في لبنان. اختلف عن فرنجية بأنني مقبول مسيحيا ومطلوب اسلاميا، وعن ريمون اده بأني وجه جديد من مدرسة العميد الأول (أي أميل اده)، وعن العماد (عون) بأنني لم أرث مشاكل الحرب. خيار المشرق تلتقي فيه دول المشرق مع لبنان على مبدأين: الحريات الاقتصادية والحياد الدولي».

الحياد انتقل من حياد لبناني الى آخر مشرقي. وحين يتحدث اده عما يسميه «خيار المشرق» ينتقل الى مشروعه لانشاء «مجلس تعاون مشرقي» يشرح روجيه طبيعته ووظائفه على النحو التالي:

هذا المجلس المبني على غرار «مجلس التعاون الخليجي» يضم لبنان وسوريا والأردن والشعب الفلسطيني ويكون نواة سوق عربية مشتركة، مرتكزا على حرية تنقل الأفراد والخدمات ورؤ وس الأموال، ويسمح أيضا باقامة تعاون سياسي وديبلوماسي وثيق بين أعضائه، ولا لزوم لاعطائه تفسيرات وتأويلات كتلك التي تصدر عن أصحاب العقول المريضة، والأفكار السطحية، واصحاب النزوات والشهوات.

والمجلس المنشود، لا يعني تذويب أو ذوبان شخصية لبنان المميزة، بل يتيح له لعب دور ريادي أوسع من الدور الذي كان له قبل الحرب كما يتيح لسوريا لعب دور بناء على مستوى المنطقة، ومستوى العالم، ولا سيما الغرب. واذا كان لابد من اقامة سلام في المنطقة فهو لا يقوم على حساب سوريا أو لبنان، كما يسمح بالتحرر من المأزق اللبناني.

ومن دوافع مجلس التعاون المشرقي الرئيسية تكوين قوة تفاوض موحدة في وجه اسرائيل، قوة تجمع كل الدول المتنازعة التي تملك حدودا مشتركة مع الدولة اليهودية وممثلين عن الشعب الفلسطيني. وهذا ما يسمح لعمل دبلوماسي مشترك بالتوصل الى حل دائم للنزاع العربي - الاسرائيلي. والمجلس يخدم هدفا سوريا مهما آخر، وهو بقاء سوريا المحور الرئيسي في المفاوضات الشاملة لحل النزاع العربي - الاسرائيلي، مما يلغي تلقائيا أي تفكير باتفاق مستقل مثل اتفاق ١٧ أيار ١٩٨٣، أو الخيار الطوباوي الأردني، ويعطي لسوريا دورا أساسيا في كل عملية حل للنزاع العربي الاسرائيلي.

بهذا، كما يمضي اده، تكتسب العروبة مفهوما اقتصاديا وثقافيا وانسانيا جديدا بعيدا عن التعصب والمذهبية المقيتة، ومرتكزا على قواعد اقتصادية (المبادرة الفردية)، وقواعد سياسية (الحياد على الطريقة النمساوية).

وتنطلق فكرة مجلس التعاون من قناعة لدى اده بان العصر لم يعد عصر العلاقات الاقتصادية الثنائية، بل العلاقات الجماعية. عصر العلاقات بين التكتلات. العالم سبقنا الى هذه الممارسة. بدءا من «مجموعة الفحم والفولاذ» سنة ١٩٤٩، واتحاد اوروبا الغربية سنة ١٩٥٤، والمجموعة الاقتصادية الاوروبية سنة ١٩٤٩، والكوميكون، ومنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية، ومنظمة الدول المصدرة للنفط (اوبك) ومنظمة الدول العربية المصدرة للنفط (اوابك)، ومجلس التعاون الخليجي، وغيرها من المجموعات والتكتلات التي تتطور باستمرار.

وفي صلب النظرة الاقتصادية للمشروع ايفاء الدينامية اللبنانية حقها، من طريق ايلاء القطاع الخاص دورا مميزا وواسعا على صعيد تجاوز انعكاسات الحرب، ورسم صورة المستقبل.

ويرى صاحب المشروع ان انشاء مجلس التعاون المشرقي يمكن ان ينقل هذه الدينامية الى الدول المجاورة.

وفي صلب المشروع تركيز على الاهتمام بـ «المآسي التي لا تطاق، والتي تؤدي الى تفجير الاوضاع الاجتماعية، وتدفع بالمحرومين في المنطقة الذين لا يستطيعون المشاركة في الثورة الصناعية، ولا في ازدهار قطاع الخدمات والتجارة الدولية الى التطرف: اي الشيعة الذين اهملهم التاريخ الاسلامي عبر العصور، والذين أهملت الدول المعاصرة الاهتمام بتقدمهم، ومعهم دروز الجبال، اي المناطق المحرومة في أكثر الأحيان من التصميم والتوظيفات المالية، اذا ما قورنت بالمراكز السكنية الكبرى ذات الأكثرية المسلمة والبيزنطية.

ومن طموحات المشروع ايضا اخراج كل لاجئي المشرق من «بؤس واذلال المخيمات»، كي يستمتعوا بالموارد والمجالات التي تتيحها المدن والمشاريع الزراعية، والصناعية، او البتروكيماوية الجديدة المنبثقة عن مشاريع تطوير منظمة على قاعدة التوظيفات المالية الخاصة التي ترد من الدول الغربية والعربية بالقدر ذاته. ويورد اده مثالا على ذلك ما فعلته السوق الاوروبية المشتركة اذ سمحت للعمال الايطاليين او الاسبان بالسفر، مزودين بجوازات سفرهم لممارسة مهاراتهم في المانيا الاتحادية على امل استغلال هذه المهارات يوما ما على ارضهم وفي دولهم. واده يرى ان نمو الدول المعنية بمجلس التعاون المشرقي، بما فيها لبنان، يمر بالضرورة عبر المساعدات الدولية الكبيرة التي قد تقدمها اليابان بتشجيع من الولايات المتحدة، وقد تقدمها السوق الاوروبية المشتركة بتشجيع من فرنسا بحكم موقعها في اوروبا، والرصيد الهائل الذي تتمتع به في لبنان، وعلاقاتها المميزة مع سوريا خصوصا والدول العربية عموما.

ولا يقلل اده من اهمية التوظيفات العربية، وحتى توظيفات ابناء البلدان نفسها، خصوصا عندما يتأكدون من جدية مشروع مجلس التعاون القائم على الاقتصاد الحر، والمبادرة الفردية.

في المال والسياسة

لروجيه اده ايضا اراؤه في الأزمة المالية والاقتصادية الراهنة وطرق معالجتها، يقدمها في زي يجمع الى التماسك نبرة ذاتية حادة. يقول: ان الأزمة الاقتصادية - وهنا أصل الى احدى أولويات نظرتي الى لبنان الغد - كان سببها سوء ادارة ماليا وهدر الموازنات العامة والرشاوى. طبعا، الحرب أثرت عليها لأنها جرفت كل شيء معها. ولكن ما رأيناه أخيرا من انهيار في قيمة الليرة اللبنانية كان متوقعا لأسباب اقتصادية. فقد صرحت وأعلنت مرارا في لبنان، عبر الصحف والمقابلات والمقالات عندما كان سعر صرف الدولار أقل من عشر ليرات لبنانية، وحذرت الشعب واولئك الذين كانوا مسؤ ولين عن ادارة القطاعين الاقتصادي والمالي في البلاد من اننا سنصل الى ما وصلت اليه بوليفيا من التضخم المخيف، اذا ما استمرينا في تحميل عملتنا الوطنية أكثر من طاقتها. ان هذا الخطأ ناجم عن عدم كفاية في الادارة.

وأضاف يجب وقف هذا اولا، وهنا اتعهد بالتصدي لهذه المشكلة في الاشهر الستة الاولى

من حكمي. في الواقع، يمكن حل هذه المشكلة في وقت اقل من الوجهة التقنية. ولكن لا يجب الاسراع في الخطوات خشية زعزعة الاسواق الاقتصادية، يجب القيام بها بطريقة هادئة. هنالك بعض المفاوضات الدولية المعقدة التي يجب اجراؤها في القطاع المالي والتي تتطلب بعض الوقت لتطبيق نتائجها. وهذا الامر سيسمح للبنانيين بالبدء في تخطيط مستقبلهم من جديد في لبنان، وسيوقف نزف الاموال وتهريبها منه. وسيفتح الباب واسعا امام المزيد من اللبنانيين المقيمين في الخارج للعودة الى بلادهم وتوظيف اموالهم فيها.

وهو يختم بالقول: علينا خلق الاجواء الملائمة لضمان التوظيفات المالية في لبنان وجذبها اليه. نحن لسنا افضل من السيدة تاتشر او الرئيس ريغان للتأخر في القيام بمحاولات لجذب رؤوس الاموال الى قطاعاتنا الانتاجية.

وسبق لروجيه اده ان ادلى لملف «النهار» الذي اعدته الزميلة مي كحالة، ووزع مجانا (!) برأيه في النظام السياسي وقانون الانتخاب. فهو ينوي تعديل هذا الاخير بهدف «تغيير اساس الحياة السياسية في لبنان بعدما حولت الحرب الطوائف احزابا» ويقضي التعديل بجعل لبنان كله دائرة انتخابية واحدة تتم فيه الانتخابات على مرحلتين:

- الاولى تقدم فيها الاحزاب لوائح تضم مرشحين من كل الطوائف والمناطق فينال حزبان منها الغالبية.

- الثانية يتواجه فيها الحزبان الرابحان فينال احدهما الاكثرية في مجلس النواب ويأتي منه رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة ورئيس المجلس. اما الحزب الثاني فينال اقلية في المجلس ويشارك فيه كمعارضة وعلى اساس نسبة تمثيله.

يؤدي هذا النظام الى قيام احزاب جديدة، ذات تمثيل اشمل من الاحزاب الموجودة، او الى تجمع احزاب متشابهة في عقيدتها في تكتل واسع، مقابل تكتل اخر، مما يفرض نوعية حزبية وسياسية جديدة من دون ان يحرم المعارضة حقها في المشاركة في مجلس النواب.

ويعتقد اده ان فريق العمل الذي سيشكله في حال انتخابه رئيسا للجمهورية، سيكون النواة لاول حزب وطني سيخوض الانتخابات النيابية المقبلة في حالة تطبيق القانون الانتخابي الجديد هذا. وسيقدم كل حزب (او تكتل أحزاب) لائحة بمرشحين من الطوائف والمناطق، معتمدا «كوتا» تقليدية غير ملحوظة في الدستور، كما هي الحال الان، لتوزيع الرئاسات الثلاث الاولى. لان الهدف هو ان تبقى هذه الكوتا معتمدة مرحليا الى حين انتفاء الحاجة اليها، فتزول من الممارسة من دون الاضطرار الى تعديل الدستور او خوض معارك جانبية من اجل الغائها او الابقاء عليها.

ويقتصر دور السلطة المركزية، في المقابل، على تحديد السياسة العامة للبلاد استنادا الى

الدستور الذي يوافق عليه جميع الافرقاء في لبنان ولا يعود ابدا موضع نقاش او انتقاد، سواء لجهة اعتماد الحياد وعدم دخول المحاور، أم لجهة تحديد سياسة خارجية واقتصادية وضرائبية ودفاعية واضحة. ويصبح النص الدستوري حينذاك ضمانة للاستقرار الداخلي وجاذبا للرساميل والاستثمارات.

اما في المحافظات، فيؤكد اده على ضرورة اللامركزية، بحيث ينتخب الشعب هيئة المحافظة التي بدورها تنتخب المحافظ. وتعدل حدود المحافظات وفقا لمقتضيات التغييرات الديموغرافية التي فرضتها الحرب بعد التفاوض الشامل مع قيادات الطوائف والمناطق لتقرير التعديلات الانتخابية والادارية المقترحة.

أما نظام الانتخاب فيها فهو نسبي. اي اذا نالت لائحة انتخابية او مرشح منفرد نسبة ٥ في المئة، يتمثلان حكما في هيئة المحافظة. واعتماد هذا النظام نابع من ضرورة عدم ابعاد الاحزاب الصغيرة او الاقليات الطائفية عن التعبير عن رأيها، وان محليا، لان نظام الحزبين يضعها على الهامش، وطنيا، من دون ان يلغي وجودها. وهكذا فان الطائفة ذات الاكثرية العددية في اي محافظة تظل في حاجة الى اصوات الطائفة ذات الاقلية العددية لتصل اولا الى هيئة المحافظة، ولتؤمن، ثانيا، انتخاب المحافظ الذي ترى فيه الصفات الملائمة. وحين يقوم نزاع بين قيادات طائفة الاكثرية، تلعب الاقلية دور الحكم. وغالبا ما تميل الى القيادة المعتدلة التي تحميها وتتعاون معها بدلا من القيادة المتطرفة التي تسعى الى السيطرة على اساس التعصب او الاصولية العقائدية مهما يكن نوعها.

وهذا النظام الانتخابي في المحافظات قادر على انماء تيار الاعتدال وانقاذ المناطق من ردات الفعل والتطرف. فالحل الاستراتيجي للمشكلة الطائفية في لبنان هو في الاعتدال وفي حاجة كل طائفة ذات اكثرية عددية الى طوائف الاقليات ودعمها.

والمهم، في رأي اده، ان نستخلص العبر من تجربة اللامركزية في الغرب. فلا نقع في مشكلة البيروقراطية وازدواج الصلاحيات بين الحكم المركزي والحكم اللامركزي.

يبقى السؤال: هل يظل رئيس الجمهورية مارونيا؟ يرد:

ان الاسلام اللبناني يدرك اهمية بقاء رئيس الجمهورية مارونيا على رغم المتغيرات التي احدثتها الحرب. لان احترام هذا التقليد هو فرصة مهمة لاحياء لبنان ووحدته»

ثقافة وملامح

روجيه الذي يقرأ ويتابع، خصوصا في الاقتصاد وشؤون لبنان وتاريخ المنطقة والتاريخ الاوروبي، يعاني ازمة الربط بين التصور العام وترجمته في مكان وزمان محددين. لهذا يرى فيه الكثيرون مستشرقا اميركيا يحمل دواء من صيدلية واشنطن صالحا لكل انواع الامراض والعلل.

وصيدلية واشنطن هي بالضبط تجربة الرأسمالية المتقدمة حيث ولد الفرد (individual) وبات كيانا مستقلاً عن التشكيلات الاجتماعية المتوارثة ، اكسبته الثقافة البروتستانتية حس الربح والمنفعة وفصلته عن نظام القيم الكاثوليكي البائد.

بلغة اخرى فان الفرد الاقتصادي لم يولد بعد في لبنان. ولنا على ذلك اكثر من مثل تثيرها اقتراحات روجيه وبالاخص منها اقتراح المجلس المشرقي.

فلو تصرف موارنة الجبل ودروزه، مثلا لا حصرا، ككائنات اقتصادية نفعية لما احتكموا الى السلاح والعنف، اذ التاجر لا يقتل زبونه والزبون لا يذبح مصدر امداده بحاجاته. لكن الكتلتين الطائفيتين اندفعتا تحت وطأة الغرائز الجماعية الى التذابح والاحتراب، وهو ما احجمت عنه الكتلة التجارية السنية في بيروت فاستحقت رجم كل المتعصبين دينيا او عقائديا و « اتهامها» بالنزعة التجارية.

خلاصة القول ليست التشكيك بجدوى التعاون الاقتصادي بين بلدان المشرق، بل البحث عن همزة الوصل التي تربط بين التصور الاقتصادي العام وبين التكون الاجتماعي والسياسي في الداخل اللبناني. ويعرف روجيه كيف ان التقدم الاقتصادي الكبير الذي احرزه لبنان في السبعينات لم يحل دون انفجار نزاعاته الاهلية على نحو باتت معه حرب ١٨٦٠ نوعا من المزاح التافه. اذن الحل عبر الاقتصاد قابل لان يكون نوعا من الطوبى ونزوحا الى خارج المشكلات الملحة: الطوائف، العلاقات اللبنانية - السورية في جوانبها الامنية والاعلامية الخ..

والعودة الى الداخل هي محاولة صوغ المجتمع (الطائفي) عبر نظمه القانونية والدستورية لكي يقترب من ذاك المثال (الاقتصادي)، وكي تتأسس للاقتراب المذكور مرتكزات لا تطيحه عند اول انبعاث للغرائز او تحول في الجوار الجغرافي.

فليس بلا معنى ان يرتبط انشاء التكتلات الاقتصادية العربية وغير العربية بغياب بؤر التوتر او ضمورها، بما يجعل مشروع المجلس المشرقي لا مشروع تفاوض قوي مع اسرائيل بل مشروعا لما بعد حل ازمة الشرق الاوسط. اما « عمليا» فلا ترسخ الا ايماءة ود لسوريا يتشارك فيها معظم المرشحين الرئاسيين وخاصة منهم الاثرياء.

في غضون ذلك، وبانتظار حل ازمة الشرق الاوسط، يبقى المطلوب سماع كلام اخر اكثر راهنية والحاحا.. وداخلية.

والانتقال من النظرة الخارجية الى تلك الداخلية يلزمه ، كحد ادنى وابسط، انتقال الى تعامل اخر مع لبنان: حضور اكبر لا يكون طارئا وموسميا، يواكبه تعويل اقل على دور الخارج في صنع الداخل.

وروجيه، كما سبقت الاشارة، قارىء ومتابع برغم قول العميد انه يبيع ويكرر قراءاته في الصحف الاميركية، وهو حريص على العلاقة والحوار مع الصحافيين، وتجربة « لسان الحال» تنم عن اهتمامه بالرأي العام مع انها حتى الان لم تغن ولم تسمن من جوع. وروجيه اده يختلف عن الاثرياء ممن يريدون تبوّء الصدارة السياسية ، انه ذو تكوين وثقافة سياسيين، وانه كان مناضلا سياسيا في حزب « الكتلة الوطنية» فتظاهر وهتف وسجن.

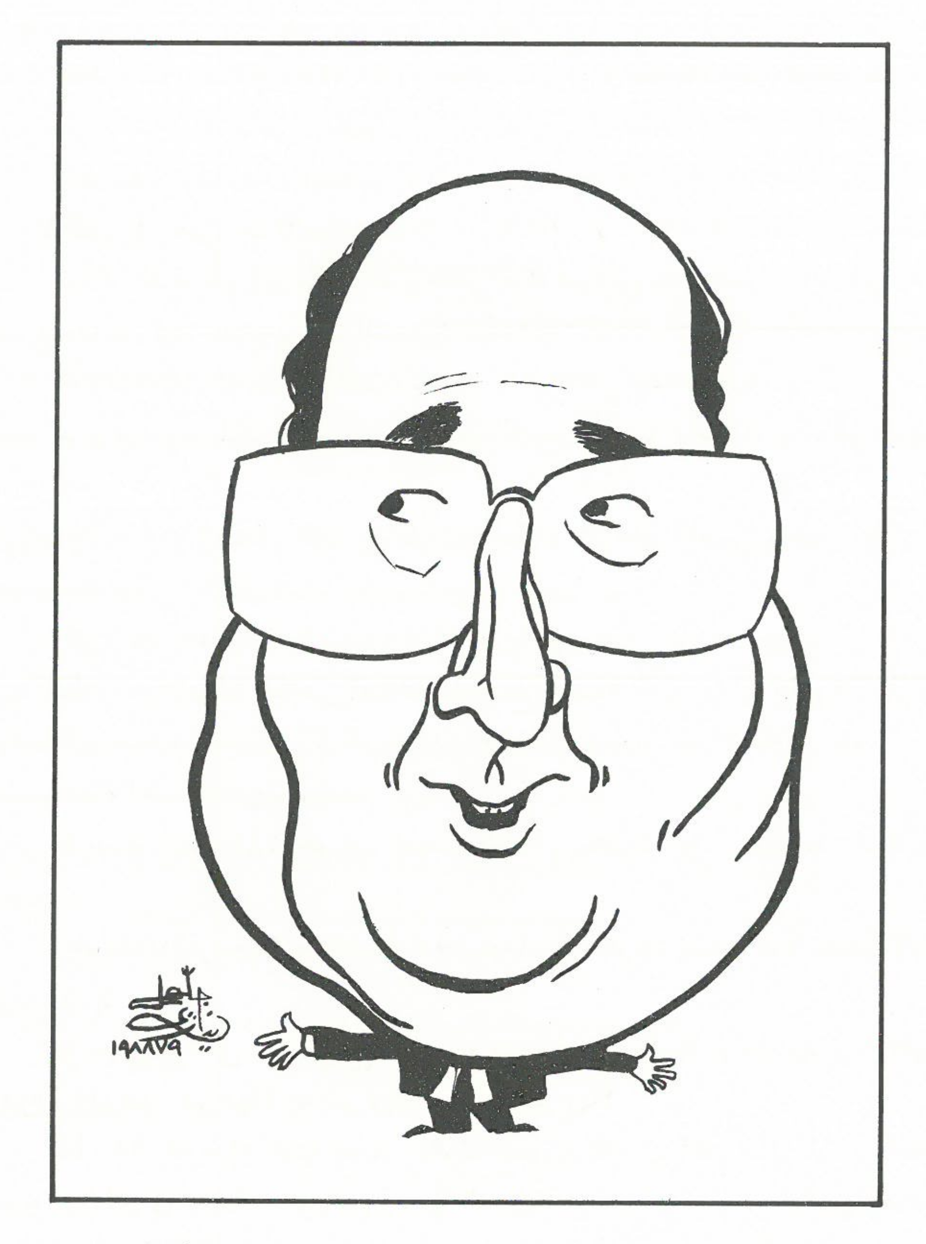
لكن العصامي الذي وجد في نظام القيم الاميركي (نجاح، قيادة الخ.) صياغة لتجربته واطمئنانا اليها، يعاني الانا الفائضة على نحو يباعد في المسافة الفاصلة بينه وبين محدثيه.

فالأنا التي، اعوذ بالله منها، تطغى على روجيه وتطوح به في متاهات الوعظ والتعليم اللذين لا ينقطع دابرهما عبر سيل كلامي تنعدم نقاطه وفواصله، فاذا انقطع الكلام بفاصلة كانت الفاصلة من نوع: قال لي وقلت له، والقائل او السامع عظيم اميركي او فرنسي او. . لكن هذا كله يرد بتهذيب بالغ ومراعاة مميزة للياقات الكلام والمجالسة وادبها.

وحب العظمة الذي يجعل روجيه من عشاق الاوبرا والنحت وكل ما مت بصلة الى ازمنة السيادة الارستقراطية، يدفعه الى التيمن بمن يسميهم التعبير الانكليزي الذي يستشهد به روجيه « اكبر من الطبيعة»

ونظرات روجيه اده التعبيرية، والايمائية لا تكتم هذا السعي الى ان يظهر واحدا من اولئك الـ « اكبر من الطبيعة». فهو كثير الاستعمال لحاجبيه يستجمعهما ويرخيهما مع ارفاق ذلك بحركات ترفّع في العينين وتوتر عضلي تصاحب التشبير بقبضة اليد.

وروجيه الأميل الى الطول، أسمر، أصلع الشعر، وما تبقى منه على الطرفين أسود ومجعد. أما شارباه كانا كثين مرفوعين الى الأعلى فخفف منها وخفضهما الى الأسفل حرصا على المظهر العام (Public image) الذي جعله يستبدل النظارتين بالعدستين اللاصقتين. وعلى العموم وجه روجيه وديع وقريب لكن صوته مرتفع، فيما البلد الذي ينوي «انقاذه» متعب جدا.



ميشال اده

ولد ميشال اده في شباط ١٩٢٨ ودرس في اليسوعية حيث انهى المرحلة الثانوية في ١٩٤٥، منجزاً دراسة الحقوق بعد ثلاث سنوات. وقبل الانتقال الى ممارسة المحاماة بصورة مستقلة، في مكتبه الخاص الذي أنشأه في ١٩٤٨، تدرج حوالي الشهرين في مكتب الرئيس الراحل عبد الله اليافي ليكمل تدرجه في مكتبي المحاميين كميل وابنه غبريال اده.

والده سليم كان مديراً لـ «بنك سوريا ولبنان»، وهو نجل ميشال افندي اده الذي كان احد ابرز الموظفين المسيحيين بعد الاصلاحات الادارية العثمانية في ستينات القرن الماضي. وهكذا اصبح ميشال الجد مترجم والي بيروت الذي حكم اجزاء كبيرة من لبنان وسوريا، واضحى، من ثم، واحداً من كبار وجهاء بيروت المسيحيين حينذاك.

اما والدة ميشال اده فإيزابيل انطون ملحمه، المتفرعة عن عائلة مارونية تشبه آل اده وأسراً قليلة اخرى في نزولها المبكر الى بيروت واكتسابها الملامح التي سبق وامتازت بها الاسر المدينية الارثوذكسية والكاثوليكية. وقد عمل ابنا عمّ والدتها، نجيب وسليم باشا ملحمه، وزيرين للزراعة والتجارة في الاستانة، فكانا اول مارونيين يحظيان بمثل هذه المناصب يوزعها سلطان هو عبد الحميد اياه.

ولئن لم يهتم والد ميشال بالسياسة، الا ان القرابة التي ربطته باميل اده اوجدت لديه عاطفة مميزة حياله، من دون ان تحد من الصداقة المتينة مع خصمه الشيخ بشارة الخوري. فالمدن و«العمران» تضعف العصبيات، كما هو معروف، وميشال خير وريث لهذا الوجه من تقليد مديني يشذّب شفرة الحدة والتحزب. يقول:

انا صديق لبيت بشارة الخوري. يسكت قليلا ثم يستدرك: ومع ريمون اده. عسلامتو ريمون.

ويجد ميشال الفرصة سانحة للاستطراد فلا يفوتها، بأداء ظريف يصعب ان لا تلتقطه الاذن والعين في آن معاً:

انا بحكي مع الكل. صحبي مع الكل. مع بشير الجميل وسليمان فرنجية ومحسن ابراهيم وغيرهم وغيرهم. شو فيها؟ ايه شو فيها؟ صحيح شو فيها؟.

بدأ ميشال اده حياته المهنية محاميا لـ «البنك السوري اللبناني» الذي سبق لابيه ان شغل ادارته، وانطلق في ممارسة الحقوق من زاويتها التجارية متخصصا في المسائل المالية والمصرفية والجوانب المتصلة بالنقل البحري والجوي، ومنشئاً شبكة من العلاقات والوكالات تشمل اوروبا وبلدانا افريقية كثيرة بينها موريتانيا والسنغال وتوغو وكونغو والكاميرون.

وانضوى زواج ميشال في الخانة الاجتماعية نفسها، عاملا على استكمال ما نقص منها. فقد اقترن بالانسة يولا الياس ضومط، شقيقة ميشال ضومط صاحب فندق «بريستول» ومعمل

الترابة في شكا والكيماويات في سلعاتا. ومن زواجه انجب خمسة ابناء اكبرهم سليم (٢٩ سنة)، فجان غابرييل، فمارون، فإيزابيل، فالياس (٢١). ولئن اقترنت ايزابيل بنجل صديق عمره السياسي والصناعي بيار حلو، فان اشقاءها تراوحت دراستهم بين الهندسة والبيزنس والانفورماتيك والعلوم المصرفية ما بين فرنسا والولايات المتحدة، بما اهلهم لمشاطرة الوالد قسطا من اعباء ادارة الثروة.

كيف دخل ميشال اده الى السياسة؟.

بالصدفة، بالحظ. لم اكن افكر. جاءت الي ولم اذهب اليها. صداقة مع شارل حلو قديمة. اتصل بي في ١٩٦٦ وقال: سأدخلك في الحكومة.

قلت: مش ضروري. انا مسافر. وسافرت لكنهم لحقوني لبرّا. كنت في فرنسا في طريقي الى السنغال...

يومها تولى ميشال وزارتي الانباء، والبريد والبرق والهاتف، وكانت الحكومة برئاسة الرئيس الراحل رشيد كرامي.

وفي عهد هذه الحكومة حصلت ازمة «انترا» الشهيرة، فلعب ميشال اده كوزير وقانوني دورا في تعديل قانون النقد والتسليف الذي كان قد شارك في تطبيقه، مشاركته قبل عشر سنوات وكمدير لـ «بنك سوريا ولبنان» في تطبيق قانون سرية المصارف الذي اقترحه العميد ريمون اده.

وفي ١٩٨٠ وزّر اده للمرة الثانية، فتسلم وزارة الاعلام في حكومة الرئيس شفيق الوزان. نسأله على ملابسات التوزير الثاني فيروي على غرار القصة الأولى!

قال لي الرئيس سركيس نريدك في الحكومة. قلت له انا ذاهب الى الكاميرون. قال: شو ما بدك يعني؟ قلت مش ضروري، وسافرت. وبعد ٤ ايام طلعت الحكومة ولم اعرف الا بعد فترة حيث كان مجلس الوزراء قد اجتمع مرتين في غيابي، لان الاتصالات كانت مقطوعة.

نسأل ميشال اده الذي تعمل رواياته عن التوزيرين، وهما رواية واحدة، على تقديمه في صورة غير العابيء:

هل تعرف مناطق لبنان؟.

أعرفها كلها. كنت ازور الجنوب بعد كل غارة اسرائيلية...

والعالم العربي؟.

للاسف. في الوزارة الأولى حدثت حرب حزيران، وفي الثانية الاجتياح الاسرائيلي. اعرف مصر وسوريا ورحت ع الاردن والضفة الغربية في ١٩٦٥ ـ ٦٦. لم يكن عندي مجال.... قهقهة وضحك كأن المقصود بها السخرية من ظروف تسلمه الوزارتين.

بالخبز أولاً يحيا الانسان

ميشال اده خفيف الروح وظريف الجلسة يجيد توليد الصور الساخرة التي تدور حول نفسه دورانها حول الاخرين. وسخريته التي تخالطها، بين الفينة والاخرى، بذاءة محببة، تجعل من الصعب تحديد عمره، كما تبث قدراً من الارتباك في التعامل معه تبعا لما جرت عليه المراتب واعرافها. لكن الارتباك سريعا ما يزول ويتبدد.

فعباراته التي تلعب على التباسات تفصيلية ودقيقة، يرافقها ضحك متواصل وتشبير لا ينقطع، ورجفة عين وخد دائمة هي عادة ايمائية متمكنة، واحرف تتصدع قبل ان تبرح فمه فتأتي سينها ثاء وزينها ذالا، وهكذا دواليك في حركة ضحك عاصف وحضور باهر في تحريك الجلسة والانقلاب على كل ما يسهل توقعه من مراتب واعراف وسلوكيات واعمار موازية، حتى يختلط كل شيء بكل شيء وتصير الفوضى الكاملة سيدة جلسة لا ثابت فيها الا تحريك ميشال اده لها.

فما لا يتم ملء فراغه بالكلام يتم بالضحك او بالحركة او بالايماء، فيما ايقاعات الجلسة عبارات متكررة من نوع «مش مضبوط هيك؟»، أو «وحياة ولادي» و«رحمة امي» مما يعيده بنسبة اقل، و«معو حق بيار حلو» اذا كان حلو حاضرا، بما يستدعي من الاخير ان يرد الرجل بعد دقائق «معو حق ميشال اده».

وتبقى العين مسمّرة على ميشال الذي يكثر الكلام ويطله ويمده ويرخيه، لان كلامه وسخريته يقومان على استحضار دائم لمشاركة الاخر اما بسؤال او بتعليق او بدعوة؛ وتخال ان للكلام عنده آلية خاصة به،وعن حركته التلقائية تنسج اقوال وافكار.

وميشال اده كثير الانزعاج من جليس يتحدث اكثر مما يتحدث هو، خصوصا اذا كان الجليس يتمتع بحصانة موقع ديني او زمني يفرض على الاخرين الصمت والاستماع. ومن هذا القبيل كانت قصته الشهيرة مع الرئيس شارل حلو الذي ينافس ميشال في هذا المجال حين طلب اده الكلام في احدى جلسات مجلس الوزراء فأجابه رئيس الجمهورية يومذاك:

عطيتك الكلام الاربعا الماضية وبعد ما رديتو.

وعندما يحس ميشال ان فسحة الوقت ضيقة لكلام كثير يود قوله، يسرع الوتيرة ليقول ما امكن قوله في اقصر وقت متاح، فتتداخل الهمدرة مع الكلمات التي يصعب، انذاك، فهم بعضها. ومن عرفوا وزير الاعلام السابق عرفوا قصة ذاك الرجل الذي جاء اليه كي يسأله طلبا، فعثر ميشال في شخص السائل على مستمع مستسلم لـ «معالي الوزير»، وراح يتحدث ويتحدث الى ان انتهى الوقت ورفعت الجلسة على أمل ان يسأل السائل في جلسة اخرى.

واده المتحدث لبق في ازالة الحدود بين مضمون الكلام الجدي وتمثيلاته وتشابيهه المستقاة

من يوميات الحياة وعادياتها، تسعفه في ذلك سيولة كلامية لا تعوزها سرعة الاستحضار للصور والمعادلات المقابلة.

الا ان الاكل والطبخ والشهية وما يتفرع عنها ويتصل بها، تشكل واحدا من المواضيع الاثيرة للكلام الادي. فالرجل الذي عرف بقصة «سقطها» عن الملوخية، لا تني تسمع منه اوصافا للطبخ والاكل وكيف يتمان، يقارب قولها فعل اللذة والشبق، من دون اخلال بمفردات القاموس نفسه: فقست، بدها شوي تاتفقس، انشالت عن النار قبل وقتها الخ... ودائماً حركة باصبع اليد مرفقةبغمزةعين للقول ان الأكل.. تمام... وهو يحدثك مطولا عن توجيهاته لطباخه وضرورة امتداحه واشعاره بحسن بلائه حين يطبخ طعاما طيبا، لان المعنويات قبل المكافأة المالية في رأيه: ٦٠٪ معنويات و٤٠٪ مصاري، يقول.

وهو لا ينفك يروي لك عن رجل اكل من طعام طباخه المصنوع طبعا، تبعا لتوجيهاته، فراح يبكي ويندب لشدة ما استطاب الطعام، وعن آخر اكل حتى نزل «دبدبة» على درجات السلم، وعن ثالث ورابع ذهبا الى المطعم فأكلا حتى «انفزرا» وحين شاهدا قادما جديدا الى المطعم قال واحدهما للاخر: هنيّالو. جايي ياكل.

وكما يروي ميشال، يروى عنه في النطاق نفسه، فيقال، بين ما يقال، ان احدهم دسّ تحت سريره في الفندق صدرا من الكنافة، وكانت الاغتيالات السياسية يومها على اشدها، فحين اكتشف ميشال الصدر اعتبر ان ثمة من يريد اغتياله... بالكنافة.

وميشال اده الذي لا يتردد في ان يسخر من نفسه، يصل به الامر لان يقول عن الرومان ممن كانوا يتخلصون مما في بطونهم ليعاودوا الأكل من جديد: هنيّالهم، ثم يردفها بضحكة صاخبة تفهمك ان الرجل احرص على صورته كآكل ساخر، منه على صورته الفعلية كمتحضر لا يفعل، طبعا، ما كان يفعله الرومان ولا يحسدهم عليه.

وفيما كانت عينا ميشال تحطان، بين الفينة والاخرى، على صحون البونبون والشوكولا والنوغا التي على طاولة الصالون، راح يصر علينا بمواظبة والحاح ان نتناول البوظة الخاصة التي تصنع في بيته. ففاكهة البوظة يؤتى بها من مصادرها «حبة حبة»، اما الحليب فتتكفل به بقرة اشتراها ميشال ووضعها في مكان خفي ما بالقرب من بيته الباهر في اليرزة. وفعلا كانت البوظة بحسب ما وصفها ميشال.

واصرار اده على ان تأكل مما أشرف عليه يشبه اصرار السيدات حين يطبخن ما يستحق، عندهن، التباهي والتعميم. فالأكل الميشالي سلعة يروجها بحماس صاحبها الذي سافر مؤخرا لكي يخسر بعض وزنه ويحسن مظهره العام (Public Image) كمرشح رئاسي. لكنه لم يوفق بأكثر من ستة كيلوغرامات تخلص منها، ليستعيد كيلوغرامين منذ عودته الى لبنان.. والحبل على

الجرار.

والواضح ان الأكل ليس بالشيء العرضي في ميشال اده. فهو يستمتع بالتحدث عنه، ويراقبه بعينين نهمتين، ويبني من حوله معظم نكاته، ويسرب بعض الماحاته لنفسه وعنها من طريق صلته بالأكل، وحين يستطرد في اعلان موقف من سياسي ما لا ينسى تذمره من قلة أكله أو زهده بالمآكل (طالبا في هذه الحالة الأخيرة عدم نشر الأسماء طبعا)، مستخلصا من الأكل نتائج تتعلق بالطاقة الجنسية، منهيا كلامه في هذا المجال على النحو الثابت التالي:

فيه... منو اللي بتقلو تفضل عاالأكل بيقلك معليش شبعان ما فيي.

مصادر «الليبرالية» ومصائرها

يقع ميشال اده العارف الدقيق بتفاصيل الحياة السياسية اللبنانية ومجاري حركتها، في خانة سياسيي المدن، مثله في ذلك مثل الرئيس شارل حلو والشيخ ميشال الخوري وصديقه بيار حلو ممن لم يعملوا في مضمار العمل الشعبي في الارياف، وان قضت ظروف الاخير ان يفوز عن المقعد الماروني في عاليه في ١٩٧٢.

لهذا كان معظم المذكورين، ومعهم ميشال شيحا وجورج نقاش وآخرون، قادرين على النظر الى ما يجري من منصة عالية وكاشفة تتيح الاطلال من مسافة يمكنها ان تكون نقدية وعلى درجة من الذكاء والشمول. وتبعا لذلك، كان اغلب المذكورين رجال صياغة وبلورة لافكار ومواقف وتصورات. وميشال اده، اكثرهم تباهيا بالقراءة والنشاط الذهني، هو رجل صياغة بامتياز، وان بقي معظم الصياغة شفويا تتناقله الصالونات وروادها، اي الصياغة التي لا تتعارض مع «اجتماعية» سبقت الاشارة الى حرص اده عليها.

لكن ما الذي يصوغه اده ويبلوره؟.

يتخلل الكلام الذي يصدر عن وزير الاعلام السابق، والذي هو في حصيلته الاجمالية واقعي ومعتدل، يتخلله توكيد لا يفتر على الليبرالية والاختلاف والحق في الاختلاف، مع الاعتراف بالاخر وعدم التفكير في الغائه.

ولا يكف اده عن التذكير بالصلة التي ربطته بميشال شيحا في سنواته الاخيرة، والتي نشأت مع مصاهرة صديقه بيار حلو له، «حتى اننا صرنا نسهر كل ليلة عنده».

وحين تولى ميشال اده وزارة الاعلام في عهد الرئيس الراحل الياس سركيس، حول التلفزيون، فعلا، الى خلية نحل للاراء المختلفة المتصارعة، فاتسعت الشاشة لرجال «الجبهة اللبنانية» اتساعها لممثلي «الحركة الوطنية».

بيد ان ليبرالية اده الذي تسلم الوزارة مرتين في مرحلتين اتسمتا بضعف جهاز الدولة

(١٩٦٦ - ١٩٦٧ و١٩٨٠ - ١٩٨٢) وضآلة قدرته على التأثير، تميزت هي ايضا بشروط الضعف المذكور ومواصفاته. بلغة اخرى، كانت ليبرالية من دون دولة، اي من دون سياج ومن دون نصاب ومن دون فرز للمستويات وتحديد لها. وهنا يكمن عطلها الكبير ومنشأها الرخو.

وتبعا لما سبقت الاشارة اليه، انطوت ليبرالية اده على سيولة لا تتعارض مع سيولة مزاجه الشخصي واستعداده لغض النظر، او للتعامل مع الافكار بمعزل عن الدولة. فقد ورث اده، بين ما ورثه، تقليد السلك الوظيفي في الادارة العثمانية من جده لابيه. لكنه ورث التقليد نفسه من ناحية الام التي استطاع ابنا عمها، اللذان يفتخر بهما ميشال، ان يكونا وزيرين في عهد الاستبداد الحميدي، بما يجعل الذهاب مع امزجة الآخرين بما فيها مزاج عبدالحميد احتمالاً غنياً متوارثاً.

ومثل هذا الميراث كاف لاقناع صاحبه بأن السلطة في مكان، وهي استبدادية وثيوقراطية وفردية حتما، والافكار المستنيرة في مكان آخر. وافضل ما تستطيعه الافكار حتى اشعار اخر، هو ان تحسن التخلص فلا تكتسب الاعداء ولا تقصر اعمار اصحابها. وفي المقابل يتولى الاداء الحسن للوظيفة الى تقبل المستبد للموظف الذي لا يصدر عنه الا «كلام الخير» في حق الجميع.

بهذا المعنى تتحول «ليبرالية» هذه مصادرها الى ذرائعية «تمشية الحال» مع الاحتفاظ بكلام عن الاختلاف والتعدد لا يزعج احدا. فالشيوعيون اتباع نظام الحزب الواحد يسمون انفسهم ديموقراطيين في آخر المطاف. وفي المقابل ترتد الصلة بالدولة الى صلة عديمة التجريد، شديدة المباشرة، مع هذا المسؤول او ذاك، او مع هذا الحاكم او ذاك.

وبهذا المعنى ايضا يصبح ميشال اده ذو العقل الراجح والمعتدل اصلا، قادرا على ان يؤيد الشيخ بشير الجميل، ويؤيد من بعده «الاتفاق الثلاثي» الذي بات واحدا من نجوم صالونه البيروتي - الدمشقي. ونقرأ فقرات من آراء اده التي اوردتها الزميلة مي كحالة، والتي لا يجمع بينها سوى القدرة على توليف موقف واحد من «اشخاص» متباينين هم كلهم رؤساء:

«سليمان فرنجية: موقفه الأخوي من سوريا في حرب تشرين ١٩٧٣ كان في حد ذاته انموذجا للعلاقات المميزة بين لبنان وسوريا.

الياس سركيس: انموذج الاعتدال والحكمة والصبر، وبعد النظر في المسلمات الـ ١٤ التي اشرف على رسمها لانهاء الأزمة.

بشير الجميل: حتى خصومه اعترفوا له بالتجرد والشجاعة والجدية في احداث التغيير. وهم اعترفوا ايضا بأنه لم يكن طائفيا ولا منغلقا كما اعتقد بعض الناس.

امين الجميل: جرأته معهودة، كان طموحه ان يكون عهده عهد انماء وبناء، وان يحول لبنان الى ورشة اعمار، لكن الظروف المحلية والاقليمية والدولية لم تمكنه من تحقيق كل اهدافه».

هل بقي مكان للشر في هذا العالم؟

وبحجة الليبرالية والاعتراف بالآخر يتيحان الانفتاح على الجميع، امكنت ازالة الفوارق بين السياسيين البرلمانيين ورجال الميليشيا، بين المعتدلين والمتطرفين، في المنطقتين: كلهم. كلهم اصحابي. يقول ميشال اده الذي يتساءل: وشو بيمنع؟ ليروح مجددا يعد اسماء اختلط حابلها بنابلها.

ولأن الأمور اتخذت هذا المنحى السهل والسيال، بات في الوسع تقديم السياسة نفسها سهلة وسيالة، بحيث لا يفضي البحث عن الجدي فيها الى نتائج تستحق الذكر، فيما يختلط غث الأشياء بسمينها وتصير الأمور من دون مقابل، والارتكابات من دون حاجة الى ثواب وعقاب.

وغني عن القول ان نظرة كهذه تتجه رويدا رويدا الى استبعاد السياسي مصالح الاجتماعي (بمعنى العلاقات والمعارف) الذي يجد الطرق كلها معبدة امامه للبروز الحاد. وفي هذه الخانة الشخصية تشرع الأبواب كلها لبناء الصداقات بينما يلوح التنافس السياسي حدثا لا سبيل الى رده وتفسيره.

نسأل ميشال اده الذي، فيما نحن نهم بمغادرة بيته، امتدح اربعة مرشحين للرئاسة، على طريقة: فلان عسلامتو.. نسأله:

اذن ما الفوارق بينكم؟

صحيح والله، يجيب، هذا ما لا اعرفه. ما الفوارق بيننا؟

ابعد من ذلك ان الليبرالية من دون الدولة مرشحة لأن تصير ليبرالية ضد الدولة، اذ طالما استحال التطرق بالنقد لأي من رموز الحكم والسلطة ممن هم اصدقاء، امكن في المقابل وبيسر بالغ رد العيوب الى.. «الدولة». فحين يكون ما هو مشخصن من الدولة، جيدا وممتازا، يصير النقد لا يتوجه الا الى الدولة ان كفكرة او كعلاقات، اي الى افضل ما في الدولة.

فعندما يكرر اده باستسهال ان الدولة مكثت منذ قيامها «مزرعة»، من دون ان يسمي واحدا ممن جعلوها تبدو كذلك، يكون قد احال العطل الى الدولة لا الى الرموز، وان كانت رغبته ونواياه معاكسة لذلك.

ومقاربة كهذه تنم عما يتعدى شخصنة السياسة ونزع التجريد عنها الى التدليل على هامشية سياسيي المدن (مما نجده في الهامشيات الأخرى كاليسارية مثلا) في الحكم على ثلث قرن من التاريخ اللبناني الحديث.

فمنطق يتغافل عن الحياة السياسية التي قامت، والتطور التدريجي الذي كان يحصل، والتوسع الاقتصادي والعلمي الذي شهده لبنان، مختصرا ذلك كله في كلمة «مزرعة»، هو اقرب مايكون الى عدمية تعيد ربط صاحبها بجذره الادي من حيث يريد او لا يريد.

اذ لو اقتصرت حصيلة ثلث القرن المذكور على بناء «مزرعة».. لجاز القول بأن لبنان ليس

وطنا ولا يجدر به ان يستقل، كما قد يردد بأشكال مختلفة اقصى ورثاء الرئيس الراحل اميل اده، ومن تبقى من معبرين عن نزعات راديكالية عروبية واسلامية ويسارية، فيعود الأولون الى المطالبة بالحماية والآخرون الى المطالبة بالدمج.

الا ان اخر الافكار التي يطيب لميشال اده ترددها هذه الأيام، لا سيما في مناقشاته مع اجواء مسلمة او يسارية او على صداقة لدمشق تدور حول فهمه لـ «القومية العربية»، فبعد استعراض الكثير من التفاصيل التاريخية المعروفة لكل من له دربة بتاريخ المنطقة، يعود اده الى البدايات النهضوية حين ظهرت العروبة على اقلام والسنة الكتاب المسيحيين المناهضين للعثمانية، بوصفها مرادفا للعلمانية.

وفي سعيه الى احداث توافقات عريضة، يستقر معها لبنان والمنطقة يخلص اده الى ان العروبات العلمانية هي الأقدر على كسب المسيحيين اللبنانيين وجعلهم يستعيضون عن النظر الى الغرب وحمايته وضماناته، متوقفا عند بعض مواقف الرئيس السوري حافظ الأسد من المشكلة اللبنانية، وبالأخص قرار الدخول في ١٩٧٦، كأمثلة تطبيقية على ما يعنيه.

ثقافة وافكار وملامح

تسأل ميشال اده ذا الصيت الثقافي ما اذا كان يقرأ:

كل الوقت.

صحف اجنبية؟؟

كل الوقت، لوموند وهيرالد تريبيون وفايننشيال تايمزو وولستريت جورنال خصوصا.

ومحلية؟

كل الصحف بجيبها كل يوم عبكرا. بطالع ٧ ـ ٨ ساعات في النهار، وحين اسافر ١٠ ـ ١٢ ساعة استيقظ ٥١/٢ ـ ٦ اسمع كل الاذاعات.. اطالع لينين، وعن الأمور اليهودية والطبري والبخاري واسلاميات، لا اقرأ روايات.

اغلب الظن ان ميشال اده الذي اكثر في السابق من الاستشهاد بعبارة لروزا لوكسمبورغ، يقرأ ويعرف ويتابع. لكن اغلب الظن ايضا انه يبالغ في ما يزعمه لنفسه بصدد القراءة حيث تسعفه رجاحة تحليلية وذاكرة قوية تحال اليها «المعلومات» بما يتيح امتصاصها واستعمالها بما يلائم واقع الحال.

يتكون هذا الانطباع من الطريقة التي يعرض بها اده «معلوماته» بمزيج من الانتقاء العشوائي الذي لا يفضي الى اية وجهة، والاستعراض الرصفي الذي يمتاز به من حفظ درسه جيدا.

اهم من ذلك ان مراجعة بعض ما نشره في اوقات سابقة بصدد الفلسطينيات

والاسرائيليات، توحي ان ثقافة الرجل ذات طابع انسكلوبيدي، ليس بمعنى السعة التي قد تكون قائمة او لا تكون، بل اساسا بمعنى التعريف القاموسي للكلمات.

فدخول ميشال اده على سجال ما هو في قسطه الأكبر اعادة ضبط للمعاني بما يميز نمطاً من المثقفين الذين يستغنون بمعرفة اللغات الأجنبية، ومتابعة صحفها (واذاعاتها) عن انواعَ الجهد الذهني والتحليلي الأخرى بيد ان ثقافة اعادة الضبط هذه (حرب العصابات لا تعني كذا بل تعني كذا الخ.) لا تعدم، في حالة كاتب كميشال اده، بعدا وظيفيا صارخا يفترض بالهم الثقافي الفعلي ان يتلافاه.

فتعريف المعاني وسيلة ناجحة في اجتناب حرارة السجال وضراوته، والانتقال في المقابل الى «ترتيب» السجال ورده الى صراط مستقيم شرد عنه بفعل «الخطأ» وقلة الادراك. ومن يناط به ترتيب السجال هو من يناط به تعهد السجال ورعايته (تماما كا هي حال وزير الاعلام الليبرالي في تلفزيون مفتوح).

وبهذا المعنى تعود الثقافة الى الاصطفاف في جانب سائر اخواتها من همزات الوصل الاجتماعي لأطراف لا حصر لها، ولا تمييز بينها الا في درجة ارتكاب الخطأ البريء.

ويبدو ان ميشال اده بسبب من اقامته على تخوم الثقافات والأسماء وسط صالون سياسي جهول وبليد، اكتسب صفات غرائبية لا مرد الى تفسيرها في عرف البعض، ومنها «اليسارية» التي لا يصح قرنها به في اي ظرف من الظروف، الا اذا كانت الشبكة الواسعة من الصداقات والقبول بمبدأ التعدد السياسي كافيين لاطلاق هذا النعت. والغرائبية يمكن ان تكون صنو «اليسارية» في عرف «يمين» قديم درج على نسبة المعارف والأسماء غير المألوفة الى عوالم خارج عالمه.

نسأل ميشال ، الذي يصر على القول انه متدين، والله اعلم:

هل انتسب مرة لحزب؟

يضحك. حزب؟ لا. ابدا. حزب؟ يضحك. شو حزب؟ يضحك.

هل كتبت في الصحافة؟

بين وقت وآخر كتبت مقالات. بصورة متقطعة.

هل من سياسيين شكلوا مثالات عندك؟

كتار. ما في شخص بكل شي. عندي استقلالية. فيه ناس مظلومين وفيه ناس يعطوهم اكثر من حقهم. يسمي ميشال معظم الذين حكموا لبنان او اثروا عبر تاريخه.

يضيف ربطتني صداقات معهم. عشت معهم كلهم. بعرفهم. بقلك ما بعرفهم؟

نعود معه الى تشكيله الثقافي:

هل تقرأ الصفحات الثقافية في الصحف؟

بحبها كثير. اطالع اكثر شي الأمور السياسية. الماركسية. اليهودية. عندي اهم مكتبة.. لكن قصدنا السينما، المسرح، الفنون التشكيلية..

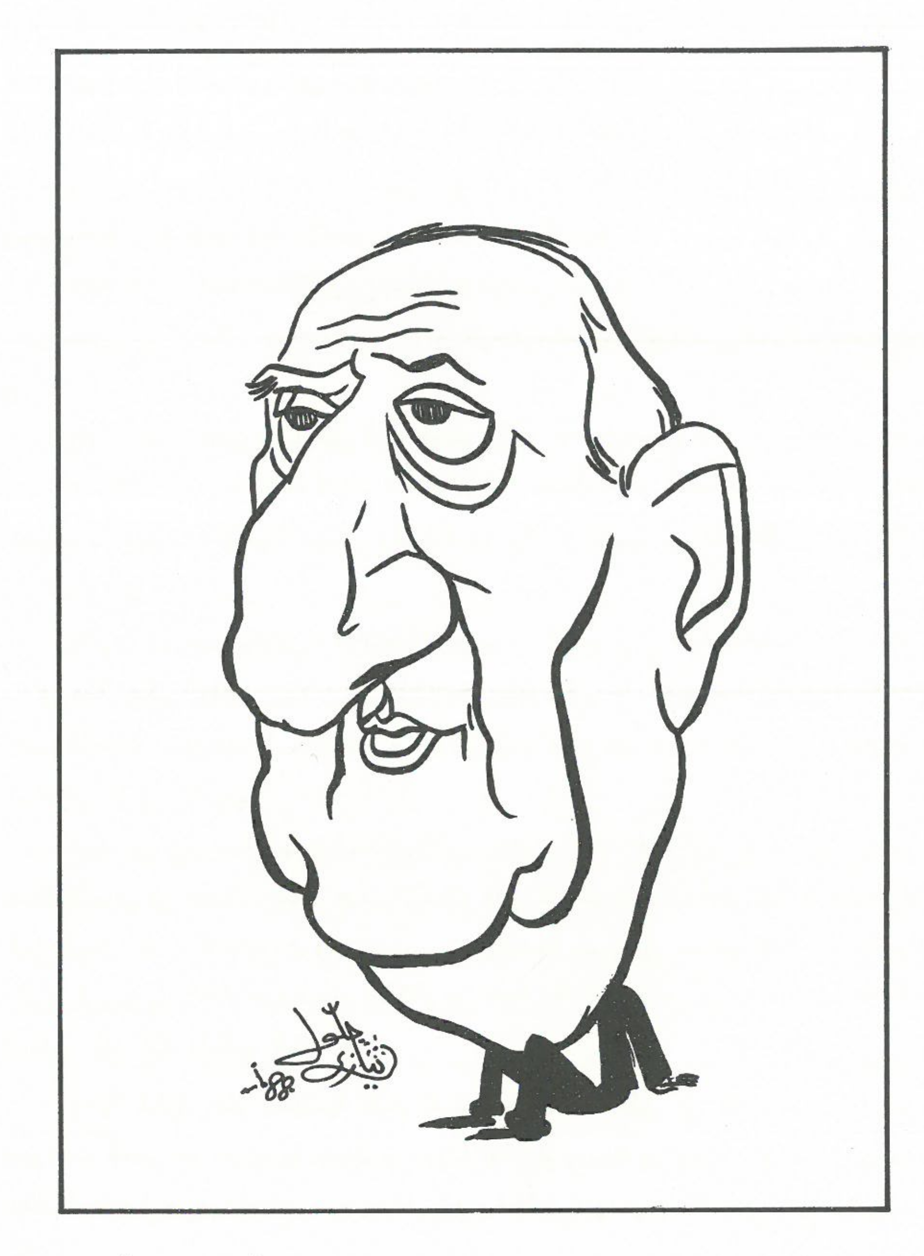
انا اجمع نقودا قديمة. عندي مجموعة نقود عربية، اموية، واخرى من عرب الأندلس. ومجموعة اغريقية. انا ونينا جيدجيان سنصدر كتابا عن نقودي الاغريقية. سوف يصدر عن المكتبة الكاثوليكية. عندي منحوتات يابانية «نتسوكي» ومنحوتات افريقية ومجموعة سجاد قوقازي ومجموعات اخرى. اوف. كثير. انا جامع (Collector). منذ صغري كان ابي كلما اعطاني قرشين اشتري من هذه الأمور. انا متعلق بالفن.

وميشال صاحب وجه قريب محبب وبشوش، واغلب الظن انه لشبهه بوجه رجل الثلج تحبه الصغار وتتصوره حاملا لها حكايا النوم، فضلا عن الكثير من البونبون في الجيبين.

وهو طويل وسمين تتصل بطنه بمعدته، وشعره اسود ورمادي وابيض، يمشطه من احدى الجهتين الى الأخرى فينتهي بعضه كحبال رفيعة تناثرت ونسلت وكادت تتفرع شعيرات شعيرات. وفي الفجوات التي لا يغطيها الشعر تمكث بقع عارية عليها نمش، مثلها مثل سائر الصلعة المكشوفة.

الأنف متقدم ورفيع، وفي اعلاه عقفة تجاورها شهوة سوداء، والعينان اميل الى الصغر مثلهما مثل الأسنان التي لا تحتجب عن النظر بفعل الكلام تارة والضحك طورا. اما العنق فتتدلى تحت الذقن بصورة ساطعة ومنتشرة، فيما الأذنان لصيقتان بالرأس لا ينقشع استقلالهما الا بشيء من التدقيق.

ميشال اده هو كل هذا في آن معا. لكن هذا كله هو بالتأكيد بعض ميشال اده. وهل نستطيع ان نلملم ما تبقى في تلك المدن والعواصم الكثيرة المنتشرة على مدى العالم؟



شـارل حلو

حين اتصلت «السفير» برئيس الجمهورية الاسبق شارل حلو طالبة اليه تحديد موعد للقاء يتناول تجربته الشخصية والسياسية، وافق الرئيس بعد تردد طفيف واستفهام عابر. لكنه كان المبادر الى اجراء الاتصال الثاني معتذرا عما وعد به قبلا.

سبب الاعتذار ليس حدثا جديدا طرأ في ما بين الاتصالين، كما قد يتراءى. السبب ان الرئيس الذي راجع نفسه وجد ان «السفير» كتبت عنه في ١٩٨٧/٤/٣ كلاما اعتبره غير مقبول. ولسوء الحظ كان موقع هذه الاسطر هو كاتب تلك الاسطر.

بلغة اخرى، يبدو ان الكثير من حسابات الرئيس حلو وقراراته لا ينجم عن حدث بعينه، بقدر صدوره عن تفاعلات داخلية تتم في ما بين الرجل ونفسه، فائضة عن الحدث او واهية الصلة به.

وهنا، ربما، يكمن منشأ الميل الذي وسم الرئيس حلو بميسمه، وكان «التردد» ابرز تجلياته وعناوينه. فلان قراراته ومواقفه لا تنم عن حكم على حدث او عن استجابة الحركة، يصير الهوى المشوب بالتكهنات والاخيلة مصدر «القرار» و«الموقف» الملتبسين، المختلطين، المتشككين، والواقفين دائما في الوسط.

والتردد كموقف شكوكي (SKeptic) اقرب الى الاندراج في خانة ردات الفعل العاطفية، منه في خانة الحكم العقلاني. ولانه على هذا النحو، فهو يرتب عددا من السلوكيات التي تلازمه في اغلب الاحيان. ومن هذه السلوكيات الغنج والدلال والتمنع على غرار ما درج شعراء العرب على نسبته الى الانثى اللعوب.

فهند ابن ابي ربيعة شهيرة ضحكتها التي ترددها بـ «بعد غد» كلما سئلت عن الميعاد. اما الفتاة الاخرى من خليلات شاعر صدر الاسلام فلم تكن تتردد في ان تجعل «لاءها نعما»، او ان تفعل العكس، تبعا لاعتبارات واسباب يصعب رصدها وتستحيل معرفتها (ولو وجد الشوكولا والبيتي فور يومها وهما مما عرف حلو بالاكثار من تناولهما لما احجم ابن أبي ربيعة عن استخدامهما للتغلب على تلك الممانعة الغامضة).

وحياة شارل حلو السياسية تقدم تفسيرا جزئيا لهذا الميل الى التردد وما يستتبعه من سلوكيات تقضي على صاحبها ان يكون تلميذا لمعلم او وسيطا بين قائدين او تعبيرا عن مرحلة انتقال استلزم ترجرجها اجماعا عابرا وهشا، وفي الحالات كلها ان لا يكون في موقع صلب نهائي وثابت.

ففي مقابل السياسيين الشعبين ممن افتقروا الى ادنى صلة بالتصورات الثقافية، سياسية كانت ام غير سياسية، مثل حلو عينة خالصة على المثقفين الذين لا تتقاطع ثقافتهم مع اية صلة فعلية بمصادر الواقع السياسي، ناهيك عن الشعبي.

بهذا المعنى لم يكن مصادفا ان يلجأ ابن بعبدا الذي عاش في بيروت الى سائر انواع الاستعاضة عن الافتقار الى المرتكزات والمصادر السياسية. بالمحاماة، والصحافة، ومصاهرة الصالون البيروتي، والانكباب على تحصيل ثقافي ترجح فيه كفة الدين واللاهوتيات، والعمل الديبلوماسي انطلاقا من السفارة اللبنانية في الفاتيكان، بهذا كله يصار الى سد الفجوة التي احدثها صغر عدد العائلة والانقطاع عن بعبدا من دون ارساء زعامة في بيروت.

ومن الطبيعي ان يعزز مثل هذا الافتقار خشية عميقة عند صاحبه حيال التعامل مع الشأن العام الذي يلوح غريبا وغامضا، ومن ثم حيال البت في اموره المثارة والملحة. وبدوره، فالافتقار المذكور يترك ثقافة رئيس الجمهورية، التي اشتهر بها، اسيرة تعميم لا سبيل الى تفريعه وتفصيله وشده الى الارض وترابها وأشيائها.

فمعرفة حلو هي التي تتأرجح مشكلاتها ومسائلها بين مقدمة بسيطة تنهض على الحس السليم وحسن النوايا، وبين احالة اخيرة الى الخالق والمقدس، من دون توسط: اذا الله يريد، ان شاء الله، كما يريد الرب الخ..

واذا كانت «التسوية» هي العقد الناظم في ثقافة شارل حلو الشيحية ـ الدستورية، الا انها تلوح باهتة، فقيرة الدم او عديمة المتابعة، بما يجعلها تنكمش الى تكرار اخلاقي يشبه المواعظ، مشوب بحضور تسووي ثقيل يقتصر على قشرة الشكل او ينوء تحت وطأة البروتوكول. ودائما تغيب القدرة على تقديم اجابات فعلية تفصيلية عن اسئلة يطرحها الواقع وجديده.

بمعنى آخر، على عكس الميل التسووي الديناميكي الذي ينطلق أساساً من الواقع، عاملا على تجنيبه الصراع وممتصا مصادر عنفه من طريق التصدي لمشكلاته، وهو ميل مدعو بطبيعته لان يلاحق كل طارىء وكل اضافة الى الواقع المعطى، على العكس تماما تلوح النزعة التسووية كما يمثلها حلو واقرانه تعبيرا عن الانسحاب من القرار، وبالتالي من المشكلات، على طريقة الدعوة الى الابتعاد عن الشر والغناء له. وطالما ان ما نبتعد عنه ونتجنبه هو الشر ليس الا، فالابتعاد سيكون، في مثل هذه الحال، كفيلا بارضاء الله الخالق الذي لا يريد لنا الا هذا الابتعاد.

«رضاك وبس» بحسب العبارة التي عرف حلو بتكرارها!

في مطلق الاحوال فان هذا الوقوف الرجراج في قلب الاحتمالات كلها، يطل على «الخير» بقدر ما يطل على نقائضه. وهنا مكمن ما بات يسمى بـ «السلوك اليسوعي» الموصوف بالكثير من الخبث والمداورة، والصادر عن رجال دين مؤمنين، كما يشير النعت الصريح.

ما قبل الرئاسة

شارل حلو، ابن بعبدا، نزل والده اسكندر في ١٨٦٠ الى بيروت حيث ولد شارل في ايلول

١٩١٣. الوالد كان صيدليا وصاحب صيدلية حلو، كما كان ذا اهتمامات ادبية دفعته لان يكتب باللغتين الفرنسية والعربية.

لكن الوالد توفي فيما نجله لا يتعدى السادسة من عمره، فترك امر تربيته للوالدة السيدة ماري خليل نحاس التي اضطرت لان تبيع الأراضي التي امتلكتها العائلة في العاصمة. ويبدو ان الرحيل المبكر للوالد لم يكن عديم الأثر على التكوين الشخصي لشارل، كما سنرى لاحقا وعبر الالماح الى صلاته بالمعلمين والقادة.

على اية حال فبعد انهائه دراسته الثانوية وحصوله على جائزة شرف، تابع حلو علومه الجامعية ونال من جامعة القديس يوسف اليسوعية اجازة في الحقوق. وكمثقف في محيط اسري امتهن التجارة وبرع فيها، اتجهت عينا شارل حلو نحو البيوتات البيروتية الارستقراطية عملا بما فعله من قبل الرئيسان اميل اده وبشارة الخوري. فقد اقترن حلو بالمحامية نينا طراد، ابنة شقيق الرئيس بترو طراد، المحامي اللامع والسياسي الارستقراطي والقطب الارثوذكسي الذي عمل شارل في مكتبه بعيد تخرجه.

لم يكن حلو الشاب بعيدا عن العمل المهني، ففيما كان يدرس سنته الجامعية الأولى عمل في وزارة المالية، وفي العام ١٩٣١ انتقل الى دائرة الصرفيات وكان مرتبه ٣٢,٥ ليرة.

وتلك السنة الأخيرة سجلت انتقال شارل حلو الى العمل الصحافي الذي زاوله حتى ١٩٣٤ في مجلة «لنفورماسيون» الناطقة بالفرنسية، وفي غضون ذلك اسس في حلب في ١٩٣٢ صحيفة «برق الشمال»، ليتولى في ما بين ١٩٣٥، و١٩٤٩، رئاسة تحرير «لوجور» لسان حال «الكتلة الدستورية» وتتوثق صلته بالكاتب الليبرالي ميشال شيحا الذي اعتبره استاذه ومرجعه الفكري.

في هذه الاثناء كانت لشارل حلو تجربة حزبية عابرة في ١٩٣٦، فالشيخ بيار الجميل الذي اسس الكتائب اراد ان يهادن العصبيتين السياسيتين السائدتين يومها، اي الدستورية الخورية والكتلوية الادية، بما يوفر مناخا ملائما لتطور حزبه الجديد. وهكذا جيء بـ «هيئة» قيادية تمثل العصبيتين المذكورتين فكان شارل حلو ممثل الدستوريين فيها وجورج نقاش ممثل الكتلويين. الا ان التجربة لم تعمر طويلا اذ ما لبثت سلطوية الشيخ بيار ان تفردت بقيادة المشروع الجديد، تاركة للاخرين الذين ارادوا جذبها بحسب اهوائهم الأولى، ان ينسحبوا بهدوء الى المواقع الأصلية التي صدروا عنها.

والى المحاماة والصحافة دخل شارل حلو نطاق العمل الديبلوماسي فكان اول وزير مفوض وسفير لبناني فوق العادة الى الفاتيكان ما بين ١٩٤٦، و١٩٤٩. وفي خلال عمله هذا مثل لبنان في ١٩٤٨، في منظمة الأغذية التابعة للأمم المتحدة، وترأس المكتب العربي للدفاع عن فلسطين في

باريس، وانتدبته حكومته الى المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة ايضا.

وبانتهاء عمله في الفاتيكان، وهو المؤمن بالدور المعنوي الكبير للحاضرة الايطالية، سلم وزارتي العدل والأنباء بموجب تعديل حكومي طرأ في ٦ تشرين الأول ١٩٤٩ على حكومة الرئيس رياض الصلح. وفي ١٩٥١ دخل حلو البرلمان لمرة وحيدة في حياته بعد ان خاض معركة بيروت على لائحة دستورية قوية ضمت في عدادها حبيب ابو شهلا وهنري فرعون وموسيس ديركالوستيان. وكنائب تسلم وزارة الخارجية والمغتربين في حكومة الرئيس عبد الله اليافي في ١٩٥١، ليتسلم من بعدها وزارتي العدل والصحة العامة في حكومة الرئيس سامي الصلح التي شكلت في ايلول ١٩٥٤، واحتجب شارل حلو نسبيا عن الأضواء خلال ما تبقى من سني العهد الشمعوني ليوالي ظهوره مع الحكومة الأولى للعهد الشهابي برئاسة الرئيس رشيد كرامي والتي أطاحتها «الثورة المضادة» الكتائبية. يومذاك تسلم وزارتي الاقتصاد الوطني والأنباء ليعين في ١٩٦١ رئيسا لمجلس الانعاش الاجتماعي، وفي ١٩٦٢ رئيسا للمجلس الوطني لانماء السياحة الذي يعزى اليه امر تأسيسه.

وفي آخر حكومات العهد الشهابي والتي شكلها الحاج حسين العويني عهد الى حلو بوزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، فبقي يقوم بأعبائها الى ان انتخب رئيسا للجمهورية في ٢٣ ايلول ١٩٦٤، بعدما رفض الرئيس فؤاد شهاب التجديد رفضه اعتماد قريبه المير عبد العزيز مرشحا عن الشهابيين.

عهد حلو

وصل شارل حلو الى رئاسة الجمهورية حين لم يكن هناك دور ينتظر بطله. فالمطلوب اولا واخرا وجه يؤمن استمرار العهد الشهابي وسياساته الداخلية والخارجية. ولأن المعارضة الشمعونية - الادية وجدت في اختيار حلو دليلا على ضعف هذا الاستمرار واحتمالاته، فانها اثرت هي ايضا ان تبايعه رئيسا وتراهن على مستقبل وشيك تنقلب فيه الأمور رأساً على عقب. فلا الأوضاع في الحوار الاقليمي والعالم كافية لضمان الاستمرار الشهابي ولا تردد شارل حلو عاصم عن الانقلاب حين تدق ساعته.

وهكذا انتخب حلو رئيسا باجماع نيابي لم يشذ عنه الا الشيخ بيار الجميل الذي امتحان قوة الكتائب وشاء ان يلمح الى ايذان استقلالها عن الشهابية التي انتهى عهدها الأول. وفيما نال حلو ٩٤ صوتا نال الجميل ٥ اصوات ادلى بها النواب الكتائبيون الأربعة ومعهم الرئيس سامي الصلح.

مشى الرئيس شارل حلو في محاذاة «الأجهزة» التي انتسبت الى الأب الجامع فؤاد شهاب، عاملا بتوجيهاتها ومشكلا حكوماته بحسب اقتراحاتها، الا انه وبعد اشهر غير كثيرة بدأ ينم عن

ميول خجولة للاستقلال عنها كما ظهر في انتخابات جبيل الفرعية التي أعقبت وفاة النائب الدكتور انطون سعيد. مذاك راح عهد الرئيس حلو ينضح بتجاذب يطال شتى مستويات العملية السياسية ويتركز بصورة اساسية في تشكيل الحكومات واختيار رؤسائها، كما بين «السلم الأهلي البارد» ،العمل الدؤوب لوضاح شرارة عن تلك الفترة.

بدوره فان الانتقال الذي تكتم عليه الرئيس حلو وساهم في أحداثه بصمت ومداورة، لم يعدم اسباب الاقليمية والدولية. فالانفراج الدولي الذي دشنه عهدا خروتشيف وكينيدي دخل اواسط الستينات في النفق الفيتنامي المظلم. اما عربيا فبدت مؤتمرات القمم البادئة في ١٩٦٤ اعجز من ان تتغلب على المحورية الحادة التي اوجدتها حرب اليمن من جهة، والنزاع المصري - السوري بعد توقيع «معاهدة الوحدة الثلاثية» الجهيضة من جهة اخرى.

بيد ان الانتقال الذي كانته السنوات الأولى من عهد حلو، ما لبث ان تكشف عن كارثة وسبب لحرب اهلية - اقليمية لم يتأخر اندلاعها، وهنا لا بد من التوقف عند عاملين كان لرئيس الجمهورية السابق دور اساسي في التعامل معهما ومع النتائج التي اسفر عنها تفاعلهما الصدامي.

فيما لم يكن لحلو يد فيه ان العرب قد هزموا في حزيران ١٩٦٧ وكان الاثر اللبناني الابرز الذي خلّفه الحدث المذكور نشوء المقاومة الفلسطينية وتغلغل مسلحيها في لبنان. صحيح ان حلو زار مصر في ١٩٦٤ قبل ان يحصل التسلم والتسليم لحضور مؤتمر القمة العربية، الثاني في الاسكندرية فكانت المشاركة اشارة الى ان الرجل سيحافظ على السياسة العربية والخارجية لسلفه. وصحيح انه سبق له ان كتب «مسألة اللاجئين الفلسطينيين» الذي ترجم لخمس لغات، و «المسألة الفلسطينية» عاملا في الاربعينات على حمل الفاتيكان على عدم الاعتراف باسرائيل. لكن الصحيح ايضا ان التطورات التي اعقبت حرب ١٩٦٧ ،عرضت العواطف الفلسطينية والعربية للجيل الدستوري ذي المحافظة الكاثوليكية الى امتحان لا سابق له. فالمقاومة اصبحت جيشا ساعد على تجمعها في لبنان قيام نظام راديكالي في ٢٣ شباط ١٩٦٦ في دمشق وسط اجواء من التدهور الاقليمي والدولي تم الالماح الى بعضها. وتتالت الاحداث الصاخبة من الضربة الاسرائيلية للمطار في ١٩٦٨ الى مواجهات نيسان ١٩٦٩ التي خلفت اطول ازمة وزارية لم يبرأ منها المجتمع المقسم اصلا. ولئن وقع «اتفاق القاهرة» في اخر المطاف فتوقيعه لم يكن غير اعلان اخر عن الانقسام وغير استئناف له في زي جديد.

أما العامل الاخر ففيه تكمن مسؤولية حلو بوصفه ابرز المعبرين عن الطبقة السياسية يومها، وبالاخص منها جناحها الماروني. ففي مواجهة التطورات الاقليمية الكبيرة التي استدخلت في الواقع اللبناني ووجدت في الانقسام الاهلي مصادر رفدها وتغذيتها، ظهر عجز مطبق عن اعادة انتاج الصيغة التوافقية بين اللبنانيين بما يتابع المستجدات ويأخذها في عين الاعتبار. وربما كان

المطلوب حينها، لو ان النخبة السياسية اللبنانية اهل للدور الذي تضطلع به، ان يصار الى تقديم عرض جديد او تسوية تاريخية جديدة للمسلمين، بما يحاول فصل التفاوت الاهلي عن الصراع الاقليمي والحصول دون انعكاس الثاني على الاول ومفاقمة تأجيجه.

ولان حلو مثل اذاك «نهج» ترك الامور تسير على غاربها، تركت المبادرة السياسية للتطرف الماروني الذي افاد من شيخوخة الشهابية بعد الاحتقان الذي خلفته في الوسط المسيحي من جراء ممارساتها الديموقراطية المشوبة بافراط عسكري فوقي. ولم تكن هزيمة عبد الناصر في ١٩٦٧ ، وهو الحليف والراعي العربي للشهابية، بعيدة عن تقديم المدد اللازم لانطلاقة التطرف الماروني. وهكذا كان «الحلف الثلاثي» وكانت انتخابات الجبل الشهيرة في ١٩٦٨ بحيث تكشف المجتمع اللبناني عن استقطاب حاد يتعدى الدولة ويتم في خارجها: مشروع «دولة» مارونية - جبلية قادها الاقطاب البرلمانيون الثلاثة شمعون واده والجميل، ومشروع «دولة» اسلامية ذراعها المقاومة الفلسطينية الموضوعة في مقابل الجيش اللبناني.

ان التلمذة على ميشال شيحا والبنوة لفؤاد شهاب والخضوع لـ «الحلف الثلاثي» والاذعان لمتظاهري نيسان ١٩٦٩ ناهيك بالاتعاظ الدائم بـ «قداسة البابا» لم تكن في وجهتها الاخيرة غير محطات وعلامات على سلبية يجفلها الفعل وتخيفها المبادرة، فيما تمكث عقدة الذنب حاضرة حادة.

ولم يقتصد الرئيس حلو في شرح موقفه من «اتفاق القاهرة» الذي يبدو وكأنه عقدة حياته، قائلا للزميلة «المنبر» في تموز ١٩٨٧ :

« لم يكن لي الخيار يومها في الرفض، اذ انه كان علي كرئيس للجمهورية ان احترم واقر بالمعطيات الداخلية الاقليمية المتحكمة بسياسة البلد. فالمؤتمر الاسلامي الذي عقد يومها على مدى ثلاثة ايام والذي اقر حرية العمل الفدائي على ارض لبنان، والتظاهرات التي قامت في فلسطين وفي دول عربية تأييدا للعمل الفدائي، ثم ان المعركة مع الفلسطينيين لم تكن خيارا سهلا ولم يكن جائزاً ان نزج الجيش اللبناني في هذا الصراع فنتسبب بما حصل في ما بعد من انقسامات داخلية... لكل هذه الاسباب مجتمعة ولأسباب اخرى تحملت مسؤوليتي في عقد مثل هذه الاتفاقية».

والرئيس لا يني يتفاخر بانه اخر انفجار الحرب اللبنانية ست سنوات، مؤكدا باستمرار على ان الاتفاق الشهير قد سقط والغي غير مرة، كما لو انه يخفف من وطأة الذنب باصرار لا يفتر.

بعد الرئاسة

مع انتهاء ولايته، وخاصة مع انفجار الحرب لعب حلو أدواراً سياسية غير بارزة كانت في مجملها منسقة مع قادة « الجبهة اللبنانية » ورؤساء الجمهورية. لكن هذه المواقف لم تكن في

منحاها العام تتسم بالتطرف الذي شاب أدوار بعض الاخرين ومواقفهم . وربما كان ابرز نشاطاته نجاحه كوسيط في أواخر آب ١٩٨٥ اذ استطاع ان يجمع الرئيسين امين الجميل وسليمان فرنجية في سمار جبيل لتقريب وجهات النظر المسيحية، معاودا الاجتماع بهما في ايلول من العام نفسه في محاولة لم يكتب لها النجاح لاعداد مؤتمر مسيحي يمهد لمؤتمر وطني عام .

وعلى صعيد آخر انتخب حلو في ١٢/١٢/١٩٨٣ رئيسا للمؤتمر العام لوكالة التعاون الثقافي والفني بين البلدان الناطقة بالفرنسية (الفرنكوفون) تحت شعار التضامن مع لبنان . وفي ١٩٨٨ اصدرت « الفرنكوفون »، ما سمي بـ « جائزة شارل حلو الدولية » وهي التي يشغل منصب رئيس فخري لها . كذلك عمل الرئيس الاسبق في مجالي التوأمة بين مدن ومؤسسات اجنبية وقرى لبنانية مهجورة او مهدمة، والمشاركة مع زمنيين ورجال دين في اقامة مطاعم مجانية للفقراء والمعوزين في المناطق الشرقية .

ومؤخراً ومع افتتاح الموسم الرئاسي وجد من يقول ان شارل حلو هو احد مرشحي الرئيس الجميل الحريص على ان لا يحل في القصر الجمهوري خصم له ولعهده، حرصه على عدم توسع النادي الرئاسي واستقباله لوافدين جدد .

وآراء شارل حلو لا تخلو من عادية وبساطة، لا يخفف منها الاعتدال والصحة . . . شبه البديهية، فقد قال في حديث صحافي في ١٨ اب ١٩٧٥ انه مع الابقاء على النظام الانتخابي المرتكز على الطائفية «حتى يتسنى للشعب اللبناني الانصهار والعمل من أجل قضية واحدة لكل الطوائف ولكل الشعب اللبناني» كما طالب بان «يكون للبنان دور ومسؤوليات ضمن الدفاع العربي المشترك» .

والرئيس حلو الذي أسهم في قرار استخدمته الجامعة العربية بتوصية الأعضاء بتعميم تمثيلها لدى الفاتيكان يرى «ان الحل النهائي للمشكلة الفلسطينية لن يكون الا بالتفوق على اسرائيل في كل المجالات العسكرية والعلمية والاقتصادية» و«بعض الأشقاء العرب قليلو العاطفة قصيرو النظر والذين يدفعون الى حل عسكري للقضية الفلسطينية، يسعون بطريقة مباشرة أو غير مباشرة الى مذبحة جماعية حقيقية» .

وفي مقابلة صحافية أخرى العام ١٩٨٥ رأى الرئيس حلو «ان الحل يكون في لبننة المنطقة لأنها تعني التعايش» أما التوطين والتقسيم فغير ممكنين مهما كانت ارادة الكبار والصغار، وان ما يسمى مؤامرة ينطبق على المثل القائل «عندما تقع البقرة يكثر السلاخون» .

لقد ظل العالم القديم متشبثا بالرئيس حلو في مظهره وملبسه وسلوكه ونزعته المفرطة الى التوفيق بما يرتب الأمور ويجعلها تبدو مستقيمة قابلة للديمومة والثبات . فالبذلات الداكنة التي تكسو جسده المائل الى الضخامة، واستقباله الذي يمتزج فيه الود المقتصد والتفحص الدؤوب

للآخرين، وحرصه على مجاملة مدروسة تختار كلماتها بدقة من دون أن تخفي طبيعتها هذه، كل ذلك يحملك الى عوالم صحيفة «لوجور» كما تتخيلها في الثلاثينات والأربعينات، ويجعلك تستدعي صالون الانتداب الفرنسي ونجومه وقضاياه وسجالاته . ويبقى الشك حادا ومشروعا في ان تكون ذهنية الثلاثينات والأربعينات قد أضافت اليها أيا من الهموم والمسائل المستجدة الكثيرة .

وحين يتحدث شارل حلو بالفصحى أو يقرأ نصا سياسياً سبق أن كتبه تسمع منه لغة سليمة لا يشوبها خطأ في تحريك الكلمات وان اعتراها نطق غير مألوف للمخارج التي تبدو «صعبة» أو موغلة في العربية .

ويوم أتيح لموقع هذه الاسطر ان يلتقي الرئيس حلو في بيته في الكسليك (في تلك الجلسة التي أثارت حنق الرئيس لاحقا)، كان الانطباع ان حضوره يثير صورا وبيئات وعوالم : مرة يلوح موريس شيفالييه في وجه الرئيس كما في رأسه وشعره، ومرة ألفريد هيتشكوك في بزته الداكنة وكلماته المختارة التي توحي كأنها تخبىء شيئا، وانفه الطويل الذي يجذب اليه سائر أطراف الوجه فيما يملي على الوجه عبثاً لا يخلو من اثارة للغرابة . والى ذلك بدا حلو أحيانا، وهو الذي لم ينجب ولداً، كأنه الجد الذي يروي لحفيده قصة قبل النوم ثم يطفىء زر الكهرباء ويخرج بهدوء من الغرفة .

الرئيس حلو المتردد الذي لا يحسم، يهرب دائما الى واحد من اثنين أو الى الاثنين معا، فهناك «الله» ومشيئته التي يعلق كل شيء على مشجبها، وهناك «الأخلاق» الحميدة وصلاحها الذي لابد ان يكتب له النصر حين يخر الشر صريعاً وتعلو في آخر المطاف راية الخير الخفاقة، وأي ذنب للانسان في ما يفعل بعد ذلك؟

والرئيس الذي يقول في وصف تردده انه حين يكتب يترك على صفحاته حبرا يفوق الكلام الناجز لا يرشح نفسه الا للصلاح أمام وطنه وربه، كأنه يعد ذاته ـ أطال الله عمره ـ لما يتعدى العمر والسياسة طبعاً .

ان موقع شارل حلو في التاريخ السياسي للبنان الحديث تاريخ ملفت ومفارق . فالرجل الذي جيء به رئيسا لكي يكون مجرد استئناف تلجم معه السياسة ويحال دون التناقضات، تحول الى الرئيس الذي يفتتح به وبعهده انفجار سياسي يتعدى كل الحدود متجاوزا الدولة الى المجتمع، ويخلا بالأعراف كلها التي درجت الصراعات على ان تنضبط فيها .

وبهذا المعنى مثل شارل حلو شيخوخة مركبة فيها من عجز الدستورية ما فيها من اهتراء الشهابية ومحدودية الرد عليها والمعارضة لها .

بلغة أخرى، نجح الرئيس السابق في ان يلخص مرحلة وذهنية ونخبة . لكن الشهادة التي يستحقها هي ان تلك المرحلة والذهنية والنخبة فتحت الباب لفقدان الجاذبية على نطاق كامل .



ميشال الخوري

حيال الشيخ ميشال الخوري في مظهره وملبسه المحافظين، كما في سلوكه وقوله، ثمة ما يذكرك بالسياسي والمفكر الدستوري البريطاني ادموند بيرك الذي عاش عصر الثورة الفرنسية واتبع سياسة الاصلاح المحافظ.

لكن بيرك، وبمعزل عن محافظته، منح الاميركان دعمه ابّان ثورتهم لانها في الاساس ثورة دستورية. وبهذا كان رائدا في التمييز الذي درج لاحقا بين تقليدين سياسيين غربيين: ذاك الذي أرسته الثورة الاميركية وقوامه الدستور وحقوق الانسان، وذاك الذي انشأته الثورة الفرنسية وعماده العنف وتأليب جمهرة الفقراء ضد النظام.. وضد كل شيء اخر.

فالحدث الابرز في حياة بيرك كان هجومه على الثورة الاخيرة، مستبقا سياسيي انكلترا كلهم ممن ما لبثوا ان انضموا الى ذاك الهجوم على الاخلال بالانصبة والاجماعات. فقد قرر بيرك ان ثورة فرنسا هي في اساسها شر ناقل للعدوى. وفي ١٧٩٠، اي قبل وفاته بسبع سنوات، نشر عمله العظيم «انطباعات عن الثورة في فرنسا» الذي ظل يضيف اليه التتمات والملاحق الى ان تحول جثة هامدة.

وقد اثار الكتاب المذكور سجالات حادة خصوصا مع توم باين الذي وضع ردا عليه كتاب «حقوق الانسان»، اذ رأى بيرك ان سبب الثورة هو مبادىء الثوريين المجردة الغامضة كمفهوم والمرعبة كتنفيذ، مؤثرا عليها «الحقوق الفعلية للانسان»، بما فيها الحق في فرض اصلاحات عملية تقوم اعوجاجات الظلم والالام والاجحافات.

ذلك ان تلبية هذه الحقوق هي، في رأيه، مما يبرر، بل يتطلب، اصلاحات موسعة في فرنسا. الا انها لا تبرر تدمير الكنيسة والنبلاء و «الزينات الجميلة» للحضارة.

ولكي يفسر الطابع المعتدل لـ «حقوق الانسان»، كون بيرك تصوره عن حق «التقادم» او «مرور الزمن» (prescription) بوصفه جزءا مهما وعميقا من القانون الطبيعي. فالتقادم يعني اما اكتساب الحق عبر الاستعمال المديد ـ المستمر، او خسارته بفعل عدم الاستعمال. وجعل هذه القاعدة الشرعية في التملك جزءا اساسيا من القانون الطبيعي هو اهم مساهمات ادموند بيرك في الفلسفة السياسية.

فالتاريخ وعلى العكس مما قال «تنويريو» فرنسا لا يقوم على انقطاعات ولا ينقسم الى انظمة قديمة واخرى جديدة. فهناك زمن لا يعدم الاستمرارية، ولا يستطيع جديده ان يتخلى عن تراكم الخبرات التي تحققت لقديمه واجياله السابقة. فحين يحصل مثل هذا التخلي يكون الوقوع في فراغ قاتل وانطلاقة من الصفر يستعاض عن خوائها باللجوء الى العنف والقسر.

الميراث المتضارب

ولد ميشال الخوري في تشرين الثاني ١٩٢٦ سنة كان خاله ميشال شيحا منشغلا في صياغة

الدستور اللبناني. والده الشيخ بشارة الخوري اول رئيس جمهورية للبنان المستقل الذي تميز، بين امور اخرى، بتمكنه في اللغة العربية كتابة وخطابة، فضلا عن الفرنسية التي كانت اللغة الدراسية والثقافية لابناء جيله، واستمرت اللغة الاولى للمحامين وطلاب الحقوق.

وبشارة المتحدر من اسرة الخوري صالح اصحاب الاقطاع في الجرد اواخر عهد الامارة، هو صاحب النهج المعتدل الذي عرف لاحقا بالدستورية، حتى كتب مارون عبود بشيء لا يخلو من الحماسة انه «لبناني قلباودماً، عربي يدا وجنانا ولسانا وبيانا. فكل الخطوط اللبنانية متجمعة في هذا الرجل». وفي كتابه عن الخوري لم يتردد ابن عين كفاع الدستوري في ان يسجل ان «محبته واسعة عميقة تسع لبنان وما فيه من طوائف ونوات.. واني لاعجب كيف اتسع قلب هذا الدين الممارس لجميع الملل والنحل».

والعائلة التي ينتسب اليها الخوري ذات قصة طويلة تنقل توزعها ما بين الريف والمدينة، كما تسرد بعض عناوين عملها مع العثمانيين، انما في متصرفية جبل لبنان ذات الاستقلال الواسع نسبيا عنهم. ففي العودة الى كتابه «حقائق لبنانية» يروي الشيخ بشارة انه ولد في ١٨٩٠ «جسما في أرض الولاية وروحا في متصرفية جبل لبنان»، لأن مسقط الرأس البيروتي كان يومها عثمانيا.

والد بشارة، خليل الخوري، عمل رئيسا للقلم العربي في المتصرفية عهد واصا باشا، لكن «الحملات المتكررة وحفنة من الذهب قضت على منصبه، فصدر الامر المنتظر باقالته من رئاسة القلم العربي وبتعيين ابن خاله حبيب اسعد (الخوري) مدير الجرد الجنوبي (رشميا) خلفا له». وغادر خليل لبنان وسافر الى حيفا التي لم يعد منها الا بعد رحيل واصا.

والخليل شقيق هو الخوري لويس الذي كان كاهن رعية رأس بيروت الماروني، اي كاهن الرعية الابكر في تعرضها لتأثيرات الاحتكاك باوروبا بعد الاحتكاك بالمدينة. وقد تفرع خليل ولويس عن بشارة الخوري الذي عين قاضيا للنصارى في قائمقامية الدروز التي ضمت اقلية مسيحية كبيرة جدا أيام عهد القائمقاميتين، فكان هذا الدور بمثابة تمرين مبكر على التعامل مع مشاكل المجتمع ذي التعدد الطائفي والثقافي.

وبشارة الخوري الحفيد، والد ميشال، يبدأ كتابه المذكور بالقول ان «بيت الدين وبعبدا وجوارهما هي الضيع الاولى التي ألفتها عيناي وعلقها فؤادي»، ليروي تاليا ان والده خليل، الذي عاد الى الوظيفة مع تولي نعوم باشا المتصرفية، اسكن عائلته في رأس بيروت اربع سنوات كي لا يكون «بعيدا عن بيت المتصرف».

ولم يقتصر تكوين بشارة على هذه الاختلاطات كلها. فوالدته كانت من قرية بكاسين المجاورة لجزين، وقد ربطتها بآل المعوشي الجزينيين صلة قرابة شكلت لاحقا احد اسباب دالة

الشيخ بشارة على البطريرك الجزيني».

بدورها انتسبت والدة ميشال، السيدة لور شيحا، الى اسرة صغيرة ثرية حديثة الوفادة الى لبنان من العراق، والاقامة في بمكين من قضاء عاليه. شقيقها ميشال دخل الى السياسة واثر في اتجاهاتها ورجالاتها من موقع كونه مثقفا ليبراليا، تسووي النزعة، عميق الفهم للتركيب الاجتماعي اللبناني، وشديد التعلق بالديموقراطية شدة تعلقه باقتصاد حر لا تساوره الرقابة والتشريعات.

بهذا المعنى كان ميشال الخوري نتاج واحدة من تلك الزيجات الكبيرة بين «قطب» جبلي لم تنقطع صلته بالمدينة، الا ان اقترانه بواحدة من صالونها شرط اخر يعزز صعوده السياسي، وبين عائلة مدينية جمعت المال الى الاهتمامات الثقافية، فلم يعد يعوزها غير الصلة بقطب ماروني هو وحده طريقها ووسيلتها الى التأثير.

لكن ميشال كان في شبابه حصة خاله الذي يحمل اسمه، اي حصة الثقافة وادارة المشروع اللبناني الكبير قبل ان يكون حصة السياسة المباشرة وما يتصل بها من عمل شعبي. اما شقيقه الاكبر خليل فكان، على عكسه، حصة والده بشارة: فهو الاكبر الذي يحمل اسم الجد خليل ويشبه اباه في الوجه والجسم السمين، والنجل الاكبر هو الاب الصغير في المجتمعات البطريركية لاسيما حينذاك.

ولان ميشال حصة خاله، مكث اهتمامه بالسياسة متداخلا مع اهتمامات اخرى في صدارتها الادارة وشؤون المؤسسات بما حال بينه وبين ان يكون مجرد وجيه تقليدي. فميشال ليس ابن ابيه وكفى المؤمنين الامر الذي وجد ترجمته البسيطة في اضفاء نعت عليه لا يني يلاحقه: ضعف الشخصية وانعدام الدور. فالصادر عن بيت بشارة الخوري اما ان يكون سياسيا تهاجمه مشكلات الناس في غرفة نومه و «يضرب برجله باب السرايا» او لا يكون على الاطلاق.

عناوين سيرة

درس ميشال الخوري في المدارس اليسوعية، ومن جامعة القديس يوسف نال اجازة الحقوق، ليتابع دراسة المادة نفسها في باريس. يومذاك، وبحسب روايته هو، كانت باريس تعيش صخب الأجواء الثقافية التي تلت الحرب العالمية الثانية، والمؤثر انه كان جان بول سارتر على جهة اليسار، واندريه مالرو اليساري السابق الذي عاش في الصين وشارك في الحرب الاسبانية ثم انقلب الى الديغولية، على جهة اليمين. ومرة وبسبب مشاركة الطالب ميشال الخوري في أحد النشاطات الطالبية، اعتقلته الشرطة الفرنسية مع رهط من رفاقه وسألته عن أوراق الهوية أو الاقامة. عندها كان الشيخ بشارة لا يزال رئيسا للجمهورية بما يعني ان ولده يحمل جوازا ديبلوماسيا.

قلت لهم انني لا أحمل أوراقا، يروي ميشال، لكي لا تكبر القصة وتصير بين بلدين.

لكن القصة كبرت وعلم الشيخ بشارة بالأمر فأبدى الاستياء، وأوعز لابنه في رسالة شخصية، ان يستمر في نشاطه الطالبي شريطة ارفاقه بانتباه وحذر أكبر.

بعيد تخرجه عمل ميشال مساعدا لخاله في المهمة التي أوكلت اليه للسعي لدى الفاتيكان من أجل انشاء علاقات ديبلوماسية مع لبنان. والى جانب خاله الصحافي عمل في الصحافة مشاركا في ١٩٤٦ و١٩٤٧ في كتابة مقالات سياسية واجتماعية لصحيفة «لوجور» الناطقة بالفرنسية، قبل أن يشتريها بعد وقت طويل بمشاركة بيار حلو، صهر ميشال شيحا الذي كانت انقضت سنوات على رحيله.

يستطرد ميشال في الكلام عن تلك المرحلة: كنت أيضا أكتب مقطوعات شعرية، وتفتر شفاهه عن بسمة فيها خجل وود كثير.

وفي ١٩٥٠ كان النفور الشبابي عن الأبوة عند ميشال الخوري له وقع الصاعقة على الحياة السياسية في لبنان. عامذاك توجه ابن الرابعة والعشرين الى «الندوة اللبنانية» وألقى محاضرة شهيرة عنونت «أفق لبنان»، استقبلها وروج لها بحماسة منقطعة النظير خصوم الشيخ بشارة وعهده.

قال ميشال متسائلا ومتهما:

حققنا الاستقلال. وبعد ذلك؟ ماذا فعلت دولة الاستقلال، ماذا حققت على صعيد بناء الدولة وبناء الوطن وبناء المواطن؛ لا شيء. عدنا الى الوراء... الى العادات العثمانية وعادات الاستعمار. عدنا الى الفساد والاهمال والانحطاط. فالذين ولدوا مع ولادة الاستقلال (١٩٤٣) ينمون ويكبرون دون أن نبذل جهدا أو نسعى بأقل واجب الى جعلهم لبنانيين حقيقيين. مطلوب ازالة رواسب الماضي والتركة الثقيلة من الأساليب البالية الباقية من عهود الانتداب وما قبلها، ومطلوب أيضا ازالة حاجز لا أخلاقي هو عقلية فرق تسد».

ومضى الخوري الابن مهاجما الادارة الاستقلالية: «في وقت قصير امتلأت الادارة بأناس من هب ودب. ناس برؤوس وناس من دون رؤوس. الموظف الفلاني من زلم السياسي الفلاني. والموظف الآخر مخلص لرجل سياسي نافذ. كل ما روعي في شغل الوظائف ان يكون الموظف محسوبا على فلان من السياسيين أو زلة فلان من المتزعمين. عدد قليل من الموظفين الصالحين يعملون ويجدون ويرهقون بأعباء الادارة والمسؤولية، بينما العدد الكبير والعدد الفائض من الموظفين غير الصالحين يتنعم على حساب الدولة ويستفيد من امكاناتها في الوقت الذي كانت الدولة بحاجة الى نهضة شاملة، خصوصا في الادارة حيث كانت الأساليب أيام الانتداب وقبله لا تزال سارية المفعول».

المحاضرة التي اتهم رياض الصلح ميشال شيحا بأنه وراءها لم تكن بلا مقدمات. فميشال

غادر في ١٩٤٩ بيت أبيه محتجا على التجديد ومواكبا مواقف خاله الذي سارع في ١٩٤٧ الى الاعتراض على تزوير الانتخابات وكادت علاقته تنقطع كليا بصهره.

يقول ميشال: تلك الحدة كانت غلطة يومذاك. الوالد سامحني في ما بعد، أما رياض الصلح فلم يسامحني.

في ١٩٥١ اقترن ميشال بابنة عمه فيكتوريا فؤاد الخوري التي تتفرع لجهة الأم عن جد بالغ الثراء هو درويش الحداد، الذي عمل ميشال مديرا لأعماله التجارية في العراق ما بين ١٩٥٦ و١٩٥٨. ومن زواجه أنجب ثلاثة أبناء تتراوح أعمارهم بين الخامسة والثلاثين والأربعين، هم مالك، مهندس البوليتيكنيك الذي تخرج من زوريخ في سويسرا ويزاول التجارة فيها، ومنال الطبيبة التي تعمل في تولوز بفرنسا، وميشال هي أيضا طبيبة وبيولوجية

طريق السياسة المعاق

دخل ميشال الخوري الحياة السياسية مع عهد الرئيس فؤاد شهاب الذي اتصل بالشيخ بشارة الخوري وقال له: أريد منك ميشال للسياسة.

لكن الرئيس الأسبق حبيس الكسليك كان حاضر الجواب: هذا يخلق مشكلة بين ابنائي. خليل هو الكبير وهو الذي يجب أن يعمل في الحقل السياسي.

وهكذا كان وخاض خليل انتخابات عاليه في ١٩٦٠ على لائحة المير مجيد ارسلان، وفاز، وتكرر فوزه على اللائحة نفسها في ١٩٦٤ و١٩٦٨.

في تلك المواسم الانتخابية كان ميشال، بحسب روايته، يشارك أخاه نشاطه الانتخابي.
صحيح انني لم أخض الانتخابات بصورة مباشرة، يقول، لكنني كنت دائما أعمل لصالح اللوائح الدستورية حتى قبل أن أعمل في معارك خليل. هذا ما كان يقودني الى مناطق لبنانية نائية كالهرمل والشمال.

على أية حال كلف ميشال في العهد الشهابي القيام بمهام سياسية واقتصادية في الداخل والخارج، فكان الى جانب شارل حلو، بين مؤسسي «المجلس الوطني لانماء السياحة» الذي انشىء في العهد نفسه. وحينما تولى حلو رئاسة الجمهورية في ١٩٦٤ انتقلت رئاسة المجلس الى ميشال الخوري الذي كان يعمل أيضا ومذاك رئيسا لمجلس ادارة البنك اللبناني ـ الفرنسي.

وفي ١٩٦١ ومن وحي بعض الأجواء التنموية للشهابية ولغتها الانشائية الفخيمة، شدد الخوري في محاضرة له في «الندوة اللبنانية» على ان المجتمع اللبناني غني بألوانه المختلفة، لينتهي الى القول «ان الطائفية تشكل أكبر حاجز في وجه التقدم، لذلك يجب الغاء هذا الحاجز اذا كنا نريد للبنان أن يتقدم ويدخل عصر الخلق والابداع والروائع».

بيد أن أهم التأثيرات التي خلفها العهد الشهابي على ميشال الخوري هي خوضه ميدان المشاريع والاقتراحات على النحو الذي استمر في عهود لاحقة. وبين تلك المشاريع واحد لجعل لبنان مركزا عالميا للتوثيق ودراسة علم الانسان مقره في جبيل، وآخر لاقامة مركز لقاء واجتماع للشبيبة بالتعاون مع الأونيسكو مقره في طرابلس، وثالث عن اللامركزية هدفه ازاحة التوتر عن علاقات الطوائف، ورابع يتناول اشراك الدولة في نشاطات القطاع الخاص بما يحل التوازن بين عمل القطاعين، وخامس بصدد استثمار المشاريع السياحية لاحظا حق الدولة في استملاك الأملاك الخاصة الصالحة للسياحة، وسادس محوره انشاء مراكز استراحة سياحية في المناطق البعيدة عن مناطق الاستثمار التقليدي للقطاع الخاص، فضلا عن وضع مخطط عام للسياحة يطبق تدريجيا، ومشروع لشاطىء صور السياحي، ومشروع لتحويل جبل الشيخ مركز اشتاء واصطياف، ومشروع لتجهيز مغارة جعيتا، وواحد لتعليم السياحة مهنياً.

ولئن اتجه معظم هذه المشاريع نحو السياحة نظرا لظهورها ابان عمله في المجلس الوطني لانماء السياحة، الا ان الواضح اتسامها بميزتين أخريين، احداهما هم التنسيق بين عمل القطاعين العام والخاص، والثانية هم مد الرأسمالية الخدماتية بما يتجاوز الرفعة البيروتية والجبلية، وبالتالي الحفز على اطلاق تطور رأسمالي في الأطراف.

نسأل ميشال الخوري عن توفيقه بين ميشال شيحا المعارض لتشريع الدولة في ميدان النشاط الاقتصادي، وبين فؤاد شهاب العامل لادخال درجة من الضبط والتنظيم على العملية الاقتصادية.
ليس من فوارق كبيرة، يجيب. المسألة مسألة ازمنة. شهاب كان من المتحمسين للمبادرة الفردية لكنه كان مناهضاً للفوضى والاجحاف. كان معجباً بميشال شيحا وكتبه كانت على طاولته.

في عهد شارك حلو انيطت بميشال الخوري وزارة السياحة والتصميم العام في حكومة رشيد كرامي التي شكلت في كانون الاول ١٩٦٦، فضلا عن استمراره حتى ١٩٧٢ في رئاسة المجلس الوطني لانماء السياحة. وكان لهذه الادوار ان وضعت وجهه في دائرة الضوء

على اية حال فالعام ١٩٧٢ كان حاسماً في حياة الشيخ ميشال. آنذاك انسحب شقيقه خليل من المعمعة الانتخابية لصالح بيار حلو، جامعاً امتعته ومتوجها الى موناكو حيث صديقه وشريكه الامير رينييه. اما الخطأ الذي رافق الانسحاب، بحسب ما يروي مقرب من بيت بشارة الخوري، فهو انه لم يربط بترشيح ميشال عن قضاء الشوف اذ كانت اللائحة الارسلانية في عاليه لائحة تحالف وائتلاف مع كمال جنبلاط.

بعد انسحاب خليل، كما تمضي الرواية، اخطر الشيخ ميشال كمال جنبلاط بعزمه على الترشيح، وكانت تجمع بين الرجلين صداقة وبعض اهتمامات اصلاحية. لكن جنبلاط الذي لوعته تجربة قطب ماروني شوفي هو كميل شمعون، تخوف من تكرار التجربة مع ميشال الخوري، واكثر ما اخافه امكان انبعاث العصبية الدستورية مجدداً في الشوف وهي التي لم تعدم التأثير والتقليد والمواقع.

وفي الجلسة الحاسمة قال كمال جنبلاط: شوفو عزيز عون اذا كان بينسحب للشيخ ميشال، فأنا لا استطيع التخلي عن فؤاد طحيني وفايز القزي. والثلاثة المذكورون هم المرشحون الموارنة على لائحته. وفهم الشيخ ميشال ان ترشيحه الذي كان قد تقدم به رسمياً غير مرغوب به جنبلاطياً.

وبما لا يخفي الشعور بالمرارة قال المرشح المنسحب انه انسحب كي لا يحرج « شخصنا الضعيف اصدقاءنا »، غامزاً الى ما جرى تداوله منذ ايام والده الراحل: خليل للسياسة اما ميشال فللادارة . انه هادىء وحالم وسط عالم يلزمه الكثير من الصخب والاستعداد لمواجهة الصعاب لزوم الكثير من الواقعية.

إعادة جمع الميراث

كان تخلي خليل عن العمل السياسي وسفره الى الخارج بالغي الأثر على ميشال اذ زالت العقبة الاولى التي حالت طويلاً بينه وبين صورة الوالد، عاملة على تسميره وبشكل حصري في صورة الخال. وفي ١٩٧٢ اصبح ميشال الوريث الشرعي الوحيد، واصبح تالياً مدعوا لأن يكون سياسياً بقدر ما هو معني بالادارة، ولأن يكون ابن بشارة الخوري بقدر ما هو ابن شقيقة ميشال شيحا. وباستعادة الصلة المفقودة عاد التوازن الى الشيخ ميشال كمرشح الى دور سياسي متصدر.

يروي ميشال: عرفت متأخراً فضل والدي علي. كان لي والدان والدي وخالي.

في هذا الزخم الجديد فكر ميشال في ان يعيد الحياة الى اوصال الحزب الدستوري الذي انتقلت اليه ايضاً رئاسته بعد رحيل الشقيق الاكبر. جهز للحزب طابقاً في قصر القنطاري الذي تعود ملكيته لعمه فؤاد الخوري، والد الوزير السابق بيار، برغم اقامة الشيخ بشارة ومن بعده ميشال فيه، وجدد الصلة ببعض الشبان المتفرعين عن آباء دستوريين فيما تردد ان الحزب الجديد سيحمل اسم « الحزب الدستوري الاشتراكي » ويطعم نفسه ببعض توجهات الاشتراكية الديمقراطية الاوروبية، لا سيما منها العمالية الانكليزية.

وبينما راح ميشال يدخل بتهيب مشوب بالتردد حقل العمل السياسي المباشر، اندلعت الحرب بمؤونة تكفي لطي احزاب قائمة، فكيف بمشاريع احزاب لا تتوخى العنف ولا تتوسله.

ووجه الخوري رسالة الى اللبنانيين في ١٩٧٥ بمناسبة عيد الاستقلال الذي كانت الحرب تتناهشه وتحيله جثة بلا حراك.

فالرجل الذي اضحى ابن ابيه، من دون ان يفقد كونه ابن شقيقة خاله، اراد ان يحتل منصة الأب في مناسبة يعزي نصف الفضل فيها الى بشارة الخوري. في تلك الرسالة دعا ميشال الى ايجاد ميثاق وطني جديد يتم معه الخروج من الازمة، ليخطو في آذار ١٩٧٦ خطوة اخرى الى الامام في اتجاه استكمال صورة السياسي الذي تبلورت تصوراته عن البناء الوطني تبلورها عند الوالد المؤسس. فقد صرح ان « الوثيقة الدستورية » اكثر تخلفاً من دستور ١٩٢٦، ليرحب من ثم بالمبادرة السورية ويعلن ان حزبه لم يشارك في الحرب، مؤيدا العلمنة من حيث المبدأ، ومعارضاً التقسيم من دون رفض التمثيل النسبي كمنطلق محتمل للاصلاح السياسي.

بعد ذلك غاب ميشال الخوري مع من غابوا ليعاود الظهور سريعاً في ١٩٧٨ بعد تعيين الرئيس الياس سركيس له حاكماً لمصرف لبنان المركزي. خلال توليه الحاكمية كانت الظروف المحيطة افضل، من دون شك، مما تلاها، لكنه اسهم بدوره في حفاظ الليرة على قوتها والحؤول دون انعكاس الحرب عليها حتى اذا ازف العام ١٩٨٣ قدم استقالته وآثر الاقامة في باريس، بينما رددت دوائر صحافية ان ثمة خلافات صامتة بينه وبين الرئيس الجميل خصوصا بصدد مشتريات السلاح.

تقول لميشال الخوري في جلسة الدردشة الطويلة في فندق بريستول ان ثمة من يأخذ عليه موافقته على شراء السلاح. يجيب بمطالعة قانونية طويلة مؤداها ان الحاكم لا يستطيع ان يرفض طلباً كهذا من رئيس السلطة التنفيذية، وان كان في وسعه ان يقترح ويبدي الرأي. ويبتسم بسمة يفهم منها انه ليس من صنف الذين يطنبون في شرح ما اقترحوا وابدوا.

في ١٩٨٢، إبان الاجتياح الاسرائيلي، يروي صحافيون كانوا يترددون على فندق « بريستول » انهم غالباً ما كانوا يلتقون في مطعم الفندق وعليهم علامات التعب والاجهاد، برجل بالغ الاناقة هادىء الاعصاب هو ميشال الخوري، مصطحباً معه مربيته المسنة، كما لو انه يستعيد في ازمنة الحرب والخشونة نعومة وسنوات طفلية اولى سابقة على تجشم السياسة وتنافس الاخوة.

وميشال الوديع لا يكف عن الايحاء بان خيطاً قوياً ما لا يني يشده الى دفء الطفولة.

والراهن ان الخوري لم يبرح المنطقة الغربية يومذاك، متنقلا بين الفندق المذكور ومكتبه في حاكمية مصرف لبنان، من دون ان يترافق هذا البقاء مع اية اشارة او اي تذكير لاحق. فمن شروط التقليد وجود رصانة تترك للبسمة ان تنوب عن كلام كثير، علماً بسيطرة صاحبها عليها بما يزيل كل اثر للافتعال.

ومن قبيل هذه الرصانة يتحاشى الخوري في حديثه ان يستعمل اسماء السياسيين اللبنانيين أو السوريين كما درجت الحال في سنوات الحرب الأخيرة. فانت تسمع منه الاسمين الأول والثاني للسياسي، موفقاً أحياناً بذكر منصبه الرسمي، لكنك لا تسمع على الاطلاق أبو فلان وأبو فلان.

آراء وملامح

ميشال الخوري طويل، ضعيف معتدل في ضعفه. يشبه نائب الرئيس عبد الناصر زكريا محيي الدين كما يشبه القيادي الناصري المصري محمد فايق لكنه يختلف عنهما في بعض تفاصيل وجهه الاميل الى الشكل الروماني، وخصوصاً الانف. الشعرات البيضاء والرمادية المسبسلة تسور من الخلف رأساً اصلع يميل كله الى الانحناء عند الاستماع الى كلام شخص آخر، فيما يصار الى تركيز العينين المقيمتين تحت حاجبين رفيعين قصيرين كأن يداً امتدت الى اطرافهما واعملت النتف والتشذيب.

البسمة المتكررة تحملها اسنان اربعة في الفك الاعلى فيما تنغلق الشفاه على سائر الفم بما يذكر ببعض دعايات « اسبرو » القديمة. لكن البسمة المهذبة كفيلة باقناعك انها هي حدود الفرح الاخيرة، فالرجل لا تتخيله يقهقه، ومعه تحس ان الزمن لا يقرب المسافات كثيراً. وحين يتحدث الخوري يلجأ وبهدوء الى اصابع طويلة رفيعة تشبه اصابع عازفي البيانو، وبين الفينة والاخرى يلبس كلامه صوتاً مشوباً ببحة عميقة يشبه صوت الشيخ بيار الجميل.

الحديث عن الكتب وفيها لا يغيب عن الجلسة. الشيخ ميشال يروي بحسرة ان مخطوطة الجزء الرابع من « حقائق لبنانية » أكلتها يد الحرب، بين ما اكلته، في القنطاري. فالشيخ بشاره، بحسب رواية نجله، كان قد خط مئات الصفحات لتكون « نظريته » في الحكم وتأويله لما قام به، بعد ان اقتصرت الاجزاء الثلاثة الاولى على سرد روايته السياسية.

والشيخ ميشال الذي يقول انه يحب قراءة التاريخ والسياسة، ذكر انه قرأ مؤخراً « بيريسترويكا » غورباتشيوف الذي اثار اعجابه، لكنه استخلص، بما يثير قدراً من الاستغراب رغم شيوع مثل هذا التأويل في بعض الاوساط، ان نجاح غورباتشيوف سيؤدي الى عزلة اميركا في العالم الثالث.

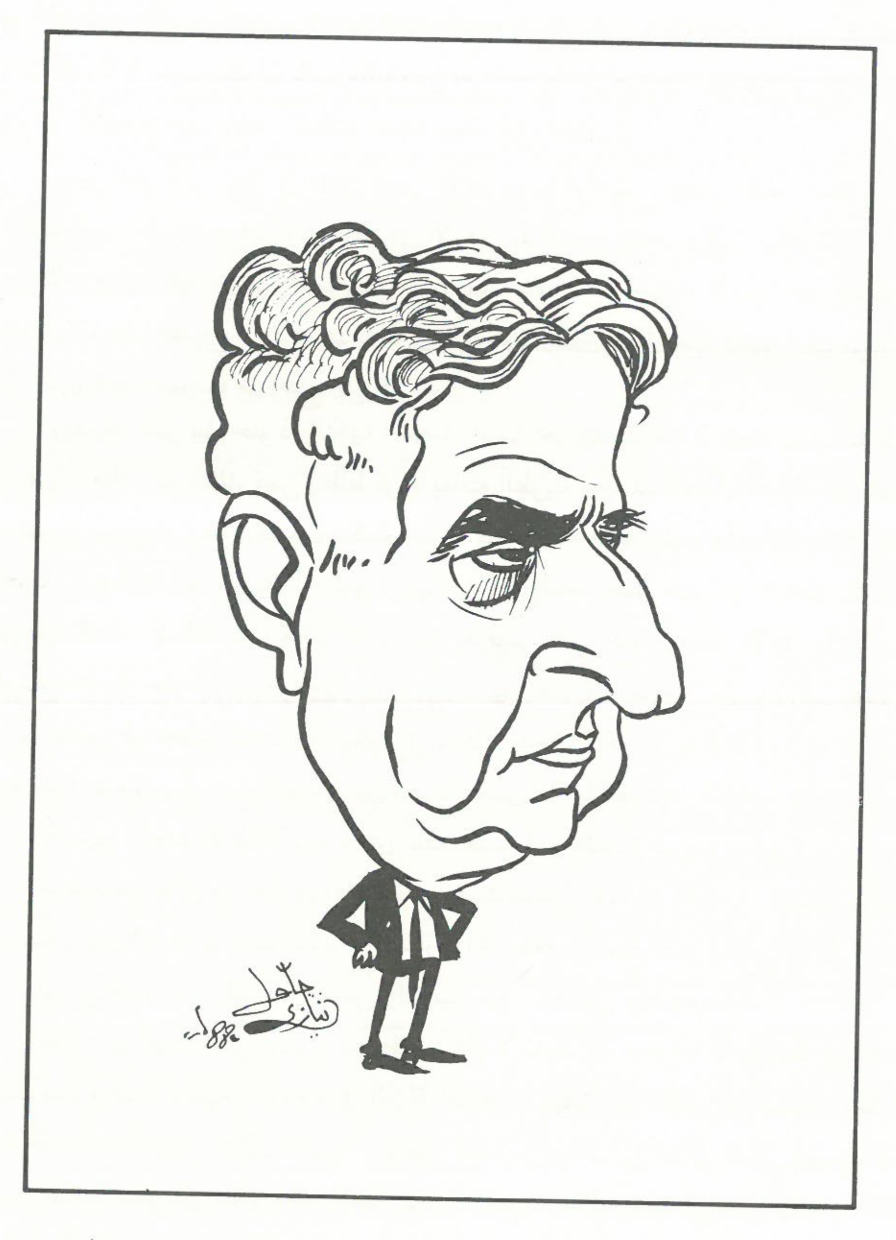
يبقى ان ميشال الخوري وريث التقليد المتوازن ما بين اسلام ونصرانية، وما بين تشريق وتغريب، وما بين ريف ومدينة. متمسك بالنظام الطائفي لان المجتمع لم يطلع بعد ما يتجاوزه تمسكه بالوجه العربي للبنان الذي يبدأ بسوريا ليتعداها الى سائر العرب وخصوصاً مكامن المصلحة اللبنانية في المال والاقتصاد.

هو ليس معجباً بالطوائف خصوصا وان الطوائف في رأيه اعطت السياسة اسوأ ما عندها،

لكنه ليس مستعداً للانقلاب عليها من منصة السلطة، خصوصاً وان الحرب كرست وجودها بما لم يسبق له مثيل. بيد انه شديد الاستعداد للموافقة على اصلاحات تدريجية كأن يصار الى ايجاد مجلس مهني واجتماعي يوازي مجلس التمثيل الطائفي ويأخذ بعضا من صلاحياته، او كأن يتم اصلاح الانظمة الانتخابية باتجاه تصور اكثر دقة للتمثيل.

في غضون ذلك يبقى الاقرار بالطوائف، طالما انها قائمة وفاعلة في الواقع الاجتماعي، اقراراً ديمقراطياً. اما الانماء للمناطق الطرفية فلا يتزحزح عن تربعه في صدارة اهتمام المرشح الرئاسي الذي قصد دمشق مؤخراً في زيارة لا تزال عرضة لتكهنات كثيرة.

ودائماً يبقى بشارة الخوري ممزوجاً بميشال شيحا، وميشال شيحا ممزوجاً بفؤاد شهاب، ورفيق الحريري ممزوجاً بفؤاد بطرس، وطبعاً تلك الثنائيات الراسخة للمسيحية والاسلام، والغرب والعرب. فالتجديد لا بد ان يحصل، لكنه لا يحصل الا من ضمن التقليد. غير ذلك يعني القطيعة والعودة الى الصفر واللجوء الى القسر والعنف كما كتب ادموند بيرك وكما افصحت سنوات الحرب الاهلية ـ الاقليمية المستمرة.



بيار حلو

بين الفينة والاخرى تطلع من فم بيار حلو كلمة نابية، فيمنحك شعورا انها ليست لعمره. فهو الذي دخل الستين اصغر سنا واشد لطفا بتكوينه من ان يقول هذا الكلام الملصق بشخصه. ليست لعمرك يا حلو. ذلك ان نائب عاليه وابن بعبدا خليط بورجوازي - ارستقراطي مؤصل يثير ميلا الى الابتسام حين يلفظ كلمات العامة بلغة اهل الصالون.

وبيار حلو غير موفق في نطق بعض الاحرف واخراجها. فحين يلفظ، مثلا، كلمة «كيفك؟»، تخال ان حرف الفاء سقط على الارض ولم يجد من يلمه. والسين تكاد تطل من بين شفتيه ثاء، والراء غينا. وعلى العموم فان عربية بيار حلو صعبة احيانا، لا سيما حين يضطر الى استعمال كلمات فصيحة لا يتردد هو نفسه في التشكيك بصحة نطقه لها، فينظر اليك مرتابا من دون ان يزعجه تصويب ما اعوج من كلامه.

ويضيف نطق بيار حلو ذو النكهة الخاصة، سببا آخر يجذبك اليه اذ يجعله يبدو اشد قربا، وهو قريب مثلا. يستقبلك كمن ينطنط فرحا بقامته الطويلة وجسده المعتدل المتروك على عواهنه كجسد لي مارفن او برت لنكستر، تكسو صدره كنزة زرقاء فاتحة اللون فضفاضة قليلا ومريحة للحركة. ويعطيك لطف استقباله شعورا بيتيا اليفا، وارتياحا يعمل حلو على اشاعته بلا توقف ومن دون قصد. يسألك بعفوية عن اقرباء لك يعرفهم. انت اذن في معشر الاهل وفي البيت.

والبيت عند بيار حلو اولا وآخرا وبين بين. وبيت بيار حلو في الحازمية حلو بدوره. وهو، كما يقول، يقضي فيه معظم الوقت حين يكون في لبنان، يتبختر ديكا بين صالوناته وغرفه المتعددة، محاطا بلوحات وكتب لم يتسع الوقت لنتبين منها ما يتعدى اناقتها الظاهرة. فالجلسة طالت كثيرا في البيت الفسيح المتعدد الاطلالات، الذي تلفه جنينة فيها اشجار سرو وصنوبر.

موعدنا مع سائق بيار حلو في قصر منصور حيث سيتولى نقلنا الى الحازمية. السائق ستيني، يقود سيارة كاديلاك فارعة داكنة اللون هي سيارة «الخواجه». رائحة العتق والزمن في كل مكان. بيار حلو من «عصر» ما قبل المرسيدس والـ ب. ام. علامتي جاه وصدارة.

نصل الى البيت الذي يتفرع عن طريق عام لا تلبث ان تنحرف كأنها تهبط في وهدة. والبيت يبدو وحده، مستوحشاً ومغرقا في العزلة. ندخل. ينهض بيار الجالس مع سيدتين احداهما اميرة جلسة اهل البيت. نتبادل التحية. يدعونا للجلوس في صالون مقابل للذي يجلسون فيه. نجلس قليلا. ننتقل الى صالون آخر. هذا الاخير محكم الاغلاق وعلى شيء من الاعتام. ننتقل الى غرفة فيها طاولة طويلة للاجتماعات، وهناك نمكث ونبدأ الكلام.

وجه بيار حلو صارم ومهيب وتتخلله القسوة التي تزيدها ترسيخا تلك الخطوط في جبينه التي تمتد متوازية على مدى الجبين. تتوسط الخطوط ثالولة سوداء تحتها حاجبان غليظان كما في صور رجالات القرون التي انقضت. لكن القسوة سريعا ما نكتشف انها مضللة، خصوصا حين

يضحك بلا تحفظ فيفتر ثغره عن اسنان بيضاء كبيرة وناصعة. ويبدو وجهه كله وكأنه غسل كثيرا فابيض حتى صار يشبه الضوء. اما التعب فيتبدى تعب صبي بالغ في اللعب فأجهد نفسه.

اعلى فكه الاسفل يشكل مع ذقنه مثلثا، رأسه الذقن طبعا، وقاعدته عود يربط بين طرفي الفك، وينفر في الخدّين قليلا على شكل كرتين صغيرتين او ورمين صغيرين متجانسين. العينان خضراوان فيهما بقع حمراء ضئيلة. وفي الفم ثلاثة اسنان ذهبية في الفك الاسفل يكشفها الكلام وبينها الضحك. الانف متقدم والعنق متهدلة. والشعر يشتعل فيه الشيب

دمث، لطيف، خفيف الظل، على شيء من المباغتة التي يسببها ذكاء مشوب بسذاجة، ونضج يسكن ولد فيه. وبيار حلو يتيح لك ان تتجرأ عليه بلا عقد في جلسة تقطعها تليفونات كثيرة، يعتذر عن بعضها ويسهو عن البعض الآخر سهو من بتنا معه «خوش بوش». السفر والشغل محور التليفونات. انه يتهيأ لسفر. وهو كثير الاسفار.

من هو بيار حلو؟

تأملوا كيف يمكن لهذا كله ان يجتمع في شخص واحد
بيار نجل التاجر هنري حلو، ولد في بيروت في ١٩٢٨. العائلة من بعبدا وهي من ملاكيها منذ ٤٠٠ سنة، وقد ظهر فيها احد بطاركة الموارنة البطريرك حنا الحلو (ويبدو ان ال التعريف سقطت مع نزول الفرع الذي ينتمي اليه بيار الى بيروت تخففا وتسهيلا للاستعمال التجاري باللغات الاجنبية).

وسبق ان كان آل الحلو يشكلون ثلاثة ارباع سكان بعبدا، العاصمة اللاحقة لقضاء المتن الجنوبي، لولا ان بعض الفروع غير الاسم العائلي الجامع معتمدا اسم الفرع المستقل. وبقي للعائلة اقارب يحملون الاسم نفسه في جزين ومناطق اخرى.

نزل جد بيار حلو واخوانه الى بيروت في ١٨٦٠ على اثر الاحداث الطائفية التي ادت، في ما أدت الى احتراق البيت الابوي للاخوة، والبيت منذ ذلك الحين عزيز على آل حلو.

شقيق جده الذي نزل ايضا الى بيروت هو والد الرئيس شارل حلو. اما جدة بيار من جهة ابيه فابنة جوزيف خاشو العضو المبكر في جمعية الصناعة، الذي يتحدر من عائلة ارمنية ثرية وصغيرة العدد. اما والدة بيار، ايفون الأصفر، فمن اسرة مارونية تتعاطى التجارة ايضا، وكان والدها، اي جد بيار لامه، احد اكبر تجار سوريا حيث اقام.

وفي ١٩٤٩ تزوج بيار مادلين شيحا، ابنة ميشال شيحا الكاتب والسياسي الدستوري

المعروف الذي كان الشيخ بشارة الخوري قد اقترن بشقيقته، فبات ميشال وخليل الخوري ابني عمة زوجة بيار حلو. وابن عمتها الآخر هو موسى فريج الذي كان والده قد اقترن بشقيقة شيحا الثانية.

ومن ناحية والدة الزوجة، فان اقتران والدها ميشال بشقيقة هنري فرعون احكم الدائرة الدموية كلها في عائلة شيحا العراقية الاصل، التي انتقلت الى بمكين في قضاء عاليه. دينها المال والصيرفة والوساطة. وطائفتها لاتينية. ومع وفاة ميشال الذي انجب ابنتين فقط اندثرت العائلة الصغيرة او كادت.

ولبيار، الذكر الوحيد في بيت ابيه، شقيقة تزوجت من غبريال اده المحامي، شقيق الوزير السابق هنري وقريب ريمون. اما خالته التي اقترنت باحد الخازنيين، فتزوج ابنها فؤاد من كريمة السياسي ورجل الاعمال اميل البستاني، ميرنا.

واذا كانت صداقة بيار حلو والوزير السابق ميشال اده ترقى الى مرتبة القرابة، فهي تعمدت فعلا بالقرابة بعد ان اقترن احد نجلي بيار، وهو المهندس فيليب (٣٣ سنة) بكريمة ميشال اده، ايزابيل. فيما ربطت حلو ببول اده قرابة من نوع آخر هي الشراكة في معمل اجاكس للالومنيوم. وبدورها اقترنت كريمة بيار، ميشيل (٣٨ سنة) بالمهندس نبيل نحاس ابن اديب نحاس، السفير ومدير الداخلية السابق، بعد اتمامها دراسة الترجمة في جنيف.

وهكذا صدر بيار حلو عن برج بابل تتعدد اصلابه وارحامه ولغاته ولهجاته ومذاهبه وتياراته، جامعا الكاثوليكية الى المارونية، والارمنية الى اللاتينية العراقية، والكتلوية الادية الى الدستورية الخورية ـ الفرعونية ـ الشيحية. وفي مقابل هذا التعدد الذي وسم بميسمه الولاءات والانتسابات كلها، كان الثابت الوحيد المشترك هو الوضع الطبقي، الشيء الذي ترك اثره البارز، في وقت لاحق، على الوعي والسلوك السياسيين لنائب عاليه.

وعي ومال

درس بيار حلو في اليسوعية ثم انتقل الى فرنسا لدراسة الرياضيات، فقضى هناك سنتين لان الدراسة في لبنان «بدأت تصير تعبانة» بحسب تعبيره. الا انه عاد في ١٩٤٨ بسبب وفاة والده وجده واضطراره للحلول محلهما في تسيير اعمال العائلة، وهو في العشرين.

بيار الذي توقف عن الدراسة منذ ذلك الحين لم يكن يهتم بـ «السياسة السياسية». كنت اقرأ كثيرا ولا ازال. يقول. اقرأ التاريخ والسياسة.

كيف تدرج وعي بيار حلو انطلاقا من تجربة الحرب الثانية والاستقلال اللبناني؟

اهتمام جيل بيار حلو ووسطه بالسياسة كان يبدو ثقافيا وعاما، وكانت الحرب العالمية الثانية

وما سبقها من تطورات ابرز مصادره. يقول حلو:

تأثر جيلنا ووسطنا بالحرب الاهلية الاسبانية ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩. كانوا يقولون لنا هنا في لبنان ان الجمهوريين الشيوعيين يذبحون الخوارنة والرهبان والمسيحيين. تم تقديم الشيوعية كستالينية فقط. وفي اجواء اليسوعية كان ثمة تعاطف مع فرانكو ومع كل انظمة اليمين التي برزت بوصفها منقذة من الفوضى. الماريشال بيتان في ١٩٤١ كان محبوبا في الجو اليسوعي.

ويمضي حلو شارحاً بشيء من البراءة الكامنة في صفاء نظرته الاجتماعية، من دون ان يستوقفه كثيرا المعنى اللبناني للتخويف بذبح الخوارنة والرهبان في اسبانيا:

وفي الحقيقة، هتلر كانت عنده سياسة اجتماعية جيدة اذ وفر اشغالا لطالبي العمل الكادحين. لكن للاسف انتهت انظمة الحزب الواحد الى القمع والحرب.

ويمضي حلو: في لبنان كانت هناك نقاط استفهام حول مصيره. نحن كنا ضد الطائفية. نعم. لكن المرء لا يستطيع الا ان يهتم بما يحصل في طائفته طالما اننا لا نزال طوائف. هناك الخوف والبحث عن الاطمئنان على المصير. في ١٩٤٣ كنا لا نريد استمرار وجود الجيش الفرنسي، في لبنان. لكن الشكوك كانت تساورنا بصدد قابلية الوجود اللبناني الجديد، الصيغة الاستقلالية الجديدة، للعيش. هل نحن نقفز في المجهول؟ ما هي الضمانة تجاه العرب؟ ماذا لو لم يوجد شخص متفهم كرياض الصلح؟ ماذا لو رحل رياض الصلح؟

الانخراط المباشر في العمل الصناعي والانتاجي هو المختبر الذي تبلورت فيه افكار بيار حلو بدل ان تتبلور في حقل العمل السياسي. فبيار ادار وامتلك سنة بعد اخرى مصنع اجاكس ومعمل لافيكس لمساحيق الغسيل ومعمل دهانات ومعمل خردوات ومسامير ومياه عين الدلبة، فضلا عن الاملاك والعقارات في بيروت والحازمية وبعبدا والتي بيع الكثير منها. وفضلا عن الاحصنة والاصطبلات التي عرف برعايتها، فشارك بيارصبّاغ اصطبله ثم تفرد بملكيته، وزاد عدد الخيل عنده حتى غدا احد اربعة يملكون اصطبلات كبيرة هم، فضلا عنه، هنري فرعون وموسى فريج ومحمد فستق. والاولان قريبا زوجته كما سبقت الاشارة. ولئن باع ايضا الكثير من هذه الاصطبلات والاحصنة، فهذا لم يحل دون بلورته بعض الافكار السياسية عن التعايش انطلاقا من تجاربه في سباق الخيل. ففي مقابلة صحافية اجريت معه في وقت سابق قال:

«انا تعلمت في اليسوعية، فعندما كنت طالبا لم اعاشر المسلمين بكثرة. وارى هذا من النواقص التي اوصلتنا الى ازمة اليوم. فعندما دخلت سباق الخيل هاوياً وكصاحب خيل، وجدت ان الاكثرية هناك من المسلمين فاندمجت معهم. ويمكن القول ان السباق عوض عن المدرسة بعض نواقص مجتمعنا الطائفي. وبصراحة احببت هذا المجتمع واندمجت معه حتى انتخبت في لجان عدة في سباق الخيل، وتعرفت على عائلات اسلامية كثيرة هناك». وبيار حلو الذي يفضل النشاط

الصناعي على سائر اوجه الانتاج، اسس اعمالا في الكويت التي انتقل اليها منذ ١٩٥٢، ومنها العمل في مجال مواد البناء، ثم شارك الشيخ عبد العزيز المحسن الراشد بعض اعماله التجارية، والشيخ صباح الاحمد الصباح مشروع اسطول لصيد سمك القريدس ما بين موريتانيا والخليج، هو الاول من نوعه هناك.

كذلك كانت لحلو اعماله في السعودية وفي العراق حيث مكث حتى ١٩٥٨، وتراوحت الاعمال بين الصناعة وصناعة البواخر والخدمات. وهو لا يزال حتى اللحظة يتفقد اعماله في الكويت مرة في الشهر، فضلا عن تفقده الاعمال الاخرى في العالم العربي، والخارج برغم ادارة نجليه لمعظمها، ومنها معمل ادوية ومستحضرات كيماوية في سويسرا، ومصالح في بريطانيا اذ ان بيار حلو اول شخص غير بريطاني ينشيء منذ ١٩٦٨ صلة بشركة لويدز للتأمين في لندن.

في السياسة: الصدر وجنبلاط

في السياسة لم يعمل بيار، باستثناء تجربة عابرة في ١٩٥١ حين «اشتغل» مع هنري فرعون في معركته الانتخابية في بيروت يومذاك، واستمر لا ينجذب الى أي من الأحزاب برغم اصراره على القول ان لبنان كان يجب ان يتطور حزبيا.

وهو يقول ان عمه ميشال شيحا ربما كان الوحيد الذي لم يختلف معه في حياته، وكان يوافقه آراءه بوجه الاجمال. وهذا ليس مستغربا، باستثناء ان الصهر لا يمكنه ان يكون السياسي الذي يجسد أفكار العم. فهو يشبهه لجهة الغربة كما يشبهه في الاعتدال، من دون أن يشبهه في ادراك كامل أبعاد التركيب الطائفي للمجتمع اللبناني، وما يترتب على هذا التركيب من تعقيد يتعدى «المسألة الاجتماعية» وقدرتها على التأثير.

وبيار لم يعمل في الحقل الصحافي كعمه، ولا الكتابي، برغم مساهمته الى جانب ميشال خوري في اعادة اصدار «لوجور» في ١٩٦٤ بعد ان كانت وفاة ميشال شيحا قد أوقفتها.

على أية حال فالاهتمام بالمسألة الاجتماعية ما لبث ان وطد صداقة حلو بكمال جنبلاط. وهو يرى انه كان من اللازم طرح هذه المسألة قبل الحرب بوقت طويل، لأن الحرب هي نتيجة عاملين في عرفه: المسألة الاجتماعية والمداخلات الأجنبية. وبيار حلو يرى ان اليسار ليس مخيفا وجنبلاط كان «يسحسح لاتخن يساري». وهذا برغم استعماله نعت «اليسار الهدام» مرة لخوفه منه، وغالبا نتيجة عدم تمكنه من اللغة، وبالتالي استعارته لأي كلام دارج وسائر. لكن هل من المعقول، كما يتساءل، ان يصل ايجار الغرفة الى ٥٠٠ ليرة شهريا قبل الحرب فيما يتقاضى العامل ٣٠٠ ليرة؟ يضيف: حين جئت الى السياسة صاروا ينظرون الي كأنني شيوعي. مسألة اجتماعية؟

جنبلاط؟ الصدر؟ ما هذا كله؟

وكمال جنبلاط هو الذي اقنع حلو بأن يرشح نفسه للانتخابات النيابية في ١٩٧٢ على لائحة المير مجيد أرسلان التي يدعمها. ويشرح: جئت الى السياسة كمن يمارس التحدي. كيف أطلع على عاليه وأنا أعيش في بيروت. لكن التحدي الأكبر كان مع جنبلاط نفسه الذي قال له: «أنا كلما مددت يدي الى البورجوازيين أرى انهم يخافون دخول المعترك السياسي. وأنا أتحداك ان تدخل المعركة». طبعا كان حلو بورجوازيا ولا يزال. لكن النصف الآخر للحقيقة وهو ما لم يلمح اليه جنبلاط ولا انتبه حلو «الاجتماعي»، انه يمكنه ان يكون بديل الشيخ خليل الخوري لأنه قريبه، وهذا ما يحول دون خسارة جميع الأصوات في رشميا وجوارها اذا ما تقدم للمعركة فؤاد السعد.

وبعد أن لقي حلو تشجيعا من الرئيس فرنجية توكل على الله وخاض المعركة على لائحة المير التي ضمت فضلا عنه، كلا من توفيق عساف الدرزي وشفيق بدر الماروني ومنير أبو فاضل الأرثوذكسي. وجرت احدى أكثر معارك الاستقطاب الطائفي حدة والماء تجري من تحت أرجل «الاجتماعي» بيار حلو. فتحالف جنبلاط وارسلان جعل الدروز يتحدون حول هذه اللائحة بنسبة ٨٠٪، ودعم كميل شمعون للائحة فضل الله تلحوق وغسان تويني جعل الموارنة يتحدون بنسبة مرتفعة حول هذه الأخيرة. وفازت الأولى بفوارق غير كبيرة. وكبرت مع بيار الذي رأى ان تصويت ٨٠٪ من الدروز له علامة على ضآلة المشكلة الطائفية. وفي البرلمان انتسب بيار الى كتلة المير مجيد، ولم ينتبه. وعندما تقدم كمال جنبلاط ببرنامج «الاصلاح السياسي» اعتبره حلو برنامجا بورجوازياً ديموقراطيا ولم ينتبه أيضا. من أين يؤتى بالانتباه الى الأرض يا بيار؟

والمسألة الاجتماعية كمنت وراء صداقة حلو للامام موسى الصدر. فالصدر كان في منزلة والدي، يقول نائب عاليه الذي رحل والده وهو في العشرين، وتركه غلاما وحيدا يتخبط في دنيا الأعمال ويبحث عن مرجع. وكيف اذا كان المرجع، ولو في زمن متأخر، أماماً مهيباً قادرا على منح الأبوة ومنح ما هو أكثر منها احتضانا.

تعرفت اليه في ١٩٧٣، يضيف، وجمعتني به الصداقة والتقارب الفكري فضلا عن المسائل الاجتماعية. وبسببه حاربني كامل الأسعد بضراوة. كنت في أواخر الليالي اعرج على مقر الطائفة الشيعية هنا في الحازمية. نسهر مع سماحة الامام ونتدارس المشاكل المطروحة والتقريب بين الطوائف. كان يزورني باستمرار ويتصرف في بيتي كما لو في بيته.

وبيار حلو الذي يحمّل «رجال السياسة» مسؤولية عدم تطوير لبنان اجتماعيا وسياسيا، يعود الى الصدر: انه معجزة في الحياة السياسية اللبنانية. لو كان موجودا بيننا لحلت مشاكل كثيرة

عندنا. كان يصلي ويخطب في الكنائس. في كنيسة الكبوشية مثلا.. وقف ضد الاقطاع الشيعي. الشيعي كان يعاني ويموت. قوة طلته. شكله. تأثيره. كان يشرك بالقرار غيره. السلاح معه لم يظهر الا بعد ان ظهر عند الآخرين. لم يلب للصدر أي مطلب من المطالب العادلة والبسيطة فاضطر للتصعيد.

وعندما يتحدث بيار حلو عن كمال جنبلاط يتحدث ذهنيا وسياسيا، أما عن الصدر فذهنيا وسياسيا وعاطفيا معا. صورة الأب لا تغيب. يطلعنا على رسالة - وثيقة بخط يد الصدر حول تشكيل هيئة برلمانية لحركة المحرومين. الاسم الأول بيار حلو. الثاني حسين الحسيني. يستطرد: كل القادرين على توحيد طوائفهم في لبنان قتلوا أو غيبوا: كمال جنبلاط، موسى الصدر، بشير الجميل، رشيد كرامي، كذلك قتل توني فرنجية الذي ادى مصرعه الى تفتت آخر فصل بين مسيحيي الشمال والجبال.

يعود الى الصدر مجددا: كان حريصا على التعايش. على لبنان. متخوفا من توطين الفلسطينيين فيه. أين يتوطنون؟ في مناطق السكن الشيعي.

ما بعد الانتخابات

بين انتخابه للنيابة ونشوب الحرب الأهلية في ١٩٧٥ عرف بيار حلو تجربة الوزارة. لكن المقعد لم يكن سياسيا أيضا. فبعد أسابيع على نجاحه في الانتخابات شكل الرئيس صائب سلام حكومته الثانية في عهد الرئيس فرنجية وأنيطت بحلو وزارة دولة لشؤون الصناعة والنفط ووزارة التصميم العام بالوكالة.

لكن يا لله اي بحر قصده التحديثي الاجتماعي بيار حلو وعاد منه عطشانا. فالحكومة السلامية هذه والتي كانت الى حد بعيد ردا على حكومته الأولى المعروفة بـ «حكومة الشباب»، جاءت تضم أصحاب الأسماء التالية: صبري حمادة وزير اشغال عامة ونقل. مجيد أرسلان وزير دفاع وطني. بشير الأعور وزير عدل. سليمان العلي وزير زراعة. كاظم الخليل وزير عمل وشؤون اجتماعية. جوزيف سكاف وزير موارد مائية وكهربائية، وهي الحكومة اياها التي أقيل منها الوزير هنري اده وكانت سابقة رئاسية خطيرة.

على أية حال كان لبيار انجازه في هذه الحكومة، اذ تم الاتفاق مع حكومة العراق بشأن وضع مصفاة طرابلس في عهدة لبنان، وهو ما أمن للدولة ٢٥٠ مليون ليرة سنويا يومها. والذريعة التي استعملت يومذاك ان «شركة نفط العراق» البريطانية انتهت مدة امتيازها في لبنان. وبرغم ان العقد الأصلي الموقع يجيز لها البقاء ٢٥ سنة أخرى، فقد ربط اعطاؤها ذاك الامتياز بملكيتها لآبار

النفط في العراق. فعندما خسرت تلك الملكية بفعل التأميم، انتهى مبرر استمرار الامتياز في لبنان واسترجعت ملكية المصفاة بسعر كلفتها بعد الاستهلاك المستمر لها.

ضربة معلم. لكن خطورتها انها قد تفاقم الرهان الاجتماعي في عقل بيار حلو. في كافة الأحوال كان لهذا الانجاز ان أعطى اسمه رصيدا ملموسا، فحين افتتح موسم الانتخابات الرئاسية في ١٩٧٦ ظهر من يذكر بالانجاز النفطي. والراهن ان بيار حلو كاد على شعرة، كما يقولون، ان يكون المرشح الرئاسي المجمع عليه يومها.

فالصدر يؤيده بحماس، وكذلك جنبلاط. أما صائب سلام الموصوف بـ «ممثل البورجوازية السنية» وذو العلاقات الوثيقة في السعودية والخليج فلا يتردد في تأييده. وهو بالطبع يحظى بتأييد المير مجيد ارسلان رئيس لائحته وكتلته، ومباركة قريبه الرئيس شارل حلو، من دون أن يعترض عليه الشهابيون من حيث المبدأ.

وحلو يلقى كل تأييد في السعودية بفعل مصالحه هناك كما بفعل صداقته للأمير عبد الله بن عبد العزيز. وهذه العلاقة بالمملكة هي ما دفعت الرئيس أمين الجميل، لاحقا، لأن يرسله الى الرياض مبعوثا عنه في ١٩٨٣ لكي يشرح اتفاق ١٧ أيار للسعوديين ويحل معهم بعض المشاكل الثنائية كالتبادل التجاري الذي تأثر من جراء تسرب السلع الاسرائيلية الى لبنان، وتهريب الأسلحة وتزوير جوازات السفر. ويومها كانت نظرية بيار حلو تقول باستعمال الورقة السعودية للضغط على سوريا.

ومثل السعودية وجد حلو مؤيدين لترشيحه في الخليج والعراق، من دون أن تكون له خصومات في سوريا، أو أن تكون عليه تحفظات من الولايات المتحدة الاميركية.

واليوم، وبرغم اعلان بيار حلو انه ليس مرشحا، ثمة من يقول انه لا يزال نقطة تقاطع نموذجية. لسانه دافىء حيال السوريين، وهو جار السفارة العراقية في الحازمية، وجار «المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى» المهجور في الحازمية أيضا. وغير بعيد عن قيادة الجيش في اليرزة، ولا عن القصر الجمهوري في بعبدا وهو منها. مقيم في جنوبي الضواحي الشرقية المسيحية ومطل على الضاحية الجنوبية التي باتت بعد الحرب شيعية بعد ان كانت مختلطة. ونائب لعاليه الدرزية. وسبحان من يجمع كل هذا الماء وكل هذه النار في قبضة واحدة.

لكن الأوراق كلها لم تنفعه في ١٩٧٦. فالاتفاق الاميركي - السوري رسا على الياس سركيس. وبيار قاطع جلسة الانتخاب ليس لموقف ضد سركيس، بل بسبب الضغوط العسكرية والضغوط المضادة التي تعرض لها مع زملائه النواب في فندق انترناسيونال. وأيام سركيس «ابتعدت ست سنوات عن السياسة»، وهو كان في أمس الحاجة للمزيد منها. صديقاه الكبيران

احدهما اغتيل والاخر غيب. وسركيس، كما يقول هو، لم يكن يثق الا بشلة أصحابه. مع اننا كنا أصدقاء. الله يرحمه.

ربما السبب البعيد يا بيار حذر ابناء الشعب من ابناء الذوات وعزوف ابناء الذوات عن المنافسة.

يضيف حلو: هذا مع انني شهابي بالأصل. كنت أحب شهاب واحترمه كثيرا. لم يستطع ان يكمل رسالته العظيمة. سعى الى بناء ادارة حديثة. خدمة مدنية وتفتيش مركزي الخ. الخطأ الكبير لشارل حلو انه شجع «الحلف الثلاثي».

من بشير إلى حرب الجبل

أيضا وأيضا لم ينتبه بيار حلو الذي أيد الشيخ بشير الجميل مرشحا للرئاسة وتحمس له، كيف يمكن ان يتجه الوعي الاجتماعي الصافي في ظل عدم انضباطه بمعطيات الواقع الطائفي، فيندفع مرة الى هذا الأقصى ومرة الى ذاك. لا هذا ولا ذاك يا بيار لو كانت بورجوازيتنا قوية فعلا، شعبية فعلا، ذات تمثيل فعلي في طوائفها، وقادرة بالتالي على ان تتعصب لدستوريتها، للعبة السياسية، وتقول للمسلحين لا. لقد رفض حلو مبدأ الحسم العسكري وامتهان البرلمان، وتحمس لبشير في الآن نفسه.

يقول: بشير كان املا في التغيير. وقبيل مصرعه وبعد انتخابه كان قسم كبير من اللبنانيين بدأ يشعر ان هذا الشاب أتى للتغيير. وعسكريا كان بشير، ولأنه الوحيد الذي يملك سلطة على «القوات» فهو الوحيد الذي يستطيع انهاء الازدواجية بينها وبين الجيش.

يستعيد علاقته القديمة ببشير: اعرفه منذ كان طفلا. بيت الجميل في حي اليسوعية ملكنا. سنة ١٩٧٤ طلب موعدا مني وجاء معه جان ناصر. قلت لهم جيلكم سوف يستلم. جيلنا انتهى دوره قبل أن يستلم.

يستطرد بشيء من المعاناة: فعلا انتقلنا من جيل ابناء الثمانين الى جيل الثلاثين دفعة واحدة. اين دور جيلنا؟ الحرب غيبت جيلنا. يقولون: نريد رئيسا قويا. ما حدا قوي. أنا قوي؟؟ القوي اما ابن الثلاثين والعشرين واما الزعيم الذي توفي. ابعثوه حيا. بيقولوا قوي قال؟ من منا يملك بندقية؟ نحن يا حبيبي جزء من الأكثرية الصامتة.

لكن بيار يتحدث كثيرا. ويصفن أكثر! واضعا رأسه على كفه أحيانا. يأخذ كل وقته. يتأمل. يرتبك. يتخبط بين فكرتين. يستطرد بلا ضوابط. يضيع الفكرة التي انطلق منها. نكاد نضيع معه. يصعب ضبطه. اللغة جزء من المشكلة، لكن المشكلة أبعد من اللغة طبعا.

بيار حلو ذو وعي مصدوم. ازمة جيله. أزمة طبقته وهي الى حد بعيد شبكة قراباته. وفوق كل شيء حرب الجبل. انها حرب الطوائف اذن. وهو يقول ببراءة مذهولة بما جرى: الصراع الطائفي طغى على الصراع الاجتماعي.

عم صباحا يا بيار. ومن قال ان الاجتماعي يعني الاقتصادي وحده، أو ان الطائفي ليس اجتماعيا تبعا لتركيب بلد معين.

وبيار يقول: اذا أردت ان التقي بناخبي فعلي بخريطة لبنان كلها. هو يجتمع بوليد جنبلاط أو أي زعيم درزي، لكنه لا يستطيع ان يذهب الى عاليه والذين يمثلهم مهجرون. كيف اطلع ومن أمثله لايستطيع؟ المطلوب الرجوع الى الجبل على أسس سليمة. عودة الاتفاق الماروني والدرزي متشابهان كثيرا. بدون الجبل وتعايشه لا يوجد لبنان.

كيف تصرف بيار بعد بشير وحرب الجبل؟

في ١٩٨٥ اتهم بالمشاركة في تأمين الغطاء لايلي حبيقة. انضم الى «التجمع المسيحي للبنان الواحد». يشرح: مسيحي لانه ينطلق من المناطق المسيحية. المهم انه يعمل لوحدة لبنان. كان مهندس هذا التجمع ميشال المر، وضم في عداده خليل ابو حمد وبطرس وسليم الخوري واخرين. المطروح كان الوصول الى اتفاق مسيحي ولبناني مع سوريا. قال حبيقة: انتم، السياسيين، اعملوا وتوصلوا وانا التزم. كيف نقول لا؟ حوربنا من كل الجهات يومها وفرط التجمع بعد شهر ونصف. وهذا ما سمح لحبيقة فيما بعد ان ينفرد في «الاتفاق الثلاثي». كنا نشعر ايضا ان الاجتماعات فيها خصومات وصراع على المراكز. وشعرنا ان هناك تخوفا من ايلي حبيقة خارج دائرة المجتمعين.

نسأل بيار حلو عن رأيه في «الديموقراطية العددية»؟

لا. في ١٨٦٠ كان رجال فرعنا من آل حلو اربعة. الان لا يزالون اربعة.

البرلمان؟ ماذا يبقى من الشرعية لولا البرلمان. نحن حاليا نحل محل الحكومة في المشاريع.

يستطرد مازحا: صداقاتنا في المجلس قضينا في المدرسة ١٠ سنوات وفي البرلمان ١٦.

قبل اشهر قليلة هاجم بيار حلو الحكومة المقاطعة واتهم الوزراء بالتقسيم وحمل على الرئيس الحسيني بسبب دفاعه عن الحكومة.

ما المطلوب في مرشح اليوم؟ تحمل المسؤولية وفرض الحلول اللازمة.

العلاقات اللبنانية ـ السورية؟ كل الدول ستهتم بانتخابات الرئاسة. لكن لسوريا دورا اساسيا. من الغلط تجاهله. مشكلة العلاقات يجب ان تحل ايجابا. ليس عندي تصور خاص. ما اعرفه وجود مشكلة ثقة.

وبيار حلو يلمس ايجابيات: بدأنا الحرب بالقضية الفلسطينية. اليوم لم نعد مختلفين عليها.

كلنا معهم في الضفة والقطاع.

يعود الى الازمة الاجتماعية : الاجماع عليها اليوم بين اللبنانيين. لبنان كله محروم. البرهان الاضرابات والمظاهرات يقوم بها الجميع وتنتهي عند البرلمان. وكذلك انتخابات الاطباء والمهندسين. ايجابيات اخرى على الصعيد الدولي : التقارب السوفياتي الاميركي لا رجوع عنه وله انعكاسات على العالم كله. من نتائجه المبادرات الاميركية في المنطقة. الان افضل من ١٩٨٤ . يومها املونا بالمبادرة الاميركية. اليوم وفاق اميركي - سوفياتي. المهم فصل ازمة لبنان عن ازمة الشرق الاوسط. لكن انا مع فؤاد الترك في قوله ان الاميركان في لبنان اكثر من صندوق بريد واقل من وسيط. انا لا ارى وفاقا قبل الانتخابات. كل ما نستطيع طلبه من الاصدقاء هو حصول الاستحقاق الرئاسي ومن ثم تشكيل حكومة تحكم. هذان مكسبان كبيران جدا. يضيف : ينبغي الوصول الى وفاق يكون ميثاقا جديدا. تعديلات؟ نعم. لكن ليس عندي فكرة. لا اظن ان الحرب كانت لزيادة او انقاص الصلاحيات. ما عندي حلول. اريد ان اقنع ابنتي بالعودة ن من كندا قبل ان اقنع الاخرين.

بالفم الملآن يقول : انا لست مرشحا.

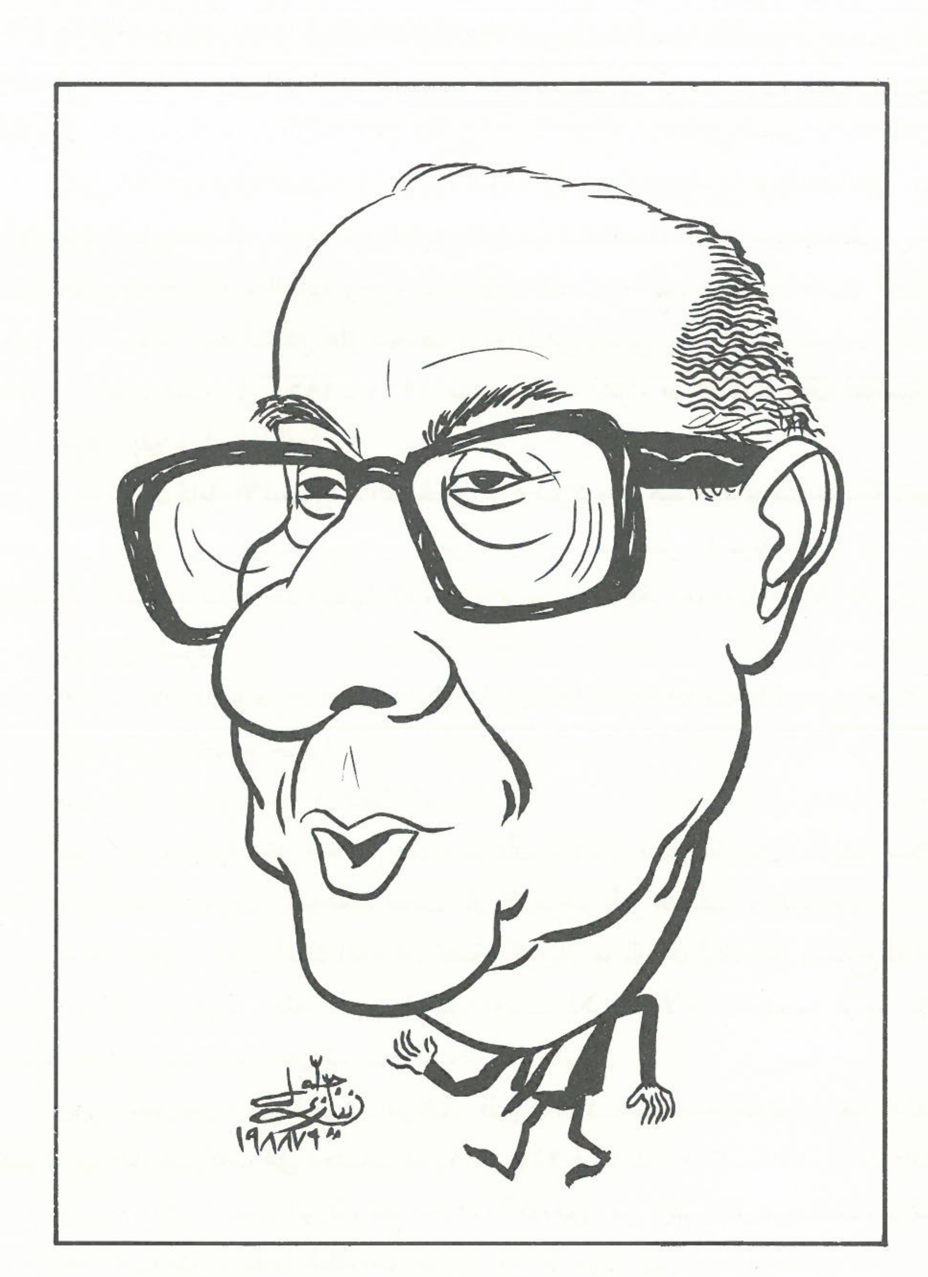
أي رئيس؟ ليس مقبولاً رئيس ادارة الأزمة. ندرس اسماء المرشحين. كتار.

دخلت الحياة السياسية في ١٩٧٢ من باب التحدي كما قلت ؟

احب التحدي . لكن افضل الان ان ارتاح في البيت. لو عندي حلول كنت ترشحت. ما عندي حلول . عندي تحليلات.

بيار حلو الذي بات نجلاه المهندسان اللذان درسا في الولايات المتحدة يأخذان عنه الكثير من اعماله. يرتاح كثيرا هذه الايام. يلح ان الوقت طويل. قاعدين، يقول، حين نهم بالمغادرة. ونحن خارجون نسأله عن لوحة : هذه لعبود عواد. لا اعرف اين اصبح الملعون. ارستقراطي، صديق فنانين، من دون ان يكون «فهيما باللوحات» حسب قوله. «زوجتي افهم مني». وفي مجال القراءة والمتابعة يتحدث بيار بالفرنسية عن المعارف والعلوم والاداب تاركا للعربية عاديات الحياة وصولا الى كسلها وبذاءاتها. فهو في لبنان نادرا ما يقرأ الصحف الاجنبية. حتى المحلية بالكاد يقرأها. كان يقرأ «السفير» قبل منعها، يقول.

صفحات ثقافية ، ما زيادة. ثقافتي فرنسية. اقرأ الكثير بالفرنسية وخاصة حين اسافر. بيغي يورسنار ايكو رغم صعوبة الاخير. اتابع. لكن حين اكون في فرنسا اتابع اكثر بكثير. مؤخرا قرأت كتاب من ٩٠٠ صفحة يقدم تأويلاً جديدا لحياة وادب هوغو من زاوية العلاقات الاجتماعية. هنا «جورة وسخ» يقول. كيف نقرأ؟ السينما والمسرح بكثرة في باريس. هنا سياسة وعلاقات وخدمات و. . . هنا البيت. البيت. البيت. البقاء في البيت افضل.



شفيق بـــدر

ما كاد شفيق بدر يدخل الى البرلمان في ١٩٧٢ حتى ارتبط باسمه الكشف عن احدى أكثر «الفضائح» تأثيرا على مجريات الحياة السياسية منذ الاستقلال، أي ما عرف يوما بفضيحة الكروتال.

يروي لنا نائب عاليه القصة: في خريف ١٩٧٢ ولم يكن انقضى غير ثلاثة اشهر على نيابتي قصفت مدينة النبطية، وجاء تقرير الجيش يقول ان القصف حصل عن علو منخفض. بعد ذلك انعقدت لجنة الدفاع النيابية وجيء بالسلطات العسكرية لتشرح الامر. طلبت الكلام وقلت: طالما حصل القصف عن علو منخفض، فماذا عن وسائل الدفاع؟ قال الضابط: ليس عندنا ما يكفي. قلت: في ١٩٦٨ - ١٩٦٩ عقدتم صفقة لشراء صواريخ كروتال الفرنسية.

يتوقف بدر ويشرح لنا:

- هنا تساءل كامل الاسعد وعبد اللطيف الزين: شو كروتال هيدا؟ انا عرفت بالمسألة لانني كنت وكيل الشركة التي تنتج صواريخ هوك الاميركية والتي عرضتها على الحكومة اللبنانية في الفترة نفسها ولم تأخذها مفضلة اخذ رديفها الفرنسي، برغم انه لم يكن موجودا الا على الورق.

يعود الى السرد:

اضفت: كان المفروض ان تتسلموا الكروتال في ١٩٧٠ - ١٩٧١ فلماذا لم يحصل هذا؟.

قال: لانها لم تصبح جاهزة.

قلت: اذن حصل تأخير في تنفيذ العقد.

يشرح لنا بدر ثانية: كل المجلس بات مهتما بأن يعرف ما قصة الكروتال. صائب سلام قال: نحن نريد ان نعرف. المير مجيد طالب بأن نخطرهم بأمر التسليم او نقاضيهم.

يتحسر شفيق، وكيل الهوك المنافسة: قصة الكروتال مؤلمة لان لبنان غير مسموح له ان يشتري سلاحا غير مجرب. فقط جنوب افريقيا اخذت الكروتال لانها اتفقت مع فرنسا على فبركتها عندها. منذ ذلك الحين شاعت فضيحة الكروتال.

وبقي شفيق بدر رجل الجو في البرلمان. ففي ١٩٧٣ عمل بجد لخفض اسعار تذاكر الطيران عبر حمل الشركات على احتساب الدولار بـ ٢٢٥ قرشا بدل ٣١٠ - ٣٥٠. وبعد ذلك وضع كل وزنه، وهو لا يعوزه الوزن، لمنع طائرات الكونكورد من الطيران في سماء لبنان، برغم ان النتيجة كانت منع بريطانيا الطائرات اللبنانية من الدخول اليها.

نسأل شفيق بدر الذي اعلن للزميلة «الانوار» في ١١/١/١٩٨٨ انه «مرشح للرئاسة على اساس حل الازمة»، عن ارائه في بعض المسائل المطروحة:

■ المشاركة وصلاحيات الرئيس:

- النظام البرلماني الديمقراطي لا يعطي الرئيس صلاحيات مطلقة. السلطة التنفيذية ليست

الرئيس وحده. من هنا نقول ان الرئيس ومجلس الوزراء وحدة تنفيذية. يجب ان يحكم لبنان بمجلس وزراء يرأسه رئيس الجمهورية. التقصير سابقا كان يحصل من رئيس الجمهورية والحكومة. اذا لم يوقع رئيس الحكومة لا يصبح المرسوم مرسوما.

■ العلاقات مع سوريا:

- لا شك... منذ الاستقلال... بلدان شقيقان وجاران. لا بد من علاقات يصار بموجبها الى تحديد شؤون الحدود والامن وضبط المؤامرات، على ان تنحصر العلاقات بالحكومتين. ديغول واديناور برغم حروب فرنسا والمانيا اقاما بين بلديهما علاقات ممتازة...

■ الاتفاق الثلاثي:

- كشكل لا اقبله، لانني لا اقبل ان يوقع احد عني. لكن في الاتفاق الثلاثي ايجابيات، ولو بوشر من كعبه، اي من العلاقات بين سوريا ولبنان لكان مشي الحال.

■ هل من سياسيين شكلوا مثالات...؟

- قد اقول انني معجب بديغول، لكن حالته لا تنطبق على لبنان. لكن حتى ديغول لا يصل الاعجاب به الى كل هذه الدرجة... الحقيقة، ما في حدا.

شفيق بدر المواظب على حضور الجلسات البرلمانية من دون انقطاع هو في الاساس عضو في كتلة نواب عاليه، ثم اضاف الى عضويتها الانتساب الى التكتل النيابي المستقل برئاسة الرئيس كامل الاسعد، ليشارك في تأسيس تجمع النواب الموارنة باحثا عن تجمع نيابي غير منحصر في طائفة واحدة. ومن هنا كان انتماؤه الى الكتلة البرلمانية المستقلة التي ضمت نوابا سنة يعيشون في المناطق الشرقية، وآخرين موارنة معتدلين لكنهم يختلفون عن زملائهم في التجمع في صدورهم عن مناطق تمتد من كسروان جنوبا(فيها نواب التجمع من كسروان شمالا).

في الحازميّه

يفتح شفيق بدر باب بيته في الحازمية، نجدنا امام صخرة مدججة متراصة جانحة الى الطول، ثقبت في اعلاها ووضع سيجار ضخم. كتلة واحدة لم يكتمل صقلها هي شفيق بدر. يعطيك احساسا بالقسوة والغلظة، فينتابك انه قبل زمن غادر قطبا متجمدا وهام على وجهه وتجشم العذاب والمشقات الى ان انتهى به الامر في الحازمية.

حين وقفنا وجها لوجه امامه وامام بابه كان المشهد لا يخلو من الحدة السينمائية. اذ ما كادت ثانية تمر على قرعنا الجرس حتى فتح الباب، كأن شفيق العازب الذي تساكنه شقيقته، يعاني ضجرا اجلسه لصق الباب. لكنه بدا كأنه لم يحرك قبضته لدى فتحه. بدا لتوه تمثالا كاملا لم يتحرك منذ زمن طويل، وفي يده كتاب.

كان شفيق كله ابيض، من رأسه حتى قدميه. القميص بيضاء متروكة فوق البنطول تتخلل

بياضها رسمة صغيرة على جبينها العليا. البنطلون ابيض مع ميل طفيف جدا الى الباج. والحذاء نصفه ابيض ونصفه كحلي.

الاستقبال والملبس يشيان بأن البيت ربما كان مسكونا بغرابة ما. وتروح التفاصيل الاخرى تتداعى وتتلاحق.

فشعر شفيق بدر اجعد، والاصح مكزبر، قصير وقليل من الامام، تعتريه لمعة ربما كان لـ «البريل كريم» اسهامه فيها، وعلى الطرفين ابيض يخترقه الاسود من دون ان يفقده اللمعان الذي لا تخطىء العين اهتمام صاحبه به.

جلدة الوجه قاسية داكنة وتقاطيع الوجه كبيرة، لا سيما منها العينان السوداوان المستقرتان وراء نظارات خشبية كبيرة وتحت حاجبين شديدي التقوس. وإكمالا للتقاطيع الكبيرة التي تستحضر الغموض وتزيد المسافة، تبعا للحال التي وصفنا، يلبس بدر خاتما ضخما في خنصر يده اليسرى، وفي المعصم ساعة مذهبة ومفرغة الحزام الا من الاطار العام وبعض الارزات المذهبة التي فيه، كما يلبس سلسالا ذهبيا يخفي القميص معظمه.

شفيق بدر الذي يشبه جنرالات اميركا اللاتينية بكل المهابة التي ترافقهم لدى اذاعة بيانهم العسكري الأول من على شاشة التلفزيون، لا يفتقر الى الهدوء الذي يبلغ حد السكون، من دون ان يفارقك انطباع بأن هذا الرجل قابل في اية لحظة لان ينقلب تصرفه هستيريا.

وبصوت لا يخلو من مسحة غنج يمكنه ان يتحدث طويلا، لا سيما عن تجربته السياسية، من غير ان يطرأ اي تعديل على نبرة الكلام ووتيرته. وهو مقتصد جدا في التعبير عما يشير الى اتجاهات وميول شخصية فيه، اقتصاده في الضحك القليل الذي يخرج من بطنه فتظهر هوة صغيرة بين سنّيه الاعليين في الوسط، وتهتز قليلا حبة سوداء في ادنى خده الايسر. ومع هذا فهو ينم احيانا عن صراحة ملفتة لا سيما حين يتحدث عن صلته القديمة بـ «المكتب الثاني».

وبيت بدر مرت عليه يد انيقة، وان كانت اناقتها مشوبة بمزيد من غموض اشياء البلدان البعيدة. فالى الثريات الانيقة وورق الحائط الباجي الدافىء والصفار، يمتلىء الصالونان الطوليان الحديثان بتماثيل رومانية صغيرة وعاج وفضيات درج شفيق على حملها معه من سائر العالم، وهو منذ ١٩٥١ يجوب بلدان المعمورة. والى صورتي الوالد والوالدة الراحلين كتاب مقدس مطلي بالذهب ومسدسان قديمان في الحائط، فضلا عما تيسر من زهور وزهور صبير وقساطل وشتل. . . وثلاث سجادات عجمية صغيرة منثورة فوق الموكيت.

الصالونان يفصلهما عن غرفة الطعام باب خشبي فيه اصداف، ولصقهما بلكون يطل على واد سحيق حيث لا يشفى قلب الانسان الا بكثير من الويسكي. ننقل لشفيق بدر اعجابنا بموقع البيت وطلته، فيحدثنا عن «البيت الاصلي»، بيت الوالد، الذي كان في القنطاري. يقول: كان

متحفا لكنه راح في ١٩٧٥. والفيلا التي املكها في عاليه احلى فيلا بعاليه لم اعد اتردد عليها منذ معركة بحمدون.

وشفيق، الذي يتابع بعض اشغاله من مكتبه في بناية الاونيون بالغربية، يعتبر نفسه اليوم مهجرا. ومسألة اخرى ان تتمدد امام بابه في الحازمية ثلاث سيارات اميركية فارعة، او ان في المهجرين ابوابا وطبقات، ولم لا؟

نسأل شفيق بدر ما اذا كان يقرأ، خصوصا وانه حين فتح الباب كان يحمل في يده كتاب جان جاك سرفان شرايبر «الخيار اليهودي»، وقد حدثنا عنه في مستهل الجلسة بوصفه «آخر كتاب صدر في فرنسا»، ولخص لنا بعض الصفحات التي انجز قراءتها:

نعم. التاريخ السياسي.

هل من كتب معينة؟

الحقيقة انني اشقع الكتب ولا اعود اعي.. كتاب ريتشارد نيكسون «الحرب الحقيقية»...

الصحف؟

الوقت... افضّل الاذاعات. بعد الظهر وقبل النوم اقرأ الصحف

سينما؟

لا. لا وقت. افلام الوسترن تسلي. احيانا فيلم هزلي حين اكون متعبا

مسرح، فنون؟

ما عندنا هون مسرحيات..

العائلة، التعليم، القرية

ولد شفيق بدر في عاليه في ١٩٢٦ لعائلة من عين داره مقيمة في بيروت ومالكة في قريتها وفي عاليه. فوالده سليم كان مدير اعاشة في المدينة الاخيرة ابان الحرب العالمية الاولى حين كان القائمقام هو المير عادل ارسلان.

وقد أسست هذه الصلة لعلاقة وثيقة لم تكن معدومة الأصول والمقدمات. فعين داره التي تعيش في محيط مسيحي ـ درزي يدين حوالي ٨٥٪ من أهلها بالمسيحية، نصفهم موارنة ونصفهم أرثوذكس، فيما تقتصر الدرزية على من تبقى. لكن الانقسام الجنبلاطي ـ اليزبكي الذي سرت مفاعيله على مسيحيي تلك المناطق وضع الوجاهة اليزبكية، بحسب شفيق، في عهدة آل بدر ومعهم آل زيتونه الدروز.

وفي المقابل آلت وجاهة الجنبلاطيين الى عائلة عطا الله الدرزية ومعها عائلات مسيحية

صغرى، حتى اذا ما ظهرت الكتلتان الدستورية والوطنية في الثلاثينات، انتقلت «الغرضية» اليزبكية الى الدستورية بينما لم تنجح «الكتلة الوطنية» في ان تؤسس لها وجودا سياسيا موازيا، الى ان انطلق في وقت لاحق كمال جنبلاط جامعا ما تفتت واستحال جمعه.

وسليم بدر برغم وجود روايات أخرى عن حداثة أصله العينداري، هو في رواية ابنه أحد وجهاء وملاكي البلدة التي يكثر بين سكانها الفلاحون ـ الملاكون ممن أثروا من زراعة وتصدير الفاكهة، وخاصة التفاح، ومن بعده الدراق والاجاص والعنب في بساتين وجنينات يبلغ موسمها السنوي ١٢٠ ألف صندوق. ومما أتاح للعينداريين ان يحققوا ما حققوه ذاك الحجم الضخم لخراج البلدة الذي يمتد حتى عميق في البقاع، والباروك في الشوف، وحمانا في المتن الجنوبي.

والدة شفيق من عائلة عيد الصغيرة في دير القمر، والمؤثرة في الشوف عموما تبعا لتوزعها على خمس قرى في اقليم الخروب. وقد اقترنت احدى كريماتها بالمرحوم جورج سرحال، شقيق نائب جزين الحالي الدكتور فريد سرحال وابن اخت النائب الراحل مارون كنعان.

اما شفيق الذي درس المرحلتين الابتدائية والثانوية في فرير الجميزة، فنال في ١٩٥٠ اجازة الحقوق من الجامعة اليسوعية لينتقل الى باريس بموجب منحة من منظمة الامم المتحدة. والعامل الذي املى اختياره ان الحكومة اللبنانية عهد ذاك كانت تبني مطار بيروت الدولي وتنوي تخصيص بعض الكوادر العليا في الطيران المدني. وتوجه شفيق الى فرنسا ومنها الى الولايات المتحدة وبريطانيا حيث درس ادارة وتنظيم الطيران المدني وقانون الطيران باشراف منظمة الامم المتحدة للطيران المدني، حتى اذا اتم تخصصه اواخر ١٩٥٢، عين مديرا اداريا للطيران المدني فيما شغل الادارة الفنية صديقه سامي شقير.

ويقول بدر انه استنادا الى دراسته، طلب من شركات اميركية للطيران وفبارك طائرات ان يكون مستشارا اقتصاديا لها، الشيء الذي تعزز في ١٩٥٤ اذ ترك عمله في القطاع العام واستأجر مكتب استشارات بعد ان وفق في ان يصير مستشارا وممثلا في الشرق الاوسط لجنرال ديناميكس كوربوريشن صانعة صواريخ ابولو عابرة القارات، وجنرال اتوميك صانعة الافران النووية للاستعمال الطبي، وجنرال اليكتريك للمحركات النفاثة، ونورثروب كوربوريشن للطائرات المقاتلة، وهيلر هيليكوبتر، وكاديلاك كايج للسيارات المصفحة وغيرها وغيرها.

ويحب بدر، بعد هذا كله، ان يضيف سببا آخر لتركه العمل مع الدولة: انه نظام كميل شمعون يومذاك ونحن عائلة دستورية. الوالد دستوري. يومها كان الشيخ بشارة معزولا.

على اية حال يبقى لنا ان نتكهن بصدد احدى النتائج السياسية التي ربما ترتبت على علاقة بدر بالشركات الاميركية المذكورة. فاضافة الى الاسباب المشار اليها حول علاقته بآل ارسلان

يحتمل ان يكون تبوء المير مجيد تقليديا لوزارة الدفاع ساهم بدوره في توطيد العلاقة بشفيق، المهتم هو ايضا، بحكم المهنة على الاقل، بتوثيق الصلة بوزارة الدفاع والضباط، وفي احدى المراحل «الاجهزة» صانعة القرار.

شفيق في السياسة

حتى ١٩٥٧ كانت الطائرات ومتفرعاتها والمال الذي ينجم عنها هي كل اهتمامات شفيق بدر. فهو لم يتعاط من السياسة بحسب روايته الا بعض الأمور المحلية الضيقة في معرض مساعدة والده على فض نزاع أو تأمين خدمة بسيطة.

مدخله الى السياسة كان حجم عائلته وافتقار منطقة جرد عاليه لأي تمثيل سياسي كما سيظهر لاحقا. فآل بدر عائلة مارونية كبيرة في بلدته عين داره وفي ذاك الجرد المعروف بمنطقة «العرقوب»، وهي طبعا غير العرقوب السني في قضاء حاصبيا ـ مرجعيون.

في ١٩٥٧، سنة دخول بدر الى المعترك، كان لبنان لا يزال مقسما الى دوائر انتخابية مصغرة، وكانت عين داره ضمن دائرة بعقلين ـ العرقوب الانتخابية التي تتمثل بثلاثة نواب، درزي وماروني وكاثوليكي هم في برلمان ١٩٥٣ ـ ٥٧ كمال جنبلاط وهنري طرابلسي ونعيم مغبغب.

تلك السنة، وبحسب رواية بدر، طلبه المرحوم كمال جنبلاط لدى تأليف اللوائح وسأله ان يكون عضوا في لائحته. اما السبب الاخر للاختيار فيكمن في انتساب بدر الى الدستورية المعارضة للشمعونية فيما كان كمال جنبلاط يخوض احدى اشرس معاركه مع الاخيرة.

وبعد الاتفاق مع جنبلاط، فوجىء بدر بان الزعيم الدرزي استبدله بامين السعد، وهو من عين تريز الواقعة خارج دائرة بعقلين ـ العرقوب، فيما كان الماروني على اللائحة الشمعونية النائب هنري طرابلسي من دير القمر التي هي ايضا خارج الدائرة. وتعود اسباب الاستبدال، بحسب بدر، الى ضغوط مارسها آل السعد وهم حلفاء تقليديون لآل جنبلاط، بما جعل اللائحة تستقر على الشكل التالي: جنبلاط، السعد، سالم عبد النور، في مواجهة قحطان حمادة ونعيم مغبغب وهنري طرابلسي.

بعيد ذلك اتصل شمعون ببدر وقال له: انت شفيق ولا تقول لي انك تريد ان تترشح.

ولما كانت عين داره لا تزال محرومة من الخدمات، وخصوصا الماء، اضاف شمعون: سأعطيك مرسوما بالماء والكهرباء لعين داره مقابل ان تنسحب من هذه الانتخابات وتجمع عبر الخدمات رصيدا للانتخابات المقبلة، وبما ان شفيق بدر، وبسبب احباطه مع جنبلاط، كان قد قرر الانسحاب، فانه لم يجد حلا اخر غير التوصل الى الاتفاق مع شمعون وتوجيه اصواته لصالح

اللائحة الشمعونية.

بدورها راجعت اللائحة الجنبلاطية حساباتها عشية الانتخابات فوجدت انها ستخسرها لسببين: الأول وجود شمعون في رئاسة الجمهورية، والثاني عزوف عين داره عن تأييدها.

وقام كمال جنبلاط بزيارة والدة شفيق ووعدها باصطحابه على اللائحة في الدروة المقبلة، لكنها اكدت له، بحسب رواية نجلها، انها لا تقبل استعمال ابنها كما لو كان رجل كرسي. وطفق مؤيدو جنبلاط يبحثون عن بدر في الليلة السابقة على موعد الانتخابات لاجئين الى الدستوريين علهم يؤثرون عليه. وجاءه من يقول له: صديقك سامي شقير معو كريزا وطالبك.

وبسرعة توجه شفيق الى بيت شقير الذي هو «مثل خيي» ليجد ان الأمر ليس كذلك. وفي بيت شقير حيث كان يوجد خليل عبد النور، شقيق المرشح سالم، قيل لبدر ان المعركة محتدمة ورغبة الشيخ بشارة هي ان تصوت عين داره لجنبلاط. لكن شفيق اصر على الرفض لأنه اعطى قوله لشمعون. وفجأة ظهر ان كمال جنبلاط موجود في مكان آخر في البيت: تواجهنا ووضعته في الصورة، سألني: برأيك كم آخذ في عين داره، قلت: حوالي ١٠٪ ضحك بشيء من الاستهزاء، وقال: بعدك جديد بالسياسة عين داره لي. لكنه اخذ ٨٪ وكتبت جريدة «النهار» ان جنبلاط خسر عين داره والانتخابات بسبب استدباله ابنها شفيق بدر بأمين السعد.

منذ ذلك الحين وجد شفيق نفسه في المعمعة، راح يلبي الخدمات ويجر الماء الى عين داره، وقد تيسر له ذلك بفعل ما اتاحته الصلة المستجدة بشمعون.

انتخابات ، انتخابات

ابان احداث ١٩٥٨ مكث شفيق بدر في بيروت لكنه لم يكن بعيدا عن عواطف اهل قريته عين داره، خصوصا وان المير مجيد ارسلان الزعيم اليزبكي ـ الدستوري، كان في صف الرئيس شمعون. وهكذا بادر سكان القرية الى قطع الطريق التي تصل بين الشوف وعاليه والحيلولة دون وصول «الثورة» الجنبلاطية الى المنطقة الثانية لجهة كثافة التجمع السكني الدرزي.

ومع انتهاء الحرب الأهلية ومصرع النائب الكاثوليكي الشمعوني نعيم مغبغب اجريت انتخابات فرعية شهيرة في بعقلين ـ العرقوب كان المتنافسان فيها سالم عبد النور مدعوما من جنبلاط والسوري القومي الاجتماعي انعام رعد مدعوما من شمعون ومن حزبه طبعا، وصوتت عين داره لابن عين زحلتا في الدائرة نفسها، انعام رعد، الذي لم يرافقه النجاح. لكن العهد الشهابي الجديد ما لبث ان اجرى تعديلات انتخابية كبيرة طالت رفع عدد النواب الى ٩٩، فضلا عن اجراءات ضم وسلخ ودمج للدوائر الانتخابية، فقد سلخت عين دارة واغميد وبمهريه والعزونية ومريجات الحرف عن دائرة بعقلين ـ العرقوب الشوفية وضمت الى دائرة عاليه في مقابل

فسخ الدامور عن الأخيرة ودمجها بقضاء الشوف، وهذا ما ناسب كمال جنبلاط في تقدير بدر لأنه تخلص من عين داره علما بانه «كسب» الدامور ذات الأغلبية الشمعونية.

شفيق بدر الذي لم يسبق له ان انتسب الى حزب او تعاطف، ما خلا الدستوريين لأن «الأحزاب طائفية» في عرفه، ربطته علاقة جيدة مع فؤاد شهاب، «لأنني مشيت مع الجيش» كما يقول.

الى ذلك وجد شفيق ان ثمة عوامل متعددة تعمل لمصلحته. فضم قريته الى قضاء عاليه ملائم له لأنه من ملاكي عاليه وسكانها صيفا. والى التعاطف الشهابي معه، حظي بدر بتعاطف السوريين القوميين تعبيرا عن امتنانهم لمواقفه ومواقف مؤيديه في عين داره في ١٩٥٨ والانتخابات الفرعية التي تلتها.

وكانت رغبة شفيق بدر ان يختاره صديق العائلة المير مجيد احد مارونيين اثنين على لائحته في عاليه: الماروني الأول الشيخ خليل بشارة فليكن هو الثاني.

لكن صداقة المير لا تكفي، فالمطلوب لذلك الحصول على موافقة كميل شمعون. خصوصا وان «منطق» اللعبة الانتخابية في عاليه (نائبان درزيان واثنان مارونيان وارثوذكسي) يقول التالي: كلما تحالفت قوتان من اصل ثلاث في لائحة انتخابية واحدة كان الفوز من نصيب هذه اللائحة، والقوى الثلاث المشار اليها هي المير مجيد وكميل شمعون وكمال جنبلاط.

واذا كان التحالف الشمعوني ـ الارسلاني في مواجهة جنبلاط جزءا من معادلة الحياة السياسية في الجبل حتى ١٩٧٢ على الأقل، فان هذا التحالف لم يخل من خصوصية تعقيداته. فارسلان مثل على نطاق السياسة الوطنية حالة تحالف مع شمعون من دون ان تقطع صلتها بالنبع الدستوري في الكسليك حيث الشيخ بشارة، ولا بامتداد هذه الدستورية في الشهابية التي اعادت الى الحكم «ابناء عمنا الأمراء» كما كان يقول المير.

هذا الموقع الذي احتله المير مجيد في تحالفه مع شمعون جعل الأخير حريصا على ان يكون المرشح الماروني الثاني شمعونيا قحا، وليس خليطا شمعونيا ارسلانيا دستوريا شهابيا كما هي حال شفيق بدر.

لهذا اصر رئيس الجمهورية الراحل على ان يكون ابن الكحالة اميل مكرزل هو الماروني الثاني على اللائحة لا شفيق، برغم الوعود التي قطعها للأخير الذي اضطر الى خوض المعركة منفردا وبالتنسيق مع مرشح منفرد آخر عن الروم الأرثوذكس هو السوري القومي الدكتور جورج صليبي.

وفيما ضمت لائحة المير كلا من فضل الله تلحوق الدرزي ومنير ابو فاضل الأرثوذكسي وخليل الخوري واميل مكرزل المارونيين، ترأس خالد جنبلاط اللائحة الجنبلاطية المقابلة التي

ضمت عن الموارنة سليم حبيقة وميشال شبلي. وبرغم حدة الاستقطاب نجح بدر في ان ينال ٦٨١٢ صوتا هي حصيلة الجمع بين مؤيديه واصوات السوريين القوميين.

لم اعد استطيع التراجع يقول شفيق بدر، فرحت اقدم المزيد من الخدمات لأهل قريتي ومنطقتي، وقد وجد بدر خير معين في الادارة الشهابية والشعبة الثانية اللتين وفرتا له تسهيلات في مجالي الخدمات وفض النزاعات المحلية من دون ان ينسى الاستدراك: انا لم اصبح شهابيا لكن الدستورية والشهابية متقاربتان.

وفي انتخابات ١٩٦٤ حيث بلغ التدخل الرسمي ذروته، ساهمت الشعبة الثانية في تأليف اللائحة المناهضة للمير مجيد على امل اسقاط اثنين من لائحة الأخير هما العضوان الشمعونيان اميل مكرزل وفضل الله تلحوق. طبعا لم يكن المقصود اسقاط المير نفسه لأن عملا كهذا يخل بالتوازن الدرزي - الدرزي ويكرس الاعتراف بكمال جنبلاط زعيما درزيا اوحد، فضلا عن انطوائه على مجافاة كبيرة لواقع الحال الشعبي. وضم شفيق بدر الى اللائحة التي يترأسها المحامي التقدمي الاشتراكي الراحل شكيب جابر، فنال ٩٣٩٨ صوتا، لكنه مع هذا لم يستطع اختراق القاعدة الذهبية لقضاء عاليه: كل تحالف بين قوتين من اصل ثلاث هو تحالف فائز، وبطبيعة الحال يبقى التزوير الانتخابي في دوائر الجبل الأقرب الى بيروت اصعب واقل احتمالا منه في الدوائر البعيدة عن المركز كالهرمل وعكار، وحتى الشوف.

في ١٩٦٨ وعشية الانتخابات العامة احس المير مجيد بأن عضو لائحته تلحوق ومكرزل يزدادان بعدا عنه، فالسنة هي سنة «الحلف الثلاثي» والانقضاض على الشهابية، وسياسة التوفيق بين الشمعونية والشهابية التي كانت مقبولة من المير قبل ذلك لم تعد مقبولة في الظروف الجديدة.

وبحضور شفيق بدر والمرحومة زلفا شمعون والأميرة خولا ارسلان في قصر السعديات طلب المير من الرئيس شمعون تشكيل لائحة يحل فيها شفيق بدر محل اميل مكرزل، فكان جواب الرئيس الراحل: شفيق من عيني، لكن محل خليل الخوري وليس محل اميل مكرزل، وبدوره اجابه المير انه لا يستطيع التخلي عن نجل الشيخ بشارة، فقال شمعون انه هو ايضا لا يستطيع التخلي عن اميل.

وتبعا لصداقة ربطت والد شفيق بدر بالسياسي الراحل حميد فرنجية ومن بعده شقيقه سليمان، تدخل الاخير الضالع يومذاك في الانقلاب على الشهابية لاقناع شمعون وارسلان بالتوافق على بدر. ولما عجز الجميع عن تذليل العقبة طلب المير مجيد من شفيق، ولصون ماء وجهه، ان يعقد مهرجانا شعبيا حاشدا يعلن خلاله ومن موقع قوة انسحابه من المعركة.

ورأى شفيق استحالة ذلك. فالمرشح المنفرد هو الاقوى، ولسوف انزل منفردا، اجاب، بعد ان حصل على نصيحة سليمان فرنجية وزير الداخلية ابان تلك الانتخابات: انزل وبرهن

عن قوتك كمنفرد.

واوعز شفيق لمؤيديه ان يضعوا اسم المير مجيد الى جانب اسمه، العمل الذي كان في محله تماما من دون ان يدري شفيق. فالخطة الشمعونية يومذاك والتي تولى رعايتها مكرزل وتلحوق قضت بايصال المير ضعيفا الى البرلمان او ربما الحؤول دون وصوله اصلا، ولهذا شطب اسمه على نطاق واسع في القرى المسيحية في منطقة الودايا.

في المقابل كان كمال جنبلاط قبيل اجراء الانتخابات احس ان التحالف الشمعوني - الارسلاني في عاليه يعاني الكثير من الصعوبات، فلم يعمد كما كانت الحال سابقا الى خوض المعركة بلائحة كاملة؛ بل اكتفى بدعم خليل خير الله الارثوذكسي وبشير العريضي الدرزي وراجي السعد الماروني، وهو شقيق امين ووالد فؤاد.

وحين تبين ان اصوات الودايا تشطب اسم المير وتضع محله اسم بشير العريضي، راحت الاصوات الجنبلاطية تشطب اسم بشير وتضع اسم المير، مضيفة الى رصيد الاخير كتلة اخرى من الاصوات فضلا عن تلك التي امنها له شفيق بدر.

وظهرت النتائج مساء ذاك الاحد ونجح المير الذي توجه كعادته للجلوس في احدى محطات البنزين في الشويفات، فحين مر عليه شفيق بدر عانقه المير الذي امتدح وفاءه مبديا ندمه لانه اقتنع برغبة شمعون في اصطحاب تلحوق ومكرزل.

في تلك الانتخابات نال بدر ٤٣٩٩ صوتا لا «اكثر من ستة الاف» كما قال لنا.

انتخابات ١٩٧٢

بعد ايام على نجاحه في ١٩٦٨ قام المير بزيارة شفيق وقال له: ستكون العضو الاول على لائحتي في اول انتخابات تجري. وفعلا وفي ايلول ١٩٧١ دعاه المير الى منزله واهداه عباءة بحضور النائب الراحل منير ابو فاضل، قائلا له: نحن الثلاثة نواة لائحة عاليه في السنة المقبلة. الاثنان الاخران، اي الدرزي والماروني، سأرى امرهما مع كميل شمعون. وقد فهم بدر ان المير استبعد اميل مكرزل نهائيا كما استبعد فضل الله تلحوق لكن بدرجة اقل.

على أية حال فالتطور البارز حينذاك كان عزوف الشيخ خليل الخوري عن ترشيح نفسه. فمن جهة أصيب الشيخ خليل بيأس مبكر من الحياة السياسية في البلد فاقم ميله الى الانصراف لحياته الشخصية والمالية. ومن جهة ثانية كانت أموال بيار حلو، الصناعي ورجال الأعمال، كفيلة باقناعه بأن انسحابه لن يكون من دون مقابل.

وهكذا اقترح الشيخ خليل على المير مجيد ان يأخذ قريبه الميلونير بيار حلو، الامر الذي زكاه كمال جنبلاط وهو اول من دفع بيار الى التفكير بمستقبل سياسي. لكن شمعون رفض بيار بحدة

مصرا على اميل مكرزل، فيما كان الميلونير الكتائبي طانيوس سابا يتقدم بدوره الى الحلبة بشخصه ونهجه وماله.

وفيما كان المرشح الارثوذكسي غسان تويني يحاول بدوره ايجاد مكان له على لائحة ارسلان الذي واجهه بالصد لانه لا يتخلى عن ابو فاضل، بدا اختلاط الامور سيد لعبة التحالفات السياسية في عاليه.

يومها ، وبعد اربع سنوات على انتخابات «الحلف الثلاثي» في الجبل، كان كمال جنبلاط يسعى بدأب لان يفك التحالف الشمعوني - الارسلاني في عاليه عاملا على تذكير المير بتجربة ١٩٦٨ وبتزايد المطاليب الشمعونية، وعامدا الى توحيد الصف الدرزي في استقطاب فاعل ينهي الثنائية المديدة للزعامتين الجنبلاطية واليزبكية.

والميل الى اقامة تحالف جنبلاطي - ارسلاني لم يكن يعدم المقدمات. ففضلا عن تحريك الاحتكام الى رصيد المصاهرات العديدة بين العائلتين الارستقراطيتين الدرزيتين حصل على صعيد مشيخة العقل تطور بارز ترك اثاره على مستويات متعددة في الطائفة .فقد جاءت وفاة شيخ العقل اليزبكي رشيد حمادة لتبقي المشيخة لاول مرة منذ زمن طويل في عهدة شيخ عقل واحد هو الجنبلاطي محمد ابو شقرا، فكان للاقرار اليزبكي بوحدة المشيخة دلالاته، بقدر ما كان هذا الاقرار تمهيدا للمزيد من الوحدة.

على اية حال ، فاللمسات الاخيرة كانت تنتظر من يضعها، وواضعها كان الرئيس الراحل رشيد كرامي المسكون باضعاف النفوذ الشمعوني في الجبل. فقد دعا كرامي كلا من جنبلاط وارسلان الى حفل غداء في بيته، فصدرت الصحف في اليوم التالي تقول ان السمكة الحرة في بيت كرامي انشأت الائتلاف الجنبلاطي الأرسلاني في عاليه.

شمعون الذي وقع عليه نبأ الوحدة الدرزية وقع الصاعقة بادر الى تأليف لائحته متوسلا بوحدة مسيحية مقابلة لم يتردد في التبشير بها والحض عليها من خلال جولات شخصية الى القرى المسيحية، مع ان اصرار الكتائب على ترشيح طانيوس سابا ظل ثقبا كبيرا في جدار الوحدة.

وهكذا استقرت اللائحة الشمعونية على فضل اللهتلحوق والسوري القومي عصام العريضي عن الدروز، واميل مكرزل وفؤاد السعد عن الموارنة، وغسان تويني عن الارثوذكس. وبعد ان امتنع نجيب علم الدين اليزبكي عائليا وذو الهوى الجنبلاطي عن خوض المعمعة الانتخابية شكلت اللائحة الارسلانية - الجنبلاطية على النحو التالي : مجيد ارسلان وتوفيق عساف عن الدروز. شفيق بدر وبيار حلو عن الموارنة. ومنير ابو فاضل عن الارثوذكس. وبعد معركة انتخابية لم يسبق لها مثيل في حدة الاستقطاب الطائفي نجحت اللائحة الثانية بفوارق ضئيلة، ووصل شفيق بدر اخيرا الى البرلمان.



داني شمعون

داني شمعون الدمث، اللطيف، القريب الى القلب حين لا يتوتر، كان ليكون افضل جار، او افضل تاجر في الحي، او ربما افضل صديق. لكنه قطعاً ليس سياسياً جيدا. بل ليس سياسياً.

فهو يفهم السياسة، والواقع الاجتماعي الذي يكتنفها، فهم المهندسين. والمهندس اذا اعترضهَ حجر ازاله واذا واجهه نتؤ سواه. والمهندس داني شمعون يريد على هذا النحو ان يزيل ويسوي الطائفية والعائلية في لبنان.

والميكانيكية، او الآلية، هي من بين سائر الهندسة، تكنية عن خلو الادراك من تعقيد الامور وترابطها وافضائها الى وجهة. وهي، تالياً، ميل الى النظر اليها على طريقة كوني فكانت. وعن هذا النقاء في النظر الى العالم المحيط وسائله ينجم لون من مجافاة التحليل والتركيب، يقود صاحبه الى بساطة العداء لكل جهد ثقافي.

داني ومعرفة الواقع

وداني، المهندس الميكانيكي، ينفي تهمة « مناهضة الثقافة » (anti- intellectualism) ضارباً المثل بمشاريع ودراسات لا ينفك عن تكليف الحزب بها. لان « توحيد الوطن » يتم في رأيه عبر مشاريع ودراسات تقفز عن المعرفة بالطوائف والعائلات والمناطق، اي بالواقع الفعلي.

وهذا التوحيد لا يعدم خارجيته وتقنيته الراسختين في عقول المهندسين الذين درسوا وعملوا في الخارج، وظلوا في الخارج حتى وهم في صلب الداخل العميق.

وداني الذي لا يقرأ الصحف الاجنبية حالياً الا حين يكون مسافراً الى الخارج، يستقي متابعته السياسية من التلفزيون والاذاعات. هذا كاف ، يقول. ويضيف: والحزب يقدم لي تحليلات حول بعض المسائل.

تحليلات الحزب يا داني؟ اما من متابعة حتى للصحافة اللبنانية؟

يقول داني، وكلام داني من داني الكلام:

لا احب العيش في جو المؤامرات والثرثرات. تحاليل تحاليل تحاليل. جو مؤامرة. انهم يحللون. يربطون اي شيء باي شيء. ما دخل المشكلة اللبنانية بمشكلة التيبت؟ ليست مرتبطة بها. فهم يبيعون انفسهم للخارج.

داني لا يصلي على النبي حين تختمر الفكرة في رأسه. يقولها داني. والربط بين الأمور، في عرفه، بسيط جداً: الحديث عن الاتصال بين احداث الداخل والخارج يحمله الى الكلام على بيع النفس للخارج.

افكار مفككة يا داني. لكن داني يقولها غير هياب. فيها الزميل الوصي انطوان شويري الذي يشاركنا الجلسة، يبلع ريقه.

ماذا عن الادب والشعر يا داني؟ لا. انا عملي.

سينما؟ مسرح؟ احضر سينما عندما يتوفر الوقت لي. كذلك المسرح.

والوقت طبعا لا يتوفر.

اما من مخرج معين؟ لا.

والفن التشكيلي؟ نعم. العمل الجيد.

وكفى الله المؤمنين.

يقول لك داني بارادية حازمة لا يعادلها الا حسن نواياه: هل ثمة بعد الحرب من لم يوقن بان الطائفية وحروبها شرور ومساوىء؟ وحين تحاول القول ان المسألة تتعدى القناعة واليقين، يعاملك كأنك نصير متحمس للنزاع الطائفي. فاذا ما اتسع المجال للالماح الى تعقيدات الامر، اجابك وقد ضاق صدره: اذن ماذا يطلبون مني؟ ان اغير انا كل هذا. هذا مستحيل.

داني كميل شمعون نجل اكثر سياسيي لبنان سياسية، لم يعش في بيت والديه الا قليلاً. فيوم بلغ العاشرة من عمره نقل الى المدرسة الداخلية لأن الرئيس الراحل كميل شمعون متفرغ للعمل السياسي بالكامل. ومن المدرسة الداخلية انتقل داني الى بريطانيا حيث درس.

لكن عدم اهتمام داني بالسياسة يبلغ حداً يصعب تصوره في سياسي، حتى انه اصم اذنيه عن كل معرفة سياسية ونما نمواً برياً من زاوية الاهتمام بالشأن العام.

فقد صد داني نفسه عن المعارف التي لا يقوى المرء على صدها عن نفسه. فاللعب في القرية ابان الطفولة، مثلاً، يجعل الولد عارفاً ببعض احوال القرية واشيائها وبيوتها ومساحتها، من دون ان يبذل جهداً يتصل بالذكاء او المعرفة. والاستماع الى الاحاديث الدائرة في البيت ابان العطل الصيفية ينقل الى الولد معرفة تتسلل اليه خفية حول احجام العائلات ونوع العلاقات والمنازعات الاهلية. ومع هذا فان شيئاً من هذه المعرفة النواة التي تكتسب بالسمع او الحركة، لم يصل الى داني. فاذا فاجأك بمعرفة على حين غرة، كدت تصرخ: داني، داني، من اين لك هذا؟

وعندما تسأله يقول لك: نعم كانوا يتحدثون في البيت. لكنني لم اكن اهتم بالعائلات وبهذه المسائل. يوحي لك انه يفضل التكوين الاجتماعي والسياسي الغربي حيث انحسر دور النظام القرابي وعلاقاته. تتكل على الله وتقول: اذن نتحدث عن بريطانيا وسياستها يومذاك. يقاطعك: لم اكن اهتم بالسياسة. كنت اهتم بالهندسة والأمور الميكانيكية والرياضة.

وحين تعود تسأله عن العائلات والقرابات في قريته يفاجئه ايضاحك ان السياسة في لبنان وثيقة الصلة بنظام القرابة، ويرد: لا اعرف من يقرب من ومن يختلف مع من؟ وحين تسأله عن المصاهرات بين اسرته واي من اسر التقليد السياسي يقول لا، ثم يتذكر فيقول نعم. ابنة دوري تزوجت ابن اخت الشيخ امين. اسمه سعيد نجيم. اعتقد ذلك. اليس كذلك. اعتقد ذلك.

يبتسم بلطف واستغراب وشيء من وحشته بهذا العالم وهذه الاسئلة التي لا معنى لها.

لكن اذا كان للجهل بالواقع الطائفي من فضيلة، ففضيلته عند داني ضمور المشاعر الطائفية فعلا. فهو بعيد عن كل ما هو محلي لأنه آت من لا مكان ولا نسيج ولا علاقات. انه من النفي الخالص. وصداقاته تمتد من علي غندور ونديم الخالدي الى بهيج حلواني والمرحوم سامي الأعور. ولداني عن طريق عمله في العالم العربي صداقات عربية. فهو، الى الأردن، عمل في السعودية ودبي وسلطنة عمان ما بين ١٩٦٣ و١٩٧٣. وفي مدرسة برمانا تعرف الى أصدقاء سوريين كثر.

الأبوة بين وليد وبشير

ليست مواظبة داني على عدم الاهتمام، وصولاً الى عدم الاستماع، مجرد تعبير عن مزاج شخصي لا سبيل الى فهم علله. فاذا كانت السياسية المبكرة لامين وبشير الجميل ترجمة لرغبتهما في التطابق مع الشيخ بيار، والدهما «الأبوي» الذي اهتم بـ «العائلة» واعطاها ما وسعه من الوقت، وكان حاضراً باستمرار بينهما حضور النموذج وحرارته، فبيت شمعون يختلف اختلافاً ملحوظاً.

ولا يتمالك المرء الا ان يعتقد ان هذا العزوف عند داني هو تعبير عن عزوفه عن الأب اللامبالي به والذي اودعه المدرسة الداخلية مبكراً. والرئيس الراحل لم يرسل نجله الصغير الى المدرسة الداخلية الا لكي يتفرغ لـ «السياسة»، اي لذاك الحقل المنافس للعاطفة الابوية، والحضن البيتي. وهنا مصدر كراهية داني المنظمة للسياسة وكل ما يتصل بها، حتى لا نقول للأب الذي كان هو والسياسة صنوين في نظر داني.

واغلب الظن ان حياة المهندس والمرشح الرئاسي داني شمعون كانت كلها محكومة بهذه المشاعر الأولى. فالاسمان اللذان يتوقف عندهما، هما وليد جنبلاط وبشير الجميل، ولكل منهما قصة ابوية لها عند داني قراءة مختلفة.

فعندما تسأله عن السياسيين اللبنانيين الذين يثيرون اعجابه، يجيب من دون تحفظ ولا تردد: وليد جنبلاط. وعلى شفتي داني ترتسم بسمة وديعة وودودة مسكونة بالاعجاب. فهو على الاطلاق لا يقدم جواباً «سياسياً». انه قطعاً يحب وليد جنبلاط، ويقول بالحرف «احب نبرة وليد. احب وليد». صحيح ان الصلة بوليد جنبلاط تنطوي على معان سياسية لا يرقى اليها الشك تبدأ بالشوف الذي ينتمي اليه القطبان وتنتهي بالمعركة الرئاسية، وطبعاً هناك ما يؤكده داني دائماً من ان اتفاقه مع جنبلاط يؤول الى اعادة المهجرين المسيحيين من الجبل عقلانيا وبالتدريج. لكن الصحيح ايضاً ان المحبة والاعجاب لا ينبعان فقط من السياسة، او انهما لا يتمان ويكتملان الا حين يتوجهما البعد الشخصي في الصلة بين اثنين.

ولوليد جنبلاط الذي ترقى معرفة داني به الى ١٩٧٦ يوم خطفه الكتائبيون المسلحون على طريق الحازمية فتدخل الاخير بامر من والده لاطلاق سراحه، فعل السحر على داني. والسبب ليس بسيطاً على الاطلاق. فالزعيم الدرزي ـ الاشتراكي الشاب ورث اباً كان بدوره احد اكثر السياسيين اللبنانيين فعالية وتأثيراً منذ الاستقلال.

ومع ان وليد لم يعرف بأي هوى سياسي قبل مصرع والده، فان «حرب الجبل» جاءت تضعه في مصاف الزعماء المؤسسين البالغي القوة. بلغة اخرى، استطاع وليد جنبلاط غير السياسي لسنوات قليلة خلت، ان يتجاوز ويبز سياسياً كمال جنبلاط، اي، باللغة الفرويدية، ان يقتل اباه بنجاح منقطع النظير.

وغني عن القول ان هذا هو بالضبط التحدي المطروح على داني شمعون. وفوز وليد في هذا الامتحان هو مصدر اعجاب داني وحبه الاكيدين. اما بشير الجميل فالسؤال عنه لا يرسم اي بسمة على شفتي داني، الذي عمل منذ معركة تل الزعتر وحتى ١٩٨٠ نائباً له في قيادة «القوات اللبنانية الموحدة».

بشير؟ يجيب بجدية بالغة تحاول الحفاظ على حيادية بادية: انا وبشير كنا اصدقاء. كنت ازوره ويزورني ونلتقي. نصحته وسمع. كان يسمع. بشير لم تكن هناك مشكلة معه. المشكلة كانت مع الآخرين الذين يعبثونه ضدنا ويحرضونه. فضلا عن طموحه الشخصي.

وتحاول ان تفهم من هم الآخرون هؤلاء، اذ المعروف ان والده وشقيقه، الشيخين بيار وامين، كانا عنصري تهدئة لبشير. لكن داني يرفض الاجابة والايضاح.

على اية حال فصلة داني ببشير الجميل ليست عصية على الفهم. فبشير الذي غرف من محبة بيتية (وان قلت عن تلك التي احاطت بشقيقه الاكبر)، برز وهو في اوائل ثلاثيناته زعيماً على نطاق وطني لشطر واسع من اللبنانيين. واذا كان بشير قد تعارض بين الفينة والاخرى مع توجيهات والده، فان الأخير كان لا يلبث ان يسلم، مباشرة او مداورة، بصحة ما يقوم به نجله الاصغر. اي ان الشيخ بيار ظل يوفر الغطاء والرعاية لابنه، منسحباً من الصدارة السياسية بتدريج يوازي تدريج تبوء بشير لها. ولم يكتف الاخير بالحصول على ابوة حرم منها داني، بل هو نافسه على ما تبقى له من ابوة الرئيس شمعون.

فالصورة الشعبية التي سادت المناطق الشرقية ابان صعود بشير مؤداها ان نجل الشيخ بيار هو ايضاً نجل كميل شمعون السياسي. وما عزز هذه الصورة ان الرئيس المنتخب الراحل مثل في حزب الكتائب لحظة انتقال من «زهد» بيار الجميل وانكفائه الى هجومية كميل شمعون في اتجاه السلطة وعدم مداورته في الجهر بالمواقف الحادة للطائفة.

ولئن كان لاحداث الصفرا ان وضعت داني وبشير وجهاً لوجه، ووراء كل منهما تاريخه

الشخصي، فان تعامل شمعون الاب مع الاحداث المذكورة، ومع بشير بالتالي، كان له وقع اليم على داني. فكميل شمعون، واعترافاً منه بتوازنات جديدة، دعا الى نسيان ما حصل والعمل على صون الوحدة المسيحية التي ظهر اباً فعلياً لها. وبشير الواثق من حاجته الى المظلة الشمعونية، تصرف بدوره كمن يطلب ابوة شمعون وتفهمه.

وهكذا استحال داني طريداً بلا اب ولا غطاء، فضلا عن تعرضه للهزيمة الدامية على يد شاب يصغره سناً بكثير، من دون ان يكون والده رئيس جمهورية سابقاً.

وهذا كله ما حدا بداني الى الانتقال للمنطقة الغربية واهدن، ومصافحة ياسر عرفات المنظور اليه يومها على انه العدو الجامع للمسيحيين، وسليمان فرنجية الشاذ عن الموقف المسيحي، ناهيك عن استعارة القاموس الفلسطيني السائد في المنطقة الغربية لدى وصف بشير بـ« الفاشية». اي ان داني تصرف تماماً تصرف صعاليك الجاهلية ممن قذف بهم الاهل الى خارج القبيلة فهاموا على وجوههم، ملتجئين الى قبائل اخرى فيها الغريب وفيها الشامت وفيها المعادي. على اية حال فالأثر الذي تركه بشير على داني جعل الاخير شديد الالحاح على بشيرية خاصة به. فهو ايضاً لا يفي يؤكد انه متمرد على الاهل، طرد من « حزب الوطنيين الاحرار» حتى قبل ان ينتسب اليه، اذ تلقى في ١٩٧٤ رسالة الطرد ممهورة بتوقيع شقيقه الاكبر دوري، وكان يومها الامين العام. قبل ذلك وحين كان لا يزال تلميذاً في برمانا شارك زملاءه احد اضراباتهم لكن « الرئيس شمعون» عمل على فك الاضراب، كما يقول داني. وهو يكرر ان لا انسجام بينه وبين « الجو السياسي التقليدي» جامعاً بين التماثل مع بشير والتمايز عن والده الموصوف بالتقليدية. ويصمت قليلًا ويضيف: كنت بعيداً عن السياسة دائماً. كانت لي استقلالية في الرأي. عندي من ابي ومن امي لكنني دائماً استقلالي. لم اكن آتي الى البيت الا في الفرص. بعد ذلك اوروبا. وكنت مستقلًا في زواج غير مرضي عنه من الاهل.

ويبدو ايضاً ان معرفة داني تأثرت الى حد بعيد بالعقدة الأبوية. فالقليل الذي يعرفه في الشأن العام حدثي وراهن، بمعنى ان اكتسابه قد حصل بعد ذهاب الكابوس الوالدي. والاهم ان ميدان هذه المعرفة بعيد نسبياً، كما ان تلاوتها الآلية تشبه فك العقدة والنجاح في الامتحان.

نسأل: قمة موسكو؟

يجيب فوراً: تتمم بعض اعمال سحب الصواريخ. ربما اتفاق في افغانستان، لكن لا بد من متاجرة. اميركا اخرت الانسحاب الروسي وشغلت باكستان. الرد ربما في اميركا الوسطى. بالنسبة لاسرائيل لا يزال هناك عدم تبلور. روسيا لا تزال متمسكة بالمقاومة الفلسطينية واميركا تحاول استفرادها. بالنسبة للخليج حرب الخليج مستمرة ولكن روسيا سوف تدعم العراق لأن ايران تزيد في مصاعبها، خاصة من ناحية الاسلام في الاتحاد السوفياتي.

نسأل: اصلاحات غورباتشيوف؟ يجيب فوراً: بريسترويكا. مهمة جداً. عندي كل احترام للرجل. يشبه بطرس الاكبر. الشخصية الأقوى في العالم.

نسأل: لبنان في عصر التقنية والمعلوماتية؟ يجيب فوراً: لنا مكان فيه بعد تحديث الدولة واستيعاب الادمغة اللبنانية. قد تنتقل الثورة التقنية الى الحقل الصناعي. قطع الغيار. العقل اللبناني قادر على التكيف.

داني امامنا

تصل الى بناية ضخمة في السيوفي بالاشرفية يمتلكها « حزب الوطنيين الاحرار». « الشباب» المسلحون منتشرون في النواحي المحيطة. على المدخل يعطونك شارة تعلقها على صدرك والغرض منها حصر الداخلين الى البناية والخارجين منها. الهاجس الامني مقيم بحدة هناك. المصعد يفضي بك الى مكتب داني. تنتظر في مكتب السكرتيرة الشابة الانيقة ذات الملامح الانكليزية. غرفتها صغيرة ومتقشفة وعلى الطاولة امامها كتاب « المهندسون في لبنان». وعلى الحائط ثلاث لوحات صغيرة اثنتان منها عن دروز الشوف ودير القمر. تنتظر دقائق قليلة ويصل داني محاطاً بعدد من الشبان: الريس وصل. الريس يدخل باسماً زاهياً. انه اطول الشبيبة التي تحيط به. انه القائد طبعاً ولو لم تعرفه. يرحب بلطف ومودة ويدعوك الى مكتبه المقابل لغرفة السكرتيرة.

الملمح الرياضي لداني لا يخطئه البصر. لاعب تنس وربما عداء ايضاً. ذو جسم طودي متناسق. ثيابه غير رسمية. اناقة الـ« سبور». الجوربان ملونان والوانهما حادة.

وحين تحدق في وجهه تتبين بعض القسوة التي تحيط بعينين زرقاوين اصابهما شيء من التعب. شعره الاشقر جف ماؤه تماماً والشيب يتخلل اطرافه. لحم يديه قديد ابيض لكنه مشدود كتلا كتلا كأن الماء سحب بدوره من هاتين اليدين، فأمستا يدي بناء معمرجي. وبياض الوجه لا يترك للسر مطرحاً.

المكتب الصغير الانيق المتقشف ايضاً فيه القليل من اللوحات التي وضعت اعتباطاً على ما يبدو. لكن فيه الكثير من صور عائلته: نساء واطفال كثر تتوزع صورهم وراء داني وبين الصور واحدة لمشايخ الدروز الشوفيين. صورة كميل شمعون الرئيس، لا الأب العائلي، موضوعة في مكان آخر من المكتب امام داني وعلى يساره. ويحيط بكرسي داني علمان لبنانيان ومن ورائه على يساره مكتبة صغيرة مرتبة قليلة الكتب وفيها اعداد من مجلة « حاليات». لقد درج ان تكون المكتبة جزءاً من الاثاث. هذا ما يبدو تماماً انه الحال. وهناك ايضاً روزنامة لـ« الرابطة السريانية» فيها صورة كنيسة وصليب ونور سلط عليها.

تسأل، وداني يجيب. وهو مطواع يذهب مع السؤال، وحين يتذمر يتذمر بجسمه اولاً.

بدا غير متوتر على العموم، ورافقته بسمة محببة كانت احياناً تصير ضحكة اليفة. بين الفينة والاخرى يتلاعب بهدوء بسكين لقص الاوراق على مكتبه. يكثر من تحريك رجليه بهدوء ايضاً. يضع واحدة على الاخرى. يخفضها. احيانا يحرك يديه لدعم كلامه كما لو انه يقدر الدرجات والموازين.

معنا الزميل انطوان شويري المسؤول الاعلامي في «حزب الوطنيين الاحرار» ورئيس تحرير «الاحرار» التي تقيم مكاتبها في البناية نفسها. يحاول شويري بلباقة ان يرعى داني ويسدد خطاه عاملاً على تدوير الناتىء من كلامه. لكن داني الذي لا تعوزه الصراحة يصر غالباً على ابقاء الناتىء ناتئاً. انه ليس بحاجة الى وصي. اجاباته قصيرة وقصيرة جداً في الغالب. هكذا هكذا والا فلا لا.

داني كميل نمر شمعون ابن العائلة الديرية التي تتخلف حجماً او تأثيراً ونفوذاً عن عائلات عدة من دير القمر، وبالاخص منها عمون التي برز فيها مثقفون وسياسيون بارزون في اواخر القرن الماضي وفي هذا القرن، وكذلك عن عائلتي نعمه وافرام البستاني اللتين شكلتا تقليدياً قطبي الانقسام التقليدي الاهلي في دير القمر. وفي كتابه عن دير القمر يورد شكري البستاني اسماء ٢٠ ثرياً ديرياً بينهم واحد من آل شمعون يأتي ترتيبه سابعاً. وعند تعداد زعماء العائلات الكبيرة ترد الاسماء التالية: «جرجس بوغندور نعمه ومسعود افرام البستاني في حارة الخندق ومنطقة سوق الميدان لجهة الشرقي. وفي منطقة سوق الشالوط وحارة الدلفانه لجهة الغرب هناك بكوات آل عمون. وكانت العائلات الصغيرة في الدير ويسمونها اقليات تطيع هؤلاء طاعة عمياء على غرار العلاقة التي ربطتها سابقاً بالمشايخ النكدين الدروز.

وربما ساعد الرئيس شمعون في الانطلاقة المحلية لعمله السياسي ان والدته كانت من آل نعمه العائلة الكبيرة والنافذة التي يبدو ان الشماعنة كانوا في عداد العصبية التي تتزعمها. و«بيت شمعون.»، اي كميل واشقاؤه من ابناء نمر شمعون، هم اربعة اخوة يقول داني انه لا يكاد يعرف احداً غيرهم. ووالدة داني السيدة زلفا نقولا ثابت تنتمي الى عائلة مارونية اصلها من بحمدون، وقد حافظت اسرة شمعون بمن فيها داني على الصلة بها. وفرع آل ثابت الذي تعود اليه والدة داني الراحلة صغير الحجم وفد مبكراً الى بيروت. وعرف منهم نعمة ثابت الذي كان احد اوائل السوريين القوميين الاجتماعيين لكن زعيم الحزب انطون سعاده ما لبث ان اتهمه بالانحراف والتبشير بـ«الواقع اللبناني» وطرده من الجسد الحزبي. وفي مذكراته الحزبية عزا عبدالله قبرص الى كميل شمعون هذا التأثير اللبناني على نعمه، قريب زوجته.

بيد ان آل ثابت تعلموا على أيدي البروتستانت وتلقنوا الثقافة الانكليزية لا الفرنسية التي درج الموارنة على تلقيها. فاذا أضيف أصل العائلة البحمدوني وتسمية والد زلفا باسم «نقولا»

المتداول بين الأرثوذكس، جاز الاعتقاد بأصول ارثوذكسية قريبة لآل ثابت.

وحين تسأل داني عن وضعه الاقتصادي والمالي يستشهد بالماضي. فـ«بيت شمعون لم يكونوا ملاكين ابداً». ماذا عن الحاضر؟ الامر يقتصر على تركة الرئيس شمعون وهي ليست كثيرة. انه يمتلك شاليه في فقرا. ينفي ارتباط مطار حالات باي ترتيبات مالية. وماذا عن المؤسسات والعضوية في المجالس الادارية للمؤسسات والشركات؟ رمزية وشرفية، يقول. بروتيين التي اقاموا عليها الدنيا امتلك الرئيس شمعون فيها ١/٢٪. عضوية شرفية. يبالغ قليلاً داني. فاذا سألته عن قراءة الصحف الأجنبية أجاب: من معه في هذه الأيام ثمنها؟ من يملك هذه البناية الضخمة، على الأقل، الا يملك شروى النيوزويك؟ داني يجيب: البناية للحزب. فعلاً الجرائد والمجلات الأجنبية غالية.

اطلع منها يا داني، خصوصاً اذا صح ما يردده البعض في الشمال الماروني كجرود البترون من ان داني مكثر من شراء الأراضي هناك

وتقول لداني ان قطاعاً من البورجوازية المالية والصناعية يدعمه. يقول لك نعم. لأنه هو يريد دعمها. فهذه المؤسسات تنطوي على ٧٥٪ من الكفاءات الفردية. انها كل شيء في لبنان. واذا ذهبت ذهب لبنان.

على اية حال ففي السنوات الاخيرة كانت لداني آراؤه المعلنة في الوضع الاقتصادي والمالي، فتحمس لالغاء الدعم عن النفط والقمح، ودعا الى تحديث النظام الضريبي، وطالب بتحويل الذهب الى عملات صعبة مؤيداً مشروع رئيس الحكومة الذكتور سليم الحص.

داني المقاتل والسياسي: بين الشرق والغرب

بدأ داني شمعون حياته العامة بانشاء «كتيبة النمور اللبنانية» ابان حرب السنتين. والكتيبة التي نشأت على هامش حزب «الاحرار» وفي محيطه الشبابي، لم تكن جزءاً عضوياً من الحزب. وفي ١٩٧٦، ومن قبيل «المسايرة» للحزب، كما يقول هو، حولت الكتيبة الى «كتيبة نمور الاحرار»، وهكذا «قبلوني» في الحزب، وجعلوا «امانة الشباب والرياضة» و«امانة الدفاع».

يومذاك، وخلال حرب السنتين، تميز داني شمعون باطلاق تصاريح ومواقف تجمع الى حدتها وتطرفها نبرة عنصرية فيها الفحولي والرمزي، و«النمر» طبعاً مصدر الصورة والتصور «الحضاريين»

فهو لم يتردد، مثلاً، في ان يقول في تصريح شهير ان الفلسطينيين «ينبغي رميهم في البحر لولا انهم يوسخونه»، وانه ينوي «تنظيف» المتن الشمالي من مخيمات الفلسطينيين، وهو التعبير الذي شاع عنواناً لسياسته العسكرية.

كان من الواضح حينها ان التوتر يعمل على الحؤول دون انعكاس « التأثر بأوروبا » على سلوك داني وافكاره، برغم ان هذا التأثر مبكر ودائم. فداني حارب في عنيطوره والمتن الاعلى وتل الزعتر حيث بدأ المعركة بنموره: « قاتلت شخصياً. كنت في المتراس لا على الحاجز ومحطات البنزين ». وهذا كله من دون ان تخلو حرب السنتين من صلة وثيقة واتصالات علنية وسرية مع ياسر عرفات رئيس « منظمة التحرير الفلسطينية ». وكان الراحل ابو حسن يتولى الكثير من هذه الاتصالات مع داني.

ويقول داني اليوم انه ابان وجوده في بريطانيا تفهم « حقوق الانسان » و« قيم الانسان » واكتسب تفكيراً اوروبياً غير لبناني. مضيفاً انه، وفي اية حال، ترك الميليشيات وعاد الى الدولة والعمل الشرعي. كنت وتركت. حان الوقت للترك. فالمواطن يريد معيشته.

اين ينفرز الغرب في داني عن الشرق الموغل في الشرقية؟

تزوج ابن دير القمر المولود فيها في آب ١٩٣٤، وهو في الثالثة والعشرين من عمره، من الاسترالية باتريسيا مورغن. وكان هذا الزواج في احد وجوهه تعبيراً عن نزعة الاستقلال عن الاهل في حينها، وهو الزواج الذي عارضه الابوان، لكن . . . وهز داني كتفيه وابتسم. وفعلاً استقل الزوجان في سكنهما وانجبا تريسي (٢٨ سنة) التي درست الاتصال الجماهيري والفلسفة السياسية في جامعتي لندن واسكس. وبعد الطلاق من باتريسيا اقترن داني بأنغريد عبد النور، وهي ارثوذكسية من المصيطبة في بيروت، عاشت في المنطقة الغربية ووالداها كانا من كبار تجار باب ادريس. ومنها انجب طارق (٦ سنوات) وجوليان (٤).

وفي الحقل التعليمي كان التأرجح هو نفسه بين تغريب وتشريق. فقد درس داني في «مدرسة برمانا العالية» وهي انكيزية يدرس فيها الكثيرون من ابناء علية القوم في الأردن والعراق والخليج، ومنها انتقل الى الجامعة الاميركية في بيروت التي ينطبق عليها ما ينطبق على مدرسة برمانا، وصولا الى بريطانيا حيث تخرج مهندسا ميكانيكيا، واتجه الى العمل مع شركة «ليا» للطيران.

وثمة من يقول ان الملك الأردني حسين، ونزولاً عند توصية من والده الرئيس الراحل، اعطاه التزاماً في مطار كان يجري العمل لبنائه في القدس قبل ١٩٦٧ طبعاً. ولأجل ذلك الغرض انشأ داني مكتباً هندسياً في عمان، حتى اذا حلت هزيمة حزيران والانكماش الذي تعرض له الاقتصاد الاردني من جراء احتلال الضفة الغربية، انتقل داني الى دول عربية اخرى، ومنها الى بيروت الغربية حيث اقام مكتبه الجديد، محافظاً، دائماً، على صداقة وثيقة بالملك حسين وعائلته.

اما داني السياسي، وكما سبقت الاشارة، فأطل من جبة داني المقاتل. وفقط بعد انقلاب عزيز الاحدب سمع لداني كلام سياسي يدعو فيه الى استقالة الرئيس فرنجيه. ونظر القادة الموارنة

يومها الى دعوة داني بوصفها « فاول ». اول دخولو. . . كما لا بد ان يكون الكثيرون قالوا.

وفي ١٩٧٨ طرح الرئيس سليم الحص على الرئيس شمعون امكانية توزير نجله ممثلاً عنه، فرفض الوالد هذا التمثيل، بحسب الرواية الصحافية يومذاك، معتبراً ان داني « ولد » في السياسة.

بدورهم فان الكتاب والصحافيين الاسرائيليين ممن ارخوا لمقدمات العلاقة بين دولتهم وقادة « الجبهة اللبنانية »، داني يستوقفهم بوصفه اقرب الى رجالات المافيا ، الذين يعيشون في اجواء من الاسراف في بذخ مدهش. وفي موازاة ذلك واثناء تفاقم الخلاف مع بشير بين ١٩٧٨ و ١٩٨٠، جدد داني اتصالاته بالمسلمين في بيروت الغربية والفلسطينيين ايضاً. وقادته شجاعته في ١٩٧٨ لأن يحضر الى بيروت الغربية بقصد زيارة السفير السعودي علي الشاعر في الجامعة الاميركية بعد حادث الطوافة الشهير. ويومها حاولت عناصر من « المرابطون » خطف داني وقتل ضابط في الجيش اللبناني حاول ان يوفر له الحماية، ووفق في ذلك.

الا ان افق داني مع القادة المسلمين والفلسطينيين ظل مسدوداً لأن داني يحاول جمع ما يصعب جمعه. فهو يريد ان يمتن جسوره مع الاسرائيليين والفلسطينيين والمسلمين اللبنانيين في آن معاً.

ومضى داني يتمايز عن بشير فدعا الجيش اللبناني وقوى الامن الى تولي المسؤوليات المناطة بها في الشرقية. وفي ١٩٨٠ ترافق الشرخ مع صدامات موضعية بين رجال داني ورجال بشير. فالأول اراد ان تحتفظ مشاركته في « القوات » بدرجة بعيدة من الاستقلالية لـ « النمور ». والثاني اراد توحيداً حديدياً بقيادته. وكان ما كان في ما بعد في الصفرا في ٧ تموز وضربت القوة العسكرية للأحرار في مقارها الاساسية، بكلفة قدرها البعض بـ ١٦٠ قتيلاً.

وزاد في بؤس داني الذي حط رحاله اخيراً في لندن، ان اهل الشرقية هللوا لما حصل في الصفرا وغيرها بوصفه وسيلة لا بد منها لضبط الامن. وكثر ذباحو البقرة التي وقعت، فقيل ان التجاوزات والانتهاكات كانت كلها من « زعران داني ».

وغاب داني عن لبنان، واقسم انه « لن يتعاطى السياسة بعد اليوم »، واستقال من حزب ابيه الذي تخلى عنه واعاد شقيقه الاكبر دوري الى الامانة العامة. وفيما كان نجم بشير في صعود، بادر الرئيس شمعون الى توجيه ضربة رمزية اخرى لابنه الغائب ملغياً « امانة الدفاع » وعاملاً على تسريح المقاتلين.

وخلال غيابه صدرت عن داني تصريحات معتدلة لم يكن يخترقها سوى الاصرار على تأييد « دولة » الشريط الحدودي بقيادة سعد الحداد. وهو اختراق كبير لمجمل الموقف المعتدل.

وعندما انتخب بشير رئيساً طلب من داني ان يعود، لكن الاخير لم يفعل الا بعد مقتل

الاول، ووصول الشيخ امين الى الرئاسة، وهو الذي سبق له ان عارض تصفية «النمور» في الصفرا. وبعودة داني التي صحبها اعلان دوري عزوفه عن السياسة وانسحابه منها، جدد انتخاب النجل الاصغر اميناً عاماً للحزب، فعاد رجل سياسة لا رجل عسكر. لكنها سياسة مشوبه باللاسياسة كما تدل سيرته وسيرة شقيقه دوري.

ولأن بشير اصبح في دنيا الحق بات في وسع داني ان يعيد ربط علاقاته بالكتائب والقوات. وتعدى الكتائب والقوات الى ضابط الشريط الحدودي انطوان لحد، وهو شوفي ايضاً معروف بالولاء التقليدي للرئيس شمعون. وتحدث داني مراراً بحماسة عن لحد الذي لولاه « لصارت جزين كشرقي صيدا ». وفي آب ١٩٨٣ توجه داني الى اسرائيل حيث التقى رئيس حكومتها اسحق شامير، وراح ينتقد الرئيس امين الجميل لعدم توقيعه على اتفاق ١٧ ايار، رغم انه في البداية طلب التريث والحصول على تأييد العرب. ومضى داني يطالب بالمفاوضات المباشرة مع اسرائيل وسيلة وحيدة لحل المشكلات.

أما في ما يتعلق بالتركيبة الداخلية فدعا في السنة نفسها الى نظام بديل عن صيغة ١٩٤٣ برغم الغموض الذي اعترى دعوته. وفيما جعل يكثر التردد على الجنوب، عمل على بلورة البديل الموعود، داعياً في ١٩٨٤ الى الفيدرالية، مستشهداً بالنموذجين السوفياتي والاميركي، وما لبث ان اشار الى الكونفدرالية كاحتمال آخر.

وفي ٢٤ آب ١٩٨٥ انتخب داني رئيساً للحزب بعد ان اعتزل مؤسسة ورئيسه التاريخي وصار رئيساً فخرياً. الا انه اصطدم بـ« انتفاضة » داخلية وجدت التعاطف من ايلي حبيقة قائد « القوات اللبنانية » في ذلك الحين. وكان سيريل بسترس وشارك غسطين على رأس الحزبيين المنتفضين ممن أسموا انفسهم « الهيئة العليا »ولكبحهم استعمل الرئيس شمعون كل ثقله في الحزب. وحين أطيح حبيقه أطيحوا معه. واتبع داني خطاً بادي التصلب، مطالباً بإقالة الرئيس الراحل رشيد كرامي رداً على المقاطعة، بينما كان الرئيس شمعون المعارض للمقاطعة يتريث وينتظر. ورأى الكثيرون يومها ان داني وقائد « القوات اللبنانية » الدكتور سمير جعجع حليفان «بفرد لباس»

الطريق الى الرئاسة

في السنة الماضية رحل الرئيس شمعون، فنقل نعشه الى دير القمر وانتقل داني الى الدير حيث استقبله وليد جنبلاط، فكانت مناسبة للتأكيد على وحدة الشوفيين. ولم يعدم المراقبون الذين تحدثوا عن تحالف في المعركة الرئاسية المقبلة. وكان قد سبق ذلك قيام داني بزيارتين الى القصر الجنبلاطي في المختارة.

وواظب داني على انفتاحه، فأنشأ علاقات طيبة مع الرئيس حسين الحسيني. « كيف لا

وعندي كتلة نيابية ». ومع الرئيس سليم الحص الذي يقول إنه « ينسجم معه » لان تفكيره تفكير الجامعة الاميركية.

أما السوريّون فمّر داني على حواجزهم يوم ذهابه الى دير القمر، ويوم ذهابه مؤخراً الى زغرتا حين توفي النائب الاب سمعان دويهي. وهو يقول لنا اليوم: تأملوا ماذا يحصل لو خرج الجيش السوري الآن من بيروت الغربيّة؟ وحين تسأله عن الزعماء الذين يعجبونه يذكر الملك حسين والسلطان قابوس وأسامه الباز « تغّديت عنده في البيت، واجتمعت به مرتين في مكتبه. شخصّيته قوية جداً ».

ويصعب تقدير حجم هذا التحّول من دون ان نتذكّر رفض داني المطلق والصارم للوجود العسكري السوري في لبنان منذ ١٩٧٨، ولومه الرئيس سركيس على التجديد لـ« قوات الردع » وقطعه في معارضة « الاتفاق الثلاثي » الذي اعتبره «صكّ اعتراف بالهيمنة السوريّة ».

ويرى داني الآن ان الموقف السوري بدأ يتغيّر إيجابياً منذ فترة. فقد شجع على إلغاء « اتفاق القاهرة »، وأشرف على ادخال قوى الامن الداخلي الى المخيمات الفلسطينية، ورعى التسوية المعروفة لحادثة طوّافة أدما. إنها مواقف لصالح الشرعية اللبنانية، كما يقول. دمشق شرعت تخرج من كونها طرفاً.

وداني الذي وضع الرئاسة نصب عينيه قام في العام الماضي بزيارة الى الولايات المتحدة الاميركية، الناخب الكبير الآخر، وجال في ولاياتها وعاد متفائلاً، ومؤخرا زار الصين واليابان، ربما طلبا للعلم، كما يقضي الحديث النبوي الشهير.

ويبدو ان هذا الخط الجديد ساء « الحكيم » سمير جعجع، وكانت شاعت أقاويل سابقة، عن خلافات بينهما على تركيب « الجبهة اللبنانية » إثر رحيل الرئيس شمعون. وانقطع داني فعلاً عن الاجتماعات التي مثّله فيها النائب السابق وأمين عام الحزب حبيب المطران.

واقترن الخطّ الجديد لداني باعلانه ترشيحه الرسمي للرئاسة في ٧ آذار الفائت، مؤكدا في حديث صحافي تلى الترشيح انه سيقوم في اليوم الاول لانتخابه باستدعاء كل الميليشيات المتصارعة الى القصر كي توقّع بيانا بانهاء حال الحرب. وهو الكلام الذي يساوي ضمناً بين الميليشيات عاملاً على اغاظة « الحكيم » حليف الأمس.

ويردّد بعض العارفين بدواخل الشرقيّة ان داني نال الأرقام الاعلى في « انتخابات » معرض «السيب» مؤخراً، فتولت « القوات » تزوير النتائج لصالح جعجع، ودفع الزميل جبران تويني ثمن تحوّله الى تأييد داني.

يبقى ان تعامل داني الموعود مع الميليشيات يطرح مشكلة أخرى: هل نقول عفا عما مضى؟ نعم يجيب داني. عفو عام. هناك ٥٢ ألف مذكّرة توقيف. إذن المشكلة ليست سهلة. وفي حالة استثنائية كهذه لا يعود هناك من جريمة سياسية.

وتسأل داني عن مبررات ترشيحه ، فيقول : لأنني استطيع ان اعطي ، ولأن ردود الفعل على سياستنا مقبولة ومشجعّة . أنا أرأس حزباً منتشراً في كل لبنان . واعرف لبنان زاوية زاوية ولي أصدقاءفي البلد كله .طرحت ترشيحي ووجدت اقبالاً .

وكان داني قد اعلن في وقت سابق ان « الجبهة اللبنانية » اذا ما تبنت ترشيح شخص واحد ، فهو مستعّد ان ينسحب له . والله اعلم . .

ويعتبر داني ان الضمانة التي يطلبها الموارنة هي العلمنة في الدستور والمحاكم على ان تبقى الاحوال الشخصية اختيارية . ويتوقف عند حزبه الموروث :

انا رئيس حزب طويل عريض . منوحبتين . يؤكد انه يرفض التقسيم والتجزئة . تسأله عن الشعار المنسوب الى جعجع « من كفرشيما الى المدفون » . يرد انه لا يرى ان هذا تصور سمير . يتوقف يكمل : ليش شو بيقول سمير ؟ يستطرد: على أية حال انا ابن الشوف . الشوف خارج هذه المساحة . ارفض كل تقسيم وتجزئة .

يتحدث داني عن خصائص لبنان ، وهي في عرفه حريّات المسيحيين وقدرتهم على ممارسة عيشهم وحفاظ المسلمين على هذه الحريات ، مقابل عيشنا في وطن واحد يتساوى افراده .

ماذا يعني التساوي ؟ انه يتحقق ضمن المحاكم العلمانية . استعمال قوانين الشريعة كما حصل مؤخراً سابقة خطيرة .

ويرى داني ان المسلمين والمسيحيين متساوون في لبنانيتهم . ليس هناك لبناني اكثر من الآخر . ليس هناك من باع هوية بلده او استبدلها بأخرى . يضرب أمثله باللقاء الاسلامي . بطرابلس بالشيعة بالدروز .

في رايه ترشيح انطوان الاشقر موقف لبناني لجنبلاط واصرار منه على استمرارية الشرعية اللبنانية ، فضلا عن كونه توكيداً على حتمية العودة الى الشوف .

والخطأ، كل الخطأ ، عند داني الاستعانة بقوات أجنبيّة .

تسأله عن دعم الكنيسة والميليشيات في معركته . يقول : لا يهمنّي ، اعمل بين الشعب ويهمني النواب. المطلوب ٦٦ نائباً.

ذروة الفهم الميكانيكي للانتخابات. اليس كذلك يا داني؟

وداني يكن كل الاحترام للنواب، ويعارض تحديد طائفية الرئاسات على ورق، ويعد بتحديث في الدستور والنظام والتركيبة السياسية واوضاع الجيش وقوى الامن، لان لبنان لم يبن كدولة حديثة. ويضيف ان التحديث يشمل ادخال الكومبيوتر واجراءتعديلات تطال سن التقاعد وضمان الشيخوخة. والتحديث عنده يطلق اعادة الاعمار «ولكل هذا اسمينا مشروعنا «قيامة لبنان». وهو يحد، كذلك، من أسباب النزاع الشخصية في داخل النظام.

بيد ان داني لا يريد رئيس الجمهورية ممثلاً للمسيحيين في الحكم، ولا رئيس الحكومة او المجلس للمسلمين. وجودهم يمثل رمزياً الحس الطائفي وهذا كاف. وهو يرفض ان يصور خلاف رئيسي جمهورية وحكومة خلافاً بين الطوائف. هذا لا يجوز. مثل هذا الخلاف يجب ان لا يتعدى نطاق تسيير الامور.

وكما لا يخفى فان طلة داني على مسألة المشاركة تستند الى صورة جاهزة عن ديمقراطية غربية فيها اكثرية واقلية برلمانيتان، من دون ان تلحظ تعقيدات المشكلة الطائفية وما تسبغه على معنى المشاركة.

وداني مع هذا كله لا يمانع في انشاء مجلس شيوخ تتداول فيه مسائل الطوائف، ويكون مجلساً لشيوخها، كما يمنح بعض الصلاحيات الرمزية. يقول: دعوا الطوائف تحل مشاكلها. وهنا يضمر بالطبع رسالة ود اخرى لوليد جنبلاط.

الحكم الحزبي؟ لم يفشل. ربما هناك حزبي فشل

المرشحون الرئاسيون؟ لا اتحدث بجدية الا عن الذين اعلنوا ترشيحهم رسمياً.

العلاقات مع اسرائيل عائق في وجه رئاستك؟ ربما.

هل يمكن تحويلها الى عامل قوة لك؟ لا اعتقد.

يتدخل انطوان شويري: لماذا تتحدثون عن « العلاقات » كأمر واقع نهائي؟

داني: ماشي الحال.

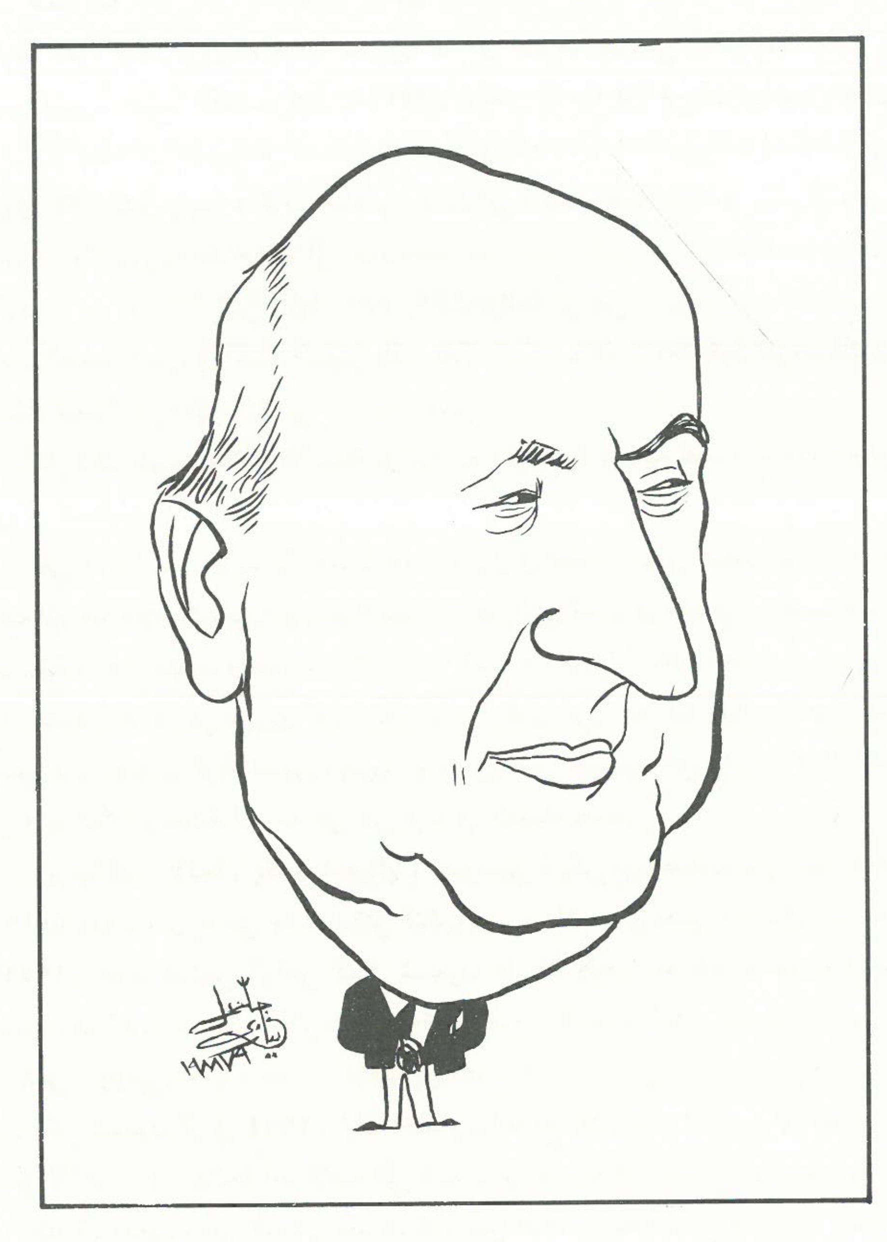
هل انت قلق حيال امكان تعطيل الاستحقاق؟ اذا ارادت سوريا ذلك فهي قادرة. لكنني استبعد. الموقف السوري تغير.

امكانات التعطيل الاسرائيلي؟ لا ارى ذلك.

داني يهتم بالالماح الى المسافة عن اسرائيل من دون اسراف. يكتفي بنفي وجود معلومات عنده عن اي شيء اسرائيلي. فيما الزميل الوصي يشدد على هذه النقطة.

ويرى داني ان عليه تحويل الحزب من حزب « عائلي » الى « سياسي » اما وصية ابيه فـ « حافظ على لبنان ».

يودعنا داني بلطف وتهذيب. يصطحبنا شويري الى المصعد. الشبان في مدخل البناية يسألون عن « السفير ». يمتدحونها. يقولون انهم محرومون منها. شويري يتصل من الشرقية مستفسراً عن موعد النشر، وفي صوته توجس. انه حق زميلنا الذي يحاول ملكاً أو. . . وهذا هوالراجح الذي لا نشتهيه.



فؤاد طحيني

عندما بدأ الوهن يدب بالشهابية، اواسط عهد الرئيس شارل حلو، راحت تتعاورها ايدي التطرف الذي انضم الى ركبه حلفاء سابقون لها. في الطرف المسيحي انشق عنها الشيخ بيار الجميل رئيس «حزب الكتائب اللبنانية» الذي اضحى واحدا من فرسان «الحلف الثلاثي» صاحب الانتصارات الشهيرة في انتخابات جبل لبنان للعام ١٩٦٨. وفي الطرف الاسلامي - الدرزي كان المنشق رئيس «الحزب التقدمي الاشتراكي» كمال جنبلاط الذي وقف في «معركة المقاصد»، وكان وزيراً للداخلية، الى جانب خصمه اللدود الرئيس صائب سلام. وهكذا وفي الحكومة الاخيرة لعهد الرئيس شارل حلو، وكانت برئاسة الرئيس رشيد كرامي، كان جنبلاط صاحب الطعنة الاخيرة في الجسد الشهابي الذي يغالب سكرات الموت وهو يقول للزعيم الدرزي بكلمات متعثرة غير مفهومة: حتى انت يا بروتس!.

قبل ذلك ظهرت ملامح الانشقاق في تركيب اللوائح الانتخابية لقضاء الشوف، وهو ما تبدى في انتخابات ١٩٦٨.

ففي ١٩٦٠ حين جرت الانتخابات العامة الأولى في العهد الشهابي اصطحب جنبلاط على لائحته المير عبد العزيز شهاب، ابن عم الرئيس الراحل الذي تقلب في عدد من المناصب الادارية والقضائية، وكان شهاب واحدا من ثلاثة موارنة قضى التنظيم الانتخابي الجديد ان يتمثل بهم قضاء الشوف فضلا عن درزيين ومسلمين سنيين وكاثوليكي. اما المارونيان الاخران فكانا الدكتور عزيز عون ابن قرية الدامور الكبيرة، والمرحوم اميل البستاني رجل المال والاعمال الشهير وابن قرية الدبية والعائلة الموزعة على غير قرية في القضاء نفسه.

ويومها كتب للائحة، بكامل اعضائها، نصر سهل لم يكن من الصعب تبين سببه. فاحقاد ١٩٥٨ المارونية - الدرزية التي جددها مقتل النائب والوزير الشمعوني نعيم مغبغب في بيت الدين في ١٩٥٩، حملت الرئيس الراحل كميل شمعون على ان يخوض معركته الانتخابية في المتن الشمالي وهو قضاء مسيحي بأكثريته الساحقة وبالنواب الخمسة الذين يمثلونه (٣ موارنة، ارثوذكسي، وارمني).

لكن شمعون آثر في ١٩٦٤، ابان احتدام نزاعه مع الشهابية، ان يعود الى قضائه الام فيشكل لائحة تقابل اللائحة الجنبلاطية التي ضمت عن الموارنة عبد العزيز شهاب وعزيز عون للمرة الثانية، ومعهما سامي البستاني بعد ان كان اميل قد قضى بحادث جوي شهير. ونجحت اللائحة الجنبلاطية بكامل اعضائها في استثناء الكاثوليكي سالم عبد النور الذي حل محله جوزيف مغبغب عن لائحة شمعون الذي رسب هو نفسه، متهما الاجهزة الشهابية، بممارسة اوسع تزوير ضده.

وجاءت انتخابات ١٩٦٨ وكانت الغيوم قد بدأت تلبد علاقات جنبلاط بالشهابية

المتراجعة، فشكل لأول مرة لائحة تخلو من المير الشهابي، وكانت الضربة الجنبلاطية مؤذية لان المير عبد العزيز كان يعد نفسه لخوض معركة ١٩٧٠ الرئاسية، خصوصا وان اختيار شارل حلو لمعركة ١٩٦٤ حرمه الطموح الذي لم يقتصد في ابدائه.

على أية حال شكل جنبلاط لائحته التي ضمت عن الموارنة عزيز عون للمرة الثالثة، وسليمان البستاني ابن العائلة التي كان يحرص جنبلاط على دوام تمثيلها، و. . . فؤاد طحيني. ونجح ستة من اعضاء اللائحة بمن فيهم طحيني الذي يخوض المعركة لأول مرة فيما رسب البستاني وعبد النور اللذان حل محلهما كيل شمعون وجوزيف مغبغب من اللائحة المقابلة.

وتكررت المحاولة في ١٩٧٢ فكان الموارنة الثلاثة على اللائحة الجنبلاطية عزيز عون وفؤاد طحيني وفايز قزّي وهو محام شاب من الجية يظهر اسمه للمرة الأولى. وفاز ايضا ستة من اعضاء هذه اللائحة فلم يرسب غير قزي والمرشح السني الدكتور علي سعد اللذين حل محلهما كميل شمعون وعبده عويدات من اللائحة المقابلة.

الطريق الى السياسة

يروي فؤاد طحيني كيف اصبح عضوا في اللائحة الجنبلاطية للعام ١٩٦٨، يقول:

كنت اتولى الكثير من الخدمات المرتبطة بالمرحوم كمال جنبلاط، والتي تتعلق بالموارنة في دير القمر والشوف. في ١٩٦٨ بدأت الخلافات تظهر بين جنبلاط وعبد العزيز شهاب. كنت انا اتردد على المير عبد العزيز وحاولت مع غيري تسوية الخلافات لمواجهة شمعون، لكن الثقة انهارت بين الاثنين واصبح من الصعب اصلاح الخلاف. وقبل شهر ونصف على المعركة قال لي كمال جنبلاط: حضر حالك ستنزل الانتخابات. قلت: معيش مصاري. قال: ما فيك تدبر ٢٥ الف ليرة. عملنا سونداج في المنطقة وتبين ان كل الناس تحبك وانت تستطيع ان تحارب كميل شمعون في دير القمر.

حصلت تدخلات من المكتب الثاني كي لا يأخذني جنبلاط. قلت: أنا لا أريد أن أكون سبب خلاف بينه وبين الرئيس فؤاد شهاب، مع تقديري يومها ان شهاب لم يعد شديد التمسك بعبد العزيز.

الرئيس شهاب كان عهده العهد الذهبي للبنان. فكر علمي لارساء الدولة على اسس حديثة، لكن التكتل الماروني المتطرف ضربه.

على اي حال اصر جنبلاط على ترشيحي واعلنت اللائحة، وامنت المبلغ المطلوب الذي استدنت جزءا منه. وحين اعترض بعض زملاء اللائحة على ان المبلغ المطلوب مني ضئيل، قال كمال جنبلاط ان فؤاد لا يملك امكانات وكلكم الله منعم عليكم.

كم من الاصوات كنت تنال في دير القمر، قريتك وقرية الرئيس شمعون؟.

حوالي ٢٠٪. انت تعرف ان الرئيس شمعون له تاريخه وعلاقاته، فضلا عن موجة التطرف الماروني التي اهلكتنا. في ١٩٧٢ كان وضعنا المسيحي افضل بكثير مما كان في ١٩٦٨. يومها «الحلف الثلاثي» خرب الدنيا. اما في ١٩٧٢ فالاصوات المسيحية عوضت علينا بعض ما خسرناه في اقليم الخروب. في الاقليم حصل هبوط جزئي بسبب صيت وخدمات عبده عويدات على اللائحة الشمعونية، ولاننا خلال نيابتنا في ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢ لم نتمكن كـ «جبهة نضال» ان ننجز كل ما هو مطلوب من خدمات لتلك المنطقة المحرومة.

فؤاد طحيني الذي ظل عازبا حتى اشهر خلت حين اقترن بآنسة ديرية هي ايضا من آل باز، ينتسب الى احدى العائلات الصغيرة عددا في دير القمر. والحياة السياسية فيالأخيرةوالتي نهضت تقليديا على توازن العائلتين الكبريين نعمه و(افرام) البستاني، افسحت في المجال لظهور «شخصيات» مستقلة يكون ظهورها اجتنابا لحدة الاستقطاب بين العائلتين. وفي الخمسينات والستينات برز من هذه الشخصيات الدكتور فؤاد عمون ابن العائلة العريقة والصغيرة هي ايضا، كما برز فؤاد طحيني مؤخراً.

وما من شك في ان ابرز هذه الشخصيات «الثالثة» كان الرئيس كميل شمعون الذي ما لبث ان تحول الى زعيم تتعدى زعامته نطاق الدير الى النطاق اللبناني بأسره.

هذه الشخصيات، على تفاوت اصحابها وادوارها، لم تكن بطبيعة الحال تخلو من الالوان والميول. فشمعون والدته من آل نعمة، الشيء الذي يقربه من «الحلف» الدستوري العريض، وطحيني والدته من آل البستاني بما يسهم في وضعه في الخانة المقابلة التي كانت تقليديا في جانب «الكتلة الوطنية» المتحالفة مع آل جنبلاط. اما فؤاد عمون الذي اشتهر في الخمسينات باعتراضه على السياسة العربية والخارجية للعهد الشمعوني، فاستطاع ان يرمز الى تحول اقليّ ماروني يوازي ويواكب انتقال الجنبلاطية الدرزية من الادية المحلية الى لون خاص جداً من العروبية.

عناوين سيرة

ولد فؤاد الطحيني في دير القمر في ١٩٢٩، ولان جده الذي عمل ياورا عند المير بشير الشهابي الثاني امتلك فرسا طحينية اللون فكان يقال عند وصوله: وصل الطحيني، اطلقت التسمية على العائلة التي وفدت الى الدير من تنورين الشمالية البترونية، وكانت جزءا من آل حرب التنوريين.

والده جورج طحيني كان اول طبيب في منطقة الشوف، تخرج من اليسوعية في ١٩١١ واصبح «طبيب القضاء» الذي خلف رصيدا من الخدمات ذات الطابع الانساني، فضلاً عن كونه طبيب «الست نظيرة» جنبلاط وسائر الجنبلاطيين الكبار، بما اسس للعلاقة اللاحقة التي نمت بين العائلتين.

والعائلة الصغيرة في دير القمر التي اقبلت بغزارة على الهجرة الى ترانسفال في الجنوب الافريقي، كما ظهر فيها الكثيرون من الفنيين والمهندسين والتجار، هذه العائلة وقفت تقليديا في جانب آل جنبلاط، خصوصا وان والدة فؤاد ابنة شقيق المطران اوغسطين البستاني، المطران الديري المقرب من الست نظيرة والذي لعب دورا بارزا ومؤثرا ابان الانتداب الفرنسي.

درس فؤاد في الفرير المريميين في الدير، ثم انتقل الى فرير الاخوة المسيحيين حيث اتم علومه الثانوية ومنها الى اليسوعية لدراسة الحقوق، وقدتوج دراسته هذه بنيل اجازتي علوم عليا واحدة في الحق الخاص واخرى في الحق العام، ليتدرج، من بعد، في مكتب المحامي شاكر شبيان.

في ١٩٥٢ بدأ ممارسة المحاماة، لكنه وعلى مدى السنوات الخمس التالية لم يهتم الا لماما وعرضا بما يتعدى المهنة نفسها. طبعا كان على اطلاع بهذه النسبة او تلك على الاوضاع السياسية، كما درج على التردد على كمال جنبلاط الذي يقول في وصفه «رجل فكر. رجل نزاهة. رجل اصلاح. كنت استلذ بمجلسه». كذلك عمل فؤاد طحيني منذ بداية تخرجه في النطاق الذي يطيب له ان يسميه بـ «العمل الجماهيري»، فأنشأ في ١٩٥٢ ـ ٥٣ ناديا في دير القمر وجمع الشباب حوله، بحسب ما يقول.

لكن ١٩٥٧ كانت السنة الاولى لانخراط طحيني شبه المباشر بالعمل العام من زاويته الانتخابية.

يومذاك ترشح فؤاد عمون ابن دير القمر المعارض للرئيس شمعون عن الشوف الذي كان لا يزال مقسما الى دائرتين انتخابيتين. وفي الدائرة التي عرفت بـ «دير القمر ـ شحيم» خاض عمون وعلي سعد (السني) معركتهما ضد اميل البستاني وانور الخطيب المدعومين يومذاك من الرئيس الراحل. وكان طحيني «الزنبرك» الاساسي لمعركة عمون كما يقول، مضيفا: لكن للاسف حصلت تدخلات من السلطة وسقط عمون وفازت اللائحة الاخرى. من يومها بدأ دخولي العملي الى السياسة.

في ١٩٦٣ حصلت نقلة اخرى في حياة المحامي الديري الذي شاء ان يبني لنفسه موقعا متميزا عبر الخدمات والصلة بآل جنبلاط. فقد اصدرت الدولة تعيينات لرئاسة بعض المجالس البلدية وعين فؤاد طحيني رئيسا لبلدية دير القمر.

بقيت سنة واشتغلت بجد، كما يشرح،لكنني فضلت تقديم استقالتي وتجنب الصراعات الصغيرة حين تكاثرت الحرتقات علي داخل البلدية من قبل الخصوم المحليين.

طحيني الذي، كما سبق القول، دخل البرلمان في ١٩٦٨ و١٩٧٢ وبقي قريبا من كمال جنبلاط خلال حرب السنتين، كان احد اكثر المفجوعين برحيل «المعلم»، واحد اكثر المهتمين

بنجاح تجربة نجله وليد. لكن الامور لم تسر دائما بحسب هوى النائب الماروني الشوفي الذي سبق له ان اقترح في المجلس النيابي انشاء «مجلس للمهجرين»، وعرف بـ «غرامـ » ـه لبلدته دير القمر.

ففي ١٩٨٢ طرأ عنصر جديد على علاقة فؤاد طحيني بالسياسة الجنبلاطية. فرئيس «الحزب التقدمي الاشتراكي» وليد جنبلاط لم يستسغ تصويت النائب العضو في «جبهة النضال» لصالح الشيخ بشير الجميل.

يروي فؤاد طحيني: في ١٩٨٢ كان الاسرائيليون قد اجتاحوا لبنان. انا تركت بيروت الغربية لانني صحيا ونفسيا لم اعد استطيع ان اتحمل الاوضاع المؤلمة والصعبة. قبل الانتخابات الرئاسية اتصل بي وليد والتقينا في احد مكاتب القصر الجمهوري. كان الوصول صعبا جدا على حينذاك اللقاء حضره توفيق عساف وسالم عبد النور وخالد جنبلاط ومروان حمادة وجرى بحث في مسألة رئاسة الجمهورية وكانت «القوات اللبنانية» قد طلعت الى الشوف. كان رأيي الذي قلته لوليد انكم انتم في القوى الوطنية والاسلامية تجتمعون حاليا في منزل صائب سلام، فاعملوا على ان ترشحوا واحدا منكم، لان مثل هذا الترشيح يعطينا الحجة لخوض معركة سياسية.

وفي اجتماع اخر اعدت توكيد رأيي وهو انني كنائب لا استطيع ان اتحمل مسؤولية حصول فراغ دستوري. رشحوا احدا. في تلك الفترة بدأت اعاني عوارض صحية اثرت علي لفترة طويلة ولم أبرأ منها الا مؤخرا. الانتخابات الرئاسية حصلت وحصل بعض الفتور مع وليد. لكن هناك علاقات متينة ان على صعيد المنطقة او على صعيد العاطفة لا استطيع نسيانها ولا يستطيع هو نسيانها.

ويمضي نائب الشوف في روايته: قبل الانتخابات الرئاسية بـ ٥ ـ ٦ أيام زارني الشيخ بشير الجميل وقلت له ان عندي مطلبين، الاول سحب «القوات اللبنانية» من الشوف لحساسية ذلك، ومن ثم ارسال الجيش الى هناك. والثاني انه لا بد من مراعاة وليد برغم الخلافات كلها. ووعد بشير بانه في اليوم الثاني لانتخابه سيرسل الجيش ويسحب «القوات»، اما بالنسبة لوليد فقال: بالنتيجة لا بد من ان نتعاون معه.

فؤاد طحيني حين يتحدث عن وليد جنبلاط ينم عن محبة اكيدة تبينها ملامح الوجه والبسمة الودودة التي ترتسم على شفتيه، وان اختلطت بما يلوح حيرة لا سبيل الى تبديدها.

نمضي في الحديث عن حرب الجبل، يقول:

من المؤسف ان المسيحيين الذين كانوا في التيار العربي لم يعطوا اي دعم، بل كانوا يوضعون بارافانات في معظم الأحيان، لهذا السبب قوي التيار الانعزالي برغم وجود الكثير من العناصر المخلصة المؤمنة بالخط العربي. حاليا لا ارى عملا نضاليا عربيا بل شرذمات طائفية. لهذا

انكفأنا وجلسنا في بيوتنا. اوضاع المهجرين أسوأ ما يكون وحال دير القمر يمكن ان تكون افضل بكثير مما هي عليه الآن. السبيل الوحيد لعودة المسيحيين الى الجبل مجيء رئيس توافقي. ظهر لبنان لم ينكسر طوال حرب ١٩٧٥ ـ ١٩٨٣ لكنه انكسر بحرب الجبل. منذ ذلك الحين طار الاقتصاد وطار كل شيء.

هناك من يأخذ عليك موقفك المؤيد لاتفاق ١٧ ايار؟

في ١٧ ايار عملت بقناعاتي لصالح البلد. كل المعلومات التي اعطاها وزير الخارجية ايلي سالم كانت تقول اننا متفقون مع السوريين على ذلك، وان الرئيسين الجميل والأسد حين التقيا في الهند اتفقا على هذه الاستراتيجية لاخراج اسرائيل. القناعة يومها كانت ان هذا الاتفاق هو وحده الذي يخلصنا من الاحتلال الاسرائيلي.

والاتفاق الثلاثي؟

ايدت منه شقه العسكري ولي ملاحظات على شقه السياسي.

كيف ترى الى مسألة العلاقات اللبنانية ـ السورية اليوم؟

لا بد من تعاون عميق والى اقصى الحدود مع سوريا. قدرنا في لبنان وقدرهم في سوريا ان نتعاون معا. بالنسبة لـ «العلاقات المميزة» جاءتني فكرة قبل يومين حول هذه المسألة: لبنان يحافظ على مصالح سوريا كما يحافظ على مصالحه الأمنية والاقتصادية والسياسية والعكس صحيح.

لكن هل تعتقد ان لبنان الليبرالي اقتصاديا واعلاميا مقبول من سوريا؟

اعتقد ان مصلحة سوريا ان يكون لبنان منفذا حرا اعلاميا واقتصادياً. والسوريون حاليا بدأوا يشهدون شيئا من الانفتاح.

ملامح وآراء

نسأل فؤاد طحيني عن وضعه المالي؟

المحاماة واملاك موروثة عن الوالد في دير القمر

وعن اهتماماته بالثقافة؟

اقرأ كثيرا. الصحف المحلية واولها «السفير». وبصورة مستمرة «لوموند» ومجلة «اكسبرس» بعدين عندك الكتب. بحب ارجع من وقت لوقت الى «نهج البلاغة» للامام علي. الآن اقرأ كتاب السياسي الفرنسي ريمون بار. هذه تسليتي الوحيدة. انا العب فقط شوية طاولة. كنا سابقا نذهب الى الصيد حرمونا منه.

والسينما؟

اشاهد الأفلام في البيت على التلفزيون. ما عم اضهر كتير بها الأيام.

هل عرفت العالم العربي؟

سوريا اعرفها كما اعرف لبنان تقريبا. اعرف المسؤولين جيدا. الرئيس الأسد ونائب الرئيس خدام وحكمت الشهابي وغيرهم. الصيد كان له دوره في معرفتي بسوريا. وصلت الى الرقة وحلب ومنبج. اعرف مصر جيدا وزرت الأردن والسعودية والجزائر مع المرحوم كمال جنبلاط. ومؤخرا ذهبت الى المغرب لحضور مؤتمر برلماني عربي افريقي.

هل سبق ان انتسبت الى «الحزب التقدمي الاشتراكي»؟

عندما كان البعض يتطفل ويشير الى عدم انتسابي للحزب، كان كمال بك يقول اتركوا فؤاد يشتغل على طريقته. انا لا احب ان اقيد نفسي برغم ايماني بمبادىء الحزب التقدمي. اعتقد اليوم ان العمل الحزبي انتهى كله لأنه انتقل بكل اسف الى عمل طائفي فحسب.

يستطرد: لا ارى امكانية تركيب نظام سياسي جيد في لبنان ما لم نتخلص من هذه الأحزاب الطائفية وننشىء احزابا جديدة على اساس نظام الحزبين او الثلاثة احزاب. الممارسة الحزبية الجديدة هي التي تنزع من رأس المواطن اللبناني فكرة الطائفية. لا بد من قانون انتخابي جديد على اساس الحزبين او الثلاثة. قد يكون في هذا القانون نوع من التعسف لكن لا بد منه في سبيل وضع نظام جديد للدولة، بحيث يمنع ترشيح الأفراد الذين هم خارج هذه الأحزاب. يعمل بهذا النظام على دورتين انتخابيتين متتاليتين بحيث تحل الحزبية والولاء لها محل الطائفية. هذا هو السبيل الوحيد. لقد استوحيت هذه الفكرة من تجربة انتخابات ١٩٤٣ حين كان الانقسام الى كتلتين دستورية ووطنية يشمل الطوائف اللبنانية كلها.

والراهن ان هذه الفكرة لم تفارق عقل فؤاد منذ كانون الأول ١٩٨٠ حين تحدث الى الزميلة الحوادث عن نظام الأحزاب الثلاثة، معتبرا ان «فتنة ١٨٦٠ وحرب ١٩٧٥ يحولان دون الفيدرالية لأنها تحرم الدروز والأرثوذكس والأرمن من الكيان الخاص».

وقد روت «الحوادث» يومذاك وفي تقديمها للمقابلة ان طحيني، أمين عام «جبهة النضال الوطني»، أنهى دراسة ضمنها مشروعا تفصيليا بهذا المعنى.

وقد رأى طحيني في تلك المقابلة ان «الحل المجدي ينبع من الاقتناع بأن الصيغة المناسبة لا تتم الا اذا انصهر اللبناني في بوتقة الصيغة الوطنية لا الطائفية، وحتى يتحقق مثل هذا الانصهار لابد من ارساء حياتنا السياسية على قواعد تنطلق من الغاء الأحزاب بحيث لا يرخص بموجبه الا لثلاثة أحزاب تمثل اليمين واليسار والوسط، وكذلك سن تشريع جديد لقانون الانتخابات النيابية لا يسمح بموجبه بالترشيح للمجلس النيابي الا اذا كان المرشح منتسبا الى واحد من هذه الأحزاب الثلاثة، وعندئذ يصبح المرشح الشيعي في بعلبك مثلا ممثلا الحزب اليميني الذي ينتمي اليه

متحالفا مع مرشح ذات الحزب للمقعد الكاثوليكي في زحلة والماروني في الشوف، والسني في بيروت يقابله مرشح شيعي يمثل حزب اليسار في بعلبك ويتحالف مع مرشحي اليسار ذاته في زحلة وماروني في الشوف، وسني في بيروت، وكذلك الحال بالنسبة الى مرشحي الحزب الوسط، ومن خلال هذه الممارسة الحزبية تزول المشكلة القائمة ويحصل الانصهار الوطني ويزول ما يسمى اليوم بمشكلة المشاركة في الحكم وصلاحيات الرئاسات الثلاث لأن وضع مبادىء الحكم لتسيير عجلته يصبح خاضعا لمبادىء الحزب الذي يحصل على أكثرية المقاعد النيابية وهو يضم طبعا ممثلين عن جميع الطوائف اللبنانية».

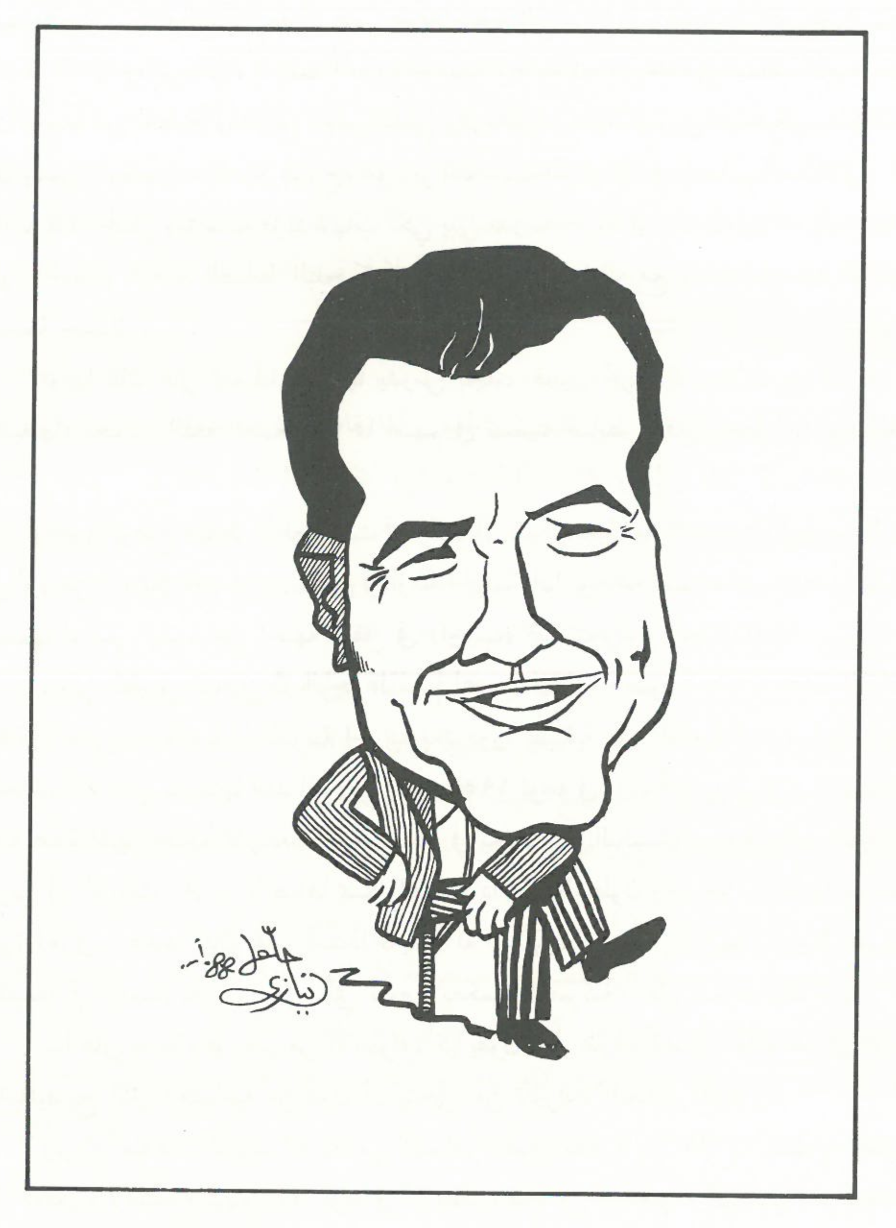
قد لا تكون افكار فؤاد طحيني باهرة، لكنه يعرضها بصدق الفلاح الطيب البسيط الكريم الذي يردف باستمرار «يكثر خير الله» وحكمته ان القناعة كنز لا يفنى، ومن ثنايا لهجة محلية حادة يطل حرف الراء من شفاه طحيني ملفوظا على الطريقة الفرنسية، كما تتسلل الفاظ بذيئة، يتصاحب قولها في العادة بهمة ونشاط صاحبها، من ثقوب كلام هادىء وبطيء يكاد قائله يضجر من استئنافه .. وينام.

سمين هو فؤاد طحيني، يضع نظارتين على عينين ناعستين، وحين يسير يبقي يده على ظهره وهي العادة التي بقيت له من ايام مرضه. عنقه ولحيته تتجمعان وتعززان الوجه كبطانة ملحقة به من اسفله بما يجعله وجها مربعا متساوي الأضلاع. ولا تخطىء العين تلك الخطوط النافرة في جبينه كما لو ان الجبين لسعته حبال مبتلة بالماء فعلقت عليه اثارها.

وحول الصلعة الوسيعة التي غزاها النمش يمكث شعر قليل موزع على الطرفين اقرب الى رمادي تعرض للاشقرار بما يشي بحصول حريق فيه، اما الوجه فيتصدره انف على قدر من البروز وفم يبدو كما لو انه طرز على طرفيه فزم قليلاً واستحال الكلام الصادر منه مدروساً أكثر.

وبقبضة صغيرة بيضاء وسبحة لا تفارق اليد يشير فؤاد الى انه ليس مرشحا، مستعملا ما يملكه من قدرة على الاصرار والتوكيد، وهو ليس كبيرا، برغم صدقه في اصراره وتوكيده. ففؤاد طحيني اليوم حزين ملتاع. كمال جنبلاط رحل وحرب الجبل نشبت والظروف قضت بان تتسع المسافة الفاصلة عن وليد جنبلاط وتزداد اسباب سوء الفهم. وبكلمة، اكتشف فؤاد على حين غرة اثم الطوائف وحروبها بعد ان خال طويلاً ان اللبنانيين ينقسمون على اسس اخرى. ولهذا فهو يجهد كي يرد اللبنانيين الى انقسام عن تلك الأسس. من دون ان يخفي برمه بما يجري وحزنه العميق حتى الاكتئاب على ايام «كان فيها للنضال معنى».

اكتئاب فؤاد طحيني، وهو العريس لتوه، لا تنجو من اثاره شقته الأنيقة في مارتقلا بالحازمية، حتى اننا لم نجد في انفسنا الرغبة لامعان النظر في غرفها وجدرانها ومحتوياتها الكثيرة.



غابي لحود

في ١٩٥٢ تخرج غابي لحود من المدرسة الحربية، وكانت تلك الدورة الأولى من نوعها يطبق عليها نظام السنوات الثلاث بعد أن عمل طويلا بنظام السنتين. وفيها اقتصر الأخير على الرياضة واللياقة البدنية ومتفرعاتها، شملت الدورة الجديدة المحدثة لمحات عامة في الثقافة والمعرفة تطال نبذاً موسعة من الحقوق والتاريخ وعلم النفس والرياضيات. والكولونيل البلجيكي غايز الذي كان يسمي الرياضيات «جباز الروح» هو رمز التحديث المشار اليه في التعليم العسكري. فقد جاء به قائد الجيش ومؤسسه فؤاد شهاب لكي يبني مدرسة حربية تواكب التطورات المستجدة في علوم الحرب، فوضع الضابط البلجيكي برنامجا درجت معادلته مع السنة الجامعية الثالثة في الهندسة حينذاك.

يومها كان غابي تلميذا منضبطا يدرس بجد، فحين تخرج كان الأول في دورته، أو «طليعتها» بحسب اللغة العسكرية، مما أسهم في تسميته ضابط مدفعية يعمل في امرة المقدم اسكندر غانم. ومع ان ضباط المدفعية غير مرشحين في العادة لأن يصيروا قادة، لأن القائد ضابط بري أو جوي يوضع ضابط المدفعية تحت تصرفه، الا ان المدفعية بعد التخرج أو في أزمنة السلم هي لون من الامتياز العسكري. وحتى في أزمنة الحرب فان الوجاهة تسم صاحب العمل المذكور بميسمها اذ يبقى بعيدا عن الجبهة يتنقل في «الجيب» فيما تتحرك وراءه المدافع.

وغابي الطويل النحيل ذو الوجه الوسيم أعجب غايز، خصوصا وانه يتحدث الفرنسية بطلاقة، فجيء به مدربا في المدرسة الحربية بعد دورة تطبيقية على المدفعية في فرنسا والولايات المتحدة، كان لحود بنتيجتها أحد المبرزين. وفي ١٩٥٤ توجه في دورة أخرى الى فرنسا حيث بقي قرابة خمسة أشهر اختاره غايز بعدها ليحل محله في تعليم مادة الباليستيك، وهي أدق المواد التي تدرس في الكليات الحربية لاتصالها بمسار القذيفة داخل الاسطون وخارجه وتقاطعها مع علوم كثيرة أخرى. عندها كان غابي استاذا ناجحا له حضوره، متقيدا بتعاليم المدرسة الفرنسية التقليدية في العسكريتاريا، وهي التي تقوم، بعكس الاميركية، على المسافة والتراتب.

بدا غابي بعيدا وعلى قدر من الانطواء، كما يقول أحد عارفيه آنذاك، لكنه تغير في الشعبة الثانيةليصبح أكثر اجتماعية من دون أن يتخلى عن تأثيرات التعاليم المذكورة.

ويروي عنه ذاك العارف انه كان من الضباط المحبين للمعرفة والاطلاع، يستهويه الجلوس مع المثقفين والاستماع اليهم، ولا يتردد في أن يطلب كتابا من أحدهم أو أن يسأل آخر تلخيص كتاب له.

واليوم لا يزال غابي على شيء من الخجل، بما يوحي انه يداريه بكثرة الكلام، أو بضحك يأتي صاخبا لانقطاع صاحبه عن الضحك العادي.

وغابي الطويل من دون بدانة، لا تخلو حركته من رشاقة وان كان تعب السنين أبعد وجهه

عن تلك الصورة المعروفة التي أخذت له في الستينات. جميل الوجه على بياض بهت قليلا بما جعله يشبه بعض السجناء ممن لم تحظ سحناتهم بما يكفي من ضوء الشمس.

ولا يكف مظهر غابي عن التذكير بتلك الصورة المعروفة لأحمد بن بلا وحسين آيت أحمد ورابح بيطاط ورفاقهم حين كانوا في السجن الفرنسي بعد انزال طائرتهم.

الا ان جمال وجهه بما فيه من عينين حالمتين، ينقلب شيئا آخر حين يضحك غابي. ذلك ان نابي الفك الأعلى طويلان بشكل ملحوظ فيما اسنان الفك الأدنى كبيرة ويعوزها التجانس. وهكذا يلوح دائما وجه كريستوفر لي الذي يمثل أدوار دراكولا في ضحكات غابي، الأمر الذي لا يبدده الا لطف الرجل ورقة معشره.

الشعر المردود الى الوراء لم يعد كثيفا كما كان في الصورة القديمة، وعلى جانبيه سالفان شائبان هما حدود المدى العريض للجبهة والجبين. أما تقاطيع الوجه فمعتدلة مع نزوع الى الكبر، وخصوصا منها الأنف الذي تقيم ثالولة سوداء في أدناه وشامية في أعلاه.

وحين يتحدث غابي، وهو ميال للاستفاضة، يخرج منه صوت على قليل من التهدج والغنة، فيما يهتز الجسم كله مع الكلام وتحافظ اليدان على رجفة طفيفة لا يقطعها الا تشبير الأصابع الطويلة ذات الأظافر المتروكة، من دون قص.

خلفيات في العائلة والجيش

والد غابي، مارون لحود، كان عربجيا في العهد التركي. ومع الانتداب اشترى السيارة الأولى في منطقته بما ينم عن تواضع المنبت الاجتماعي الذي يشابه منبت أسرة الأم السيدة شفيقة شاهين. والعائلتان البتدينيتان صغيرتا العدد ولا تفصل بينهما اختلافات في الهوى «السياسي».

يروي غابي لحود: لا أعرف مصدر القصة التي راجت عن أبي بوصفه كان مرافقا للشيخ بشارة الخوري. ما أعرفه ان القصة غير صحيحة لأن الوالد كان من غلاة الكتلويين المؤيدين للمطران أوغسطين البستاني الذي كانت كرسيه في بيت الدين حيث بلغ تأثيره شأنا بعيدا. أصهرة الوالد كانوا دستوريين من ال شكيبان، بعكسه. أما آل شاهين فكانوا على الولاء نفسه لأن الأب مارون شاهين، خال غابي، وضعهم أيضا في نطاق رغبة المطران البستاني، الابن الشهير لدير القمر. ويبدو أن التدين كان له حضوره في بيت مارون لحود الذي انضم ابنه اميل الى الكهنوت واحدى كريماته الى الرهبنة.

ولد غابي لحود في بيت الدين في تشرين الثاني ١٩٣١ ودرس في معهد الفرير في دير القمر الى أن نال شهادة البريفيه، فانتقل الى فرير الجميزة وهناك أنجز المرحلة الثانوية ليدخل، العام ١٩٤٩، الى الكلية الحربية.

هل سبق ان تعاطفت ابان دراستك مع حزب سياسي؟

الواقع انني اخترت الجندية لما كانت تمثله من ابتعاد عن السياسة. كنت أتألم من التناحر الدستوري ـ الكتلوي. الشيخ نديم الخوري، شقيق الشيخ بشاره، كان يقيم في بيت الدين، والمطران البستاني المقرب من اميل اده كان مقره هناك. عند كل الشباب الرافضين للتناحر السياسي التقليدي كان الجيش وفؤاد شهاب يمثلان هذا الابتعاد. الشاب الذي يريد أن يكون مستقلا عليه بالجيش.

لماذا لم تفكروا بحزب الكتائب كطرف يقف خارج الصراع المذكور؟

آنذاك، في ١٩٤٩ لم تكن الكتائب تمثل شيئا يذكر في بيت الدين.

من هنا يفهم المصدر البعيد لشهابية لحود: ترفع عدالي وشبابي عن نزاعات متوارثة يميل الشبان الى التحرر من مفاعيلها. ومن أكثر من فؤاد شهاب ميلا الى التسامي عن السياسة وسياسيي «أكلة الجبنة».

ونمضي مع القصة التي قادت الابن الى أبيه:

ففي ١٩٥٦ اقترن غابي بفتاة فرنسية هي اليان دوفلامنك تعرف بها في بلادها حين ذهب قبل عامين لاتمام احدى دوراته. ومن زواجه هذا أنجب أربعة ابناء هم كريستين (٣١ سنة) التي يقول والدها انها قادرة على جمع المتناقضات من كتابة الشعر والرسم الى العمل المصرفي، وهي الآن موظفة في بنك باريسيان انترناسيونال في باريس، ويولاند (٢٩) التي أنجزت دراستها الجامعية وتدير اعمال والدها في مدريد، وبول (٢٥) الذي أنجز دراسة ادارة الأعمال في جامعة سانت لويس بالولايات المتحدة، وفيليب الذي يصغره بعامين ويدرس المادة نفسها في الجامعة نفسها.

لكن زواج غابي شكل مناسبة لحدث آخر ليس قليل الأهمية. فيومذاك تعرف على قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب الذي كان يرعى ضباطه رعاية الأب فعلا.

استدعاني شهاب وقال لي، كما يروي غابي، يا ابني علمت أنك ستتزوج فتاة فرنسية. أنا تزوجت فرنسية ووفقت بزواجي لكن كثيرين آخرين فعلوا الشيء نفسه، ولم يوفقوا، وأخاف عليك أن تكون من هؤلاء الذين يصيبهم الفشل.

وفيما كان غابي يعرض حججه المقنعة، خصوصا وان الرأي الأخير في أمر زواج الضابط هو للقيادة العسكرية، مضى شهاب:

أنت، ستنتقل كضابط من مكان الى آخر. عائلتها لها عادات وعائلتك عندها عادات أخرى. أنتم تأكلون كبه ومجدره...

وعاد غابي يدافع عن مشروع زواجه بما ألجأ شهاب الى خرطوشته الأخيرة:

واذا رفضت القيادة؟

عندئذ، أجاب غابي، يكون حظي سيئا، وأضطر متألما لأن أستقيل من الجيش.

اذا كان الأمر هكذا والى هذا الحد، فمبروك، قال شهاب وابتسم بسمته المقتصدة المعروفة.

في «المكتب الثاني»

منذ ١٩٥٦ عهد برئاسة الشعبة الثانية أو «المكتب الثاني»، بحسب التسمية الرائجة، الى انطون سعد. وفي الأسابيع الأخيرة من عهد شهاب (١٩٦٤) نقل سعد الى قيادة منطقة جبل لبنان ليحل محله غابي لحود العامل في الشعبة إياها منذ ١٩٥٩. ففي هذه السنة الأخيرة كان لحود في عداد ضباط آخرين كأحمد الحاج اختارهم العهد الشهابي الجديد لهذه المهمة رغم مسارعته في نقل الأخير وتسليمه الغرفة العسكرية في القصر.

وانتقال غابي الى الشعبة الثانية أوجبه، تبعا للاعتبارات الطائفية المعمول بها، احلال ضابط ماروني محل انطوان لحد الشمعوني ابن كفرقطره في الشوف والذي أبعدته الاجراءات الشهابية الى موقع أقل تأثيرا. وعملا بالاعتبارات نفسها حل سامي الخطيب السني محل الحاج المنقول الى القصر.

كان ضباط الشعبة الثانية سياسيا مجرد حالات خام فيها بعض الميول العدالية والرغبات الشبابية الغامضة، لكن الشهابية هي التي تولت صقلها وتسييسها، فيما كان سحر الرئيس الجنرال قوام الصقل والتسييس، وكره التقليد السياسي عمادهما.

وما عرف اذاك من أفكار غابي وأدواره الأخرى انه لم يكن طائفيا ولا كان كشوفي من محبي الرئيس شمعون. وعندما حصل الانقلاب القومي كان يخضع لدورة أركان هي دورته الثالثة في فرنسا بوصفه مسؤول الأمن العسكري في الشعبة، أي الحقل الذي يتصل بشؤون الجيش.

وربما لعبت الصدفة دورها في تعزيز قناعة غابي بأنه لم يتورط في عنف يستحق الذكر. فهو لم يشارك في سحق الانقلاب مشاركة رفاقه الآخرين، بينما أوكلت اليه مهام ضئيلة خارج نطاق الجيش نفسه.

حينما اختير غابي لرئاسة «الشعبة الثانية» كان واحدا من نخبة ضباط الجيش. فالشعبة كانت تضم قلة من الضباط بينهم فضلا عن رئيسها انطون سعد، وغابي لحود، كلا من جان ناصيف وسامي الخطيب وسامي الشيخة وادغار معلوف وعباس حمدان. لكن عدد ضباطها ارتفع في عهد غابي الى ١٢ ضابطا في ١٩٦٥ ومن ثم لحوالي ٢٢ ضابطا أحدهم كان جوني عبده الذي ضم الى الشعبة في ١٩٦٦.

وفي عهد رئاسة لحود الذي استمر حتى نهاية عهد الرئيس شارل حلو (١٩٧٠) تزايد عدد

الضباط واتسعت شبكة المجندين لتشمل ١٢٠٠ شخص، فيما بلغت الموازنة السنوية ١,٤ مليون ليرة. أما «أمراء» الجهاز ممن أحاطوا بغابي فكانوا نعيم فرح «هتلر البقاع»، وسامي الخطيب في بيروت، وسامي الشيخة في الشمال، وكمال عبد الملك في الجبل.

لكن التوسع كان يتم في عكس الريح السياسية السائدة بما جعل وراثة غابي لحود لانطون سعد تبدو كوراثة شارل حلو لفؤاد شهاب: الأولى تراجع اضطراري والثانية تراجع مخطط. ولم يبق من نشاطات متاحة للجهاز غير ذاك المتعلق بالحد من النشاط الفدائي الفلسطيني:

في ١٩٦٥ حملة اعتقالات الهدف منها الحد من التسلل عبر الجنوب وكان ياسر عرفات أحد الذين اعتقلوا. وفي ١٩٦٩ محاولات يائسة لمكافحة النشاط الفلسطيني في الوسط الاسلامي الذي كان في السابق وسط التعاطف مع الشهابية.

وقيل ان آخر أعمال غابي في رئاسة «الشعبة الثانية» ابعاد الجنرال اميل بستاني عن قيادة الجيش بذريعة توقيعه «اتفاق القاهرة».

السقطات الكبيرة

حين رفض فؤاد شهاب التجديد في ١٩٦٤ انتاب الأسى والمرارة غابي وسائر زملائه الضباط، برغم الارتياح النسبي الذي أحدثه وصول شارل حلو الى السدة الرئاسية. عندها انيطت بلحود مهمة العلاقة برئيس الجمهورية والتنسيق معه، فبات عمليا بمثابة الوسيط بينه وبين الرئيس السابق فؤاد شهاب.

ويأخذ بعض غلاة المكتب الثاني على غابي انه أبدى في تلك المرحلة حسن نية هو ممنوع تعريفا في المكتب المذكور. فالرجل بدل ان يقنع حلو بافكار شهاب راح يساير الأول ويقنع الثاني بأفكاره بحجة ان ذلك «يمسك حلو أكثر».

والمشكلة الأولى ظهرت مع الانتخابات الفرعية في جبيل في ١٩٦٥ بعد رحيل نائبها الشهابي الدكتور انطون سعيد، فيما كان حلو يبحث بكثير من المواربة عن وسيلة يستقل بها عن الشهابية ووطأة أجهزتها. آنذاك كان تقي الدين الصلح المقرب من شهاب وزير الداخلية الذي يريد اجراء انتخابات خالية من التدخل الرسمي.

ووقعت الحيرة، فلم يعرف ضباط الشعبة الثانية كيف يتصرفون: هل يتدخلون على جاري العادة ويسقطون ريمون اده بأي ثمن كان، أم يحضنون محاولة الصلح ويبقون على صلة الود مؤكدين له انهم لن يقفوا حجرة عثرة في طريقه.

لا هذا حصل ولا ذاك، وتصرف الضباط الذين لم يتدخلوا بعدائية حيال الصلح الذي خسروا صداقة كانت تجمعهم به، وراح شارل حلو يفكر في الضربة التالية يكيلها لأبناء الجنرال المعلم.

وجاءت انتخابات ١٩٦٨ وكيلت ضربة أخرى كبيرة للشهابية، ولم يعدم القائلون بأن غابي لحود المهذب و«الخواجة»، ما كان ينبغي ان يسمح بتشكيل حكومة للانتخابات يحتل فيها سليمان فرنجية وزارة الداخلية وهنري فرعون وزارة الدولة. فالانتخابات كما يعرف الجميع تمهيد للانتخابات الرئاسية في ١٩٧٠، ومع هذا عمل غابي ذو النوايا الحسنة على اقناع شهاب بالموافقة على تلك التشكيلة الحكومية، ولم يتدخل في مجرى الانتخابات الا بقدر طفيف تصعب مقارنته بمداخلات ١٩٦٤.

كل ما فعلته الشعبة الثانية التي أعوزتها المبادرة يومذاك انها نجحت بعد الانتخابات في انتزاع نائبي مرجعيون ممدوح العبد الله وعلي ماضي من كتلة كامل الأسعد، مؤدية الى حرمانهما مقعديهما الانتخابيين في ١٩٧٢ حيث حل على اللائحة الأسعدية علي العبد الله ومنيف الخطيب محلهما.

وكانت ثالثة الأثافي انتخابات ١٩٧٠ الرئاسية. فغابي المهذب والجنتلمان اعتبر ان في وسع الشعبة ان تدفع النواب الى تبني مواقفها كما كانت الحال في السابق، وغره كلام معسول سمعه من كثيرين كانوا يحتلون مواقع رجراجة بين الشهابية ومعارضيها.

وخيضت المعركة من دون أي غطاء بحيث اضطر منظموها الى ادارتها من بيت غابي لحود في فرن الشباك. كانت معركة «يا قاتل يا مقتول وجميع الأوراق مكشوفة» بحسب وصف أحد المعنيين. وفاز سليمان فرنجية، كما هو معروف، على المرشح الشهابي الياس سركيس بفارق الصوت الواحد.

ولم تعد سرا تلك القصص الشهيرة عن ذاك الصوت بما تنم عنه من سخافة واضطرار الى الاحتكام للصدف والمفاجآت العابرة. وبين أكثرها ذيوعا كيف ان نائب جبيل الادي أحمد اسبر صوت في الدورة الأولى الى جانب سركيس مقابل كمية من المال، فحين اكتشف ريمون اده الأمر رمى ورقتين في الصندوق وعطل الانتخابات. وبعد ان هدده رئيس الكتلة بحرمانه نهائيا من النيابة في قضاء جبيل، عاد اسبر الى امتثاله وصوت لفرنجية.

بيد ان الوصول الى هذا الوضع العاري لم ينفصل عن حادثة معروفة أدت الى رفع الغطاء الاسلامي والعروبي والجنبلاطي عن جهاز لم يكف المسيحيون عن معارضته. والحادثة المشار اليها ليست سوى قصة الميراج.

فالرئيس عبد الناصر أراد الحصول على طائرة ميراج لمجرد اطلاع الطيارين المصريين عليها وتعريفهم الى سرها. وسرها كان طاغيا على هؤلاء الطيارين بحيث انهم كلما رأوها في الجو يقودها اسرائيليون سقطوا أرضا.

ويبدو ان الرئيس المصري طلبها ثلاث مرات من الرئيس حلو الذي رفض اعارتها برغم

استعداد قائد الجيش يومها اللواء اميل بستاني لتسريبها سرا الى القاهرة. ولما يئس عبدالناصر من امكان الاطلاع على الطائرة الفرنسية التي تم شراؤ ها بأموال عربية قررت في القمة العربية الأولى في ١٩٦٤، صمم على اللجوء الى حلفائه السوفيات الذين قالوا له: نحن نسرق واحدة ونأتيك بها. وأنيطت المهمة بالضابط محمود مطر.

كان ذلك في العام ١٩٦٩، أي سنة بلوغ النشاط الفلسطيني ذروته. وقررت القيادة العسكرية ضبط المتورطين في العملية السوفياتية الهادفة الى نقل الطائرة سرا الى مطار يقرر لاحقا. فمطر سبق ان أطلع المكتب الثاني وجعل العملية تنكشف وتقود الى دهم منزل الملحق العسكري السوفياتي.

يروي غابي: كان مقررا أن يتم كل شيء بصمت، لكن اطلاق النار بدأ لسبب غير معروف. أصيب عسكريون. أصيب عباس حمدان في بطنه ونقل الى المستشفى. كانت النتيجة كارثية...

ولئن استاء عبد الناصر حليف الشهابية وراعيها العربي، فالاعلام السوفياتي لم يتردد في الحديث عن المكتب الثاني بوصفه أداة السي. أي. آي الاميركية، الكلام الخطير الذي بدأ كمال جنبلاط يقول مثله ويحذو حذوه في الداخل.

المكتب الثاني بلا أي غطاء اذن!

قراءات وثقافة وآراء

غابي لحود يغمض عينيه احيانا وهو يتحدث بلهجة شوفية طاغية كما لو كان يستجمع ذاكرة، او ربما قوة ما. وهو يصفن ويطيل الصفنة بما يوحي انه لم يتصالح تماماً مع تعاقب الازمنة وترتيب هذا التعاقب في ذهنه. يستطرد في الكلام ويبالغ في استطراده ثم يعود الى علبة كلان يأخذ منها بعض التبغ لغليونه.

نسأل غابي لحود ما اذا كان يتابع الصحف؟

إبان عملي كنت اهتم بالاطلاع على «النهار» و «الانوار» لأنهما تمثلان وجهتي النظر الرئيسيتين. الآن اتابع «النهار» و «السفير».

هل تلفتك المسائل الثقافية؟ شعر. ادب...

لأ. بقدرو. بنبسط فيه. بنبسط اسمع شعر. ما يبقى لي من الوقت احب ان اصرفه على التعليقات السياسية، الدولية والاقليمية، واللبنانية...

هل من كتب معينة؟

نعم. آخر من قرأت كان كتاب كلود جوليان «الامبراطورية الاميركية» وقرأت بعض مذكرات كسينجر لكنني لم اكملها.

سينما. مسرح؟

احب الافلام التي فيها تعبير عن حقيقة الحياة. اما المبني على الخيال فلا احبه.

انت معروف باجادة اللغات. هل كنت، مثلاً، تعرف الاسبانية قبل الانتقال الى اسبانيا؟

لا تعلمت الاسبانية في اسبانيا. الآن اكتب العربية والفرنسية والاسبانية بنفس السهولة. انكليزيتي جيدة. والمانيتي لا بأس بها. درست الالمانية حينما ذهبت اواخر ١٩٦٩ الى النمسا وتشيكوسلوفاكيا لمعالجة ظهري. كان هناك متسع من الوقت... كذلك لدي المام باليونانية والايطالية لكنني لم اهتم بتطوير معرفتي بهاتين اللغتين.

هل تابعت الحياة السياسية الاسبانية: تجربة الملك وغونزاليز، الاقليات...؟

متابعة عن بعد. معجب بما انجزه اسبان ما بعد فرانكو. الديمقراطية ودولة القانون بقيادة الملك وفيليبي غونزاليز. فرانكو قمع الباسك والكاتالان طويلاً، لكنهم وضعوا دستوراً جديداً اخذوا فيه الاقليات بعين الاعتبار. اعطوها الحكم الذاتي وحلوا مشكلة العنف. كانت مراقبة الاحداث الاسبانية درساً اذ ان الحكم الذاتي ليس انفصالاً. انه نوع من لامركزية يجب ان لا تخيف لبنان واللبنانيين. الدول اللامركزية كثيرة: المانيا الفيدرالية، سويسرا، وبلجيكا. هناك من يقول ان هذه الدول نشأت بنتيجة اتحاد الجماعات، وهذا شيء يختلف عن وجود بلد قائم يراد جعله لا مركزياً. اسبانيا تقدم المثل على ان البلد القائم والموحد يمكنه هو ايضاً ان يتبنى اللامركزية...

بين المسائل السياسية المثارة اليوم مشكلتا الطائفية السياسية والعلاقات اللبنانية ـ السورية؟

الغاء الطائفية السياسية هدف يجب ان نسعى اليه. طموح نناله على مراحل. اول مرحلة تبدأ بعدم اثارة النعرات الطائفية. الطوائف موجودة قبل الاحزاب في لبنان، والكثير من الاحزاب احزاب طوائف. العمل على اساس طائفي تأخر، ما في شك. لكن الطائفية لا تزال مشرشة في لبنان ويلزمها وقت. اما العلاقات مع سوريا، فهذا الامر يعيدنا لتعاليم فؤاد شهاب. اول شيء كلفت به عند مجيئي الى الشعبة الثانية في ١٩٥٩ هو العلاقة مع سوريا. طلب شهاب من انطون سعد ان يرسل له ضابطاً مارونياً كفؤاً، واختارني سعد وارسلني اليه فقال لي بعد ان فتح الخريطة:

هذا لبنان يا ابني وهذا محيطه. كل هذه الحدود في الشرق والشمال سوريا. هذه اسرائيل في الجنوب وهذا البحر غرباً. اسرائيل عدوتنا وسوريا جارتنا والبحر بحر. ابديش منك تقلي شو بدنا من سوريا، بدي تقلي شو بدا سوريا منا. لازم تكون على اتصال مستمر بزملائك في المكتب الثاني السوري.

وفعلاً كنت كل شهر اتوجه الى دمشق او استضيف زميلاً سورياً في بيروت، وكنا نعمل معاً على التغلب على المشكلات التي تثار، وكان اكثر ما يزعجهم في دمشق وجود اللاجئين السوريين

في لبنان وصحافتنا. بالنسبة للصحافة بدأنا وبصداقة اقناعهم ان الحكم لا علاقة له بالصحافة وانه لا يشارك في المؤامرات اذا كانت هناك مؤامرات. اما اللاجئون فمنعناهم خلال وجودهم في لبنان من التعاطي باي عمل سياسي. يستطيعون الاقامة كما يشاؤون واين يشاؤون، ويستطيعون التنظير ما طاب لهم ذلك. اما العمل السياسي فلا.

ويستخلص لحود: سوريا، وخاصة سوريا اليوم بقيادة الرئيس حافظ الاسد معطى لها دور قيادي كبير. الاسد من رجال الدولة الاولين في العالم، مثل غورباتشيوف وتاتشر وميتران وغونزاليز. واضح الرؤية في اللعبة الدولية وموازين القوى. وعلينا ان نستمد من قوة سوريا قوة. علينا ان نتعاطى معها بصدق. الحاكم اللبناني يجب ان يتجاوز الحساسيات حيال جاره ويكون حليفاً. في الصراع العربي ـ الاسرائيلي لا يستطيع لبنان ان يكون عبئاً على العرب. المهم في العلاقات الثنائية يلخص في امر بسيط: من هم المسؤولون الذين يتعاملون مع سوريا.

ولا ينسى غابي لحود ان يتوقع انفراجات يجد مصادرها في عناصر كثيرة يتوقف منها عند الانتفاضة الفلسطينية عربياً، وغورباتشيوف دولياً. فالزعيم السوفياتي حجر زاوية ثابت في التحليلات السياسية لغابي لحود الذي لا يكتم اعجابه بسيد الكرملين وبراعته.

وثقافة غابي لحود الذي كان لنا كلام طويل معه عن الشهابية ومراجعة تجربتها، ثقافة ذات طابع اجرائي وعملاني. فالحدث دائماً في صدارة التحليل والموقف، الا انه حدث مخصي عديم الظلال. وهنا يحافظ غابي على امانته لعسكريته وان كان استعداده النقدي يدرجه في خانة غير عسكرية.

فهو مستعد لأن يقر ويعترف بقصور التجربة الشهابية في العلاقة مع البنى السياسية والثقافية وفي الممارسات التي تجلت بها هذه العلاقة.

قلنا له، بين ما قلناه، ان من اخطاء الشهابية القاتلة اسقاط كميل شمعون وريمون اده في ١٩٦٤. فهذا خلق احتقانا مارونياً ترجم عندما انقلبت الموازين في انشاء «الحلف الثلاثي». وقلنا له ان هذا الاحتقان يشبه الاحتقان الاسلامي في ١٩٥٧ حين اسقط كمال جنبلاط في الشوف ومعظم الزعماء المسلمين...

وغالبي الذي وافق، سرد لنا ظروف سقوط شمعون يومذاك اذ كانت الشوف في عهدته.

قال: كنا في الاصل متخوفين على كمال جنبلاط. اعتقدنا ان شمعون قوي جداً وصار همنا تأمين نجاح جنبلاط وحده. تدخلنا وتوجيهنا، رغم ان المعارضة ضخمتها كثيراً، جعلا الفارق كبيراً لصالح جنبلاط لان شمعون لم يكن بالقوة التي افترضناها فيه. فوجئنا نحن بالنتائج.

ونتحدث مع غابي عن تلك الايام في حضور زميله العميد سامي الخطيب. الكلام يختلط بذاكرة وشجن واصداء واحداث فتقترب الازمنة البعيدة التي تستنطق.

يروي غابي انه حين تسلم رئاسة «الشعبة الثانية» قال لضباطه ان له نهجاً قد يختلف عن نهج سلفه انطون سعد، برغم استناده الى تجربة سعد كتراث ينطلق منه. ويتحدث عن زيارة لجريدة «النهار» كي يقنعها بان تكون اكثر دقة في معارضتها لأن الغول الطائفي قد يبتلع الجميع ولا يستطيع احد ضبطه. يومذاك فوجىء العميد اده بوجود غابي في مكتب غسان تويني والقصة كانت تكليف عبدالله اليافي في نيسان ١٩٦٦ بتشكيل حكومة ارادها الشهابيون لرشيد كرامي.

المسلمون تحركوا معتبرين ان تسمية اليافي من قبل رئيس الجمهورية شارل حلو هو تجاوز لهم وافتئات عليهم اذ ان رشيد كرامي هو القطب الذي يرشحونه للحكومة. وفي مقابل هذا التحرك اعلن الشيخ بيار الجميل ان صلاحيات رئيس الجمهورية مطلقة لا تمس. وراح غابي لحود يحاول الحد من امتداد الحريق، لكن اده بدا في حيرة من امره: إذا صمت ترك الحلبة للشيخ بيار، وإذا تكلم مشى وراءه.

محنة فعودة

لدى انتخاب سليمان فرنجية للرئاسة كانت مرارة غابي وضباطه حادة. فالهزيمة حلت بالشهابية والشهابيين ودورهم لا بد ان يتعرض لتقليص مؤكد.

مع هذا توجه ضباط الشعبة الى الرئيس الجديد بقصد التهنئة وهم يظنون ان التحول السياسي لن يبلغ الحد الذي بلغه ولن يترك الآثار التي تركها.

وجيء بميشال اسعد ليحل محل غابي وهو شهابي ملطف لم يقتنع به المعارضون الذين وصلوا الى الحكم بوصول فرنجية، فكانت رئاسة الشعبة الثانية من نصيب جول بستاني. اما الابعاد فكان اوله النقل في ١٩٧١ الى ملاك وزارة الخارجية وتعيين الضباط العتاة ملحقين عسكريين في الخارج. لكن الرئيس صائب سلام والعميد ريمون اده استمرا في حملتهما على المكتب الثاني والضغط لمحاسبة رموزه. وهكذا اقيل لحود من منصبه واخرج من الجيش، فاعتبر ان الامر انتهى عند هذا الحد واسس في مدريد «الشركة الاسبانية العربية الافريقية» (اسباراسا) للتصدير والاستيراد المتعدد الاتجاهات والاسواق. الا انه حين عاد الى لبنان اعتقل واودع ثكنة مرجعيون طيلة ستين يوماً.

بخروجه من السجن توجه الى اسبانيا حيث قرر الاقامة لكن الملف فتح على اوسع نطاق واجريت محاكمات كانت بينها واحدة غيابية لغابي الذي شارك المحامي النائب امين الجميل في الدفاع عنه. وفي ٧ نيسان ١٩٧٣ صدر عن الحكم العسكري الحكم التالي نصه:

«وضع المقدم غبريال مارون لحود رئيس الشعبة الثانية سابقاً في الاشغال الشاقة المؤقتة خمس سنوات لجهة حجز حرية اشخاص اعتباطاً، والسجن سنة لجهة سوء استعمال الوظيفة وسنة لجهة التهويل وسنة لجهة مخالفة التعليمات العسكرية، وتبرئته من تهمة اتلاف المستندات على ان تنفذ في حقه العقوبة الأشد».

وفي ١٩٧٤ وكانت الأمور بردت قليلاً وانفك حلف فرنجية وسلام، جاء الى بيروت ومثل امام المحكمة العسكرية فاخلي بسند اقامة واعلنت براءته وعاد الى اسبانيا.

بيد ان صعود صديقه الشهابي الياس سركيس الى السدة الرئاسية في ١٩٧٦ انعش بعض آمال غابي. فبعد عامين اقترحه سركيس قائداً للجيش فاحبطت الاقتراح تحفظات «الجبهة اللبنانية» على الرمز الشهابي، وكان الرئيس شمعون شيخ المتحفظين. وهكذا احتل فيكتور خوري المنصب الشاغر.

وقبل ان تنتهي ولاية الرئيس الشهابي، وتحديداً في ايار ١٩٨٢، صدر المرسوم ٥١٩١ الذي يعيد لحود الى الجيش ويرقيه الى رتبة عميد بمفعول رجعي يعود الى ١٩٧٨/١/١. ووجد في دوائر الصحافيين والمراقبين من يربط بين هذا المرسوم وبين نية شهابية بان يكون غابي مرشح ١٩٨٢ الرئاسي.

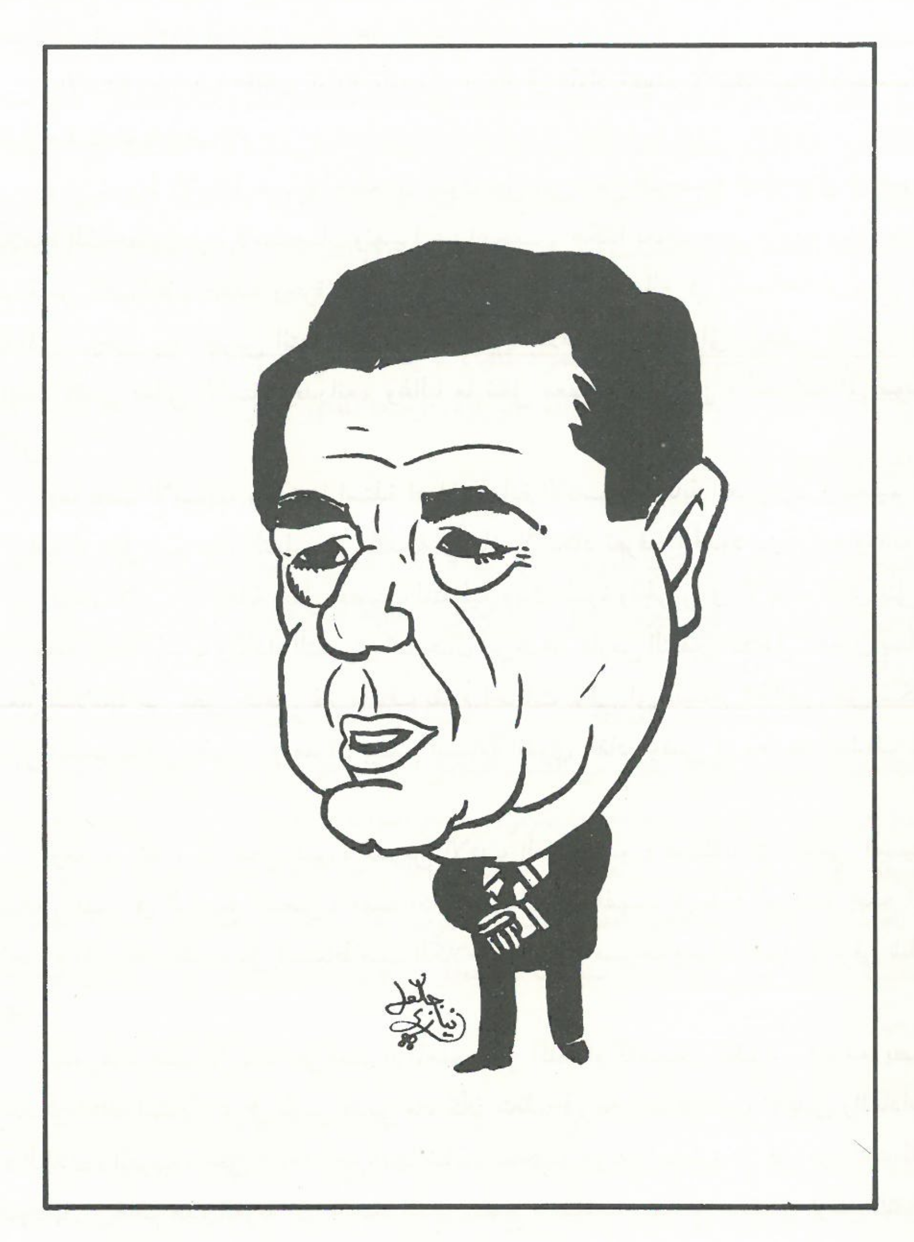
وفعلاً تردد، قبل ان يحسم بشير الجميل في امر ترشيحه للرئاسة، اسم غابي لحود مرشحاً توافقياً محتملاً، يتم عبره احياء صيغة لا غالب ولا مغلوب، ويرتاح اليه الرئيس سركيس. لكن وصول بشير قطع الطريق واحتجب غابي مجدداً مع الكثيرين الذين احتجبوا وحجبوا، ليعود الى دائرة الضوء مع وصول الشيخ امين الى الرئاسة. فمحاميه السابق اصطحبه في زيارة الى السعودية كانت كافية لجعل الكثيرين من المراقبين ينتبهون الى علاقات بناها مع الخليجيين من طريق عمله التجاري في مدريد.

وغابي الذي يطرح اسمه اليوم مرشحاً للرئاسة، يجمع عارفوه انه لم يكن بطاشاً كسلفه في المكتب الثاني انطوان سعد. وهو يعتز بتقديم نفسه محاوراً ويتغنى باهتمامه في متابعة صحف المعارضة والحوار معها. وهذه النزعة الحوارية هي التي جعلت البعض يسميه «خواجة» بما لا يكتم السخرية من ضابط المدفعية الذي يتسم بالخواجاتية. اما البعض الآخر الاكثر ايلاماً في نقده فيراه واحداً من اسباب اندحار الشهابية، وفي هذا ظلم مؤكد لأن الشهابية كانت شرعت تدحر نفسها لا بنفسها فقط بل بوضع اقليمي ودولي غير مؤاتٍ.

لكن يبقى ملحوظاً ان غابي يتوقف من الشهابية التي يدين بها، اكثر ما يتوقف، عند طابعها المؤسسي. يعد المؤسسات التي انشأتها.

ويعود اليها والى عدها مراراً وتكراراً. يتحدث عن بعثة ايرفد التي اتى بها الرئيس الراحل لأنها اجنبية بعيدة عن الاغراض اللبنانية. يعنيه من الشهابية انها انماء ومؤسسات ولا يتردد في ابداء كرهه للعنف والقمع «اللذين لا يجوزان في الدول المتحضرة».

ومع هذا كله وبفعل اصداء غامضة وملتبسة، لاحت الجلسة التي ضمتنا الى العميدين لحود والخطيب وكأنها تنطوي على اسرار كثيرة. فحين كانت تلتقي اعين العميدين كان شبح للشيخ زنكي يحوم في غرفة المكتب.



جوزيف الهاشم

يقول تلامذة المدرسة في معرض الوصف والتصنيف : هذا استاذ المادة الفلانية وذاك استاذ المادة الاخرى. وهذا قوي في مادته على عكس ذاك.

والاستاذ جوزيف الهاشم استاذ بامتياز. استاذ في المواد كلها، لا يكن عن الايحاء بانه « قوي» فيها كلها ايضا.

ومن شروط الاستاذ المحب لعمله ان يكون على شيء من النرجسية يجعله يرى في عيون التلامذة الشاخصين مرآة لاستحسان وتعبيرا عن اعجاب. هكذا يعود، وهو امامهم، الى حالة متفلتة من الضوابط، طفلية وحرة احيانا، فيبالغ في الالقاء او يبالغ في الفصاحة او يبالغ في التذاكي. وحين يرن جرس انتهاء الدروس ينضم الطلاب بعضهم الى البعض الاخر، في حلقات تقص مفاتن الاستاذ وقدراته، وغالبا ما تنقل معها هذه المفاتن والقدرات الى بيوت الاهل.

وما يفعم الاستاذية ويزيدها استذة امران: مادة الادب والخطابة العربيين، والتعليم في الارياف او نقل قيم هذا التعليم الى المدينة في بلد لا تكاد تعرف الحدود بين ريفه ومدنه.

فمادة الادب والخطابة حقل خصيب للتقطيع وبث النبرة والجرس في الانشاء الذي يتلى، فاذا اضفنا الطلة المنبرية والاداء التعبيري كنا حيال نبي صغير يمارس التلقين الكامل. فحين يسأله صغار التلامذة عن معنى جاهلي غير مألوف يقدم اجابات ترقى الى السحر الخالص على شكل منديل مسحوب من الجيب. وبعد ان يبتسم ابتسامة القوي القادر يمضي في معاودة اكتشاف نار ما.

وهذا، ربما ، ما جعل صورة مدرس الادب العربي صورة مستقلة في الوعي البسيط الشائع. فهو، في الراجح الشعبي، فهيم اكثر مما ينبغي. والفهم، في هذا العرف، يجمع الى الاحترام والمسافة والقدرة على استنباط ميت الكلام والافكار، مسرحة وغرابة أطوار لا يرقى شك اليها.

بدورها درجت الارياف على استيراد المعلمين من المدن او القصبات الكبرى. وعندما يصير واحد من ابنائنا استاذا، يمر في طقس مديني ما، كأن يتعلم في خارجها فتتعاوره الايدي والعادات و « البلدان» الغريبة، حتى اذا ما رجع اليها شابت شخصه غربة لا يتعدى الاهل على استبطان مكنوناتها. ويفاقم هذه الغربة ان الاستاذ الذي ينضح « فصاحة» يعرض مادته في ارض الثقافة الشفوية الخالصة، حيث السيادة لايات وحكم وامثلة (ومؤخرا شعارات) تختصر الكتب وتلخص الابحاث والتجارب.

وفي حالي الوفادة من الخارج وعودة الابناء من المدن، يصير « الاستاذ» واحدا من احاديث نساء القرية وهن على التنور. هذه تشتهيه عريسا لابنتها، وتلك ترى في ملبسه ومظهره تشخيصا

لحلم مر وانقضى من دون ان يعثر على فارسه. ويا ما نشأت في الشرق الاوسط احزاب من حول « اساتذة» تضافر الغموض والغرابة والفصاحة والتعليم والمسرحة لتجعل منهم ما صاروا عليه.

بيد ان الاستاذ ليس مختلفا عن جمهوره، في اخر المطاف، الى الحد المتوهم. فهو يستعير الكثير من احكامهم ومعاييرهم ونظرتهم الى الامور ويضفي عليها لونا من الحذلقة التي لا تتعدى الشكل والاخراج في غالب الاحيان. ومن هنا يصير الاستاذ « قويا» ، فتستعار له، او يستعير هو نفسه، تلك اللغة التي استعملت لوصف تربيع الجرس في القرية او رفع جرن الكبة في ساحتها.

امتلاء الذات

جوزيف الهاشم استاذ قوي للمواد كلها، لا ينقصه شيء من امتلاء الذات بما سكبه الله فيها. استاذ للحزب والعائلة والصداقة والوزارة، وطبعا المظهر الذي ينبغي ان يلازم اداء هذه « المواد» مجتمعة.

اللقاء في مكتبه في وزارة البرق والبريد والهاتف. مدخل الوزارة فيه صور قديمة ومهملة للشيخ بشير الجميل. ومكتب الوزير، كما رأينا لاحقا، ككل مكتب رسمي: وراء كرسيه صورة رئيس الجمهورية الشيخ امين الجميل. لكن على الطاولة صورة للشيخ بيار الجميل هي مما لا تسوغه رسمية المكتب.

تستقبلنا السكرتيرة، اللطيفة التي توزع ابتساماتها ذات اليمين وذات اليسار وتهز كتفيها غير عابئة. تسأل عن « السفير». تتذمر من الفساد الشامل. تعتب على اللبنانيين كلهم لانهم لا يضعون حدا للاغراب ويتحدون. نضحك. نثرثر. يسمع صوت باب يفتح. تقول ان مقابلة الوزير لضيفه انتهت. يخرج الوزير. نتصافح. ندخل. نجلس على طاولة تسعنا جميعا. الوزير يفضل لو نجلس في مكان اخر. هذه افضل للكتابة، نقول. يذعن. يبدأ الحاحه في طلب القهوة التي تعطلت آلتها . يسأل عما اذا كنا سنكتب او نسجل. يقول ان التسجيل افضل بغرض السرعة، موحيا ان وقته ضيق.

نبادره بطرح اسئلة عامة عنه: حياته، تعليمه. يعترض على هذه الامور الشخصية كما لو كان مستفزا قليلا. يجيب بسرعة ويجيب كأنه يتنازل. خذنا بحلمك يا معالي الوزير. سوف نصل الى الاسئلة « الجدية» التي توزن بالاطنان. وحين نصل نكتشف ان عند الوزير متسعا من الوقت.

جوزيف الهاشم ينم بين الفينة والاخرى عن بسمة وديعة مقتصدة. لكنها تخرج منه كما لو كان يزفرها من فج الروح العميق وهو يعاني. فالرجل اميل الى مهابة تسمها الشكلية المحض بميسمها ويتراءى كأن الهاشم يدرس دائما بينه وبين نفسه حركاته وسكناته على نحو دقيق: كيف يدخل على القوم، كيف يلتفت، الى اي حد يجوز ان يبتسم. وهو، بهذا المعنى، يبقى شكلا

هندسيا، مستطيلا اذا وقف، وعددا من الاضلاع والزوايا القائمة اذا قعد.

استرخ قليلا يا معالي الوزير. ومعاليه يكاد ان يسترخي. يأخذ سيجارة مارلبورو لايتس بين الفينة والاخرى، الا ان الطبع لا يلبث ان يغلب التطبع. البسمة الوديعة لا تستطيع ان تخفف من هذا التغليب، وهي بسمة تقفل في نهاية بعض الجمل على شيء من الشطارة ممزوجة بثقة الشاب العصامي بنفسه وتلمسه المتقطع لعقدة الكرافات. وحين تبدو الحاجة ماسة الى توكيد البراعة وحسن التخلص، تهبط البسمة هبوطا استداريا فيصير الفم تماماً كنصف الدائرة السفلي، ومع هذا لا تتحول البسمة الى ضحكة، ولا يخل بانتظام الشكل وتناسقه غير اقتلاع سن من الفك الاعلى الى جهة اليمين.

ايحاء القبضاي ذي الشكيمة ماثل في جوزيف الهاشم. رأسه مدفوع قليلا الى الامام كما الاساتذة الذين يدخلون الى الصف وهم يعرفون انهم قد يتعاركون بالايدي مع التلامذة المشاكسين الاقوى والاطول جسدا.

العينان البنيتان المائلتان الى الصغر فيهما حذاقة وتركيز يظهرهما ذاك الخسوف الصغير في اعلى الانف. وهو لا يقتصد في استعمال هذين التركيز والحذاقة للايحاء بالاهمية في ما يقول ويفعل.

الشعر خفيف مصفف على نحو يخفي قلته في الوسط، ويبدو كانه مصبوغ وان كانت الصبغة لا تصل الى اطرافه من الوراء وعلى الفودين. وتتلوح هذه الصبغة كما لو كانت تشدد على تباين الالوان فيه: جلدة الوجه مائلة الى الاحمرار، واناقة الملبس فيها لمعان كثير لا تخلو منه محرمة الجيب الاعلى من السترة.

معتدل الطول ومعتدل البدانة مع كرش صغير يخترق جسما صحيا وحسن البناء. الايادي البيضاء عليها بعض النمش، والاظافر المتروكة دون قص تمهد لاصابع طويلة. احدها، في اليد اليسرى، محبوس بخاتم كبير يشبه خواتم المشايخ. وجوزيف الهاشم يخبط كل ربع ساعة بقبضته المشدودة على الطاولة الزجاجية، واحيانا يميل الى تحريك اليدين بسخاء ومبالغة كما يفعل شعراء العمود وهم على المنبر. وعندما ترتاح اليد تتلاعب بقلم متروك على الطاولة.

وكثيرا ما يأتي كلام الهاشم اقرب الى التصريح الفصيح فيه الديبلوماسية والشطارة بعد تأهب في الاستماع الى السؤال وتعب من الخطابة. وعلى العموم يتداخل الصحافي الذي يعرض والاستاذ الذي يشرح والخطيب الذي يخطب، فيما يجمد تماما ذاك الخط المتدلي قليلا، والممتد من الذقن الى العنق.

الهاشم والبرجين والكتائب

ولد جوزيف الهاشم في شباط ١٩٣٧ في قرية البرجين التي ينتسب اليها، وهي صغيرة مختلطة يعيش فيها المسلمون السنة والموارنة. وقد اقام فيها آل الهاشم بعد ان وفدوا الى اقليم

الخروب من العاقورة في جرود جبيل، اقامتهم في قرية مجاورة للبرجين وصغيرة أيضا هي عين الحور. والقريتان اليوم مهدمتان بالكامل تقريبا، اذ اعمل المسلحون الكتائبيون الهدم في بيوت مسلمي البرجين عند دخولهم اليها، فحين دخل خصومهم من الاشتراكيين وحلفائهم هدموا بدورهم بيوت المسيحيين في القريتين. العائلة فقيرة برغم اصولها الضاربة في المشيخة العاقورية.

فوالده هاشم الهاشم كان مفتشا في التحري، اما والدته فمن آل ابو شقرا في مزرعة الشوف، وهي احدى العائلات الجنبلاطية تقليديا في المزرعة تبعا لما ورثته من انقسام يزبكي - جنبلاطي لم يقو الانقسام الطائفي اللاحق على اذابته كليا. وهكذا كانت اسرة هاشم الهاشم تقترع للرئيس كميل شمعون ولائحته لكنها درجت على شطب اسمين منها لتضع مكانهما اسمي كمال جنبلاط والسني الاقليمي انور الخطيب.

درس جوزيف الهاشم المرحلة الثانوية في مدرسة الحكمة المعروفة باحتضان الخطابة العربية في بيروت، وهناك انتسب الى «حزب الكتائب اللبنانية». وبعد الحكمة درس الادب العربي في اليسوعية ليعمل لاحقا في التعليم في المدارس الرسمية والخاصة. ويقال انه لا يزال حتى اليوم يحفظ في مكتبه الخاص جميع الدفاتر القديمة التي كان يعد فيها الدروس لتلامذته. واذا صحت الرواية كانت دلالة على لصوق التعليم بنفسه، الشيء الذي تنم عنه عبارات لا يني يكررها، مثل «رح ارجع راجع» او ابتسامة الزهو التي تعقب تبديد الامور غير الواضحة، او طريقة فك عقدة الكرافات ونزع السترة وتعليقها على الكرسي حين ترتفع حرارة «الصف» مع اقتراب فصل الصيف.

على أية حال، فالهاشم مارس الى التعليم العمل الصحافي في جريدة «العمل» الكتائبية، فكتب في الصفحتين الثانية والثالثة قبل أن يكتب زاوية «نقطة حبر» في الصفحة الأولى.

يومذاك كان الحزب، و«العمل» خصوصا، يتعرضان لتحول بارز واكبه جوزيف الهاشم بحماس وكان أحد رموزه، بما جعله لاحقا يتسلم أمانة سر المكتب السياسي. فأي شوط طويل قطعه ابن البرجين في طريقه الى الصدارة الحزبية؟

لم تظهر الكتائبية في قضاء الشوف البعيد نسبيا عن المهد الكتائبي البيروتي - المتني، الا في اواخر الاربعينات، وكانت البدايات الاولى في دير القمر وبيت الدين اكبر قرى التواجد الماروني. اما ابرز الوجوه يومها فكان فيليب البستاني، من بساتنة الدير الذين ساهم صعود نجم كميل شمعون. بيد ان هذه الكتائبية لم تعمر طويلا كما لم يعمر بقاء البستاني في الكتائب وهي تجربة لا تعدو كونها تكرارا لمحاولات كثيرين من رجال الصف الثاني طمحوا في ان يكون الحزب الجديد طريقهم الى الصف الاول.

ولم تظهر الكتائبية بقوة نسبية في الشوف الا في الستينات، وكان ذلك بجهود الشبان المقيمين في المدن وابرزهم جوزيف الهاشم ممن بدأت مسيرة انتقالهم الفعلي الى القيادة مع توسع الحزب في ١٩٥٨. فيومها بدأ الرعيل الاول يتخلى عن جزء من سلطة القرار الحزبي لجيل جديد يختلف عنه في بعض مواصفاته. فالمؤسسون اقرب الى بيروت والمتن وكسروان واوثق صلة بدوائر المال والاعمال والمؤسسات الاقتصادية والتعليمية الكبرى، الشيء الذي ينطبق على جوزيف شادر وانطوان جزار وعبده صعب وطانيوس سابا وغيرهم. أما أبناء جيل ما بعد ١٩٥٨ فمن بيئة جغرافية أكثر تعددا وبعدا عن المركز، وهم في الان عينه يحتلون موقعا أدنى في الهرم الاجتماعي، مؤكدين على عصامية لم ينافسها الا حزب الكتائب نفسه بما أتاحه من فرص سياسية وثقافية للقادمين الجدد.

وبدورهم آثر هؤلاء الأخيرون، الأشد احساسا بالدين الحزبي عليهم والأكثر ادراكا لتغير المعطيات السياسية والعقائدية، جعل الكتائب حزبا بالمعنى الحركي الأقرب الى الحزبية السائدة. وفي هذا السياق وضع سامي أيوب في ١٩٦٦ كتابه «فلسفة العقيدة الكتائبية». وكان جوزيف أبو خليل، قبل ذلك وبعده، يمضي في تحديث البنية التنظيمية للحزب من موقعه كمعاون للأمين العام، عاملا على ربط المركز بالأطراف وانشاء دورات تدريبية لرؤساء الأقسام. ولم يكن بلا دلالة أن أبو خليل ومن بعده الهاشم، وهما الشوفيان اللذان تعاقبا على أمانة المكتب السياسي، كانا أول كتائبيين يلجأ الحزب الى تفريغهما للنشاط التنظيمي.

وحين انتقل جوزيف الهاشم الى الصفحة الأولى في «العمل»، كانت رئاسة التحرير في يد أبو خليل الذي أمسك بها منذ أيار ١٩٦٨، فعمد الى تحويلها من نشرة حزبية الى صحيفة لا تتورع عن أن تنشر في صفحتها الأولى صورا لجمال عبد الناصر أو كمال جنبلاط بما يثير بعض الامتعاضات المتزمتة لقدامى الحزبيين.

المعركة التي لم تتم

في انتخابات ١٩٧٢ العامة رشح حزب الكتائب جوزيف الهاشم رئيس اقليم الشوف حينها عن أحد المقاعد المارونية الثلاثة في القضاء المذكور، فكاد الأمر يتسبب في اثارة خلاف بين الحزب وحليفه الرئيس كميل شمعون الذي رأى في هذا العمل تجرؤا كتائبيا، مارونيا بالتالي، على دخول خط الانقسام الأساسي الشمعوني - الجنبلاطي. سيما وان ولاء آل الهاشم، برغم الاستثناءات، ولاء شمعوني في آخر المطاف. والرئيس شمعون شأن سائر السياسيين لا يستسيغ توسع رقعة النفوذ الكتائبي، فكيف اذا كان هذا التوسع متجها الى عقر داره في الشوف. يضاف الى ذلك أن الأخير الذي ساءه ترشيح الكتائبي طانيوس سابا في قضاء عاليه مستقلاً عن اللائحة المدعومة من شمعون، لم يتحمل على الاطلاق تحويل الاستثناء الى قاعدة تخل بتماسك

الموقف الماروني ووحدته. وهكذا بلغ الأمر بالرئيس الراحل، كما ينقل واحد ممن عاشوا تلك التجربة عن كثب، ان قال للشيخ بيار بما يشبه التهديد المبطن: اذا كنت عازما على المضي بمعركة جوزيف الهاشم في الشوف، فسأكون مضطرا لأن أرشح مارونياً منفردا ضدك في دائرة بيروت الأولى. طويت الصفحة بسحب جوزيف الهاشم، الأمر الذي ربما عمل على اذكاء الاستياء الشعبوي المعتمل في صدره على رموز التقليد السياسي الماروني.

والراهن ان النمو الكتائبي النسبي بين موارنة البرجين لم ينفصل في الأصل عن محاولة العثور على تعبير سياسي مستقل عن بيوتات التقليديين، لا سيما منهم فرع بساتنة الدبية المجاورة للبرجين. وما ينطبق على الهاشم ينطبق على عصاميين كتائبيين كثيرين خصوصاً في المناطق الأبعد عن بيروت والجبل. بيد أن ترشيح الهاشم كان رائزا لفعالية العلاقات المنطقية (من منطقة)، بقدر ما كان حافزا على تعزيز اعتدال الرجل حيال المسائل الطائفية والوطنية. فكما رأينا كان الكتائبي الشاب مارونيا من قرية صغيرة مختلطة في اقليم الخروب. فهو ليس أحد ابناء دير القمر ومنها شمعون وفؤاد الطحيني وبعض البساتنة، أو الدامور ومنها عزيز عون، أو الجية ومنها آل القزي، أو الدبية ومنها الفرع البستاني الآخر الذي كان المرحوم اميل البستاني أبرز رجالاته. وهذا ما جعل الكثيرين من المواطنين السنة في الاقليم يستقبلون الترشيح بتعاطف، بحيث شكلت منهم وفود قصدت الرئيس شمعون في السعديات وطالبته باصطحاب الهاشم على لائحته. والأخير لا يزال حتى اللحظة حريصا على توكيد علاقاته الوثيقة بابناء منطقته من الطائفة السنية وأعيانها، مسترجعا حادث اطلاق النار الذي تعرض له في الأوزاعي عشية اندلاع حرب السنتين، وما لقيه يومذاك من تعاطف في قرى سنية لم يتردد بعضها في اطلاق النار تعبيرا عن الارتياح الى نجاته.

ويروي الهاشم في الاطار نفسه أنه نجح قبل اندلاع الحرب الأهلية في أن يبني للكتائب بيتا في قرية شحيم السنية وصلت عضويته الى ٨٠ شابا. وطبعا لم تغب علاقاته بسنة الاقليم، فضلا عن مسيحييه، عن خدمات استطاع ان يؤديها من خلال الوزارات التي شغلها كتائبيون وكانت في معظمها وزارات خدمات. وبلغ اداء الخدمات أوجه في ١٩٧٤ مع تسلم الكتائبي يومها ادمون رزق وزارة التربية وتعيين الهاشم رئيسا لديوان الوزير.

الاعتدال الكتائبي

على أية حال فاعتدال جوزيف الهاشم في داخل حزب الكتائب قصته تطول. فهو بالغ الاصرار على العيش المشترك والتفكير الميثاقي. ناقد للتعصب في أوساط مسيحية واسعة. مباه بعدم مصافحته لاسرائيلي ولو كان صحافيا. وحتى الشيخ بيار الجميل عندما كان يتطرف، كان جوزيف الهاشم يمتعض وينزوي ولا يقتصد في اظهار مسافته.

واعجاب الهاشم ببيار الجميل من زاوية الميثاقي والتسووي فيه، مصدر آخر من مصادر

اعتداله. فالرجل كان، خصوصا منذ انشاء اذاعة «صوت لبنان» التي تولى ادارتها بنجاح، أحد أقرب المقربين الى الشيخ بيار، بل أقرب من ابنه اليه بحسب ما يقول، بدلالة مرافقته في جميع رحلاته وقيامه بتدوين محاضر جلساته وكتابةبعض تصاريحه في السنوات الأخيرة.

ولهذا فان جوزيف الهاشم لم يكن من الكتائبيين الذين أخذوا بالموجة البشيرية في عزها. فهو لا يستسيغ السلاح لحسم الخلافات السياسية الا عند الاضطرار الأقصى، ولا يستسيغ مطلقا أي شكل من الصلة باسرائيل. وحينما سقطت مؤسسات الحزب الواحدة بعد الأخرى في وجه الصعود البشيري، ظلت اذاعة جوزيف الهاشم تقاوم، وظل صاحبها يشدد على ان المرجع هو الحزب والشيخ بيار لا ابنه الجامح. وكان من نتائج هذا الاصرار ان أقام بشير في ١٩٨١ اذاعة أخرى مستقلة هي «لبنان الحر» التي تم تسليمها لسجعان القزي. الا ان النتائج لم تقتصر على هذا الحد، اذ ثمة من يروي عن محاولتين من بشير للتخلص من الكتائبي المشاكس الذي كان يحتمي بالشيخ بيار، من دون أن يتردد في شهر مسدسه على بشير الذي كان عاجله بشهر المسدس، فوقف الشيخ بيار بين الاثنين.

ولأن الهاشم حافظ على صداقته وولائه للشيخ أمين الجميل بعد أن فرض عليه شقيقه الأصغر طوق العزلة، بادر الشيخ أمين الى مكافأته بعد وصوله الى الرئاسة، فأصبح الهاشم أحد مستشاري الظل، واحد كاتمي الأسرار التي يبقى علمها عند الله. وعندما رحل الشيخ بيار الجميل، حل محله الهاشم في وزارات البريد والبرق والصحة والشؤون الاجتماعية وكان ذلك في ٤/٩/١٩٨٤. واذا كان لوزارات الخدمات هذه أن تدغدغ كل الرغبات الدفينة في صدر كتائبي عصامي، فان تسليمها للهاشم أثار غيظ الكتائبي العصامي الآخر الدكتور جورج سعادة الذي رأىأن نواب الحزب أولى بعضوية الحكومة،خصوصا وأن وراثة رئاسة الحزب جانبته هي أيضا وكانت من نصيب الدكتور ايلي كرامة. وحين رحل الرئيس شمعون أعطيت للهاشم حقيبته، وزارة المال، فبات أبن البرجين الممثل الأوحد للموارنة في الحكومة، يقف في مقابل الرئيس سليم الحص والوزيرين وليد جنبلاط ونبيه بري.

لكن الهاشم المعتدل يؤثر أن لا يقف في مقابل أحد، ناقلا عن لسان الرئيس السوري حافظ الأسد انه يقدره لأنه لم يكن في الخط الاسرائيلي، ومسترجعا مشكلاته المتواصلة مع «القوات اللبنانية» بدءا ببشير وانتهاء بسمير.

والهاشم لا يتغافل عن الرابط الدموي الذي يؤكده، وكلامه ينطوي ضمنا على تمجيد العلاقات القرابية الموسعة، وهو سليل العائلة ـ النواة في البرجين، وربيب حزب لا يكف عن الدعوة الى التحديث. لا بأس، لا بأس. فما يخدم طموح الهاشم وعلاقاته يخدم الاعتدال في الآن عينه. اذن لابد من غض النظر قليلا عن المحاسبة العلمية والمواقف العصرية. أليس كذلك يا أبا

الزوز. وأبو الزوز يقول ان اسرته تعود في أصولها غير البعيدة الى الاسلام، وان صلات دموية وقرابية تربطها بـ «السياد» حتى ان الرئيس السيد حسين الحسيني والوزير الهاشم يتخاطبون بـ «ابن العم». وحين أسبغ الزميل الكبير ميشال أبو جوده لقب «شيخ» على الهاشم لأن هاشمي العاقورة مشايخ، مازحه الوزير نبيه بري قائلا: شيخ عند المسيحيين وسيد عند المسلمين يا ملعون. وهي ممازحة تدغدغ طموح الهاشم الممتد من أعلى الرأس الى أخمص القدمين، رغم اثارتها بعض الامتعاض عند متطرفي الجبهة والقوات والكسليك الباحثين عن كل ما يفرز الدم و«ينقيه».

في أية حال استطاع الهاشم أن يكون همزة وصل بين الكتائب والرئيس الجميل والكثيرين من خصومه أصدقاء الوزير الطامح، والشبكة تمتد من الرئيس الراحل رشيد كرامي الى الوزير الراحل مجيد ارسلان مرورا بالرؤساء فرنجية والحسيني والحص والمشايخ خالد وشمس الدين وقبلان وفضل الله والوزيرين سكاف وبري الذي سلمه مؤخرا بعض المخطوفين المسيحيين عند «أمل»، وهي وان لم تكن حارة مع الوزير جنبلاط فليست باردة كما يفترض برئيس الحزب الاشتراكي والوزير الكتائبي المحسوب على الرئيس الجميل. وتتمدد شبكة العلاقات الهاشمية فتذهب في كل الاتجاهات: جان عبيد وميشال المر وميشال سماحة وعاصم قانصوه، وطبعا السيدة رباب الصدر الذي يقول انه يكن لها كل احترام وتقدير وانه واثق من أنها تبادله بالمثل. والهاشمي يأخذ عن الأموي الكبير قوله اذا شدوا أرخيت واذا أرخوا شددت، فلا يقطع شعرة بل يحرص على تقديم الخلافات كلها بوصفها التباسات وعوارض لا تطال الجوهر، حتى أن أحد الصحافيين أسماه بكثير من التوفيق «بائع تفاؤل مجاني».

والواقع ان جوزيف الهاشم الكثير التصاريح والاجتماعات، هو بهذا المعنى أقرب الى السياسي منه الى الحزبي. فالأخير ينحو الى الأخذ بأفكار نهائية قاطعة ويعيش في المحيط الاجتماعي للحزب الذي يبدو له وللآخرين كالمجتمع المصغر المضاد. أما الأول فتتعدد مصادر تفكيره وتتلون استجابته للأحداث كما أن وسطه الاجتماعي والصداقي يتعدى الحزب ومحيطه. وأصحاب الطبيعة السياسية في الأحزاب يصطدمون على الدوام بنقد الحزبيين المتشددين وشكوكهم، لأن نصفهم هنا ونصفهم خارج الجماعة كما يرى المتشددون ممن كان الحزب كل شيء في حياتهم.

والطبيعة السياسية للهاشم لها مثيل عند الشيخ أمين الجميل الذي أخذ عليه غلاة البشيريين قلة حزبيته واختياره أصدقاءه من دوائر المال والأعمال ومن منطقة المتن الشمالي والصالون البيروتي والبرلماني أكثر مما من الدائرة الحزبية ومحيطها. واذا كانت هذه السمة في جوزيف الهاشم ترضي الشيخ أمين، فان الشيخ أمين، الحزبي اللاحزبي، يبقى النموذج المثال للطامح جوزيف الهاشم.

ففيه شرعية حزبية وعائلية لا يرقى اليها الشك، وفيه نجاح شبابي لا يرقى الشك اليه أيضا، من دون أن تكون الأولى عائقاً في وجه الثاني.

وفي هذا السياق يبدو الموقع الأكثر اثارة للراحة والاطمئنان عند جوزيف الهاشم، هو أن يكون حزب الكتائب جزءا من المعسكر العربي المحافظ والمضاد للراديكالية، لا طرفا مناهضا للعرب مبالغا في مسيحيته الفئوية وموصوفا بالانعزالية. وهذا مصدر حماس الهاشم لـ «قمة عمان» الأخيرة التي حاولت ترتيب البيت العربي على قاعدة الاعتدال والتقارب مع الغرب. بل هذا من مصادر حماسه للأردن ومليكه الهاشمي الذي يقول لك الهاشم بكثير من الاعتزاز: لقد سبق وانشأنا جامعة لآل الهاشم من مختلف الطوائف، وفي ١٩٧٠ وحين تعرضت المملكة للخطر الفلسطيني تطوع شبان كثيرون من الجامعة للذهاب الى عمان والقتال الى جانب الملك. والدم لا يصير ماء عند جوزيف.

ولأن الصدارة دائما للدم، اقترن جوزيف الهاشم في ١٩٦٨ بالآنسة تريز كيروز، ابنة بحشوش، لكنها أيضا ابنة العائلة المتواجدة في بشري ودير الأحمر والمتفرعة أجبابا ومناطق لا يزال الاسم يوحدها الى هذا الحد أو ذاك. ومن تريز أنجب جوزيف الهاشم ثلاثة أبناء اختار لهم اسماء من صلب العروبة ورحمها: هاشم ونزار ورلى التي حاول أبو هيثم خطفها في مطار بيروت الدولي.

آراء في السياسة والحزب

آراء جوزيف الهاشم لا تختلف كثيراً عن المقدمات التي سبق الالماح اليها، وان كان يقدمها بصورة اكثر تدويراً ومرونة حين يتحدث الى وسائل الاعلام في المناطق الشرقية. وعلى العموم يمكن القول ان آراءه تتجه الى تحاشي نقاط الخلاف والاثارة مع توكيد على القواسم المشتركة لا ينجو بين الفينة والاخرى من تبسيط. فحين تسأله عن مسائل المشاركة والغاء الطائفية السياسية يبادر: كله تجليط للاستهلاك. اؤمن بالتكامل في الحقوق والواجبات بين الطوائف. ولدعم رأيه يحيل النزاع الى مصادره الخارجية اذ الخارج، في عرفه، يتسلى فينا لا يهمه لا مسيحيونا ولا مسلمونا، خلوصاً الى التوكيد على الحوار بين اللبنانيين لان الحل ينجم عن السياسة لا عن السلاح.

لكنك كتائبي والكتائب عندها ميليشيا؟

انا امثل حزب الكتائب في الحكم لا الميليشيات. الحزب عنده قوة عسكرية على الأرض لكن التنظيمات بغالبيتها ليست ضمن اطار الحزب. هناك جبهة لبنانية تمثل كل الاطراف انا لست فيها. لم يصدف ان حضرت اياً من اجتماعاتها.

بالنسبة لحزب الكتائب يبدو جوزيف في « حزب امين » اذا صح القول. فهو يقيم المسافة اللازمة بينه وبين آراء كتائبية رسمية وشبه رسمية. لكن ماذا عن الخلافات في الحزب ومستقبل

الحزب؟

في اية حزب مجموعة آراء مختلفة، كما يجيب، لكن لا خلاف. والخلافات حيال الدور السوري مسألة تتصل بالمنهج.

حتى الدكتور جعجع كتائبي. فهل الخلافات معه مجرد آراء مختلفة؟

تسمع جواباً فيه غمغمة اكثر مما فيه من معنى مفيد.

جورج سعاده خلافك معه بدأ تبادل ضرب بالكراسي. مع هذا انت لم تكن في عداد حركة جوزيف ابو خليل الاعتراضية.

حاولت ان اكون خط تماس بين الاطراف بحيث يعود المعترضون ولا تتفجر الامور.

اقليمياً، ودولياً، سوريا، الفلسطينيون، اسرائيل؟

يقول جوزيف: هناك فارق بين الاحتلال والدور. سوريا لها دور ولها نفوذ بواسطة حلفائها، فضلا عن وجودها العسكري. انا مع لبنان ذي الخيار العربي ولبنان ابن بيئته. من ضمن ذلك هناك ما يربط لبنان بسوريا من وشائج.

العلاقات المميزة؟

سبق ان اقترحت في حوار سباق الخيل صيغة لبنان دولة مستقلة «تميزه» علاقات مع سوريا...

الفلسطينيون؟

تعاطف. دعم. لكن لبنان وحده لا يستطيع. عبء المشكلة الفلسطينية ينبغي ان يتوزع على الدول العربية.

اسرائيل؟

لم يعد المسيحيون مقتنعين اطلاقاً بان اسرائيل تعمل لاجلهم.

نستطرد ويستطرد:

ربما نضج تقديم الحل اللبناني اقليمياً ودولياً. لكنني استبعد كثيراً حلاً لبنانياً منفصلا عن المنطقة. اعول على تقارب الجبارين واركز على تحرك شولتس اكثر من تحرك مورفي وغلاسبي. اي اولوية المنطقة على لبنان بمفرده. من هذه الزاوية سوف يتقرر ما اذا كان الرئيس المقبل سيكون مدير حل او مدير ازمة. منذ فترة نلاحظ حركة. . منذ قمة عمان فاحداث الضفة فتجدد التهاب حرب الخليج، وهناك تحرك ديبلوماسي كثيف اسرائيلي واميركي وسوفياتي وعربي. المتوقع ان تكون قمة ايار بين الجبارين محطة اساسية. السياق العام من شأنه احداث توريط اكبر للدول التي ترعى السلام كما ترعى الحرب. الدول الصغرى وحروبها عانت انعدام التفاهم سابقاً بين الجبارين. الحل الاسرائيلي اقامة دويلات عنصرية ودينية تكون اسرائيل اقواها واهمها.

شخصية بيار الجميل قدوة جوزيف الهاشم، وهو يكن اعجاباً بالرئيسين جمال عبد الناصر وحافظ الاسد.

وقرابيك حسين؟

طبعاً انا معجب كثيراً بقرايبي. مرة زرناه في وفد كتائبي. حاول ادمون رزق ان يخدم على الطاولة، فقال الملك ان الاثنين اللذين يحق لهما ان يخدما هما هو وانا الهاشمي.

الجيب والرأس

حين يتحدث جوزيف الهاشم عن وضعه المادي يتحدث عن املاك في الجبل لوالده وعمه انتقلت اليه خصوصاً وان العم يعيش في الولايات المتحدة. لكن الوزير الذي يكثر من نقد «سياسيي الصفقات والدولارات»، وجد مؤخراً من يتهمه. فهناك اكثر من اشارة الى فساد في الهاتف، واشارات اكثر حول المعونات من الخارج. فالوزير جنبلاط مثلاً اتهمه ببيعها، ورد الهاشم يومها متحدياً اياه ان يثبت ذلك. اما «القوات اللبنانية» التي لا تستسيغ جوزيف الهاشم فروجت لوجود مستودع في الحازمية يبيع المعونات بالتراضي. وعندما توجه زميلان من «المسيرة» الناطقة بلسان القوات لمحاورة الهاشم دار بينهما النقاش التالي:

□ «معالي الوزير سؤال خاص. ما هي قصة فيللا جوزيف الهاشم فوق الكازينو وهل زيادة المئة في المئة قادرة على بناء الفيللا؟

■ يا سيدي اولاً مش فيللا. هيدا طابق ٣ اوض نوم. بد كن نحكي فيها منحكي. البناء بدأ مع بدء الوزير الهاشم بالوزارة. اذاً لم نأخذ من الوزارة والحمد لله حتى نرجع نبني. بعدما اصبحت وزيراً قام آل الهاشم وارادوا ان يقدموا الي بيتاً في حرج تابت وانا بيتي صغير في الاشرفية. وكان عندي قطعة ارض في كسروان اشتريتها نهاية العام ١٩٧٧ من الدكتور بويز.

□ كنت عارف انو الارض هونيك رح تغلا؟

■ لا مش عارف انا هدولي بيتي اشترينا شقفة هالأرض من مصدرين. اختي ارسلت لي مالاً، وانا بعت كتابي العام ١٩٧٧ «صوت لبنان في حرب السنتين» وكان مردوده ٧٥ الف ليرة فاشتريت قطعة الأرض. وعندما اصبحت وزيراً اراد آل الهاشم تقديم هدية الي.

□ يا ريتنا من بيت الهاشم؟

■ عيلة كبيرة والحمد لله. رفضت الهدية فلم يقبلوا. فقلت عندي قطعة الأرض هذه. عمروا فيها الطابق ووصلنا الى مرحلة لم نقدر على الاكمال، حتى اصبح البيت مثل مال الوقف. كل صديق يتبرع بشيء. هيدا بلاط. هيدا باب. هيدا شباك. هذه قصة قصور جوزيف الهاشم!».

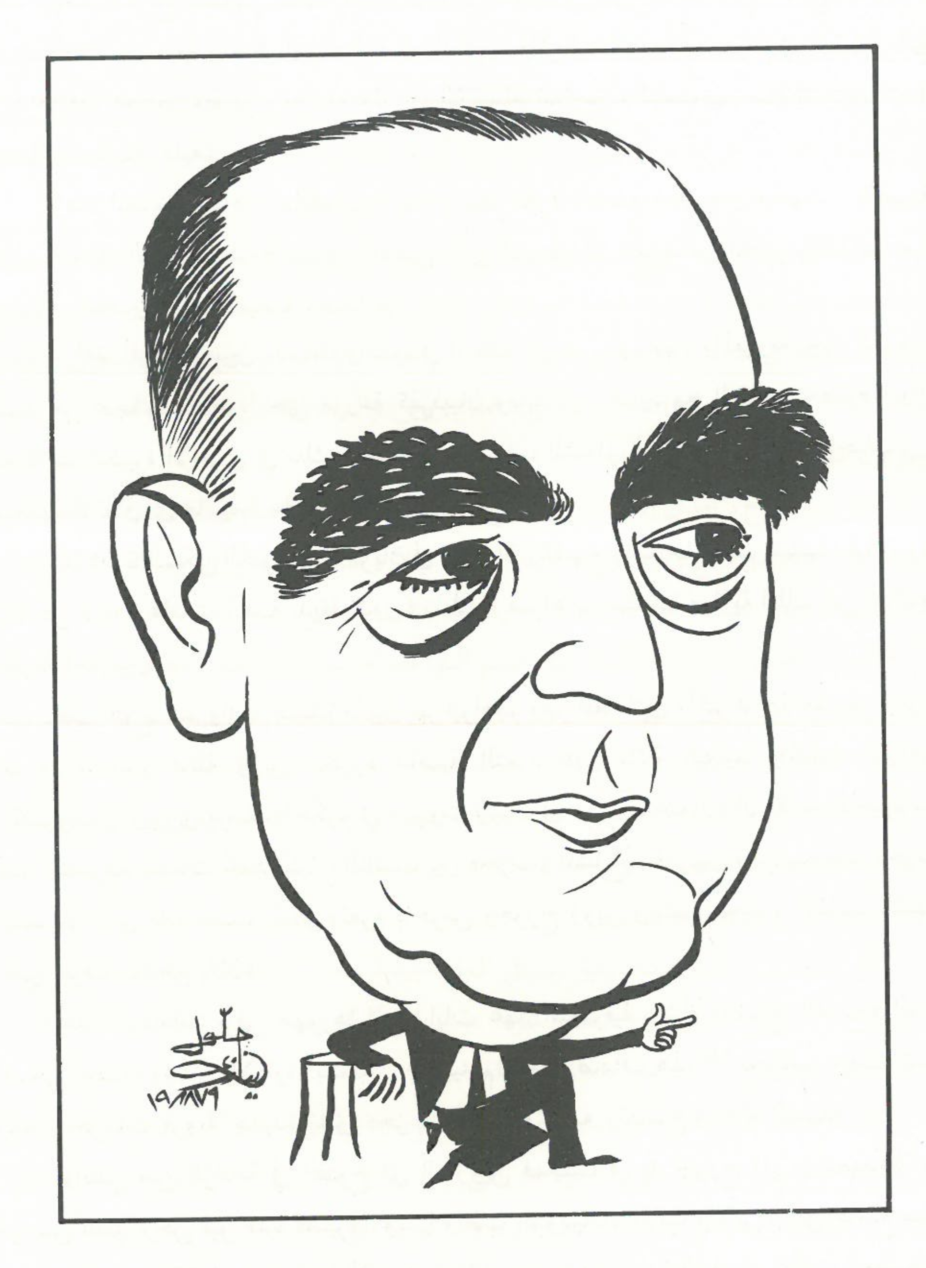
والهاشم يقرأ الشؤون السياسية في الصحف اللبنانية «بقدر ما يتيسر» له، و«بقدر ما

يتيسر» ايضاً يقرأ صحفاً اجنبية يسمي منها مجلتي «باري ماتش» و«اكسبرس» الفرنسيتين. وله آراء في الوجه الثقافي من السياسة وفي الثقافة نفسها. فهو يرى، معتداً بتجربة الصحافي، ان السياسي الناجح هو الذي يكون صحافياً لانه يستطيع ان يحلل. والواقع ان جوزيف الهاشم حين يتخلى عن الخطابة يكشف عن عقل تحليلي لا بأس به، شريطة الانطلاق من معطيات بسيطة لا تلتبس مع ما هو اعقد وابعد.

والوزير الهاشم الذي يحب قول الشعر العربي بخطابية لا لبس فيها، ينظم الشعر العمودي وعنده كتيبات شعرية نشر فيها «قصائد مناسبات»، فضلاً عن ديوان مناسبات ووجدانيات، وكتابات سياسية جمعت في «صوت لبنان في حرب السنتين» من دون ان تفارقها النبرة الخطابية. وهو يروي انه ذات مرة كتب «ملحمة» من ١١٠ ابيات على ان يلقيها في مهرجان كان السيد موسى الصدر ينوي اقامته في بعلبك بمناسبة عيد الغدير. لكن ثلج ضهر البيدر قطع الطريق وحال دون المهرجان والقصيدة.

ويقول الوزير انه لا يحب الشعر الحديث. فهو، في عرفه، انقلاب على كل المعايير الشعرية، وهو «مؤامرة» كما كتبت مؤخراً مجلة اسلامية اصولية وكما درج غلاة القومين العرب على القول. ويضيف الهاشم انه في شبابه ساجل يوسف الخال في هذه «البدعة». فالمهم عنده الجرس والموسيقى، ونزار قباني يبقى مقبولاً لانه برغم تطويره راعى الجرس والموسيقى. يحس الهاشم ان على وجهك ملامح رأي مختلف، يسألك عنه. تقول له ان القصيدة العربية وجدت تتويجها في العصر العباسي، وان تعقيدات الحياة المعاصرة لا تستوعبها التفعيلة، وتحاول ان تكمل فيقاطعك بقوله الحاسم؛ قل لي من يستطيع ان يأتي بقول عمر ابو ريشة.....

لا احد يستطيع يا معالي الوزير. والاستطاعة من فعل الأقوياء، اما الشعراء فضعفاء في كل واد يهيمون. وتركنا الاستاذ القوي ونحن لا نعلم ما اذا كان يردد في نفسه ابيات احمد شوقي في المعلم ام ابيات ابراهيم طوقان في معارضته؟



فؤاد نفاع

يكاد التاريخ السياسي لمنطقة كسروان يوجز معظمه في صراع متصل مع مشايخ آل الخازن ذوي الأملاك الواسعة في سائر أرجاء القضاء المذكور. ولئن اختلف هذا الصراع في الأشكال التي ارتداها فهو احتفظ بمضمون ثابت، ولو ان الانقسام اللاحق (الدستوري ـ الكتلوي) ادخل تعديلات طفيفة عليه.

وهذا المضمون مؤداه استكمال ما بدأ اواسط القرن التاسع عشر حين وجهت الضربة الاولى للعائلة الارستقراطية الكبيرة، والمضي، من ثم، في شق المزيد من المعابر والقنوات امام وصول «العاميين» الى السياسة وصدارتها.

لقد أقر للخازنيين بالسلطة والنفوذ في المنطقة التي هي مهدهم، والمعروفة بجرد كسروان الممتد من عجلتون صعودا حتى مزرعة كفرذبيان ومنها الى الحدود مع البقاع، خصوصا وان العائلات الكبيرة الاخرى في تلك المنطقة كآل صفير ـ الشمالي الموزعة على قرى واجباب، لم يسعفها الاتفاق في ما بينها على وجه مقبول وجامع.

أما دائرتا السكن الكبريان الاخريان في كسروان (الفتوح والساحل) فلم تسلسا القياد، ولا كفتا عن توليد زعامات شعبية بديلة تدور في نطاقها صراعات سياسية موازية لتلك التي تحكمها منازعة الخازنيين.

ففي فتوح كسروان، الممتدة ما بين نهر ابراهيم ونهر المعاملتين وأكبر قراها يحشوش وغزير وغباله أمسكت عائلة زوين الكبيرة بناصية التمرد على عائلة التقليد والملكية الزراعية الكسروانيين ويروي يوسف الحكيم في «بيروت ولبنان في عهد آل عثمان» ان الايام الاخيرة من عهد المتصرفية شهدت تجدد النزاع الناشب بين «حزب» المشايخ الخازنيين ومن يسميهم «حزب الشعب» الذي قاده حبيب بيطار ونعوم باخوس وجورج زوين وبولس نجيم، الكاتب الشهير الذي عرف بـ «جو بلان».

هذه الزعامات يرقى ظهورها الى بدايات عهد المتصرفية ونشأة «مشايخ الصلح» الذي اضحى أعضاء «مجلس الادارة» ينتخبون من بينهم، وعلى ضفاف هذه الانتخابات جعلت تنشأ وتتعزز حزبيات قروية جديدة تشق «حزب الشعب» نفسه وتصدع وحدته السابقة.

وانتقل متن الزعامة في الفتوح الى آل زوين فمكثت في يد جورج الى ان تعهدها ابنه موريس الذي رحل قبل فترة قصيرة. وبينما واظب الزوينيان، الاب والابن، على مماشاة سادة العهود كائنين من كانوا، فلم يشذا الا لماما واستثناء عن هذه القاعدة الذهبية، التفت العصبيات المحلية المقابلة حول نعوم باخوس الذي ينتمي الى غزير، ومنه الى قريبه لويس زيادة، وصولا الى فؤاد البون، من جورة بدران الصغيرة، الذي ظل يؤيد زوين ويواليه الى ان حضه الرئيس بشارة الخوري على منافسته، بقصد ارجاع زعيم الفتوح الذي بات «تقليديا» الى بيت الطاعة. فموريس

زوين، وعلى عكس عادته، عارض العهد اذاك لأن الشيخ الدستوري فريد الخازن تخلى عنه وتركه على قارعة لائحته البرلمانية.

وفؤاد البون يتحدر من احد فروع عائلة كبيرة في كسروان هي آل غانم، أبوه وكيل سابق لشركة شيفروليه الاميركية، للسيارات، وهو ملاك لم تنقطع صلته بحركة الارض والعقارات وريوعها.

الى ذلك طرأ على الزعامة المناهضة لآل الزوين والتي اختلطت مياهها اختلاط أنسابها وأرحامها، اسم جديد لم يبق صاحبه طويلا في الميدان، هو انطوان سعادة المحامي الغزيري ذو العائلة الصغيرة في بلدته والكبيرة في قرى أخرى. فلقد ركب سعادة المركب الشمعوني خائضاً معركة ١٩٦٨ على لائحة «الحلف الثلاثي» ضد زوين والبون اللذين اعادت الشهابية جمعهما والحؤول دون وصولهما الى برلمان دخله انطوان سعادة.

هذا في الفتوح. أما في الساحل الذي يدور حول جونيه، فكانت ذوق مكايل المتقدمة التي ظهرت فيها عائلات نفاع وبويز وكرم ظهور عائلة تقلا والشاعر الياس ابو شبكة، احد مهود السياسة في معانيها الاشد حداثة والاكثر ارتباطا بفئات وسطى صاعدة.

فالذوق احدى المديريات التسع التي قسم اليها قضاء كسروان بحسب نظام جبل لبنان في ١٨٦١ والمعدل بعد عامين. فهي منذ القدم أكبر القرى الكسروانية والسوق التجارية التي يؤمها اصحاب الحاجات للتبضع والافادة من جودة منتوجاتها. وبين المنتوجات التي امتازت بها صناعات مختلفة كتب لصناعة النسيج موقع السيادة بينها. ومر زمن عرفت الذوق خلاله ما ينوف عن ثلاثمائة نول تغزل وتنسج، حتى تضافر انتشار الحياكة الآلية وسوق الهجرة المتفاقمة فحدا منها وراحا يحاصرانها في رقعة منكمشة.

لكن الذوقيين وجدوا مكانا يليق بهم في العالم الجديد، فانشأوا معامل حديثة لانتاج خميرة البيرة ومطاحن لانتاج الدقيق، واحتضنوا شركة مديسكو (ليكويغاز) لتعبئة الغاز ومحطة شمعون لتوليد الكهرباء، وظل في يدهم مشعل المنطقة.

أما العائلات التي وفدت الى السياسة (كرم، بويز، نفاع) فهي ايضا لم ينفصل ظهورها عن النزاع مع الخازنيين، برغم ان التحولات التي طرأت لاحقا وبروز اوعية جديدة للعمل السياسي، كالدستورية التي رعاها فريد الخازن والكتلوية التي تزعمها قريبه كسروان، أسست لتحالفات جديدة مع هذا الوجه الخازني او ذاك.

ولئن تولى زعامة العصبية الدستورية في الساحل آل تقلا الكاثوليك وجورج كرم الذي عرف بثرائه، فقد أنيط أمر الكتلوية بنهاد بويز الذي اقترن بآنسة من آل الدبس في البقاع سبق لشقيقة اميل اده، لويزا، ان تبنتها وأورثتها ما تيسر من أرزاقها.

ومع التوسع التدريجي الذي حققه حزب الكتائب، عبر مرشحه التقليدي غير الكسرواني لويس ابو شرف، أصبحت خريطة القوى الانتخابية في كسروان تتوزع على النحو التالي:

- جرود كسروان حيث الزعامة لآل الخازن المنقسمين الى كتلويين ودستوريين.
- فتوح كسروان التي تتبع آل زوين في متنها ويعود هامشها لمن يناهضهم.
- الساحل (جونيه وجوارها) وهو مقسوم الى الحزبية الكتلوية (بويز) والاخرى الدستورية الموزعة بدورها بين كرم والمحامي الصاعد فؤاد نفاع (اذ ان عائلة تقلا الكاثوليكية ذات ثقل معنوي أكثر منه شعبيا في وسط ماروني كاسح).
- حزب الكتائب.

المهجر وآل تقلا

ولد فؤاد نفاع في ذوق مكايل في آذار ١٩٢٥ ودرس في معهد الاخوة المريميين في جونيه ثم أنهى دراسته الثانوية في معهد عينطورة، لينتقل الى المحاماة ويتخرج حاملا اجازتها من جامعة القديس يوسف اليسوعية في ١٩٤٦.

وهو ينتسب الى احدى العائلات الدستورية الهوى والصغيرة العدد في الذوق. والده جورج امتلك ملحمة صغيرة الى ان نجح في اقتناء دباغات حققت له ثروة معقولة. وقد جمع فؤاد الى تركة أبيه أعمال مكتبه كمحام بما ساعده على تملك حصص وأسهم في مؤسسات بينها شركة «ميدل ايست» فيما شكلت الصلات المهجرية رافدا آخر من روافد ثرائه المصطبغ بلون من العصامية.

فالعائلة الصغيرة العدد التي تفوقها عائلة بويز الكتلوية قليلا وتتخلف عنها في العلم والمهارات، هي احدى أكثر عائلات منطقتها اقبالا على الهجرة، لا سيما الى أميركا اللاتينية التي يحمل نفاع وسام شرف من احدى جمهورياتها (هايتي).

واذا كان آل بويز هم خصوم فؤاد نفاع في الذوق، فالرجل وجد نفسه على صعيد القضاء في منافسة مع آل الخازن، بعد رحيل قطبهم الدستوري الشيخ فريد، وانتقال زعامتهم شبه الحصرية الى كلوفيس العجلتوني ابن فيليب الذي اعدمه الاتراك، والكتلوي الذي انتقل الى الشمعونية.

على أية حال فدخول نفاع الى السياسة لم يكن قليل العقبات. فقد شرع يخوض المعارك الانتخابية في ١٩٥١، لكن الحظ لم يسعفه الا بعد تسع سنوات حين دخل البرلمان الشهابي الاول للمرة الاولى.

والعقبات تعدت خصومة التيار الشمعوني ومن يتحالف معه من الخازنيين في منطقة كسروان الصافية في مارونيتها (٤ نواب موارنة)، الى الارث المتنازع عليه للدستوريين أنفسهم.

فبرغم ان والدته السيدة ملفينا تقلا هي شقيقة الدستوريين سليم وفيليب تقلا كان على نفاع ان ينتزع الراية الدستورية من يد جورج كرم المحامي الثري الذي امتلك مؤسسة أبناء بشارة كرم وأولاده المعروفة في الثغر، وكان كرم من كبار تجار الخشب في لبنان، فضلا عن مؤسسات وشركات ومجالس ادارات. وقد نجح مرارا في دخول برلمان أوصدت أبوابه في وجه فؤاد نفاع الشاب.

وكان للمصادمة بكرم، فضلا عن الخازنيين، ان وسم دخول نفاع الى المعترك السياسي بلون شبابي يحيد نسبيا عن التقليد من دون ان يجافيه، ويتصل بمارونية شعبية من دون ان تستغرقه شعبويتها.

لكن مدخل نفاع الى السياسة ظل مرتبطا بخاليه وزيري الخارجية الدستوريين سليم وفليب تقلا، برغم انه رفض منذ البداية ان يكون ظلا لهما، وأضفى على عمله شيئا من الكبرياء المارونية التي يميل سياسيو الطوائف الصغرى الى عدم توليدها بالقدر ذاته.

وحين يقال سليم وفيليب تقلا، فهذا يعني مدرسة قائمة بذاتها في السياسة الخارجية.

فسليم، بحسب رواية احد عارفي تلك المرحلة، لبس الطربوش حين ذهب كوزير خارجية الى مصر، فيما تمسك خليفته هنري فرعون بالقبعة حين توجه في مهمة تالية الى القاهرة. والفارق بين الطربوش والقبعة كان كما تمضي الرواية، فارقا بين «بروتوكول الاسكندرية» الذي وقع ابان ترؤس رياض الصلح للحكومة (١٩٤٤ ـ ٤٥) التي تولى تقلا خارجيتها، وبين «ميثاق الجامعة العربية» الموقع اثناء حكومة عبدالحميد كرامي (١٩٤٥) التي عهد بخارجيتها الى فرعون بعد رحيل تقلا.

فعندما صدر «بروتوكول الاسكندرية» عده المسيحيون المتصلبون صيغة التحادية فيها انتقاص من السيادة، وقدم يوسف السودا وغيره مذكرات للبطريرك الماروني عريضه فند فيها البروتوكول وأداته. ولم تقتصر الحملة على هذا الحد اذ انعقد اجتماع في بكركي طالب بتغيير الحكومة الصلحية، وهكذا كان. وجيء بعبد الحميد كرامي الذي لم يحتفظ من اعضاء الحكومة السابقة الا بتقلا. وحين انهالت الضغوط على الاخير كي يقبل، وهي ضغوط شارك فيها رئيس الجمهورية بشارة الخوري كما حمل على بذلها رياض الصلح نفسه، قبل تقلا على مضض ان يكون عضوا في حكومة لا يرأسها رياض.

وقضت الظروف ان يتوفى تقلا بعد يومين على تشكيل الحكومة الكرامية، حتى قيل انه مات بسبب قبوله الاضطراري.

أما هنري فرعون فكان رمزا سياسته، كما تمضي الرواية، غلبة القبعة واضافة «المغتربين»

الى مهام وزارة الخارجية، استجابة لمطلب مسيحي معروف ومزمن.

وبرحيل سليم تقلا حل محله في العمل السياسي شقيقه فيليب، احد محاضري «الندوة اللبنانية» الداعين مبكرا الى انماء المناطق، والذي أضحى حاكما لمصرف لبنان، ومن ثم وزيرا لخارجية الحكومات الشهابية، حتى اذا ما اندلعت حرب ١٩٧٥ انتقل الى باريس التي لا يزال يعيش فيها.

المسار السياسي

بعد فشل متكرر في انتخابات١٩٥١ و١٩٥٣ و١٩٥٧، وقف نفاع في عداد معارضي العهد الشمعوني، وتعاطف من بعيد مع قادة «ثورة ١٩٥٨». وربما كان بين اسباب ذلك ان العهد المذكور أعطى دعمه في كسروان لفيليب الخازن كما أفاد منه ابن الذوق الكتلوي نهاد بويز بفعل تقارب حزبه آنذاك مع رئيس الجمهورية.

في ١٩٦٠ ومع دخول البرلمان بدأت تتوطد لفؤاد نفاع صداقتان قديمتان أثرتا في حياته السياسية اللاحقة، واحدة مع سليمان فرنجية الداخل هو أيضا الى البرلمان للمرة الاولى، وثانية مع تقي الدين الصلح المقرب من سيد العهد اللواء فؤاد شهاب.

وعد نفاع شهابيا من نوع مختلف. فهو يحرص، كما قال، على ان لا تكون له أية صلة بالعسكريين. لكن صداقة فرنجية الناشئة كانت أكثر ما وسم شهابيته باللون الخاص.

لقد بدأت معرفته بزعيم زغرتا، بحسب روايته، عن طريق التعرف بحميد فرنجية ابان معارضة العهد الشمعوني، ونمت الصداقة الى الحد الذي جعل بعض المراقبين مؤخرا يتحدث عن نفاع بوصفه المرشح الرئاسي المحتمل لسليمان فرنجية، اذا ما شاء عدم ترشيح نفسه والاقتراع لمرشح غير شمالي. ولا يصعب فهم رغبة نفاع الذي وجد الزعامات الكسروانية وثيقة الصلة بأقطاب الجبل الماروني (بويز - اده، الخازن - شمعون، أبو شرف - الجميل)، في انشاء صلة بالقطب الماروني المتبقي، والذي هو شمالي بما لا يخلف آثارا تقيد استقلالية نائب كسروان. كذلك لا يصعب فهم رغبة القطب الشمالي في أن يكون له امتداد ما في الجبل، لا سيما في كسروان التي يضرب فيها المثل على مارونية لا يشق لها غبار.

والى هذه الخصوصية في شهابيته، آثر نفاع ان يؤكد المسافة عن ابن غزير الذي كانت له حساباته الكسروانية الخاصة، برغم تبوئه سدة الحكم او بسببه. وربما قادت هذه المسافة الى شيء موازٍ من الابتعاد عن الخال فيليب تقلا احد عتاة الشهابيين يومذاك.

مع تقي الدين الصلح عمل اهتمام نفاع بالسياستين العربية والخارجية على تعزيز الصلة التي لا تعوزها الاسباب. فابن عم رياض الصلح وابن شقيقه سليم تقلا مرشحان اصلا للصداقة والود.

وفي اطار الكلام عن اهتمامات نفاع الثقافية، التي جمعت ايضا بينه وبين الصلح يروى ان وزير الخارجية السابق يتابع الصحف الاجنبية، لكنه كان ابان قيامه بمهام الوزارة يواظب على قراءة تقارير السفراء اللبنانيين في الخارج الشيء الذي لا يفعله بالضرورة وزير الخارجية اللبناني.

ويطيب لأحد العارفين بعمل الوزارة المذكورة ان يتحدث عن «مدرسة» شكلتها تلك التقارير جامعة بين دأب وتدقيق اسسها المدير العام الاول للوزارة فؤاد عمون، البيروقراطي الجدي وكاتب المذكرات والحقوقي العارف بالقانون الدولي، وبين ميل كتابي اسبغه على التقارير سفراء كتوفيق يوسف عواد وكاظم الصلح وخليل تقي الدين واميل خوري

وفؤاد نفاع ابان قيامه بمهام الخارجية كان، بحسب محدثنا، تلميذا نجيبا لـ «درج الابداع البيروقراطي» هذا. وما ينقص من عدة الاحاطة بالسياسات الدولية يستكمله نفاع بالكتب الفرنسية التي يصدرها كتاب نجوم بين الفينة والاخرى، ولا سيما اذا ما كانوا رؤساء أو وزراء.

في ١٩٦٤ حل جورج كرم مرة اخرى محل فؤاد نفاع الذي صار احد فرسان مناهضة «الحلف الثلاثي» بعد اربع سنوات. وكما هو معروف حصدت اللائحة الشهابية اذاك فشلا ذريعا لم يعادله الا الانتصار الذي حققته اللائحة الثلاثية وسط مناخ تحريضي شهير.

وفي ١٩٧٢ وبما يوازي تحالفات العهد الجديد لسليمان فرنجية، تحالف نفاع مع الكتائبي لويس ابو شرف ومرشح آل الخازن الياس، وموريس زوين، وكتب للائحة انتصار بفارق واضح، فيما نال نفاع أكبر عدد من الاصوات. وفي ايار ١٩٧٢ جيء بنفاع وزيرا للمالية في حكومة صائب سلام، وهي الحقيبة التي أعيد تكليفه بها في الحكومة التي لم تعمر برئاسة أمين الحافظ، حتى اذا ما شكل صديقه تقي الدين الصلح حكومته قر رأي صديقيه، رئيسي الجمهورية والحكومة، على تسليمه وزارة الخارجية. وقبل التجارب الوزارية المذكورة في عهد فرنجية، كان نفاع تعرض لتجربة قصيرة حين قضى احد التعديلات الوزارية على «حكومة الشباب» السلامية بتسليمه وزارة الزراعة. لكن التجربة الاولى تلك لم تعمر أكثر من شهرين.

في الخارجية

ابان قيامه بأعباء وزارة الخارجية زار نفاع بلدان اميركا اللاتينية في جولة يكثر صاحبها من الاعتداد بانجازاتها. يومها التقى المغتربين اللبنانيين واستحق ثناء بعض قادة القارة الجنوبية كخوان بيرون الارجنتيني العائد للمرة الثانية الى حكم بلاده.

وفي تلك الفترة نفسها التقى نفاع في الامم المتحدة وزير الخارجية الاميركية يومذاك هنري كسينجر، وكان حديث شيق ماونى نائب كسروان يروي تفاصيله.

سأله كسينجر عن السبب الذي يجعل الديبلوماسية اللبنانية أكثر الديبلوماسيات العربية حماسة للفلسطينيين، فأجابه زميله اللبناني ان حل المشكلة الفلسطينية يريح لبنان بقدر ما يريح

الفلسطينيين. ولم يفت نفاع ان يتوقع، في حال عدم الحل، نشوب حرب طويلة جدا ما لبثت الاشهر التالية ان شهدت عليها.

والراهن ان هذه المعادلة تشكل «نظرية» فؤاد نفاع في السياسة الخارجية اللبنانية حيال الفلسطينيين: مساعدتهم على نيل حقوقهم بما يسرع رحيلهم ورحيل مشكلتهم عن لبنان. وبهذه السياسة يرضى المسلمون ويرضى العرب وتتم الاستجابة لرغبة لم يكتمها المسيحيون الأبعد نظرا.

وفي خلال قمة الرباط التي انعقدت عشية اندلاع الحرب اللبنانية، كان للوزير الكسرواني مشادة معروفة مع قائد منظمة «الصاعقة» يومها زهير محسن، بسبب اصرار الاول على ان يكون الامن في عهدة السلطة اللبنانية، واصرار الثاني على «حق» المقاومة في اقتناء السلاح الثقيل وايداعه المخيمات.

ولم تخل العلاقة حينذاك من خلافات عابرة بين رئيس الحكومة وصديقه وزير الخارجية. فمثلا حين طرحت فكرة مؤتمر جنيف أيد الثاني مشاركة لبنان الذي يجب ان لا يغيب، وعارض الصلح لأن المشاركة تقود الى الاعتراف.

بيد ان ابرز الادوار التي لعبها نفاع كوزير للخارجية، كان ميدانه المؤتمر الاسلامي في لاهور. آنذاك أنيطت بالوفد اللبناني الذي رأسه تقي الدين الصلح ان يتولى مصالحة الشيخ مجيب الرحمن مؤسس دولة بنغلادش وذو الفقار علي بوتو رئيس حكومة باكستان التي حاربتها الدولة الوليدة وانفصلت عنها بمعونة الهنود. وتولى المهمة بشكل مباشر وزير الخارجية الماروني الكسرواني فؤاد نفاع فشهدت له بالمهارة حديقة شاليمار، التي اسمى الاوروبيون العطور الشهيرة تيمنا بها.

ولم يفت نفاع ابان تلك الفترة ان يوطد علاقاته العربية لا سيما السورية منها، بما حمل احد الذين عاشوا تلك الفترة عن قرب، على القول: كان السوريون يفضلون التعامل معه على التعامل مع تقي الدين الصلح. وابان توليه الوزارة لم تنشأ مشكلات مع دمشق.

فحين استقالت حكومة تقي الدين الصلح (١٩٧٣ - ٧٤) كان نفاع احد وزرائها الذين لم يجلبوا عليها المتاعب ولا شاب التلوث شخصهم وأدوارهم.

ولأن نفاع كان احد القلة التي استطاعت الجمع بين الصلة بشهاب والصلة بفرنجية، أنيطت به في عهد الاخير محاولة التقريب بينهما. أما صديقه وشريكه في الحفاظ على هاتين الصلتين فكان تقي الدين الصلح. وكم بدت ملحة مثل هذه الجهود التوفيقية للصلح ونفاع فيما العهد الجديد ينقلب على العهد الشهابي ويحاكم بعض رموز مؤسسته العسكرية؟.

ملامح واهتمامات

الى جانب نشاطه كمحام وسياسي، درس نفاع طويلا القانون الدستوري في معهد الحقوق في الحكمة، وفي كلية الاعلام بالجامعة اللبنانية، فنم عن عقل اداري، بحسب ما شهد احد

طلابه يومذاك كانت الدولة في نظره، كما يضيف الطالب المذكور هي أولا وأساسا مجلس خدمة مدنية وتفتيش مركزي. وقد لاح الاستاذ لتلميذه «منضبطا لا يضيع ثانية من حصته. درسه مرصوص، وهو دقيق في الاداء كما في الوقت، كتوم ومتحفظ، كأنه ... يحط بقلبو».

والراهن ان فؤاد نفاع ليس بعيدا عن أجواء علمية واخرى ثقافية، وان كان من الصعب تبين انعكاسها عليه بما يتعدى الترتيب المهني.

فشقيقه جوزيف استاذ في الجامعة اليسوعية، وعضو مؤسس للمجلس الوطني للبحوث العلمية ثم أمين عام له، وهو أيضا نائب لرئيس مجلس ادارة مؤسسة المحفوظات الوطنية وعضو اللجنة الوطنية للاونيسكو. أما زوجته زبيده صفير التي اقترن بها في ١٩٥٤ فتهتم بكتابة الشعر بالاسبانية. ومن زبيده التي تعرف اليها في مونتيفيديو بالاوروغواي أنجب فؤاد اربعة ابناء هم جورج وفريد وليندا وكريم.

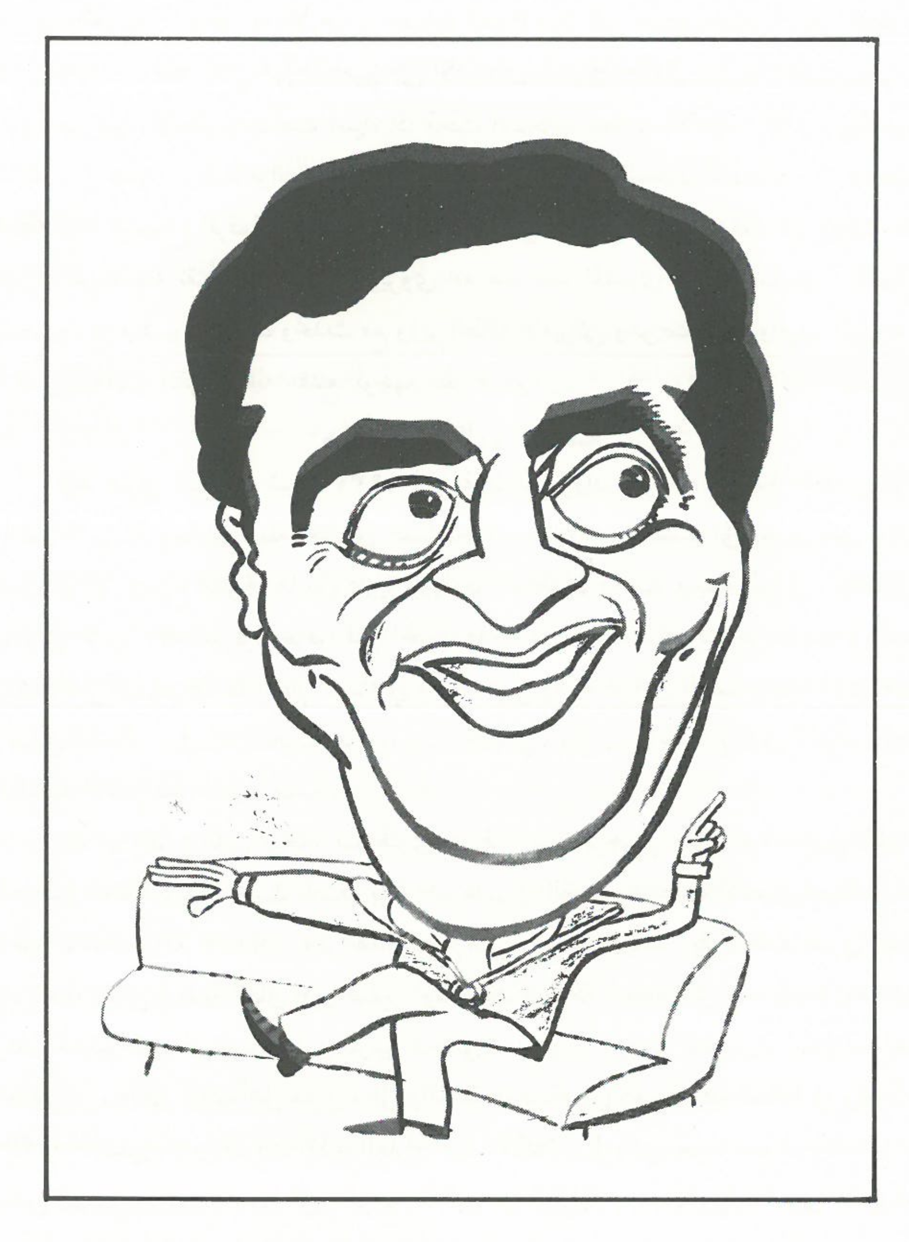
قصير هو فؤاد نفاع بما يدفعه الى لبس حذاء ذي كعب عال، معتدل الجسم مع استعداد للسمنة، لكنه ضيق في العرض بما يشيح الابصار عن سمنة كهذه ويرده أميل الى شيء من الضعف. شعره أسود يتخلله الابيض، خصوصا في السالفين والفودين، وهو قليل عموما، وفي مؤخرة الرأس ينتابه الصلع الشامل. والحاجبان كثيفان جدا كثافة حاجبي المير بشير، تلطأ تحتهما عينان كبيرتان ووجه ممتلىء جالس على عنق هي قاعدة اسناد للحية متصلة بها.

وهو يكثر من الصفنات التأملية خصوصا حين يحتار ما بين قرارين وموقفين، وهو لا يبدو قليل الحيرة في حال من الاحوال. يهز يده أحيانا في ما يشبه الحركة العصبية التي تنفصل عن مواكبة الكلام، ويروح يكرر كلمات كأنه يتمرن على قولها فيما هو يقولها، فيروي مثلا، ويحرك قبضته الصغرى.

في الارجنتين .. في الارجنتين، ذهبنا لنروي بيرون ... بيرون. كأنما بيرون الاخيرة هدفها التمهيد الهادىء للاقلاع بعبارة اخرى جديدة.

ومع ان الرجل مقل في الكلام والتصريح، يكره الصحافة او يخافها، فهو اذا استطرد في النقاش حرمك من اكمال حجة تريد ابداءها بما يخالف حجته، وكل ذلك بتهذيب ملحوظ ومميز. وهنا ينم الرجل، الذي عرفه البعض بالمجاملة، عن مواظبة واصرار يكادان يكونان عنادا في مواجهة فكرة آثر مسبقا على رفضها.

والواضح ان نفاع رصين في احتجابه عن الظهور الاعلامي، لكن تمسكه بهذه الرصانة، يدفعه الى تشبث مسكون بالخوف، يصعب وصفه بالرصانة اياها. ولهذا السبب لم نستطع الحصول على مقابلة معه، بما اضطرنا الى اللجوء لما حفظنا من دردشات تخللتها جلستان طويلتان. ولم يكن لنا يد. فليعذرنا معاليه!



هنري صفير

هنري صفير يحب تكبير الكلام : الفلسفة، الفلسفية، الرسالة، المشرقية، الثورة الدائمة، الشرق والغرب، التفاعل مع الأرض، حضارة الكوكا كولا التي اصابت الموازنة، هي كلها دين هنري وديدنه . فاذا انتقل من المفاهيم الى الأشخاص ، وكل انتقال من هذا الصنف تواضع ونزول من سماء الافكار، اسمعك اسماء اذا لمحت اصحابها تصاب بالاغماء: كارتر، نيكسون، الشاذلي بن جديد، وطبعا فرانسوا ميتران، وكلهم اصدقاء او مرشحون للصداقة. ويرفع هنري محفظة جلد التمساح المرقمة ويخرج منها بطاقة دعوة من الكونغرس الى غداء، كما يزودك مكتبه بأوراق عن سيرته تقرأ فيها التالي: «ويروى انه عند هذا المستوى من الحديث (مع المهندس صفير)، رفع نيكسون الهاتف وتحدث مع وزير الطاقة الأميركي وهو صديق له واقرب الوزراء الى الرئيس ريغان، ونقل له انه مقتنع بوجهة نظر صفير».

هندسة، مال، سياسة

ولد هنري صفير في شباط ١٩٣٧ في ريفون بكسروان، والدته السيدة عفيفة رزق من احدى الأسر المارونية المتوسطة الحال في حدث الجبة ، اما والده فينتسب الى احدى اكبر عائلات كسروان التي يتوزع ابناؤها ما بين داريا وريفون وعجلتون وجعيتا وبيت المهدي، وتقطن قلة منهم في غزير. والصفيريون عرفوا قبل الحرب درجة من التعاضد عبرت عن نفسها في تأسيس جمعية تحمل اسمهم جامعة اليهم انسباء في مدينة جبيل وقرية فترة في القضاء نفسه، وفي حدث الجبة في الشمال، وفي زغرتا حيث يعرفون ببت الجعيتاني، وفي شليفا بالبقاع، وفي الشوف، ومنهم التقدمية الاشتراكية سلمى صفير.

بيد ان الفرع الذي يتحدر منه هنري هو فرع بيت برجيس الذي عرف بتولي الشؤون السياسية المحلية لريفون حيث الصفيريون اكبر منهم في القرى والبلدات الأخرى، وبالتالي اشد شعورا بالذات واكثر اعتدادا. ومن هذا الفرع ظهر رؤساء بلديات ريفون كعم هنري سابقا، وابن عمه رئيس البلدية الحالي امين صفير. ولما كانت الزعامة التقليدية في كسروان لآل الخازن، وكان خازنيو غوسطا دستوريين وخازنيو عجلتون المجاورة لريفون كتلويين، انحازت اغلبية الصفيريين، ومنهم عائلة أهل هنري، الى «الكتلة الوطنية» فيما ذهب اقلية العائلة في ريفون الى «الكتلة الدستورية» وبهذا فان تقليد العداء لحزب الكتائب لم يكن يعوزه المصدر والمرجع، اما بعض الصفيريين ممن انتسبوا الى الحزب المذكور فما لبثوا، بحسب رواية هنري ان تركوه، مؤيدين قريبهم الذي يعمل في الحقل السياسي.

وتسأل هنري، والبطريرك صفير الذي يقال ان القرابة به احد عناصر حملتك الانتخابية؟

ليست هناك قرابة لزامية بالبطريرك صفير، لكنه تولى الاشراف على تربيتي من قبل ابي الذي كان يعيش بعيدا في طرابلس يوم كنت ادرس في اليسوعية ومنذ ذلك الحين اكن له كل

الاحترام والتقدير واعتبره مرجعا.

نعود الى سيرة هنري . .

ففي طفولته عهد به الى احدى مدارس حدث الجبة في الشمال ثم نقل الى مدرسة الفرير في طرابلس حيث اقام والده رشيد صفير، منذ ١٩١٦، يومها ومثل كثيرين من ابناء الجبل الذين ضربتهم المجاعة، قرر الوالد ان يبيع على الساحل ما توافر له من الفاصوليا، فنزل الى جونية ومن هناك وجد نفسه ينتقل الى طرابلس، وفي هذه الأخيرة استطاع ان ينشىء كاراج ميكانيك، ليشارك في ١٩٤٧ احد وجهاء عكار، عبد الكريم المراد، مشروعا لزراعة الأرز على الضفتين اللبنانية والسورية للنهر الكبير الجنوبي.

وكما سبقت الاشارة، انتقل هنري من طرابلس الى اليسوعية في بيروت، ومنها الى فرنسا حيث درس الهندسة والاقتصاد السياسي معا، بحسب ما تقول النبذ المتوافرة عنه والمستندة الى روايته.

عاد هنري الى لبنان ليلتحق ما بين ١٩٦٠ و١٩٦٢ بمصلحة الليطاني حيث ساهم ببناء سد القرعون في البقاع، واسس في ١٩٦٢ معملا لتكرير الملح وتوزيعه في لبنان، ثم انشأ مكتب دراسات وتعهدات هندسية في شارع بشارة الخوري ، عاملا كمهندس ومتعهد في تعمير مطار القليعات العسكري في ١٩٦٥ ـ ٦٦، وفي انجاز مباني وزارة الدفاع والمديرية العامة للطيران المدني.

ويبدو ان تلك الفترة الذهبية في تاريخ الهندسة والمقاولات في لبنان اتاحت للمهندس الشاب الذي انفتحت امامه ابواب القطاع العام، ان يراكم ما سمح له بولوج العمل المصرفي في ١٩٧٣، ولم يكن شراء اغلبية اسهم بنك ادكوم هو وحده ما ابتاعه هنري صفير مما جمعه، قبلا، اذ اشترى في ١٩٦٧ مساحة ١٣مليون متر مربع في الناقورة يقول انه دفع ثمنها بالتقسيط، وكذلك مكتبة ولوحات يصفها بانها«اغنى مكتبة واغنى لوحات فنية» متهما الكتائب بسرقتها في وقت لاحق.

وفي تأريخه لنفسه ماليا وسياسيا، يزعم هنري انه كان مفلسا حين خاض انتخابات ١٩٧٢ العامة، وهذا ما أقنعه بضرورة ان يكد في جمع المال، فكان له ذلك واشترى اسهم بنك ادكوم في خلال سنة واحدة ، سبحان الله!

وانتهى الأمر بهنري، وهو المؤمن بأن المال «حقير بذاته» بان اضاف الى بنك ادكوم وارض الناقورة رئاسة عدد شركات عقارية وصناعية منها صناعة ورق في فرنسا يتولى شقيقه ادارة شؤونها، وشركة للمشاريع العمرانية ما بين لبنان والتشاد في افريقيا.

ويبدو ان التشاد كانت احدى المصادر الأساسية في ثراء هنري، تسأله عن ذلك وعن سر

علاقته بالرئيس تومبلباي، اول رئيس للتشاد بعد استقلالها في ١٩٦٠، يجيب: كنت اذهب الى افريقيا لأن الرئيس تومبلباي كان يطلب مني نصائح سياسية، ويضيف هنري: طلبت من الكويت تمويل تومبلباي وكانت بداية تحول افريقيا نحو العرب.

وتحت وطأة الاضطرار الى تقديم الماضي بما يخدم الحاضر ويلائمه، يغفل هنري عن انتفاضات المسلحين التشاديين على تومبلباي الذي اعتبر حكمه حكم البانتويين الجنوبيين وحزبهم «الديموقراطي التشادي» الأوحد اغفاله عن العلاقات التشادية - الاسرائيلية في عهد تومبلباي، حيث كان المدربون الاسرائيليون يتولون تدريب حركات الشبيبة التابعة للحزب الحاكم، كما كانت وفود المتدربين تصل الى المعهد الافرو - اسيوي في تل ابيب طلبا لاكتساب المعرفة العسكرية، ولم تقتصد حكومة اسرائيل في بيع السلاح للتشاديين، مساهمة في مساعدة الحكومة على التصدي لانتفاضات مسلمي الشمال.

رحم الله تومبلباي الذي ظل يستمع الى نصائح هنري السياسية الى ان صرعه ضباطه في انقلاب ١٩٧٥.

على اية حال ففي غضون ذلك، وفي ١٩٦٤ تحديدا، اقترن هنري بكاتيا بولس، ابنة شقيق المؤرخ والسياسي الزغرتاوي الراحل جواد بولس الذي، بحسب رواية هنري، خاض معركته الانتخابية في كسروان في ١٩٧٢ بحماس منقطع النظير. ولا ينسى هنري، ان ينسب الى نفسه انه من حمل جواد بولس على الانسحاب من «الجبهة اللبنانية» لأنه «كان مؤمنا بي كثيرا».

والى زواجه هذا يقع هنري وسط تقاطع من المصاهرات المالية - السياسية.

احد صهريه نائب طرابلس الأرثوذكسي واحد اثريائها موريس الفاضل والآخر احد وجهاء بشري الدكتور جورج جعجع الذي يصفه بأنه «حليف سليمان فرنجية».

انتخابات وميليشيات

ويروي هنري صفير قصته مع السياسة بعد رجوعه من فرنسا:

عند عودتي كنت على يقين بأن ما يجري في لبنان لا يمكن ان يستمر.

لماذا يا استاذ هنري؟

التركيبة الاجتماعية مش ماشي. قسم صغير ينعم بالفحش بينما الجنوب... والحرمان... وهو ليس وقفا على الشيعة.. جرود جبيل وجرود البترون المارونية الخ...

يستطرد: استهوتني محاولة فؤاد شهاب للعدالة الاجتماعية لكنها كانت خجولة جدا، كانت محاولة عطف اجتماعي.

وهكذا توكل هنري على الله، بعد نفسه، ودخل المعمعة، زاعما ان العميد ريمون اده سأله ان يترشح على لائحة «الحلف الثلاثي» في كسروان في ١٩٦٨، لكن هنري، بحسب روايته،

استشار من درج على استشارتهم لثقته بهم، وهم المطارنة ضومط وخضر وصفير، البطريرك حاليا، فضلا عن الجنرال نجيم، وقرر ان لا يخوض المعركة، فالحلف محاولة متطرفة يرفضها، وهو «فلسفيا» ليس مستعداً لذلك.

تحس في ميل هنري الى استعمال الكلمات الكبيرة شيئا من التأثر بالسوريين القوميين. تقاطعه وتسأله عن ذلك، فيجيبك:

في ١٩٧٢ طلب الحزب القومي اللقاء بي عبر منفذه في كسروان يومها حبيب كيروز، كان فؤاد الشمالي صديقي. قلت لهم ما افكر وانني لا اؤمن بالانطلاقة الفلسفية القومية، بل بالانطلاقة البشرية ولا احب ان اقول الانسانية لأن..

وجريا على هذا اللغو نسأل هنري عن «المشرقية» التي يكثر ايرادها في كلامه وما اذا كان هناك ما يجمعه «فكرياً» بصديقه المطران الأرثوذكسي جورج خضر:

نعم، هناك ما هو مشترك في تفكيري وتفكير جورج خضر، هو مفكر كبير ولا شك، لكن مشرقيته فيها شيء من البيزنطية، اي من القبول، ومشرقيتي ثورة دائمة..

طيب الله ثرى ليون تروتسكي يا شيخ هنري. نعود الى السرد فهو اجدى: في ١٩٧٢ خاض هنري الانتخابات النيابية مصدرا بيانا عنوانه «لماذا»؟ . يردد هنري على مسامعنا ما لا يزال يحفظه حرفيا من ذاك الانشاء الخطابي. يقول: جاء اخصائيون ومستشارون لحملتي ووضعوا مسوداتهم التي بعد ان اطلعت عليها وضعتها جانباً رسهرت الليل كله وكتبت:

«شغفت بالسياسة لأنني قرفت السياسات. حصلت من العلوم ما افدت به نفسي ولم اجد ما افيد به بلادي..»

ولا يفوت صاحب «الثورة الدائمة» ان يعترف بـ«الخطأ» الذي ارتكبه لدى تشكيل اللائحة الانتخابية في ١٩٧٢:

حاولت ايجاد مرشحين جددا، لكنني لم اجد، العقم في كل مكان، دخلت في لائحة تقليدية مع نهاد بويز وفؤاد البون، اطروحتي ما بتظبط معهم، وخضت المعركة في مواجهة لائحة يدعمها سليمان فرنجية لأن فيها فؤاد نفاع، والشهابيون لأن فيها الياس الخازن. والكتائب ومرشحهم فيها لويس أبو شرف، وكذلك شمعون المتحالف معهم.

وكائنا ما كان امر اللائحة فالانتخابات لم تسفر عن نتائج مشجعة. فقد نال هنري ٩٣٢٣ صوتا اي اقل اصوات اعضاء لائحته فيما فاز فؤاد نفاع، صاحب اعلى الأصوات في اللائحة المقابلة، بـ١٨١٠٦ اصوات. حتى في ريفون نفسها نال هنري ٣٢١ صوتا ونال نفاع ٢٩٥، وحليفه الكتائبي ابو شرف ٢٥٨.

يمضي هنري في عرضه لتاريخه السياسي، متغافلا عن تجربته في حرب السنتين، تسأله:

لكنك انشأت ميليشيا يومها؟

في الواقع لم تكن ميليشيا. لقد ابتدأ القتال فاجتمعت بالياس الخازن وموريس زوين وفؤاد البون وعرضت عليهم تأليف جبهة كسروانية ليست ضد «الجبهة اللبنانية» ولا معها، لكنها متباينة، لأن كسروان يجب ان يكون لها رأي، نظمت الشباب الذين حولي في الجرد. حوالي ٤٠٠ شاب. واشتريت اسلحة من الكتائب. كان عملنا ضد كل من يحاول اغتصاب كسروان، قاتلنا في عيون السيمان لأنها جزء من كسروان، قاتلنا الكتائب ايضا، الكتائب كانت دائما تنظر اليَّ بعين القلق... في ١٩٧٥ رفضت الاقتتال مع المسلم. في ١٩٧٦ انا اوقفت الهجوم على شيعة افقا ولاسا. في العام نفسه طوق الكتائبيون ومعهم الاحرار بيتي فواجهتهم باستنفار الشباب.

وظل هنري على هذه العلاقة القلقة الى ان خرج في آب ١٩٧٨ من المناطق الشرقية. السبب كما يقول، محاولة اغتيال اعدها بشير الجميل، ولماذا؟

لأن اريبل شارون كان علمهم قتل او اخضاع اقوى الزعماء في المناطق الشرقية، ويستشهد هنري بمحاولة اغتيال ريمون اده وترحيله، وقتل توني فرنجية. واهانة فؤاد لحود، والصفرا لآل شمعون ... وهو ايضا.

لكننا نود ان نضيف استدراكات قليلة الى رواية المهندس صفير جمعناها من افواه كسروانيين عاشوا تلك المرحلة، فالتنظيم الميليشياوي بادر الى انشائه الكتلوي مارون خوري الذي عرف بـ «الباش مارون» قبل ان يتضح الموقف الفعلي لعميد «الكتلة الوطنية» ريمون اده من القتال. وحين تبين ان اده ليس ضالعا في المعركة بدأ الباش مارون يتراجع، فاسحا الفرصة للكتائبيين المسلحين كي يمارسوا ابتزاز «اللبنانية» على الرفاق السابقين.

وهكذا بادر هنري صفير الى اعادة تجميع هؤلاء الشباب الخائفين من استفزازات كتائبية اكبر، ومعهم بعض شبان عائلته في ما عرف بـ «لواء الجبل» الذي حل لاحقا مع بداية عهد الرئيس سركيس، الا ان اللواء المذكور عرف بثلاث ميزات، اولاها حصوله على افضل انواع السلاح واغلاها ثمنا، والثانية مساهمته بحماس في الأعمال الطائفية البشعة ضد المسلمين الشماليين الذين ينتقلون عبر طريق الساحل الى بيروت. والثالثة مزايدته على الكتائب في نبرة العداء للفلسطيني والمسلم بما يتجاوز الحدود السياسية الى الحدود العنصرية.

وقد يكون مفيدا للاحاطة بالتحولات التي طرأت على هنري صفير اعادة نشر فقرة من حديث اجرته مجلة «المسيرة» معه في ٢٩ آب ١٩٨٧ بمناسبة عودته الى ريفون:

□ في أول الحرب كنت مقاوماً..؟

■ (مقاطعا) بماذا نحدد كلمة مقاوم؟ انا ما زلت مقاوما. انا اقاوم كل الأحداث التي تريد النيل من كرامة اللبناني ومن لقمة عيشه.

□ أعني أنك قاومت الاحتلال؟

■ كان «جيش لبنان العربي» والفلسطينيون يحاولون العبور الى كسروان من عيون السيمان فقاومناهم وصمدنا.

□ الا تعتقد ان الظرف اليوم مشابه ويفرض عليك ان تبقى في الموقع نفسه الذي كنت فيه؟

■ المقاومة هي كالحقيقة، اي ان لها وجوها عدة. منهم من يرى جدوى المقاومة بالسلاح ومنهم من يراها سياسية، اذا امعنا في دراسة الأحداث والحرب اللبنانية منذ اثنتي عشرة سنة، نرى ان كل من سجل انتصارا عسكريا لم يستطع ان يستثمره سياسيا.

□ هل تعني انك لن تحمل السلاح مجددا؟

■ كنت اول من رأى ان حمل السلاح في غير محله. وعند تسلم الرئيس سركيس الحكم اردت ان ندفع بالأمل الجديد فحللت لواء الجبل..».

هنري الذي عنده «شقة جميلة جدا في باريس» انتقل الى بيروت الغربية وسكن في شقة في تلة الخياط لا يزال امر الاقامة فيها غير مبتوت حتى اليوم. والسبب الذي ينسب الى هنري في معرض تفسير ذلك ان اشقاء صاحبة الشقة مقيمون في الولايات المتحدة، وجواسيس للأميركان استطرادا! ولا يزال هنري يقضي نصف وقته في هذه الشقة والنصف الآخر في ريفون التي عاد اليها في آب ١٩٨٧، وكان المطران نصر الله صفير سيم بطريركا في نيسان ١٩٨٦.

الأنا الالهية

يطرح المهندس هنري صفير نفسه بوصفه المخرج والحل، يحدثنا عن استقصاء للرأي العام قامت به مؤسسة ا. ب. ث وجاء فيه: الأول ريمون اده، الأكثرية معه من الغربية، الثاني داني شمعون اكثريته من الشرقية، الثالث سمير جعجع وكل مؤيديه من الشرقية، والرابع هنري نصف مؤيديه شرقيون ونصفهم الآخر من الغربية.

والراهن ان هذا الاستقصاء الذي استشهد به احد كبار الزملاء في نحو مسهب ومبالغ به، هو ما كان ينقص هنري، فالأمور عنده متضخمة، بما لا تخطئه عين اعشى، الـ «انا» اول الكلام والميل الى التباهي والتذاكي واستغباء من يستمع اليه سيد الميول.

يبالغ، مثلا، في احتقار المال والتعفف عن تفاهات الحياة الدنيا، ويطنب في الحديث عن «الرسالة» تقول له نحن نحب ان نتحدث في هذه التفاهات، يا هنري، تقول له ان الكلام في الرسالات بات ممجوجا.

يجن جنون هنري، يغضب وينفعل وتكاد الدموع تصعد الى عينيه معلنا اسفه لأن صحافيين امثالنا، بحسب تعبيره، لا يعيرون الرسالة ما تستحق. يخفض صوته ويجعله ناعما

ودافئا ويتوجه بالكلام الينا: الرسالة. لبنان. فلسفتي. اموت حين ارى صحافيين بلا رسالة.

يسترسل: الأخلاق.. القيم..

يكمل عظته التبشيرية وينظر الى وجوهنا فيقرأ عليها ما مؤداه لفها يا هنري. وهنري الذي لا يلفها يفجر غضبه في وجه السكرتيرة اللطيفة التي كل ذنبها انها اعطته خطا تليفونيا في وقت حرج:

بأعلى صوته: خلص. ولك حلي عني. يلعن رب التليفونات.

وتقاطيع الوجه كلها تنكمش وتحيله لعبة من جص.

اغلب الظن ان مبالغة هنري صفير في التوكيد على الأفكار والفلسفات والرسالات ناجمة عن تماس مثلوم مع ما ترمز اليه كلمة الحضارة. فابن ريفون ذو الجسد الضخم واللهجة الجبلية التي تطغى كلما ضاق صدر صاحبها، يستكثر على الحياة الاقرار لها بالغنى والسهولة، وتأملوا اي تكلف «فلسفي» يمكن ان ينتجه ذاك اللقاح بين الجرد الكسرواني المتذمر من «حضارة الكوكا كولا» والولايات المتحدة الأميركية.

يبدأ هنري تباهيه بنفسه، بلا اقتصاد ولا تقتير، بخطاب القاه في حضرة البطريرك عريضة وهو ابن ثلاث سنوات، من دون ان يكف عن استخلاص عبر سياسية راهنة استناداً الى تلك التجربة. تتخلل التباهي المطول امثلة فجة وقصص عن التاريخ الماروني واليعقوبي واخبار القديسين العموديين واستعانة بفصحى خطابية تكتم طموحا محبطا الى ان يكون صاحبها محاميا، وطبعا شتائم سوقية وبذيئة.

وهنري لا يخالجه الا انه يتحدث في الجرد مثيرا اعجابا لا تخالطه الشكوك، والذات ترخي العنان لنفسها عند الاقتراب من التصنيف، فهنري الذي وصف ميشال خوري وميشال اده بأنهما من تلامذة مدرسة ميشال شيحا، سألناه: ومن أي مدرسة انت؟ فلم يتردد في الاجابة: انا مدرسة قائمة بذاتها.

ومدرسة هنري هي بحسب تعبيره، المدرسة المشرقية من دون رفض للتكنولوجيا الغربية.

وعلى هذا الغرار تسمع منه عبارات كثيرة نكتفي هنا باقتطاف بعضها: سجل هذه الجملة لي.. انا حصان شارد... فلسفتي المشرقية تقلق الغرب... ادعى ٤ ـ ٥ مرات الى الأليزيه على الغداء.. قلت لكارتر قل لي الى اين اوصل كامب ديفيد؟... انا اريد ثورة فوقية.. انا عاشق لبنان.. عاشق الحرية.. انا قائد بمبادىء لا بفلوس.

سألناه، وهو الذي يكتب في الصحف المحلية والأجنبية، ويحاضر بين الفينة والأخرى، عن علاقته بالكتابة: عندي الاف الصفحات التي لم انشرها بعد، يطنب في وصف قدرته على ابتكار الأفكار «وتفجيرها» وينذرنا بأن صفحات وافكارا كثيرة سوف تظهر، يستطرد متعجباً لماذا يمارس السياسة من ليست لديه رسالة. السياسة رسالة يا استاذ، يقول معلما.

وهنري، بحسب قوله، يقرأ كل الصحف تقريبا. أما من الصحف الأجنبية فيقرأ خصوصا اللوموند ديبلوماتيك حين يكون في لبنان، واللوموند حين يكون في فرنسا، الى جانب صحف اخرى بالطبع، متابعا التعليقات السياسية كلها.

هل تقرأ الصفحات الثقافية؟

كانت تهمني، مؤخرا خف اهتمامي بها لانشغالاتي، وبما يوحي الأهمية يضيف: تعلمت القراءة السريعة في اللاتينية.. ولا نعرف من اين قفز اسم بنجامين فرانكلين، واصبح في متناولنا! وحين تسأل هنري عن الفن التشكيلي، يقول انه احب الواقعية ـ الرومنطيقية كما تطورت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ويسمي اثنين. يقول انه يحب الانطباعية اقل. ويستوقفه في السوريالية سلفادور دالي لأنه «متملك»، معلنا كرهه لمن يريد ان يتخطى الواقعية «من دون تملك قمة الفن في الواقعية»، ضاربا ببيكاسو مثلا على التخطي الناجح.

والأدب؟

اقرأ كثيرا شعراء العرب. اقرأ الجدد.

مثلا؟

نزار قباني.. ويروح يرندح ابياتا له وهو يحاول ان يذوب رقة.

هنري الذي يحب ان يبدو في مظهر العاطفي الحنون سبق له ان ضرب لنا مثلا عن الفراشة والشرنقة بوصفه صورة ادبية رفيعة.

آراء في السياسة

التقينا المهندس هنري صفير في مكتبه في تلة الخياط. استقبلنا زميلان صحافيان يعملان مستشارين اعلاميين له، وعرفنا في غضون ذلك ان زميلا ثالثا هو كبير مستشاريه الاعلاميين. وفيما نحن نقابله انضم الينا زميل رابع جلس يسمع ويراقب وعلى وجهه ملامح توجيهية لا يعرها هنري انتباها ولا اهتماما. وذلك كله بعد كتابة زميل خامس عن «العزيز هنري».

نخال ان زملاء آخرين سوف يطلعون من جدران مكتب هنري صفير او ينبعثون من تحت ارضه. ونعلم في وقت لاحق ان احدى مؤسسات العلاقات العامة، في الولايات المتحدة قد عهد اليها صفير بتنظيم امر حملته الانتخابية.

يتحفظ هنري على طبيعة عملنا حين نشرح له اننا سنستكمل المعلومات التي سنأخذها منه معلومات آخرين، فهو لا يكتم قلقه مما قد يزودنا به الآخرون نعده بعدم نشر المعلومة الا بعد تدقيقها. يرتاح قليلا، يأخذ سيجارة كنت طويلة، ولا ينسى ان يلوم «السفير» لأنها لا تتبنى معركته.

هنري صفير الطويل البدين، متجهم الوجه، منتفخه، يكاد الشعر الأبيض لا يوجد في

رأسه الا لماما. شعره الأسود القصير يخترقه فرق على اليسار بما يوحي ترتيب المظهر. لكن العينين المعلقتين في محجريهما تتركان انطباعا ملحا بأن ثمة شيئا ما مخبأ في احدى زوايا المكتب، يفاقم هذا الالحاح ان الأسنان لا تظهر في فم هنري وهو يتكلم، فاذا فعلت بدت تلك الفجوة الضئيلة بين السنين الأوسطين في الفك الأسفل واذا ابتسم وقليلا ما يفعل جحظت عيناه وازداد تدلي عنقه وظهرت نتف من اسنانه التي تكتمها شفتاه مائلة الى الانغلاق على نفسها. وكثيرا ما يتصاحب كلام هنري واستماعه برجفة في عينه اليسرى وخده المجاور لها.

تسأل هنري عن السوريين.

الكتائب جلبوا السوريين اما الآن فأنا مؤمن بالدور السوري، امنت بقدرة الرئيس سركيس على تحقيق الخلاص، الى ان استقبل كارتر السادات بوصفه «رئيس دولة افريقية» بما ينزع عن مصر كونها دولة عربية. انقشعت المؤامرة التي كانت احدى محطاتها مقتل الملك فيصل قبل ان يصلي في القدس.

يتحدث عن علاقته منذ ١٩٨٠ بـ«سيادة نائب الرئيس ابو جمال» يريد العلاقات السورية - اللبنانية مميزة فعلا، مؤيد للكثير من «الاتفاق الثلاثي» لكنه ليس مؤيدا لأن يوقعه مقاتلون! كذلك هو متحفظ على الجانب المتعلق بالجيش لأن اميركا لا تقبل، وعلى المثالثة ضمن المناصفة في التمثيل النيابي لأنها تكريس للطائفية. شديد الحماس للتكامل الاقتصادي بين البلدين: اذا السوري ما بدو يعمل تكامل بدي قاتلو. كذلك يطالب بما يسميه التكامل الأمني. يستشهد بالمادة ٤٥ من الرسالة البابوية التي تدعو الى التكامل بين البلدان المتجاورة.

والفلسطينيون؟

كنت انظر دائما الى المقاومة الفلسطينية كنموغوغائي. في ١٩٦٧ سقط بيرق كرامة العروبة من عبد الناصر والتقطه عرفات الذي بقي رائدا حتى ١٩٧٣..

هنا يدخل هنري مجددا في دوامة اسماء ومفاهيم لا حول لنا بها ولا قوة عن العرب، والثورة، فيعارض نظرية «البؤرة» لغيفارا، ويصل بين محمدوثورة الجزائر، من دون ان ينسى المرور على المسيح «وثورته» والفكر الاغريقي. جملة واحدة، طويلة طبعا، يختلط فيها الحابل بالنابل. نحاول العودة بهنري الى جادة الصواب. تكثر التليفونات ورسالة هنري واحدة لا تتغير: مشتاق للجميع، كان يحاول الاتصال بهم، يخلّي لي ياك. واحيانا ممازحات على شاكلة: هيدا صاحبك عكروت..

نرجع الى حيث كنا..

والغاء الطائفية السياسية؟

ما يجري حاليا ليس مطالبة بالغائها، الحوار السوري - الأميركي ينقلنا من حالة طائفية الى

حالة طائفية اخرى اخشى ان تخلق جمودا في وضع الطائفية، يجب الغاء الطائفية في الوظائف فورا عند ابتداء العهد الجديد. ويجب وضع برنامج تربوي يعمل على الغاء الطائفية تدريجيا من ذهن الشعب. ويجب وضع برنامج اعلامي للهدف نفسه. ومع ذلك يصار الى الغاء تدريجي للطائفية في المراكز السياسية. وبحلال القرن ٢١..

والمشاركة..؟

لا ارى وجوب مشاركة بين الطوائف بل مشاركة المواطن في مصيره. المطلوب تعزيز المشاركة الديموقراطية في المناطق وانمائياً، حيث يشرف على امور كل منطقة مجلس منتخب يتجدد ثلثه كل سنتين، وهذا يراعي خصائص كل منطقة من الناحية الانمائية.

وصلاحيات رئيس الجمهورية؟

رئيس الجمهورية يجب ان لا يتنازل عن الصلاحيات، لأن البلاد بحاجة الى قائد، المهم الاتيان بفريق الحكم الذي يكون مطمئنا طائفيا.

هنري صفير الذي يقال انه هو الذي جمع الوزير نبيه بري بالرئيس الفرنسي ميتران بعيد ٦ شباط ١٩٨٤ نسأله عن سر صلاته الشخصية والسياسية ببعض اصحاب الأسماء الكبيرة، لكنه يظن في السؤال سوءا لم نكن نقصده فيرد بحدة:

اخصامي هم الأقوياء بالمال، انا قوي بأفكاري، هل المال هو ما يغري كارتر او نيكسون الذي قرر ان يستقبلني ساعة ثم مدد الجلسة الى ثلاث ساعات، هل المال هو ما يغري الشاذلي وميتران الذي تعرفت اليه والى اسرته. السر؟ ما بعرف شو السر؟ جريدة «لوماتان» وضعت مانشيتا في رأس صفحتها الأولى:

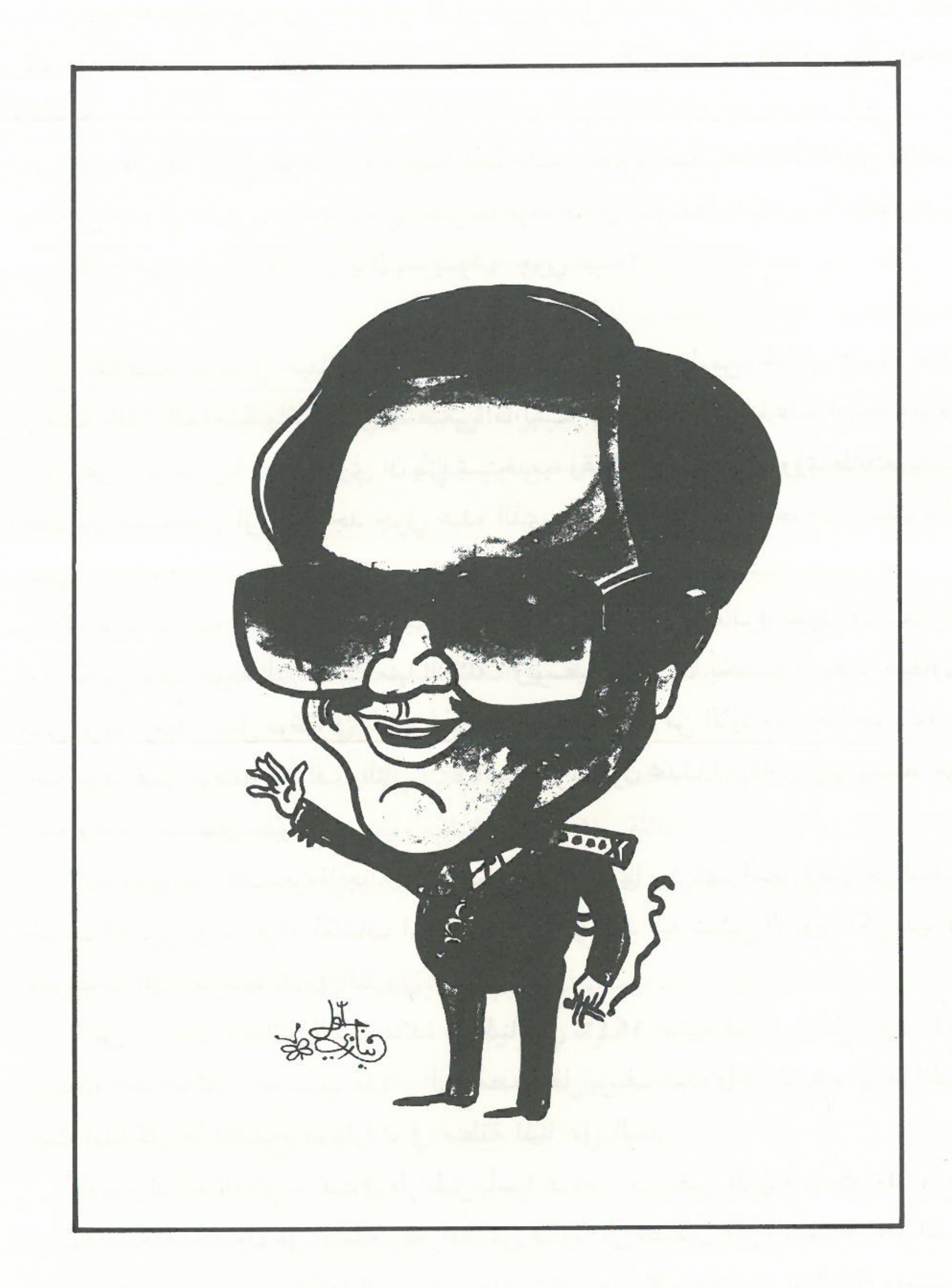
هنري صفير: لا حل الا باستقالة امين الجميل.

لكن هذا تحديدا يا استاذ هنري يصعب ان يحصل من دون فلوس.

نزعج هنري مجددا . نسأله: هل ترشيحك للرئاسة جدي؟

يستجمع قواه: صار عمري ٥١ سنة ولم افعل الا الأمور الجدية، رسالتي.. الرسالة.. رسالتي ان ...

يستحسن ان نودعه بلطف ونغادر.



جوني عبده

جمع المعلومات عن جوني عبده يشبه في واحد من جوانبه وحدا من جوانب عمل جوني عبده فالرجل الذي عاش في الجيش والمخابرات غامض غموض خلفيته العائلية والاقتصادية والثقافية.

ووسط هذا الجهل بالرجل تروح تجمع المعلومات واحدة واحدة. هذا يحدثك عن عائلته، وذاك عن ايامه في الجيش، وثالث يروي بعض ما عرفه عنه في ايام المخابرات، وهكذا دواليك.

فمن هو سفيرنا الحالي في برن بسويسرا، جوني عبده؟

بين الذوق وحيفا

تبدأ قصة العائلة في حيفا بفلسطين. فسليم الخوري، والد بطرس الخوري كان قد عاش في تلك المدينة الساحلية وانشأ له تجارة صغيرة ما لبثت ان اتسعت ودرت عليه ارباحا وفيرة. وجريا على عادة معروفة شاء الخوري ان يأتي بمستخدميه وعماله من ابناء بلده وربما طائفته ايضا. فكان بين المستقدمين الى حيفا جد جوني عبده الذي انجب ثلاثة انجال احدهم يوسف والد جوني.

وقد عرف يوسف الذي اقترن بفتاة من دير القمر اسمها أليس نعمة بـ « الذوقي »، نسبة الى ذوق مكايل قرب جونيه التي قدمت منها العائلة. ويوسف الذوقي، بحسب ما يتذكر حيفاوي مسن عرفه يومها، عمل موظفا في البريد و « عاش مستورا وكان من الاوادم». اما اخواه لويس وحنا فاولهما عمل موظف تلغراف والثاني. . لم اعد اذكر، يقول محدثنا الحيفاوي وهو يضغط على رأسه ويحاول استنطاق جبينه.

بيد ان يوسف كان معروفا جيدا بين مسيحيي حيفا لاسيما موارنتهم الذين وفدوا من لبنان. والسبب انه تولى رئاسة فرقة الكشاف الماروني هناك، كما عهد اليه بتمثيل الادوار الكوميدية في المسرحيات التي يعرضها النادي الماروني.

على اية حال فالعائلة قفلت عائدة الى لبنان في ١٩٤٦ عشية قيام اسرائيل، وهنا ثمة روايتان، احداهما تقول انه لسبب ما لا يزال غامضا انتقل يوسف عبده واحد شقيقيه الى طرابلس حيث انشأ كاراجا لتصليح السيارات في منطقة المينا على البحر.

ويبدو ان العائلة التي عرفت في طرابلس بأسرة عبيدو، كما تمضي الرواية عانت بعد عودتها الى لبنان مشكلة الحصول على جنسية. فافرادها ممن غادروا الى فلسطين قبل احصاء ١٩٣٢ الذي اجراه الانتداب الفرنسي، عادوا الى بلدهم بعد سنوات على الاستقلال وقيام الدولة واستقرار الجنسية على حامليها.

لكن براعة يوسف وشقيقه في تصليح السيارات، لاسيما منها السيارات البريطانية الصنع التي وجدت بكثرة في فلسطين، حببتها الى احد زبائنها الذي لم تكن تستهويه بين السيارات الا

سيارة الجاغوار.

وذات يوم اقترب احد الاخوين من صاحب الجاغوار وسأله:

ـ هل يجوز يا سليمان بك ان نبقى من دون جنسية؟

وحمل سليمان السؤال الى شقيقه حميد فرنجية الذي سأله ان يطلب منهم تجهيز معاملاتهم، وهكذا كان، واستعاد آل عبده لبنانيتهم في صورة غير منقوصة

اما جوني فمع انه لا يحب الحديث عن حياته الخاصة وعائلته ومنبته وتجربته قبل ان يصير مديرا لمخابرات الجيش، فتنسب له قصة اخرى.

فحين يسأل، بحسب ما ينقل عنه، يجيب باقتضاب:

ـ أصل الحكاية في امر الفلسطينية المزعومة انني ولدت في حيفا. ويضيف ضاحكا: الغريب اننا لم نكن ابدا في طرابلس، ولا نعرف من اين انطلقت هذه الرواية التي تنسب الى الرئيس فرنجية.

وفي الرواية المنسوبة لجوني ان الوالد عمل بعد العودة الى لبنان في شركة درويش الحداد، كما سافر للعمل فترة الى العراق عاملا مع شركة المقاولات اياها والتي كانت تنافس « الكات» لاميل البستاني. وتنتهي الرواية بالقول ان الجنسية استعيدت بحكم لا بمرسوم جمهوري.

الذوقي في حيفا والجيش

جوني عبده ولد في حيفا، اذن، في ١٩٤٠، واقترن بالانسة سوزان الاشقر التي يعزى اليها انها تستدرك في مجال التوكيد قائلة: اشقر بيت شباب وليس ديك المحدي.

التعارف تم بين الاثنين في الاشرفية، حيث كانا جارين في السكن، وهناك درجت اسرة الاشقر على التصويت ضد بيار الجميل.

أما عن الاسرة، في الذوق فينسب الى جوني قوله ان عدد الاقارب محدود جدا. ربما خال او اثنان وعم او عُمان وبضعة ابناء عمومة وخؤولة.

انتسب جوني الى المدرسة الحربية في ١٩٥٨، وقد ساعده على دخولها فؤاد نفاع ابن الذوق الذي كانت تقترع له عائلة عبده وتنوب عنه والدته في قلم الاقتراع ابّان الانتخابات.

ولا يزال نفاع يحفظ الود بدليل انه جاء لتعزية السيدة عبده بوفاة والدها قبل بضعة اشهر.

في الحربية كان يفترض بجوني ان يكون طيارا. فهو والعقيد سيمون قسيس من الدورة ذاتها، وقد تخرج في الدورة المذكورة عشرة ضباط، ٨ موارنة وشيعي واحد هو عدنان يوسف ابراهيم بشارة وآخر درزي، من دون ان يكون هناك سني بينهم

وفي خلال سنوات الكلية تمت في السنة الثانية تصفية خمسة من المتخرجين احدهم عدنان بشارة الذي افترضوه مسيحا، « فهيجنا الدنيا»، يقول جوني عبده وذهبنا نحن العشرة الى عدنان

الحكيم وبيار الجميل والبطريرك الماروني . . شكونا الى زعيم النجادة استبعاد السنة، والى الشيخ بيار اضطهاد المسيحيين، اذ كان بين الساقطين اربعة من الموارنة، ولم تتم التسوية الا في السنة التالية فاخذ عدنان بشارة واستبعدنا نحن».

الضابط الذي بدأ في رياق تلقى الدروس والتدريبات ذاتها التي يتلقاها من سيكون طيارا . . وهو يتذكر من اسماء المدربين، هنري ضاهر، واحد طياري شركة طيران الشرق الاوسط ميشال خليفة .

في ١٩٦٥ نقل عبده الى الشعبة الثانية التي كانت تضم ١٢ ضابطا (٨ موارنة و ٤ مسلمين) ويتولى رئاستهاالعقيد غابي لحود. انذاك لم يعمل الملازم عبده في المخابرات بل كلف بتولي فرع شؤ ون العسكريين الخاصة التابع للشعبة نفسها، وهو فرع انشىء عامذاك لغرض محدد:

فمع تسلم اميل البستاني قيادة الجيش بعيد تقاعد عادل شهاب اواخر ١٩٦٥ ، اراد القائد الجديد تحديث الجيش، و« نفض كل شيء حتى اللباس وشكل النجمة». وقد اصطدم البستاني المتحمس لان يطبع القيادة بطابعه الخاص واسلوبه في العمل، بتردي سمعة الجيش تبعاً لسلوكيات غير محمودة .

فالشهابية كانت قد جعلت لابس الثوب العسكري صاحب امتياز يستطيع الدخول الى الادارات العامة وانفاذ مشيئته بسرعة، الشيء الذي اثار انتقادات اخذت الصالح بجريرة الطالح .

وحاولت الشعبة الثانية الحد من اساءة استعمال هذا الامتياز فشرعت تعاقب المرتكبين، الا ان وفرة عددهم حدت بالمعنيين الى التفكير بحل اخر.

قال البستاني: هذا الحل يخفف عن العسكر لانه يتولى حل مشاكلهم في الادارة من دون اساءة الى سمعة الجيش، ويخفف عن الادارة لانه يقضي بمنع العسكريين بتاتا من الدخول الى ادارات الدولة .

ضابط بين المدنيين

وسلم فرع شؤ ون العسكريين الخاصة للملازم جوني عبده.

لماذا الملازم عبده؟ نسأل الضابط الذي عاش تلك الفترة عن كثب.

لانه كان مهذبا ولطيفا وذا طلة حلوة واجتماعيا ونبيهاً .

قبل ذلك كان جوني ضابط في فوج الهندسة في حمانا، وكان كسائر الضباط بلا اي لون سياسي او اهتمام يتعدى النشاط العسكري في حدوده المهنية. اما في الشعبة الثانية فبدأ يتعرف الى الشهابية وتعاليمها البسيطة، فيما تولى ضباط الشعبة الشهابيون تدريبه ورعاية خطواته الاولى .

وتكشف جوني عن همزة وصل بارعة بين العسكريين ورجال الادارة والسياسة: فبعد تعارف

طفيف يتدبر جوني امره ويشق طريقه ، و« ودي الشاطر ولا توصيه»، بحسب المثل الذي استشهد به ضابط من الذين رعوا جوني يومذاك.

بقي جوني على هذه الحال حتى اواخر ١٩٦٨ حين اودى انفجار لغم في الجنوب بدورية كان على رأسها النقيب جوزيف يونس مرافق العماد اميل البستاني . وهكذا جيء بعبده ليحل محله في مرافقة قائد الجيش، حاملا في الفترة نفسها رتبة نقيب.

مع البستاني اصبحت طلته اوسع مدى، خصوصا وان انتقاله الى المرافقة لم يقطع اواصره مع زملائه في الشعبة الثانية . ولان ولاءه الفعلي كان للاخيرة ازدادت قيمته في نظر الزملاء الذين كانوا يرتابون بقائد الجيش ولا يأمنون طموحاته . فالبستاني كان ذا لحم لا يؤ كل بسهولة، الشيء الذي وضعه في مواجهة مع معظم السياسيين بمن فيهم رئيس الجمهورية شارل حلو. لكنه وضعه ايضا في مواجهة اخرى مع عسكريي الشعبة الثانية الطموحين وفي مقدمتهم غابي لحود الذي كان يأمل ان تكون رئاسة الشعبة مقدمة الى قيادة الجيش، ومنها رئاسة الجمهورية في وقت لاحق.

ومع اتساع دائرة الخصوم والمناوئين شاملة الرئيس حلو والشعبة الثانية والعميد ريمون اده وغيرهم، لم يعد مطلوبا سوى توقيع « اتفاق القاهرة» لاسقاط الجنرال ذي الشكيمة الالمانية، والاتيان بجان نجيم محله في الاشهر الاخيرة من عهد حلو. وقيل ان المعلومات التي سربها جوني كانت اساسية في عملية الاسقاط هذه.

بيد ان نجيم كان شهابيا على عكس سلفه البستاني . واذا كان جوني عبده قد تولى مرافقة نجيم الا ان شهابية الاخير عطلت قيامه بدور قيم كذلك الذي لعبه ابان قيادة البستاني.

بعيد انتخاب سليمان فرنجية رئيسا للجمهورية، تحطمت الطائرة المروحية بقائد الجيش جان نجيم في حادث لا يزال غامضا، وجيء باسكندر غانم الملقب بـ« البطرك» لتعصبه المذهبي والمعروف بشدة عدائه للشهابية كي يتولى قيادة الجيش. وقد عدت الخطوة آنذاك مخالفة قانونية صريحة لأن غانم جيء به من التقاعد وتمت ترقيته في موازاة تسليمه المهمة الجديدة. واذا صح ان كل ضابط يتقاعد يبقى خمس سنوات في الاحتياط الا ان ما لا يصح هو تسمية ضابط احتياط قائدا للجيش.

على اية حال ففي ولاية غانم « أبعد» النقيب عبده الى ابلح ومرجعيون كضابط هندسة، فبقي في كل منها شهرا نقل بعدهما الى النبطية حيث كان لحظة اندلاع حرب ١٩٧٥ .

قبل ذلك بقي عبده على اتصال دائم بضباط الشعبة الثانية ممن عادوا في ١٩٧٤ من دمشق التي هربوا اليها. فأمراء الجيش المبعدون جعلوا يوالون اجتماعاتهم وبحث امورهم وامكان عودتهم الى الجيش. وباستثناء دورة هندسة وطوبوغرافيا في الولايات المتحدة دامت ١٤ شهرا لم ينقطع التنسيق مع الزملاء القدامى المسكونين بتبرئة ساحتهم من التهم التي وجهت اليهم.

ضغوط الحرب

في ١٩٧٥ انتقل عبده الى الأشرفية حيث أقام مجدداً.

هناك تعرض الضباط المسيحيون لاسيما الشهابيون منهم لاهانات متكررة من المقاتلين الكتائبيين، وكانت هذه الاهانات على اشرسها في الاشرفية، قاعدة قوة بشير الجميل الذي عرف بعدائه للشهابية وهزئه بتعاون والده معها. فبشير الذي درج على السخرية من أبيه في غيابه واطلاق « الصيغة » نعتا عليه، لم يتردد في ايصال الرسالة التالية الى الضباط المقيمين في نطاق سلطته:

المسيحيون اليوم في خطر، وعليكم ان تشاركوا في القتال دفاعا عنهم وتزجوا بكفاءاتكم في هذا الصراع. لماذا لا تكونون كابراهيم طنوس الذي اصيب بيده وهو يقاتل في عينطورة؟

ويبدو ان عبده ضعف حيال الضغوط المتواصلة فرضي ان يتسلم ادارة المخابرات في الـ « اس . كا. أس»، فيما كان بشير قد حل في القيادة محل وليم حاوي الذي صرع في تل الزعتر . ومنذ ذلك الحين نشأت بين الاثنين علاقة معقدة .. قصوى في كرهها وودها.

لكن جوني بسبب من شهابيته ولا طائفيته فضلا عن ولائه للشرعية ودولتها وجيشها، لم يستطع التعايش مع الميليشيا فتركها بعد شهر واحد من دون ان تنقطع الصلة ببشير الجميل وبعض اركانه، لاسيما منهم ايلي حبيقة.

فهذه الصلة أمنت له بعد ان استلطفه بشير، حماية رأسه ورؤوس الكثيرين من زملائه المسيحيين في المناطق الشرقية، لكنها تسببت من ناحية أخرى في ايجاد حذر سوري لم يفتر مذاك بالنقيب الذوقي.

فحين طلبت دمشق في ١٩٧٦ ان تبحث أوضاع الجيش اللبناني مع ضباط يمثلون سائر اتجاهاته الطائفية والسياسية كان جوني في عداد الضباط البشيريين الذين توجهوا الى العاصمة السورية. منذ ذلك الحين والفكرة السائدة في العاصمة المذكورة ان جوني عبده بشيري أولا وأساسا، فعندما سلم رئاسة الشعبة الثانية برتبة عقيد في ١٩٧٧ خلفا لجول بستاني، لم يكتم السوريون استياءهم الذي نقل صريحا الى الرئيس الياس سركيس.

ولهذا التعيين قصة مؤداها ان سركيس طلب صديقه غابي لحود ووزير الدفاع (والخارجية) يومها فؤاد بطرس وسألهما:

ـ شوفو مين منجيب رئيس للشعبة الثانية؟

فوقع اختيار الاثنين على جوني.

ويقال في معرض الحديث عن شخصية عبده ومهارته كرئيس للشعبة الثانية أنه نجح في أن يقلب خطط سركيس الأصلية. فالأخير وهو شهابي اراد أن يتلافى الخطأ الشهابي القاتل في تسييس

الجيش وايكال الوظائف السياسية الى الضباط، الا ان عبده نجح بالتدريج في أن ينتزع مواقع قوة مستقلة به محتويا رئيسه ومنجزا ما فشل غابي لحود في انجازه مع شارل حلو.

سوريا وبشير

اتبع جوني عبده في البداية سياسة مزدوجة الأبعاد، فكان من جهة قائد الخط المناهض لسوريا في الادارة السركيسية بما أكد للسوريين حذرهم حياله. لكنه من جهة أخرى كان قائد الخط المناهض لبشير الجميل في مناطق التواجد المشترك.

فجوني في الفترة السابقة لم يكن «بشيريا» الا على مضض: حماية نفسه وزملائه، ضمور الشهابية والتبعثر الجغرافي لضباطها بسبب الحرب، وأجواء التعبئة الطائفية الكاسحة في حرب السنتين. كل هذه العوامل قادته الى الـ «أس. كا. أس».

بيد انه ومع وصول شهابي الى السدة الرئاسية في ١٩٧٦، وظهور ملامح تشي بامكان بناءالجيش مجددا، شرع عبده يفكر في توسيع رقعة نفوذه على حساب التمدد البشيري.

آنذاك كانت «النظرية» التي يقول بها رئيس الشعبة الثانية تقضي بما يلي:

- التضييق على السوريين والفلسطينيين وأتباعهم في «الحركة الوطنية اللبنانية».
- التضييق على بشير الجميل ومحازبيه.
- مد شبكة علاقات واسعة تطال سائر المعتدلين في الطوائف الاسلامية والمسيحية يكونون قاعدة مستقبلية لمشروع بناء الدولة.

واذا كان عبده حقق نجاحا لا مثيل له في بنائه لشبكة العلاقات التي تغلغلت الى ثنايا الطوائف، وأغرت زعيما شابا كوليد جنبلاط بالانتقال من معسكر الحرب والعسكرة الى معسكر السلم والانضواء في الدولة، فان الامتحان البشيري أسفر عن نتائج مختلفة تماما.

فقائد «القوات اللبنانية» استقبل محاولة عبده بأن رمى القفاز في وجهه رمي من لا يطيق التحدي: ١٢ محاولة اغتيال، بحسب احدى الروايات، لم يتردد جوني في الرد عليها بمحاولات مماثلة، ليس القتل هدفها عند الاثنين على الأرجح.

كذلك تعرض بشير بالتضييق أو الاهانة للكثيرين من سياسيي المناطق الشرقية المعروفين بصداقة الرئيس سركيس وجوني عبده، وكان أبرز هؤلاء الوزير فؤاد بطرس. لكنه لم يكتف بالتضييق والاهانة، فأقدم على اغتيال ضابط من آل شمعون يعمل مرافقا للوزير بطرس. ورد جوني بأن كشف شبكة بشيرية في الجيش واعتقل أفرادها بمن فيهم الرقيب الأول الذي يديرها.

كذلك أمر جوني باغتيال أحد منفذي عملية اغتيال المرافق شمعون، فحين نجح الانتقام نقل القاتل الى وزارة الدفاع في اليرزة كونها المكان الأمثل لحمايته من غضب بشير.

وبعد صباحين أو ثلاثة تأخر نهوض النائم من سريره ومغادرته غرفته، وتبين لأول داخل الى

الغرفة ان النائم يغط في نوم أبدي تحت لحاف عليه بقع دم كثيرة عندها تأكد لجوني، الذي سبق ان نقل مسكنه من أدونيس في جونيه الى اليرزه قرب وزارة الدفاع، أن بشير عنده كالنعمان عند النابغة الذبياني: الليل الذي هو مدركه.

الشهابي يتحول . . .

حسمت المعركة بمخابرة تليفونية أعلن فيها الدون الأول الاستسلام وانتهاء المباراة فيما ابتسم الدون الثاني واعطاه موعدا في أقرب وقت ممكن. وكما سنرى لاحقا فان هذا التغير لم تعوزه النظرية المواكبة له.

راح تحول جوني يسرع في تحول العهد السركيسي عموما، حتى اذا أزف الثلث الأخير من الولاية كان الشيخ الكتائبي الأصغر حاكم ظل يجير له جوني عبده علاقاته وصداقاته، وينوب عنه في الصلة بسياسيين تحرجهم الصلة المباشرة برجل السبت الأسود.

ويروي يساري في السبعينات أقنعته الثمانينات بضرورة وقف الحرب والعمل الى جانب الدولة كائنة ما كانت التسوية المحتملة، انه قصد مكتب جوني عبده ذات مرة ففاجأه الأخير بسؤاله:

ـ ما رأيك لو جمعتك ببشير الجميل لتتأكد بنفسك من أن الرجل ليس شريرا كما يقول البعض؟

وفيما الزائر مرتبك يحاول تأليف جواب، خرج بشير من غرفة أخرى وسلم وعانق وجلس.

لقد كان جوني عبده أكثر رجالات الادارة السركيسية حماسة لترشيح بشير الجميل لرئاسة الجمهورية، واسهاما في تأهيله للقيام بهذا الدور.

والراهن ان تأثير عبده في دفعه بهذا الاتجاه نجم عن موقعه الفاعل في عهد الرئيس سركيس. ويكفي للتدليل ان نعود الى بعض نشاطاته وأدواره وآرائه خلال العهد المذكور كما يسجلها المحامي كريم بقرادوني في كتابه «السلام المفقود»، وفي طوري ما قبل البشيرية وما بعدها:

ففي ٦ تموز ١٩٧٨ أوحى الرئيس بأنه مستقيل، وبعد ثلاثة أيام على كتابة الاستقالة بخط يده أطلع على قراره مجموعة مستشاريه، فدافع عبده عن فكرة العودة من دون قيد أو شرط، وقال: الاستقالة عمل لا معنى له. لابد من العودة عنها بلا شروط. كل عودة مشروطة ضعف ولا يجوز اعطاء انطباع بأن عهدك مؤقت أو خاضع لارادات غير ارادتك».

وفي احدى جلسات القصر الجمهوري لاحظ عبده ان «اسرائيل لن تتخلى عن الحزام الأمني في الجنوب لأن دولة سعد حداد تشكل بالنسبة لها أفضل وسيلة لتهديد استقرار لبنان وسوريا معا».

في ٦ أيلول ١٩٧٨ توجه الى دمشق برفقة سامي الخطيب للبحث في موضوع قصف الأشرفية حاملا طلبا لبنانيا باعادة انتشار القوات السورية في لبنان، وتقوم الخطة على «تجميع الجيش السوري تدريجيا في بعض النقاط الاستراتيجية. واحلال الجيش اللبناني تدريجيا أيضا محله على الحواجز وفي الاتصال بالمواطنين. وسيقوم الجيش اللبناني، بمهمة قوات الأمن الداخلي أما الجيش السوري فسيكون قوة تدخل».

وعند زيارة خدام الى بعبدا في ٢ أيار ١٩٧٩ تقدم بشكوى للرئيس سركيس ضد جوني عبده الذي اتهمه بالعمل ضد الوفاق السوري ـ اللبناني كما اتهم بطرس بأنه «حصان طروادة الاميركي». وكان عبده اصغر «الفريق الحاكم» سنا، والرجل القوي والمسموع الكلمة فشغل عمليا مهمة المستشار الشخصي للرئيس في شؤون الأمن القومي، وقد نجح، منذ تعيينه في بلوغ هدفين: ادخال ضباط مسلمين الى قيادة الجيش التي كانت مسيحية كليا على أثر حرب السنتين ١٩٧٥ و١٩٧٦ وانشاء جيش جديد مختلط مسلم مسيحي، كما كان صاحب فكرة انشاء الفوج المعروف حاليا باسم «المكافحة» وتجهيزه تجهيزا كاملا ومتطورا.

البشيري . .

الى ذلك، شكل جوني عبده مع زاهي البستاني ثنائيا يعود له الفضل في انقاذ التفاهم مرات عديدة بين الرئيس سركيس وقائد «القوات اللبنانية» بشير الجميل، فبعد قبول الرئيس سركيس الاستقالة التي قدمها الرئيس الحص في ٧ حزيران ١٩٨١، اعتبر بشير هذا القرار مناورة ترمي الى اعطاء «الوطنيين الأحرار» (بعد احداث الصفرا) تعويضات على حسابه فسادت العلاقات بين سركيس وبشير سحابة من التوتر، وكان ان خطف شارل رزق، صديق الرئيس الشخصي، في ٢٢ تموز في الأشرفية، ودخل الجيش في ١٠ و ١١ ايلول الى مقرين كتائبيين في الحدث وضاحية بيروت الجنوبية، وشهدت عين الرمانة في ٣١ تشرين الأول صداما بين الجيش اللبناني و«القوات» التي أجبرته على الانسحاب، وبفضل جهود هذا الثنائي، عادت المياه الى مجاريها بعد تعيين سليم الجاهل وهو بشيري في الصميم وزيرا في حكومة شفيق الوزان في ٢٥ تشرين الأول ١٩٨٥.

ورعى جوني عبده في منزله اجتماعات سرية للجنة مختلطة من الحزب التقدمي و«القوات اللبنانية» مهمتها اعداد مشروع سري للبنان الجديد، ضمت هذه اللجنة جوزيف أبو خليل وزاهي البستاني وانطوان نجم من جانب بشير الجميل وسمير فرنجية ورياض تقي الدين من جانب وليد جنبلاط.

وقد لعب فرنجية دورا بالغ الأهمية في اقناع وليد جنبلاط بضرورة عقد ميثاق سياسي مع بشير الجميل، وعقدت هذه اللجنة خمسة اجتماعات بين ٢٨ تشرين الثاني و٣٠ كانون الأول ١٩٨٠، في منزل جوني عبده.

وفي أواخر ١٩٨٠ التقى السفير الاميركي جون غنتر دين وبشير الجميل الى مائدة جوني عبده الذي أعد العدة لانجاح هذا اللقاء، وقد سجل هذا اللقاء منعطفا حاسما بالنسبة الى مستقبل قائد «القوات اللبنانية» وعلاقاته بواشنطن.

ويقول كريم بقرادوني ان الرئيس سركيس عين عمدا جوني عبده في الوفد اللبناني الذي ذهب الى جدة لحضور جلسات اللجنة الوزارية المصغرة التابعة للجامعة العربية والتي بدأت أعمالها في يوم ٢٨ تموز ١٩٨٢ وحمله رسالة الى عبد الحليم خدام تتعلق بالانتخابات الرئاسية، وأفصح الرئيس عن غايته قائلا: «أود أن تعلم دمشق رسميا انني اؤيد ترشيح بشير، وأريد أيضا أن أبين لسوريا ان مصلحتها مؤمنة في حال دعمها هذا الترشيح، وسيعرف جوني كيف يجد اللهجة المؤاتية والبراهين اللازمة».

وخلال الفترة الأولى من الاجتياح الاسرائيلي التقى جوني عبده ياسر عرفات (١٩ ـ ٢١ حزيران) ٤ مرات ليطلعه على مضمون المقترحات الاميركية التي يحملها فيليب حبيب، وهذا ما لنا عودة لاحقة اليه نقلا عن صحافيين اسرائيليين.

الاجتياح الاسرائيلي

يضيف الضابط الذي عرف جوني قديماً:

ـ جوني عبده بالغ الذكاء. يعرف حركة الريح. يختلف عن غابي لحود في انه لماح لا يحتاج الى الشرح. يفهم بسرعة. لكن غابي أفضل منه لجهة الحذر. فهو لثقته بذكائه يتهور. راهن أكثر من اللازم على قوة الاجتياح الاسرائيلي والموقف الاميركي . . . تبين ان جوني كان شاطرا أكثر مما كان ذكيا.

ونفهم ان ما يقصده محدثنا هو استقبال شارون في بيت جوني وأعمال مشابهة أخرى حصلت ابان الاجتياح وبعيده. فشيمون شيفر كان روى في كتابه «كرة الثلج»، انه «على شرفة منزل جوني عبده (. . .) وحول طاولات عليها مرطبات ومشروبات وقهوة، جرت المحادثات بين فيليب حبيب واللبنانيين والاسرائيليين كل على حدة. وفي هذا المكان بذل الوسيط جهودا يائسة للوصول الى اتفاق اجلاء المخربين، وايجاد دول تستقبلهم وتنظيم طرق الجلاء، وطمأنة المخربين الى ان امنهم سيكون مضمونا لدى خروجهم، وان دخول القوة المتعددة الجنسيات سيكون منتظما وسيبدأ عند خروج المخربين».

ومرة اخرى وفي ١٩ تموز حصل لقاء ثان على شرفة الفيلا التي انتقل اليها بالأصل جوني عبده هربا من بشير. ويروي شيفر ان تلك المحادثات ربما شكلت «نقطة تحول في العلاقة بين الادارة الاميركية ووزير الدفاع الاسرائيلي، ومن المحتمل أن هؤلاء الذين اطلعوا على التقرير الذي أرسله حبيب عن محادثاته قد قرروا ألا يكون شارون بعد اليوم محاورا للادارة الاميركية. في

تلك الاثناء تحدث حبيب وشارون في غرفة الاستقبال بمنزل جوني عبده عن فرص اخراج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت، وعن الترتيبات القادمة والحصار الاسرائيلي للعاصمة». وهناك انفجر الخلاف بين حبيب وشارون وتخوف البعض من أن يصاب الأول بذبحة قلبية سبق ان تعرض مرارا لمثيلاتها.

أما زئيف شيف وايهود يعاري فأوردا اسم جوني عبده غير مرة في كتابهما «حرب اسرائيل في لبنان». فياسر عرفات حين أدرك مساء يوم الاثنين في ١٤ حزيران ان الاسرائيليين سيتقدمون باتجاه جنوبي بيروت اتصل بجوني عبده «من طريق وسيط موثوق به»، وطلب اليه ان يتأكد ما اذا كان الاسرائيليون سيدعون رجاله يغادرون المدينة، واذا كان الجواب بالايجاب فأي طريق سيسمح لهم بسلوكها.

الا ان عرفات أبلغ جوني عبده في اليوم التالي ان رجاله لم يعودوا مهتمين بضمان طريق آمنة لهم يخرجون عبرها من المدينة، وذلك فيما كان جورج حبش يتحدث عن نيته تحويل بيروت «ستالينغراد ثانية».

ويرد اسم عبده ثالثة لاتصال أجراه مع صولانج الجميل بعيد انفجار مقر الكتائب في الأشرفية وقبل أن يتأكد نبأ مصرع بشير، يخبرها فيه ان طائرة هيليكوبتر تولت نقل زوجها الى احدى مستشفيات حيفا.

لكن أهم ما يورده الكتاب عن عبده، ان شارون حين انتقل الى بكفيا للتعزية ببشير فوجىء بعزم شقيقه الأكبر على ترشيح نفسه للرئاسة. وذلك ان الخطة الاسرائيلية كانت تتوقع وتتمنى التالي:

«لن تتم انتخابات رئاسية جديدة، وبدلا منها يصار الى تشكيل حكومة عسكرية في ظل رئيس حكومة يعينه سركيس متمتعة بسلطات عرفية. ومرشح اسرائيل لهذا المنصب كان جوني عبده رئيس الاستخبارات العسكرية وأحد أكثر الأصدقاء الذين يثق بهم الأميركان في الادارة اللبنانية».

ويمضي الكاتبان الاسرائيليان في استعراض سريع لبعض تاريخ جوني عبده السياسي:

«على مدى السنوات الست الماضية أصبح عبده اليد اليمنى للرئيس سركيس، واعتقد الكثيرون انه كان موجهه الخفي. لقد عمل كصلة وصل أساسية بين الرئيس وبين بشير والديبلوماسيين الأميركان في بيروت (ممن كان كثير الاستضافة لهم في منزله). كذلك كانت اتصالاته جيدة مع منظمة التحرير وكان صديقا شخصيا لوليد جنبلاط. وتمتع عبده أكثر من أية شخصية في لبنان زمن الحرب، بصورة الوسيط النزيه في ما بين سائر أطراف النزاع، حتى انه عمل كواحدة من القنوات الأساسية التي تحفظ استمرار الاتصال بين نشاطات المخابرات الاميركية وياسر عرفات

(وقد أبقيت المعرفة بهذه الصلات سرا حتى عن السفارة الاميركية في بيروت. كانت هندستها تصدر مباشرة عن البيت الأبيض عبر روبرت آيمز، ووحدهما عرفات ورئيس أركانه أبو جهاد كانا يشاركان فيها عن جانب منظمة التحرير)».

ويضيف الكاتبان ملاحظة تدعو في رأيهما الى السخرية، وهي انه حين شرع الاسرائيليون المفجوعون ببشير يوهنون علاقاتهم بالكتائب ويفكرون بشخصية لا تعدم الصلات بمختلف القوى والأطراف، وضع الاميركان ثقلهم وراء المرشح الكتائبي أمين الجميل الذي ما لبث أن انتخب رئيسا للجمهورية.

بين أمين والحريري

مع قيام العهد الجديد برئاسة أمين الجميل نقل جوني عبده الى السلك الديبلوماسي وعين سفيرا للبنان في العاصمة السويسرية برن. يومها اعتبرت الخطوة جزءا من عملية ابعاد للرموز البشيرية التي عملت من جهة على تغليب كفة الشقيق الأصغر، وتعرضت من جهة أخرى لـ «الاحتراق» بنتيجة تورطها في العلاقة المعلنة مع الاسرائيليين وارتباطها بالاجتياح والنتائج المأساوية التي أفضى اليها.

على ان السنوات الست الأخيرة ربطت اسم عبده بثلاثة أحداث ـ تطورات، مترابطة في ما بينها كما سنرى:

ـ مشاركته في التأثير على ايلي حبيقة قائد «القوات اللبنانية» يومها لتوقيع «الاتفاق الثلاثي».

ـ محاولات التوفيق الخفية ابان حواري جنيف ولوزان من موقعه كسفير في سويسرا وصديق لمعظم المتحاورين. بدورهما كان المؤتمران السويسريان مناسبة لتوطيد علاقات عبده بسائر السياسيين اللبنانيين والفعاليات المؤثرة، وبناء علاقات مع من لم تكن قد بنيت معهم علاقات في السابق.

وكانت أبرز الصلات التي توطدت تلك التي جمعته برفيق الحريري رجل الأعمال اللبناني والوسيط السعودي.

مذاك راح يتردد في الدوائر السياسية والصحافية ان عبده هو مرشح الحريري للمنصب الرئاسي في لبنان.

ـ مع تزايد المحاولات الاميركية ـ الأوروبية لفرض عزلة على سوريا، عمل عبده على مساعدة الأخيرة لفك عزلتها في الوسط الديبلوماسي الغربي.

ان أحداً لا يعرف على وجه الدقة الاسرار العميقة للعلاقة الخاصة جدا والمميزة جدا التي تربط جوني عبده برفيق الحريري الآن، وان كان من المؤكد أنها بدأت في مطلع هذا العهد وتنامت عبر سنواته العجاف بكل ما حفلت به.

وكان لجوني رأي مختلف في اتفاق ١٧ أيار. وهو لم يخف هذا الرأي عن الجميل. صحيح انه كان يقوم بوظيفته التنسيقية مع سفراء دول القوة المتعددة الجنسيات، ولكنه كان يفترض ان الامر بحاجة الى علاقة من نوع اخر مع سوريا لكي يمكن ان يمر.

ربما كانت هنا نقطة البداية.

ثم ان جوني كان صاحب طريقة التعاطي مع «القوات اللبنانية». وقد جربها، ونجحت في تقديره، مع بشير الجميل: فلننقلهم الى الاميركيين، ومن واشنطن يمكنهم ان يطلوا وان يتعاطوا مع العرب جميعا. اما من تل ابيب فلن يستطيعوا الوصول الى اي مكان والى اي حل.

صلة جوني «بالقوات» اذن تأسيسية. فهو لم يقطع صلته بها ابدا. وبعد غياب بشير ظل على صلة حميمة وعلى معرفة دقيقة بتفاصيل الصراعات. ومؤكدا ان صلته كانت «خاصة» جدا مع رجل المخابرات في «القوات» ايلي حبيقة. وهكذا عندما قام هذا «بانتفاضته» كان جوني في الصورة حتما.

ولعل هذه هي المرحلة الثانية في العلاقة مع الحريري.

فقد ساعد جوني على «تطوير» موقف حبيقة، ولعب دورا (باعتراف ايلي) في اقناعه بضرورة الانفتاح على سوريا. واذا كان فؤاد بطرس وجان عبيد، قد لعبا دور الشارح والمنظر والحكيم والناصح، فان جوني عبده العملي باشر العمل، ربما بالاتكاء على العلاقة الجديدة مع صديق سوريا رفيق الحريري.

ويضيف العارفون بهذه العلاقة ان صورة رفيق الحريري هي اول ما تقع عليه عين الداخل الى منزل جوني عبده، سفير لبنان في برن. وهي صورة «رسمية»: بالسموكن والبابيون، وخلفها صورة رباعية تضم الرجلين مع زوجتيهما. هذا في حين توارت صورة رئيس الجمهورية، امين الجميل، على جدار يكاد يغطيها الباب متى فتح.

ثم ان صلة الحريري بجوني يومية ومفتوحة على مدار الساعة. يوافيه بكل ما يتصل بعلمه او بسمعه. وبعد الاخبار يجيء دور التحليل والاستنتاج.

ولا ينكر الحريري انه يرى في جوني الشخص الافضل لتولي مسؤ وليات الرئاسة الاولى في هذه المرحلة العصيبة. وهو يعتقد ان جوني قادر على وضع لبنان على طريق الحل لازمته المستعصية.

ومع معرفة الحريري بالخلل التاريخي في علاقة عبده مع السوريين ظل يحاول اقناعهم عبثا بالكفاءة المتميزة التي يتمتع بها. فهو ماروني من كسروان. وهو قد عاش قريبا من مركز القرار ورأى جميع الفرقاء والاطراف بحجومهم الطبيعية قبل الاجتياح الاسرائيلي وخلاله ثم بعده. يعرف المسيحيين ويعرف المسلمين. يعرف الفلسطينيين ويعرف الاسرائيليين معرفة مباشرة،

يعرف الاميركيين ويعرف الفرنسيين والبريطانيين والالمان وسائر الغرب. وهو وان كان يشكو نقصا في المعرفة الشخصية بالقياديين السوريين الا انه يعرف اهمية موقع سوريا وخطورة دورها في لبنان.

ولجوني عبده رأي محدد في موضوع العلاقة مع سوريا: ان لسوريا علينا حقا ولها دورها وحصتها في لبنان. وعبثا نذهب الى القيادة السورية فنسألها ماذا تريد منا. انها لن تطلب ابدا. لن تحدد بالدقة ما تريده. علينا نحن ان نحدد. نذهب فنقول: نحن نطلب اليكم ان تعطونا كذا، ونقدم اليكم كذا.

وجوني يرى، في اللحظة الراهنة، ان كل شيء يجب أن يبدأ في الجنوب وانطلاقا منه.

وهو يسخر من اولئك الذين اسهموا في صياغة اتفاق ١٧ ايار، ثم ذهبوا الى السوري يطلبون منه ضمانة لاتفاق لا يقره ولا يقبل به ولو كان « على الارض يا حكم».

الرجل الثاني . .

جوني بحسب وصف عارفيه، ربع القامة، أسمر البشرة، واسع العينين، وقد اتسعتا اكثر بعدما استغنى عن النظارتين الطبيتين مفضلا عليهما « العدسة اللاصقة».

ومثلما كان من الصعب تحديد اين ينظر جوني عبر النظارتين، الرماديتين، فمن الصعب الان ان تكتشف ماذا يتحرك في عقل جوني وانت تحدق في العينين الجامدتين. بفعل العدسة لا ملامح مميزة. خط في اسفل ارنبة الانف يجعله يبدو وكأنه جزءان. الفم عريض نسبيا، والذقن تلتف وتكوّن تحت الفم بروزا ملحوظا. اما الجسم فيعكس التربية العسكرية من حيث انبنائه المرصوص

وجوني، على عكس الصورة الشائعة عن ضباط المخابرات، لا يتحدث همسا، بل هو مرتفع الصوت بشكل ملحوظ. يملأ مكتبه ضجيجا، وسماعات هاتف تربطه اساسا ببيروت، كما بجهات عديدة في العالم. . الغربي بالضرورة، ثم ببعض العواصم العربية حيث يكون صديق سن الرشد رفيق الحريري.

وواضح ان شبكة المعلومات التي كانت تزود جوني بدقائق الامور والتفاصيل « الحميمة» عن الشخصيات السياسية، ما زالت تعمل بكفاءة مقبولة، وما زالت تضخ اليه في برن او حيث يكون كل ما يهمه او يطلبه او يمتعه من الوقائع والاحداثيات والشائعات والنكات والتشنيعات.

صوت جوني عال الى حد انك تفترض انه لا يعرف كيف يهمس، بحسب عارفيه، ولا يعرف كيف يغازل. وحديثه يؤكد لك ان لا شيء في طياته الا المعلومات والا السياسة ولا شيء غير السياسة « ومعلوماتها». والمخابرات لب السياسة في الشرق الاوسط.

وعارفو عبده يروون ان معظم المرشحين للمنصب الفخم اصدقاء لجوني. ميشال

خوري. فاروق أبو اللمع. جان عبيد. رينيه معوض. هو يعرف الكل. والكل تعاطى معه بهذه النسبة او تلك. قلة من موضع الصديق، والكثرة من موقع الشريك في القرار السياسي. يحفظ الكثير عن الرئيس الراحل الياس سركيس، اذ كان واحدا من ثلاثة اركان علنيين لعهده: في السياسة فؤاد بطرس، وفي العلاقات والتحليل كريم بقرادوني (كما قدم نفسه)، وفي المخابرات والمعلومات والعلاقات السياسية الداخلية جوني عبده.

كذلك يحفظ لعبده وصفه لمأتم الرئيس فؤاد شهاب وتأثره: رشيد كرامي، الوفاء، البكاء، النحيب. حميد فرنجية الذي وصل بسيارة تاكسي وبكى بغزارة. زوجة شهاب التي امتزج حزنها بالصلاة.

ويمضي عارفوه في نقل بعض اراء جوني السياسية عن تحميله مسؤولية الحرب لنشأة « الحلف الثلاثي» في ١٩٦٨، وهو الذي اطاح الشهابية في الجبل.

. . . لم ينتم جوني عبده الى الرعيل الشهابي الاول، جيل انطون سعد ومن بعده غابي لحود وسامي الخطيب وغيرهما. وهو بهذا المعنى شهد اخفاقات الشهابية وهزائمها من دون ان تقيض له المشاركة في اي من انتصاراتها، او حتى معايشتها عن قرب. وعندما حاول، مستعملا ذكاءه وصداقاته وقربه الى قلوب عارفيه، اعادة احياء الرميم الشهابي كان الوقت متأخرا والدنيا حربا وضغائن.

وهكذا حيل بين جوني عبده وبين ان يصير رجلا اولا. فالمرافق والوسيط ظل ثانيا يتقدمه اميل البستاني وجان نجيم والياس سركيس ورفيق الحريري، وخصوصا بشير الجميل.



سامي مارون

مؤخراً عاد اسم سامي مارون الى دائرة الضوء من جديد. سألنا الرجل الذي ارتبط اسمه بـ «وثيقة شارون» عن الخبر الذي نشرته الزميلة «النهار» حول مهمة كلفه بها الرئيس الجميل، سألناه عن طبيعتها وعن الأسماء الثلاثة التي قيل انه حملها الى باريس للمداولة.

أجاب سامي بالنفي وأضاف جازما بما امتلكه من قدرة على الجزم وهي ضئيلة:

ـ هذا ما لم يحصل. كل ما في الأمر ان لي بعض الأصدقاء في الادارة الفرنسية منذ ما قبل مجيء الرئيس الجميل الى الرئاسة. التقيت بهم بصفتي الشخصية من دون أن يحصل عرض لأسماء مرشحة للرئاسة.

والمعروف ان سامي صديق حميم لفرانسوا دي غروسوفر الذي أصبح عبره صديق الرئيس الجميل. وثمة من يقول ان انتقال دي غروسوفر الى دمشق ناتج عن زيارة مارون الى باريس.

سامي مارون فيه لطف ودماثة يضعانه على حدود امرأة. لطفه المصحوب بوجه منكسر يفترض الاسوأ دائما ويتقبله، لا يكتم مسحة حزن مازوشي يصير فرحاً بعد التعرض لجنزير حديد على الظهر، او ربما لسيجارة تطفأ في الجسد، لا قدر الله.

ودود وقريب جدا هو سامي لكنه يلوح كأنه يخبىء شيئا، وهناك بين اللبنانيين كثيرون يقولون اعده يا سامي، ويشتهون له العذاب الاليم الذي قد يسرهم ويسره في آن معاً، من اجل ان يعيد ما هو متهم باخفائه.

والله اعلم ماذا وراء سامي مارون، الرجل الذي ظل طويلا كائنا شبحيا، يقول البعض انه مظلوم يتلقى طعنات المعارضين للعهد، ويقول البعض الاخر انه واحد من الاسباب التي جعلت العهد عرضة للطعون.

قصدناه في بيته الرائع في الرابية. كان يلبس منشفة السباحة او روبها، محاطا بثلاثة زوار يلبسون ما يلبس: فؤاد الخازن المهذب اللبق، ومارون ابو شرف المستمع من دون تدخل مع رغبة لا تخفى في اسباغ الاهمية على الذات، ونادر سكر رجل «القوات اللبنانية» الذي ينضح جلافة لم تفلح طيبات المدينة التي يتمتع بها في تشذيبه وصقله.

الجلسة التي استمرت قرابة ساعة وتخللها كلام في السياسة والدورين السوري والاميركي ومعركة الرئاسة ومنع «السفير» في الشرقية، استكملت بجلسة اخرى دامت ساعتين مع سامي وحده. فؤاد ومارون كانا اعتذرا وودعا بما يليق بالمتحضرين، ونادر ودع بنظرة من يتهدد. مد يده وسلم ورمقنا بنظرة تحاول اثبات الرجولة.

وبيت الرابية الفخيم امتلكه مارون في ١٩٧٦ حين دفعته حرب السنتين الى مغادرة بيت الاشرفية حيث تقيم الوالدة اليوم. كان يملكه السفير نديم دمشقية فاشتراه سامي واجرى فيه تصليحات كثيرة.

قال يوماً: أريد بيتا لا تمر الطريق عبره بل يكون نهاية طريق. وهكذا كان فعند البيت الذي تلتصق به السفارة البريطانية تنتهي الطريق، الا ان الوصول اليه يعيقه حاجز للسفارة ازعج، بالتأكيد، من مرور السيارات وضجيجها وزماميرها.

بانتهاء الدردشة حول البيت اوضحنا لسامي الهدف الذي جئنا بصدده. خاف سامي وارتبك.

نحن لا نقصد ان نمدح طبعا، لكننا لا نقصد ان نؤذي أيضاً محاولتنا تزعم الموضوعية بقدر ما امكن.

ظل سامي خائفا مرتبكاً. طلب الاطلاع على الاسئلة مسبقا. قلنا ان معظم الاسئلة يولد في سياق الكلام.

قال ان ثمة اسئلة قد لا يجيب عليها لكنه يود الا نشير الى ذلك. قلنا له نرى في حينه. سأل اذا كان في الامكان ان يقرأ النص قبل نشره، قلنا له ان ذلك في حكم المستحيل.

شيء من البرد يسري في جسد سامي الطويل الذي تلفه المنشفة، وكثير من الحيرة يقيم في وجهه الذي يشبه وجه غجري اسمر مسح للتو عينيه من دموع ذرفتها العينان.

وسامي مارون الصبي الوحيد لابويه ذو مظهر «ولادي» يعززه الوجه الغجري الرفيع والتقاطيع الحادة والعينان الوديعتان المخسوفتان قليلا الى الداخل والغائمتان.

شعره كان مبعثرا بفعل السباحة والالوان رمادي وابيض واسود، فيما الى يمين فمه نزولا نحو الذقن خطان صغيران نصف متوازيين يشبهان ضربتي موسى. اما شفته السفلى فتوحي ان والدته كانت تمسكها وهو صغير وتقول له: يا نوسك يا سامي.

وحين ترد عبارة يعتقد سامي بصحتها يبادر الى القول: مظبوط، مظبوط، كأنه كان سمعها للتو. فهو ميال الى التسليم والاذعان، لكنه يفتقر الى حس النكتة حيث يداهمه التعليق الساخر فيرتبك حياله ولا يعرف ماذا يفعل، وهو طبعاً لا يرتكب مثل هذا التعليق.

صوت سامي منخفض ناعم، يصحبه الارتباك على شكل تلاعب بالقبضتين واكثار من التشبير بأصابع طويلة واظافر غير مقصوصة. والكلام يصدر عن سامي كأنه عرض حال او شرح يقارب تبرئة الساحة.

مجلس العلاقات

الكلام مع سامي أوله اقتصاد وآخره اقتصاد:

ـ علاقاتك الجيدة بالرئيس امين الجميل جاءت بك رئيسا لمجلس العلاقات الاقتصادية الخارجية، ما هي الفوائد الشخصية التي حققتها من رئاستك لمجلس العلاقات؟.

● انت تعرف ان صلاحيات مجلس العلاقات الاقتصادية الخارجية لا تسمح بالافادة

مؤخراً عاد اسم سامي مارون الى دائرة الضوء من جديد. سألنا الرجل الذي ارتبط اسمه بـ «وثيقة شارون» عن الخبر الذي نشرته الزميلة «النهار» حول مهمة كلفه بها الرئيس الجميل، سألناه عن طبيعتها وعن الأسماء الثلاثة التي قيل انه حملها الى باريس للمداولة.

أجاب سامي بالنفي وأضاف جازما بما امتلكه من قدرة على الجزم وهي ضئيلة:

ـ هذا ما لم يحصل. كل ما في الأمر ان لي بعض الأصدقاء في الادارة الفرنسية منذ ما قبل مجيء الرئيس الجميل الى الرئاسة. التقيت بهم بصفتي الشخصية من دون أن يحصل عرض لأسماء مرشحة للرئاسة.

والمعروف ان سامي صديق حميم لفرانسوا دي غروسوفر الذي أصبح عبره صديق الرئيس الجميل. وثمة من يقول ان انتقال دي غروسوفر الى دمشق ناتج عن زيارة مارون الى باريس.

سامي مارون فيه لطف ودماثة يضعانه على حدود امرأة. لطفه المصحوب بوجه منكسر يفترض الاسوأ دائما ويتقبله، لا يكتم مسحة حزن مازوشي يصير فرحاً بعد التعرض لجنزير حديد على الظهر، او ربما لسيجارة تطفأ في الجسد، لا قدر الله.

ودود وقريب جدا هو سامي لكنه يلوح كأنه يخبىء شيئا، وهناك بين اللبنانيين كثيرون يقولون اعده يا سامي، ويشتهون له العذاب الاليم الذي قد يسرهم ويسره في آن معاً، من اجل ان يعيد ما هو متهم باخفائه.

والله اعلم ماذا وراء سامي مارون، الرجل الذي ظل طويلا كائنا شبحيا، يقول البعض انه مظلوم يتلقى طعنات المعارضين للعهد، ويقول البعض الاخر انه واحد من الاسباب التي جعلت العهد عرضة للطعون.

قصدناه في بيته الرائع في الرابية. كان يلبس منشفة السباحة او روبها، محاطا بثلاثة زوار يلبسون ما يلبس: فؤاد الخازن المهذب اللبق، ومارون ابو شرف المستمع من دون تدخل مع رغبة لا تخفى في اسباغ الاهمية على الذات، ونادر سكر رجل «القوات اللبنانية» الذي ينضح جلافة لم تفلح طيبات المدينة التي يتمتع بها في تشذيبه وصقله.

الجلسة التي استمرت قرابة ساعة وتخللها كلام في السياسة والدورين السوري والاميركي ومعركة الرئاسة ومنع «السفير» في الشرقية، استكملت بجلسة اخرى دامت ساعتين مع سامي وحده. فؤاد ومارون كانا اعتذرا وودعا بما يليق بالمتحضرين، ونادر ودع بنظرة من يتهدد. مد يده وسلم ورمقنا بنظرة تحاول اثبات الرجولة.

وبيت الرابية الفخيم امتلكه مارون في ١٩٧٦ حين دفعته حرب السنتين الى مغادرة بيت الاشرفية حيث تقيم الوالدة اليوم. كان يملكه السفير نديم دمشقية فاشتراه سامي واجرى فيه تصليحات كثيرة.

قال يومها: أريد بيتا لا تمر الطريق عبره بل يكون نهاية طريق. وهكذا كان فعند البيت الذي تلتصق به السفارة البريطانية تنتهي الطريق، الا ان الوصول اليه يعيقه حاجز للسفارة ازعج، بالتأكيد، من مرور السيارات وضجيجها وزماميرها.

بانتهاء الدردشة حول البيت اوضحنا لسامي الهدف الذي جئنا بصدده. خاف سامي وارتبك.

نحن لا نقصد ان نمدح طبعا، لكننا لا نقصد ان نؤذي أيضاً محاولتنا تزعم الموضوعية بقدر ما امكن.

ظل سامي خائفا مرتبكاً. طلب الاطلاع على الاسئلة مسبقا. قلنا ان معظم الاسئلة يولد في سياق الكلام.

قال ان ثمة اسئلة قد لا يجيب عليها لكنه يود الا نشير الى ذلك. قلنا له نرى في حينه. سأل اذا كان في الامكان ان يقرأ النص قبل نشره، قلنا له ان ذلك في حكم المستحيل.

شيء من البرد يسري في جسد سامي الطويل الذي تلفه المنشفة، وكثير من الحيرة يقيم في وجهه الذي يشبه وجه غجري اسمر مسح للتو عينيه من دموع ذرفتها العينان.

وسامي مارون الصبي الوحيد لابويه ذو مظهر «ولادي» يعززه الوجه الغجري الرفيع والتقاطيع الحادة والعينان الوديعتان المخسوفتان قليلا الى الداخل والغائمتان.

شعره كان مبعثرا بفعل السباحة والالوان رمادي وابيض واسود، فيما الى يمين فمه نزولا نحو الذقن خطان صغيران نصف متوازيين يشبهان ضربتي موسى. اما شفته السفلى فتوحي ان والدته كانت تمسكها وهو صغير وتقول له: يا نوسك يا سامي.

وحين ترد عبارة يعتقد سامي بصحتها يبادر الى القول: مظبوط، مظبوط، كأنه كان سمعها للتو. فهو ميال الى التسليم والاذعان، لكنه يفتقر الى حس النكتة حيث يداهمه التعليق الساخر فيرتبك حياله ولا يعرف ماذا يفعل، وهو طبعاً لا يرتكب مثل هذا التعليق.

صوت سامي منخفض ناعم، يصحبه الارتباك على شكل تلاعب بالقبضتين واكثار من التشبير بأصابع طويلة واظافر غير مقصوصة. والكلام يصدر عن سامي كأنه عرض حال او شرح يقارب تبرئة الساحة.

مجلس العلاقات

الكلام مع سامي أوله اقتصاد وآخره اقتصاد:

ـ علاقاتك الجيدة بالرئيس امين الجميل جاءت بك رئيسا لمجلس العلاقات الاقتصادية الخارجية، ما هي الفوائد الشخصية التي حققتها من رئاستك لمجلس العلاقات؟.

● انت تعرف ان صلاحيات مجلس العلاقات الاقتصادية الخارجية لا تسمح بالافادة

ماديا، خصوصا وانني كنت في المجلس مع اشخاص مشهود لهم بالكفاية المادية ونظافة الكف مثل ميشال ضومط وسليم دياب وفؤاد السنيورة وريمون عودة، وهؤلاء ليسوا بحاجة لزيادة ثرواتهم وانا اتحدى اي انسان ان يذكر اية عملية حققت ارباحا لاحد اعضاء المجلس.

اعترف بأنني استندت على الصعيد الشخصي لجهة تقديمي للرأي العام على اعتبار انني لم اكن معروفا من قبل عندما كنت اعمل في القطاع الخاص، وقد اعطاني منصب رئيس مجلس العلاقات موقعا عرفت من خلاله لدى الرأي العام.

- ولكن الم تستفد بعلاقاتك الخارجية من صفتك كرئيس لمجلس العلاقات على الاقل؟.

● لقد اسست شركات مشتركة مع حكومات قبل ان اكون في مجلس العلاقات الاقتصادية وكنت شريكا للحكومة البلغارية في شركة وبنك ليتكس وانا على علاقات مع رئيس الدولة البلغارية ورئيس الدولة الرومانية قبل مجلس العلاقات.

ويرد مارون على سؤال حول تأسيسه شركة «سونابور» في مرفأ بيروت ودخوله الى شركة ادارة واستثمار مرفأ بيروت فيقول:

- لقد كان هدفي منذ زمن ان ادخل الى مجلس ادارة شركة مرفأ بيروت لان عملي في قطاع المواد الاولية يتطلب ذلك، خصوصا وان شركة يونيفرد وحدها كانت تشكل حوالي ٢٠ في المئة من مجمل حركة مرفأ بيروت قبل الاحداث، اذ كنا نستورد المواد الاولية ويجري توضيبها وتكييسها في مرفأ بيروت قبل اعادة تصديرها. من هنا فأن اهمية مرفأ بيروت بالنسبة لي كانت في رأس اهتماماتي فأقدمت على تأسيس «سونابور».

- مع طانيوس سابا؟.

● نعم، الشركة تهتم بالقيام بالخدمات المرفئية التي لا تنحصر في صلاحيات شركة ادارة واستثمار مرفأ بيروت.

الم تقم «السونابور» بالعمل في الحوض الخامس؟.

● كان عملها داخل مرفأ بيروت الشرعي. وهذه الشركة اشترت اسهما في شركة ادارة واستثمار مرفأ بيروت واصبحت من كبار المساهمين في شركة المرفأ. هذا مهم بالنسبة لي كون عملي يتعلق كليا بالاعمال المرفئية.

- ولكن سونابور عملت في الحوض الخامس بعدما وضع بشير الجميل يده عليها اليس هذا صحيحا؟.

● لقد وضع المجلس الحربي يده على سونابور في وقت كانت تجري عمليات وضع اليد على قطاعات عامة وخاصة، غير ان «السونابور» عملت داخل مرفأ بيروت، وهي حاليا تعاني من الخسارة اسوة باوضاع شركة مرفأ بيروت بعدما اضحت المرافىء غير الشرعية تقوم بالخدمات

المرفئية بأقل كلفة من مرفأ بيروت.

ويرد مارون على سؤال عن دخول «القوات اللبنانية» لمجلس ادارة شركة مرفأ بيروت فيؤكد ان «القوات» اشترت اسهما مشيرا الى وجود اسهم غير معروفة المصير، ولا ينفي مارون ردا على سؤال امكان بقاء هذه الاسهم بحوزة ايلي حبيقة، اذ اتيح لنا ان نعرف من غيره ان مسؤول المالية لدى حبيقة بول عريس كان يحمل هذه الاسهم.

كذلك اعتبر مارون حين سئل عن موعد توليه رئاسة المرفأ انه يشغل حاليا نيابة رئاسة الشركة و«نائب الرئيس يقوم بصلاحيات الرئيس الادارية في حال انقطاعه عن العمل او وجوده خارج البلاد لاسباب مختلفة».

العائلة، الدراسة، العمل، الثقافة

ولد سامي مارون في ١٩٤٢ في بيروت، ودرس حتى صف الفلسفة في مدرسة الجمهور، ومنها الى الجامعة اليسوعية لدراسة ادارة اعمال المشاريع والحقوق والعلوم السياسية.

مع وفاة جدي، يقول مارون، كنت انهيت دراسة الادارة، فأوقفت الحقوق والعلوم السياسية وانصرفت الى العمل. الوالد كان توفي في ١٩٦١ واورثني عشرين الف ليرة، فيما تولى جدي المصروف، لكنه ما لبث هو ايضا ان توفي.

وعائلة مارون احدى عائلات ثلاث في ساحل علما في كسروان، يصفها هو بانها تنتمي الى الطبقة الوسطى من دون ان تتعاطى السياسة. صحيح ان والده كان يتعاطف مع فؤاد شهاب كما كان على صداقة بالشيخ بيار الجميل، الا ان النشأة المدينية لسامي، ومن قبله والده، اضعفتا حدة التعصب السياسي عندهما.

انطلق سامي في «مال القبان»، بعد تحديثه وتوسيع نطاقه، من حيث انتهى الجد. ذلك ان الوالد تيوفيل مارون كان طبيبا لا يزاول التجارة، واعتبر اول لبناني في الطبية الفرنسية.

وهكذا عمل مارون في الحقل التجاري مع الاتحاد السوفياتي ورومانيا وبلغاريا.

نسأله عن سر ذلك يقول انه بعض مادرجت عليه العائلة.

نسأله ما اذا كانت العلاقة التجارية بالبلدان الشيوعية ارتبطت بهوى شيوعي ما عند الجد.

ينفي: انها تجارة بحتة. والبلدان الثلاثة لها منافذ على البحر بما يخفض كلفة النقل ومن ثم سعر السلع المستوردة.

نعود الى قصة سامي:

- عمل العائلة كان التجارة مع تلك البلدان وخصوصا شراء الذرة الصفراء. ومع انتقالي لممارسة هذا النشاط في ١٩٦٢ - ٦٣ كانت تجارة الحبوب خفَّ مردودها لان الدولة شرعت تستورد بنفسها عبر «مكتب الحبوب». لهذا بدأت ابحث مع الدول المذكورة عن حقول تعاون

اخرى مالية ومصرفية وتجارية، فأسست مع البلغار في ١٩٦٤ شركة «ليتاكس التجارية» التي انحصر عملها في استيراد المواد الصناعية البلغارية للشرق الاوسط. وبعد سنة تجمعت الارباح التي سمحت بتأسيس «ليتاكس بنك» فكنت نائب الرئيس فيها الرئيس هو نائب رئيس المصرف المركزي البلغاري الذي يسمونه «المصرف الوطني للتجارة الخارجية».

وفي ١٩٦٧ اسست مع الرومان شركة جديدة هي «سوكوميكس» التي اقام فيها الشيخ بشير الجميل ورجاله في حرب السنتين وقبل ان ينشأ «المجلس الحربي». هذا ما جعلها بناية مشهورة برغم ما اصابها من قصف ورصاص حالا دون استعمالها.

هذه الشركة التي تعمل في المشتقات الكيماوية وخاصة الاسمدة كانت محطة اخرى على طريق بناء الامبراطورية الصغرى لسامي. ففي ١٩٧٢ ساهم مع مجموعة «يونيفرت» للاسمدة، ليدخل في ١٩٨١ «شركة مرفأ بيروت» ويصير نائبا لرئيسها، ويتولى من بعد رئاسة مجلس العلاقات الاقتصادية الخارجية، وخليفته المجلس الوطني، لانماء السياحة.

نسأله عن اصل معرفته بالرئيس الجميل الذي انشىء المجلس الأول في عهده ثم استعيد الثاني القديم في عهده ايضا..

ـ الشيخ امين اتذكره حين كان عمر واحدنا ١٠ ـ ١١ سنة من مدرسة الجمهور. لفترة كنا في الصف نفسه، ثم ان الوالدين كانا على صداقة.

وسامي الذي يصف نفسه بانه ليبرالي لكن مؤمن بتدخل الدولة على الصعيد الاجتماعي لتطوير وضع العامل وصاحب الدخل المحدود، هو خلاصة زيجات ومصاهرات بين اسر تزاول العمل التجاري.

فالى الجد والأب، انتسبت والدته الى عائلة الحكيم الكاثوليكية الطرابلسية، والدها فريدريك كان رئيس نقابة «مال القبان» في لبنان فجايل وزامل محمد البساط ورفقي المجتهد والشيخ بطرس الخوري، من تجار ذاك الزمان، واسس اسواقا في البلد كما يشرح سامي: كان يشتري القمح من سوريا ويبيعه في لبنان كما يصدره الى اوروبا التي يستورد منها القمح الطري.

وفي ١٩٧٣ تعرف سامي في اهدن بفتاة اسكتلندية الأب هي رولاندا ماكدونالد واقترن بها في اهدن. والدة رولاندا من عائلة خياط الطرابلسية، ابوها، اي جد الزوجة، هو فؤاد خياط، الذي اسس وامتلك شركات بحرية، وكان نقيب اصحاب السفن.

على اية حال فقد اثمر الزواج برولاندا صبيا واحدا هو ستيفن البالغ الآن عاما وسبعة اشهر.

وسامي الصادر عن هذه الشبكة القرابية لا ينفك ينظر الى اقتصاد لبنان امتدادا لتجربة عرفها ولمسها في البيت:

ـ يجب ان يكون للبنان دور في التجارة المثلثة، كما بدأها جدي، بسبب ضعف الزراعة والصناعة والمناجم عندنا.

نسأله عن نشاطه هو؟

ـ انا لم اعمل الا في التجارة المثلثة. لم اعمل ابدا في لبنان. لبنان كان فقط قاعدة الانطلاق.

ـ فضلا عن الأملاك التي اتيت على ذكرها هل من املاك اخرى. طبعا نحن نسأل في حدود المعروف.

ـ عندي اشياء صغيرة. اوتيل هنا. شقة هناك. لا تذكر. عشرات الشركات الأخرى. وبيوت في باريس وموناكو وبروكسيل. ذكرت فقط الأملاك الأهم.

ـ وهل تقرأ يا سامي؟ الصحف الأجنبية مثلا.

ـ نعم. لوموند. فيغارو. هيرالد تريبيون. مجلات اكسبرس واكسبانسيون. اوقات تايم ونيوزويك، ومجلات علمية لا ريشارش او ساينتيفيك اميريكان.

ـ هل هناك متابعة خاصة لما يتعدى حقلك التجاري؟

ـ عندي ميول الى الفيزياء. اذا وقتي سمح لي قد اعود الى الجامعة وادرس الفيزياء.

ـ صحف لبنانية؟

ـ اوريان. النهار. السفير.

ـ سينما، مسرح، فن تشكيلي..؟

ـ تهمني، لكن كما تهم الأشخاص العاديين. يهمني اكثر شيء الاطلاع على كل ما يتعلق بتجميل البيوت والحجارة القديمة والتحف.

ـ كتب؟

ـ اكثر شيء اقتصادية او في الفيزياء.

ـ كتب سياسية؟

ـ سابقا قرأت كثيرا. انظروا الى مكتبتي، استوقفتني خصوصا مذكرات ديغول.. وديستان.

ـ عل عرفت العالم العربي؟

ـ زرت اغلب الدولة العربية. تقريبا كلها. شغل. اغلب شغلي مع العالم العربي.

التكامل والسياسة

سامي مارون احد الذين تولوا مهمة السعي لتطوير العلاقات الاقتصادية بين لبنان وسوريا خلال القمم السابقة بين الرئيسين امين الجميل وحافظ الأسد. وهو يتصور ان القطاع

الخاص اللبناني لديه القدرة على تمويل اقامة البنى التحتية للدولتين اللبنانية والسورية.

ويرد مارون حول المشروع الذي سبق واقترحه لاقامة التكامل الاقتصادي بين لبنان وسوريا برغم اختلاف النظامين، الاقتصاديين، بالقول: «هناك نوع من التكامل يتناسب مع الاقتصاد المختلف.

فالتكامل الاقتصادي بين البلدين موجود تلقائيا. ونحن وضعنا لائحة بالمشاريع التي يمكن ان يقوم بها القطاعان العام والخاص اللبنانيان مع القطاعين العام والخاص السوريين؟

وسعيا نحو مزيد من التفصيل، يضيف:

- نحن نريد معرفة الى اي مدى يريد الشعب اللبناني الذهاب في العلاقة الاقتصادية مع سوريا فسوريا لديها مشكلة نقدية اذ ان الاحتياطي النقدي في المصرف المركزي السوري يشكل جزءا بسيطا من الاحتياطي النقدي في مصرف لبنان، والدين الخارجي السوري يشكل اضعاف الدين الخارجي اللبناني. نحن لدينا القدرة للتمويل في القطاعين العام والخاص.

كما اننا نملك القدرة لاعادة البنية التحتية للاقتصادين اللبناني والسوري.

ويتصور مارون التكامل الاقتصادي اللبناني - السوري بانه يكون في انشاء شركات مختلطة لبنانية سورية تكون مفيدة لسوريا. واعطاء ضمانات للقطاع الخاص اللبناني لتوظيف امواله في سوريا «خصوصا وقد بدأ الرئيس الأسد يسمح حاليا لمؤسسات خاصة اجنبية بتوظيفات في القطاع الزراعي».

وهو يضيف: الاقتصاد السوري لا يمكن الا ان يستفيد من الميل التدريجي نحو الليبرالية. والصناعيون ورجال الأعمال اللبنانيون يمكن ان يقوموا بدور من هذا النوع.

نقول لسامي مارون: بعد ١٥ سنة كيف تقرأ اليوم الحرب اللبنانية؟

- المشكلة الأساسية هي استعمال لبنان من قبل منظمة التحرير الفلسطينية للقيام بأعمال المقاومةضد اسرائيل. بينما لبنان حسب قناعتي ما كان مؤهلا ليكون الساحة الوحيدة التي تستعملها المنظمة للقيام بهذه الأعمال، وحل لبنان وخلاصه، لا يكونان الا بأن تقف الأعمال العسكرية من الأراضي اللبنانية.

وعن الصدى الذي يتركه في نفسه شعار الغاء الطائفية السياسية. يقول مارون: الطائفية السياسية ناتجة عن تخلف على الصعيد التربوي والاقتصادي والاداري والتنظيمي في لبنان، لنعترف ان هناك فروقات كثيرة بين ابناء الشعب اللبناني، واعتقادي انه يوم نستطيع ان نوحد بين مختلف هذه الصور لا تعود الشؤون الطائفية تحظى بالأهمية ذاتها. فالطائفية متأصلة في النفوس اكثر منها في النصوص ولا تلغى الا عبر توحيد البرامج التربوية ووضع اقتصادي موحد ومتوازن لكل افراد الشعب اللبناني.

وماذا عن العلاقات السياسية مع سوريا وانت صاحب مشروع التكامل الاقتصادي بينها وبين لبنان.

يجيب: الدور الذي لعبه الجيش السوري كان مرغوبا فيه من قبل الدول التي تعتبر حليفة المسيحية والمسيحيين في لبنان، سوريا قامت بعمل يعتبر في جزء منه دورا ايجابيا، وانا عندي قناعة ان جميع الأطراف في المنطقة الشرقية عندها القناعة اياها، والمشكلة التي كانت قائمة ولا تزال قائمة اليوم هي كيف يمكن تحديد الدور السوري في لبنان وهذا لا يكون الا بالاتفاق مع السلطة الشرعية في لبنان.

- حتى «القوات» ترى ان جزءا من الدور السوري ايجابي؟

يشرد سامي قليلا:

- في اعتقادي ان هذا يشمل «القوات» ايضا. هل تعتقد ان سمير جعجع، الذي لا اعرفه كثيرا، يكون مسرورا اذا ما جاءه من يقول ان السوريين سيغادرون حالا؟

الكهرباء وانقطاعها

نسأله:

- قيل ان سامي مارون له علاقة بمشاريع شراء مولدات الكهرباء وذلك منذ طرحه لأول مرة خلال قيام المجلس الوطني للعلاقات الاقتصادية الخارجية، شراء مولدات تعمل على الفحم الحجري بدل الفيول في العام ١٩٨٤، وقيل يومها انه وكيل الفحم الحجري، في المنطقة. ثم عاد الحديث عن دورك في شراء مولدات الكهرباء مؤخرا ابان طرح مشروع شراء مجموعات حرارية لمعملي الذوق والجية وانشاء معامل في الزهراني والبترون.

- معروف ان عملي مع اوروبا الشرقية بدأ بالمواد الخام، لا سيما في بلغاريا والاتحاد السوفياتي ورومانيا. ولا احد في هذا المجال يستطيع القول انه وكيل الفحم الحجري، وليست هناك اية شركة تقول انها وكيلة الفحم.

لقد اقترحت انتاج الطاقة عل الفحم الحجري لأن كل المعامل في اوروبا الشرقية التي كانت تعمل على الفيول اويل لانتاج الكهرباء اقفلت ابوابها بسبب ارتفاع كلفة الانتاج بالفيول ولكون سعر الفيول اويل بات يشكل ضعف سعر كلفة الانتاج بالفحم. لكن هذا الكلام يعود الى العام ١٩٨٤، على اعتبار ان فارق الكلفة تراجع اليوم في شكل كبير وباتت الكلفة متقاربة.

- ولكن هذا ليس ضمن صلاحياتك او صلاحيات مجلس العلاقات؟

- انا لم اقترح مشروعا. وانما كان رأيي استشاريا وهذا من ضمن عمل وصلاحيات المجلس في ذلك الوقت.

يتابع مارون: لقد جاء تدخلي عندما طرحت شركة كهرباء لبنان منذ سنوات شراء ثلاثة

مولدات، او ثلاث مجموعات لمعمل الذوق، ونتيجة للجدل الذي حصل في ذلك الوقت حول شراء المجموعات (الى الفيول اويل ام على الفحم) تم شراء مجموعة واحدة بدل ثلاث من شركة «الستوم» الفرنسية وتم تركيبها في الذوق وتوقف شراء المجموعتين الأخريين.

وقد وضع مجلس العلاقات دراسته يومها استنادا الى تأثير شراء المجموعات الثلاث على الميزان التجاري وميزان المدفوعات نظرا لكلفتها المرتفعة.

وحول مصير المجموعة التي اقيمت وكان يفترض ان تعمل منذ بداية العام، يؤكد مارون انها لم تعمل حتى الآن بسبب اعطال ما، وهو يقترح من اجل ذلك تشكيل لجنة فنية وفتح تحقيق خاص حول اسباب عدم تشغيل هذه المجموعة.

يأتي كلام مارون هذا مشوبا ببراءة مبالغ فيها. هو آخر من يعلم. هل هذا صحيح يا سامي؟.

نسأله عن الصفقة الأخيرة ومشروع المرسوم الذي وضع لشراء مجموعات جديدة للذوق والجية وانشاء معملين في الزهراني والبترون ومدى علاقته بمشروع القرار الذي وقع من قبل بعض الوزراء واوقفه الرئيس الحص فيقول:

ـ لقد اعيد طرح شراء مجموعات اضافية كضرورة، لأن لبنان بحاجة فعلا لمجموعات اضافية كوننا سبق ان أوقفنا شراء ٣ مجموعات وتم شراء مجموعة واحدة فقط لمعمل الذوق.

وبتأكيد مؤسسة كهرباء لبنان لشراء مولدات كان لا بد من اعتماد خيار من اثنين: اما شراء مجموعات للذوق فقط حسب المشروع الأساسي، وهذا يعني شراء مجموعات فرنسية او ايطالية لضرورة التكامل مع المجموعات المركبة في الذوق وهي فرنسية وايطالية... واما فتح باب المنافسة بين المنتجين لتحديد مستوى العمولات التي تكبر في حال حصرها في جهة معينة دون اخرى.

وانا لم اتدخل في هذا الموضوع سوى شفهيا حيث ابديت رأيا من دون المساهمة بأي تقرير او قرار واقترحت ان تكون عملية شراء المجموعات مفتوحة لأطراف عدة.

وبالفعل فقد وضع مشروع مرسوم خاص بالعملية، وهو ليس مشروعا للشراء بل يقول بتكليف مجلس الانماء والاعمار باجراء دراسات اولية لشراء هذه المولدات وعرضها على مجلس الوزراء لأن لبنان بحاجة الى الطاقة.

كذلك ادخل موضوع اجراء الاتصالات مع دول ايطاليا وفرنسا والاتحاد السوفياتي وسواها في صلب مشروع القرار مع اعطاء اولوية لانشاء معمل الزهراني. الذي يتطلب استملاكات وتجهيزات ومن ثم استدراج عروض لتلزيم البناء قد تستغرق خمس سنوات على الأقل.

من هنا لم يوضع هذا المشروع لينفذ حاليا بل ليعرض على مجلس الوزراء الجديد في العهد

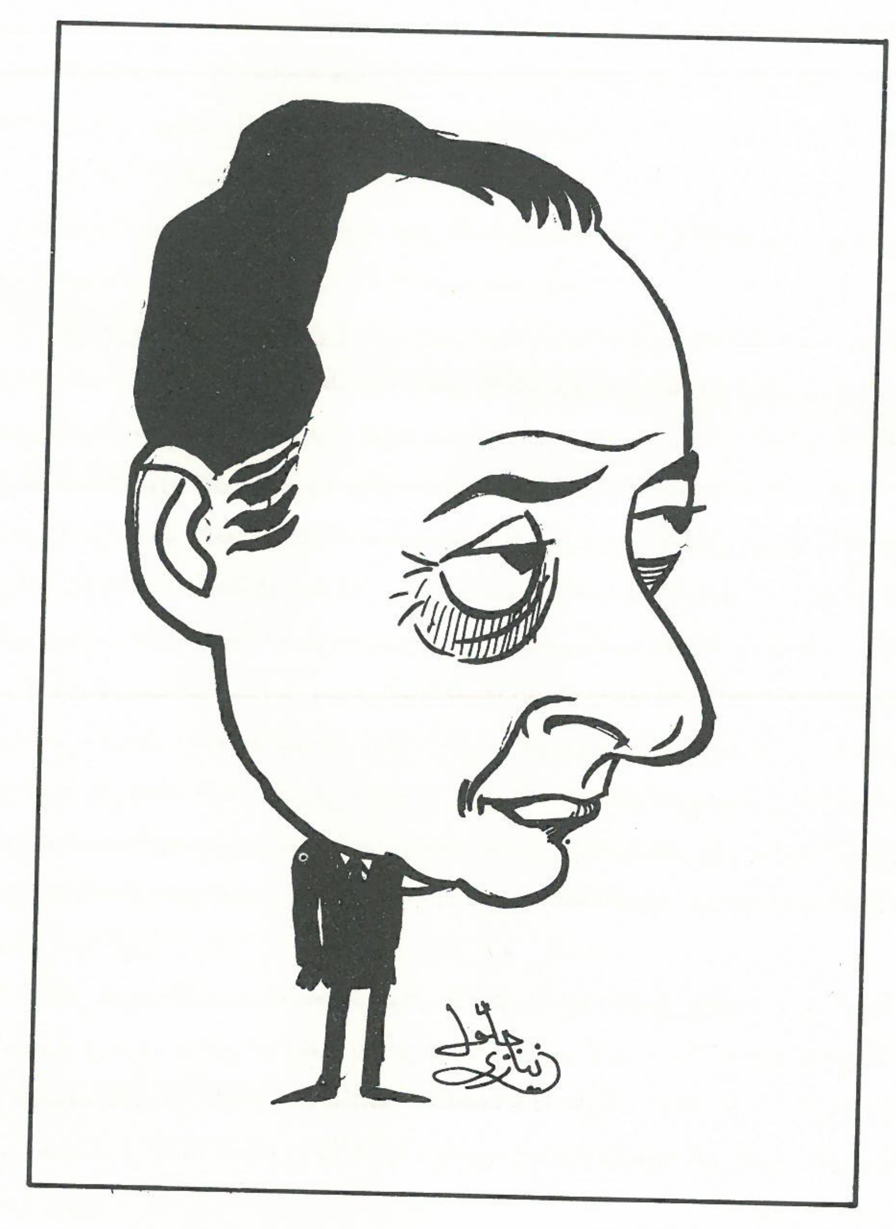
الجديد. وهو لا يمكن تنفيذه في مرحلة قريبة كما يتصور البعض خصوصا وان الأولوية اعطيت لانشاء معمل الزهراني..

وعن علاقة التقنين وتعطيل اصلاح الكابلات من قبل القوى المسلحة في منطقة «بن عازار» بتسريع تنفيذ صفقة المولدات للذوق استبعد مارون ان تكون عمليات تعطيل الخطوط تهدف الى تنفيذ شراء المولدات للذوق.

ويخلص مارون في الشق الاقتصادي حديثه الى التأكيد بأن مجلس العلاقات الاقتصادية الذي الغي أثبت ضرورة وجود جهاز يعنى بالشؤون الاقتصادية الخارجية لجهة دراسة الاتفاقات التجارية مع الدول الأخرى والسهر على تعديلها وملاحقة تطبيقها.. وهذا أ في ظل خلو الادارات المعنية وفي وزارات الاقتصاد والتجارة والخارجية من فرق العمل الموجودة لدى المجلس الوطني لانماء السياحة الذي ورث جهاز مجلس العلاقات الاقتصادية.

ولا يستبعد محدثنا استعادة المجلس الوطني لانماء السياحة صلاحيات المجلس الوطني للعلاقات الاقتصادية بعدما كلف الرئيس الحص جهاز مجلس السياحة باعداد ملفات الاتفاقات التجارية بين لبنان والخارج بالتعاون مع المديرية العامة للشؤون الاقتصادية في وزارة الخارجية، اضافة الى تكليف المجلس من قبل وزير الاقتصاد والتجارة فيكتور قصير بمهام مصلحة التجارة الخارجية لعدم وجود موظفين في وزارته يهتمون بهذا الموضوع، بعد فراغ جهاز الوزارة بفعل توقف التوظيف العام وهرم الادارة اللبنانية واحالة رئيس مصلحة التجارة الخارجية الى التقاعد.

سامي اللطيف الوديع شيعنا الى الباب الخارجي حيث نقلنا سائقه الى المتحف. حدثنا عن ضرورة ان نلتقي مرات اخرى. كان بالغ التهذيب وكان مكسورا.



فاروق ابي اللمع

في ١٩٠٩ وضع سيغموند فرويد أحد ألمع تحليلاته وكان موضوعه صبيا عمره خمس سنوات يعاني الخواف (الفوبيا)، أو الخوف البالغ حداً يجعل منه مرضا. وكانت الأحصنة هي ما يخافه هانس الصغير. وفي متابعته لهذه الحالة اكتشف عالم النفس النمساوي ان الخواف هو ناتج استبدال الخوف بموضوع أقل إثارة للرعب وأبعد عن التماس والاحتكاك، أي بالتالي، أشد قابلية للتجنب. فهانس الصغير كان ينتابه خوف مرضي من ابيه، وعبر تجربته في اللعب ربط بين أبيه والأحصنة وماثل بين الصورتين الفكرتين. وعبر الاستبدال، كعملية لا واعية، حول خوفه من أبيه الى الأحصنة.

المير فاروق أبي اللمع حين يحدثك عن اصابته بالخواف لا تستطيع الا أن تتذكر والده الراحل المير رئيف أبي اللمع، الطبيب والسفير والكاتب ورجل السياسة والقطب الدستوري الذي تنظر الى صورته الموضوعة فوق خزانة خزفية يتنافس فيها الجمال ودأب الصنع. فتتأكد من أن صاحب الصورة كان مشروع امبراطور صغير. صارم الوجه والنظرة، منتصب الوقفة كما قدامى الأمراء وهم يتحفزون لملاقاة خطب عظيم أو نصر مبين. ومقابل صورة الوالد صورة الوالدة ذات النظرة الموغلة في بعيد ما. ووراءهما صور موقعة لرؤساء جمهوريات ثلاثة، بشارة الخوري وفؤاد شهاب وأمين الجميل، مستترين وراء الوالدين كأنهم يقومون بحراستهما. ويأخذنا المير فاروق الى بيت أبيه الذي يلي بيته في البناية نفسها، فنرى رسوما لثلاثة أجداد متعاقبين تنضح المهابة من وجوههم وينوء قدمهم على زمننا، زمن المير فاروق ذي السيولة الثرية. وعندما يحدثك المير فاروق عن والدته الراحلة لا يبقى مكان للشك في أن خواف المير غير بعيد عن خواف هانس. فالوالدة السيدة ايميهمنسي بروتستانتية من برمانا، تنتسب الى أسرة تجار على مذهب الكويكرز، وهي تبعا لأخلاق أهل المذهب المذكور صارمة «لم تعرف طعمة المشروب ولم تطق لعب القمار» كما يصفها ابنها المير.

لكن خواف الأخير هو بالتحديد خواف الأماكن المغلقة (كلوستر وفوبيا) حيث الرهبة من الانحصار في غرف يتراءى انها مقفلة بلا أبواب ولا مفاتيح، أو وراء ستائر مسدلة توحي أن كل شيء سوف يطبق على المرء ويأخذ بخناقه. ولمكافحة هذا الخواف، ربما، كان لبيت المير فاروق الذي قصدناه في طلعة العكاوي بالأشرفية، واجهة زجاجية مكشوفة على ضوء الخارج الذي يغمره وينيره.

كأنما هو ثأر التاريخ يا مير فاروق. فبعد القرى والمزارع والقصور والأبعاد التي لا نهاية لها، تصير العين محكومة بمدى ضيق، والجسم محجوزا في غرفة والروح خائفة من أن يطبق عليها الخارج. وكم أصاب صديقك اللدود جوني عبده حين اختار لممازحتك اقفال باب الغرفة وأنت فيها.

المازق الكبير

كائنا ما كان الأمر فان المير فاروق الذي يجمع بين الدماثة البعيدة ولطف المعشر والريبة التي يثيرهما اللطف والدماثة، هو تشخيص حي لمازق الارستقراطية اللبنانية، لا سيما فرعها الماروني. فالطبقة المذكورة كفت منذ ردح من الزمن عن تصدر التمثيل السياسي للبنانيين. وفي دراسته المعنونة «من يحكم لبنان؟»، وجد ايليا حريق ان برلمان ١٩٧٢ لا يضم سوى سبعة «أرستقراطيين تاريخيين» من أصل ٩٩، هم: عن الدروز كمال جنبلاط ومجيد أرسلان، وعن الشيعة كامل الأسعد وصبري حمادة، وعن السنة سليمان العلي وطلال المرعبي، وعن الموارنة الياس الخازن.

ومن عن الموارنة يا مير؟ الياس الخازن؟؟

فالموارنة كانوا بين الطوائف اللبنانية السباقين الى التخلص من ارستقراطيتهم، ومنذ منتصف القرن التاسع عشر وضع حد للخازنيين والحبيشيين وأقرانهم، وبدعم من الكنيسة شرعت تظهر وتتبوأ الصدارة زعامات شعبية تقود الفئات الوسطى الصاعدة. وماذا جئتم تفعلون يا آل أبي اللمع من الدرزية الى المارونية؟ جئتم تتنحرون؟

والمير الذي لا يكتم مأساة وصول «العامة» الى السياسة يعبر عنها بطريقته الخاصة. يقول: لو خيروني بين ملايين الدولارات وتعييني نائبا في البرلمان، اذا ما حصلت تعيينات، لاخترت أن أكون نائبا.

فاذا تعذر الوصول بالانتخاب، فلا بأس بالتعيين. حتى التعيين!

بيد أن المير يعبر عن المأساة اياها بطرق أخرى شتى. فهو مرح يحب جلسات الانس وولع بالحياة الدنيا الى أن تنتهي الدنيا. يحاول أن يعتصرها بيديه فاذا بخل نهارها كان له الليل. والليل هو انكفاء النهار كتراتب وأنظمة وعلاقات ولياقات سائرة. وعن ليل المير حدث ولا حرج.

فالمير الذي يحب الخبريات والحكي يحيل تعقيد السياسة، وهي بعض تعقيد النهار العلني، الى انقسام ليلي له نظامه المرن السائل. تسأله: هل كنت شهابيا؟ يجيب اجابة طويلة نقتطف هنا هذه الفقرة منها:

في ١٩٦٥ ومع احتدام الخلاف السياسي بين الشهابية ومعارضيها، كنت ألعب بوكر مرتين في الاسبوع، مرة مع مجموعة الشهابيين وكان في عدادها الياس سركيس وبهيج تقي الدين وميشال المر، ومرة مع مجموعة المعارضين وفيها صائب سلام وسليمان فرنجية وحبيب كيروز وعبد اللطيف الزين.

واذا صح ان الفئة الاجتماعية الصاعدة هي الأقدر على تجريد ممارستها السياسية وصياغتها أفكارا على قدر من الثبات والديمومة، فان المير فاروق، على العكس، ذو قدرة هائلة على تفكيك السياسة الى علاقات شخصية تطغى عليها الصداقة وتبادل الهدايا وكل ما يستتبع.

فالاقامة في باريس، مثلا، هي علاقات اجتماعية أولا بأول. العميد ريمون اده المقيم هناك صديق مشاوير السينما. الصحافيون الفرنسيون؟ العلاقات معهم تبدأ بغداء، بعشاء، بهدية. حتى ميشال روكار تسري عليه الصداقة. وما الجامع بينكما يا مير؟ لطف روكار والشبه في الشكل بيننا.

أما الفقرة الأخرى من جوابه حول العلاقة بالشهابية فهي أيضا لا تخفي الجانب الشخصي الحاد، ولا تكتم ضعف القدرة على الاستخلاص حين ينحصر الأمر في السياسة البحتة يقول المير فاروق:

أنا لم التزم بالشهابية التي لا أنكر دورها الكبير في المؤسسات والانماء، لأنني لم أحب ان التزم مواقف سياسية تملي علي قرارات معينة. طلب الي ان أنتمي الى نادي ٢٤ تشرين الثاني فرفضت. وباستثناء تجربة وحيدة هي انتسابي للحزب الديمقراطي الذي حضرت بعض اجتماعاته، فانا مقتنع بان لا أحد يملك الحقيقة. حين كان الرئيس سركيس يرسلني للقاء أبو اياد والشيخ بشير الجميل كنت أخرج من عند كل واحد منهما وأنا على تمام الاقتناع بصحة وجهة نظره.

آه التاريخ

هل هذا بعض عوارض ما يسميه المؤرخون وعلماء الاجتماع تفسخ الارستقراطية؟ ندع السؤال جانبا ونعود الى تاريخ محايد لا تشوبه التصنيفات.

والتاريخ، آه التاريخ! فما ينصرم ينصرم وما يتحول يتحول والتعاقب مثل ماء النهر الذي لا يتكرر. وكما قال قس بن ساعدة في تلك البداهة الشهيرة: اسمعوا وعوا، واذا سمعتم فانتفعوا. من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. وموجع هذا التذكير يامير.

فاللمعيون، كما نعرف ما كتب هذا اللعين المسمى تاريخا، كانوا أوائل القرن الرابع عشر مقدمي الدروز في كفرسلوان، ولم يكن يحمل لقبهم حينها غير آل مزهر في حمانا. وابان تلك الحقبة كان شغل المقدمين الشاغل أن يتصدوا لفتاوى ابن تيميه، أعظم فقهاء عصره، والقائل ان الدروز والعلويين ليسوا مسلمين، بل أدنى من النصارى مرتبة، بما يجيز ابادتهم.

وحتى مستهل القرن الثامن عشر ظل المتن اقطاعا للمعيين، كما الشوف اقطاع للجنبلاطيين، والغرب الأعلى للتلاحقة، والأدنى للأرسلانيين، وكسروان للخازنيين الموارنة. وفي ١٧١١، ونظرا لحسن بلاء المقدمين اللمعيين في معركة عين داره سماهم الأمير المنتصر، حيدر الشهابي، أمراء، وبات في وسعهم التزواج مع الشهابيين. وهذه الخلاصة «الشخصية» لا يمكن للمير فاروق أن ينساها، فوالد فؤاد شهاب ووالد رئيف أبي اللمع، أي جد فاروق، ابنا عم من جيلين. ورئيف الدستوري كان على صداقة مع الأمير فؤاد شهاب يوم كان قائد جيش ويوم صار

رئيس جمهورية.

لم لا نأمل خيرا، اذن، وقد وصل ارستقراطي الى الرئاسة ذات يوم قريب!

وتمضي الحكاية المؤلمة اذا ما قيست بنتائجها. ففي ١٧٥٤ اعتنق الامير ملحم الشهابي النصرانية وتبعه أقاربه اللمعيون. وكان هذا التخلي عن الدرزية تعبيرا عن مواكبة التطور الحاصل يومذاك حيث باشرت الكفة السكانية والاقتصادية والتعليمية رجحانها المديد والبطيء لصالح المسيحيين.

وما لبث اللمعيون أن حصدوا ثمار الأرجحية الجديدة، فبعد عزل الأمير بشير الشهابي الثاني وانشاء نظام القائمقاميتين، عين حيدر أبي اللمع قائمقاما على المقاطعة المسيحية، وأحمد ارسلان مثله على المقاطعة الدرزية الأضعف و«المخترقة» بعدد مسيحي كبير. وكانت بين المقاطعتين طريق الشام.

لكن الأوج الذي بلغه اللمعيون أواسط القرن الماضي كان هو نفسه بداية الانحدار، اذ الحركات العامية كانت قد شرعت تهذي بكلمات اعتراض علمتها اياها كنيسة وصل الى بطريركيتها عامي يدعى بولس مسعد.

وتسأل المير فاروق عن قصر اللمعيين في بكفيا التي باتت عاصمتهم بعد المتين، فيجيب: القصر كاد ينهار، فاستملكته بلدية بكفيا وأصلحته وصار قصرا رئاسيا، وحسنا فعلت.

أما المتين فلا تسأل عنها وقد تعاقبت عليها أيادي المقاتلين على صنوفهم فأحالتها أطلالا، وأما أملاك آل أبي اللمع فيجيبك عنها المير فاروق: حصة العائلة من الأراضي ٣٧٠٠ قطعة أرض في جسر الباشا وسن الفيل وبرمانا وجديدة المتن مقسمة على ٢٤٠٠ سهم يملك والدي منها ١٠٠، لكنه باعها في ١٩٧٦ وتم اقتسام الأرث بيني وبين الأخوة.

على أن أحد الأشياء التي أبقاها التاريخ لفاروق أنه نتاج تميز كما يدل اسمه المسلم القح بحسب التصنيف الطائفي الدارج للأسماء. فاللمعيون، كما سبق القول، دروز سابقون. لكن درزيتهم مشوبة بالسنية كحال أقاربهم الشهابيين ذوي السنية المشوبة بالدرزية. فالجد السادس مثلا هو المسلم السني محمود أبي اللمع وهذا ما أعطى فاروق سمات تتعدى اللهجة والسلوك اللذين لا يدلان على طائفة ومنطقة بعينهما.

فالمير رحب متعدد الألوان كما التاريخ الانتقالي لعائلته وكما توزعها الجغرافي ما بين صليما وقرنايل والمتين وبكفيا وبيت مري وجديدة المتن ومنها فاروق. وهذا ما يجعل الأخير متعاليا على التزمت الحزبي أوالمذهبي، خصوصا وأن أكثر المتزمتين تزمتا هم أكثر الذين تأخر وصولهم الى الحلبة السياسية. وكلما بعدت مسافة الوصول وطال بها الزمن زاد تزمت صاحبها.

بيد أن هذا الاختلاط للطوائف والمناطق والحقب استقر في الدائرة الارستقراطية الضيقة

التي راح أفرادها يتزاوجون جيلا بعد جيل. ولهذا، وكما يقول فاروق، فـ «المساطيل عندنا كثيرون»، مضيفا ان والده المير رئيف حين طلب يد والدته البروتستانتية، غير اللمعية أو الشهابية، في ١٩٢٩، عد ذلك خروجا على التقليد. فكيف جرؤ المير رئيف وهو المتحدر عن الدرزية التنوخية من جهة نسل الأب، والسنية الشهابية من جهة الأم.

وواقع الحال ان تجرؤ المير رئيف كان هو أيضا ايذانا مبكرا بأزمة الارستقراطية. فالأرض واللقب جعلا يتراجعان لصالح المال الذي ينشىء المشاريع ويتم تداوله في السوق. وفي ١٩٦٠ نسج فاروق على منوال والده فاقترن بغيلدا غمر شيا، جدها المهاجر الشهير نعمة يافث، ووالدها ملك المانغانيز في البرازيل، وخالها باولو معلوف، ومعها ١٠٠ مليون دولار جيء بها من التجارة والتحصيل لا من الميراث الضارب في القدم. ومن زواجه الذي انتهى بطلاق حبي انجب فاروق ليا التي تبلغ الآن الثالثة والعشرين وتحضر اطروحة عن النظم الضريبية والمالية، واختها الأصغر مايا.

عناوين سيرة

ولد فاروق أبي اللمع في ١٩٣٤، وفي اليسوعية أنجز دراسته الابتدائية والتكميلية والثانوية، لينال اجازة الحقوق في الجامعة اليسوعية أيضا. وبنيله الشهادة الأخيرة توجه الى الولايات المتحدة الاميركية حيث قضى سنة تخصص في القانون الدولي العام في جامعة كولومبيا التي تخرج منها في ١٩٥٩.

بعد عودته الى لبنان تدرج المير في مكتب ادمون رباط في ساحة النجمة، وهناك تعرض لتجربة ذات مغزى. فاللواء فؤاد شهاب الذي كان انتخب لتوه رئيسا للجمهورية استدعى قريبه فاروق وسأله ما اذا كان يوافق أن يكون سكرتيرا له بمرتب رئيس دائرة، أي ما يعادل يومذاك ٥٥٠ ليرة لبنانية، وهو المبلغ الذي كان يتقاضى مثله في مكتب رباط وتراءى لأبي اللمع، كما يقول اليوم، أن السكرتير هو ذاك الذي يرن الجرس وينادي: تنين قهوي يا صبي. فكان هذا كافيا لجعله ينفر من العرض. ولكي يتأكد من صحة نفوره اتصل يسأل والده الذي كان يومها سفيرا في البرازيل فجاء جواب الوالد قاطعا: علمناك حتى تعمل سكرتير يا فاروق!

وما رفضه فاروق قبله بعد أيام الياس سركيس الشاب الذي جيء به من ديوان المحاسبة، فلم تنجم عن تواضع منبته الاجتماعي أية حساسية كحساسية المير. وابان قيام الياس سركيس بمهمته الجديدة تعرف به فاروق وبدأت صداقة الرجلين، ومعها بدأت مسيرة سركيس الطويلة نحو الرئاسة، ومسيرة فاروق الطويلة نحو. . . السركيسية. والندم لا ينفع يامير.

على أية حال ففاروق ما لبث في ١٩٦١ أن أسس مكتبا للمحاماة خاصا به في بناية الكمال على طريق الشام، وكانت البناية تضم مكاتب الكثيرين من مشاهير المحاماة والسياسة كفؤاد

بطرس وناظم القادري وجان باز.

وتنكفىء سيرة فاروق العامة نحو الظل والليل، حتى يدور الكون دورته ويستقر على العام ١٩٧٧. انها السنة الأولى لعهد صديقه الياس سركيس الذي استدعاه وسأله: أي منصب تختار يا مير؟ فأجابه وزارة الخارجية. لكن هذا الاستدعاء سبقته حيثيات وتفاصيل لم تكن قليلة التأثير على وضع فاروق. فمنذ ١٩٦٨ ومع احتدام النزاع بين «الحلف الثلاثي» و«النهج الشهابي» أخذت على فاروق صداقته لسركيس، وعومل غصبا عنه كأنه مناضل شهابي لا يشق له غبار. وازداد الناظرون اليه على هذا النحو مع عهد الرئيس فرنجية الذي كان سركيس قد نافسه على الرئاسة في ١٩٧٠. ونشأ ما يشبه حالة الثأر من الشهابية ابان المحاكمات التي أجراها العهد الجديد للضباط الشهابيين، وأصيب فاروق بعزلة سياسية تركت اثارها على عمله كمحام اذ بادرت مؤسسات وشركات عدة الى سحب وكالتها منه.

لكن قبيل انتخاب الياس سركيس في ١٩٧٦ وبعيده أصيب فاروق بالعز بعد الفاقه. فقد تدفق على مكتبه الكثيرون من الزبائن وكان بينهم بعض الذين قاطعوه قبل سنوات. ونجح المير في أن يجمع في ستة أشهر، مقابل استشارات قانونية، بقدر ما جمع في سنواته السابقة منذ ١٩٦١.

الرئيس سركيس لم يعط صديقه وزارة الخارجية بل أعطاه مديرية الأمن العام. ومع ان هذا التعيين حرمه الدفق المالي الذي كان بدأ قبل أشهر، الا ان فاروق لم يكرر الخطأ الذي ارتكبه مع الرئيس شهاب، فقبل العرض وسأل: لكن ما هو الأمن العام؟ وفهم من صديقه الرئيس ان المطلوب منه في الدرجة الأولى توحيد هذا السلك الذي انقسم خلال حرب السنتين الى «الأمن العام اللبناني» برئاسة العقيد انطوان دحداح و«أمن عام لبنان العربي» ويرأسه العميد يوسف سليم. ونجح فاروق السني - الدرزي - الماروني في انجاز هذا العمل الذي دخله جاهلا به ومتوجسا الفشل، وعاد الموظفون البالغ عددهم أربعة الاف ليشكلوا سلكا واحدا.

بين تسلمه المنصب الجديد في ١٧ نيسان ١٩٧٧ وتركه إياه في ٨ كانون الأول ١٩٨٢ بقي فاروق على مقربة من صديقه الرئيس سركيس زميل البريدج ورفيق السمر والأنس، والاثنان عازبان. والواقع ان شبح الرئيس الراحل لا يغيب عن المير فاروق كلاما وسردا وذكريات وتوقعات، حتى ان الجلسة التي جمعتنا بالمير في بيته ضمت الينا الدكتور رزق الله فريفر وهو مفوض عام سابق في الأمن العام يشبه الرئيس سركيس في الوجه كثيرا، ويتحدث ويتصرف كما لو أنه أحد مستشاري المير في حملته الرئاسية.

أعوام المديرية العامة كانت صعبة على العموم. فقد تهدم مبنى الأمن العام في المتحف بنتيجة قصف الأشرفية في ١٩٧٨ وهجرت المديرية الى قصر شقير ومنه الى وزارتي الاسكان فالزراعة.

ولم تخل تلك السنوات من مواقف شجاعة لفاروق يحدثنا عن بعضها. فقد وجد أن لبنان وبلدانا عربية قليلة جدا هي التي تلتزم بميثاق الجامعة العربيةالذي يقضي بتنقل الرعايا العرب، من دون تأشيرات، بين الدول العربية. ومع انه لم يكن وزيرا ولا رئيسا للحكومة قد أصدر قرارا ينص على معاملة رعايا الدول كلها بالمثل. وحين علم ان مكتب مقاطعة اسرائيل يقوم بتمزيق كل الصفحات التي تبدأ بحرف «إي» في الانسكلوبيديا بريتانيكا تخلصا من تلك التي تعرف باسرائيل، سمح بادخال الصحف الاسرائيلية الى لبنان لأن معرفة العدو أوجب من معرفة الصديق كما يرى المير بحق.

وتولى فاروق تنفيذ المهمة العربية في الحد من حرية الصحافة فطبق هذا الحد على صحف المنطقتين، وحين وصلت الموسى الى ذقن مجلة «ريفاي» التي تمت مداهمتها، قال بعض أقطاب الموارنة ان المير لا يمثل الطائفة ومصالحها في الأمن العام.

بيد ان سركيس كلفه ايضاً بمهام وفاقية وتوفيقية تتعدى منصبه وتستند الى اسمه وتاريخه وعلاقاته. ففي ايار ١٩٧٧ حيث صادف وقوع شهر رمضان، طلب الرئيس الى المدير العام اقامة حفل افطار في الاشرفية يكون جس نبض لاحتمالات المصالحة بعد حرب السنتين. وفعلاً وجه المير دعوته الى ٣٦ شخصية دينية وسياسية من مختلف المذاهب والاتجاهات والمشارب، وحين وعدوا، كلهم تقريبا، بتلبية الدعوة علق سركيس بقوله: عميضحكوا عليك يا فاروق. وسريعاً تبين ان ثقة فاروق بصداقاته كانت في محلها فحضر ٣٤ من اصل المدعوين ولم يتغيب سوى صائب سلام الذي ارسل جميل كبي وكمال جنبلاط الذي اوفد قريبه خالد.

في ١٥ كانون الأول ١٩٨٢ عين فاروق سفيراً للبنان في باريس. فالتقليد يقول: السلك الخارجي بعد المديرية، او السفارة بعد الادارة. والعمل بالتقليد يصبح ملحاً حين يكون الرئيس الجديد هو الشيخ بشير الجميل الذي لم يربطه بالمير اي ود. ففاروق ابي اللمع كان الوحيد من بين الشلة السركيسية الذي لم تسر عليه المصالحة بين الحكم وبشير البادئة في ١٩٨٠ ـ ٨١. اما السبب كما يشرحه المير فهو عدم ايمانه بالعنف والقوة، وتعيينه مفوضين في الأمن العام لا ترضى عنهم القوات. والى ذلك تعرض المير لتهديدات بشيرية بعيد مداهمة «الريفاي»، ولم يتردد في القول جواباً على سؤال تلفزيوني عن المقاومة اللبنانية: كلما تحدثوا عن المقاومة صغرت رقعة الأرض.

الى باريس اذن. ودور فرنسا اكبر من ان تخطئه العين اكان في تأثيرها المباشر ام في موقعها الأوروبي وعلاقاتها الخاصة بالفاتيكان. وهل تعرف لبنانيا، كما يسأل المير، يطلب اليه ان يكون سفيراً في باريس ويقول لا ؟

لكن الوجه المتعب من الاقامة في باريس فاق مثيله في مديرية الامن العام. ففي تلك السنوات تضخم عدد اللبنانيين ليصبح ٩٠ الفاً تحف بالكثيرين منهم ظروف صعبة. وحين انفجر

مبنى الدراكار وقضى خمسون جندياً فرنسياً تحت الانقاض سمع السفير الامير شتائم اهل القتلى في حفل رسمي لتكريمهم. ولم يستطع وجود الرئيس ميتران وكبار الرسميين ان يمنع توجيه الشتائم والاهانات. ومن قنص المراقبين الفرنسيين الى خطف الرهائن انتهاء بجورج ابراهيم العبدالله، نزع المير العلم اللبناني عن سيارته تفادياً للأسوأ، من دون ان ينجح في تفادي عبوات كانت توضع على مدخل السفارة وتهديدات هاتفية بين الفينة والأخرى.

وكانت القشة القاصمة اتصال الرئيس كرامي به ليبلغه ان الوضع المالي للدولة يجبرها على نقل مبنى القنصلية الى مبنى السفارة للتخلص من دفع الايجار، وهو ما تم لاحقاً.

مع هذا يتحدث المير كثيراً عن ايامه في باريس: كانت السفارة بيت جميع اللبنانيين. كل السياسيين والروحيين المتنازعين زاروا العاصمة الفرنسية والتقوا في السفارة وحول موائد ولائمها التكريمية. وكل السياسيين والروحيين هؤلاء لم اجد بينهم من يتحدث بشكل مختلف عن الآخر. هناك لا احد يتحدث عن طائفة. الكل يتحدث عن بلد معذب وعن الصيغة اللبنانية. ويخبرك المير انه سار على رأس تظاهرة دعت اليها « حركة امل » في العاصمة الفرنسية ضد الاحتلال الاسرائيلي. وكان نصيبه هجوماً عنصرياً من نشرة « القوات اللبنانية » التي ذكّرت، الماحاً، باصله الدرزي.

وطبعاً لا ينسى المير ان العلاقات مع الفرنسيين هي اولاً واساساً«عزايم وهدايا... السفير في باريس اذا ما دفع من جيبتو ما بينجح». ونجح فاروق في الحصول على وسام شرف بعد ان كانت سنوات الامن العام قد اسبغت عليه وساماً.

وبرغم مبادرته الى اعلان ترشيح نفسه للرئاسة مفتتحاً موسم الترشيحات، فقد عين المير فاروق في ٦ نيسان الفائت امينا عاماً لوزارة الخارجية والمغتربين خلفاً للسفير فؤاد الترك. لكن كيف يجوز الجمع بين الترشيح للرئاسة والمنصب الاداري، ففيما القانون المتعلق بالانتخابات يستدعي الاستقالة من الوظيفة قبل ستة اشهر؟ نعم. نعم يقول فاروق. لكن انتخاب الرئيسين شهاب وسركيس احدث تعديلاً ضمنياً وعملياً للقانون هذا.

ملامح وجه

فاروق ابي اللمع لاعب ماهر وراقص ماهر كما يقول عارفوه، وهو صاحب نكتة لا تعوزه سرعة الخاطر ولا زفر اللسان، عملاً بتقليد شائع عند الارستقراطيين بعد انصرام عهدهم. وملامحه الحادة والمروسة لا تخفي حدة طباع واستعداداً للنرفزة لم تتح لنا الجلسة ان نملك قرائن عنها.

يفاجئك احيانا بعدم ثقته باللغة السائدة المتعارف عليها. ففي مقابل الكلام الشائع عن

المصلحة العامة ورئاسة الجمهورية كتضحية يقول: شو تضحية ..... اختها. كلنا هاجين. او يساجل ضمناً مع نظام قيمي بكامله: عنفوان قالوا؟ ولك صرنا تحت الصرماية. الناس ما عاد عندها زهو. اللبس. التعتير وهم على الطريق. مثل البلغار. نقص في اللحمة. الغلاء. لم نتعلم شيئا. ومع هذا نفس التفاؤل والعنفوان واكل الـ.... او يروي: ايه وين كنا؟ كنت رايح بباريس اعمل مناظرا وياخدو لي صور مدري شو...

وتسمع منه كلمات: ستنا، خيي، تسلملي عينك، تقبرني عينك، ورحمة ابوي، ومن دون اضفاءاي تفخيم لفظي واي تصنع يكرر: مرحوم، مسكين، ويروي لك عن مقلب كان ضحيته احد المساكين، ثم يغمز بعينه ويهز رأسه: ماشي الحال. تمام. ويرن جرس الهاتف. الصوت الآتي نسائي على الأرجح. الكلام بالفرنسية. الميريذوب رقة. يعود الى كلامه « الجدي ». تتسلل عبارة بدنا نتسلى عشيه. او حين تعنف معه: اخو... باردون منكم.

لغة فاروق تجمع الى البذاءة اللطيفة غير المتكلفة، وهي غير البذاءة الريفية الجلفة، حساً واقعياً شديد البرودة وشديد الرثاثة في آن. فالرجل الذي اطل على ازمنة تتعاقب اطوارها وناس تتقلب احوالها، لم تعد تأخذه الكلمات الكبيرة المنمقة التي تميل الى تحوير الاشياء او اسباغ المجد عليها وهو ليس فيها. فالمير ليس كثير الاعجاب بالشعب والسياسة كما يكتب عنها في الكتب: ها ها قالو الرئاسة تضحية؟ كلنا هاجين....

عنفوان؟ صرنا تحت الصرماية.

وهذه الخبرة المديدة المتوارثة التي ضرجت فاروق بالدماء هي التي جعلته عديم الثقة بدور الانشاء. فهو على عكس السياسيين الطامحين من ابناء الفئات الوسطى والذين يتراءى لهم ان كلماتهم تصنع العالم، يعرف اننا جميعاً امام مطحنة تاريخية لا ترحم، وكلنا حيالها سواسية كاسنان المشط. تعالوا نلعبها، اذن، كما هي. فاذا اسعفنا الحظ كان به. والا ابتسمنا بسمة صفراء اخرى درجت شفاه الاجداد منذ مائة عام على رسمها... وذهبنا الى السهرة كي ننسى.

انها الحياة. لا داعي لتمجيد الشعب وفيه كل هذه السفالات. ولا داعي في المقابل لان نتكبر وتسخن رؤوسنا اذ من نحن في آخر الامر؟ يقول فاروق كما لو كان يطبق فلسفته البسيطة: اسألوه. انا اتغدى مع مرافقي والعب بالطاولة معه.

على ان فاروق الذي يشبه ميشال روكار بحسب قوله، يشبه بدرجة اكبر ديفيد نيفن السينمائي البريطاني الانيق الذي تتراوح ادواره بين التجسس والشطارة في السهرات والنجاح في سرقة المجوهرات الثمينة، ودائماً في الصالون الارستقراطي الاثير حيث تلتبس الادوار والاجناس والاعمار. واكثر ما يجمع بينه وبين نيفن تلك النظرة التي تخفي سراً منشاه في حافز غامض. وربما كان مثل هذا الحافز هو ما يبقي المير فاروق مستنفراً نشاطاً وحركة وحيوية كأنه يستعد لسهرة

دائمة.

معتدل الطول لكن رشاقة جسمه تشبه رشاقة العشريني، وانيق اناقة من تمت له السيطرة على ملبسه حتى غابت تماماً عن باله. شعره قليل من الامام ومعدوم من الوراء رغم غزارته على الطرفين، وهناك قليل من احمر التعب في العينين الخضراوين اللتين على قدر من الجحوظ. الانف متقدم قليلاً والاصابع طويلة يستعملها في تشبير عفوي ومتواصل او في استلال سيجارة مارلبورو لايتس واشعالها، ثم لا يلبث ان يتكتف ويضع رجلاً على رجل ويستمع باهتمام من يستجمع اطراف نفسه. اليد على الفم والعينان تلعبان برقة في فضائها الصغير.

بيته في حالات حدثنا عنه بوصفه بيت صيد السمك، اما بيت الاشرفية حيث ذهبنا، فهو في اغلب الظن البيت الفاروقي. البناية بناها المير في ١٩٧١ وباعها شققا محتفظا باثنتين له ولوالديه. اما الأثاث فخلاصة اشياء جميلة مصدرهما الازمنة المتعددة المختلفة وان طغى عليها قصر بيت الدين وعالمه. السجادات العجمية الصغيرة والخشبيات الشرقية والخرزيات والعاجيات والمسابح والسيوف والعصي والآيات القرآنية ولوحات للانسي وفروخ وغيرهما تتكرر في معظمها صور القرية والمقهى، كل هذا ينعقد في صالون حديث على شكل زاوية مجاورة للواجهة الزجاجية، فتكون الخلاصة مناخاً يجمع اقصى الشعور بالراحة الى ارفع المذاق.

لكن العازب، يا مير، لا يؤتمن على مثل هذا الاثاث. الم تر الثقوب الصغيرة بدأت تنهش السوفا؟.

فاروق سياسياً ومثقفاً

فاروق ابي اللمع لايفاجئك بافكاره، فهي لا تبعد عن عفو الخاطر الا قليلاً. يرى المير، مثلاً، ان الولاء للوطن ناقص والولاء كله للزعيم والطائفة، ويعني عدم وجود ولاء عام ويستشهد على ذلك بالفارق بين نظافة اللبناني في بيته وقلة نظافته في الشارع.

يتوغل قليلا فيتجه نحو التربية المدنية:

خيي شو في بيناتنا. نحنا بهايم. عميلعبوا فينا. المسألة مش مسألة صلاحيات. لازم يحصل تحديث سياسي بالتدريج عن صيغة ١٩٤٣. نبدأ بالتربية المدنية.

كيف يا مير؟

وزارة التربية المدنية اولاً اذا قدر لي ان اصير رئيسا. تعليم اللبناني يدفع ضريبة واستحداث نيابة عامة مالية.

نصل الى الرئاسة. المير يقول ان الناخب الاساسي هو مجلس النواب وانه اذا ما وصل فقصره سيكون في بيت الدين صيفاً وشتاء. لكن اي رئيس نحن موعودون به؟

يجيب المير بقليل من نفاذ الصبر:

يقولون لا نقبل الا رئيس حل. يا خيي شو رئيس حل. الحل عربي ودولي يستفيد منه الرئيس الذي يأتي. الحل النهائي لا يأتي الا بعد مجيء رؤساء. قد لا يكون الوضع الاقليمي ناضجاً لرئيس حل الآن. المهم رئيس توافقي يحاور الجميع.

ويتركك فاروق امام انطباعين اولهما انه رجل التوافق الذي نجح افطاره في الاشرفية نجاح سفارته في باريس في استقبال السياسيين المتخاصمين. والثاني ان تعويله على دور الخارج هو اتعاظ بالتجربة السركيسية التي عاشها: كل شيء كان ماشي وجاءت زيارة السادات الى القدس وخربطت كل شي. بيقولو الضوء الاخضر اعطي لسركيس، هذا صحيح، لكن التيار الكهربائي لم يعط له.

تعود مع المير الى المسائل الاصلاحية. فهو يصر على تطبيق « من اين لك هذا »؟ اصرار الارستقراطي الذي يشكك في امر كل مال جديد مستحدث. وحين يتحدث عن العناصر التي اعجبته في تجربة فؤاد شهاب لا ينسى النزاهة ومكافحة الفساد، مبدياً اعجابه بالسبب الذي اورده الرئيس الراحل في ١٩٧٠ لعزوفه عن الترشيح: جدار المال وضرورة استعمال القوة وانا غير مستعد لذلك، وتخال ان تركيز المير فاروق على بساطة «الاجتماعي» يخفي بعض التهرب من تعقيد « السياسي ». لكن مع هذا ففي عرفه ينبغي ان تبقى رئاسة الجمهورية للماروني. لكن ماذا بعد. احمد الحاج مثلاً لماذا لا يكون قائداً للجيش؟ لا يجوز ان تحول طائفة المرء دون حصوله على منصب معين. في هذه الحدود التي تراعي ضمانة رئاسة الجمهورية نظراً لاستمرار وجود الخوف الماروني، فان المير يؤيد الغاء الطائفية السياسية، وهو مع المشاركة الى ابعد الحدود.

والمير فاروق الرافض « للديمقراطية العددية »، يطالب بلا مركزية بعيدة والى اقصى الحدود ادارياً، على ان تكون مصحوبة بحكم مركزي قوي اقتصادياً ومالياً وخارجياً، وهو ينوي اعتماد الخبراء واستحداث امناء سر دولة لا يخضع اختيارهم للتقسيم الطائفي والسياسي.

وهو يرى ان الوحدة اللبنانية تمر في طورين الاول توحيد الجبل الماروني - الدرزي، والمير الماروني - الدرزي يجافي بهذا نظرية القائلين بوحدة بيروت اولاً. اما الطور الثاني فهو اكتمال التوحيد في موازاة حل نهائي لازمة الشرق الاوسط.

وتنقلنا ازمة الشرق الاوسط الى المواقف والعلاقات العربية. فالمير المتحمس لانتفاضة الضفة والقطاع، يرى ان الفلسطيني مسؤول مباشرة ام مداورة عما حصل للبنان، ويعيد الى الاذهان تجارب المسلمين الفلسطينيين التي سبقت حرب ١٩٧٥ لا سيما في مخيمات المناطق الشرقية حيث تعرض هو نفسه ذات مرة لانتهاكاتهم.

وسوريا؟

ايام الامن العام كنت ازور دمشق مرة في الشهر للتشاور والتبادل. منذ باريس لم اذهب.

الآن لا توجد اية علاقة سلبية كانت ام ايجابية.

والمير لا يمانع في اعطاء ضمانات لسوريا في لبنان. وتجربته علمته ان يستشهد بضبط الصحافة كضمانة اولى. وهو لا ينفك يردد ان المرسوم ١٩٧٧/١/١ حول الصحافة جاء بطلب سوري، مضيفاً: علينا ان نضبط انفسنا. اذا صرت رئيساً للجمهورية فأول ما اقوم به ان اتوجه الى دمشق واسأل الرئيس الاسد: ما الذي تريده في لبنان؟

ومع ان المير قال في محاضرة له في باريس اواخر ١٩٨٣ ان سوريا واسرائيل تسيطران على مناطق لبنانية واسعة، فهو يؤكد هذه الايام ان سوريا هي عمق لبنان وعلينا التعامل معها اكنا نحبها ام لا. وحين تسأله عن « الاتفاق الثلاثي » يقول: انا منذ خمسة اعوام ونصف بعيد عن الواقع اللبناني. سمعت به ولم اقرأه. وحين تسأله عن رأيه في العهد الحالي يجيب: كنت عايش برا. ويضع يده على فمه.

فاروق الذي يغمره طوفان المكالمات والمراجعات يريحه ان يكون وسط محيط غامر وهو المصاب بالكلوستروفوبيا. فالى تاريخه المتعددطائفياً ومنطقياً، والى سفر ابيه الديبلوماسي والأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية، عاش فاروق في الولايات المتحدة وفرنسا، وفي الأخيرة دأب على متابعة السياسة الدولية بحسب قوله.

وفي الحالات كافة يبقى الرجل ذا مدى فسيح نسبياً. فالآنسة التي اقترن بها تعرف اليها في البرازيل يوم كان والده سفيراً، وفي القاهرة عرف المرحلة الاخيرة من العهد الملكي وبدايات العهد الجمهوري. ويقول فاروق انه كان معجباً الى ابعد الحدود بجمال عبد الناصر ولديه منه صورة موقعة وطابع عن الجلاء مهدى اليه. وفاروق الذي بهره عبد الناصر في شبابه سبق له وانبهر بأنطون سعاده في اواخر الاربعينات، فتعاطف مع ما يسميه فلسفته السياسية، وعرفه قبيل اعدامه وحصل منه على صورة موقعة.

وحب الابطال الموصوفين بانهم يغيرون التاريخ احدى شيم الارستقراطيين الذين وضعهم التاريخ على القارعة. وربما عملاً بهذا المبدأ درج فاروق قراءة السير والامتناع عن قراءة الرواية حيث تتعدد الابطال وتتعاقب الادوار ويكون التذكير حاداً بمصائر يميل الامراء الى طي صفحتها.

ويقول المير فاروق انه كان منذ صغره يحفظ حياة نابوليون وحروبه واسماء جنرالاته، حتى ان سفير فرنسا دي شايلا اسماه نابوليون الصغير. اما كاتبه المفضل ففيكتور هوغو الذي لا يصعب اكتشاف مصادر اعجاب المير به. فرائد الرومنطيقية وابن الجنرال النابوليوني عاش بعد طلاق والديه مع والدته الملكية المتعصبة ضد النابوليونية. وبرغم ارتداده السياسي اللاحق عن الملكية، فقد كان في الأدب ابرع من اعاد انشاء عالم القرون الوسطى من خلال « احدب نوتردام ». وهوغو، كما هو معروف، لم يصل الى السياسة الا لتجنب الحزن الذي اثارته وفاة ابنته

التي غرقت ، ليوبولدين، والخوف من ان ينتابه الجنون الذي سبق ان انتاب شقيقه يوجين . فحين عارض نابوليون الثالث «الوضيع» عارض الوضاعة وهي تزعم العظمة لنفسها، وحين كتب عن السجن والفقر وانعدام العدل في « البؤساء » هجس بفكرة الخلاص الأمثل والتطابق مع عالم من النقاء الغامض.

في الصحف يقول المير انه يقرأ « النهار » و « السفير » ويقرأ فيهما بالتحديد المقالات تاركاً الأخبار للراديو. اما المجلات الاجنبية فعد منها النوفيل اوبزرفاتور والاكسبرس.

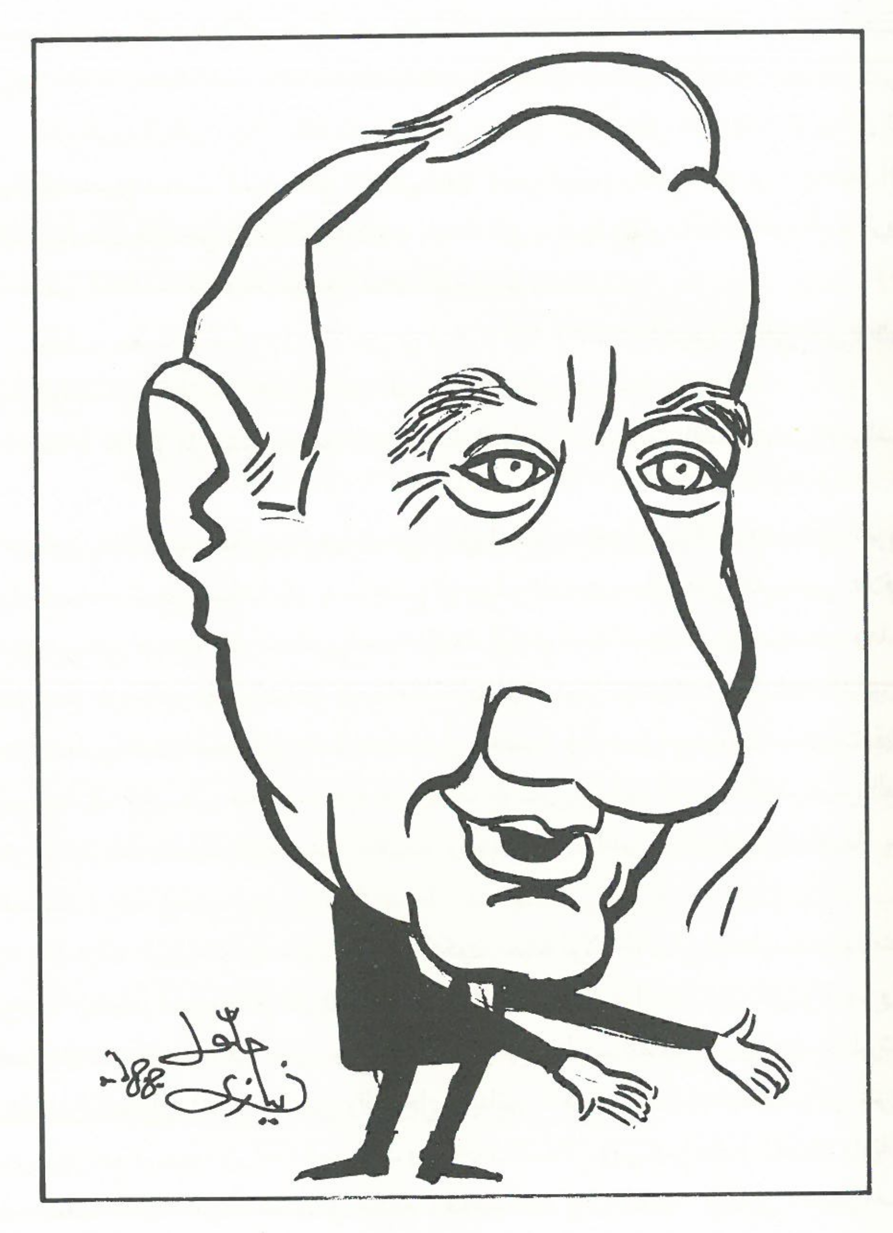
هل تلفتك الصفحات الثقافية يا مير؟

بيني وبينك لا.

والمسرح والسينما واللوحات التي تملء بها بيتك؟

احب شوشو كثيراً. كل مسرحية له كنت احضرها ١٢ مرة. احب السينما. كنت احضر كثيراً ابان المراقبة في الامن العام. سلوى ومتعة. احب الافلام العنيفة لا الحب والعشق. في الفن اهتم بفروخ والانسي كثيراً. احب كل شيء عربي. التيارات الغربية لا تعجبني كثيراً. رفيق شرف وغيراغوسيان. مؤخراً اكتشفت حسن الجوني. . . يحاول شرح لوحة للأنسي كما يراها.

يستطرد: اكتب ذكرياتي في الادارة. الكتابة وقراءة الادب امور لا احبها. ما بعرف ليش طلعت هيك، مع ان الوالد كان شاعراً واديباً وشقيقته اسمى كانت رئيسة مدرسة الشويفات، وشقيقته نجلا كاتبة افتتاحية اسبوعية لمجلة « الهدى » في نيويورك ورئيسة الجمعيات الثقافية العربية في الولايات المتحدة. ما بعرف ليش طلعت هيك. ما بعرف ليش طلعت هيك......



اوغست باخوس

في ١٩٥٣ سمع باسم أوغست باخوس، ابن الثلاثين عاماً، لأول مرة. يومها ترأس احدى لائحتي الانتخابات البلدية عن البوشرية وجديدة المتن. واسفرت الانتخابات عن فوز أوغست باخوس.

لكن فوزه لم يكن سهلًا. فالدستوري الذي تعهده سياسياً اميل لحود ليس مقبولاً في نظر العهد الشمعوني الجديد الذي نجح لتوه في انهاء عهد الرئيس بشارة الخوري. وهكذا اتهم الرئيس شمعون بالتدخل في تشكيل اللائحة المقابلة التي ترأسها توفيق نصور واستقطبت الرموز والعواطف الكتلوية المناهضة تقليديا للخط الدستوري.

وكانت المعركة حامية. وربما الاحمى في لبنان. وفاز اوغست باخوس. وبقي حتى ١٩٦٦ رئيساً للبلدية، ووكيلاً عن مجموعة من البلديات المجاورة في المتن الشمالي.

مذاك بدأ الرجل يشق طريقه الى السياسة الوطنية. انها طريق البلديات الى السياسة.

البوشرية

حين يقال طريق البلديات، فهذا يعني ان في اوغست باخوس شيئاً من السياسي الغربي، حيث السياسة تتويج لنشاط يمور به المجتمع في صلبه العميق، والسياسي تعبير عن علاقات وكفاءات ومهن صاعدة اكثر منه تعبيراً عن ملكية ارض او شبكة دموية وقرابية موسعة. وهذا ما ينطبق فعلاً على نائب المتن الشمالي ذي العائلة الصغيرة حجماً حيث لا يتجاوز عدد الذكور الـ ٤٠٠ شخص يقطن معظمهم في المتن وساحله واقليتهم في غزير بكسروان. اما بيت قيصر باخوس، والد اوغست، فخلية مصغرة عن الطبقة الوسطى في جبل لبنان. فقيصر درس الطب مبكراً في فرنسا وانجب ابناء بينهم الطبيب والمهندس والقاضي والمحامي. والمحاماة مهنة أوغست.

ما كانت طريق البلديات الى السياسة لتكون معبدة لولا الحال التي استقرت عليها منطقة البوشرية النامية. فمع مطالع القرن قال المثل العامي « يا طالب العافية من البوشرية »، وكان المقصود الاشارة الى البعوض الذي يسرح فيها. لكن نهاية الحرب العالمية الاولى ادرجت البوشرية في المسار الاقتصادي المتوسع للجبل والساحل اللبنانيين، فاستبدلت زراعة التوت التي شرعت تذوي ويتراجع مردودها بزراعة الحمضيات ومن حول البساتين ومن بينها نهض العمران وارتفعت مبان ضخمة جديدة غيرت معالمها في مطالع الخمسينات. والى التجمع السكني القديم اضيف بعض السريان النازحين من اقطار عربية مجاورة فأسست لهم بطريركيتهم مساكن ومدارس، وكنائس طبعاً.

ومرت في النهر مياه كثيرة حتى وفدت اواخر الستينات حين كان أوغست باخوس يتهيأ لتمثيل البوشرية وجوارها في البرلمان. واذا المنطقة، يومها، تضم ١٥ الف مسكن يقطنها ٧٥ الف

نسمة. والى البشر ومساكنهم، كانت هناك اربع مدارس رسمية للبنات والصبيان وثلاث خاصة وكلية اميركية في جزئها المعروف بـ « السبتية »، ناهيك عن المدارس الرعائية الكثيرة. والى جانب كنيستين قديمتين عرفتا باسمي مار يوحنا ومار تقلا، نشأت اواخر ذاك العقد كنيسة للقديس مارون، ورممت الكنيستان القديمتان. واتسعت البوشرية لأربعة عشر ناد، وفرق كشفية وجمعيات ومؤسسات خيرية كان ابرزها « بيت العجوز المريض ». ولم تعدم البوشرية صناعات اهمها الغزل والنسيج والبيرة والسبيرتو والاسطوانات فضلا عن منطقتين صناعيتين للصناعات الخفيفة. وفي ١٩٦٩ تحديداً، وتعبيراً عن توسع المنطقة المذكورة، اصبحت ميزانية بلديتها ٥ ملايين ليرة بعد ان كانت في ١٩٦٤ لا تتعدى الـ ١٥٠ الفاً.

ولا تكاد تتحدث الى اوغست باخوس او تقرأ مطالعة برلمانية له حتى تجد البلديات في موقع الصدارة من التركيز. فعندما شكلت حكومة الرئيس صائب سلام في ايار ١٩٧٢ وكانت اول حكومة يدلي النائب الجديد اوغست باخوس بموقفه من بيانها الوزاري، انتقدها لأنها مرت « مرور الكرام بقضايا البلديات » واستطرد من البلديات الى المجارير وهي ما عانته بلدية البوشرية، وفيها السد، الى ان تغلبت عليه.

وفي مناقشته بيان حكومة الرئيس تقي الدين الصلح في تموز ١٩٧٣، بدأ باخوس بمسألة الانتخابات البلدية، وتطرق الى الامن، وافاض في الاشغال العامة والمجارير اذ « يجب ان تضع الحكومة مشروعاً للمجارير يشمل كل لبنان، حتى اذا شاءت بلدية ان تنفذ مشروعها تعتمد هذه الدراسة ضمن اطارها. والا فماذا يحصل اليوم. اعطيكم مثلاً عن بلدية بكفيا التي انشأت شبكة مجارير وصبت المياه المبتذلة على بيت شباب، وتصاعدت الروائح في بيت شباب. وما كان من بيت شباب الا انها انشأت شبكة مجارير صبتها على القرية الاخرى حتى ساحل المتن ».

وعلى هامش البلديات توزعت اهتمامات باخوس البرلمانية على « الجندية الالزامية » التي تتعدى حمل السلاح الى « الجندية الزراعية » و« الجندية الصناعية »، وتصنيف المناطق الصناعية وتجويد عمل القضاء. وفي البرلمان عمل اوغست باخوس منذ ١٩٨٠ رئيسا للجنة الادارة والعدل النيابية، كما تولى منصب المقرر للجنة العمل والشؤون الاجتماعية، مشاركاً في عضوية اللجنة التشريعية للمؤتمر البرلماني العربي.

لقد نجحت طريق البلديات في انجاب نائب ناجح، اهتمامه اهتمامات بلدة تصير مدينة وتتعقد مشكلاتها.

آل باخوس

تعود عائلة باخوس في اصولها البعيدة نسبياً الى الهجرات المارونية المتلاحقة من الشمال جنوباً. وثمة من يقول انها تنسب الى المقدم بن صادر الحدشيتي الذي شارك المقدم خاطر المصري

حكم جبة بشري في الربع الاخير من القرن السادس عشر. وفي طريقها استوطنت العائلة الحدشيتية الأصل مدينة طرابلس، ثم بيروت حيث تعاطى بعض افرادها التجارة. وعرف من الباخوسيين انطون باخوس الذي عمل طيلة عشرين عاماً مدبراً للأمير عبد الله، ابن الامير حسن، شقيق الامير بشير الشهابي الثاني. وربما كان انطون مؤسس فرع العائلة المقيم في غزير.

كذلك هاجر عدد من الباخوسيين الى مصر مبكراً، جرياً على تقليد عرفه بعض الاسر المارونية في الجبل وساحله، ممن ساءها الحكم العثماني وضيق الفرص الاقتصادية والاجتماعية المتاحة.

فخليل باخوس الذي هاجر الى مصر تولى وظيفة قنصل ايطاليا في القاهرة ثم الترجمان الاول فيها. وشقيقه خليل انتقل من مصر الى المغرب حيث اصبح ابنه نجيب باخوس اميناً لسر الحاكم الفرنسي في مراكش. وبدوره رزق خليل اربعة اولاد هم فكتور وكان تاجراً مشهوراً، وشارل الذي ولد في الاسكندرية وتملك الاراضي الواسعة و « قصر الدوبارة » المعروف، وشركة « النقل لاند »، ويوسف صاحب جريدتي « المستقبل » و « البصير » اللتين صدرتا في سردينيا وباريس، وسليم الذي درس في الاسكندرية ثم انتقل منها الى باريس حيث نال علوماً مالية عالية، ليعين بعد رجوعه الى القاهرة وكيلاً لادارة المال ثم مديراً للمصلحة فيها. ويقال ان سليم كان ماسونياً بلغ اعلى درجات الماسونية الى جانب سعد زغلول وحفني ناصف، ليتحول عنها في اواخر ايام حياته وينال اوسمة منها النيشان العثماني والمجيدي الثالث ونيشان الملك فؤاد من المرتبة الأولى.

ويمكن لاوغست باخوس اذا ما شاء الاستعانة بتراث سياسي ـ عائلي سابق، ان يستشهد بنعوم باخوس الذي تربطه به قرابة بعيدة. فنعوم المذكور كان نائباً عن محافظة جبل لبنان في المجلس التمثيلي الأول الذي دام من ٢٤ ايار ١٩٢٢حتى كانون الثاني ١٩٢٥ وكان يضم ثلاثين مقعداً.

اما التراث القريب والمباشر فيرقى الى قيصر، والد اوغست، الذي كان طبيباً معروفاً، انجز دراسة الطب في فرنسا في ١٩٠٤، وقدم خدمات طبية لابناء منطقته كما انشأ صداقات مع الست نظيرة جنبلاط وميشال زكور وزعماء البترون، متدخلا في شؤون السياسة المحلية دعماً لهذا الحليف او مناهضة لذاك الخصم.

الأم والزوجة والكتلة الدستورية

وأوغست الذي ولد في البوشرية في ١٩٢٣ توفي أبوه وهو في الثامنة فتولت والدته لبيبه بشير تربيته واخوته وسط ظروف اقتصادية صعبة. وعائلة بشير من ساقية المسك التي تقع بين بكفيا وبحر صاف في المتن الشمالي. وكانت الساقية قبلا قرية منفصلة عن بكفيا الى ان ادى اتصال

العمران بها الى دمجها فيها. وجد أوغست لأمه كان رئيس بلدية ساقية المسك، ومن ثم مختارها، لأن عائلته احدى أكبر العائلات هناك.

واذا كانت الصلة القرابية بساقية المسك، ومن ثم بكفيا، قد عملت لاحقاً على تعزيز القوة الانتخابية لأوغست باخوس، فقد اثر في الاتجاه نفسه اقتران شقيقته باحد افراد اسرة الشيخاني البكفاوية ايضاً. ويبدو ان اقتران اوغست باخوس بناديا راجي التي تنتسب الى احدى العائلات المارونية التجارية في بيروت، ووالدتها من عائلة صارجي الكاثوليكية الدمشقية، ضيق الهوة بين المحامي الطامح والصالون البيروتي وما ينطوي عليه من فرص. وقد انجب الزوجان ثلاثة ابناء اكبرهم قيصر الذي درس المحاماة بدوره وتزوج من غريس عرب. فيما تزوجت احدى كريمتيه من جاد نعمه، الطبيب العامل في اوتيل ديو. واعداد اوغست التعليمي كان نموذجياً في صنعه كواحد من سياسيي الطبقة الوسطى، التي غالباً ما يتولى المحامون التعبير عنها والنطق بلسانها. فبعد ان انهى المرحلة الثانوية في مدرسة الحكمة عام ١٩٤٢، متشبعاً بتقاليد الخطابة العربية التي عرفت بها المدرسة المذكورة، انتقل الى كلية الحقوق في الجامعة اليسوعية وهي التي ترقى الى مصنع السياسيين الموارنة الشبان. وما لبث أوغست باخوس ان تدرج في مكتب نقيب المحامين ادمون كسبار صاحب « اكبر مكتب في الشرق »، ليعمل، من بعد، في مكتبه محامياً بالاستئناف.

المحامي الشاب الذي كان مقرباً من السياسي المتني اميل لحود، كان دستورياً متحمساً للاستقلال. وربما كان بين اسباب ذلك نجاح لحود الباهر كمحام، واقامة احد فروع آل ابوجوده الدستورية في البوشرية. لكن الوعي الخفي لأوغست باخوس قوامه الحماس للعلمنة، او ان هذا ما بدأ يبرز بعد نيل الاستقلال وتراجع المسألة الوطنية الى المرتبة الثانية. ومن دون ان تخف غلواؤه الدستورية راح اوغست باخوس يتعاطف مع الدعوة العلمانية لـ « الحزب السوري القومي الاجتماعي » المعروف بتواجده التقليدي في المتن وساحله. ولم يتردد في ان يدافع عن السوريين القوميين في المحاكم بعيد انقلابهم في ١٩٦١ برغم ولائه للشهابية. والراهن ان اوغست المتحمس للعلمنة لم يكن متحمساً لفكرة « الامة السورية » ولا لتوسل العنف اداة في السياسة. وهذا الاعتدال ظل واحداً من ثوابت حياته.

وفهم باخوس الشهابية امتداداً للدستورية فكان « شهابياً للعظم » بحسب تعبيره، مع انه تحفظ على « المكتب الثاني » ونشاطاته غير الدستورية وصمت الرئيس شهاب عنها. وفي مزاوجة بين الدستورية ـ الشهابية وعلمانية السوريين القوميين، شارك اوغست باخوس كلاً من جوزيف مغيزل وباسم الجسر واميل البيطار وغيرهم تأسيس « الحزب الديمقراطي العلماني ». وكي يدعم الشرعية في عهد الرئيس الياس سركيس شارك الرئيس عادل عسيران وناظم القادري وزكي المزبودي ونواباً آخرين تأسيس « الكتلة المستقلة »، وحين انفصمت العرى بين البيروتين على اثر

اشتباكات الفياضية، ساهم أوغست باخوس مع زملائه الآخرين في تأسيس « تجمع النواب الموارنة المستقلين » بوصفه صوتاً مارونياً داعماً للشرعية ومتمايزاً عن المقاتلين الموارنة.

مواقف في السياسة

تاريخ اوغست باخوس الانتخابي لا يختلف كثيراً. ففي ١٩٦٤ رشح نفسه للانتخابات وانسحب. وفي ١٩٦٨ خاض المعركة منفرداً ضد لائحة « الحلف الثلاثي » في المتن الشمالي والتي ضمت سليم لحود عن « الوطنيين الاحرار » وموريس الجميل عن « الكتائب » واميل سلهب عن « الكتلة الوطنية ». وكان الفشل حليف باخوس باصوات تزيد عن خمسة الآف مؤيد. وفي انتخابات ١٩٧٢ الأخيرة حالفه النجاح وكان عضواً في اللائحة التي ضمت الشيخ امين الجميل والعقيد فؤاد لحود وآرا يروانيان. يومها فازت اللائحة باكملها باستثناء ممولها المرشح الارثوذكسي ميشال المر، الذي حل محله الدكتور البير مخيبر رئيس اللائحة المقابلة. ونال اوغست باخوس ٢٢٧٢٥ صوتاً. اما اسباب تحالفه آنذاك مع مرشحي الكتائب والوطنيين الاحرار فمتعددة في اغلب الظن. بينها السعي للوصول الى البرلمان وعدم تكرار تجربة ١٩٦٨ الفاشلة، خصوصاً وان حرارة « الحلف الثلاثي » والتوكيد الماروني قد ولت وانفرط عقد الاحزاب الثلاثة المؤتلفة. ولأن باخوس الدستوري هو الخصم التقليدي للكتلة الوطنية، فهذا ما شجعه على التحالف مع الكتائب والاحرار الذين كانوا عماد اللائحة المناهضة للكتلويين. اضف الى ذلك ان كتائب المتن الشمالي اطلت على الحياة الانتخابية منذ ١٩٥٧ بمرشح معتدل هو الشيخ موريس الجميل. وفي الستينات كان موريس الجميل شريك اللواء جميل لحود في ترؤس اللوائح الشهابية التي تدعمها العصبية الدستورية.

والراهن ان هذا الاصطفاف المتني يرقى باصوله الى انتخابات العام ١٩٥١ وما عرف يومها بـ « معركة المتن »، حيث كان الشيخ بيار الجميل هو المرشح المدعوم من الدستوريين، برغم تخلي آل ابو جوده عنه في اللحظة الاخيرة، في مقابل مرشح الكتلة الوطنية يومها بيار اده.

وفي البرلمان كان اوغست باخوس نائباً نموذجياً لجهة عدم تغيبه عن الجلسات العامة وجلسات اللجان ومساهمته في تقديم الاقتراحات. ومواقفه على العموم اتسمت بالحياد والاعتدال والموالاة للشرعية، وهي موالاة على شيء من الافراط. فهو لم يحجب الثقة عن اي من الحكومات التي تعاقبت منذ ١٩٧٢ باستثناء حكومة « الوحدة الوطنية » التي شكلها الرئيس الراحل رشيد كرامي في ٣٠/٤/١٩٨٤، وحجته يومذاك انه ضد منحها صلاحيات استثنائية. وثمة استثناء بارز في حياة النائب اوغست باخوس السياسية، هو اقتراعه لترشيح الشيخ بشير الجميل للرئاسة. فبشير، في عرفه، « وضعه خاص جداً. وله ميزات فريدة . نحن لم نجاره خوفاً. بل عن قناعة يومذاك. كفه نظيفة، وافكاره تغيرت كثيراً في السنة الاخيرة. ظللنا نجادله ونعمل على التخفيف

من تطرفه الى ان توافقنا عشية انتخابه على ٩٠٪ من الامور ». وقبل بشير اقترع اوغست باخوس للرئيس الياس سركيس، وبعده اقترع للرئيس أمين الجميل، وايد اتفاق ١٧ ايار اللبناني - الاسرائيلي، لكن هذه المواقف الثلاثة كانت لحظة اتخاذها يكتنفها هامش عريض من الاجماع، مثلها مثل « الاتفاق الثلاثي » الذي لم يحجم باخوس عن تأييده.

وأوغست المعجب برجال الاستقلال، « بدءاً برياض الصلح »، ومن ثم اميل لحود وحبيب ابو شهلا وسليم تقلا، يقول انه يعتبر نفسه نائب كل لبنان بحق. فقد عمل وكيلاً للبلديات المجاورة في سن الفيل وبرج حمود والدكوانة، وتعرف الى المواطنين الشيعة هناك ومشكلاتهم. وعين بعضاً منهم في وظائف تابعة للبلديات، وتوكل محامياً عن بعضهم الآخر. وهو يقول ان صلته بالشيعة جعلته يتوسط في بعض نزاعاتهم فيتوجه مرة الى الهرمل لفض خلافات العشائر، ومرة الى النبطية، حتى ان ثمة من لقبه بـ « نائب الشيعة ».

ومع بداية الحرب الاهلية، وحين تعرضت الاقلية الشيعية في تلك المناطق لتعديات المسلحين، امن اوغست باخوس انتقال اعداد منهم الى المتحف، وهناك خطب قائلاً انه فعل ما في وسعه لحمايتهم رغم انه لا يملك ميليشيا مسلحة. ويرجوهم ان يفعلوا في مناطقهم ما فعله هو لحماية الاقليات المسيحية. وفعلاً تدخل افراد من آل زعيتر وآل الحاج حسن لحماية مسيحيين ليس فقط من تعديات مسلحين شيعة، بل ايضاً من تعديات مسيحيين اقوى منهم »، وذلك عملاً بتنبيهات « الاستاذ اوغست »، الذي لا يني يؤكد على الصلة التي جمعته بالسيد موسى الصدر.

ولا يتردد اوغست باخوس في اشهار ولائه المستمر للعلمنة الشاملة ورفض التعصب الذي هو « تجارة رجال السياسة »، مع حماسه للاصلاح ممثلاً بعدد من النقاط - المشاريع. فهو مع اللامركزية الادارية الانمائية الموسعة، وهو صاحب اقتراح قانون مقدم الى البرلمان للمطالبة بها. وهو تالياً مع الغاء القائمقامية وتوسيع دور المحافظ، حيث يصبح القضاء محافظة ودائرة انتخابية. وهو مع مشروع اصلاح اداري من ضمن النظام الديمقراطي، وان التخلف الاداري يعود، في رأيه، الى « ما ورثناه عن العثمانيين والفرنسيين ». وهو يرى ان النظام الانكلوساكسوني اكثر ملاءمة لواقع الحال، وهذا الاخير يستمد شهرته من لامركزيته، على عكس الفرنسي الذي املته مركزية مدينة باريس وانحصار معظم النشاط فيها.

ومن ضمن الاصلاح والتفريع اللامركزي، اختصار عدد الموظفين والتغلب على الروتين الاداري، وتحقيق وفر مالي على الخزينة يسهم في تحسين الاوضاع المعيشية للموظفين، مؤديا بالتالي الى الحد من الفساد الذي يسببه العوز. أما القانون الانتخابي النموذجي في عرفه فهو ذاك الذي يقوم على البطاقة الواحدة، بحيث يقترع اللبناني للائحة واحدة تضم ممثلين من اقصى

الشمال الى اقصى الجنوب. وهذا ما يجعل الصراع دائرا بين «يمين ويسار ووسط» ويلجم الحدة الطائفية. اما في الدائرة الانتخابية نفسها، فالمطلوب في المرشح عنها، لكي يدخل البرلمان، ان ينال نسبة مئوية مرتفعة في دائرته.

وأوغست باخوس لا يمانع في الحد من صلاحيات رئيس الجمهورية. فالرئيس اليوم يأخذ كل المخاطر بصدره. ثم ان الرئيس هو من ينبغي ان يكون حكما وقائد اوركسترا لا عازف سولو. وهذا الصنف من الرؤساء لم يظهر حتى اليوم. وهويؤكد ولاءه للعدالة والرضوخ لاصغر قاض: «هناك محكمة. هناك مراجع. اكره كل حكم فردي». وهو يعتقد ان الداعين الى الغاء الطائفية السياسية غيرمقتنعين بجدوى هذا الالغاء. فهو لا يحصل، في رأيه، الا عندما يعتمد قانون موحد للاحوال الشخصية ويكتمل الاصلاح الاداري.

وباخوس الذي طالب البابا يوحنا بولس بالتدخل لتخليص لبنان، يمضي في مطالبته، برغم تسجيل المرارة من ردة فعل البعض الذين «اساؤا الظن واساؤا الفهم وقولوني ما لم اقل بحق قداسة البابا».

معرفة اوغست باخوس بالعالم العربي لا يعتد بها. فقد قام بزيارات عابرة لبضعة بلدان عربية، خاصة في الفترة الاخيرة بوصفه رئيسا للجنة الادارة والعدل النيابية. لكنه لم يعرف عن كثب ايا من هذه البلدان. وهو الى ذلك معجب بالرئيس عبد الناصر، ومفرط في اعجابه بالرئيس حافظ الاسد. وحديثه العربي الاثير عن الاسد. «فالاسد وطني». ويقول اوغست باخوس انه ابلغ كبار المسؤولين السوريين ان على لبنان ان ينسق معهم ضد اسرائيل. «فاسرائيل هي العدو المشترك. ونحن نلتقي مصلحيا مع سوريا. انتم مجالنا الحيوي اقتصاديا. سياسيا نحن لا نريد انتدابكم. لكن حينما نطمئن الى مصيرنا وحرياتنا وصحافتنا وحرية اقتصادنا وكأس عرقنا لا تعود تهمنا السياسة الخارجية، ونصير مستعدين للتعاون الى اقصى حد».

وتسأله عن اعادة تأهيل الجيش فيجيب: «ما طلبه السوريون في «الاتفاق الثلاثي» هو ان يذهب بعض الضباط اليهم كما يذهب اخرون الى اميركا وفرنسا والاردن». وتسأله عن تفسيره للتردي في علاقات الحكمين فيجيب: «اختلت الثقة بسبب عدم المصارحة. المتطرفون ضغطوا على الرئيس سركيس في البداية. والمتطرفون في بيروت الغربية ضغطوا كذلك. سوء فهم مستمر وسوء ثقة مستمر ايضا حتى هذه الايام».

تسأله عن احتمالات التسوية في لبنان والمنطقة فيجيب: «التسوية تحصل اذا كانت الولايات المتحدة صادقة في مساعيها واعتقدها صادقة. هناك خوفها من الارهاب والتطرف

ورغبتها في تحقيق مكسب لمعركة جورج بوش الانتخابية». يستشهد كثيرا باللقاءات البرلمانية الاخيرة مع الرئيس حسين الحسيني: «السيد حسين قال.. السيد حسين طمأننا.» والسيد حسين رئيس بلدية ايضا.

واوغست باخوس صريح، والى حد بعيد شجاع، ضمن المتاح. لكنه مهذب وخجول. يفضل ان يوجه كلامه الى الرجال لا الى النساء، حتى حين يصدر السؤال عن امرأة. وهو يخاف الصحافة ويبادر الصحافيين سائلا: كم ستأخذون من الوقت؟ ويضيف بارتباك باد «ارجوكم ان تفهموا وضعي. من الصعب ان يتحدث المرء عن نفسه. كل المعلومات في الارشيف وفي مقابلات سابقة».

طويل، ذو جسم رياضي فتي برغم سنه. ثيابه محافظة داكنة اللون. شعره ابيض وقليل، مصفف بمايتحايل على هذه القلة، وبياضه نظيف على شيء من اللمعان، ينعكس على وجه احمر وعينين خضراوين فيبدو الوجه مزركشا.

يتكلم بهدوء وهو يشرح موقفه، لكنه يستعين بحركات يديه لتوكيد رأيه الذي يحمله صوت كالزجاج المجرح، لا تستسيغه الاذن. وباخوس الذي يدخن سيجارة سيدرز بين حكمة واخرى هو انشائي حتى البديهية حين يتحدث في بعض المسائل الوطنية العامة. لكن التفاصيل تتخلل كلامه ذا الطابع التشريعي، الا انه يفرط في استعمال كلمة «فلسفة» على الطالع والنازل.

وعلى العموم، يبدو ابا طيبا يشوب طيبته شيء من ذكاء فلاحي، لا ينفك يردد حكم اهل القرية. ومع انه يقول ان نصف ما جناه من المحاماة ذهب على السياسة، فان منتقديه يغمزون من قناته: حذار الذهاب معه بعيدا في هذه العفوية الظاهرة. انه يملك بناية في مار يوسف ـ الدورة، واخرى في البوشرية، واراضي كثيرة ويشارك اخاه ملكية عرق «الماريشال». ويضيف هؤلاء من هنا اهتمامه بالتشريع في مجال قوانين الايجارات والاستملاك والاستصلاحات الزراعية. والله اعلم، علما بان اوغست اعطانا الانطباع بنزاهة تبلغ حد التعفف.

هل يقرأ اوغست باخوس؟

يجيبك بعمومية بالغة وحكمية متحدثا عن الكتاب الذي هو «خير جليس». يقول انه يقرأ التاريخ وعلم النفس ولا يسمي الا غاندي فهو «متعشق» لمبادئه، لان العنف لا يجابه بالعنف.

علم النفس؟ اذن فرويد؟ جواب عام جدا.

الادب؟ درسته في المدرسة. وواكب سيرة الادباء والشعراء. تأثرت بالاخطل الصغير ابن

الشمال الى اقصى الجنوب. وهذا ما يجعل الصراع دائرا بين « يمين ويسار ووسط» ويلجم الحدة الطائفية. اما في الدائرة الانتخابية نفسها، فالمطلوب في المرشح عنها ، لكي يدخل البرلمان، ان ينال نسبة مئوية مرتفعة في دائرته.

وأوغست باخوس لا يمانع في الحد من صلاحيات رئيس الجمهورية. فالرئيس اليوم يأخذ كل المخاطر بصدره. ثم ان الرئيس هو من ينبغي ان يكون حكما وقائد اوركسترا لا عازف سولو. وهذا الصنف من الرؤساء لم يظهر حتى اليوم. وهو يؤكد ولاءه للعدالة والرضوخ لاصغر قاض: « هناك محكمة. هناك مراجع. اكره كل حكم فردي». وهو يعتقد ان الداعين الى الغاء الطائفية السياسية غيرمقتنعين بجدوى هذا الالغاء. فهو لا يحصل، في رأيه ، الا عندما يعتمد قانون موحد للاحوال الشخصية ويكتمل الاصلاح الاداري.

وباخوس الذي طالب البابا يوحنا بولس بالتدخل لتخليص لبنان، يمضي في مطالبته، برغم تسجيل المرارة من ردة فعل البعض الذين « اساؤا الظن واساؤا الفهم وقولوني ما لم اقل بحق قداسة البابا».

معرفة اوغست باخوس بالعالم العربي لا يعتد بها . فقد قام بزيارات عابرة لبضعة بلدان عربية، خاصة في الفترة الاخيرة بوصفه رئيسا للجنة الادارة والعدل النيابية. لكنه لم يعرف عن كثب ايا من هذه البلدان. وهو الى ذلك معجب بالرئيس عبد الناصر، ومفرط في اعجابه بالرئيس حافظ الاسد. وحديثه العربي الاثير عن الاسد. « فالاسد وطني». ويقول اوغست باخوس انه ابلغ كبار المسؤولين السوريين ان على لبنان ان ينسق معهم ضد اسرائيل. « فاسرائيل هي العدو المشترك. ونحن نلتقي مصلحيا مع سوريا. انتم مجالنا الحيوي اقتصاديا. سياسيا نحن لا نريد انتدابكم. لكن حينما نطمئن الى مصيرنا وحرياتنا وصحافتنا وحرية اقتصادنا وكأس عرقنا لا تعود تهمنا السياسة الخارجية، ونصير مستعدين للتعاون الى اقصى حد».

وتسأله عن اعادة تأهيل الجيش فيجيب: « ما طلبه السوريون في « الاتفاق الثلاثي» هو ان يذهب بعض الضباط اليهم كما يذهب اخرون الى اميركا وفرنسا والاردن». وتسأله عن تفسيره للتردي في علاقات الحكمين فيجيب: « اختلت الثقة بسبب عدم المصارحة. المتطرفون ضغطوا على الرئيس سركيس في البداية. والمتطرفون في بيروت الغربية ضغطوا كذلك. سوء فهم مستمر وسوء ثقة مستمر ايضا حتى هذه الايام».

تسأله عن احتمالات التسوية في لبنان والمنطقة فيجيب: « التسوية تحصل اذا كانت الولايات المتحدة صادقة في مساعيها واعتقدها صادقة. هناك خوفها من الارهاب والتطرف

ورغبتها في تحقيق مكسب لمعركة جورج بوش الانتخابية». يستشهد كثيرا باللقاءات البرلمانية الاخيرة مع الرئيس حسين الحسيني: « السيد حسين قال.. السيد حسين طمأننا.» والسيد حسين رئيس بلدية ايضا.

واوغست باخوس صريح، والى حد بعيد شجاع، ضمن المتاح. لكنه مهذب وخجول. يفضل ان يوجه كلامه الى الرجال لا الى النساء، حتى حين يصدر السؤال عن امرأة. وهو يخاف الصحافة ويبادر الصحافيين سائلا: كم ستأخذون من الوقت؟ ويضيف بارتباك باد « ارجوكم ان تفهموا وضعي. من الصعب ان يتحدث المرء عن نفسه. كل المعلومات في الارشيف وفي مقابلات سابقة».

طويل، ذو جسم رياضي فتي برغم سنه. ثيابه محافظة داكنة اللون. شعره ابيض وقليل، مصفف بمايتحايل على هذه القلة، وبياضه نظيف على شيء من اللمعان، ينعكس على وجه احمر وعينين خضراوين فيبدو الوجه مزركشا.

يتكلم بهدوء وهو يشرح موقفه ، لكنه يستعين بحركات يديه لتوكيد رأيه الذي يحمله صوت كالزجاج المجرح، لا تستسيغه الاذن. وباخوس الذي يدخن سيجارة سيدرز بين حكمة واخرى هو انشائي حتى البديهية حين يتحدث في بعض المسائل الوطنية العامة. لكن التفاصيل تتخلل كلامه ذا الطابع التشريعي ، الا انه يفرط في استعمال كلمة « فلسفة» على الطالع والنازل.

وعلى العموم، يبدو ابا طيبا يشوب طيبته شيء من ذكاء فلاحي، لا ينفك يردد حكم اهل القرية. ومع انه يقول ان نصف ما جناه من المحاماة ذهب على السياسة، فان منتقديه يغمزون من قناته: حذار الذهاب معه بعيدا في هذه العفوية الظاهرة. انه يملك بناية في مار يوسف ـ الدورة، واخرى في البوشرية، واراضي كثيرة ويشارك اخاه ملكية عرق « الماريشال».ويضيف هؤلاء من هنا اهتمامه بالتشريع في مجال قوانين الايجارات والاستملاك والاستصلاحات الزراعية. والله اعلم، علما بان اوغست اعطانا الانطباع بنزاهة تبلغ حد التعفف.

هل يقرأ اوغست باخوس؟

يجيبك بعمومية بالغة وحكمية متحدثا عن الكتاب الذي هو « خير جليس». يقول انه يقرأ التاريخ وعلم النفس ولا يسمي الا غاندي فهو « متعشق» لمبادئه، لان العنف لا يجابه بالعنف.
علم النفس؟ اذن فرويد؟ جواب عام جدا.

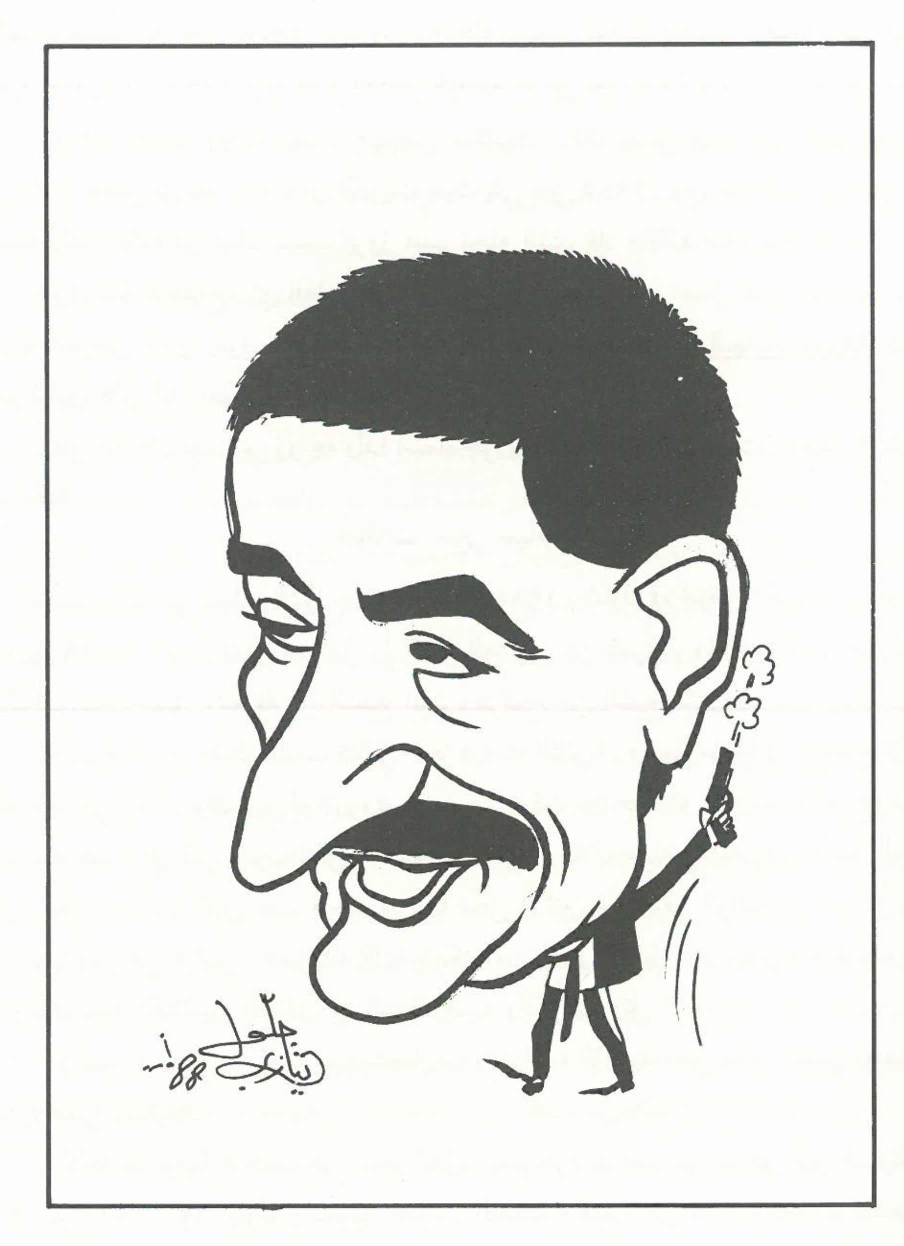
الادب؟ درسته في المدرسة. وواكب سيرة الادباء والشعراء. تأثرت بالاخطل الصغير ابن

ضيعتي. وانا رفيق ابنه عبدالله كنا طلابا في الحكمة. واجواء الحكمة ادبية. الموسيقى؟ الفنون التشكيلية؟ لا اهتمام لاوغست باخوس فيها؛ « للاسف» كما يقول. يتدخل الوعظ الابوي عن اهمية « هذه الامور» التي « للاسف » لا مكان لها عنده

يكرر اوغست باخوس بالحاح: انا لم اقل عن نفسي انني مرشح للرئاسة. ارجوكم فالرئيس فدائي هذه الايام. الرئيس سركيس قتلته الرئاسة. الرئيس الجميل في حال لا يحسد عليها. ارجوكم..

نتحدث، اذن، عن البلديات؟

اكيد. افضل. دكور.



ايلي حبيقة

ولد ايلي حبيقة في ايلول ١٩٥٦ في بسكنتا بقضاء المتن الشمالي، وهي احدى القرى العصية تقليديا على حزب الكتائب ونفوذه. والعائلة، بحسب ما نقلت احدى المجلات عن ايلي، تعود ارومتها الى ١٨٦٠ والى اصل الشمر الواقعة ما بين حدث الجبة وتنورين في الشمال.

والده بحسب روايته ايضا، مهندس ميكانيك، كان يعمل في «شركة نفط العراق» (I.P.C.) فانتقل الى بغداد ومنها الى الكويت حيث بقي حتى ١٩٨٥. وفي هذه السنة الاخيرة ترك عمله وقفل عائدا الى لبنان بسبب بروز اسم نجله الذي قاد «الانتفاضة» عامذاك.

وفي سنة الاجتياح، اي العام ١٩٨٢، تزوج ايلي وامضى شهر عسل تدور حوله روايتان، رواية العريس الذي يقول انه امضاه ما بين المغرب واسبانيا وجزر البهاما، ورواية كتاب اسرائيليين قالوا انه امضاه في «بلادهم».

على اية حال فقد اثمر زواجه ولدا اسماه جوزيف، عمره خمس سنوات، وطفلة لم تكتب لها الحياة.

محطات سير سياسية

بحسب رواية ايلي لمجلة «الشراع» في ٢١/١٠/١٩٨٥، شارك في خوض الحرب... «وكان عمري ١٩ سنة. ارسلت الى اسرائيل ولم اكمل العشرين من عمري، والذي ارسلني هو رئيس الكتائب بيار الجميل وبمعرفة من الشيخ امين وبترشيح من الشيخ بشير».

انخرط ايلي في القتال كشاب كتائبي انجز دراسته الثانوية، وعمل موظفا في فرع تابع لاحد المصارف في الدورة، وقد سبق له ان روى في معرض توكيد نجاحه، انه صار مديرا للفرع وعمره ١٨ سنة فقط! اي قبل نشوب الحرب بأشهر معدودة. وخلال عمله في المصرف تعرّف بالياس المر، نجل ميشال، الذي بات لاحقا «يرعانا نحن الاثنين من موقع الوالد».

هذا بينا ينقل عن الرئيس الجميل انه قال مرة بكثير من التعالي ان ايلي كان «يعبّي» له السندويش ايام كان يقود الكتائبيين المقاتلين في النبعة وضبيّه والكرنتينا وتل الزعتر.

لم يلمع اسم ايلي الذي تسلم استخبارات «القوات» الا بعيد مقتل بشير الجميل وحصول مجزرة صبرا وشاتيلا.

الاحداث يومها تلاحقت على النحو التالي: ياسر عرفات غادر بيروت على ظهر السفينة في ٣٠ آب ١٩٨٢. ١٣ ايلول انسحبت القوات المتعددة الجنسية من بيروت بعد ان «انجزت مهمتها». ١٤ ايلول اغتيل بشير الجميل. ١٥ ايلول دخل الجيش الاسرائيلي الى بيروت ١٦ و١٧ أيلول مجزرة في المخيمين الفلسطينيين حيث اكتشفت لاحقا مقابر جماعية. المجزرة حصلت برغم وجود الجيش الاسرائيلي على مداخل المخيمين. الضحايا فلسطينيون ولبنانيون ومن جنسيات أخرى (ايرانيون وباكستانيون). أطفال ونساء وعجزة، فضلا عن الرجال. العدد بحسب المصادر

الفلسطينية ١٥٠٠. وبحسب الصليب الأحمر والمصادر اللبنانية ٣٢٨ قتيلا و٩١١ مفقودا. وبحسب الاسرائيليين ٤٧٠ قتيلا.

افل نجم حبيقة ليعود الى الظهور في ١٢ آذار ١٩٨٥ مشاركا في «الانتفاضة» الأولى ضد فؤاد ابي ناضر الذي اعتبره واجهة لخاله الشيخ امين الجميل في قيادة «القوات اللبنانية». لكنه ما لبث في ٩ ايار من العام نفسه ان انتفض على شريكه في الانتفاضة الأولى، سمير جعجع، واصبح رئيس «الهيئة التنفيذية للقوات» فيا سمي جعجع رئيسا لاركانها.

ولهذه الانتفاضة قصة تطول، على كشفها بعض جوانب الشخصية الاستخبارية لـ «اش. كا»، الاسم الذي عرف به ايلي حبيقة في «القوات».

فحين حصلت الانتفاضة الأولى، تعهد الرئيس الجميل للقيادة السورية باستيعابها، وما لبث ان اعاد وصل خطوطه المقطوعة مع سمير جعجع وكريم بقرادوني، حتى اذا ما حلت اوائل ايار نجح في انتزاع وثيقة موقعة منهما تخوله حق مخاطبة السوريين والتفاوض معهم. وتمضي الرواية ان ثمة من اتصل من قصر بعبدا بدمشق ليخبرها بحصيلة ما انجزه الجميل. لكن ايلي حصل على صورة طبق الاصل عن الوثيقة وعلى تسجيل للمكالمة الهاتفية، فحين التقت قيادة «القوات» سأل ايلي رفيقيه عن آخر ما وصلت اليه المداولات مع الجميل فقالا انها لم تصل الى نتيجة. عندها اخرج وثيقة التفويض من جيبه وطلب آلة التسجيل للاستماع الى الشريط، مصدرا قراره الحاسم: سأكون رئيسا للهيئة التنفيذية.

لكن إبّان «حكمه» المناطق الشرقية راح ايلي ينفصل عن «روح» المارونية التي ترك لسمير جعجع التعبير عنها. فبالتدريج بدأ حبيقة يوطد صلاته بالدوائر السياسية والمالية خارج اطار الكتائب و«القوات».

سياسيا، كان وراء انشاء «التجمع المسيحي للبنان الواحد» الذي ضم ميشال المر وخليل ابو حمد وبيار حلو وبطرس وسليم الخوري وغيرهم. وكان غرضه من هذا التجمع ايجاد الهيئة السياسية البديلة من حزب الكتائب، تحاور بالنيابة عنه ويختبىء هو وراءها.

وعلى صعيد المال والأعمال زاد حبيقة من دور «القوات» وتأثيرها على منافذ ومواقع التأثير في المناطق الشرقية، ساعده ميشال المر في هذا التمدد.

أهم من ذلك انه في مواجهة الكتلة البشراوية ـ الشمالية المفعمة بالاحساس الماروني النضالي، كما في مواجهة حزب الكتائب الذي تتربع في قيادته الفعلية زعامة آل الجميل، شرعت تتكاثر اسماء الأرثوذكس والكاثوليك والأرمن بين القياديين المقربين الى حبيقة (بول عريس، أسعد شفتري، نزار نجاريان) تكاثرها بين مستشاريه الكبار (الميشالان، المر وسماحة) حتى شاع التشكيك بمارونية حبيقة نفسه.

بيد ان الاهم كان في مكان آخر. فالمقاتلون، ذراع المارونية الضارب، ترك امرهم لرئيس اركان القوات سمير جعجع بما ساهم في اكسابه صورة القائد الجدي الدؤوب، فيما تلونت مساهمة ايلي السياسية بقدر كبير من الاستخباراتية التي ورثها عن تجربته. فهو الذي عرف بالتنصت على تليفونات الناس بما فيها تليفونات القيادة الكتائبية نفسها منذ كان بشير يبني قيادة موازية تحتكر مصادر التأثير وتعابيره.

هناك اذن «قدّيس» يبني الجيش بدأب واصرار، يقابله «شرير» صغير يتعاطى السياسة التي يخاف الشعب «سحرها»، مهتما بمواقع التأثير السياسي والاجتماعي والمالي ومحصيا على الناس انفاسهم.

وهذه الصورة التي لم تعدم بيئتها الواسعة في المناطق الشرقية، وجدت ما يؤكدها في خطط توسيع «القوات» كما اتبعها حبيقة. فما بين تعزيز لجهاز استخباراتها واستيعاب لافراد من الشبيبة العاطلة عن العمل، تضخمت «القوات» في صورة مرضية وظهر افرادها كأولئك الفرسان الايطاليين المحبطين مع فجر عصر النهضة الاوروبي.

يومذاك افضت بدايات تفسخ النظام الاقطاعي الى نزول كبار الفرسان ومعهم مقاتلوهم «الكوندوتيير» الى السوق، باحثين عمن يشتريهم ويخوض بهم معاركه المتقطعة والموسمية.

وكان لتحويل المقاتل الى سلعة في السوق ان انعش منافسه جعجع في محاولته تقديم نفسه مقاتلا محضاً لم يتلوث بالسلع والخدمات.

نحو دمشق

ايلي حبيقة المكتوي الان بنار التجربتين، تجربة «الداخل» وتجربة «الخارج»، له رؤية جديدة ومختلفة تماما للواقع السياسي اللبناني. انه اكثر واقعية، اكثر فهما لطبيعة النظام واستعصائه على الاصلاح. وهو بالمقابل اكثر اصرارا على ضرورة التغيير، ولو بالقوة. بل انه لا يرى طريقا للاصلاح الا بكسر «الحلقة الجهنمية» التي يحاصر فيها هذا النظام اللبنانيين.

وايلي حبيقة يلعن اليوم والساعة التي تم فيها توقيع «الاتفاق الثلاثي»، فهو يعتبر ذلك الاتفاق، محاولة لحل المعضلة من قلب النظام الطائفي، بينما الحل المطلوب لا بد ان يجيء من خارجه، «انه حل طائفي، هو الاخر، ولست مستعدا اليوم، وبعد كل ما عرفت، ان اكرر مثل تلك التجربة المرة... فعندما تقاتل الطائفيين بسلاح طائفي فانك لا تفعل غير توفير الفرصة لهم لتحقيق انتصار جديد عليك كمواطن».

كيف تكسر الحلقة الجهنمية ومن يكسرها؟!.

لا بد ان يتولى «الماروني» هذه المهمة، بالدرجة الأولى. لا بد ان تجيء المبادرة من اوساط

اولئك الذين اخرجوا من مواطنيتهم بالامتيازات، واخرجوا بها الاخرين من مواطنيتهم، فانعدم الصراع السياسي وصار اقتتالا طائفيا، ومثل هذا الاقتتال يجذر الطائفية ويمكن لها في الارض.

ولان الصراع السياسي مشلول فان الافق سيظل مغلقا ولن يستطيع الناس استشراف المستقبل المرجو.

وفي عرف ايلي حبيقة فان حزب الكتائب قد سقط وانتهى، بالمعنى التاريخي، ولكنه انجز مهمة سوداء هي انه فرض منطقه ولغته ونقل عدواه الطائفية حتى الى الاحزاب العلمانية. لذا فلا بدّ من مؤسسة او مؤسسات سياسية جديدة قادرة على القيام بالمهمة التاريخية التي تنتظر من ينجزها.

- من اي هذه الرؤيا، يا رجل المخابرات والميليشيا ومهمات التفجير؟.

يشهد ايلي حبيقة بفضل ثلاثة من الرجال عليه، ويعتبر انهم اناروا امامه الطريق ورشدوه وهم: الوزير الاسبق فؤاد بطرس، ومدير المخابرات في الجيش سابقا والسفير حاليا جوني عبده، وجان عبيد.

وهو يستذكر اسماءهم ونصائحهم في اي نقاش جدي، ويستذكر معهم رفيق الحريري متى وصل الحديث الى التحول النوعيّ الذي نقل ايلي حبيقة من خانة «العميل الموصوف» لدولة اسرائيل الى خانة دمشق.

ففي بيت رفيق الحريري في باريس، وتحت رعايته، تمت كتابة رسائل التوبة التي حملت، من ثم ايلي حبيقة الى دمشق، على اجنحة من «الوعي الجديد» المستمد من نصائح ثلاثة رجال بينهم واحد لم يعرف بعمق الود مع سوريا (فؤاد بطرس) وثان لم يكن بينه وبين المسؤولين السوريين «حيط عمار»، جوني عبده، وثالث استطاع المزاوجة بنجاح بين لون من العروبة ولون من اللبنانية، جان عبيد.

وكان ضروريا وجود رجل مثل رفيق الحريري لكي يصبح بالامكان فتح الطريق امام.... الاتفاق الثلاثي.

بالتدريج راح ايلي يتبع سياسة اخرى على النطاق الوطني، اعتدال، انفتاح على المسلمين، تقرب من سوريا، بادئا البحث عن غطاء مسيحي لسياسة انفتاحه الجديد، وكان ابرز الخطى في هذه الوجهة زيارة قام بها في ٣١ تموز ١٩٨٥ الى الرئيس سليمان فرنجية في اهدن، انها اول زيارة من نوعها يقوم بها مسؤول قواتي بعد مصرع النائب توني فرنجية في ١٩٧٨.

الخطوة التالية كانت نحو دمشق التي زارها في ٩ ايلول من العام نفسه على رأس وفد ضم شارل غسطين واسعد شفتري وجان غانم وميشال سماحة، ليكرر زيارته اليها في ٢٢ تشرين الأول مجريا محادثات مطولة مع نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام. وفي نهاية الزيارة اعلن

عن النية لبدء حوار مع «حركة امل» و«الحزب التقدمي الاشتراكي» لانهاء الحرب اللبنانية.

وفعلا وقع حبيقة في ٢٨ كانون الأول على «الاتفاق الثلاثي» في دمشق الى جانب الوزيرين وليد جنبلاط ونبيه بري، في حضور العديد من الشخصيات السياسية والحزبية ذات الانتماء الطائفي المتعدد، وفي اشراف خدام ورعايته.

منذ تلك اللحظة اتخذت نزاعات المنطقة الشرقية بعدا اكثر حدة، خصوصا وان الرئيس امين الجميل ورئيس اركان «القوات» سمير جعجع عارضا الاتفاق المذكور معارضة الرئيس كميل شمعون له. ولم تكد تمضي ثلاثة ايام على التوقيع حتى جرت محاولة لاغتيال اسعد شفتري رئيس «جهاز الامن القومي» (الاستخبارات) في «القوات»، لحظة كانت تقله سيارة حبيقة. عندها صدر بيان عن «القوات» اتهم جهاز امن رئيس الجمهورية بالمحاولة، وسمى عيد نصر رئيس الجهاز شخصيا.

قبل ذلك وعشية توقيع الاتفاق، داهم حبيقة جريدة «العمل» الكتائبية واضعا رئيس تحريرها جوزيف ابو خليل في الاقامة الجبرية وعاهدا باصدارها الى سجعان قزي. وقد انفجرت الخلافات مجتمعة في صدامات مسلحة بين انصار حبيقة (من دون انصار جعجع) والمسلحين الكتائبيين الموالين للرئيس الجميل.

لكن ١٥ كانون الثاني ١٩٨٦ كان يوما حاسما في حياة ايلي. فسمير جعجع نفذ انقلابه الدموي بدعم من المقاتلين الكتائبيين، وكانت الحصيلة بحسب احد التقديرات ٤٣٠ قتيلا و٦٠٠جريح. وبعد محاصرة حبيقة في مبنى «جهاز الامن القومي» في الكرنتينا، جرت مفاوضات بين الطرفين المتصارعين رعاها قائد الجيش العماد ميشال عون، وبنتيجتها انتقل حبيقة الى وزارة الدفاع، وفي اليوم التالي نقلته طائرتان مروحيتان الى قبرص مع عدد من معاونيه، ومن هناك انتقل الى باريس.

في ٢٢ كانون الثاني عاد حبيقة الى دمشق برفقة ميشال المر وميشال سماحة، وبعد اربعة ايام زار مدينة زحلة واجتمع الى اساقفتها، ثم عقد اجتماعا في مركز اقليم زحلة الكتائبي طالبا التأييد السياسي لخطه الداعم لـ «الاتفاق الثلاثي».

وفي ٢٧ ايلول قام بعملية اختراق للمنطقة الشرقية عبر السوديكو، فكانت اول عملية من نوعها منذ ١٩٧٥، الا ان الجيش اللبناني تولى صد الاختراق الذي عجزت عنه قوات جعجع، وادت العملية الى سقوط عدد كبير من القتلى والجرحى والاسرى، اعقبتها تصفيات دموية نفذها جعجع بمؤيدين لحبيقة او مشتبه بتأييدهم له. ولم يتردد حبيقة بعد ثلاثة ايام على محاولة الاختراق في ان يعلن عبر مؤتمر صحافي في زحلة، نيته في تكرار الاقتحام «لاستئصال الخلايا الخبيثة في الجسم المسيحي»، داعيا الى تجديد التحالف مع الاطراف التي وقع واياها «الاتفاق الثلاثي».

بيد ان لعبة العنف المتبادل بينه وبين جعجع وصلت الى منعطفها الخطير مع منتصف ايلول من العام الفائت حيث نجا ايلي من محاولة اغتيال بواسطة عبوة ناسفة حصل انفجارها داخل مطرانية الروم الكاثوليك في زحلة. وفي وقت لاحق اعلنت دائرة الاعلام في قيادة حبيقة ان العملية التي اصيب بنتيجتها اكثر من عشرين شخصا بجروح (بينهم ايلي والمطران حداد) خطط لها جعجع ونفذها الكاهن سميح حداد الذي يعمل لحسابه.

ذكر وعبر

اليوم يتراءى ان ايلي حين ينظر الى ماضي السنوات القريبة وما آلت اليه الحال، تنتابه مرارة مزدوجة المصدر. فمسيحيو المناطق الشرقية عاملوه كما يعامل «الطارىء» أو «الغريب» واذا كان الجيش وسمير جعجع اداتي تمكين هذا الوضع ذي الباب الموصد في وجهه، فحيال امين الجميل تصير المرارة ممزوجة بجرعة حقد كبيرة على الزعيم ابن الزعيم الذي كان «يعبي» له السندويش.

فالمسألة مع الجيش مسألة قوة بحتة، وهي مع سمير شبيهة بلعبة تنافس بالغ الحدة بين شابين من جيل واحد وتجربتين متشابهتين نسبيا وموقعين اجتماعيين متقاربين. لكنها مع رئيس الجمهورية ذات ظلال وافياء اخرى. فـ «العائلة» مرة اخرى نجحت في ان تنتصر على واحد من محازبيها الذين خرجوا من العامة وارادوا ان يكونوا شيئا.

وتبعا لرواية ايلي عن دور آل الجميل في صبرا وشاتيلا، تلوح علاقة الطرفين علاقة استخدام بشع يتلوه تسريح بلا ضمانات. اذ حين حاول المستخدم ان يطالب بمقابل عمله ابعد ورذل واخرج عن جسد الجماعة.

وهكذا يطل شبح الجميل على ايلي حبيقة طلة قدر قاهر لا رد له ولا تعديل فيه: السادة سادة لا يتزحزحون عن مواقعهم ولا تتلوث صورتهم مهما فعلوا، والعامة عامة سدت في وجوههم سبل التحول الى سادة بين اهلهم وفي مناطقهم، فاذا عاندوا في طلب ذلك كان عليهم ان يسعوا اليه في المنافي.

اما المصدر الاخر للمرارة فهو الشق الاسلامي ـ السوري الذي انتقل اليه حبيقة. فالدعم الذي يتوخاه من دمشق لتحقيق عملية اختراق لا تنفك تراوده هو بالتعريف اقل من الدعم الذي يمكن ان يتلقاه. ذلك ان فكرة الاقتحام تدرسها الدولة، مطلق دولة، بروية وحسابات تحول دون تورط مباشر يتطلبه حليفها المقتحم ذو الحسابات التي لا تتعدى الانتقام كثيرا.

بيد ان المرارة الناجمة عن احزاب «الشارع» الاسلامي ادهى. فالشاب الكتائبي البسيط الذي راح يردد انتقادات شائعة لحزبه الذي يخلو من «عقيدة»، اكتشف في الاحزاب التي اقام بين ظهرانيها ان الحزبي لا يحيا بالعقيدة وحدها، وان وجود الاخيرة لا يعصم عن قدر من التفكك

والتناحر والفوضى، وفي آخر المطاف الاستغراق في الشؤون الصغيرة حتى العجز التام.

وايلي الذي يحمل معه من المناطق الشرقية تنظيمه وانضباطه تراوده من دون شك مشاعر متضاربة لا يفصح عنها. فالانتقام من مسيحيي «الشرقية» مشوب بالندم، والتحالف مع مسلمي «الغربية» مسكون بالتعالي. والمخرج في مثل هذه الحال التمنيات والرغبات: لو يتاح لي ان اعود الى الشرقية على جثة جعجع، ونعود نستأنف اللعب من موقع قوة ومن صفر جديد.

على ان ايلي لم يعدم التفسيرات لسياسة التحول نحو الخيار السوري. يقول لمجلة الشراع في ٣/٢/١٩٨٦، والله اعلم:

«فكرت بالمباحثات منذ عام ٨٣. وفي عهد بشير الجميل كنت من الفريق المطالب بفتح خط على سوريا، وذلك لقناعتي بأنه ليس من مجال لبقاء لبنان وهو في عداء مع سوريا، اذ يجب ان تكون هناك علاقة مميزة بينهما. وقد حاول بشير ان ينتهج هذا الخط لكن الزمر التي كانت تحيط به كانت دائما تحول بينه وبين تحقيق هذا العمل».

ويمضي ايلي في عرض حججه:

«الحرب هذه لم يعد لها اهداف. صارت غير منطقية. صارت غير واقعية. على كل حرب ان تغير الواقع وتنطلق الى واقع جديد، بينما حربنا صارت للقتل فقط، لا يمكن الاستمرار فيها. الاستمرار انتحار للبلد...».

لكنه قبل ذلك وفي المقابلة التي اجرتها معه «السفير» في ٢٤/١٠/١٩٨٥ عرض بشيء من التفصيل لحججه وذرائعه. وقال ايلي لابسا ثوب الضحية او مستعيرا لغتها:

«انا شاب قدر لي غيري ان انخرط في الحرب صغيرا وان اقاتل، فكنت ما صنعته بي الحرب، ثم لما صار قراري بيدي اخترت ان احاول صنع السلام، وهذا ما يفسر ان نلتقي هنا في دمشق.

- ولكنك توغلت بعيدا في الحرب.
- وكذلك فعل غيري.
- غيرك لم يصل الى اسرائيل.
- ليس المهم انني ذهبت الى اسرائيل. المهم اني عدت منها».

ويضيف الزميل الذي قابله: «في ما بعد ادلى واحد ممن يعرفون ايلي حبيقة بشهادة تبرئة من مجازر صبرا وشاتيلا. قال: ان حبيقة بريء تماما لسبب بحت عملي، وهو انه خلال الساعات التي تمت فيها المجزرة كان مشغولا كل الانشغال في التحقيق في حادث اغتيال زعيمه بشير الجميل»، ولا يلبث هذا المقرب من حبيقة ان يحمل الشيخ بيار الجميل مسؤولية اصدار الامر بارتكاب ما ارتكب.

إلا أن ابلغ حججه واسهلها الاحتكام الى شعبوية صراع الاجيال وتعليق الاثام كلها على مشجبه. يقول ايلي في معرض تفسيره للانتقال الى الخيار السوري:

«جئنا بانفتاح حقيقي وبرغبة اكيدة في ان ننهي هذه الحرب التي صنعها وارادها جيل آخر له مفاهيم تتناقض مع تطلعاتنا ومفاهيمنا (...) آن الاوان لان ينتهي هذا كله. آن الاوان لان يرتاح هؤلاء الذين لم يعرفوا كيف يبنون وطنا ودولة. وهؤلاء الذين توزعوا البلاد وخيراتها اقطاعيات».

ملامح وسمات

شكل ايلي حبيقة وديع وقريب، وان اختلفت الاراء بشأن وسامته الذكورية الحادة. لكن المؤكد ان عينيه الناعستين كانتا، في ظل قصة شعر مختلفة، لتتركا انطباعا اكثر رسوخا في النفس. فقصة الشعر البالغة القصر والمعدومة السالفين هي الطاغية في وجه القائد السابق لـ«القوات اللبنانية» والقائد الحالي لـ«القوات اللبنانية» في زحلة والبقاع.

والشعر الاسود المقصوص على هذا النحو يحيل رأس صاحبه الى واحد من الرؤوس التي تزدان بها صالونات الحلاقين صورا على الواجهات. اما الشعر نفسه فيلوح طاسة لصيقة بالرأس لصوق الخاتم بالاصبع.

وبحسب من عرفوه او كتبوا عنه، يتراءى ايلي حبيقة شخصا لطيف المعشر، خفيف الدم، دمثاً قريباً الى القلب، معتداً بالنفس من دون افراط مزعج، وناجحا في انتزاع التسليم بقيادته من رفاقه ومحازبيه، وعندما يجد نفسه في وضع حرج يستعين بنكتة يهرب اليها.

ويقال عن ايلي ايضا انه مسكون بهاجس الموت، وكثيرا ما يردد عبارات من نوع «اذا عشنا» او «اذا بقينا»، لكنه يعرف بالضبط ما يريده وما لا يريده، من دون ان يؤخذ بالاوهام او ان يستنكف عن تعلم خبرة جديدة في السياسة او في غيرها. فهو دائما مستمع جيد.

وايلي يكره الصحافة كرها لا يخفيه ولا يخجله، وربما كان نشر المعلومات، وهو مهمة الصحافي، كافيا لاثارة حقد محتكر المعلومات، وهي مهمة رجل الاستخبارات. وربما كمن في هذا الكره سلوك ايلي نحونا:

الموعد المتفق عليه كان في الساعة الثانية عشرة من اليوم الفلاني في مدينة زحلة. قصدنا مكتب «القوات» فأخذنا شاب قص شعره والغى سالفيه الى ثكنة ذات مبنى حديث في منطقة مرتفعة غير مأهولة ومحاطة بالمسلحين من جميع جوانبها. هناك استقبلنا شاب لطيف هو الاخر مقصوص الشعر وملغى السالفين، وقال لنا ان «الرئيس» ينتظرنا في دمشق. قلنا له اننا مرتبطون بموعد في بيروت في ساعة معينة من دون ان نكتم الاستياء مما فعله الرئيس. عندها احتار في امره واتصل بالواسطة بالرئيس وحاول ان يقنعنا فقلنا له ان ما فعله «الرئيس» قليل الكياسة لانه كان

يجدر ان نتفق مع «الرئيس» على تعديل الموعد قبل الصعود الى زحلة. وكتبنا بهذا المعنى ورقة «للرئيس» قلنا فيها انه وضعنا امام امر واقع وقفلنا عائدين.

وعداؤه للصحافة، وهو ما زادته الصحافة الاسرائيلية بنشرها ما امتلكته من معلومات عن صبرا وشاتيلا، لا يبزّه الا غربته عن الثقافة عموما. وايلي الذي يؤثر الحركة على التفكير كان منذ يفاعته تلميذاكسولاًالا في مادة... الرياضة. فأي حزب غير حزب الكتائب كان في وسعه ان يجمع في صف واحد متباهيا بعدم الثقافة كحبيقة ومتباهيا بثقافة معدومة كجعجع؟.

وايلي منذ ان بدأت المفاوضات التي افضت الى «الاتفاق الثلاثي» تحول الى مدخن يستهلك علبتين في اليوم الواحد، بعد ان كان يشاطر الرياضيين تباهيهم بعدم التدخين. وهو يزعم انه مؤمن، ويضيف في دردشة مع احدى الزميلات ان تحت ذراعه «توجد ذخيرة من خشب الصليب اؤمن بها وبأن الله سيحميني»، وتبعا للراوي نفسه، فانه توقع... «ان اموت لكنني نجوت من كل هذه الحروب بفضل الذخيرة».

ذخيرة، اذن، يا ايلي؟.

معنى المجزرة

اذا صحت الرواية الاسرائيلية، وهي الرواية التي ظلت مجمعا عليها، كما سبقت الاشارة، حتى توقيع «الاتفاق الثلاثي»، امكننا ان نقرأ الأحداث التي افضت الى الاتفاق المذكور في نحو يخالف السائد والمتفق عليه.

فهؤلاء الشبان الذين اتجهوا نحو صبرا وشاتيلا هم من ابناء قارعة المدينة وهوامشها. تبلورت نفوسهم على بشير الجميل الذي رأوا فيه المعنى والمثال الذي يعبد، فحين اغتيل بشير ودمر معناهم ومثالهم لجأوا الى الحل النموذجي في عرف شبيبة صغيرة السن مشوبة بالرثاثة الاجتماعية: انه الانتقام الجماعي الناهض على عدم تمييز كامل، والمفعم بكل الدلالات المنافية لأخلاق الحرب.

فالقتلة ليس فقط لم يميزوا بين رجل وامرأة وطفل وشيخ، بل انهم وفي حركة من نفاذ الصبر قرروا ان سكان المخيمين الفلسطينيين هم قتلة بشير، كأنهم بهذا يردون الصراع الى بداياته الأولى في ١٩٧٥ يوم طرحت في العرفين الفلسطيني والماروني مشكلات الوجود والاستمرار.

ولئن كان القتل بهذه الشمولية والجذرية تعبيرا عن مدى الألم الذي انزله مصرع بشير بمقاتليه، فمصرعه بعد انتخابه رئيسا اضفى على عملية القتل مزيدا من الشعورية والانفعالية اللتين تستحيل السيطرة عليهما. اذ بعد ان تراءى ان النصر اصبح في اليدين وازفت الراحة من عناء الحرب والقتال، انهار العالم بأكمله كأنما اشياؤه تتحرك دونما هدى من مسار او تراكم او منطق.

مجزرة صبرا وشاتيلا الساطعة نموذجية اذن في التعبير عن انهيار الأنصبة والمعاني في اعين الشبيبة المحبطة المنهارة. لكن ماذا بعد؟

فإبن الريف المتهور قد يقدم على عمل متهور كما فعل جعجع في اهدن، ثم يلتجىء الى هضابه ووهاده ويقرر الاستمرار في القتال حتى النفس الأخير. بيد ان ابن المدينة اشد منه الحاحا على العودة الى البيت والرجوع الى كنف الهدوء المشوب بقدر من الرفاه مهما كان طفيفا. ففرحته بوصول بشير الى الرئاسة لم تنفصل عن فرحته بالعودة قويا ومنتصرا الى البيت. والرد على قتل بشير لا ينفصل بدوره عن الرد على تأجيل هذه العودة واعاقتها.

لكن بما ان الثأر حصل وتم على أوسع نطاق، حتى ان الاسرائيليين سألوا حبيقة عدم التمثيل بالجثث، فالمطلوب مجددا العودة الى البيت، اذ لا يعقل قضاء سبع سنوات أخرى في قتال غامض النتائج. ثم اننا قمنا بواجبنا ونفذنا المجزرة الانتقامية بما يسبغ على عودتنا قدرا من البطولة والانتصار كنا سنعود بها بعد انتخاب بشير.

هنا بدأ التباين بالظهور بين ابناء الريف الذين لم ينفذ صبرهم، وابناء هوامش المدينة ممن شعروا انهم ادوا قسطهم للعلى، وبات في وسعهم ان يتقدموا خطوة خطوة نحو.. «الاتفاق الثلاثي».

وفيما راح الأولون يتحدثون عن بشير الجميل بوصفه قليل الراديكالية، بات الأخيرون يتعاملون معه كعبء ثقيل يكبح انتقالهم الجديد الى معسكر اخر.

وما فات ايلي وصحبه ان العودة الى البيت طالت كثيرا، فيما وجدت ميثولوجيا العودة البادئة في التاريخ العربي الحديث ١٩٤٨، ضيوفا جددا يضعون في اعناقهم مفاتيح بيوتهم في الأشرفية ويعدون النهارات والليالي في زحلة.

وزحلة ملائمة لهم وغير ملائمة في آن معا. فهي مدينة مسيحية محاطة بغالبية اسلامية ومحمية بوجود سوري حليف. لكنها ايضا مدينة كاثوليكية ولا تعوزها التحفظات على سياسات حبيقة الجديدة، وهو وافد اليها من خارجها على رأس مقاتلين تغلب عليهم الأرثوذكسية البيروتية. والى ذلك فالحياة في المنطقة الشرقية من بيروت اغنى من حياة زحلة التي تقل فيها المطاعم والخدمات قياسا بالأولى، كما تقل صالات الفليبرز والبينغو وسائر وسائل اللهو لشبان قارعة المدن.

اذن لا بد من «قضية» توطد الصلة بين زحلة والوافدين اليها مثيرين لحساسية ابنائها.

زحلة وجوارها

صحيح ان «القضية» تبقى العودة الى الأشرفية في آخر المطاف، لكنها عودة غير وشيكة حتى اشعار اخر. وفي هذه الغضون يصار الى احتجاز «فندق تشرين» في دمشق لـ «الشباب» كي

يرتاحوا كلما انتابهم ضيق او ضجر.

اما القضية الراهنة فعمادها الامتداد السياسي والاقتصادي انطلاقا من زحلة نحو المناطق الطرفية في الشمال والشرق. ولمثل هذا الامتداد اكثر من معنى وفائدة. فهو يمكن حبيقة من بقعة ارض لا بد من وجودها في اي تفاوض سياسي لاحق، وليس قليل الدلالة ان تكون زحلة، عاصمة المسيحية الطرفية واكبر تجمع مسيحي خارج الجبل، هي مركز هذه البقعة . فلئن شكلت المدينة البقاعية محطة وسطى بين مستوى النمو الرأسمالي في جبل لبنان ومستواه في الأطراف فهي مثلت أيضاً واحدا من الجسور الجغرافية، بين بيروت ودمشق، فيما عملت الباطنية السياسية لزعامتها الكاثوليكية (جوزيف سكاف) على تسهيل التمكن الظاهري لحبيقة في المدينة، من دون ان تفتر الحدة العصبية التي تمانع مثل هذا التمكن، بصمت او بانكفاء.

ولأن الوجود العسكري في زحلة لا يستقيم من دون هيئة سياسية ما، كان «التجمع الزحلي» الذي يضم عددا من الطامحين من ابناء المدينة، ابرزهم الكاثوليكي نقولا معكرون. ففي ١٩٧٢ سبق لمعكرون ان رشح نفسه عن مقعد طائفته في زحلة ونال ٣٠٠٤ اصوات (فيما فاز جوزيف السكاف بـ ٢٢٠٩١ صوتا).

ولئن اثار «الاتفاق الثلاثي» انتقادات تطال جدارة حبيقة في تمثيل المسيحيين اللبنانيين وخصوصا مسيحيي الجبل قفزا من فوق زعاماتهم التاريخية، فان العناصر التي تم الالماح الى بعضها تسمح بتقديمه ممثلا لمدينة زحلة بشيء من الراحة، طبعا تبعا لمعايير التمثيل كما انطوت عليها السنوات الماضية.

الا ان تمدد ايلي حبيقة نحو دير الأحمر ، والقبيات وغيرهما، يوحي ان المشروع الذي ينطلق من زحلة ويستند اليها، يحاول في آخر المطاف ان يتعداها لتمثيل مسيحيي الأطراف خارج الجبل ومعضلة المحاولة المذكورة أغفلها الارتباط العاطفي والمصلحي الذي يربط هؤلاء المسيحيين بالجبل ودولته واقتصاده وجيشه، ناهيك عن الارتباط الآخر الذي يشدهم الى زعمائهم التقليديين ممن لم يفقدوا مرتكزات القوة والتأثير.

بيد ان الحبيقية تمثل اليوم، وفي تلك لمناطق ، لونا من اللبنانية المقلوبة التي تحضن الكثير من عناصر التشكيل اللبناني بمعزل عن وجود دولة ودورة حياة طبيعية، وهنا تندرج كافة ظاهرات وتعابير المجتمع الخام وعلاقاته غير المصقولة، كعلاقة ايلي التناحرية بـ «حزب الله» في القرى المجاورة.

فبالنسبة للمسيحيين وخصوصا اهل زحلة المسكونين بالحصار، يشكل هذا التناحر لونا من

التحوير لفكرة الحصار المذكور، بقدر ما يشكل للمقاتل القواتي لونا من التوكيد على انه لم يفقد مسيحيته وزعم التحضر في صورة كاملة وان اضطر الى اخفائهما. وعن هذين التحوير والتوكيد تنجم «قضية» تمنح الوجود في زحلة معنى حمائيا في نظر الزحليين ، ورساليا في نظر القواتيين.

اما بالنسبة للمسلمين الشيعة ممن اسبغوا على حبيقة لقب «ابو علي» ، فهي ايضا تستند الى لبنانيتهم بعد تحويرها، وهي اللبنانية التي اوهنها في السنوات الأخيرة ضعف العلاقة بالمركز البيروتي واقتصاده ومدرسته وجيشه. فالصدام ، مثلا ، بـ «حزب الله» من دون اي توكيد معلن لمسيحية ايديولوجية صارخة، (لا بل مع نقد «الامتيازات» المارونية «الهيمنة» الكتائبية)، لا يزعج المسلم الذي اتبعته تلك الموجة الأصولية ومحاولتها فصله عن ذاكرته اللبنانية وثقافته وعاداته الشعبية والأهلية المتوارثة ، لالحاقه بايرانية بعيدة.

ليس هذا فحسب، اذ تبدو الحبيقية امتدادا وتعزيزا لثلاثة ابعاد لبنانية تقليدية بعد تفككها وانكاصها الى مرحلة ما قبل الدولة وتنظيمها.

١ ـ فهي تستطيع ان تواكب ايديولوجية «الوحدة الوطنية» في منطقة مختلطة، الا ان وحدتها المذكورة هي في جانب بعيد منها وحدة عشائر سابقة على التشكل الطائفي ، وحاضنة لكل عناصر التمايز عن المركز الجبلي، المؤهلة لأن تصير عناصر تعبئة ضده.

٢ ـ وهي بطبيعة الحال تستأنف ايديولوجية «وجه لبنان العربي»، لكن عدم وجود الدولة يحيل هذا الوجه الى صلة بالمخفر الأقرب والضابط الأكثر نفوذا في المنطقة، بما ينزع عن هذه العروبة كل وجه سياسي او اقتصادي او ثقافي يتعدى ادوات القوة والصلة الاجرائية المباشرة بها. والراهن ان «العروبة » الشعبية والوظيفية لتلك المناطق تختلف اصلا عن عروبة المدن السنية ، مهد الحركة القومية العربية.

٣ ـ وهي، اخيرا ، تتعايش مع ايديولوجية الخدمات الاقتصادية اللبنانية، متحررة بالكامل من سلطة الدولة وضبطها ورقابتها. والمال يمكنه عبر «القوات»ان يتدفق على المنطقة مسحوبا من ارصدة متمولين كبار لبنانيين وعرب. واذا صح ما اوردته مجلة «دفاتر المشرق»مؤخرا، قامت «القوات» في زحلة باعادة تشغيل البنية التحتية في المدينة (تليفون، تلكس الخ) مع فرض ضرائب على المشتركين. وفضلا عن مشاريع استثمار في قطاع الخدمات (مجمعات سياحية خصوصا شارك فيها نائب زحلة الماروني الياس الهراوي)، ثمة من يروي ان قوات حبيقة اصبحا مالكا عقاريا كبيرا خارج زحلة، وافتتحت صيدلية لبيع الأدوية بأسعار الكلفة، وحاولت من دون نجاح، حفر بئر ارتوازية في حي الشراونة في بعلبك، كما حاولت في قرية الفاكهة، وايضا من دون

ان يسعفها الحظ، توسيع نبع ماء وحفر بئر ارتوازية ، واعدة بانشاء سد لمنع تكرار كارثة السيول .

بهذا اضحت «القوات» التي تزايد انخراطها في الواقع العشائري وضمر توكيدها المسيحي الماروني اقرب الى قومية سورية من نوع اخر، تفاخر بالقوة والتعدد الطائفي الناهض على العشائر فيما يتربع في سدة زعامتها الرئيس. . ابو علي.

ففي اية واحدة من قرى البقاع يستطيع ايلي الآن ان يعتمر الكوفية ويسهر حتى الفجر. واذا اعوزته المعرفة بضروب الطرب والكيف، فلن تعدم السهرة من يغني له:

هيكالوا هيكالوا الأسمر شايف حالو

وابو علي اسمراني.



انطوان الاشقر

الوزير وليد جنبلاط هو راديكالي السياسة اللبنانية بامتياز، والبعض يراه غريب غربائها. خصومه يقولون لا يعجبه العجب وانصاره يكتشفون في كل ما يصدر عنه كمالاً وتماماً.
وفي مطلق الاحوال هو الممثل الطائفي اللاطائفي، البيك الاشتراكي، المدافع عن محافظة تضرب جذرها في التقليدية الدرزية والداعي الى تغيير لا هوادة فيه، الجبلي والوطني، حليف سوريا والابن الضال بين حلفائها. حليف نبيه بري والمتخوف من النمو الشيعي، مغازل «حزب الله» والنافر من تزمته في امور الدين والدنيا، صديق داني شمعون والكاره للشمعونية. ولأن وليد جنبلاط هو هذا كله مجتمعاً في شخص ووجهة سياسية فلا بد عند استواء الامور من ان تفرز هذه التناقضات نفسها. والامور، في عرف الكثيرين، تستوي مع الانتخابات الرئاسية التي هي نهاية وبداية. ووليد جنبلاط الذي يتحفظ على استوائها لا يريد في الان عينه ان يبقى خارجها. لهذا فخير المواقف دخول الحلبة بما يتيح تسجيل الموقف والتنصل من تبعات العلاقة الملتبسة مع الآخرين، تمهيداً للخروج من الحلبة بما يضمن استقلالية عزيزة جداً على قلب الوزير الشاب.
وانطوان زعيتر الاشقر هو المرشح النموذجي للدخول بقصد الخروج.

العائلة، القرية، الحزب

قصة انطوان الاشقر تبدأ في العلاقة المعقدة بين بلدات وعائلات المتن الشمالي. ففي ديك المحدي الصغيرة اقامت عائلة الاشقر التي وفدت من يانوح الى بيت شباب اواسط القرن السابع عشر. وبيت شباب ونصفها من آل الاشقر تربطها تقليدياً ببكفيا المجاورة علاقات سيئة تشبه الكثير من مثيلاتها بين قرى تتنافس حول الماء والزرع والمشاع.
بيد ان الاشقرين لم يقيموا في ديك المحدي وبيت شباب وحدهما، بل ايضاً في القعقور قرب ضهور الشوير، وفي برمانا وعين عار وبيت الكوكو وبيت الشعار وحارة البلانة وضبية ورومية وسن الفيل والاشرفية في بيروت، وساحل علما في كسروان.
ولما كان اللحوديون وآل ابو جودة يتزعمون العصبية الدستورية في المتن الشمالي انضوى الاشقريون في العصبية الكتلوية الادية التي حال تطرفها دون تصدرها السياسي في تلك المنطقة الموصوفة بالعلم والثراء والاختلاط والاعتدال.
هذا الموقع العصبي ـ السياسي هو مصدر العلاقة التي ربطت والد انطوان بحكمت جنبلاط والست نظيره يوم كان الجنبلاطيون كتلويي الدروز والارسلانيون دستورييهم. ووالد انطوان الذي راح يتردد على المختارة ويقول لنجله: آل جنبلاط توضع اليد في يدهم، هو زعيتر الاشقر الذي سمي في ١٩١٠ شيخ صلح على ثلاث او اربع قرى متنية، وكان ملاكاً هاجر مبكراً الى غانا وعمل ما بينها وبين مرسيليا، مقترناً بابنة خاله ريجينا.
في مرحلة لاحقة لم تعد العائلة الكبيرة تنظر بعين الارتياح الى الدور الذي شرع يتعاظم

لعائلة الجميل في بكفيا، بدءاً من تأسيس الشيخ بيار لـ «حزب الكتائب اللبنانية» في ١٩٣٦. فهي رأت الى نفسها، مخطئة ام مصيبة، انها عائلة اعرق، وهي بالتأكيد اكبر عدداً ساهمت الهجرة الى افريقيا واميركا الجنوبية في اثراء الكثيرين من ابنائها.
وكان ان تلقف «الحزب السوري القومي الاجتماعي» بعض الاشقريين ممن رأوا ان دعوته توفر الغطاء اللازم لمناهضة الكتائبية الجميلية من دون ان تقطع أواصرهم بمسيحية من لون مختلف. وبرز في صفوف الحزب القومي الراحل اسد الاشقر خال انطوان الذي رأسه في الخمسينات ووصل الى البرلمان في الانتخابات الاخيرة للعهد الشمعوني (١٩٥٧)، ومن بعده ابن خال انطوان، يوسف، الذي رأس الحزب في ١٩٧٠ ـ ٧١ ويعد اليوم من اقطاب فرع «الطوارىء» الذي يقوده عصام المحايري، مثله مثل غسان الاشقر، نجل اسد.
ومع ان افراداً قلائل انتموا الى احزاب اخرى شأن انطوان الاشتراكي، وبوسي الكتائبي ابن شقيق انطوان من جهة الاب وحده، بقي الحزب القومي الوعاء الاساسي لآل الاشقر في مناوأتهم لصعود آل الجميل. فكان التوحيد من خلال الحزبية هذه اداة لاعادة توحيد العائلة التي توزعت على قرى واجباب واسماء مختلفة كعائلات جبر ونصار وفضول والكك. اي ان الحزب كان الى حد بعيد وسيلة ناجعة لاعادة انتاج العائلة ووحدتها.

الانتخابات ومقدماتها

في ١٩٧٠ ومع وفاة النائب الكتائبي الشيخ موريس الجميل، قيض لانطوان ان يحقق واحداً من احلامه واحلام بعض الاشقريين، اذ سمته «الاحزاب الوطنية والتقدمية» مرشحها في المعركة الفرعية ضد الشيخ الكتائبي امين الجميل. واسباب اختيار انطوان لهذه المهمة حجم عائلته من حيث المبدأ، وكونه نجل وجيه محلي، فضلا عن انتسابه المبكر الى «الحزب التقدمي الاشتراكي» وتحوله الى «عضو مناوب» في مجلس الادارة. وانطوان ينسب الى نفسه انه كان صاحب الاقتراح بتغيير «مجلس الادارة» الى «مجلس القيادة» اواخر الستينات، اي في الفترة التي رافق فيها كمال جنبلاط في زيارة الى دمشق حيث تم اللقاء بوزير الداخلية يومها محمد رباح الطويل. وبرغم ان انطوان لم يسم عضواً في المكتب السياسي حتى ١٩٨٧ الا انه تسلم مفوضية المالية في الحزب في ١٩٦٨ ـ ١٩٧٠ وظل حتى الحرب الاهلية معتمده في المتن الشمالي. وفي ٢٣ نيسان ١٩٦٩ كان انطوان يتظاهر هو ووليد جنبلاط وحين بدأ اطلاق النار «كنا سوية ودبدبنا حتى وصلنا الى بيت المعلم».

على اية حال فالمعركة الفرعية في المتن اسفرت عن نتائج شديدة التفاوت: امين الجميل مرشح الكتائب العامد الى وراثة خاله موريس نال ١٦٩٧٣ صوتاً والعقيد فؤاد لحود مدعوماً من

الرئيس كميل شمعون والسوريين القوميين الاجتماعيين نال ١٣٨٣٣، وانطوان الاشقر اقتصرت حصته على ١٣٨٤.

وقد سبق الانتخابات مهرجان شهير للأحزاب في انطلياس كان خطباؤه فريد جبران وموريس نهرا ومخايل الخوري والاشقر نفسه الذي عرض برنامجاً بنوده «سياسة وطنية صحيحة وتعزيز الاستقلال والتعاون مع الشعوب العربية ومحاربة الطائفية السياسية وتعزيز الحريات السياسية العامة واحلال التخطيط محل الفوضى وتأمين التعليم الرسمي المجاني والتطبيب المجاني وتعديل النظام الضريبي الحالي ووضع وتنفيذ سياسة اجتماعية صحيحة للأجور وتوفير الظروف الملائمة للشباب لممارسة النشاطات الثقافية والرياضية والعمل لتحسين المتن وتجميله وشق واصلاح الطرقات وانتهاج سياسة خارجية متحررة».

القوميون يومها، وكما سبقت الاشارة، لم يؤيدوا قريبهم انطوان، وكان هذا بمثابة تعبير عن تمثيل الرجل لخط اقلي ضمن الاقلية الكبيرة. اما الاسباب التي حدت بالقوميين لاتخاذ هذا الموقف فمتعددة، يذكر انطوان اثنين منها: كان رئيس الحزب عندها ابن خالي يوسف. ومع ان يوسف حبيب قلبي فهو يمثل في الحزب الجناح اليميني، جناح ١٩٥٨. ثم ان القوميين ربما ظنوا ان في وسعهم الحاق الهزيمة بأمين الجميل عن طريق فؤاد لحود وان تصويتهم لي هو صوت ضائع. وفي اغلب الظن. كان هناك سبب ثالث مؤداه ان قوميي المتن وآل الاشقر منهم بصورة خاصة لا يستسيغون ما يعتبرونه تدخلاً جنبلاطياً في شؤون المتن حيث يطمحون لأن تصدر عنهم هم كلمة المعارضة وقرارها... بالتنسيق مع الرئيس شمعون طبعاً.

لكن انطوان الاشقر اعلن نفسه مذاك خصماً لأمين الجميل. وحين اصبح امين رئيساً للجمهورية بات من حق انطوان ان يفكر في الرئاسة، ولو استمر العمل بالمنطق نفسه من متن ١٩٧٠ الى رئاسة ١٩٨٨: اثبات وجود من خلال مناضل حزبي.

قبيل ذلك كان اسم انطوان الأشقر بدأ يتردد في بعض الدوائر اليسارية، والتي على ضفافها. ففي ١٩٦٨ أسس «حركة التضامن في المتن الشمالي» التي نالت ترخيصاً رسمياً شملت عضويتها ٥٤ شخصاً من قرى وبلدات متنية مختلفة. وانطوان الذي بات «الناطق الرسمي» بلسان الحركة يصفها بأنها «كانت عملاً سياسياً لا يخيف الناس كالحزب الاشتراكي والأحزاب اليسارية الأخرى»، فهي ضمت «أغلب الوطنيين والليبراليين والمؤمنين بالتغيير» في المتن الشمالي، وكان منهم موريس نهرا وجان كلود غصوب ومحمود يونس. وأسس انطوان فرعاً لحزبه في قريته ديك المحدي، وفي القرية نفسها أقيم مهرجان خطابي بمناسبة الذكرى الثالثة لهزيمة ٥ حزيران كان المطران باسيليوس سماحة أحد خطبائه. فحين خيضت المعركة الانتخابية خيضت بشعارات الحزب وأعلامه التي ظهرت في الدورة وانطلياس والجديدة وما لبثت ان اختفت.

السياسة في دمي

ولد انطوان الأشقر في ديك المحدي في ١٩٣٦، ودرس في الحكمة ومنها في المعهد الزراعي في الصنائع حيث أنجز في ١٩٥٦ ثلاث سنوات وتوقف. وفي ١٩٦٣ هاجر الى غانا في غرب افريقيا لمزاولة التجارة، وهو أحد البلدان التي درج الأشقَريون على ان يقصدوه بغزارة اذ لا يزال يقيم فيه شقيقان لأنطوان أحدهما طبيب.

لكن انطوان عاد في ١٩٦٧ مع حرب حزيران لأنه، كما يقول، وجد أن الواجب الوطني يستدعيه. تسأله: يبدو أنك لم تكن موفقا في التجارة؛ يجيب: ليس تماما. يستدرك: لكنني في الشرقية كنت موفقا وتركت. المسألة مسألة واجب.

نعود بعد قليل الى الشرقية يا انطوان. نكمل.

يكمل انطوان: قبل مجيئي من غانا جمعت تبرعات مالية بقدر الامكان للمجهود الحربي العربي، وسلمتها لعاصم قانصوه بوصفه بعثياً وصديق الدراسة منذ أيام الحكمة.

في لبنان لم يفعل انطوان شيئا. يشرح: عندنا أملاك كثيرة. اشتغلت سياسة. كنت أبيع أراضي أو أبني بناية وأبيعها. كنت أشتغل في وقت فراغي في السياسة. السياسة في دمي يا استاذ.

السياسة تملأ روحك يا انطوان.

الناس اما وطني مية بالمية أوعميل مية بالمية، كما يقول هو.

مذ كان عمري ١٢ سنة وأنا أعمل بالسياسة.

١٢ سنة؟

لنقل ١٤... في الانتخابات النيابية في المتن كنت أجول وأقول لهم من ينتخبون. المرحوم أبي كان مع آل جنبلاط وبعد ذلك مع الدكتور ألبير مخيبر. مخيبر نظيف وفي الأوقات المصيرية يمشي في خط سليم... أنا حضرت مهرجان دير القمر في ١٩٥٢ حيث بدىء باسقاط بشارة الخوري.

سجل انطوان الحزبي يرقى الى ١٩٥٠ حين انتسب الى خلية للحزب الاشتراكي وكان عمره ١٤ سنة حقا. يومها بدأت صلته بالحزب وهي صلة لها مقدمات في البيت كما رأينا. الوسيط كان المرحوم رياض شيا زميله في الحكمة الذي راح يجمعه الى جانب طلاب آخرين بالمرحوم شكيب جابر منظم الخلايا الاشتراكية في المدارس. عندها أسست الخلية في مدرسة الحكمة، وكان الزميل الآخر في صف انطوان التلميذ الكتائبي جوزيف الهاشم.

منذ ذلك العمر المبكر والسياسة تؤرق انطوان. حتى روايته عن زواجه تدخلها السياسة، وحين تعلن استغرابك لا يتردد في أن يعقب: أنا خلقت للسياسة لا للمصاري. فالآنسة نجيم التي تحمل ليسانس في الأدب الفرنسي من اليسوعية لم يقترن بها انطوان الا «بعد اكتشاف فكرها

التغييري. صحيح انها لم تكن تقدمية اشتراكية لكنها كانت مؤمنة بالتغيير». والانسة نجيم التي أضحت السيدة الأشقر هي من قرية كفرتيه قرب بسكنتا، في المتن الشمالي أيضا، مع أن نفوس العائلة في حارة صخر قرب جونيه. والدها مدير في الريجي وملاك تربطه صلة قرابة بقائد الجيش السابق المرحوم الجنرال نجيم. ومن زواجه أنجب انطوان ريجينا وزعيتر البالغين اليوم ١٢ و٩ سنوات، واللذين أعطاهما اسميهما تيمنا بوالدته ووالده.

انطوان والكتائب وآل الجميل

قصة انطوان والكتائب وآل الجميل قصة تطول بحسب روايته لها. وعناصر هذه القصة هي العائلة والقرية والعراقة والحزب، وخصوصا البيت، الذي هو في غالب الحالات تكثيف رمزي ودلالي للعناصر المذكورة كلها. والبيت في الرواية الانطوانيةيضرب في التاريخ فيلوح «بيتا للأجداد»، ويتفكك الى حجارة تمتد اليها يد السرقة التي تسرق التاريخ والذاكرة في حركة متواصلة من النزاع والتباري.

وشأن معظم النازحين واللاجئين والمطرودين تبعا لمغايرة وخلاف، يعاني انطوان مشكلة التعريف بذاته في «أرض» النزوح مطنبا في وصف ما كانت عليه الحال من عز قبل أن يحصل الفيضان. وهذا السيناريو الكلاسيكي الذي حمل، مثلا، معظم اللاجئين الفلسطينيين على الامعان في وصف البيارة والبيت، أس الملكية والصلة بالأرض، له نهاية منطقية هو اما التحرير أو الغزو من الخارج. والرسول العربي الذي انكفأ الى المدينة ليعاود منها الانقضاض على مكة، مدينته، هو البطل النموذجي الموعى أو غير الموعى لآلاف المناضلين الذين تعرضوا لنفي أو تهجير من ديارهم وأماكن ماضيهم وأهلهم وسكنهم.

وتمضي رواية انطوان على النحو التالي: تعرضت للاغتيال في ١٩٧٥ على يد شارل خباز زلمة أمين الجميل. يومها شقوا رأسي ونقلوني الى المستشفى حيث عادني أمين وخباز الذي حاول اقناعي بأن أقربائي السوريين القوميين هم الذين حاولوا اغتيالي. وكانت محاولة مفضوحة. وفي ١٩٧٨ عدت الى المنطقة الشرقية بفعل ضغوط متواصلة علي بذلها الوالد والوالدة المسنان، ويومها أدخلني أمين الجميل بسيارته الى ديك المحدي.

ما أملكه اليوم هو ما تركه لي آل الجميل. فبيت العائلة المبني في ١٨٩٠ والمسجل باسم ابني سرقت حجارته لكي يبني بشير الجميل بيته في بكفيا. وبقدر من الانفعال يضيف انطوان عن تلك الفترة التي سبقت وصول بشير الى الرئاسة: كنت فككت بعض أجزاء البيت لكي أقوي أساساته وأبني طابقا آخر، لكن أربعة كميونات حضرت وراحت تنقل الحجارة. بشير قال حينما سئل: الحجارة حلوة. سرقوا حجارة أجدادي وحاولوا أن يضغطوا على ابن أخي بوسي لكي يعلن انه

هو الذي اهدى حجارة بيت جده لبشير الا انهم فشلوا في حمله على ذلك.

ويتحدث انطوان عن الخوات الكتائبية التي فرضت عليه فيقول انها بلغت ١٢ مليون ليرة يومها. وحين عمروا «بيت الكتائب» في بيت الشعار المجاورة لديك المحدي وأرادوه بناء ضخما من ستة طوابق جاءه رجل المليشيا ألبير معوض ليقول له: جهاز التكييف والبلاط عليك. وفي ١٩٨٢ ومع وفاة والده حضر أمين الجميل وراح يتقبل التعازي مع العائلة. ممثل ومحتال، كما يضيف انطوان الذي يقول انه قبل تلك الفترة ذهب مهجَّراً الى اكس ان برونس في فرنسا حيث أتيح له أن يقرأ ويطالع، بحسب سرده.

لكن انطوان الأشقر ما لبث أن خطف ابان حرب الجبل الى ثكنة اسكندر القرم، واحتلت له بنايتان في ديك المحدي من دون أن يتمكن من انهاء ما يبنيه. وأثناء خطفه طلب منه القرم مليون ليرة مقابل اطلاق سراحه فوعده بذلك وهرب الى بيت وليد جنبلاط. أما زوجته فضربت بعنف على صدرها، وأخضعت، كما تمضي الرواية، لخمس عمليات جراحية نجمت أسبابها عن تلك الضربة. ولم يقف الأمر عند هذا الحد اذ استولى المسلحون على أثاث بيته في الكسليك، واحتلت «القوات اللبنانية» شاليه له في «الهوليداي بيتش».

مع هذا فالحمد للهيضيفالأشقر الاشتراكي، لا يزال عندي ٣٠٠ شاب يفلحون أرضي ويعملون في تشذيبها ورعايتها من دون أن يعبأوا بالكتائب.

دائماً ضرب على الرأس والصدر في رواية انطوان.

ولم تتردد اسبوعية «الشراع» الناقدة للسياسة الجنبلاطية في أن تكتب عن الفترة التي تلت انتقال انطوان من الشرقية الى الغربية: «كان بينه وبين تاجر من آل أبو جوده شراكة مالية ويبدو أن خلافا نشب بين الاثنين، ولما كان كل منهما في منطقته متمترسا، فقد عمد الأشقر الى استدراج أبو جودة الى ضهور الشوير حيث تم خطفه واخفاؤه عند جماعة جنبلاط في أحد أقبية غربي بيروت، مطالبا أهله بفدية قدرها مليون وستمائة ألف ليرة لبنانية لاطلاق سراحه، مع وعد بأن يدفع ٦٠٠ ألف منها مصاريف لجماعة جنبلاط في رأس بيروت. قبض الأشقر الفدية بالكامل وأطلق سراح أبو جودة لكنه هرب هو نفسه الى المختاره حتى لا يدفع «أتعاب الشباب» الذين ظلوا في حقد كامل عليه الى أن دخلت القوات السورية الى بيروت في ٢٢/٢/١٩٨٧. فهرب الشباب وارتاح انطوان».

وحينما تسأل انطوان يقدم رواية مضادة مؤداها أن أسعد أبو جوده هو سارق بيت زعيتر الأشقر، اذ نجح بتواطؤ مع الكتائب في أن يرهن بيته. وحين علم انطوان، وكان يتناول الغداء في ضهور الشوير عند خاله أسد، بوجود أبو جودة في عاليه، أمن له محاكمة نزيهة في بيت أنور فطايري تولاها بعض القانونيين، ثم تم دفع المال المستوجب في قصر المختاره.

ونفهم من مصدر «محايد» ان القصة الفعلية ليست ما نقلته «الشراع» ولا ما نقله انطوان، بل في مكان وسط ما بين الروايتين. والمؤدى ان أسعد أبو جوده الذي كان صديقا حميما لأنطوان مراب لا حدود لطمعه وميله الى نهش المدين. وقد وقع انطوان في قبضته فاستدان منه مبلغا يزيد عن الثلاثة ملايين بفائدة شديدة الارتفاع. وحين تم خطفه أخذ منه مبلغ مليون ليرة كفارق بين الفائدة العادلة التي ينوي انطوان دفعها والفائدة غير العادلة التي يريدها أسعد.

ويستطرد انطوان قائلا، في معرض تبديد التهم، انه لدى انتقاله من الشرقية الى الغربية كان لا يحمل الا ١٦٤٠ ليرة لبنانية. الحقيقة يجب أن تقال. يضيف مربتاً على صدره وبطنه، ومبتسما.

العراقة قياسا بآل الجميل هي دين انطوان وديدنه. يعود مرارا لتأكيد علاقته الجيدة بخاله الراحل أسد الذي أقام في شبابه في بيت دعاس زعيتر. ذلك أن اختلاف الحزبية لا يحول دون وحدة العائلة في مواجهة العائلة البكفاوية. يتباهى انطوان: في ١٩٥٧ و١٩٥٨ كان خالي أسد والقوميون يحمون الكتائب. لم يكن الكتائب شيئا. من هم آل الجميل؟

وحتى حين تسأله عن القراءة يجيبك انه، فضلا عن كتب وكتابات كمال جنبلاط طبعا، يقرأ كتب سبع بولس حميدان، الاسم المستعار لأسد، لكي يعرف كيف كان خاله يفكر. وبرغم ان انطوان كتبه بين الفينة والأخرى في «الأنباء» صحيفة الحزب الاشتراكي، واقترنت احدى شقيقتيه بالراحل كمال يوسف الحاج، الا ان الرجل ليس ذا باع طويلة في القراءة والمعرفة. وهو يقول انه يقرأ كل الصحف المحلية وتستوقفه «السفير» التي يتهمها بعدم نشر تصاريحه وعدم تبني معركته، الأمر الذي يثير عجبه. ويقول أيضا أنه يقرأ «لوموند»، وحين كان في فرنسا كان يقرأ «أومانيتيه» الشيوعية لكن الصحف الأجنبية مكلفة جدا اليوم. وانطوان لا يتذوق الشعر وغالبا لا يفهمه بحسب تعبيره، مع انه يحفظ «ردات» زجلية لشحرور الوادي الذي أحبه ولزجالين آخرين كان والده يحبهم. ومحبة انطوان لشحرور الوادي سريعا ما تلوح عودا على بدء التنافس العائلي والقروي. ففي ١٩٣٤، وكما يروي المرشح الاشتراكي، دعي البطريرك عريضه للغداء عند آل الجميل في بكفيا، وغداء البطريرك في أحد البيوت اقرار بوجاهته وتكريس لها، كما هو معروف في القرى. لكن عريضه آثر أن يتغدى عند زعيتر الأشقر في ديك المحدي، وكان للشحرور بيتان في المناسبة:

قالوا لي ديك المحدي	فيها بيتين بوحدي
بوجودك شيخ زعيتر	صارت ميّة متحدي

ولم يتردد عريضه نفسه في استهلال الكلمة التي ألقاها بعبارة لا يزال يحفظها انطوان: «قالوا ان هذه البلدة صغيرة لكننا لم نجدها صغيرة».

عن الرئاسة وفي الطريق اليها

هل تتابع شؤون السياسة الدولية يا انطوان!

يهز انطوان رأسه ويغمز بعينيه أن لا. وكأنه يضيف: كبر عقلك. الا انه يستدرك: كنت أتابع السياسة الفرنسية والتوجهات داخل الحزب الاشتراكي.

أما نجومه ومراجعه في السياسة اللبنانية فكمال جنبلاط ومن بعده زمنا وليد، وريمون اده الذي لا يكتم اعجابه بما يسميه صدقه السياسي. ورجل انطوان التاريخي بين العرب هو جمال عبد الناصر.

وحين يروي قصة ترشيحه للانتخابات الرئاسية يقول ان المداولات بصدد الترشيح بدأت « في الظل » منذ ثلاث سنوات. وقد اتخذت المداولات شكل احاديث بينه وبين « الرئيس » وليد جنبلاط ، الأمر الذي يعرفه « رفيقنا » محسن دلول، وهو من اعتاد على استقبالي بـ « اهلاً بالرئيس ». وقد وردت الاشارة الى دلول في معرض تذكير انطوان بمعارضة نائب الرئيس لترشيحه.

ولا يتردد انطوان الذي رفعت صوره في بعض بيروت وطريق الساحل والشوف في المباسطة: عندي طموح منذ ١٩٥٣ ان اعمل رئيس جمهورية لكي البي طموحات هذا الشعب وابني بلداً بالتعاون مع كل من يؤمن بالتغيير. يوم رشح المعلم كمال جنبلاط اللواء جميل لحود للرئاسة سألني: لماذا لا تترشح انت؟ قلت له: بعد بكير. جميل لحود وطني. حبذا لو كانت الانتخابات من الشعب. كان يختار الخط الوطني.

لكن قبل الشعب لنتحدث عن الحلفاء المفترضين. « حركة امل » مثلاً لم تؤيد ترشيحك.

أمامنا اربعة اشهر لاقناع امل. وماذا يمنع من ان يدب الغرام بيني وبين الاستاذ نبيه.

من معك؟

الشخصيات والقوى الوطنية.

الشخصيات؟ من؟

البير مخيبر. . . خايضين المعركة حتى النهاية ولا تراجع.

يقال ان اختيارك لم يكن جدياً

ابداً. انا مرشح ماروني قوي.

كيف؟

٩٠٪ من بلاد جبيل مثلاً بدها انطوان الاشقر.

٩٠٪؟

لنقل ٧٥٪.

آخر سعر استاذ انطوان.
اسمع. كل من يحب ريمون اده يحب انطوان الاشقر.
وسوريا؟
برنامجنا وطرحنا ينسجمان مع مبادىء حزب البعث العربي الاشتراكي. والشقيقة سوريا تعرف ان هذا شأن داخلي. السوريون لا زالوا مراقبين. لم يعطوا رايهم لاحد.... الحوار الاميركي - السوري غير مقبول في منطقة الانعزال. المذهبيات المسيحية السياسية لا تقبل اي تنازل عن المكتسبات. وامين الجميل دخوله في المفاوضات لكسب الوقت.
يتدخل الزميل غازي العريضي مسؤول الاعلام في الحزب الاشتراكي الذي جاء برفقة الاشقر او جاء الاشقر برفقته، ليؤكد ان معركة انطوان «ليست كلاسيكية» وانه يحمل البرنامج الذي ينهي جذور الحرب. الخطوة كبيرة جداً، يوضح.
لكن الحزب رشح مارونيا، وهذا عدم خروج على «الكلاسيكية».
يا للاسف ترشيح الحزب بحسب هذا العرف. انا ولدت مارونيا من دون ارادتي.
لو اتيح لك ان تختار طائفتك اي طائفة كنت اخترت؟
كنت اخترت الحزب...
على اية حال، نعود الى القوى الداعمة لمعركتك...
سر المهنة. لن اكشف اوراقنا. لكن لسنا وحدنا. عالمياً واقليمياً ومحلياً. التطورات لصالحنا. من يدري، قد يقتنع النواب بان برنامج كمال جنبلاط للاصلاح هو الحل. هذا مثل الانقلاب، الم يحصل انقلاب ابيض قلب كل المعطيات في ١٩٥٢.
يستطرد انطوان متحدثاً بجدية ومهابة كاملتين مرفقتين باستواء في الجلوس على الكرسي:
انا لن اكون رئيساً ضعيفاً اذا وصلت. سأكون مفاجأة للبنانيين. لا ارضى ميوعة. الحل للمهجرين لن يكون الا بانطوان الاشقر. جزين لا حل لها الا بمرشح وطني. انطوان الاشقر سيكون من رواد العودة الى الجبل. اول شيء سأفعله الغاء الطائفية السياسية فوراً، لا بل سأتوجه اولاً الى المختارة واقبل تراب كمال جنبلاط، ثم اؤلف حكومة وطنية...
انطوان لا يصلي على النبي. نذهب معه في البعيد: هل تقيم حكم الحزب الواحد؟
لا ليس هذا الحكم، بل حكم الشرفاء من كل البلد.
حكومة وحدة وطنية؟
نعم.
هل تشرك الكتائب؟
اشخاص قراب منهم ما في مانع اذا قبلوا هم بهم.

هل صحيح ان الوزير جنبلاط اختار شخصياً كلمات الملصق: نعم لأنطوان، لا لاسرائيل الخ...
لا ادري. المكتب الاعلامي اختار.
نوجه السؤال الى غازي العريضي. غازي ينفي وهو يبتسم.
نعود الى آراء انطوان السياسية. انطوان يرى ان المارونية السياسية جعلت الرئيس ينفرد بالقرارات.
قلت انك ستكون رئيساً قوياً. كيف؟ ماذا عن الصلاحيات؟
انا لن انفرد وسأنفذ برنامج الاصلاح بحذافيره. كمال جنبلاط كان يمتحن المرشحين ويعدونه وعوداً يتخلون عنها بعد نجاحهم. الصلاحيات. انا مع تحديد الصلاحيات. الرئيس يحضر اجتماعات مجلس الوزراء ويشارك في القرار. نعم. المشكلة يا اخي في المارونية السياسية التي عملت على ترقيم اللبناني. ما هذا الترقيم. انا ضده. انا اوريجينال بطرحي. يجب ان يتحسس اللبناني كل القضايا العربية المصيرية وخاصة الفلسطينية. كذلك المطلوب بناء جيش عربي قتالي.

انطوان جليسا

بأنطوان يدخل ويخرج، فهو بسيط وصاحب جلسة حلوة بحسب الصورة التي لا يقوى على الفرار منها. معه لا تستطيع ان تقاوم الفكرة الشعبوية التي تقول ان المدينة والسياسة وتعقيدهما تسيء الى فطرة الانسان وتلقائيته. فانطوان ذاك القريب، يتكلف أحيانا وهو مما يمكن اجتنابه، فاذا به يتقمص شخصية ديبلوماسي بالمعنى الغامض الذي يسبغ على الديبلوماسي. ويأتيك انطوان بغموض لا تعرف مصدره، فيجيبك على سؤال معروف الجواب الى حد بعيد: سر المهنة. أو يعدك بمفاجآت وتحولات تخدم معركته يصعب اكتناهها، ويستحيل الالماح الى أي من مقدماتها أو اشاراتها أو اتجاهاتها.

وتسمع من انطوان عبارات تباه لا تسمعها الا من شطار القرى، مثلا: كنت دارس طينتو. اسألني، ما بدك تسألني ليش. اللي بدك ياه بجاوبك، انا جوابي تحت باطي. مع ان انطوان ينكسر بين الفينة والأخرى فتصدر عنه عبارات من نوع: ورحمة تراب كمال جنبلاط. او ينتفض دفاعا عن كرامة خال انها تتعرض للتجريح. أو ينرفز لكن البساطة تطوي النرفزة وتردها على أعقابها سلوكا غير مقبوض، كما يقال في العامية. وانطوان لا يكف عن مد اصابعه الطويلة الى علبة اللاكي سترايك التي يدخن منها من دون انقطاع تقريبا. ووراء نظارتيه تمكث عينان تقدحان حين يضحك فيما يصاب الوجه بانتفاخ يقرب صاحبه الى القلب ويطرد من الجلسة ما تبقى من جد وعبوس.

تقاطيع وجهه كبيرة وشديدة العادية تتخللها الوان تستجمع نفسها، اخر المطاف، في لون داكن أقرب الى الرمادي. شعره لصيق بالرأس كما لو ان العرق قد ثبته على هذا النحو، يبيض عند السالفين والفودين ويخف من الوراء. والشاربان طويلان في وسطهما شيء من الاصفرار الملتبس بالدخان وفي طرفيهما بياض لم ينج من اشقرار. والاسنان متباعد قليلا واحدها عن الآخر بما يستكمل رسم وجه أتعبه الليل ولم يترك تفصيلا من تفاصيله بلا أثر. وجسمه المتوسط مع ميل الى الطول يمنح الانطباع نفسه. فالسترة اعرض من الكتفين متدلية قليلا على الجانبين كأن شيئا من الترهل امتد اليها، ومثلها الكرش النافر نفور الاهمال والكسل، واللحم الذي يجمع الذقن الى العنق.

انطوان كان ليسترخي أكثر لولا المداخلات القليلة للزميل غازي العريضي. صحيح انها كانت قليلة وانه اعتذر عن معظمها، لكنها جاءت مداخلات «تصويبية» تحدد لانطوان وجهة السير وتدله على أي الأمور الغث وايها السمين. ونظرات انطوان لم تقتصد في التوجه نحو غازي وهو يدلي بجواب يخاله ملتبسا وصعبا، كما لو كانت النظرات تسأل: مش هيك يا رفيق؟

الجلسة مع انطوان كانت لتكون امتع وأغنى لو انه استرخى أكثر، علما بأنه استرخى الى هذا الحد أو ذاك، كاشفا انه جليس مميز، وفيه عادات النديم السامر على أحسن ما يكون. وكثيرا ما تحس انك على وشك أن تقول له: كاسك، اعطيني بوسي، كول هاللقمي، حطا هون. وفعلا احببنا انطوان وتبادلنا القبل مقهقهين بأعلى الصوت كما لو اننا نراه للمرة الألف وما هي الا المرة الأولى.

بعدها طالبنا انطوان، بكرم لا يرقى اليه الشك، بأن نزوره في بعقلين. ولم ندر تماما ما اذا كانت الدعوة الى بعقلين من قبيل اللاطائفية التي تتسامى على جروح الطوائف وحروبها، أم من قبيل تباهي الصلعاء بشعر جارتها. على أية حال نرفع الكأس البيضاء عالياً ونحيي: كاسك خيي انطوان. يخلينا. يلعن أبو اللي ما بيحبك.



ميشال عون

حين حصلت حادثة خطف الطوافة من قاعدة أدما العسكرية الى الشوف بعد عملية اغتيال الرئيس رشيد كرامي وهو على متن طوافة عسكرية انطلقت من القاعدة العسكرية ذاتها، قال الكثيرون من المتابعين: ليكن الله في عون ميشال عون، فقد احترق الرجل.

لكن آخرين اقل ميلا الى اصدار الاحكام الحاسمة استدركوا: صحيح ان اغتيال كرامي ألحق بعون شيئا من تلويث السمعة، لكن الجيش الذي لم تحرقه تجارب الماضي منذ ١٩٧٥ لن تحرقه طوافة ادما. انظروا الى ما هو اوسع من ثقب الابرة، انظروا الى الحوار السوري - الاميركي، فميشال عون من عناوينه العريضة!

بصعوبة حصلنا على موعد معه اردناه للكلام واراده للتعارف. قائد الجيش لا يريد الخوض في معمعة السياسة والرئاسة، قال اشياء عامة حول الوطن، احالنا على مجلة «الجيش» وامام اصرارنا على ان نعرف عنه اكثر، اعطانا اسماء اصدقاء له يعرفونه، وعدنا الى أصدقائه والى اثنين من ابناء بلدته حارة حريك، وعدنا ايضا الى الارشيف، وطبعا الى مجلة «الجيش»، ودائما كنا نستذكر ونستعيد صورة ميشال عون كما ارتسمت في اذهاننا بعد تلك الساعة التي قضيناها معا في «بيت قائد الجيش» في الفياضية.

حارة حريك

ميشال عون ابن حارة حريك، تلك المنطقة الساحلية القريبة من بيروت والتي تشكل جزءا من الضاحية الجنوبية. ضاحية جنوبية وميشال؟ يتساءل بعض صغار السن ممن لم يعرفوا الضاحية قبلا، نعم، اذ المنطقة المذكورة ومنها الحارة لم تكتسب وجهها المذهبي الحالي الا في السنوات الاخيرة عبر شريط من المواجهات والحروب والتهجير يكاد يكون ملحميا، وميشال عون ابن الضاحية التي اتهم بقصفها في ١٩٨٣ يسكنه الحنين اليها هذه الايام وكثيرا ما يحب ان يتذكر في مجالسه الايام الخوالي.

على اية حال فعون الماروني الذي عاش مع المسلمين وبينهم، وبدا رجلا نموذجيا في تعبيره عن الطبقة الوسطى وهمومها يشبه حارة حريك التي اصابها التمدين. urbanisation من دون طلاق مع طابعها الريفي. وابن الحارة يجمع البساطة والدماثة الى التهديف الحذر كما يجيده المدفعيون، ممزوجا بمعرفة اربع لغات اجنبية هي الفرنسية والانكليزية والايطالية والاسبانية. لقاح نموذجي بين ابن القرية فيه وابن المدينة.

وحارة حريك لم تصبح وحدة سكنية اجتماعية قبل اواخر القرن الثامن عشر، اذ في هذا القرن بدأت تفد اليها جماعات من الجبل نقلت معها خبرتها الزراعية وجعلت نمو الحارة متساوقا مع ذاك الجبلي وشبيها به، حتى اذا ازدهرت زراعة التوت وتربية دود القز في جبل القرن الماضي، ازدهرت الزراعة والتربية اياهما في الحارة ايضا.

وحتى ١٨٦١ ظلت ملكية الحارة تعود الى امراء آل شهاب، الا انه مع ظهور نظام لبنان الاساسي والتطورات الجديدة التي انطوى عليها، شرع اهلها يبتاعون الارض من الامراء، وما كادت تطل الحرب العالمية الاولى حتى اصبح سكانها ملاكين صغارا ومتوسطين ينشئون، الى ملكياتهم، معاصر للزيت ومعملا للحرير، ويجعلون من بيوتهم وبساتينهم وجنيناتهم تعابير صريحة عن طبقة وسطى عريضة مستقرة وآمنة.

وبانتهاء الحرب الاولى التي صاحبها اقبال اهل الحارة على الهجرة الى الخارج، نسجا على المنوال الجبلي، حلت زراعة الحمضيات محل التوت الذي دفعته المضاربات الاجنبية الى الركود كما في سائر لبنان. وكان من نتائج التحولات الجديدة والنمو السكاني الموازي، ان باتت الحارة منذ ١٩١٨ تحظى بمجلس بلدي، وبعد سبع سنوات وصلت المياه اليها ومدت شبكات الكهرباء.. وجعلت حركة العمران والبناء تشق طريقها بخطى متسارعة، وراحت المعامل تتكاثر وتتسع الى ان وصل عددها في السنوات الاخيرة الى ١٧ مصنعا يتوزع نشاطها الانتاجي ما بين الزيوت وعصر الزيت والبسكويت والطحينة والنسيج والصفائح والبلاط وتوضيب الفاكهة.

واذا كانت الحارة قد عرفت في السنوات الاخيرة مدرستين رسميتين، تكميلية وابتدائية، فانها عرفت ست مدارس خاصة اثنتان منها ارساليتان، بما ينم عن التكوين الاجتماعي الذي لم يعدم التأثير على الخيارات السياسية. ففي انتخابات ١٩٧٢، نال العدد الاكبر من اصوات الحارة الدكتور بيار دكاش الذي انضم الى «حزب الوطنيين الأحرار». ولئن كان دكاش من الحدث، فان اقاربه الذين يحملون الاسم نفسه يعتبرون العائلة الاولى عددا في حارة حريك. والمحامي الشيعي محسن سليم الذي مثل دائرة بيروت الثانية ما بين ١٩٦٠ و ١٩٦٤، واخذ عليه نقاده ما اعتبروه محاباة مفرطة للسياسيين الموارنة، هو ايضا من الحارة.

تياران وخلاصة

عائلة عون من العائلات الصغيرة في الحارة المختلطة ذات الاغلبية المسيحية، وان كانت تربطها صلات وقرابات متفاوتة بعائلات تحمل اسم عون وتتعدد الوانها الطائفية. ومن هؤلاء عائلة عون الشيعية التي يقيم معظم افرادها في منطقة الشياح المجاورة.

على ان العائلة وجدت نفسها مع مطالع الحرب الاهلية في ١٩٧٥ مثل سائر العائلات المسيحية المذعورة في حارة حريك فهناك مشكلة العلاقة مع مخيم برج البراجنة المتاخم لها، خصوصا وان قسما من المخيم شرع منذ ذلك الحين يدخل في نطاق جغرافية الحارة.

ومع انتشار السلاح الفلسطيني، كان خوف الاهالي يزداد يوما بعد يوم، واستطاع حزب الكتائب، فارس الخوف المسيحي، ان يحقق بعض النمو في الحارة قياسا ببلدات اخرى مجاورة ومشابهة كالمريجة، الأقل مدنية، والأبعد نسبياً عن بيروت، والأصفى في عددها المسيحي، في آن

معاً.

في اية حال فبينما تأخرت موجة التهجير الاساسية في البلدة الاخيرة الى ١٩٨٢ وما تلاها، تعرضت الحارة منذ ١٩٧٥ لتهجير كثيف، وآل عون الذين يقطنون « حي الكنيسة» الاقرب الى المخيم، كانوا في عددا المهجرين.

ميشال عون خلاصة هذه التيارات مجتمعة لاسيما منها الاختلاط المسيحي - الشيعي، والحساسية المفرطة حيال البندقية الفلسطينية التي وجد نفسه على تماس دائم معها خلال المراحل اللاحقة.

عون عسكريا

ولدميشال عون في حارة حريك في ايلول ١٩٣٥. والده المزارع المتوسط نعيم، ووالدته ماري عون التي تنتسب الى بيت من المهاجرين، وكانت هي نفسها ولدت في الولايات المتحدة الاميركية. وتلقى ميشال علومه الابتدائية في فرير فرن الشباك والثانوية في فرير الجميزة، والفرير كما هو معروف مدرسة الفئات الاجتماعية المسيحية التي صدر عنها عون.

في ١٩٥٥ انضم ابن العشرين عاما الى المدرسة الحربية في الفياضية حيث تخرج في ايلول ١٩٥٨ برتبة ملازم في سلاح المدفعية. ويقول عارفوه ان ميشال منذ حداثة سنه يملك مواصفات المدفعي الناجح دقة وتهديفا.

بتخرجه في ١٩٥٨ ترافقت البدايات الاولى لحياة عون السلكية مع بدء عهد الرئيس فؤاد شهاب، حفيد الامراء الذين امتلكوا حارة حريك ، واول رئيس جمهورية يصل الى السدة السياسية الاولى من موقعه في قيادة الجيش. كذلك كانت دورة تخرجه اول دورة تتم في عهد الرئيس الراحل، ليرقى في ١٩٦١ الى رتبة ملازم اول، وتكلفه المحكمة العسكرية حينذاك الدفاع عن عدد من السوريين القوميين الاجتماعيين ممن اعتقلوا لضلوعهم في المحاولة الانقلابية. قبل ذلك انجز ميشال عون دورة تطبيقية على المدفعية في فرنسا، ما لبث ان استكملها في ١٩٦٦ بدورة اخرى في الولايات المتحدة دامت ستة اشهر. وفي هذه الغضون شارك في تأسيس ثكنة عسكرية في بعلبك، في كانون الاول ١٩٦٤، بينما كانت القيادة تكلفه بمهام اخرى على الحدود الجنوبية.

السنة ١٩٦٨ شهدت حدثين في حياة ميشال عون المهنية والشخصية. الاول ترقيته الى رتبة نقيب، والثاني اقترانه بناديا سليم الشامي من زحلة والشامي عائلة ليست كبيرة تحازب جوزيف ابو خاطر الشهابي يومها. ومن ناديا انجب ميشال ثلاث بنات هي ميراي التي تبلغ الان ١٨ سنة وتدرس جيستيون انفورماتيك في اليسوعية، وكلودين وشانتال وهما لا تزالان في المرحلة الثانوية من دراستها.

في ١٩٧٤ اصبح ميشال عون رائدا، وبعدها باربع سنوات انجز دورة في احد اهم معاهد العلوم العسكرية في العالم، مدرسة الحرب العليا في باريس. وبنتيجة الدورة المذكورة التي انتهت في ١٩٨٠ اصبح عون عقيدا ركنا، او « دكتورا» في الحرب بلغة الشهادات غير العسكرية. وبعد تعديل قانون الجيش في ١٩٨٤ عين مجلس الوزراء ميشال عون قائدا للجيش، وكان ذلك في حزيران من العام المذكور، فبات ابن حارة حريك البالغ من العمر ٤٩ عاما اصغر ضابط يتولى قيادة الجيش اللبناني.

كذلك تعددت المهام العسكرية التي أنيطت بعون على امتداد تلك السنوات، تعدد المناطق اللبنانية التي خدم فيها والجروح التي أصيب بها. ففي ١٩٥٩ كان ميشال عون آمر فصيلة في بطارية مدفعية في الفوج الثاني، وفي ١٩٦٤ آمر بطارية في فوج المدفعية الثالث، وفي ١٩٦٧ وكمراقب على الحدود الجنوبية شاهد وجها من حرب حزيران وزاد تخوفه على لبنان ومستقبله. الا ان أهم ما تعلمه من مراقبته على الحدود تأكده من «عقم فكرة المقاومة من الخارج، والتي لا تفعل سوى تعريض لبنان للخطر». وهو يحتفظ بهذه النظرية حتى اليوم حارة قوية في سجاله الضمني مع «القوات اللبنانية»: اذا كنتم مقاومة فقاوموا حيث يوجد عدوكم، ولا تتحولوا الى مصدر معيق لعمل الشرعية ووحدانيتها في مناطق تواجد الجيش.

بين ١٩٦٩ و ١٩٧٣ خدم ميشال عون في صربا، ليصبح في نهاية هذه الفترة قائد كتيبة المدفعية الثانية. وعند اغتيال النائب معروف سعد في ١٩٧٤ كان عون في صيدا بصفته هذه، ولم يبرحها الا بعد«حريق الدامور» في ١٩٧٦/١/٢٢، ولاستحالة سلوك الطريق الساحلية التي يسيطر عليها الفلسطينيون اقلته طوافة عسكرية الى وزارة الدفاع.

في ١٩٧٦ عين ميشال عون قائدا لسلاح المدفعية، وفي ليلة عيد الميلاد في ١٩٨٠/١٢/٢٤ سمي قائدا للواء الدفاع وقطاع عين الرمانة - بعبدا، فوجد نفسه مواجها بمهمة صعبة قد لا تقل عن مهمة صيدا. ذلك ان تعيينه الاخير حصل بعد احداث عين الرمانة، وتراجع الجيش امام قائد « القوات اللبنانية» الشيخ بشير الجميل. وكانت مهمة التوفيق هذه دقيقة وصعبة وبحاجة الى مدفعي: من جهة بشير الصاعد، ومن جهة اخرى رجل الاستخبارات العسكرية القوي العقيد جوني عبده ، ومن ورائه الرئيس الياس سركيس الذي لم تكن قد طبّعت علاقته ببشير. وايضا كان ميشال عون في مواجهة المقاتلين الفلسطينيين على الجانب الاخر.

نحو القيادة

عندما خرج الاسرائيليون من بيروت في ١٩٨٢ كلف العقيد ميشال عون بالعمل نائبا للعميد مزبودي في قيادة عمليات منطقة بيروت. وكانت حساسية ما بعد صبرا وشاتيلا تفوق كل الحساسيات السابقة التي تعرض لها الجيش مرموزا اليه بميشال عون. وكانت التجاوزات

والاعتقالات التي تتم في بيروت تفاقم الحساسية المذكورة، وتحد من ظهور الترجمة الايجابية للمبادرات الاخرى شأن تأسيس « هيئة انماء الضاحية الجنوبية».

وفي ١٩٨٣ أصبح قطاع عين الرمانة - بعبدا قوام لواء المشاة الثامن الذي انشىء عامذاك بقيادة عون، وهو ما استمر يقوده حتى تسلمه قيادة الجيش في حزيران ١٩٨٤ . وكان الجيش قد تعرض للمآسي التي تعرض لها في بيروت والضاحية والجبل، وبدا ان المعجزة هي التي تستطيع انقاذه.

قبل ذلك وفي غضون قيادته اللواء الثامن، حصل تطور خطير لم يكن قليل الأثر على شخص ميشال عون وتفكيره: اختبار الاسرائيليين للمرة الثالثة بعد ١٩٦٧ و ١٩٨٢ ، وكان الاختبار الاكثر مرارة فقد شارك عون في لجنة الاستطلاع التي رعاها الاميركيون بهدف احداث التنسيق بين الانسحاب الاسرائيلي والدولة اللبنانية. وفي خلال عمله تعرض لمحاولة اغتيال وهو في احد مواكب الاستطلاع. وكان ما كان وانسحب الاسرائيليون من دون تنسيق. انها حرب الجبل. وتفرعت حرب الجبل وتناسلت، فكانت حصة ميشال عون خوض معارك طاحنة على جبهة سوق الغرب والسيطرة على مرتفعات المنطقة وقلعة الحصن في كيفون وتلة ٨٨٨ شرقي سوق الغرب.

ميشال عون المكتئب الذي حاصرتهم حروب السياسيين الصغيرة، يغلق على نفسه الابواب ويحد من الاتصالات، فالساسة يفعلون فعلهم، لكن اتصالا يخترق عزلته هو تعيينه قائدا للجيش، البعض فسر ذلك مكافأة له على بلائه الحسن في جبهة سوق الغرب. بينما رأى فيه البعض الاخر الشخصية التي كانت قادرة في حينه على جمع الوية الجيش الموزعة على الطوائف والمناطق في وقت كان المطروح فيه نشر الجيش في بيروت الكبرى، ومع هذا ظل الساسة يفعلون فعلهم، وبفعلهم فرض على قائد الجيش ان يعاني ازدواجاً ليس له يد فيه، تمثل في استمرار قائد الجيش السابق ابراهيم طنوس قائد ظل ذا امتيازات وتأثير.

كفاءات، آراء، مواقف

ميشال عون الذي يتقن أربع لغات أجنبية كما سبق القول، حمل عدة أوسمة في موازاة نشاطه العسكري. وما عرف من آراء عون المتعلقة بتركيب الجيش ودره يؤكد الولاء الواحد للجيش الواحد. ففي أوائل عهد الرئيس الراحل الياس سركيس شكلت لجنة عسكرية رباعية تعمل مع قائد الجيش يومها فيكتور خوري بهدف اعادة بناء القوة المسلحة، وكان المقدمان ابراهيم طنوس وميشال عون عضوين في هذه اللجنة.

وفيما اقترح طنوس نظرية تفريع الجيش عملاً بالتجربة البلجيكية، حيث يصار الى بناء جيوش فرعية اربعة تجمعها قيادة واحدة، اقترح عون بناء نواة متماسكة للجيش تنطلق من وزارة

الدفاع وتضم ضباطا وجنودا من مختلف الطوائف وصولا الى بناء جيش واحد في كل لبنان. ولقي عون الدعم من مديرية المخابرات برئيسها العقيد جوني عبده ونائبه العقيد نبيه فرحات، وأخذ برأيه في اخر المطاف.

وبعيد تسلمه قيادة الجيش بدأ بتنفيذ خطة انتشار جديدة في بيروت الكبرى، لكن الخطة التي نجحت في ٤ تموز ما لبث ان اصابها الفشل بنتيجة رفض دخول الجيش الى الجبل .الجيش يريد ان يدخل و « الحزب التقدمي الاشتراكي» يتمسك باولوية الحل السياسي على الحل الامني، حتى اذا ما اندلعت حرب شرق صيدا في ١٩٨٥ عادت الامور الى نقطة الصفر مجددا. ومع مطالع ١٩٨٦ بلغ التدهور ما دون الصفر في موازاة اطاحة السيد ايلي حبيقة في المناطق الشرقية واندلاع المعارك في الدوار وتولي الجيش صد الهجمات على المتن.

يومها كان لميشال عون الكاره لنظرية « الامن بالتراضي»، ولكل اقتسام للسلطة مع الجيش والشرعية، رأي واضح في مبدأ « اعادة تأهيل الجيش». فوراء هذا المبدأ في عرف عون « شعور البعض ان الجيش سيكون الحل الذي لا بد منه نتيجة اجماع المواطنين، كل المواطنين، على المطالبة به كحل منقذ من سلسلة التجارب والاختبارات والبدائل الامنية التي دفعوا ثمن فشلها غاليا من ارواحهم وممتلكاتهم ومستقبل اولادهم ووطنهم».

وازداد تدهور الامور حين افضت مساهمة الجيش في صد اختراق حبيقة في ايلول ١٩٨٦ إلى افشال الاختراق. فمن جهة رفعت ميليشيات المناطق الغربية عقيرتها ضده، ومن جهة اقدمت ميليشيا المناطق الشرقية على اغتيال العقيد خليل كنعان. يومها نام عون على هذه الضربة الموجعة واكتفى بذرف دموع اصبحت مشهورة . لكن في حديث صحفي نشر مؤخرا لنائب قائد «القوات اللبنانية» كريم بقرادوني اجاب ردا على سؤال حول علاقة عون بـ « القوات»: مشكلة عون انه سجين قضية خليل كنعان، واذا تصالح مع «القوات» يكون تصالح مع ذاته، فهو كان في «القوات» قبل ان يصير جنرالا، علما ان الجيش في قلب «القوات» و«القوات» في قلب الجيش، وكلنا مصيرنا واحد». . . وذمة كريم واسعة! . لكن أقسى التجارب مع الميليشيات والسياسيين المسلحين ظهرت في ١٩٨٥ واستمرت. فالتضييق على تجهيزات الجيش أصبح قاتلا. بعض العسكريين راح يبحث عن عمل آخر. بعضهم راح يجمع الرصاص الفارغ ويبيعه، ثم راحت المقاطعة تفعل فعلها حائلة دون مناقشة المعاناة المتفاقمة. وينقل أحد اصدقاء عون عنه انه تنهد عميقاً وقال: انها حرب تجويع الجيش. لكننا سنخلق حوافز جديدة للعسكريين وسنستمر.

وموقف عون من هؤلاء السياسيين الذين انشأوا المدارس الحربية وخرجوا الضباط فيما المدرسة الحربية مقفلة منذ اربع سنوات، هو ما زاده اصرارا على رفض محاكمة اي ضابط بتهمة اغتيال الرئيس رشيد كرامي. صحيح ان كرامي قضى بطوافة عسكرية، لكن الجريمة، كما ينسب

الى عون، جريمة سياسية في المحل الاول، ومنفذوها هم اول العاملين على التشهير بالجيش والانتقاص من دوره.

الجيش ـ الام

ربما كان خصم ميشال عون الاول شكله الذي لا يشبه اشكال القادة. فهو قصير وسمين، ذو رأس صغير يقف على عنق مكتنزة، ويعلوه شعر جاف ابيضه قليل جدا، خفيف في قفا الرأس، اما من جهة الوجه فتتقدم شعرات قليلة الى الامام. خداه منتفخان وانفه نافر قليلا بما يوحي ان الرجل ولد كبير طافر في القرية وهو يلبس بنطلون شورت من دون قميص على صدره.

أين هرب؟ اعيدوه.

لكن هذا الملمح ليس ميشال عون على الاطلاق. فاذا امعنت في تفحص وجهه رأيت اشارات اخرى اشد نفاذا وتأثيرا. فهو قريب ذو بسمة ودودة تفتر عن اسنان صغرى ناصعة البياض في الفك الاسفل، وفقط عند الضحك تظهر الاسنان العليا وهي صغيرة ايضا. والعسكري كما ارتسم في المخيلة ذو انياب يصعب تبين لونها الابيض من الاسود والاحمر. وهو يعبر احيانا قليلة بتحريك اصابعه، يفرفكهاويطقطقهامن دون توتر، وبهدوء يتحدث كما لو كان يقنع محكمة بصواب حجته. عيناه صغيرتان وفيهما شيء من حنان غامض غير مألوف في العسكري او في الصورة الشائعة عنه. وحين يتحدث ميشال عون عن المؤسسة العسكرية يتحدث عنها بوصفها « اما حنونا»، فيما جرى التقليد على وصف الجيش بالابوة، والابوة في اكثر اشكالها صرامة ، لا سيما في العالم الثالث

المخاطرة بالحياة. عدم الخوف. الاحتفاظ بقمصان مزقها الرصاص. الاصرار على عدم الاستقالة مهما كثرت العراقيل، قصص واراء تسمعها عن ميشال عون الذي يبالغ في توكيدها، وهو الموصوف بميل مزمن الى الانطواء وعزوف عن الظهور الاجتماعي. ويقال عنه انه ابان انطوائه يقرأ. يقرأ ماوتسي تونغ وغيره من الكتاب العسكريين النظاميين والشعبيين، ويقرأ الانجيل وله اراء في الفوارق بين « المسيحية الاصلية» ومسيحية المذاهب والفرق، وله اراء سلبية في اليهودية هي امتداد لتقليد مسيحي في مناهضة السامية، برغم انكار عون هذه التسمية عن نفسه.

وهو الى ذلك قارىء مواظب للصحف. كان في السابق يقرأ « النهار» و « السفير» ومعهما صحيفة ثالثة متغيرة، لكن الملف اصبح اليوم اوسع بكثير فبات هناك شبان في مديرية التوجيه في الجيش يقرأون كل شيء ويسطرون بالاحمر وبالاخضر، ولكل لون معنى، ثم يرسلون ما يسطرون تحته الى القائد.

على اية حال فعقل ميشال عون مرتب، والكثير من افكاره مصاغ على شكل معادلات

تحاول ان تخلص الى معانيها بما قل ودل. واشهر تلك المعادلات قوله الذي حوله الجيش الى ملصق « لبنان اكبر من ان يبتلع واصغر من ان يقسم» وهو يرى اليوم ان « النهاية» بدأت تقترب و «المؤامرة »بدأت تفشل .ويتوقف عند الصعيد الدولي حيث لقاء الجبارين. فلبنان من الاماكن التي اصابها الانهاك من جراء صراع الجبارين لكنه مقبل على الراحة لان الصراع مرشح للانتقال الى امكنة اخرى. فالصراع الدولي يتم ، في عرف عون ، بالواسطة . أما المؤامرة ففشلها ناجم عن ان الحرب بسنواتها المديدة لم تنجح في تفسيخ البلد. وتوق اللبنانيين الى التلاقي هو الان اكثر من اي وقت مضى. قبل الحرب كان التوق السائد نحو التفرق والاقتتال ، الشيء الذي تغير بالكامل.

والامر نفسه ينطبق على الجيش، « فهو اقوى اليوم مما كان، لان الجندي اكتشف ان مشكلته الفعلية هي مع المسلحين من ابناء طائفته وليست مع الاخر الطائفي. والجندي في الظرف الراهن لا يغلب اي اعتبار على التزامه المهني والسياسي، وهذا هو سر قوته قياسا بالميليشيات المسلحة التي لا تملك اية ضوابط واية اخلاقيات». وينسب عن عون في هذا الصدد قوله انه بمجرد ان يفكر المسيحي بملاقاة المسلم في منتصف الطريق فهذا يعني وجود ضوابط عنده، والعكس بالعكس.

وعون المدرك لحساسية التركيبة اللبنانية مع جيش لا يسمح بتغيير النظام بالقوة، لكنه ايضا مع جيش لا يسمح بتثبيت النظام بالقوة. فالجيش يحرس الديموقراطية ويحرص عليها في مواجهة اقلية تتوسل العنف اسلوبا، الا انه لا يحبذ فرض نظام واهن ومفروض من الاكثرية ، بما يجعل استمراره مرهونا بالقوة وحدها.

واللبنانيون، كما يرى ميشال عون، استعملوا كل المحرمات في حربهم. استعملوا الليرة ولو استطاعوا اطفاء الشمس ليمنعوها عن الخصوم لفعلوا. لم يراعوا للخصومات حدودا هي مقومات الوطن ومرتكزات الكيان، والا فما هو السبب الذي جعل الاموال والذخيرة تتدفق على ميليشياتهم بسخاء لا يحد.

خلاصة حوار

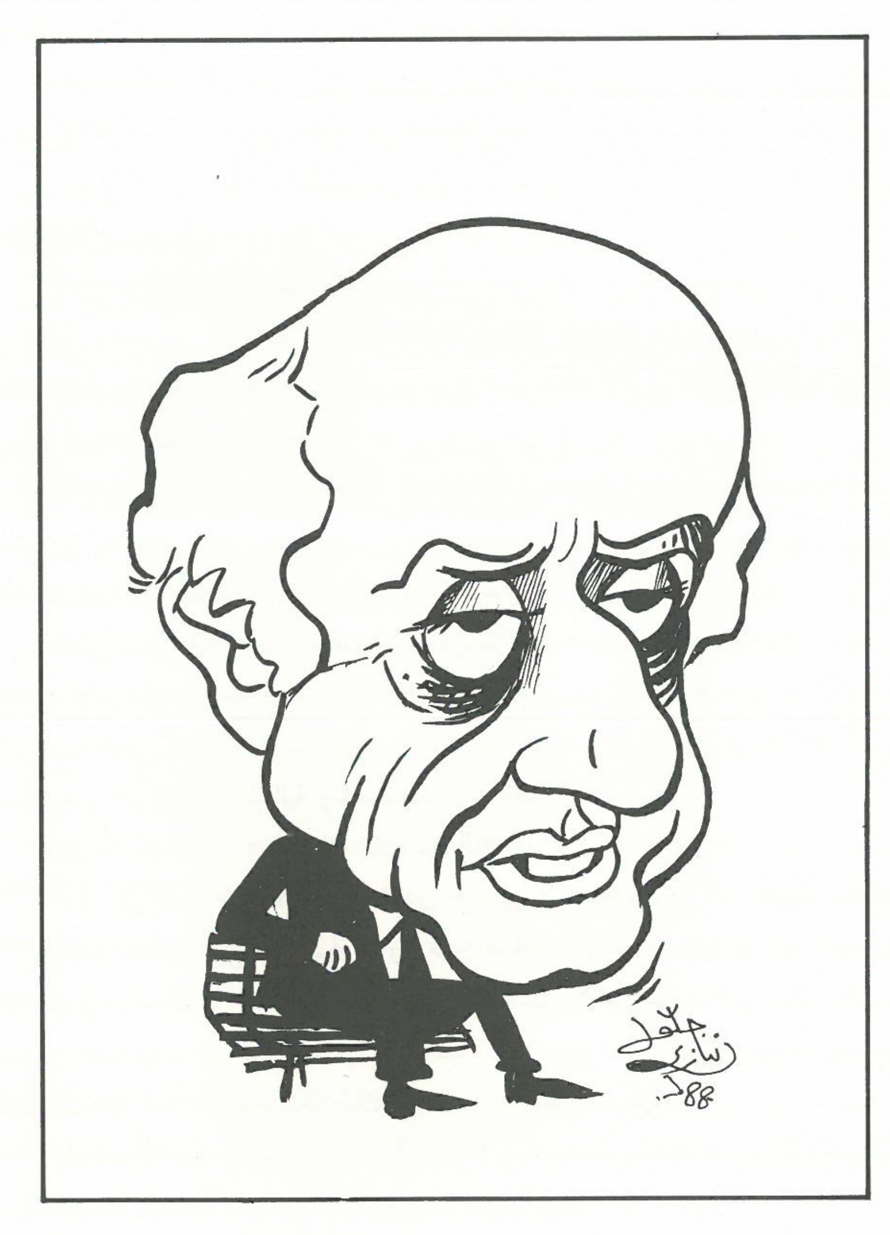
حين يسأل المقربون من ميشال عون لماذا لا يضع الجيش يده على الامن في مناطق تواجده اي المناطق الشرقية، يجيبون ان القائد يفكر بطريقة مختلفة. فهو يرى ان للجيش دورا على مستوى الوطن باكمله اما تصديه لأمن منطقة من دون اخرى فيجعله يبدو ميليشيا هذه المنطقة وميليشيا طائفتها.

من هنا ينسب عن عون قوله انه مانع للانفجار لا صانع للامن في المنطقة التي يتواجد فيها وهذا

الدور السلبي يذكر بدور فؤاد شهاب في ١٩٥٨: الحؤول دون دخول الجيش حلبة النزاع الاهلي.

وميشال عون الذي لم يعرف الرئيس شهاب كقائد للجيش ينسب اليه حماسه للشهابية الحاكمة بوصفها «دولة مؤسسات وانماء»، كما يعزى اليه تحفظه على الازدواجية والاجهزة في العهد الشهابي، برغم استدراكه: لا اعرف ما اذا كان يمكن بناء ما هو افضل يومذاك.

وطالما ان العنصر الفلسطيني قد كف عن التأثير في صلب الحياة السياسية اللبنانية بات اسم عون يرتبط بمجريات الحوار السوري - الاميركي الذي ارتبط به سابقا اسم الجنرال شهاب. فالمحامي كريم بقرادوني، مثلا، لم يتردد في حديث الى «المسيرة» في ان يسمي قائد الجيش مرشح الاميركان. اما السوريون، ومن دون ان يتبادلوا مع عون اية عواطف خاصة، فان تعاطيهم مع طوافة ادما دل على استعدادهم للبحث وانفتاحهم على النقاش. ومن يدري ما اذا كان ثنائي روبرت مورفي - فؤاد شهاب مرشحا لان يتقمص في ثنائي ريتشارد مورفي - ميشال عون. وتاريخ الولايات المتحدة يقول ان الخروج من الحرب اقترن بترئيس رجل من العسكر: الجنرال اوليسيس غرانت بعد الحرب الاهلية، والجنرال داويت ايزنهاور بعد الحرب العالمية الثانية، وطبعا قائد الجيش جورج واشنطن بعد حرب الاستقلال.



ادمون نعيم

عائلة نعيم في الشياح احدى أبرز عائلاتها المارونية الدستورية. وقد شرح لنا ادمون نعيم الدستورية كما فهمها في شبابه واحتفظ بـ «جوهرها»:

«كنت أعتقد أن الرجالات الدستوريين كانوا منفتحين على العالم العربي ويرغبون في توطيد أعمق العلاقات بهذا العالم مع الحفاظ على الصيغة اللبنانية. وقد لخص المرحوم رياض الصلح، الذي لم يكن دستوريا بكل ما للكلمة من معنى، ذلك بقوله انه يرغب في أن يكون لبنان حرا مستقلا ولا يكون للاستعمار مقرا».

جد ادمون، انطون نعيم، كان من أعيان الشياح والساحل اذ كانت بلدية الشياح مشتركة مع المناطق المجاورة. أما جدته فكانت خالة الدستوري المعروف ميشال زكور بما جعل العقد القرابي النعيمي الزكوري هو السد الدستوري في وجه عائلة الأشقر الكتلوية الأدية في الشياح وأبرزها الدكتور نخله الأشقر.

العائلة التي كبر عددها بعد الحرب العالمية الثانية بفعل التناسل كانت زعامتها انتقلت من انطون الى ابنه وديع، والد ادمون ونديم، والقطب الدستوري الذي شغل النيابة والوزارة وعرف بخدماته التي أفاد منها الجمهور الشيعي افادة المسيحي.

فوديع نعيم الذي رأس الوفد اللبناني الى مؤتمر سان فرنسيسكو في ١٩٤٥ وتولى نقابة المحامين أربع مرات، نجح في أن يكون محامي المقاصد الخيرية الاسلامية طوال عشرين سنة وفي الآن نفسه محامي البطريركية المارونية. وادمون يصف والده الذي توفي في ١٩٦٥ بأنه «كان منفتحا على كل الفئات اللبنانية ومؤمنا بلبنان الواحد».

هل دعمك الوالد في حياتك السياسية اللاحقة؟

نعم. في المعركتين الانتخابيتين اللتين خضتهما في ١٩٥٧ و١٩٦٠ حظيت بدعمه.

والدة ادمون أديل ابراهيم بدوره من أسرة كاثوليكية صغيرة في دير القمر توالي «الدستوري» يومها كميل شمعون في مواجهة التيار الكتلوي ممثلا ببساتنة الدير. وقد خلت عائلة نعيم من المصاهرات التي يمكن وصفها بالسياسية، في استثناء اقتران شقيقه نديم بكريمة المرحوم ملحم سماحة أحد الوجهاء الكاثوليك في الخنشارة بالمتن الشمالي.

ولد ادمون نعيم في الشياح في أيلول ١٩١٨. ومنذ صغره كانت له «هيئة الرجل الكبير» بحسب وصفه. شقيقه الراحل نائب المتن الجنوبي نديم يصغره بسنة.

في بيروت التقى ادمون بالالمانية البرلينية التي تحمل الجنسية الأميركية هيلدا هوفر فاقترن بها، وكان لهما صبي وكريمتان. الأول وقد أسمي فوريست بحسب رغبة الوالدة، يعيش في نيويورك بعد ان نال شهادة أم. أس في الكومبيوتر. أما شقيقتاه فاحداهما اقترنت باميركي، والأخرى بالدكتور جوزيف بشارة الطبيب في مستشفى سيدة لبنان وشقيق انطون رئيس الاتحاد

العمالي. تأملوا، ابان احتدام النزاعات بين المصرف والاتحاد.

الآباء اليسوعيون هي المدرسة التي دخلها ادمون للمرة الأولى فلم يخرج منها الا وقد نال القسم الثاني من البكالوريا. بعد ذلك توجه الى كلية الحقوق الفرنسية في بيروت فحصل على الاجازة في ١٩٤١، ومضى منجزا دبلوم دراسات عليا في القانون الخاص وآخر مماثلا في القانون العام، لينال شهادة دكتوراه دولة في ١٩٥١.

لكنه ابتداء من ١٩٤١ شرع يتدرج في مكتب والده للمحاماة التي ظل يمارسها حتى ١٩٦٤. وفي موازاتها باشر تدريس الحقوق في الأكاديمية اللبنانية منتقلا الى الجامعة اللبنانية منذ تأسيسها، ومدرسا في كلية الحقوق من تاريخ نشأتها في ١٩٥٩.

اذن اضاف ادمون نعيم الى التراث الدستوري صلة وثيقة بواحدة من أبرز المؤسسات الوطنية، أي الجامعة اللبنانية التي بات عضو مجلس ادارة في كلية الحقوق التابعة لها.

في ١٩٦٤ تخلى نعيم عن المحاماة ليبقى محاميا شرفا في نقابة المحامين ويدخل ملاك كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية. وفي العام التالي عين عميدا للكلية وبقي حتى ١٩٧٠ عندما انتخبه مجلس الجامعة بالاجماع رئيسا للجامعة طالبا من السلطة التنفيذية في بداية عهد الرئيس سليمان فرنجية أن تكرس ذلك بمرسوم، وهكذا كان، وبقي ادمون حتى استقالته في ١٩٧٧.

بين ١٩٧٧ و١٩٨٥ مضى يدرس في كلية الحقوق الى ان عين حاكما لمصرف لبنان: واحدة أخرى من أبرز المؤسسات الوطنية.

في مكتب الحاكمية

ادمون نعيم الاستاذ الجامعي بامتياز. يستقبلنا في مكتبه في حاكمية المصرف المركزي برحابة من يستقبل طلابا يسألون ويستفهمون. يشرح ويستفيض بتعبيرية هادئة ودافقة لا تخالطها الخطابة العربية، وان تخللتها بسمات وديعة مقتصرة كتلك التي يحظى بها تلامذة يتابعون درسهم بدأب. أما أستاذهم الذي لا يتعفف عن مزحتين مؤدبتين وضامرتين، فيتمنى لهم كل التوفيق جزاء حسن بلائهم.

معنا يجلس عدنان عبد الرحمن مدير المجالس في المصرف المركزي. يذكر الحاكم بنقطة سها عنها أو يقترح تجنب اثارة الحساسيات في طرح هذا أو ذاك من مواضيع المال والعملة. لكن هيهات أن يسهو نعيم، الحريص كذلك، على أن يكون صريحا لا يخاف لومة لائم في قول ما يعتقده صوابا.

ادمون نعيم الذي استهل لقاءه معنا بكلام حميم عن الضاحية الجنوبية التي هو منها، لا ينسى ان يطلب آلة التسجيل اذ الكلام ليس بلا مسؤوليات أو بلا مقابل.

وحاكم المصرف المركزي قليل التردد حاليا على المناطق الشرقية. يقيم في أعلى المبنى التابع

للمصرف. تخال انه يحرسه ليل نهار. فهو في أغلب الظن قليل الثقة بالأوضاع التي آلت اليها «الحروب» لا الحرب الواحدة كما يرى.

دؤوب، دقيق، شديد الحرص على المال العام حرصه على تنظيم رأسمالية يعوزها، في رأي الكثيرين، قدر كبير من التنظيم والتشريع.

الابن البار للقطاع العام يطلع على ما يعرض عليه من أوراق بتدقيق ملحوظ. يلبس النظارات. يسأل. يناقش. يقرأ. ينظر. يسمع. وحين يقتنع يرسم لحامل الورقة بسمة تشي بالتفهم، ويوقع. مال المجتمع في عهدته بعد أن مكث تعليم المجتمع طويلا في العهدة نفسها.

والرجل الذي اتهم بتغليب القانون على كل اعتبار، ونسبت اليه عيوب الاقتصاد اللبناني فبات رمزا للكوارث، يتحدث أحيانا وكأنه يتألم من ظهره. ففي زمن الحرب والفوضى قذفت الأقدار بهذا الرجل الى رئاسة أركان الاقتصاد اللبناني. وهو شاء في هذا الزمن بالتحديد ان ينظم الاقتصاد بهمة لا تفتر.

وادمون نعيم لا يطيق الزاحلة في القانون. أطروحته في ١٩٥١ والتي طبعت بعد عامين عنوانها «الخطأ في القانون اللبناني بالمقارنة مع القانون الفرنسي». وهو عضو في جمعية التشريع المقارن الفرنسية، والجمعية الدولية اللاتينية لرجال الحقوق التي شارك في مؤتمرها الباريسي في ١٩٥٤.

لوهلة، وقبل أن تستمع اليه وتدنو من وقاره ورزانته، تقول: هذا هوالشيطان الرجيم بعينه. وجهه يحرك في النفس أجزاء مبعثرة من صورة الشيطان كما ارتسمت في المخيلة.

تحسه لم ير النور منذ زمن طويل ولا تعرضت سحنته الى الشمس لكثرة ما مكث في مكتبه، أو بالأحرى مكتبته، كما يستدرك هو باستمرار.

وتحس ان استغراقه في ما هو مستغرق فيه من نصوص ودساتير وقوانين يجعله كائنا داخليا بحتا. انت معه لكنه هو مع نصوصه ودساتيره وقوانينه. ولهذا يأتيك صوته وكأنه منفصل تماما عما يفكر به فيبدو متقطعا مرتجا تقطع وارتجاج صوت الشيطان الذي تفصله عن سمعك الوديان والهضبات.

لكنه لشدة حرصه على ما يقول، يستجمع نفسه وينزل رأسه عميقا في رقبته مطلقاالعنان لعينين غائرتين وشفتين غليظتين مطاطيتين في اتساعهما وتقلصهما. وكلما استجمع نفسه وغارت عيناه تأكدت أكثر من داخلية الرجل ومن استماعه، وهو يتكلم، لشخص آخر يقيم في مكان ما من جسده.

وصورة ادمون نعيم المسكون يعززها قليل من الاحدداب في ظهره والذي يأكل من طوله ويجعله منحنيا في قوامه ومعتدل الطول.

وهذا الاحدداب الذي يسهل للعنق انخسافها بين الكتفين لا ينفك يذكر بموصوف ابن الرومي الذي تجمع لاحساسه ان صفعة أخرى على الطريق.

لون نعيم كأنه من الغبار الأسمر، وهو أصلع ترك العمر بعض آثاره بقعا على جلدة رأسه.

يلبس بذلة قديمة أوسع من جسده، في جيب سترتها محرمة زرقاء. انها الأناقة القديمة في عالم متهور خلع قديمه فاذا به يخلع أناقته أيضا.

والكلام مع الحاكم غالبا بالفصحى، وفصحاه من عيون اللغة وبسيطها.

اشتراكية وانتخابات

ادمون نعيم لم يبق خارج حلبة العمل الحزبي والسياسي، فانضم في ١٩٥١ الى «الحزب التقدمي الاشتراكي» الذي لم يكن انقضى عامان على تأسيسه، وصار عضواً قيادياً فيه شاغلا منصب «مفوض الاقتصاد والتعمير».

صحيح ان نعيم سليل تراث دستوري عريق وان سنة انتسابه كانت فترة الهجوم الجنبلاطي الاعنف على عهد الشيخ بشارة الخوري مؤسس التيار الدستوري.

لكن الصحيح ايضاً ان رجل القانون المهتم بان يشق طريقاً مستقلة عما ورثه في البيت، لم تعد تقنعه الدستورية الهرمة. بات يبحث عن نشاط سياسي يتراءى له اكثر تحديثاً من دون ان تنقطع صلته بالثوابت الدستورية: التعايش والبرلمانية ووجه لبنان العربي.

وبعد كل حساب هل كان يعقل ان ينخرط ادمون نعيم، القانوني النزيه غير الساعي وراء الخدمات والتنفيعات، في دستورية تعيش انحطاطها وتعاني انبعاث روائح «السلطان» سليم الخوري؟

هكذا دخل في «الحزب الاشتراكي» حيث بقي حتى ١٩٦٤ سنة انضمامه الى ملاك الجامعة. عندها استقال ادمون من الحزب لان القانون يمنع الجمع بين الوظيفة والحزبية واستمر على صداقته لكمال جنبلاط.

ويروي بطريقته المهذبة: كان لي شرف التعاون مع كمال جنبلاط. كتبت خلال تلك الفترة مقالات اساسية في «الأنباء» صحيفة الحزب، وكنت اكتب عمودي السياسة الخارجية والداخلية فيها من دون توقيع.

وفي عودة تالية الى كمال جنبلاط، يقول نعيم: العلاقة به كانت علاقة تقدير متبادل، وكان لي الشرف الكبير بأن يأتمني على امور عدة وان يطلب مني التدخل في بعض القضايا بالنيابة عنه.

تسأل ادمون نعيم وفي الخلفية وعيه الحقوقي للأمور:

الم يكن الطابع الدرزي للحزب الاشتراكي مدعاة لنفورك؟

الحزب، كما يجيب، كان اشتراكياً صرفاً في ميثاقه وفي تصرفات قادته ومنهم جنبلاط وانور

الخطيب وفؤاد رزق وجورج فيليبيوس ورينيه نمور وموريس صقر، وكان ينتمي الى هذا الحزب اسمياً فقط بعض الاتباع لكل من القادة، لكن القادة كانوا اشتراكيين حتى دخلت السياسة المحلية لتفرق بين الحزبية الضيقة وبين الاشتراكية الحقيقية. فبعد ١٩٥٢ وخصوصاً بعد ١٩٥٤ دخلت السياسة الفئوية لترغم المرحوم جنبلاط على اللجوء الى الفئة التي ينتمي اليها اصلاً حتى يتمكن من الدفاع المادي عن نفسه. لقد ارسلوا اليه قوى الامن... هل يدافع عن نفسه بالاشتراكية والاشتراكيين؟

حقوقية ادمون نعيم تبلغ ذروتها هنا. فهناك في عرفه «حزبية ضيقة» هي من الواقع، وهناك «اشتراكية حقيقية» هي من الافكار الصائبة. وهذا الرذل للواقع (الطائفي) يحمله على عدم الانتباه الى اللون الطائفي للاشتراكيين الذين اسماهم يوم كان الحزب ما يزال مغامرة ثقافية لم تنخرط في سياسة الواقع بتسليم «واقعي» مبالغ فيه.

تسأله عن علاقته بالوزير وليد جنبلاط. يوحي بأنها لا بأس بها الا انها بكمال كانت شيئاً آخر، اذ هناك فوارق في الاعمار والأمزجة بطبيعة الحال.

عمل ادمون نعيم السياسي لم يقتصر على الميدان الحزبي، اذ دخل حلبة النشاط الانتخابي مرتين من دون ان يصحبه التوفيق.

ففي ١٩٥٧ رشح نفسه عن بعبدا ـ المتن الجنوبي على اللائحة المعارضة للعهد الشمعوني التي ضمت اليه الشيعي خضر حركة والماروني ميشال فرحات. لكن الصوت الماروني هو الحاسم في الدائرة المذكورة كما هو معروف. وهكذا فازت اللائحة ذات الهوى الشمعوني ـ الادي فاحتل المقعدين المارونيين ادوار حنين وايليا ابو جوده، وفاز بشير الاعور عن المقعد الدرزي، ومحمود عمار عن الشيعي.

وفي ١٩٦٠، وكان تمثيل الدائرة قد وسع باضافة مقعد ماروني ثالث، عاود ادمون الكرة على لائحة الدستوري ـ الشهابي الدكتور الياس الخوري. وفيما تمكن ثلاثة من حلفاء نعيم، هم الخوري وميشال فرحات ونجيب صالحه، من دخول البرلمان، كان الفشل حليف ادمون لصالح ادوار حنين على اللائحة المقابلة ومعه محمود عمار.

قبل تشكيل اللوائح اقترح نعيم على رئيس اللائحة الدكتور الياس الخوري اصطحاب المرشح الكتائبي عبده صعب معهم. فالكتائب كانت حققت فورتها المسيحية في ١٩٥٨ والتي ارادت استثمارها في الانتخابات التالية. واصطحاب كتائبي على اللائحة المناهضة لشمعون واده يكسر حدة الدعاية التي يروجها الشمعونيون من ان الخوري ونعيم وصحبهما اعداء للموارنة متحالفون مع خصومهم. ثم ان انضواء كل من كمال جنبلاط وبيار الجميل يومذاك في العباءة الشهابية كان يتيح مثل هذا التحالف في المتن الجنوبي.

بيد ان الخوري الكاره للكتائب قاوم الفكرة بعناد، فهو لا يريد ان يسجل على نفسه مثل هذه السابقة. وهذا الرفض الذي ابداه السياسي الدستوري ـ الشهابي هو ما حال دون فوز افراد اللائحة كلهم.

يبقى ان ادمون نعيم، التقدمي الاشتراكي، تعرض بصورة خاصة لحملة مركزة سيما وان كمال جنبلاط كان رجل المقاومة المسلحة الاول للعهد الشمعوني في ١٩٥٨، الامر الذي اتاح تقديمه للجمهور الماروني بوصفه رمز الخطر الاكبر والابرز.

ويروي ادمون نعيم: مع انني في ١٩٥٨ لم اشترك اطلاقاً في الاحداث بل بقيت في مكتبي اكتب واترقب، فوجئت بشائعة تقول انني كنت «رئيس المحاكم الشعبية». وفي انتخابات ١٩٦٠ نشر خصومي هذه الدعاية على اوسع نطاق مما اضطرني الى رفع دعوى على منافسي المرحوم ايليا ابو جوده بوصفه مروج تلك الشائعة. فحين انكر تنازلت عن المضي في الدعوى.

على اية حال فادمون القانوني في مكتبة او المدير في مؤسسة عامة يستدعي تسييرها الكثير من الحرص والدأب والقانون، ليس في اغلب الظن سياسياً، وبالتحديد رجل انتخابات في الشارع والبيوت وبين الناس.

وفشلان كانا كافيين لاقناعه بالعودة الى مكتبته وافساح المجال لشقيقه نديم الذي صب رافده الدستوري في النهر الشمعوني، لا الجنبلاطي كما فعل اخوه الاكبر. وفي ١٩٦٤ كان نديم عضواً في اللائحة الشمعونية ونائباً في البرلمان لم تنقطع نيابته حتى وفاته قبل فترة وجيزة خلت.

وفي ما يتصل بآرائه السياسية الحالية يزودنا ادمون نعيم بمقالين نشرهما في «حاليات»، الأول في العدد ١٩٨٣/٣١ يحمل عنوان «مقترحات لنظام دستوري جديد» حيث يستعرض التقارب الذي حصل بين المجموعات الطائفية حيال الفكرة اللبنانية، متحفظا على العلمنة والدولة الوحدانية بوصفهما تحدان من «استقلال ارادة كل من المجموعتين في آن»، داعياً الى «حياد دائم» لا مجرد حياد حيال نزاع بين دولتين، من دون ان يفوته استدراك مهم:

«اما في المنازعات التي تقوم بين دولة عربية ودولة اجنبية، او بين دولتين اجنبيتين، فلا يتدخل لبنان فيه بل يبقى على الحياد، ما لم تتخذ الدول العربية ـ بغالبية يتفق عليها ـ موقفاً معيناً من هذا النزاع. عندئذ يترتب على الدولة اللبنانية ان تقف بجانب القرار المتخذ».

اما المقال الثاني في العدد ١٩٨٤/٣٤ فيحمل عنوان «التعددية الطائفية والتمثيل الشعبي في لبنان» داعياً الى تمثيل نسبي غايته «بالاضافة الى توزيع المقاعد بين الطوائف (....) ليست (...) ايصال اللبنانيين المنتمين اسمياً الى الطوائف، بل ايصال اولئك الذين يمثلون الطوائف حقيقة (لا بتعاليمها الدينية، بل بمصلحة ابنائها المادية)، اي الذين يؤيدهم بصدق ابناء الطوائف، وفي الوقت ذاته ايصال معتدلين من كل الطوائف يكونون صلة وصل بين الاطراف

المتشددة ».

آراء ادمون نعيم السياسية اليوم تجمع بين حكمة الزمن وثوابت لبنان في محيطه العربي.

فالحرب عنده هي حروب عدة، ولو لم تنشأ اسرائيل لما كانت الحرب. وجودها قلب الاوضاع العربية رأساً على عقب، فانطلقت الحرب من حرية العمل الفلسطيني في لبنان.

وكقانوني وسياسي عاصر ثنائي بشارة الخوري ورياض الصلح، فان له آراء مختلفة في الغاء الطائفية السياسية والمشاركة وغيرهما من المسائل المثارة.

يقول كأنه نسي التزمت القانوني: انها قضية رجال. تصرفاتهم وسلوكياتهم وقوتهم. اعطاء الطوائف حقها، هذا طبيعي .لكن الأساس هو ما اذا كان الرجال رجالاً، فالدستور قابل للتطوير والتعديل. يضرب مثلاً برياض الصلح.

في الحاكمية

كيف وصل ادمون نعيم الى حاكمية مصرف لبنان؟

ذات يوم مساء كنت جالساً في مكتبي في الرابية احضر الدرس لليوم التالي في كلية الحقوق. يرن جرس التليفون ويكلمني موظف كبير جداً في الدولة هو صديق وتلميذ سابق قائلاً: اريد ان ازاك الآن. قلت: اهلا وسهلاً. وجاءني ومعه قوات امنية جرارة. استقبلته.

قال: السلطات وعلى رأسها فخامة الرئيس رأت... هل تقبل؟

اجبت: انا حاضر لخدمة المصلحة العامة...

قال: ارغب ان يبقى الأمر سراً حتى صدور قرار مجلس الوزراء...

وتأخر صدور القرار عن الموعد المضروب الى ان ظهر في ١٢ كانون الثاني ١٩٨٥.

يتوقف هنا سرد ادمون نعيم. نعود الى رواية صحافية ظهرت حينذاك مؤداها ان الدكتور سليم الحص، وهو اقتصادي، كان ينوي في مجلس الوزراء معارضة تسمية نعيم لانه غير اقتصادي، لكن الوزير نبيه بري، وهو تلميذ سابق لنعيم، اشعر الحص بحركة من تحت الطاولة بأنه يستحسن ان لا يعارض.

نسأل نعيم عن الخلفيات السياسية للتعيين، ونذكره بان جميع الذين تولوا هذا المنصب كانوا مسيحيين معتدلين، وضمن الخانة الشهابية ـ الدستورية تحديداً: فيليب تقلا، الياس سركيس، ميشال خوري ونعيم نفسه...

● ربما. لكن هذه هي قصة تعييني. أنا لا انتمي لاحد ولا التجىء لاحد كي يعينني.

قبل ذلك كانت علاقة ادمون نعيم بالمصرف المركزي تقتصر على صلته بمادة الاقتصاد من الزاوية الاكاديمية. فهي تدرس في كلية الحقوق، والكثير من القوانين يستند الى الاقتصاد وهو يستطرد شارحا:

من هذه الوجهة الضيقة كنت انظر للاقتصاد. وكان فيّ قمانة للاقتصاد فتفجر ذلك عند تعييني حاكما.

ادمون نعيم الذي يحتفظ في مكتبه بملف يحوي مقالاته، يتوقف عند بعضها لاسيما افتتاحيته في «السفير» في ١٩٨٢/١٢/٣٠ التي حملت عنوان «نظرات في المفاوضات اللبنانية الاسرائيلية». هذه المقالة كتبت في الرابية حيث كان الاسرائيليون. وادمون مساجل لا يتردد لدى ايراد رأيه في ايراد الحجة المقابلة غير عابىء بنصيحة احمد بن حنبل لتلميذه.

.. من المآخذ التي ذكرت انني تقدمي اشتراكي اريد ان اؤمم..

ـ لكن الدولار كان بـ ١٠ ليرات يوم تسلمك البنك المركزي وارتفع الى ٦٠٠ ـ ٦٥٠ ليرة. المشاكل مع المصارف ومع الدولة. الاتهام بتجويع الناس. فادمون نعيم، بحسب المتذمرين الكثر، لا يريد ان يصرف لا على البنزين ولا على الرغيف. والقانون عنده قبل الجوع كما قيل..

● عند مجيئي الى المصرف المركزي حملت معي رغبة بالمحافظة قدر المستطاع على اموال الدولة، وبصورة اعم على المصلحة العامة. الخراب والدمار جعلا اللبنانيين والعالم يفقدون الثقة تدريجيا بالعملة اللبنانية والعملات الاجنبية خف عرضها في سوقنا. ومع رحيل رؤوس الاموال الى الخارج افقدت الليرة اللبنانية القسم الكبير من قوتها. يضاف الى ذلك وصول الدولة في بداية ١٩٨٦ الى انهيار موازنتها بحيث انها باتت تنفق من دون ان تؤمن واردات لها. وما زاد في الطين بلّة ان المسؤولين لم يستدركوا كل ذلك بل اخذ بعضهم يطلب ان يستفيد من فروقات القطع الدفترية الناتجة عن تدني قيمة الليرة، وبالتالي عن صعود قيمة الذهب المتوافر في مصرف لبنان محسوبا بالليرة اللبنانية.

رفضت ذلك وتمسكت بموقفي واستغربت كيف يمكن ان تفسر النصوص القانونية بهذا المعنى. واخيرا عثرت في قانون النقد والتسليف على ما يؤكد صحة وجهة نظري. في تلك المسيرة كنت انا وزملائي في مصرف لبنان نعارض طلبات التسليف التي تقدمها الدولة في اكثر من مجال لاننا كنا نلاحظ ان فيها اسرافا، وانه يقتضي في الظروف الحالية اتباع التقشف.

ويمضي نعيم: في البدء كانت السلطات تقاومنا، ثم رويداً رويدا اقتنع البعض بصحة تدابيرنا واسس علاقتنا المالية مع الدولة. جعلنا اللبنانيين يثقون بنا، الثقة التي انتقلت منا الى عملتنا الوطنية التي عادت تتحسن بالتدريج. هناك عوامل عديدة اسهمت مجتمعة في تحسن الليرة، لكن الاهم بينها ثقة المواطنين بعملتهم، اي بالقيمين عليها، اي بمصرف لبنان.

بالنسبة للدعم. البنزين؟ اثناء الحرب الثانية كان مواطنو بعض الدول الاوروبية يتنقلون على ارجلهم او الدراجات الهوائية، والدولة كانت تقنن التيار الكهربائي. استغرب كيف يمكن تخفيض سعر البنزين فيما الدولة تعجز عن استيفاء ما يترتب لها. باستثناء ما يحسم من معاشات

الموظفين يندر وجود من يدفع رسوما وضرائب.

ويستطرد حاكم المصرف المركزي: لحظة وصولي كان هناك ٣٠٧ ملايين دولار كاحتياط بالعملات الصعبة. مذاك صرفنا على الدولة ٢,٢ مليار دولار، ومع هذا عندنا الان ٦٠٠ مليون دولار حرة من اي قيد.

بصدد التعميم الذي اقامت المصارف الدنيا عليه ثم تراجعت، من المناسب حاليا ان اقول ان بعض المصارف تتقيد بالنصوص القانونية والتعاميم الصادرة عن مصرف لبنان، لكن اخرى تخالف.

يقول لنا البعض: لماذا لا تلاحقون هذه المصارف؟ وجوابي ان تفسيركم لنصوص السرية المصرفية يحول دون امكان اثبات المخالفات التي ترتكبها بعض المصارف. السرية المصرفية غايتها حماية حسابات الأشخاص من دون سواها، فاذا لم تمكنوا مصرف لبنان من الاطلاع على كل الامور لكشفها، فأنا لا استطيع ان اثبت المخالفات.

يضيف نعيم شارحا: انا مع السرية المصرفية في حدود عدم اعطاء معلومات عن حسابات المودعين وعدم حجزها. ولكنني ضد القول بانه يمنع على السلطة النقدية الاطلاع على ما يجري داخل المصارف وتأمين الاحصاءات الضرورية لبناء قطاع مصرفي حديث وسليم. وحتى الان ومن دون ان يستمع المسؤولون واصحاب المصارف الى اقتراحي، وقبل ان افسر اقتراحاتي يقولون: السرية المصرفية لا مساس بها. مؤخرا تبين ان اموالا هائلة بالعملات اللبنانية موجودة في بنوك فرنسية، ولا نستطيع ان نعرف.

المكتبة هي الثروة

ثقافة ادمون نعيم ثقافة دستورية اساسا، والسياسة عنده تؤتى من الدستور والانظمة والقوانين. هذا هو العرش الذي يستوي عليه ادمون.

وضع دراسات عدة والف سبعة كتب اغلبها في الحقوق والعلوم السياسية، وفضلا عن مساهمته في «الانباء» و«الاوريان» حيث كتب افتتاحيات ما بين ١٩٥٤ و ١٩٦٠، كتب دراسة مفصلة القاها كمحاضرة عن «التقدمية الاشتراكية في لبنان: نظريتها وتطبيقاتها». ومؤخرا ومع احتدام النزاع حول سياسة المصرف المركزي، وجد بين المصرفيين من يبرز نسخة من هذه الدراسة في جلسة عامة لمجلس المصارف.

لكن نعيم ما لبث ان فصل الدراسة المذكورة في دراسات لاحقة يبين فيها «ماهية الاشتراكية» كما يدين بها، معتدلة قوامها توسيع الدور الاقتصادي للدولة.

سألناه عن مرحلة تعاونه مع جورج نقاش في «الاوريان». دافع عن استقلالية نقاش.

أرانا كتابا بالفرنسية نشره في ١٩٥٩ بعنوان «وجهات نظر» هو مقالات صحافية قدم لها نقاش.

قرأ لنا بعضا منها بتعبيرية تذكر بالصور التي كانت تنشرها «الندوة اللبنانية» لمحاضريها على اغلفة كراريسها. بدا ادمون نعيم، احد محاضري تلك الندوة شبيها بهنري فرعون وهو يقرأ. ولا تكاد الافكار تأخذك الى ذاك العالم المنصرم حتى يبادر ادمون نعيم:

في «الاوريان» كانت لي مساجلات مع شارل حلو.

ونفهم منه انه يومها دافع عن القوانين والدساتير في مواجهة حلو، وهو تلميذ ميشال شيحا القائل بالتخفيف من وطأة القوانين.

ـ ماذا يقرأ ادمون نعيم حاليا؟

● القوانين السائدة في العالم والاسباب الموجبة التي دعت الى اصدارها، العلوم السياسية والاجتماعية، علما بان كل هذه المجالات تؤلف بنظري وحدة، اذ كلها تصلح منطلقا لسن القوانين التي تكون المجتمعات بحاجة اليها.

ـ هل تتابع مستجدات العلوم السياسية؟

● نعم. عندي مجموعة القوانين التي تنشرها «مؤسسة العمل الدولية» وكذلك مجموعة قوانين الضمانات الاجتماعية. وكنت وما أزال من المدافعين عن الحقوق الاجتماعية للفرد، وبصورة خاصة عن العدالة الاجتماعية.

ـ الصحف؟

● اللبنانية بسرعة، استنبط ما في داخل المقالات من عناوينها. تنقل لي مقتطفات من صحف اجنبية.

ـ الشعر؟

● انا من المعجبين بعدة شعراء. انما خصوصا بفيكتور هوغو

كلام عام في الكلاسيكية وغير الكلاسيكية والعرب وغير العرب يخرج منه اعجاب ادمون نعيم بمخائيل نعيمة في قصيدة «أخي ما نحن . .» التي يروح يتلو ابياتا منها، وبجبران خليل جبران في «الارواح المتمردة» و«الاجنحة المتكسرة».

ـ مسرح، فنون؟

● في المسرح فيكتور هوغو ايضا. شكسبير. المسرح الكلاسيكي الفرنسي. في الفن انا كلاسيكي صرف

عموما وكمعظم الأكاديميين ثقافة نعيم الدستورية في مكان وثقافته الثقافية في مكان اخر لم يتجدد.

ـ مدى معرفة لبنان والعالم العربي

● العالم العربي زرته بافكاري اكثر مما بجسدي. ذهبت مرارا الى الدول العربية الشقيقة

لكن السفر كان ترفيهيا. اغلب سفري الى الغرب. قمت بزيارات بمناسبة مؤتمر اتحاد الجامعات العربية، ومؤخرا مؤتمر الصندوق العربي في تونس. وأعرف اغلب مناطق لبنان.

- زعماء شكلوا قدوة؟

● هناك تقدير من زوايا معينة. بشارة الخوري للحنكة وفؤاد شهاب للنزاهة والتنظيم وشكري القوتلي وعبد الناصر..

- هل تتابع تطورات دولية.. اصلاحات غورباتشوف مثلا؟

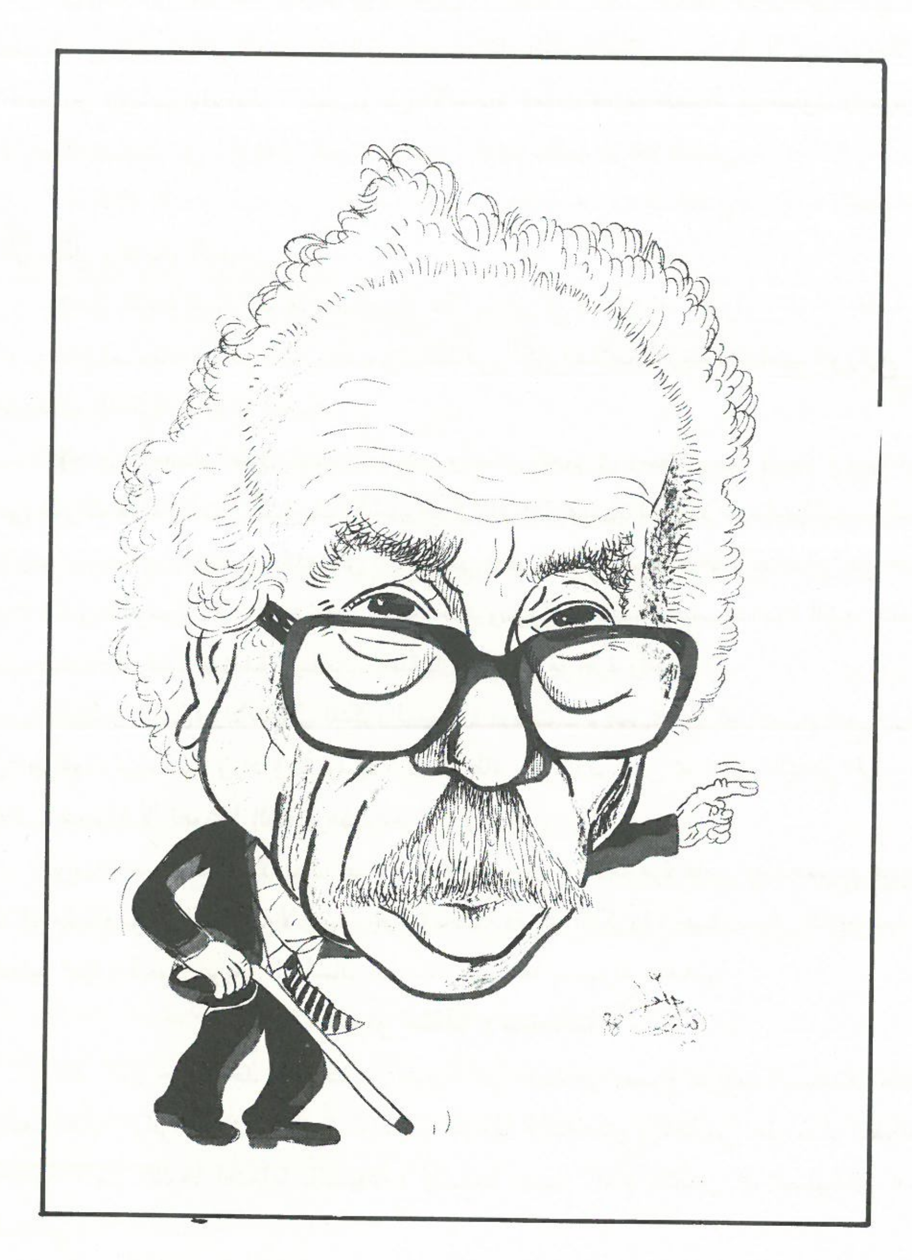
● بشكل عام لا بالتفصيلات.

- كيف يعرف ادمون نعيم نفسه اقتصاديا؟ يأتيك جواب ناصع تفصيلي صريح بلا غمغمة:

● انا لم احصل اثناء ممارستي مهنة المحاماة اموالا كبيرة، اذ انحصر تحصيلي في ما هو ضروري للعيش الكريم ولشراء الكتب التي الفت وتؤلف قسما كبيرا من اسباب عملي في هذه الحياة. لقد ترك لي والدي اموالا لا بأس بها صرفت القسم الاكبر منها وما يزال لي حتى تاريخه فيلا في الرابية وقطعة ارض بالقرب منها سجلتهما على اسم زوجتي. ولي ربع بناية في الاشرفية هي ملك العائلة اذ تعود ثلاثة ارباعها لاشقائي. كما ان لي بعض الاسهم في عقارات في ضهور العبيدية وفي الاشرفية والشياح هي ارث عن الوالد. وتلك التي في الشياح بيعت جميعها تقريبا فلم يبق منها الا جزء ضئيل جدا هو المحيط ببيت الاجداد.

أهم ثروة عندي مكتبتي التي تضم ثلاثين الف مجلد افردت لها طابقا خاصا بها في الرابية.

يوصلنا ادمون نعيم الى باب المكتب كاستاذ جامعي يشيع طلابه الذين جاؤوه يستفسرون يقول كلمات فيها ماء وطراوة ولها طابع شخصي، ويعود الى وراء مكتبه يقرأ ويدقق ويتأنى ويحرص على المال العام.



ادوار حنين

في بيته ، في القنيطرة المتفرعة عن الطريق الى بيت شباب ، استقبلنا ادوار حنين الذي يبدو تعب الزمن على وجهه وكلامه . الوجه سحب منه الماء واللون فدكن واوغل في لا لون هو خلاصة الجمع بين الرمادي والأصفر الباهت، فيما الاخاديد فعلت فعلها خطوطا في الطول واخرى في العرض وتسلقت الى الجبهة والجبين الجالسين تحت صلعة غزاها النمش.

اما كلامه البالغ الهدوء ، البالغ التفصيل، فيحمله صوت منخفض ذو وتيرة واحدة حتى اثارة الملل وتحريك النعاس.

وحين تختلط السنوات على صاحبها ـ «لا تسألني في السنوات»، يقول ـ تلوح الجلسة مع ادوار حنين استنطاقا لذاكرة غنية بات يوهنها التذكر. لكن انقلاب الازمنة والتباسها هو رازح آخر على تلك الذاكرة المجهدة المعذبة.

وحنين المتوسط الطول تثاقلت مشيته؛ واسكن العمر في وسطه سمنة وترهة لم يعهدا فيه حتى سنوات قليلة خلت. الشاربان الشهيران لا زالا هما نفسيهما لكن الاسود فيهما انحسر ليمتد الابيض والرمادي. والشعر الكثيف في الخلف على الطريقة التي اتبعها لاحقا الفنان الراحل حسن علاء الدين (شوشو)، لا يزال هو هو. ولانه اجعد وذو بياض ناصع نظيف بدا ذاك الشعر كقطعة من صوف خروف، شديدة البياض، علقها ادوار في مؤخرة رأسه.

التبشير الهادىء والاستلال المتكرر لسيجارة «ونستون لايتس» تتولاهما اصابع سمينة رقت في اطرافها وتروست، وزاد في تروسها ترك الاظافر من دون قص بما اظهر الايدي اقرب الى مخالب عجوزة لا تعوزها القدرة على الغرز والايلام.

وادوار حنين المتكلم لا يزال يحب الكلام ويسوده، وكلامه مرة عامي ومرة فصيح محبوك، الا انه مهما اوغل في الفصاحة لا بد ان يخرقها بكلمة «قرار» المتكررة، حيث يسكن القاف بعد ان يجعلها همزة، ليعود سريعا الى لسان العرب، اكثر ما يستهويه عندهم.

ادوار مثقفا وصحافيا

كان ادوار حنين احد ابرز المثقفين الموارنة ممن اضطلعوا بصوغ المواقف السياسية للطائفة والتعبير عنها. والراهن ان الاخيرة، وبسبب تقدمها الاقتصادي والتعليمي على سائر الطوائف اللبنانية كانت اكثرها اهتماما بالصياغة، وأشدها تسهيلا امام المثقفين ان يصلوا الى الحيز السياسي.

فهي الصاحبة الاصلية للمشروع اللبناني الذي قابلته الطوائف الاخرى باشباه مشاريع يغلب عليها سلب المشروع المذكور ومناهضته. ولانها صاحبة المشروع فهي صاحبة الصياغة توكل الى نمط من المثقفين ثنائي اللغة مشبع بالحس الذاتي الذي اتاحه انهيار كبار الملاكين الموارنة منذ اواسط القرن الماضي، على عكس اقرانهم في سائر الطوائف.

بهذا المعنى كان ادوار حنين وريثا للتيارات التي تضافرت لتشكيل المثقف الماروني وكان أمينا في التعبير عنها. انوف، بالغ التوكيد على الكرامة والاعتداد بالنفس، مؤمن ايمان الكثيرين من المثقفين الموارنة الذين اضطلعت الكنيسة وعلى ضفافها الارساليات، بتعليمهم، بعد ان انتزعت من كبار الملاكين دورهم الاجتماعي القائد، ومهتم بان يمسك بناصية اللغة العربية التي كان النهضويون الموارنة أول باعثيها في مواجهة حملة التتريك.

لكن لئن كانت هذه السمة الأخيرة تميز صنفا من المثقفين الموارنة عن صنف آخر أكثر مدينية وارفع كعبا في التراتب الاجتماعي بما جعل الفرنسية لغتهم الثقافية الأولى (شارل حلو، جورج نقاش)، فان سمات أخرى، ترسم الملامح الخاصة بالتشكل الثقافي لادوار حنين وبعض مماثليه.

ففي أغلب الظن كان لمنبته الاقتصادي الذي صنع ثراءه في وقت متأخر، ولوهن الصلة التي ربطت عائلته بعصب القرار السياسي والاقتصادي والثقافي في العاصمة، ان اكسباه نبرة احد من نبرة مجايليه واقرب منها الى اللون الشعبوي.

اذ بينما ذهب الاخرون في اتجاهات تسووية يتفاوت ابداع المعبرين عنها تفاوت درجات الصدق فيها، ذهب حنين في اتجاه التوكيد على الانقسام الاهلي بلغة اسوأ ما فيها ذلك الحسم الذي يشبه الانقسام الاهلي نفسه ويفضي الى ما يفضي اليه، واحسنها ذلك الميل الذي غاب عن الاخرين الى عرض مشكلات فعلية قائمة وعدم التعفف عن الخوض في تفاصيل المشكلة اللبنانية من دون تزويق وافتعال.

فالكاتب اللاحق لبيانات «الجبهة اللبنانية» كان ايضا يسوعيا، إلا ان يسوعيته لم تستطع تشذيب وعيه الاهلي وتدوير نتوءاته. من هنا كان اكثر ما رسخ في نفسه من تجربته اليسوعية تلك تأثره بشارل موراس مؤسس «العمل الفرنسي» وكاتب الصحيفة التي كان يصدرها وتحمل الاسم نفسه.

وموراس الذي سبق له ان الهب خيال بعض مجايلي ادوار حنين اللبنانيين ، احد ابرز عتاة الرجعية السياسية، في فرنسا. انشأ حركته في ١٨٩٨ داعيا الى دعم الملكية والكنيسة الكاثوليكية ومبشرا بعداء بالغ الحدة للسامية واليهود. وقد توسعت الحركة بعد اصدار الصحيفة اليومية في ١٩٠٨ التي باتت ذات شهرة لا تقل عن شهرة الام التي انبثقت عنها. وبرغم ان البابا بيوس الحادي عشر ادان في ١٩٢٦ «العمل الفرنسي» لانها في رأيه تناهض الايمان الكاثوليكي والاخلاقية الحقين، استمرت الحركة حتى اواخر الاربعينات، مؤيدة بعد سقوط فرنسا في ١٩٤٠ في ايدي الالمان، حكومة الفاشيين في فيشي.

وغني عن القول ان هذا النكوص الى الملكية الاوروبية هو شكل الوعي الكولونيالي الأصفى في استجابته لحاجة الحس الاقلي النضالي الى الحماية. فكلما اتجهت اوروبا الى البرلمانية

والتحديث ازدادت مصاعب تصوير العالم عالم اكثريات واقليات متناحرة تحتاج الواحدة منها الى الحماية من خطر الاخرى. وكلما، في المقابل، اوغلت اوروبا في ماضيها، اوغل الشرق في ماض لم يكن عقل ادوار حنين يتخيل اي خروج من ربقته.

يروي حنين قصته مع الصحافة والثقافة:

الصحافة لم امتهنها. مارستها برانيا. كان ميشال زكور عنده مجلة «المعرض» وكان وزيرا في الحكومة الائتلافية بين بشارة الخوري واميل اده، وكوزير للداخلية اراد تحديث الوزارة ففكر ان يأتي ببعض الخريجين قائمقامين ومحافظين. وقع اختياره علي بين من وقع، وطلبني من ابي كي أكون قائمقاما. قلت: لا اريد وظيفة. انا مستعد ان اساعدك في «المعرض». قال مستغربا: اعرض عليك قائمقامية وتقول لي «المعرض». قلت: لا اميل للوظيفة. انا محام واحب ان امارس الصحافة في المحاماة. ومنذ ذلك الحين بدأت بالصحافة.

وادوار الذي لا يتذكر السنوات، ويميل دائما الى الخلط بينها، اعادنا الى تعاقب الحكومات اللبنانية حيث وجدنا ان الحكومة المذكورة شكلت في ١٩٣٧ وتولى رئاستها خير الدين الاحدب، حليف اميل اده، فيما مثل بشارة الخوري بحبيب ابو شهلا واحمد الحسيني وميشال زكور الذي تسلم وزارة الداخلية اذاك.

نعود الى رواية ادوار حنين:

في الاربعينات عملت في «البشير» مع صلاح لبكي وفؤاد حداد (ابو الحن) ومن ثم في «الجريدة» مع رشدي المعلوف وجورج سكاف، ومؤخرا كانت «الفصول».

وحنين، الى ذلك، كان أحد محاضري «الندوة اللبنانية» منذ تأسيسها في ١٩٤٦، ومن على منبرها قال عبارته الشهيرة «كلما استقل لبنان اهتز وكلما كانت له حماية أجنبية اعتز» لأن الاستقلال في رأيه يأتي بعد الكيان والوجود، وهما يبقيان عرضة للخطر ان لم تصحبهما حماية، كما كانت الحال في عهد المتصرفية.

وحنين الذي كان من نجوم «جمعية اهل القلم» حتى اذا ما توفي صديق حياته صلاح لبكي تولى رئاستها من بعده، يقوم الى جانب اصداره «الفصول» بكتابة «حديث الاسبوع» لاكثر من صحيفة. نسأله عن كتابات اخرى:

منذ انتخابات ١٩٤٧ وانا اكتب يوميات تسجل ما يحصل معي. بلغت هذه اليوميات عشرين ملفا وكان المقصوداهتزتشكل في يوم ما مادة كتابة عن الديموقراطية. ذهبت كلها مع ما ذهب في بيتي بكفرشيما.

وماذا تقرأ هذه الايام؟

عايش ع المطالعة. اكثر شيء كتب تاريخية وكتب سيرة. انا من اكثر القارئين للسير.

والصحف؟

يستطرد حنين كأنه يتحدث عن أمس قريب جدا:

كل يوم اقرأ الصحف، ٤ جرايد «النهار» و«الأنوار» و«البيرق» ومؤخرا «الديار». قبلا كنت أرى الصحف الأجنبية. كنت مشتركاً عند انطوان...

كنت اقرأ اكثر شيء شارل موراس و«العمل الفرنسي». تأثرت فيه كثيرا. كثيرون من جيلي تأثروا فيه، لانه كان رجلا ملكيا يتابع ويلاحق الفكرة بعنف وقوة وذكاء. وكان اسلوبه يدغدغنا. كان رائعا. اليسوعية كان الكثير من جوها ملكيا. كذلك كنت اقرأ «لوموند» و«فيغارو» و«نوفيل ليتيرير».

ونسأل صاحب «شوقي على المسرح» الذي وضعه في الستينات، ما اذا كان يتابع النشاط الثقافي غير السياسي:

طبعا اقرأ كل ما اطالعه في الصحف والمجلات. اتابع قراءة ادباء وشعراء. ما بعتقد فيه نايب اخر بيتابع هيك شي.

لكن حنين حين يسمي ويضرب الامثلة يصفعنا على وجوهنا ببعضها:

يعجبني هنري زغيب. لا يخضع للتقاليد. مثل يوسف الخال. مثل مجلة «شعر» مع انني لست من انصار الثورة على الشعر العربي التقليدي. احب الشعر العربي تبعا لحبي للاوزان العربية. وعند ظهور ثورة الخال احببتها لكنني لم احب، للاسف، تهديم قيمة اثبتت جدواها. انا معجب بالمتنبي، بابن الرومي، بالبحتري، بابو تمام، ببشار. لا اريد يدا تمحوها. هذه الثورة فيها محو لاشياء احبها. الشعر كما مشى فيه الريحاني نثري. احببته. لكن لا احب ان يأخذ مكان الشعر التقليدي.

الى السياسة ومنها

انتقال المحامي ادوار حنين الى السياسة يبدأ بخدعة مارسها عليه صديقه الحميم صلاح لبكي. فقد جاءه الاخر الذي كان انتسب الى «الكتلة الوطنية» من دون ان يخطره، وقال له: طريقنا صارت مرسومة وبات من الواضح ان حياتنا ستكون في السياسة. تعال لنذهب الى اميل اده ونسمع منه ما يقول.

وتمضي رواية ادوار:

ذهبت انا وصلاح الى اده. عرفه علي. لاحظت اهتماما منه بي. كنت شايل من بالي مسائل الانتخابات ولم اكن حاسما حسما نهائيا في خياري السياسي. صلاح خاف ان اصدم حين اعرف بالعلاقة بينه وبين اميل اده، لكننا غادرنا مع اصرار من اده ان نطل عليه بين وقت وآخر.

هنا لا بد ان فترة طويلة انقضت وطوتها ذاكرة ادوار حنين التي تعود للتوقف عند ١٩٤٧ كمحطة ثانية:

ذات يوم وعند منتصف الليل جاء من يقرع باب بيتنا. كان يوسف زخيا مسؤول التشريفات عند اميل اده. قال الريس بدو ياك. قلت: بكرا. قال: لا. هلق عندو اجتماع. الاجتماع كان في بيت نهاد ارسلان. ذهبت الى هناك ولدى وصولي قال: حضر حالك انت مرشح الكتلة عن الساحل. لم اكن واعيا لكل هذا. قلت: انا لا اريد الانتخابات. قال: المصلحة العامة تقضي بذلك. وبالنسبة للفلوس انا اولادي٢، الان صاروا ٣. وخضنا تلك المعركة التي عرفت بالتزوير الشديد (يردها حنين خطأ الى سنة ١٩٤٨) وخسرت لائحة جبل لبنان كلها.

في ذاك العام (١٩٤٧) كان حنين نجم حادثة اخرى حصلت في «الندوة اللبنانية». هي تلاوة تلك المحاضرة التي سبقت الاشارة اليها. فميشال اسمر صاحب الندوة أراد بعد أشهر على تأسيسها ان يقيم سلسلة محاضرات تتحدث كل واحدة منها عن شخصية من الشخصيات التاريخية اللبنانية. وقال اسمر لادوار: انتق محاضرتك والشخصية التي ستتحدث عنها، فأجابه الأخير: انا سأتحدث عن اللبناني المجهول. قال: موافق. قلت: لكن تترك محاضرتي لآخر المحاضرات. وهكذا كان.

وفي هذه المحاضرة ابدى حنين رأيه الشهير بالاستقلال اللبناني الذي «يهتز» معه لبنان مقابل «الاعتزاز» بالحماية، وكان اميل اده بين الحضور كما كان انطون سعادة زعيم «الحزب السوري القومي» العائد لتوه من اميركا الجنوبية. وفيما جلس سعاده في احد صفي الندوة جلس في الصف الآخر نعمه ثابت ومأمون اياس القوميان السابقان اللذان طردهما «الزعيم» بعيد وصوله من المهجر لقولهما بـ«الواقع اللبناني» اثناء غيابه. وما ان انتهى حنين من القاء محاضرته حتى تقدم منه سعادة وقال:

الصفات الايجابية التي تنسبها الى اللبناني كلها صحيحة لكنها صفات الشعب السوري لا الشعب اللبناني.

على اية حال بقيت «الندوة اللبنانية» ميدان التعبير عن آراء ادوار حنين وافكاره في موازاة عمله الانتخابي الذي لم يكلل بالنجاح حتى ١٩٥٧. وفي ١٩٥١ القى هناك محاضرة مهمة تناولت نتائج الانتخابات التي جرت في العام نفسه. ويتبين من عودة الى المحاضرة المذكورة ان الكثير من افكار حنين ما لبث ان اعتمده كميل شمعون بعيد وصوله الى رئاسة الجمهورية في العام التالي، وخصوصا فكرة الدائرة الانتخابية المصغرة.

فقد طالب محامي كفرشيما يومها بـ«قانون يقر مبدأ الدائرة الصغيرة. لكل نائب تعرف اصله وفصله، ويعرف هو ابناءها عن قرب قريب، فينقطع دابر المهازل فلا يعود يجيء الى الندوة النيابية نائب ضيعة غيره يتعرف اليه ناخبوه بعد ان يوالوه وينتخبوه. ولا يعود يجيء في حقائب الاقطاعيين نواب عبيد لاصحاب الحقائب الاقطاعيين. ولا تعود مقاعد النيابة سلعا يشتريها

المريدون من رؤساء القوائم في مزايدات مخجلة معيبة».

ولم يتردد ادوار في الحاحه على الاصلاح الانتخابي ان يكرر بعض الحجج التي ارتبطت بالموقف التقليدي الماروني، بلغة عارية حادة تقارب الجلافة. فالمطلوب عنده ان «لا نعود نرى الناخب الامي في الجنوب يقترع (..) لاربعة عشر مرشحا بصوته الامي الواحد، والناخب الكسرواني يقترع (..) لخمسة مرشحين بصوته الذي هو صوت الاصالة والمعرفة والطب والهندسة والمحاماة».

في ١٩٥٧ وصل ادوار حنين الى البرلمان على لائحة «الكتلة الوطنية» المتحالفة يومها مع الرئيس شمعون، وكان رفاقه بشير الاعور ومحمود عمار وايليا ابو جوده. وقد اعتبر وصوله يومذاك دما جديدا يبث في اوصال الزعامة المارونية في المتن الجنوبي التي مكثت طويلا في عهدة الدستوريين كوديع نعيم والياس الخوري وخاصة خليل أبو جودة، فضلا عن الكتلوي بيار اده الذي حل ابن كفرشيما محله.

... وبرغم ان حنين نجح في الوصول الى البرلمان في ١٩٦٠ و ١٩٦٤ و١٩٦٨ و١٩٧٢، فان المقترعين غير الموارنة لم يتزحزح تحفظ اغلبيتهم حياله.

فالجمهور الشيعي، مثلا، الذي احب وديع نعيم ومن بعده نجليه ادمون ونديم، كما احب الياس الخوري ومن بعده بيار دكاش، احجم عن تأييد حنين الموصوف بالتطرف والتعصب، من دون ان يخفف في غلواء الحدة وقوفه في انتخابات ١٩٧٢ في وجه لائحة التحالف الشمعوني - الكتائبي.

عناوين سيرة

ولد ادوار حنين في كفرشيما في ١٩١٣، ودرس في مدرسة الخوري سليمان متى في البلدة نفسها، لينتقل منها بعد اقفالها الى مدرسة الخوري انطوان طويل، خوري تحويطة الغدير وهي مؤلفة من ثلاث غرف ويدرس فيها ثلاثة اساتذة يشرف طويل على عملهم.

في ١٩٢٥ دخل الى المدارس اليسوعية تلميذا داخليا، ومنها تخرج وانتسب الى الجامعة اليسوعية حيث نال اجازة المحاماة في ١٩٣٤.

وفي كلمة كتبها حنين مؤخرا عن تلك المرحلة وبعيدها، توقف عند شخصين يذكرهما يومذاك: «فؤاد افرام البستاني على صعيد التحيل العلمي. وبيار الجميل على صعيد الفتوة والالعاب. ففؤاد البستاني كان يحتكر جوائز صفه، في الفرنسية وفي العربية. وبيار الجميل كان المقدم في جميع الالعاب الرياضية، وبخاصة «الفوتبول» و«الاشاس» و«البيسيكلات».

صبيا، لا ازال اذكر بيار الجميل محكما في الجرس الذي على قرعه كنا نصحو وننام، ندخل الى المدرسة ونخرج، ندعى الى غرفة الطعام ونغادرها، نتهافت على الكنيسة ونطلع منها، ثم ننتشر

في الملاعب ونلتم. واذكر فتى، مهارة بيار الجميل في التلاعب بطاولة الفوتبول وكرة الاشاس الخشبية، في دولابي البيسكيلات. وشابا، ما زلت اذكر بيار الجميل، الحكم البارع في لعبة الفوتبول. ويوم اصبحت طالبا في مدرسة الحقوق، وبعد ان تخرجت منها، كنت اراه، كل يوم، على مدى سنوات طويلة: هو على كرسيه العالي في صيدلية، وانا، قبالة الصيدلية عند تمثال الشهداء للحويك، انتظر سيارة اجد فيها مكانا لتقلني الى بيتي، في كفرشيما. وبقيت على هذه الحال الى ان اخذت تجمع بيننا الاهتمامات التي كان ينصرف اليها بيار الجميل، ويدعو لمشاركته فيها من يعرف من الشباب، او الشباب الذين كان يعرفهم من يعرف. الى ان كنت، ذات يوم، في مكتب الاستاذ فؤاد افرام البستاني (الذي كان يشرف على تنشئتي في اللغة العربية) فدخل عليه الامير عبد العزيز شهاب يرافقه شاب، وسألا البستاني: ما هي افضل كلمة في العربية تنطبق على كلمة «فلانج» الفرنسية، فأخذ البستاني يدفق على السائلين سيلا من المفردات، ثم ادار وجهه ناحية مكتبته، وانتزع منها كتاب «الالفاظ الكتابية» وراح يقرأ حتى استقر الرأي على كلمة «كتائب» التي اعتمدت اسما للحركة التي كان بيار الجميل يلاحق انتشارها».

بعد سنة من تدرجه في مكتب كميل شمعون انتقل ادوار حنين الى مكتب فؤاد خوري، النقيب لاحقا، حيث بقي سنتين فتح بعدهما مكتبا خاصا به في شارع أللنبي، ليقترن في ١٩٤٦ بفتاة مارونية «بورجوازية» بحسب وصفه لعائلتها، من آل الزغبي في قرنة شهوان، وهي العائلة التي برز منها احد المطارنة. ومن زواجه انجب ادوار اربعة ابناء هم ميراي التي انجزت دراسة الحقوق في السوربون وتعمل في باريس في مؤسسة تابعة للأونيسكو، وجهاد الذي يزاول التجارة، وليليان التي تتولى ادارة «هيلب ليبانون» بعد اقترانها بالدكتور ارمان تيان ابن احدى العائلات المارونية الاقدم في بيروت وفيها ظهر البطريرك يوسف تيان، وصلاح الذي اسماه والده في اغلب الظن تيمنا بصديقه صلاح لبكي، ويعمل صلاح في باريس بعد ان نال شهادة دكتوراه في الحقوق البحرية من بريطانيا.

والد ادوار، ابراهيم حنين، كان مالك طاحون ماء ادخل عليه الموتور فتحسن دخله وبات ملاكا. وهو لئن كان على صداقة شخصية مع نمر بو شمعون، والد كميل الذي اقام في الحدث، فانه لم يعرف بأي تعاطف سياسي ملحوظ. وفي هذا لم يشذ ابراهيم عن سائر افراد العائلة الصغيرة التي يعود اصلها الى برج البراجنة، وان تفرعت واقامت في حارة حريك وبعبدا والمريجة ودير القمر، مقبلة بكثافة على الهجرة الى الخارج.

ومثل عائلة حنين عائلة متّى، ومنها والدة ادوار، التي اقبلت بدورها على الهجرة، فالاخيرة، وهي ايضا من برج البراجنة، كانت قبل سنوات تفوق بقليل عدد آل حنين الا ان الاعوام الاخيرة عدلت في التوازن بسبب اقبال عائلة الاب على التناسل.

نسأل ادوار حنين كيف يحدد وضعه الاقتصادي:

الحمد لله انا ابن رجل كان خلق لعائلته مكانة اقتصادية محترمة جدا. كانت عنده املاك عقارية في برج البراجنة والدامور وسبنيه وكفرشيما. هذا ورثناه ولولاه لوصلنا الى المجاعة. لم نبع منها لكننا نستطيع بوهجها ان نتحرك. ثم كان مدخولي من مكتب المحاماة كافيا لان اعيش براحة، وجاء مدخول المجلس الذي اصبح ١٥٠ الف ليرة بعد ان كان يوم دخولي اليه للمرة الأولى في ١٩٥٧ حوالي ٥٠٠ ليرة.

بيت ادوار حنين المتواضع وطريقة عيشه وعودته المتكررة في حديثه الى المشاكل المعيشية توحي ان الرجل منظم ايحاءها انه قلق من هذه الزاوية؛ حيث يكثر الاشارة الى «المجاعة» بالحاح يقارب الهوس.

ننتقل معه الى مسائل اخرى:

نسأله عن معرفته بسائر انحاء لبنان.

انا يمكن بين رجال الانتخابات من القلائل الذين زاروا كل لبنان.

والعالم العربي؟.

بصورة غير مميزة.

هل صدف ان عشت في احد البلدان العربية؟.

لا بنبرة تكاد ان تكون احتجاجا: لم اعش. عندما عملت نائبا لم أكن اعرف الا دمشق. لاحقا زرت بلدانا عربية اخرى.

هل ثمة من لعب دور المثال في حياتك السياسية؟.

كنت افكر في البداية انني اذا ما عملت في السياسة فهناك اشخاص احب ان اكون مثلهم لانني احترمهم. من هؤلاء الذين اشتهروا بالنظافة برغم كونهم من الخصوم السياسيين، اي دستوريين، ميشال زكور وفؤاد خوري. اخوة زكور ساعدوه كي يحتفظ بنقائه. كانوا اغنياء في كولومبيا. ارسلوا له مطبعة «المعرض» وساعدوه مالياً.

بين العميد والرؤساء

اما وان الاستقلال اصبح امرا واقعا، فادوار حنين كان احد ابرز المتمسكين بمبدأ لم يخل في اصراره عليه. ومفاد هذا المبدأ ان «الضمانة» انتقلت الى الشرعية الرئاسية بما يوجب دعمها ومحضها التأييد والثقة كليهما.

واذا ما أضيف دوره البرلماني وموقعه في حزب «الكتلة الوطنية» امكن فهم الواقع الذي جعل حنين مرشح حزبه لدخول الحكومات التي لا تكون حكومات «اقطاب»، او لا يشترك فيها «العميد» ريمون اده لهذا السبب او ذاك. مؤديا بحنين، من ثم، لان يكون الكتلوي الحليف

للرؤساء، والعامل على تخفيف معارضة اده لهم حين يعارضهم.

فحنين وجد من يتهمه بأنه القطب المعادل للعميد داخل حزبه، وانه لم يكف في لحظات اتساع المسافة بينهما عن الايعاز لمحازبيه الكتلويين بأن الحزب «ليس مزرعة» لآل اده. يحدوه الى ذلك اعتداد بالنفس ليس العنصر الثقافي بعيدا عن تشكيله.

صحيح ان ادوار حنين التزم بقرار اميل اده الذي حرم التحدث الى بشارة الخوري طارداً صلاح لبكي لانه زاره، وكسروان وكلوفيس الخازن لانهما تحدثا اليه. لكن الصحيح ايضا ان ما ينطبق على اميل لا ينطبق على ريمون الذي ولد، هو وادوار، في عام واحد، وكان الوريث لا المؤسس، من دون ان تكون معارضات ريمون المتكررة عديمة الاثر على صلة ادوار بالرؤساء والوزارات.

على اية حال فقد وزر حنين للمرة الأولى في حكومة الرئيس الراحل رشيد كرامي في ٣١ تشرين الأول ١٩٦١ فتولى الشؤون الاجتماعية والعمل، لكن النزاع بين اده والرئيس الراحل فؤاد شهاب، حمله على تقديم استقالته في ٣ تشرين الثاني بعد ان استحال عليه التوفيق بين الوزارة والكتلة.

وفي الحكومة السياسية الأولى لعهد الرئيس شارل حلو، وهي الثانية التي شكلها الرئيس الراحل الحاج حسين العويني في ذاك العهد، تولى حنين الوزارة نفسها التي سمي لها قبل ثلاث سنوات، فاعتبر توزيره في السنة الأولى للعهد المذكور بداية محاولة خجولة يبدأها حلو للتخلص من الشهابية من دون تحديها. وحنين هو الأدي النموذجي الذي لا يفهم من توزيره اي تحد لشهاب. فالرجل بين ثوابته تغليب الوحدة مع الرئيس الماروني على الانقسامات السياسية داخل اتجاهات الموارنة.

وفي نيسان ١٩٦٦ تسلم حنين وزارتي التصميم العام والسياحة في حكومة الرئيس الراحل عبد الله اليافي، ليتسلم في الحكومة الاخرى التي شكلها اليافي في شباط ١٩٦٨ وزارتي الاقتصاد الوطني والعمل والشؤون الاجتماعية. وكانت هذه الحكومة هي تلك التي اشرفت على انتخابات ١٩٦٨ الشهيرة لجهة نجاحات «الحلف الثلاثي» في الجبل.

وفي عهد الرئيس سليمان فرنجية انيطت بنائب المتن الجنوبي حقيبة التربية الوطنية والفنون الجميلة في الحكومة الثانية التي شكلها الرئيس صائب سلام خلال العهد المذكور، لكنه استقال منها في ٩ آب ١٩٧٢ ليحل محله المهندس هنري اده.

نسأل الامين العام السابق لـ«الجبهة اللبنانية» عن صداقتين عرف بهما وكان لهما تأثير ملحوظ على مساره: ريمون اده وسليمان فرنجية.

الصداقة مع سليمان فرنجية سببها صلاح لبكي الذي كان كمحام يعمل في مكتب واحد

مع حميد فرنجية. ومن خلال زياراتي لصلاح ومعرفتي بحميد نشأت صلتي بسليمان. لعب طاولة ولعب بوكر. اقل بكثير من العلاقة ببيت اده. بعد رئاسته دخلت امور كتابية وثقافية اقوم بها

يمضي السرد المقارن: مع ريمون اصبحت امين السر العام للكتلة الوطنية...

الى أي حد يشبه ريمون اباه حقاً؟

الشبه هو فقط في الامور السطحية، في ردة الفعل على الاشياء التي تصلهما. في المزاجية. ما خلا ذلك فالفرق كبير.

هناك روايتان عن تركك «الكتلة الوطنية» في ١٩٧٦ واحدة تقول بتخليك واخرى تقول بطردك...

يصفن ادوار صفنة طويلة. يحدثنا عن ضرورة التدقيق في الكلام لان الكلام يمكن ان يحمل على اكثر من معنى ووجه. يتمنى لو نعرض عليه ما سننشره قبل النشر حرصا على الدقة، وهذا ما لم نفعله طبعاً برغم ان سنه وشيخوخته الجليلة حملتانا على ان نقول كلاما مبهما قد يفهم منه التعهد.

يمضي في قص روايته:

عند بدء الحوادث في ١٩٧٥ كنت في الكتلة من انصار المقاومة. وجهة نظر ريمون كانت اننا حزب سياسي لا يحمل سلاحا. قلت انني لا اريد حمل السلاح ولكن علينا الدفاع عن النفس. اذا كان من يهاجمك مسلحاً فكيف تدافع وبماذا؟ ثم ان مسألة الدفاع عن الحزب كانت مسألة ضاغطة. في كفرشيما عشت مرحلة دقيقة. الكتائب حملوا سلاحا وبعدهم« الاحرار». الذين لم يحملوا سلاحا صاروا بلا قيمة. اردت اعطاء سلاح للكتلوين لرفع معنوياتهم في مواجهة الآخرين الذين بدأوا يهزأون بهم ويمتهنون حقوقهم. مثلا: انقطعت الكهرباء او حصلت مشكلة مشابهة في المنطقة. العلاج ياتي عن طريق اجتماع ممثلي الكتائب و« الاحرار» ووجهاء الضيعة باستثناء الكتلوين. الدستوري والكتلوي كانا اقوى حزبين في كفرشيما واصبحا اهزل حزبين. ريمون ظل على رايه وهو ان السلاح يعني اننا صرنا منظمة عسكرية. وجهت رسالة له قلت فيها انني لا استطيع البقاء في الكتلة على الاسس الجديدة. ثم جاءت قصة الجبهة التي اسميت بـ« جبهة الكفور» ولعبت انا العنصر الاول في انشائها.

يصمت ادوار ويصفن. نسأله عن الجبهة التي باتت في ما بعد « الجبهة اللبنانية»، يروي:

ـ كنت قد انتقلت الى سيدة الحلقة وهي على تلة مقابلة للكفور التي انتقل اليها الرئيس فرنجية. وكنت اكثر الناس ترددا عليه، وفي احدى زياراتي له جاء المبعوث الاميركي دين براون. كنا جالسين فرنجية وانا وكارلوس خوري ولوسيان دحداح ودخل براون. خرج

كارلوس ولوسيان وهممت انا بالخروج فقال لي الرئيس : ابق . وفي خلال الحديث سأله براون : كم يستطيع الشعب اللبناني ان يصمد في هذه المقاومة ؟

وحينها ترجم المترجم كلامه الانكليزي قلت لفرنجية : قل له طالما هناك لبناني حي ستبقى المقاومة . اجابه فرنجية هكذا . وحينها خرج براون سألني سليمان : لماذا تشديدهم على هذه النقطة ؟ قلت : انت يجب ان تعرف لانك سبق وقابلت كيسنجر في رياق . والظاهر ان براون هو تلميذ كيسنجر ورأيه ان يتم نقل المسيحيين اللبنانيين الى كندا او اوستراليا وبهذا تحل المشكلة ويتم توطين الفلسطينيين وترتاح اسرائيل .

قال سليمان : اذن المسألة مهمة . قلت : طبعا . يا فخامة الرئيس القضية صارت كبيرة . وانت لا يجوز ان تاخذ هذه المسؤولية كلها على عاتقك وحدك . تعال نشكل جبهة من الذين يمرون علينا هنا تتداول في الرأي وتتناقش في ما يستجد ، وطالما انه ليست لديك حكومة فعلية ففي وسع هذه الجبهة ان تتحول الى هيئة مستشارين .

وسأل سليمان : ممن تتشكل هذه الهيئة ؟ قلت : من الذين يمرون علينا هنا ويزورونك وهم وزنهم كالرئيس شمعون والشيخ بيار الجميل وشارل مالك وجواد بولس وفؤاد افرام البستاني والاباتي شربل قسيس ، خصوصا وان مستودعات الاسلحة كانت في اديرته .

وسأل سليمان : ومتى تجمعهم ؟ قلت : غداً . وفعلا تكفل ادوار حنين بجمعهم وكانت . . . « جبهة الكفور» .

وتمضي الرواية : فيما كانت الجبهة توالي اجتماعاتها ظهر رأي يقول بارسال مندوبين للرئيس الاسد ، ووقع الاختيار علي وعلى لوسيان دحداح الذي لم يكن يحضر اجتماعاتنا .

قلت : أنا لا أستطيع . انا مرتبط بـ« الكتلة الوطنية» وريمون لا يتوقف عن التشهير بسوريا ودورها في تقسيم لبنان ومطامعها الاحتلالية . عندها قال سليمان : اذن يطلع لوسيان شرط ان يجلب لنا اجابات عن ١١ سؤالا . وفعلا طلع لوسيان وحده الى دمشق . وفي غضون ذلك قال ريمون : لان ادوار ذهب الى دمشق وفاوض المحتل ، وهو ما لم أفعله، علقت له عضويته في الحزب . قرأت ذلك في الصحف ، وكتبت الى ريمون : انا الذي كنت انوي تعليق عضويتك انما بعد انتخابات الرئاسة .

وادوار حنين الذي يحترم ماضيه لا يزال شديد التباهي بالاقتراحات النيابية التي قدمتها الكتلة وكان مشاركا فيها بصورة او اخرى . يعد منها اقتراحات سرية المصارف والبناء الفخم وتنظيم اقامة الاجانب في لبنان واعفاء المواطنين من الضريبة الزراعية .

وحين اشتدت الخلافات بين الاطراف السياسية في المناطق الشرقية ، احتكم ادوار الى نظريته القديمة الثابتة ووقف الى جانب رئيس الجمهورية ، خصوصا وان الجيل الجديد لم يرقه كثيرا

فيما التوسيع العددي لـ « الجبهة اللبنانية» التي كان احد ابرز صانيعها ، اضحى من قبيل الحاق الشلل بفعاليات الجبهة .

وهكذا وفي ٨ تشرين الاول ١٩٨٧ اعلن استقالته منها ، مقدما اياها « الى الشعب» ، واصفاً نفسه انه بات « طائرا يغرد في غير سربه» بعد رحيل كبار الجبهة ورعيلها الاول ، من دون ان ينسى التوكيد على ان« انقاذ لبنان يتم بالتعاون المطلق مع الشرعية» .

ولم يفت ميشال ابو جوده يومها ان يلمح الى سبب آخر ربما كان وراء الاستقالة ، هو ان رحيل الكبار لم يعبد امامه طريق رئاسة الجبهة ، فـ« الدكتور جعجع لم يتقدم ، بعد غياب الرئيس شمعون ، ليقترح انتخاب الامين العام للجبهة ادوار حنين رئيسا عليها ، وهو اضافة الى انه نائب ، اكبر الاعضاء سنا واكثرهم اهلية ، فضلا عن انه كان ، مع الرئيس شمعون ، من المؤسسين والمنظرين الكبار ، وواضع البيانات والمذكرات الاساسية والتاريخية للجبهة . وهو مرشح طبيعي للرئاسة ، وربما كانت هذه هي المشكلة الاساسية مع الدكتور جعجع» .

اما السبب المحتمل الآخر فمؤداه ان هذا الماروني اللبناني الاهلي لم يجد كبير نسب يربطه بالمسيحية« المشرقية» التي تضخم ممثلوها الاشوريون والكلدان والاقباط في « الجبهة اللبنانية» ، وتقول رسالة استقالته ان «الأكثرية الديموقراطية الجبهوية باتت بعد توسيع الجبهة لا تمثل الاكثرية الشعبية الصحيحة التي تعيش على ارض لبنان وخارج ارضه في انحاء العالم المختلفة ، وكانت المقررات التي تصدر عن هذه الاكثرية لا تعبر « بدقة» عن الارادة اللبنانية» .

الى ذلك ايد حنين ترشيح داني شمعون للرئاسة وهو نجل رئيس جمهورية ، فيما شاب التحفظ موقف « القوات اللبنانية» من ترشيحه ، ولم يحجم عن زيارة الرئيس حسين الحسيني فيما القوات تخوض احدى اشرس معاركها السياسية ضد تجديد انتخابه . وفي اواخر آذار الماضي ادلى حنين بدلوه في السجال الرئاسي ومتشعباته قائلا ان رئاسة الجمهورية حق للموارنة لان التوازن يذهب في ذهابها . ممتدحا ترشيح الوزير وليد جنبلاط لماروني هو انطوان الاشقر .

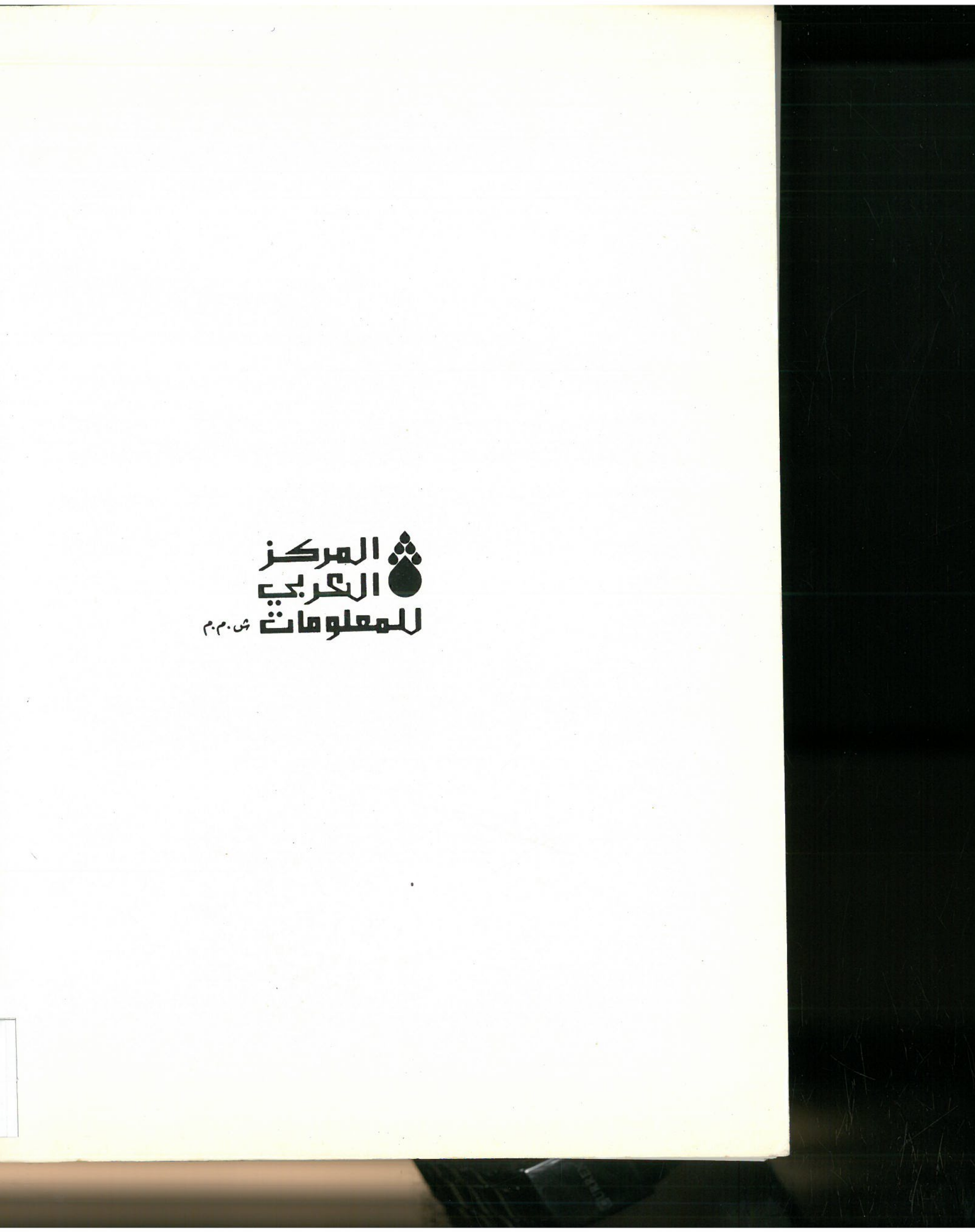
ويعود ادوار الى ريمون اده . فهناك التتمة التي لا تكتمل قصة الحياة من دونها ، ولا يتم لها المعنى .

ـ بعد خلافنا اتصل بي ريمون هاتفيا من باريس، وقلت له انني لا استطيع ان اسير على هذا النحو ، وعليه ان يحسم امره .

ويصفن ادوار صفنة اخرى طويلة : ريمون . . . ريمون !! ويروي كانه يتداعى : ـ مؤخرا جاءني وسيط منه يعمل لحملته الانتخابية . قلت له : شوف غيري ، اذا كان ريمون مرشحا ،فادوار حنين لا ينتخب الا ريمون ، الذي يجمعنا كثير جداً برغم كل شيء . . .



فهرست


المركز
العربي
للمعلومات ش.م.م